دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

نيتوتشكا نزفانوفنا

الليالي البيضاء . بروخارتشين

جارة . المهرج

الشريف . البطل الصغير

ـة في تسع رسائل

عيد الميلاد والزواج

زوجـ... ـخر، وزوج تحت السرير

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الثاني

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- نيتوتشكا نزفانوفا
- الليالي البيضاء
- بروخارتشين
- الجارة
- المهرج
- السارق الشريف
- البطل الصغير
- قصة في تسع رسائل
- شجرة عيد الميلاد والزواج
- زوجة آخر .. وزوج تحت السرير

تقديم

يضم هذا المجلد الثاني من « أعمال دوستويفسكي الأدبية » رواية واحدة هي « نيتوتشكا نزفانوفا » ، وقصصا تسعا تتفاوت طولا وقيمة ٠

نيتوتشكا نزفانوفا

١٨٤٩

هذه الرواية التي كتبها دوستويفسكي في عامي ١٨٤٧ و ١٨٤٩ ، كان مقدرا لها أن تكون رواية كبيرة تشتمل على ستة أجزاء ، غير أن مانشر منها لا يضم الا ثلاثة أجزاء جعل لها دوستويفسكي العناوين الفرعية التالية : « طفولة » ، « حياة جديدة » ، « السر » ٠ ذلك أن اعتقال دوستويفسكي في الثالث والعشرين من شهر نيسان (ابريل) ١٨٤٩ قد قطع عليه عمله فلم ينجز كتابة روايته ، ثم لم يعد الى هذا العمل من أعمال شبابه بعد ذلك أبدا ٠ وحين أعدها لطبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، حذف العناوين الفرعية ، وحذف فصلا من الجزء الثاني هو فصل تلتقي فيه نيتوتشكا ، في بيت الأمير ، بصبي يتيم صغير اسمه لاريا كان الأمير قد ضمه اليه من باب الرأفة والبر والاحسان ٠ ان مصير هذا الصبي البائس

الذى مات أبواه فى أسبوع ، يشبه مصير نيتوتشكا ، ولكن فكرة غريبة كانت تحاصر ذهنه وتستبد بعقله ، وهى أن أبويه قد ماتا حزنا وكمدا لأنه لم يكن يحبهما • ولعل هذا اليتيم كان سيعود الى الظهور فى نهاية الرواية على نحو ما تصورها دوستويفسكى قبل أن يعتقل فينقطع عن اتمامها ، فلما لم يتم الرواية عمد الى حذف هذا الفصل أصلا فى طبعة عام ١٨٦٠ •

تتألف رواية « نيتوتشكا نزفانوفا » ، فى صورتها الحالية ، من ثلاث قصص فى الواقع ، لا تكاد تجمع بينها أو لا تجمع بينها فعلا الا شخصية البنت التى تروى ذكرياتها فيها • فأما القصة الأولى فهى قصة الموسيقى ، يافيموف ، وأما الثانية فهى قصة حياة الفتاة فى منزل الأمير وصداقتها مع ابنته كاتيا ، وأما الثالثة فهى قصة السر فى حياة الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهذه القصة الثالثة لم تكتمل •

يقول ألكسندر سولوفييف : « ان قصة يافيموف ، العازف على الكمان ، تذكر بشخصية كرايزلر ، البطل الذى وصفه هوفمان تجسيدا للصورة الرومانسية عن الموسيقى المجنون الذى تسحره آلة شيطانية ؛ ولا شك أن شخصية باجانينى الشهيرة قد ساهمت مساهمة كبيرة فى رواج هذه الصورة ، وأغلب الظن ، عدا ذلك ، أن دوستويفسكى قد قرأ قصة بالزاك التى عنوانها « جامبارا » وفيها يصور بالزاك موسيقيا شبه مجنون يحاول أن يخلق موسيقى جديدة ، فيطوف أوروبا كلها فى صحبة زوجته الوفية ، ويظل الناس لا يفهمونه ، ثم تشتد عليه وطأة الفقر فيهوى الى الجنون » • فكأن سولوفييف يريد أن يقول ان دوستويفسكى قد تأثر ، فى كتابة هذه الرواية ، بقصة هوفمان أو قصة بالزاك ؟ • ولكن أيكفى أن يكون يافيموف والبطلان اللذان وصفهما هوفمان وبلزاك موسيقيين أشباه مجانين حتى نزعم أن دوستويفسكى قد تأثر بهذين الكاتبين ؟ الحق ان يافيموف كان يمكن أن لا يكون موسيقيا ، ثم هو يبقى يافيموف نفسه بوجهه النفسى الخاص : بعذابه وتناقضاته ، بطموحه وشراسته ، بغروره وصلفه ، بزهوه وعجزه ، بادمانه على الخمرة وعزوفه عن العمل تكبرا وكسلا ، وبالقائه تبعة اخفاقه على غيره ، بحبه تعذيب الآخرين وتعذيب نفسه فى آن واحد ، مع وجود بعض بذور الخير فى قرارة ذاته ••• انه ، سواء أكان موسيقيا أم غير موسيقى ، هو الانسان الذى تمزقه المسافة الكبيرة بين ما يطمح اليه وما يقدر عليه ،

الانسان الذى يضنيه الشعور بالمقدرة والعجز مجتمعين ، ويعانى من عقدة النقص وعقدة التفوق فى آن واحد ، ثم لا يعرف كيف يحل التناقض أخيرا الا بالهروب .. بالهروب الى الادمان على الخمرة يغرق فيها أحزانه ، والى القسوة يبرهن بها على قيمته ، ثم الى اليأس فالموت خاتمة للمطاف ونهاية للعذاب .. الأحداث فى قصة يافيموف بسيطة ، ولكن الأغوار النفسية التى يهبط اليها دوستويفسكى فيها عميقة غاية العمق . البطل موسيقى يعزف على الكلارنيت فى أوركسترا خاصة يملكها سرى من سراة القوم ، ويلتقى يافيموف بايطالى عجيب يورثه قبل موته كمانا شيطانية . وبطفرة ليس لها تعليل ظاهر ، يصبح العازف على الكلارنيت عازفا على الكمان من الطراز الأول ، ولكنه يصبح فى الوقت نفسه متكبرا سىء الطبع خبيث النفس وقحا سليط اللسان ، وما يلبث أن يهجر مولاه الذى أحسن اليه وأنعم عليه قائلا له اننى لم أعد أطيق الحيـاة عندك ، فان الشيطان قد سحرنى ، ولسوف أحـرق بيتك اذا أنا مكثت فيه .. وتستبد بالرجل قوة الزهو بنفسه والغيرة من غيره . وها هو ذا يبدد كل المال الذى نفحه اياه مولاه الطيب ، وها هو ذا يفقد جميع الوظائف التى يعين لها بعد ذلك ، وها هو ذا ينقطع عن العمل آخر الأمر انقطاعا تاما ، ويدمن على الشراب ادمانا يقضى على البقية الباقية من عافية روحه وجسمه . وتظل أحلام المجد تسكن رأسه رغم ذلك ، بل هى تزداد من ذلك قوة وعنفا . ويتزوج يافيموف ارملة شابة تحمل اليه بائنة صغيرة ، فما يلبث أن يتلف المال . وتصبح الزوجة الشابة كبش الفداء للموسيقى التعيس ، فهو لا ينفك يلقى عليها تبعة ما يلقاه من اخفاق ، فلـولاها لازدهرت عبقريته ، وذاع صيته ، وعرف نبوغه . والزوجة امرأة « حالمة كثيرة الحماسة » جمة النشاط مهدمة الروح من قسوة القدر ، وهى الى ذلك مصابة بالسل الذى سوف يقضى عليها .

نحن هنا أمام حالة من الحالات التى يمكن أن يتخذها عالم النفس أدلر مثالا على عقدة النقص كيف تفعل بصاحبها . هاهنا يسبق حدس دوستويفسكى دراسات آدلر سبعين عاما أو يزيد . ولكن دوستويفسكى لا يسبق آدلر فحسب ، بل يسبق فرويد أيضا . ولا عجب أن عده فرويد نفسه رائد التحليل النفسى قبله . وهو انما يسبق فرويد حين يصف لنا البنية نيتوتشـكا ، راوية هـذه الذكريات . والحق أن

دوستويفسكي لا يسبق فرويد وآدلر كليهما في هذه الرواية ، بل هو يصالح بينهما أيضا · ان من شأن النظرة العلمية أن تنظر الى الواقع من خارج ، فترى جانبا منه تضع له القوانين ، ولا كذلك الحدس الفنى والأدبى ، فانه يعايش الواقع من داخل ، ويراه لذلك دفعة واحدة بكل الحياة التى تنبض فيه ، الحياة الدافقة التى لا يمكن حصرها فى اطار قانون عام شامل يصدق على جميع الأفراد · ان الحدس الأدبى يرى الواقع كله جملة واحدة ، متداخلا متناغما متشابكا ، متعدد الجوانب على انسجام ، متكثر الوجوه على وحدة هى وحدة الحياة النفسية التى تترقرق فيه ·

قلنا ان دوستويفسكي يسبق فرويد حين يصف لنا هذه البنية نيتوتشكا ، راوية ذكرياتها ·· ان نيتوتشكا تحب أباها (زوج أمها) وتكره أمها ·· « شعرت نحوه بحب لا حدود له ، حب ليس فيه شيء من طفولة » · هذه عقدة أوديب ·· تكاد وأنت تقرأ قصة نيتوتشكا أن تتساءل : ماذا بقى لفرويد أن يقوله ؟ ولكن عقدة أوديب ليست تنفصل فى رواية دوستويفسكي عن مجرى التاريخ الغنى الحافل الذى تعيشه الصبية · هى تحب أباها وتبغض أمها ، كما قد يقول لنا فرويد · ولكنها تحمل عقدة النقص فى الوقت نفسه ، يجرحها التناقض بين فقر المسكن الذى تقيم فيه مع أبويها وبين المنزل الغنى ذى الستائر الحمر الذى يقابل هذا المنزل ، وتصدق أباها حين يزعم لها أن أمها هى السبب فيما هم فيه من ضعة الشأن وسوء الحال وادقاع الفقر وخمول الذكر ·· فيزداد كرهها لأمها ، حتى لتسرق مال أمها التى تدخره الأم لاقامة الأود وسد الرمق ، وتعطيه أباها يشترى به تذكرة حضور حفلة موسيقية يحييها موسيقى مشهور من العازفين على الكمان · وكان حضور هذه الحفلة هو الضربة القاضية على يافيموف ، فقد اكتشف يومئذ ماهى الموهبة الحقة ! عاد من الحفلة مهدم النفس ، فوجد امرأته ميتة · وتناول كمانه وأخذ يعزف ، ولكن الموسيقى التى تخرج من الكمان لا تزيد على أن تكون آهات ونحيبا وعذابا وقلقا وحسرات · ويوافيه الجنون ، فيترك البيت مع البنية الصغيرة يطوف فى الشوارع المغطاة بالثلج ، ويظل يطوف الى أن تنهار قواه ، ثم يموت فى أحد المستشفيات · لقد قتله أن اكتشف الموهبة الصادقة ، وأن اكتشف أن أحلامه باطل كقبض

الريح • كذلك يسبق الحدس الأدبي عند دوستويفسكي نظرية فرويد ونظرية آدلر ، بل ويصالح بين النظريتين في ادراك للحياة من الداخل •

ويصالح دوستويفسكي بين فرويد وآدلر في الجزء الثاني من الرواية حين ينقل نيتوتشكا الى بيت أمير يضمها اليه رحمة وشفقة • فهنالك تتعرف الصبية بابنة الأمير •• وتنشأ بين الفتاتين عاطفة هي حب الفرد فردا من جنسه ، هي الحب المثلي الذي يحدثنا عنه فرويد : قبلات وعناق ونجوى ومسارات •• وتنشأ بينهما في الوقت نفسه صلات تصلح تجسيدا لنظرية آدلر في « عقدة النقص » أو « مركب الدونية » •

وتشعر الأميرة زوجة الأمير بما قد يكون للصبية اليتيمة العجيبة من تأثير سيىء على ابنتها ، فسرعان ماتفترق الحبيبتان : ترسل كاتيا بنت الأمير الى موسكو ، ويعهد بنيتوتشكا الى سيدة تمت الى الأمير بقربى هي الكسندرين ميخائيلوفنا • وهكذا ينتهي الجزء الثاني من الرواية على حين بغتة •

ويبدأ الجزء الثالث • انه « قصة جديدة » • ان السيدة التي تحسن الى الصبية اليتيمة فتضمها اليها ، تحب هذه الصبية حبا صادقا ، فتبادلها الصبية الحب • ولكن نيتوتشكا تشعر بوجود شيء ما وراء ذلك الهدوء الظاهر الذي يبدو على سيدة البيت • فانها تلاحظ أن السيدة تقترب من القلق والاضطراب والخوف كلما بدت أسعد حالا وأهدأ بالا • ثم تكتشف نيتوتشكا السر : تعثر في كتاب لوالتر سكوت على رسالة قديمة أرسلها الى الكسندرين ميخائيلوفنا شاب يعترف لها بحبه ، ويشكر لها « عاطفتها الأخوية » ، ويتركها الى الأبد لأن الناس من حولهم أخذوا يروجون الأقاويل • وتفهم نيتوتشكا السر في حزن « الخاطئة البريئة » • وكان بطرس الكسندروفتش ، زوج السيدة ، يتظاهر بأنه غفر لامرأته ، ولكنه كان يضطهدها ويسومها سوء العذاب بتذكيرها بخطيئتها • وكان هذا الرجل الذي أحدث في نفس نيتوتشكا منذ أول الأمر أثرا مؤلما يحاول أن يخفي نظرته عامدا بنظارتين زرقاوين • وتكتشف الفتاة في الرجل الوقور الرصين انسانا طاغية يعذب « القلب الضعيف » ، امرأته • فكانت تسائل نفسها : ماهذا العذاب الذي لا مخرج منه ؟ ماهذا الخوف الذي لا نهاية له ؟ ماهذه التضحية تبذل في مذلة

بلا تذمر ولا تململ ؟ •• وكانت الفتاة تحس أن هذه التضحية هدر •• أمجرم يغفر خطايا برىء ؟ •• وكان ذلك يمزق نفسها تمزيقا • وتنتهى القصة بمشهد ميلودرامى : يفاجىء بطرس الكسندروفتش الفتاة وهى بسبيل قراءة تلك الرسالة ، فيشتبه فى أن تكون قد تلقت رسالة من عشيق • ان نيتوتشكا مستعدة لأن تتحمل هذه التهمة ، كما فعلت ذلك من قبل فى سبيل كاتيا • ولكن هـــاهى ذى الكسندرين تعترف أثناء مناقشة حامية بينها وبين زوجها بأنهـــا هى أيضا « خاطئة » ، وبأنها مستعدة لأن تترك المنزل مع نيتوتشكا • وتكشف نيتوتشكا عن الحقيقة للزوج الغيور ، فتطلعه على سر الرسالة ، وتأخذ تقرع فيه صلفه وكبرياءه وأنانيته وقسوته ونفاقه ، وتصفه بأنه انسان يحسب نفسه مبرأ من كل خطيئة ، فهو لا ينفك يعذب الآخـــرين • وبهذا الانفجار الذى تنفجره نيتوتشكا تنتهى الرواية مبتورة •

الليالى البيضاء

١٨٤٨

ان هذه القصة التى كتبت سنة ١٨٤٧ ونشرت فى كانون الأول ديسمبر ١٨٤٨ تكاد تروى فصلا من حياة كاتبها • ان البطل الذى لا اسم له فى هذه القصة ، والذى يروى أحلامه وانفعالاته وحبه الرقيق الحنون ، يصف جانبا من طبع الكاتب الشـــاب دوستويفسكى ، ويقص حيـــاته الانعزالية ومشـــاعره العنيفة وأحـــلامه الرومانسية • بماذا يحلم هذا الكاتب الشاب ؟ •• انه يحلم بكل شىء • يحلم بدور الشاعر المغمور أول الأمر ، المتوج بأكاليل المجد بعد ذلك ، يحلم بصداقة مع هوفمان(*)، بليلة سان بارتلمى ، بديان فرنون ، بالسلوك البطولى الذى أظهره ايفان سيليفيتش عند الاســتيلاء على قازان ، بكلارا موفبراى ، بايفى دينز ، بأحبـــار المجمع البـــابوى وأمامهم هـــوس ، بيقظة المـــوتى فى « روبير الشيطان » (ألا تتذكرين هذه الموسيقى التى تفوح فيها رائحة المقابر ؟) بمينا وبرندا ، بمعركة بريزينا ، بقراءة قصيدة عند الكونتيسة ف • د ،

بدانتون ، بكليوباترا وغرامها ، ببيت صغير فى كولومنا ، بركن صغير له تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حبيبة تصغى الى كلامه فى أماسى الشتاء . »
... هذه هى التأملات الخلاقة التى كان يسترسل فيها الكاتب الشاب محوما حول الموضوعات التى يمكن أن تتناولها أعماله وقد تشبعت برومانسية تاريخية ونفسية . ان الكاتب يدرك أحيانا أن هذه الحياة الانعزالية التأملية يجب أن تدان لأنها تفصله عن الحياة الواقعية وهو مع ذلك مفتون بهذه الأحلام لأنها ينبوع وحيه والهامه . ان حياة هذا الحالم بطل القصة الذى يعيش فى بطرسبرج منذ ثمانى سنين (كالكاتب نفسه) والذى لم يعقد فيها أثناء هذه السنين الثمانى علاقة بأحد من الناس هى مزيج من خيال جامح ومثالية مسعورة وتفاهة مبتذلة عادية . انه فى عزلته فى هذه العاصمة المتوحشة التى لا تكلمه يسترسل فى دراسة وجوه المارة ليتخيل طباعهم حتى أن البيوت نفسها معارف له وأصدقاء ، وان له بينها ما هو أثير عليه حميم عنده . ان « الهة الخيال» تنسج أمامه موكبها العجيب ولكنه فى حاجة الى الخروج من هذه الحياة الخيالية ، انه فى حاجة الى أن يجد صديقا حيا (أو صديقة) ليستطيع أن يفضى بما فى قلبه الفياض حبا وحنانا . وها هو ذا فى ليلة من ليالى شهر أيار (مايو) البيضاء بينما كان الضياء الشمالى يضفى على المدينة النائمة طابعا سحريا ، ها هو ذا يلتقى بفتاة بائسة فيحميها من عابر مزعج . انه يشعر نحوها بشفقة عميقة لأنه يرى أنها حزينة وأن ذكرى من الذكريات كانت تبكيها فيقدم لها صداقته . ويلتقى الشاب والفتاة أربع ليال متتاليات فى المكان نفسه فيقص كل منهما على صاحبه حياته القصيرة صادقا مخلصا لا يخفى منها شيئا . ان ناستنكا تنتظر الرجل الذى تحبه ، الرجل الذى ضرب لها موعدا فى هذا المكان نفسه ولكنه لا يجىء فاذا هى تغرق فى كمد عميق . ويعرض عليها البطل صداقته ويحاول أن يساعدها رغم أن هذه الصداقة سرعان ما استحالت حبا .

هكذا نرى أن دوستويفسكى يعود الى موضوع قصته الأولى « الفقراء » . ولكن النغمة مختلفة هنا اختلافا كبيرا فالكاتب لا يقتفى هنا أثر المدرسة الطبيعية على طريقة جوجول ولسنا نجد ها هنا اى شىء يتصل بالمجتمع ، فلا مكاتب ولا دواوين ولا موظفين ولا «أصحاب معالى». ولا يشير البطل الا اشارة عابرة الى عمل يتقاضى عليه أجرا مقداره مئة

روبل فى الشهر والى مكافاة سينالها قريبا • فى هذه القصة يحل محل ماكار (بطل قصة«الفقراء») الفقير المسن الأخرق المضحك القليل الثقافة، يحل محله شاب حالم يفيض حماســـة وثقـافة أدبية • كما أن فارنكا دوبروزيولوفا المراض الحزينة قد استحالت هنا الى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها طافحة الحيوية بارعة المكر على براءة • ثم ان الحب العاطفى الذى شعرت به فارنكا نحو الطالب بركروفسكى قد انتهى بمأساة هى موت الشاب • ثم هى بعد ان أذلها وهجرها السيد بيكوف قد ارتضت أن تتزوجه دون أن تشعر نحوه بأى حب حين عاد اليها ليصلح خطاه • ولا كذلك فى قصة الليالى البيضاء فان الحب الذى يشبه أن يكون طفوليا ولكنه عميق أعنى حب ناستنكا للشاب الذى استأجر غرفة فى بيت جدتها ، قد انتهى نهاية سعيدة ، وناستنكا قد تركها حبيبها أيضا فترة من الوقت ولكنه يعود اليها بعد ذلك فى الليلة الرابعة وتكون خاتمة القصة زواجا سعيدا • وأخيرا فان ماكار المسكين يبقى حزينا منعزلا مهجورا قد هوى الى قاع اليأس ، أما فتى « الليالى البيضاء » فانه بعد أن رأى خطة زواجه تنهار يبارك قـــدره فى وثبة من انكار الذات فاذا هو يخاطب ناستنكا قائلا : « بوركت يامن وهبت لحظة من هناءة وسعادة لقلبى المتن الذى يعيش فى وحشة العزلة ! لحظة بكاملها من سعادة ! رباه ! هل تحتاج حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ » • ان الحب شبه الأخوى الذى شعر به الحالم قد رفعه الى ذرى عالية من عاطفة الايثار وسوف نرى هذه الشخصية المثالية ذات القلب الحبار الحســـاس الخجول تظهــر مرة أخرى عند دوستويفسكى وذلك فى روايته «مذلون مهانون» •أليس ايفان بيترولتش فى هذه الرواية شبيها ببطل الليالى البيضاء ؟ • ان هـــذه الشـخصية هى من أحب الشخصيات التى خلقها دوستويفسكى وهى عند دوستويفسكى نفسه أقربها الى قلبه وآثرها فى نفسه ولعل من الشائق أن نذكر فى هذه المناسبة أن دوستويفسكى قد تصور فى عام ١٨٧٦ أن يكتب رواية برمتها يجعل عنوانها : « الحالم » •

بروخارتشين

١٨٤٦

القصة الثالثة في هذا المجلد « بروخارتشين » ، قد كتبها دوستويفسكي في صيف عام ١٨٤٦ ، وفي مقال له ظهر سنة ١٨٦١ ، يروى لنا دوستويفسكي كيف نبتت في خياله شخصية هذا « الفقير الغني » بروخارتشين . قال انه كان قد قرأ في احدى جرائد العاصمة خبرا صادقا عن بخيل غريب ، « يشبه هارباجون الذي وصفه موليير في مسرحية البخيل ، مات فقيرا فوق أكوام من الذهب . انه موظف صغير محال على التقاعد اسمه س .. كان لا يدفع الا ثلاثة روبلات أجرا لمبيته على سرير وراء حاجز في بيت يسكنه عدد من المستأجرين ، وكان لا ينفك يشكو الفقر ، حتى أنه لم يدفع أجر المبيت ، في السنة الأخيرة التي سبقت وفاته . فلما مات اكتشفوا بين أشيائه مائة وتسعة وستين ألف روبل ، نقودا فضية وأوراقا مالية . » لقد أثرت قراءة هذا النبأ في نفس دوستويفسكي . وتابع دوستويفسكي يقول في مقاله : « عندئذ الما تراءى لي بين جمهرة المارة في الطريق رجل ليس له وجود في الواقع ولكنه من ابتكار الخيال ، يرتدى معطفا لا شك أنه كان يتخذه غطاء لنفسه في الليل ، وأدركت أنه هو نفس ذلك الهارباجون الذي مات راقدا فوق نصف مليون . وهاهي ذي شخصية قصصية تنبجس في خيالي ، شخصية تشبه شخصية « الفارس البخيل » الذي وصفها بوشكين ، وسرعان ما رأيت أن أمامي شخصا فذا : يهجر العالم ويهجر جميع ما في العالم من مغريات ، ويمضي يعيش منزويا وراء الحاجز في البيت الوضيع . ماله وللترف الباطل والرخاء السخيف والدعة الكاذبة والهناء المزعوم ؟ لا .. ليس به الى ذلك حاجة قط .. انه يملك تحت مخدته كل مايريد ، يملكه تحت كيس وسادته الذي لم يغيره منذ سنة بكاملها . ليس عليه الا أن يصفر ، حتى يأتيه كل ماهو في حاجة اليه زاحفا اليه زحفا ! لو

شاء لابتسم له واحتفل به ألوف الناس .. ولكنني أحسست وأنا أحلم بهذه القصة أنني أسرق بوشكين ... »

ويجب أن نذكر أن هناك شخصـية بخيل آخر قد رسمها يراع جوجول في كتابه « النفوس الميتة » ، وهي شخصية بليوشكين . وهل يجهل أحد أن هذين الكاتبين قد كانا نقطة انطلاق دوستويفسكي !

وحين نشرت هذه القصة ، قسا الناقد بيلنسكي في الحكم عليها ، فكتب يقول : « هذه قصة ثالثة للسيد دوستويفسكي تثير الاستهجان حتى لدى المعجبين بموهبته . ان فيها بضع ومضات من موهبة ، ولكن هذه الومضات القليلة محاطة بظلمات تبلغ من الكثافة أن ضياءها لا يتيح للقارىء أن يميز شيئا . ليس في هذا الأثر شيء من الهام ، ليست هذه القصة ثمرة عمل حر يقوم به فنان منطلق على سجيته . ان فيها تصنعا .. ان فيها ادعاء .. انها غير مفهومة . ولا شيء في الفن يجب أن يكون مظلما أو غير مفهوم . » والحق أن هذا الحكم قاس جدا . لقد كان بيلنسكي ناقدا واقعيا اجتماعيا يسرف في التبسيط ، ولم يكن قادرا على أن يقدر عمق الأغوار النفسية التي يهبط اليها دوستويفسكي .

صحيح أن هذه القصة ليس فيها مافي « الفقراء » من غنى يشد القارىء ويجذبه اليها ، ولكن عالمها هو عالم «الفقراء» نفسه: الغرف الصغيرة المفروشة ، المؤجرات الجاهلات البسيطات ، سكان هذه الغرف على اختلاف أنواعهم ، السكارى الأشقياء .. الخ .. والقصة أكثر جفافا من قصـــة « الفقراء » ، فالمؤلف لا يكاد يصف فيها الا شخصية واحدة ، غير جذابة. وهي ــ أي القصة ــ خالية من عمق العاطفة التي تحفل بها قصة الفقراء. ولكنها تشتمل على صفحات كاوية حقا ، ولا سيما الصفحات التي تصور هذيان البخيل قبيل موته ، ذلك عدا الأحلام الرهيبة المشئومة التي يصفها دوستويفسكي وصفا أخاذا ، والتي لعله عاني هو نفسه مثلها !

الجـــارة

١٨٤٧

بدأ دوستويفسكى كتابة هذه القصة « الجارة » فى خريف عـــام ١٨٤٦ . وقد أرسل الى أخيه يقول له أيامئذ : « لسوف تكون هـذه القصة الجديدة خيرا من رواية « الفقراء » . هى من ذلك النوع نفسه . وانما يقود قلمى فى كتابتها الهام ينبع من النفس رأسا . فلست أعانى فى كتابتها من العناء ما عانيت فى كتابة قصة « بروخارتشين » التى أرهقتنى طوال الصيف » .

فلما نشرت القصة ، كان بيلنسكى قد أصـــبح لا يطيق أى أدب يخرج على نطاق الواقعية ذات الاتجاه الاجتماعى ، لذلك لم يستطع ان يفهم شيئا من جمال هذه القصـــة الرومانسـية التى تختلف فى حقيقة الأمر اختلافا كبيرا عن رواية « الفقراء » . لماذا هو يصفها فى دراسة تستعرض الأدب الروسى سنة ١٨٤٧ قائلا عنها انها لا تشتمل على كلمة واحدة أو عبارة واحدة يمكن أن تعد بسيطة حية ، فكل شىء فيهـــا متكلف مبرقش مصطنع زائف .

والحق أن القصة على جانب عظيم من الجمال . وهى أول قصـــة يصور فيها دوستويفسكى شخصية « حالم » . أوردينوف فتى مثقف ، منفصل عن المجتمع ، منحبس فى عالم فكره الخيـــالى وأحلامه الكثيرة ، عاكف على كتابة تاريخ للكنيسة . ان هذه السمة الأخيرة فيه تربطه بالشاب التقى الرومانسى شدلوفسكى الذى كان لدوستويفسكى صديق صباه . وهو الى ذلك فتى شديد الحماسة تنتابه فى بعض الأحيان نوبات صرعة . هذه أول مرة يصف فيهـــا دوستويفسكى مرضـــه هو ، والاحساسات الحادة التى كان يشعر بها . ان أوردينوف انسان منعزل، تفيض نفسه أهواء مكبوته لا تنتظر الا أن تنبجس من قلبـه طافحـــة عارمة . فها هو ذا يتوله حبا بجارته الجميلة التى استأجر فى بيتهـــا غرفة ، والتى لا يعرف أهى ابنة الشيخ الذى تعيش معه أم هى زوجته، وهو شيخ يشبه أن يكون لغزا ، وتوافيه نوبات صرعة هو أيضا . والقصة كلها تجرى فى جو هو الى الحلم أقرب منه الى اليقظة .. فى جو لا يكاد يستطيع البطل أن يميز فيه بين أحلامه وبين العالم الواقعى .

لا شك أن دوستويفسكي قد تأثر في كتابة هذه القصة بجوجول. ان الجارة تشبه كاترين بطلة « الانتقام الرهيب » (حتى لقد استعار اسمها) التي سحرها أبوها الساحر نفسه • ولكن دوستويفسكي قد نقل شخوص الجو الأكراني الذين وصفهم فيه جوجول ، الى روسـيا الكبرى ، في غابات الفولجا التي يرتادها قطاع الطرق • وهو يتأثر أيضا بأسلوب سرد القصص الشعبية ، هذا الأسلوب الأخاذ الذي عرف كيف يقلده تقليدا بارعا موفقا •

دعك اذن من النقد المر الذي وجهه بيلنسكي الى هذه القصة ، وانظر اليها بقلب متفتح للجمال تجد فيها روعة أخاذة • ثم ان لهـذه القصة مكانا هاما بين جملة أعمال الشباب التي أنتجها دوستويفسكي • ان كاترين « قلب ضعيف » مثل اوردينوف تماما • وها هي ذي نفسها تقول : « هب الحرية لانسان ضعيف ، يرفضها هو نفسه ويردها اليك » ان هذه الفكرة سـيعود اليها دوسـتويفسكي بعد سـنين طويلة في « الأخوة كارامازوف » فيعرضها بمزيد من القوة والعمق •

ان كاترين مأسـورة مسحورة أفسدهـا مورين ، قاتل أبويها • وهي تهتف قائلة عنه : هو شيطاني الخبيث ، بعته روحي • فأنا له •• أنا ملك يمينـه • ويدرك أوردينـوف أن مورين على حق حين يصـفها بأنها « قلب ضعيف » • ان هذا القلب الضعيف خاضع لمشـيئة مورين الشيطانية • ان كاترين لا تستطيع أن تتمتع بالحرية التي يتظاهـر مورين بأنه يمنحها اياها ، فهي في الفصل النهـائي تعود الى الذي أغواها ، رغم أنها تحب الفتى حبا قويا • هذه المرأة التي لها نفس حارة ملتهبة ، هذه المرأة التي تريد أن تهب الحب الصادق الحر لانسـان جدير بها ، ثم هي لا تستطيع أن تتحرر من سلاسل خطيئتها ، أليست صورة لبطلة رواية « الأهبل » ، ناستازيا ، وبطلة « الاخوة كارامازوف » جروشنكا ؟ وأخيرا ، فلسوف نجد هذا الهوى المحموم المسـعور الذي يستبد بمورين ، هذا الهوى الذي يعبر عن الظمأ الى التسلط ، سوف نجده في الروايات التي سيكتبهـا دوستويفسكي في المستقبل • ان دوستويفسكي يعالج منذ الآن ، مشكلة الحرية والارادة ، في هذه القصة التي لم يفهمها معاصروه •

المهرج

١٨٤٨

لم ينشر دوستويفسكي قصة « المهرج » في طبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، بعد أن نشرها عام ١٨٤٨ ، لقد عدها تافهة • ثم لم يعد نشرها الا بعد وفاة دوستويفسكي ملحقة بالمجلد الأول الحاقا • على أن هذه القصة لا تخلو في الواقع من طرافة ، كما أنها تشبه من بعض النواحي بعض قصص دوستويفسكي في أيام شبابه • ان المهرج بولزونكوف الذي يريد أن يسر الناس جميعا وأن يبهجهم هو المعادل المضحك لفاسيا شومكوف • فكلا الشابين ذو « قلب حار » ، وكلاهما طيب النيات ، يتمنى أن يحب وأن يحب • ولكن الثاني يصبح كاريكاتورا للأول ، كما يحدث ذلك كثيرا لدى دوستويفسكي • ان بولزونكوف يقص علينا هو أيضا حكاية غرامية عن خطبة الفتاة ماريا المسكينة التي تشبه خطيبة فاسيا • ولكن هذه الحكاية الغرامية محاطة باطار هزلي ، بمشهد منفر يحاول فيه بولزونكوف أن يحمل حماه على أن يغني ، وفي آخر الأمر يظهر بولزونكوف مخدوعا قد غرر به حموه هذا • ان هذا التناوب بين النيات الطيبة والرغبات الخسيسة لهو من السمات البارزة التي تميز بعض أبطال دوستويفسكي •

السارق الشريف

١٨٤٨

في شهر نيسان أبريل ١٨٤٨ ، نشر دوستويفسكي « من أقاصيص شيخ عابر سبيل » ، وكان ما نشره يضم قصتين ، احداهما هي : « الجندي المتقاعد » والثانية هي : « السارق الشريف » ، والقصتان كلتاهما يرويهما جندي متقاعد برتبة صف ضابط اسمه آستافي كان قد سكن عند دوستويفسكي بعض الوقت خادما •

فلما أعد دوستويفسكي اعادة طبع أعماله سنة ١٨٦٠ ، عدل هذا العمل من أعماله ، فأسقط القصة الأولى بأسرها ، وهي عن حرب عام ١٨١٢ ، وجعل عنوان الثانية للعمل كله •

ان دوستويفسكي يعرف كيف يتحدث باللسان البدائي البسيط الذي يتكلم به رجل من الشعب • والفكرة الأساسية في هذه القصة هي ما يتصف به انسان بسيط من طيبة متواضعة صادقة • • ان صف الضابط ، الفقير هو نفسه ، يؤوى فى غرفته سكيرا مدمنا ، هو ايمليان، ويساعده ، ويعطف عليه ويشعر نحوه بحزن شديد حين يلاحظ أن هذا السكير الذى آواه وأطعمه من جوع وآمنه من خوف قد سرقه • ولكنه لما يتصف به من رهافة فى الطبع وذوق فى المعاملة لم يوجه اليه كلمة لوم واحدة •

ان السكير ايميليان الذى سبق أن التقينا به فى رواية «الفقراء» والذى كان يعرفه دوستويفسكي فعلا ، هو انسان حساس مرهف الشعور • لقد ارتكب جريمة السرقة ضعفا ، ولكن ضميره يعذبه أشد التعذيب ، وهو يحاول أن يسر الرجل الذى أحسن اليه وأنعم عليه وأن يبهجه ، ويتمنى لو يعمل ، ثم اذا هو من فرط عذاب الضمير تنهار صحته ، واذا هو يعترف بجريمته حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فيخفف ذلك عنه ويواسيه ، ويشعر أن صاحبه قد غفر له وصفح عنه •

ان هذين الانسانين اللذين يمتازان بالشهامة والمروءة ، ويفيضان عاطفة وطيبة أقرب الى الواقع من أصحاب « القلوب الضعيفة » ومن « الحالمين » الذين وصفهم فى قصصه السابقة • ان ضابط الصف ، القادر على أن يحب وعلى أن يعفو ، هو « الانسان العادل » بين أبناء الشعب الروسى فى نظر دوستويفسكي • وسنقع عليه فى رواية « المراهق » بسمات شخصية دولجوروكى •

البطل الصغير

١٨٤٩

أثناء الأشهر الثمانية التى قضاها دوستويفسكي فى سجن منفرد بقلعة بتروبافلوسكايا ، لم ينقطع عن التفكير فى تاليف قصص جديدة • وها هو ذا يكتب الى أخيه ميشيل ، فى ١٨ تموز (يوليو) ١٨٤٩ قائلا : « انني لا أضيع وقتى : فلقد تخيلت ثلاث قصص وروايتين ، وأنا عاكف الآن على كتابة احداها • ولكننى أخشى الاسراف فى العمل • ذلك أن

العمل ، لا سيما اذا قمت به فى حماسة ونشـــاط (وأنا لم أعمل يوما كما أعمل الآن) يهدم صحتى دائما بتأثيره فى أعصابى » • والحق أن دوستويفسكى لم ينجز أثناء تلك المدة الا قصة « البطل الصغير » ، أما الأعمال الأخرى التى تخيلها ووعد بها ، ولعله لم يزد على أن شرع فيها ، فلا نعرف عن مصيرها شيئا •

وبعد ذلك بزمن طويل قال دوستويفسكى للأســتاذ فسيفواود سولوفييف ، المختص باللغات الرومانية : « حين وجدتنى فى السجن قدرت أن هذه هى النهاية ، وأننى لن أستطيع الاحتمال أكثر من ثلاثة أيام ، ولكننى لم ألبث أن هدأت هدوءا تاما على حين فجأة • فماذا فعلت ؟ كتبت قصة « البطل الصغير » • اقرأ هذه القصة ! هل تجد فيها شيئا من غضب أو حنق أو ألم ؟ وكنت وأنا فى ســـجنى أحلم أحلاما هادئة طيبة حلوة عذبة ، وكلما طال بقائى فى السجن ، ازداد حالى تحسنا • » • ان هذا التناقض بين الزنزانة الرطبة مع الانتظار الطويل لصدور الحكم وبين الأحلام الهادئة والذكريات المضـيئة المشرقة لهو ظاهرة نفسية نادرة • وقد علل دوستويفسكى هذه الظاهرة فى تلك الرسالة نفسها قائلا : « ان فى طبيعة الانسان حيوية مدهشة ! حقـــا ما كان لى أن أصدق أن الانسان يملك مثل هذه الحيوية ولكننى أعرف الآن ذلك بالتجربة • » ان هذه الحالة النفسية التى ولدت هذه القصـة الأخاذة التى تذكر بمثاليته الهادئة فى قصة « الليالى البيضاء » ، ولكنها تنقلنا من الجو الخيالى ، جو الضياء المظلم الذى تعرفه العاصـــمة فى لياليها البيضاء ، تنقلنا من هذا الجو الى جو البرية الغارقة فى الشمس ، الى جو الطبيعة التى أحبها دوستويفسكى حبا كثيرا ، ولكنه لم يصفها الا نادرا • ان دوستويفســكى يصــور فى هذه الرواية حيــاة لاهية مرحة فى أطيان غنيــة قرب موســكو ، « حياة تشــبه أن تكون عيــدا لن ينتهى فى يــوم من الأيــام » ، حياة تتعــاقب فيهــا المباهج : فمن رحلات على صـوات الجياد ، الى نزهات فى الغابات ، الى رقص ، الى موسيقى ، الى غناء ، الى تمثيل ••• وفى هذه القصة نقع على موضوع من الموضوعات المألوفة التى يعالجها دوستويفسكى : يقظة العواطف فى نفس طفل لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، يقظة الحب بالغريزة على غير شعور فى قلب ملتهب • ان هذا الموضوع يربط بين «البطل الصغير» وبين

« نينوتشكا نزفانوفا » ، ولكن البطل الصغير أملأ بالحياة وافيض بالحركة وأحفل بالنشاط وبروح المغامرة من نيتوتشكا الخجول التى عانت مذله الحياة منذ نعومة أظفارها • والى جانب البطل الصغير نرى شخصيتى امرأتين تقابلان كاتيا (بنت الامير فى قصه «نيتوتشكا نزفانوفنا» والكسندرين ميخائيلوفنا (في تلك القصة نفسها) • هاتان المرأتان هما : الشقراء الجميلة والسيده م ••• أما الأولى فهى نشيطة خفيفة كالنار ، تضطهد الصبى وتسومه سوء العذاب ، وتدعى إنها مولهة بحبه ، وما تنفك تلاحقه بشيطناتها •• حتى اذا برهن على شجاعة تشبه أن تكون تهورا ، وذلك حين ركب مهرا جامحا لا سبيل الى ترويضه ، أدركت ما فى عاطفته من جد ، وأصبحت صديقته الرقيقة الوفية • وأما الثانية فهى التى من أجلها انما قام الصبى بمغامرته المتهورة • فالصبى انما يحب السيدة م ••• وقد راح يضع نفسه في خدمتها فارسا مفتون اللب بسيدته على نحو ما تروى حكايات القرون الوسطى ، مستعدا لأن يخاطر بحياته فى سبيل معبودته التى لا سبيل اليها •• ان الصبى يحب السيدة م ••• وحبه انما هو مزيج من اعجاب وشفقة معا • واذا كانت الشقراء الجميلة تشبه كاتيا (فى قصة « نيتوشكا نزفانوفا ») ، كاتيا التى تحب تعذيب المحبوب ، فان السيدة م ••• تشبه الكسندرين ميخائيلوفنا• انها تبدو هى أيضا سعيدة مع زوجها الرصين المتكبر ، ولكنها تحمل هى أيضا حزنا خبيئا • ان نظرتها خجلة وجلة قلقة: « كان هذا الخجل الغريب يضفى على قسماتها الناعمة العذبة الرقيقة التى تشبه قسمات مادونا ايطالية تعبيرا يبلغ من الحزن أنك تشعر بالحزن يغزو نفسك متى رأيتها » • والفتى مفتون بها بل مسحور • انه يريد أن يخدم هذه الانسانة الحزينة وأن يخفف عنها وأن يواسيها • وقد أصبح وصيفها • وهو يشعر نحو زوجها السيد م ••• بعداوة شديدة واضحة ، لأنه يدرك بحدسه أن هذا الرجل ليس طيب النفس ، وأنه غيور ، وأنه ربما كان قاسى القلب •

وبعد حادثة امتطائه صهوة المهر الجموح على ذلك النحو البطولى الذى جعل له شهرة كشهرة أبطال شيللر وفرسان دولورج وتوجنبرج ، يعثر الصبى مصادفة على رسالة يشعر أنها تضم بين ثناياها سر المرأة الشقية فى حبها الدفين العاثر الحظ • فكذلك عثرت نيتوتشكا أيضا بالمصادفة على رسالة مرسلة الى صاحبتها ، ولكن الفرق بين القصتين أن الفتاة الطلعة

قد قرأت الرسالة وأعادت قراءتهـا بل ونسختها ، أما البطل الصغير فانه يحـاول أن يرد الرسـالة الى سيدته مختومة غير مفضوضة ، لا يريد أن يكشف عن سرها . وكان قد شهد خفية ، مشهد الوداع بين السيدة م ٠٠ وحبيبها : « لعل هذه القبله كانت قبله الوداع ، القبله الاخيرة ، المكافاة اليسيرة على تضحية ستحمل اليهـا الهدوء وتحفظ لهـا حسن السمعة ٠ وكان الحبيب ن ٠٠٠ قد سـافر ٠ ولعـله قد تركها الى الابد » ٠ وتظـل الرسالة بين يدى الصبى ، فلولا ذلك لاكتشف سر السيدة على حين فجأة، ولنزل عليها ذلك نزول صاعقة رهيبة ٠ ويتخيل الصبى خطة لرد الرسالة الى صاحبتها ، فيمضى يجمع باقة من أزهار الحقول يدس فيها الرسالة ، ثم يقدم الباقة الى سيدته فرحا مبتهجا ٠ ويتظاهر بالنوم منتظرا أن تقع السيدة على الرسالة ، ثم يحس بقبلة الشكر والعرفان تطبعها السيدة على شفتيه ، ويبقى هو ساكنا فى نشوة كانهـا الوجد ٠ ويتأمل الطبيعة فى روعة الصيف ٠ انه ممتلىء سعادة ٠ ويستسلم لهدهدات هـذا الاكتشاف الأول لقلبه ، ويستسلم لهدهدات هذه اليقظة الأولى التى تتحقق فى طبيعته على غير شعور منه٠ « لقد انتهت طفولتى »٠ ما أروع وصف دوستويفسكى لهذه العواطف التى تضطرم فى قلب فتى ملتهب ! ان الأسطر الأخيرة من هذه القصة التى كتبها دوستويفسكى قبل سفره الى المعتقل بسيبيريا لهى من أصفى ماخطه قلمه من أحلام رومانسية٠ انها وداع للشباب قبيل الآلام التى ستكشف له عن قوة الشر فى أعماق النفس الانسانية ٠

قصة فى تسع رسائل

١٨٤٧

قبل أن ينشر دوستويفسكى روايتيه الأوليين « الفقراء » و « المثل » كان قد كتب سنة ١٨٤٥ ، هذه القصة : « قصة فى تسع رسائل » ٠ لقد كان دوستويفسكى فى ذلك العام يعانى نوعا من هوس العظمة : كان يقدر انه يستطيع ان ينجح فى الكتابة فى جميع الأنواع الأدبية ، ومنها القصص الهزلية المضحكة ٠ وقد طلب اليه نكراسوف حين فـكر فى اصدار مجلة ساخرة أن يكتب له قصة من هذا النوع ، فسر درستويفسكى بهذا الطلب سرورا كبيرا ، ثم اذا هو يمضى الى بيتـه فى المساء ، فمـا يكاد يطلع عليه الصباح ، حتى يكون قد فرغ من كتابة قصته « قصة فى تسع رسائل » ،

وحمل القصة الى نكراسوف فقبل نكراسوف نشرها في مجـلته • وكتب دوستويفسكى الى أخيه ميشيل يقول : « لقد قرئت القصة عند تورجنيف في ذلك المساء نفسه ، فأحدثت دويا •• وقال لى بيلنسكى انه واثق من موهبتى ، لأننى قادر على معالجة موضوعات متنوعة أكبر التنوع •• » • ولكن مجلة نكراسوف لم تصدر ، ولم تنشر القصة الا بعـد سنة ، وكان بيلنسكى قد غير رأيه ، حتى لقـد كتب الى تورجنيف يقول : « ان هـذه الرسائل التى يتبادلها مخادعان فى قصة دوستويفسكى لم تعجبنى بل لقد أثارت نفورى واشمئزازى •• على دهشة منى •• اننى لم استطع أن أتم قراءتها الا فى كثير من العناء ،ذلك كان شعورى بوجه عام » • والحق أن هـذه القصـــة هى أضــحل ما خط قـلم دوستويفســكى • حتى أن دوستويفسكى نفسه لم يعد نشرها حين أعد طبعة أعمال الشباب سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦٥ ، ثم لم يعد نشرها الا بعد وفاته • انها قصة اثنين من المقامرين يجتمعان على ابتزاز مال شــاب غنى هو أوجين•وقد اقترض الأول ، بطرس ايفــانوفتش ، مبلغ ثلاثمائة وخمسين روبلا من الثانى ليدبر أمر هذا الغش ، وهو يتحاشى أن يلتقى به ، فيكتب اليه الثــانى رسائل طويلة متهما اياه بســوء الذمة • وترتبك الأمور فى النهاية ، فيرسل كل من الرجلين الى صاحبه رسالة لطيفة مكتوبة بخط زوجته • ونعـرف عندئذ أن أوجين لم يكن الضحية التى خدعها المخــاتلان ، بل كان هو الجانى الذى أوقع الرجلين كليهما فى شركه بسطوه أمرأتيهما • ويمكن القول ان هذه القصة القصــيرة التى كتبت على أســـلوب المهزلة الفرنسية ما تزال تعـكس شيئا من تأثير جوجول : فان موضوعها قريب فى الواقع من موضوع المسرحية الهزلية الصغيرة التى كتبهـــا جوجول بعنوان « المقامرين » ، وفيها يحاول اثنــان من المقامرين بالورق أن يخدعا شابا غنيا ، ولـــكن حيلتهما تكتشف فى آخر الأمر ، ويرتد كيدهما الى نحرهما •

شجرة عيد الميلاد والزواج
١٨٤٨

« شجرة عيد الميلاد والزواج » قصة صغيرة عميقة من الناحيـــة النفسية • تبتدىء هذه القصة بوصف احتفال بعيد الميلاد يبتهج فيـــه

الأطفال ويفرحون • لقد كان دوستويفسكي يحب الاطفال كثيرا ويعنى بمعرفة نفوسهم • كتب ذات مرة يقول : « انني أحب ملاحظة الاطفال كثيرا • انه ليشوقني كثيرا أن أفاجيء فيهم أولى تجليات الحياة » • وهو في هذه القصة يصف بكثير من المحبة والتعاطف بنية في الحادية عشرة من عمرها ستكون وريثة ثروة طائلة ، كما يصف بمزيد من المحبة والتعاطف أيضا صبيا صغيرا هو ابن الخادمة الذى يحتقره سائر الاولاد• ان صورة الطفل الصغير المضطهد ستعود الى الظهور في روايات دوستويفسكي (نيتوتشكا في قصة « نيتوتشكا نزفانوفا » ، واليوشا في « الاخوة كارامازوف ») •

وفيما كان الأطفال يحتفلون مبتهجين ، يدخل شخص من الكبراء (يذكر بالمحسن الى فاسيا في قصة « قلب ضعيف ») • ان هذا الشخص هو هنا رجل ماكر طماع شره الى المال شهوانى• وهاهو ذا يطمع بينه وبين نفسه في أن يتخذ من البنية زوجة له في المستقبل ، متى أتمت السادسة عشرة من عمرها • ان الزواج الذى يقوم بين رجل مسن وفتاة صغيرة ـ وكان هذا يحدث كثيرا في ذلك الزمان الذى كان ينادى فيه « بالزواج القائم على العقل والحكمة » ـ كان يثير الاشمئزاز في نفس دوستويفسكي • وسوف نرى دوستويفسكي يعالج هذا الموضوع نفسه في روايته « حلم العم » • وقد تحقق للرجل المسن ما أراد •• فما بلغت الصبية السادسة عشرة من عمرها حتى رأيناها تزف اليه •

زوجة آخر ، ورجل تحت السرير

١٨٤٨

الحق أن هذه القصة هي من أضعف أعمال دوستويفسكي • لقد أراد في هذه القصة ، كما أراد ذلك في « قصة في تسع رسائل » أن يضحك القراء ، أن يقدم اليهم قصصا هزلية ، وعرة متشابكة بعض الشيء على طريقة روايات بول دو كوك الذى كان يحظى برواج كبير في ذلك الوقت • ان موضوع هذه القصة أشبه بموضوع مسرحية من نوع « المسخرة » • وهى تتألف من جزأين ، في الجزء الاول منهما نرى زوجا غيورا ينتظر خروج زوجته من موعد غرامي ليقبض عليها متلبسة

بالجــرم المشــهود ، وها هو ذا يدخل فى حديث مع شــاب هو عشــيق الزوجة كان ينتظرها هو أيضا • وتخرج الزوجة الخائنة أخيرا يصحبها شخص ثالث ، فلقد خانت زوجها وعشيقها الأول كليهما ، ولكنها حين تلتقى بهما تحافظ على رباطة جاشها وهدوء أعصابها • وفى الجزء الثانى من هذه القصة نرى هذا الزوج الغيور نفســه يريد أن يفاجىء امرأته متلبسة بالجرم المشهود ، ولكنه يضل طريقه الى الطابق الذى كان يجب أن يصعد اليه من العمارة فاذا هو يدخل بيتا لا يعرفه ، فيختبىء تحت السرير حيث يجد شابا قد سبقه الى الاختباء تحت السرير أيضا لانهضل طريقه الى الطابق المقصود كذلك • ان هذا الشاب هو عشيق زوجته •ثم يجىء صاحب البيت وهو شيخ هرم ، فيسمع وشوشات مخلوقة تحت السرير ، وتدور بينه وبين زوجته الشــابة أحاديث يقطعها ســعاله • ويفتضح وجود الزوج وغريمه على أثر نباح كلب صـــغير يدخل تحت السرير هاجما عليهما ، فلا يسع الزوج الا أن يخنقه فيلفظ الكلب الصغير أنفاسه ويموت • ويلوذ الشاب بالفرار ، ولا يسع ايفان آندريفتش الا أن يخرج من تحت السرير ، ويأخذ يبرىء نفسه أمام صاحب المعالى ، الشيخ زوج الشابة الجميلة • والحق أن هذا المشهد الذى يجرى بين ايفان آندريفتش المسكين ، وبين الشيخ الذى يشبه أن يكون أصــم لا يسمع ، هذا المشـــهد الذى نرى فيه ايفان يتدفق فى ســيل من كلام مفكك لا ترابط فيه ، هو المشهد الوحيد المضحك حقا • وســوف يرسم لنا دوستويفسكى مرة أخرى صورة هذا الوجيه الشـــــيخ ، المريض الضعيف ، فى روايته « حلم العم » ، ولكن الصورة ستكون عندئذ أغنى وأحفل •

واذا كان لهذه القصة الهزلية جانب يجعلها شائقة بعض الشىء ، فهذا الجانب هو شكلها : ان القسم الأكبر منها حوار حى ، حتى لتكاد تكون مسرحية ، وحتى ليمكن أن توصف بأنها « قصة مسرحية هزلية »، كرواية « حلم العم » • وسيكون طابع الحوار هذا غالبا على الروايات التى سيكتبها دوستويفسكى • وبفضل هذا انما كانت روايات دوستويفسكى سهلة الاخراج على المسرح •

نيتوتشكا نزفانوفنا

١٨٤٩

«نيتوتشكا * نزفانوفا» ، ظهرت في « حوليات الوطن» ، اعدادكانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) وايار (مايو) سنة ١٨٤٩ ، وقد انقطع نشر هذه الرواية بسفر دوستويفسكي الى سيبيريا •

الفصل الأول

لا أتذكر أبي . فقد كنت في الثانية من عمري حين مات. وتزوجت أمي مرة أخرى. الا أن زواجها الثاني هذا ، رغم انه قام على حب ، قد سبب لها كثيرا من الآلام . كان زوج أمي موسيقيا ، لقى مصيرا غريبا ، وكان بين جميع من عرفت من الناس أغربهم وأشذهم . وكان أثره في مشاعري الاولى ابان الطفولة من القوة بحيث ألقى ظله على حياتي كلها بعد ذلك . و لابد لى أن أذكر هنا سيرة حياته لتكون قصتي مفهومة . وكل ما سأرويه عنه انما عرفته بعد ذلك من «ب» ، العازف على الكمان ، الذى كان فى شبابه رفيق عمى (زوج أمى) وصديقه الحميم .

كان عمي يدعى « يافيموف » . وقد ولد فى أرض أحد المـالكين الأغنياء جدا . وكان أبوه موسيقيا فقيرا انتهى به المطاف الى هذه الارض ، بعد تغرب طويل ، فانخرط فى جوقة هذا المالك الغنى . وكان المالك يعيش حياة رخية ، وكان مولعا بالموسيقى الى حد الهوى الشديد ، حتى ليُروى عنه أنه ، وهو الذى لم يكن يترك أرضه يوما ، ولو للذهاب الى

موسكو ، قرر ذات يوم ، على حين غرة ، أن يسافر الى مدينة من مدن المياه في الخارج يقضي بضعة اسابيع ، لا لشيء الا ليسمع عازفا على الكمان شهيرا قالت الجرائد يومذاك انه سيحيي هنالك ثلاث حفلات •

وكان هذا السري يملك جوقة ممتازة يقف عليها جميع موارده تقريبا * • وقد انخرط عمي في هذه الجوقة عازفا على الكلارنيت • وكان في الثانية والعشرين من عمره حين صادق شخصا عجيبا • لقد كان يعيش في تلك المقاطعة نفسها كونت غني جدا يدمر ثروته لينفق على مسرح أقامه في بيته • وقد طرد هذا الكونت رئيس جوقته ، وهو ايطالى ، لسوء سلوكه •

وكان رئيس الجوقة هذا انسانا سيء السلوك حقا ، فما كاد يطرد حتى فقد كل كرامة ، فاخذ يدمن على الشراب بل أخذ يتسول ، ولم يعد في وسعه أن يجد عملا في أي مكان بهذه المنطقة • هذا الرجل هو الذي صادقه عمي • ولم يلحظ أحد في عمي أي تغير يمكن أن يعزى الى تأثير رفيقه فيه ، حتى أن المالك الذي منعه أول الأمر من معاشرة الايطالى انتهى أخيرا الى غض النظر عن ذلك • ثم مات الايطالى بغتة ، ففي ذات صباح اكتشفت بعض الفلاحين جثته في حفرة أحد السدود • ودل التحقيق الذي تم في هذا الامر أن الرجل انما مات بالسكتة القلبية• وكان كل ما يملكه الايطالى محفوظا عند عمي الذي لم يلبث أن بين أنه صاحب الحق في تركته ، اذ أبرز ورقة كتبها الايطالى بخط يده ، يذكر فيها أن « يافيموف » هو وريثه • وكانت التركة بدلة سوداء عُني المتوفى بالاحتفاظ بها لأنه كان يأمل دائما أن يجد عملا ، وكماناً لا يدل مظهره على أنه ذو قيمة كبيرة • ولم يعترض أحد على هذا الميراث • ولكن بعد مدة قصيرة جاء كبير العازفين على الكمان لدى الكونت ، جاء الى المالك

يحمل كتابا من مولاه يرجوه فيه الكونت بل يلح في الرجاء ان يبيعه يافيموف الكمان الذى تركه الايطالى ، ويظهر رغبته الشديدة في الحصول على هذا الكمان لجوقته ، ويقدم ثمنا له ثلاثة الاف روبل ، ويضيف الى هذا انه قد ارسل يستدعى يافيموف غير مرة ، ليعقدالصفقة بينه وبينه شخصيا ، الا آن يافيموف كان يرفض دعواته هذه في عناد . ويؤكد الكونت في كتابه ان الثمن الذى يقدمه يساوى قيمة الآلة ، وانه لا ينوى أن يخدع أحدا ، وانه يعتبر رفض يافيموف اهانة له ، وان يافيموف ، أخيرا ، مخطىء في الشك فيه ، فهو لا يريد أبدا أن يستغل بساطته وجهله . وخلاصة ذلك كله أن الكونت يطلب أن يرد يافيموف الى صوابه .

واستدعى المالك زوج أمى على الفور فقال له :

ـ لماذا لا تريد أن تبيع كمانك ؟ انك لست في حاجة اليه . ثم ان الكونت يقدم لك ثلاثة آلاف روبل . وهو الثمن الذى يستحقه الكمان . وتخطىء ان ظننت انك تستطيع أن تبيعه بأكثر من ذلك . ان الكونت لا يحاول أن يخدعك أبدا .

فأجاب يافيموف بأنه لن يذهب الى الكونت من تلقاء نفسه ، وانه ان أكره على الذهاب اليه ، فسيذعن لارادة سيده ، لكنه لن يبيع كمانه . على ان سيده يستطيع أن ينتزع منه الآلة ، ان كانت تلك مشيئته !

وواضح ان جوابا من هذا النوع لا بد أن يضرب على وتر حساس في نفس المالك . لقد كان هذا السرى يزهو دائما بأنه يعرف كيف يعامل موسيقييه ، وكان يعدهم جميعا ، من أولهم الى آخرهم ، فنانين حقيقيين ، وكان يعتقد أن جوقته ، بفضلهم ، لا تفوق جوقة الكونت فحسب ، بل تضارع جوقات العواصم .

فقال له المالك :

ـ حسنا . سأبلغ الكونت أنك لا تريد أن تبيع كمانك . سأبلغه أن هذا هو رأيك ، وأنك تشعر أن لك الحق كله فى أن تبيـــع كمانك أو ألا تبيعها ، أليس كذلك ؟ ولكن قل لى ـ أنا الذى أطرح عليك السؤال الآن ـ ما فائدة احتفاظك بهذه الكمان ؟ ان آلتك هي الكلارنيت وأنت لا تجيد العزف حتى على الكلارنيت . تنازل لى عن هذا الكمان ، فأعطيك ثلاثة آلاف روبل (من ذا الذى كان يظن ان هذه آلة ذات قيمة ؟!)

فابتسم بافيموف ، وأجاب :

ـ كلا يا سيدى ، لن أتنازل عن الكمان ، لكنك تستطيع طبعا أن..

ـ انني لا أكـرهك على شيء .. أتراني أعذبك لأحملك على ما لا تريد ؟!

قال المالك ذلك فى صراخ غاضب ، خاصة وأن المشهد كان يجرى على مرأى من « عازف » الكونت الذى يستطيع أن يستنتج من ذلك أن حظ الموسيقيين لدى المالك ليس بالحظ السعيد . وأضاف المالك حانقا :

ـ اذهب ، يا ناكر الجميل ، ولا أحب أن أراك بعد الآن أبدا . ماذا كنت لولاى ، انت وآلتك ، الكلارينت ، التى لا تكاد تعرف العزف عليها ؟ أنت هنا تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، وتتقاضى أجرا ، وتعيش كما يعيش الوجهاء من الناس . أنت فنان ، ثم تأبى أن تفهم هذا كله وأن تقدره حق قدره . اذهب . لقد هيجت غضبى .

لقد كان المالك يطرد هكذا جميع من يثور عليهم ، لأنه كان يخشى نفسه ، ويخاف سورات حنقه . وماكان ليحب أبدا أن يقسو فى معاملة « فنانيه » ، كما كان يسمى موسيقييه .

وظُنّ أن الأمر قد انتهى ، ما دامت الصفقة لم تتم • ولكن ها هو عازف الكونت ، بعد شهر من ذلك ، يخلق لعمى ، من تلقاء نفسه في هذه المرة ، لا بوحى من الكونت ، مشكلةً جديدة • وهى الآن مشكلة رهيبة• انه يشى بزوج أمى على أنه قاتل الايطالى ، وعلى أنه أقدم على قتله أملا فى الاستيلاء على ميراث ضخم ، ويؤكد أن الوصية انما كتبت بضغط واكراه ، وانه مستعد للبرهان على ذلك بشهود • وعبثا حاول الكونت والمالك أن يدافعا عن زوج أمى وأن يتوسلا الى متهمه ، بكل الأساليب ، أن يكف عن اتهامه ، فقد أصر على الاتهام اصرارا قويا لم يتزحزح عنه • ثم بيّنا له أن تشريح جثة المتوفى ، رئيس الجوقة ، قد تم وفقا للأصول ، وان وشايته تخالف البداهة ، وانه انما أقدم على ما أقدم عليه حبا فى الانتقام أو بداعى الغضب ، لأنه لم يحصل على الآلة التى كان يريد الحصول عليها (فمن أجله اذن كان يريد الكونت أن يشترى الآلة) • لكن الموسيقى ظل متمسكا برأيه ، وأخذ يقسم أنه على حق ، وأن السكتة القلبية لم يكن سببها السكر بل السم ، وطالب باجراء تحقيق جديد • وكان من الجد فى اتهامه بحيث لم يكن بد من استئناف التحقيق : فقُبض على يافيموف وأودع سجن المدينة • وبدىء تحقيق جديد شغل المنطقة كلها وأثار اهتمامها الشديد ، وانتهى الى الحكم على الكمانى بتهمة الوشاية الكاذبة •• ومع ذلك فانه ظل مصرا على رأيه ، وظل يدافع عن هذا الرأى حتى النهاية • لكنه اضطر أن يعترف بأنه لم يكن يملك من الأدلة غير ما أمدّه به خياله ، وبأنه لفق القصة كلها من شكوكه واستدلالاته • ومع ذلك ، ورغم أن اختتام التحقيق برهن على براءة يافيموف برهانا

قاطعا ، فقد ظل متهمه على يقين من أن يافيموف هو قاتل المسكين ، رئيس الجوقة ، وانه ربما لم يستعمل السم في قتله ، لكنه قتله بوسيلة من الوسائل ! •• ولم يمكن تنفيذ الحكم الذى أصدر على العازف بالسجن ، فقد أصيب فجأة بنزيف في الدماغ ، ففقد عقله ، ثم مات فى مستشفى السجن !

وكان المالك ، طوال المدة التي استغرقتها هذه القضية ، يعامل عمى أكرم المعاملة • لقد أتعب نفسه من أجله كأنه ابنه : مضى يراه غير مرة ليواسيه ، وأعطاه مالا ؛ وآتى له بأحسن سيجاره ، منذ علم أن يافيموف يحب التدخين • حتى اذا ظهرت براءة يافيموف أقام مأدبة للجوقة كلها •

لقد كان يعتبر قضية يافيموف قضية الجوقة كلها ، لأنه كان يحترم الأخلاق الحسنة التي يتمتع بها موسيقيوه ، احترامه لمواهبهم ، بل وأكثر من ذلك •

وانقضت على ذلك سنة ، حين شاع فى المنطقة أن عازفا شهيرا على الكمان ، وهو فرنسي ، قد وصل الى مركز المنطقة ، وأنه ينوى اقامة بضع حفلات موسيقية • فلم يلبث المالك أن أخذ يسعى سعيا حثيثا ليدعوه الى بيته • وكان له ما أراد ، فوعده الفرنسى بالمجيء ، وو زعت الدعوات على جميع سكان المنطقة تقريبا ، وكان كل شيء معدا لاستقبال الفرنسى ، حين وقع فجأة مالم يكن فى الحسبان •

ففى ذات صباح ، علم ان يافيموف قد اختفى دون أن يترك أثرا يدل عليه ! •• وأخذوا يبحثون عنه دون أن يظفروا بطائل • لقد أصبحت الجوقة فى وضع حرج ، اذ تعوزها الان كلارينت • ولكن بعد ثلاثة أيام تلقى المالك من الفرنسى رسالة يتحلل فيها من وعده بالمجيء ، ويقول ، بلهجة متعالية وان لم تكن مقنعة، انه سيكون بعد الآن شديدالحذر

في علاقاته مع أشخاص يملكون جوقة موسيقية ، ويبدي أسفه على أن موهبةً عظيمة تعيش تحت رحمة انسان عاجز عن تقديرها حق قدرها ، ويذكر ان مثال يافيموف ، وهو الفنان الموهوب وأحسن عازف على الكمان رآه في روسيا ، اوضح برهان على صدق كلامه •

صُعق المالك لدى قراءة هذه الرسالة • انه يُطعن في الصميم • كيف ؟ كيف يمكن أن يفترى عليه يافيموف ، يافيموف نفسه ، هذا الذي عنى بأمره كل تلك العناية ، واسدي اليه كل ذلك المعروف ، فاذا هو يقول فيه هذا الكلام السيىء لفنان أوروبي يحرص هو على حسن رأيه فيه أشد الحرص ؟

ثم ان الرسالة عجيبة من ناحية أخرى • ان الفرنسي يدعي ان يافيموف ، وهو الفنان الموهوب ، انما هو عازف على الكمان لم يعترف له بمواهبه ، وا دره على العزف على الة اخرى • وبلغ تاثر المالك بهذه الرسالة أنه قرر الذهاب فورا الى المدينة للقاء الفرنسي • لكنه في تلك اللحظة نفسها تلقى كلمة من الكونت يدعوه فيها الى الذهاب اليه ، دون تأخر ، ويذكر له أنه على علم بالأمر ، وأن الفنان الفرنسي هو الآن في بيته مع يافيموف ، وانه لاستيائه من وقاحة يافيموف وأكاذيبه ، قد أصدر أوامره بمنعه من الخروج • وأضاف الكونت الى ذلك أن لا بد من مجيء المالك اليه ، وأن الاتهام الذى لفقه يافيموف قد أثر فيه شخصيا ، وان الأمر يبدو له من الخطورة بحيث لا بد من توضيحه بأسرع ما يمكن •

أسرع المالك الى الكونت ، فلقي عنده الفرنسي ، واذ ذاك شرح له المالك قصة يافيموف من أولها الى آخرها ، وأضاف أنه لم يكن ليدور في خلده ان هذا الرجل يتمتع بموهبة رفيعة لأنه ، خلافا لما يقول الفرنسي ، قد كان عنده عازفا رديئا على الكلارنيت ، وأن هذه هي المرة

الأولى التى يسمع فيها أن الموسيقى الذى هجره عازف" على الكمان ، وأضاف الى ذلك أيضا أن يافيموف لم يكن عبدا ، وانه كان يتمتع بحرية تامة ، وانه كان في وسعه دائما أن يتركه لو كان يسيء اليه حقا !

صُعق الفرنسى من الدهشة . ونودى على يافيموف الذى تبدلت معالم وجهه حتى ما يكاد يُعرف ، فاتخذ موقف التعالى ، وأخذ يجيب فى سخرية واستهزاء ، ويؤكد صدق ما أسلف للفرنسى . وقد أثار ذلك حفيظة الكونت الى أبعد حد ، فقال بلا لف ولا دوران ان يافيموف حقير، وانه واشٍ كذاب يستحق أرذل العقاب . فأجابه عمي قائلا :

ـ مهلاً يا صاحب السعادة ، فان لى معك شأنا منذ مدة طويلة ، واننى لأعرفك حق المعرفة ، فبفضلك أوشكت أن يُحكم عليّ بتهمة القتل . انى لأعلم من ذا الذى دفع « الكسيس نيكيفوريتش » ، الموسيقى الذى كان يعمل عندك ، الى الوشاية بى !

وخرج الكونت عن طوره لدى سماعه هذا الاتهام الفظيع ، وكان هنالك ، عرضا ، موظف جاء لبعض الأمور ، فلما سمع هذا الكلام قال انه لا يمكن أن يترك هذا كله دون توضيح ، وان وقاحة يافيموف المهينة تستند الى تهمة باطلة وضيعة ، وانه يرجو أن يسمح له بمحاسبة هذا الشخص على الفور فى البيت نفسه . وأظهر الفرنسى استياء شديدا وقال انه لا يفهم هذا النكران للجميل . فأجاب عمي غاضبا بأنه يفضل أن يحاكم ، وأن عودة أخرى الى القضاء آثر عنده من الحياة التى عاشها حتى ذلك الحين فى جوقة المالك ، وهى حياة لم يستطع أن يتركها قبل الآن لفقره الشديد . وما ان فرغ من كلامه حتى أوقفوه وقادوه الى خارج الصالة ثم سجنوه في غرفة بعيدة ، على أن يقودوه فى اليوم التالى الى المدينة .

وفي حوالى منتصف الليل ، رأى السجين باب غرفته يُفتح ، ورأى المالك يدخل مرتديا ملابس البيت ومحتذيا نعل البيت وممسكا بيده قنديلا . كان واضحا انه لم يستطع أن ينام ، وأن عذابا مبرحا أخرجه من سريره في مثل هذه الساعة . ولم يكن يافيموف نائما ، فجعل يحدق فيه دهشا . ووضع المالك قنديله ، وجلس الى مقعد أمام يافيموف ، وقد ظهرت عليه علائم التأثر العميق .

ـ « ياجور » ، لماذا أهنتني هكذا ؟

ولم يجب يافيموف . وكرر المالك سؤاله . وكان كلامه يختلج بعاطفة عميقة ، بنغم غريب !

وأخيرا أجاب عمي قائلا ، وهو يقوم بحركة تشير الى العجز :

ـ لا أدرى يا سيدى لماذا تجرأت عليك هكذا . لا شك أن الشيطان هو الذى أضلنى . لا أدرى أنا نفسى ما الذى دفعنى الى هذا كله . على أن حياتى عندك لم تكن بالحياة يا سيدى ، لم تكن بالحياة .. هذا هو السبب فى أن الشيطان تملكنى ودفعنى الى ما دفعنى اليه .

فأجاب المالك :

ـ ياجور ، عد الى ، سأنسى كل شىء ، سأغفر كل شىء ، اسمع : ستكون كبير العازفين على الكمان فى الجوقة ، وسأدفع لك أكثر مما أدفع للآخرين .

ـ كلا يا سيدى ، كلا ، لا تزد على ما قلت ، ليس لى مكان عندك . قلت لك ان الشيطان قد تملكنى . سأوقد فى بيتك نارا ان بقيت فيه . تمر بى لحظات من القلق الخانق أوثر فيها أن لا أكون قد ولدت . والآن لن

أستطيع أن أجيب . الافضل أن تتركني يا سيدى . لقد ألم بى هذا كله منذ تعلق بى ذلك الشخص الجهنمى !

ـ من هو هذا الشخص ؟

ـ ومن عساه يكون غير ذلك الذى فطس كما يفطس كلب ضائع ، ذلك الايطالى المنحوس .

ـ أهو الذى علمك العزف على الكمان يا عزيزى ياجور ؟

ـ نعم ، وعلمني أشياء أخرى ، ليزيد شقائى . ليتنى لم أعرفه .

ـ وهل كان قديرا فى العزف الى هذا الحد يا عزيزى ياجور ؟

ـ كلا ، لم يكن يجيد العزف كثيرا ، لكنه كان يحسن التعـليم . لقد علمت نفسى بنفسى . أما هو فلم يزد على أن يرشدنى . نعم، لقد كان أفضل لى أن تكون ذراعى يابسة من أن أتعلم هذا الفن . لقد أصبحت الآن لا أعرف ماذا أريد . تستطيع أن تقول لى يا سـيدى : « ماذا تريد يا ياجور ؟ يمكن أن أعطيك كل ماتريد » . أما أنا ، يا سيدى ، فلن أجيبك بكلمة ، لأننى لا أعلم أنا نفسى ماذا أريد . كلا ، يا سـيدى ، الأفضل أن تتركنى . أقول لك هذا للمرة الثانيــة . أحب أن أتصرف تصرفا يرسلنى الى أبعد مكان ممكن ، فينتهى كل شىء .

فقال المالك بعد لحظة من صمت :

ـ لن أتركك هكذا يا ياجور * . اذا كنت لاتحب أن تعود الىّ ، فلك ذلك . أنت حر ، ولا أستطيع أن أحجزك ، لكننى لن أتركك الآن قبل أن تعزف لى شيئا ، يا ياجور . خذ كمانك ، أناشدك الله ، واعزف قليلا . افهمنى . اننى لا آمرك أمرا ، ولا أحاول أن أكرهك اكراها ،

وانما أتوسل اليك باكيا • أناشدك الله ، يا عزيزى ياجور ، أن تعزف لى ماعزفته للفرنسى • أطعنى • انك عنيد مثلى • لكل منا طبعه ، ياعزيزى ياجور • لقد فهمت أنا عواطفك ، فحاول أن تفهم أنت عـواطفى • لا أستطيع أن أعيش ما لم أسمعك تعزف مسرورا ما عزفته للفرنسى •

ـ ليكن ما تريد • لقد عاهدت نفسى على ألا أعزف أمامك ياسيدى ، على ألا أعزف أمامك أبدا • ولكنك أثرت فى قلبى الآن ، فسأعزف لك ، وحدك ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة يا سيدى ، ولن تسمعنى بعـد ذلك أبدا ، فى أى مكان ، ولو دفعت من أجل ذلك ألف روبل !

عندئذ أمسك يافيموف بكمانه ، وأخذ يعزف مقطوعة من تأليفه كان قد استمد موضوعها من أغان روسية قديمة (ويؤكد «ب» أن هذه المقطوعة هى أول وأحسن أثر ألفه عمى للكمان ، وانه لم يعزف فى حياته شـيئا آخر بمثل هذه القوة) ـ وكان المالك أثناء ذلك ، وهو من أولئـك الذين لا يستطيعون أن يسمعوا موسيقى دون أن يتأثروا ، كان يبكى من فرط الانفعال • فلما انتهى يافيموف من عزف المقطوعة ، نهض المالك من مكانه، وأخرج من جيبه ثلاثمائة روبل ، فمدّ يده بها الى عمى وهو يقول :

ـ الآن تستطيع أن تمضى ، يا ياجور • سـأخرجك من هنـا ، وسأتولى تسوية الأمر مع الكونت • ولكن اسمع جيدا : اياك أن تلقانى يوما ، ولو فى طريق • أمامك مستقبل واسع ، واذا التقينا يوما وجهـا لوجه ، فسيسىء ذلك الينا كلينا • والآن وداعا ! •• بل اسمع : نصيحة أخرى أسديها اليك قبل أن تمضى ، نصيحة واحدة : لا تدمن على الشراب •• وخذ نفسك بالدراسة الدائمة ، والعمل المستمر ، ولا تغتر • أقول لك هذا نصيحة أب لابنه • أعود فأحذرك ! اعمل دائما ، واياك والحانات،

فانك ان ألم بك حزن ، أو أصابتك خيبة (وما أكثر ما ستصاب بخيبات) فأخذت تشرب ، مضيت الى دمارك ، وساءت حالك ، وكنت تعرض نفسك لأن تفطس فى أى مكان ، فى قاع حفرة ، كصاحبك الايطالى . والآن وداعا . بل انتظر . عانقنى .

وتعانق الرجلان . ثم مضى عمى حرا طليقا .

ولم يكد يتحرر حتى سارع الى تبديد روبلاته الثلاثمائة فى مركز المنطقة ، وأخذ يصاحب رواد أقذر الحانات وأحقرها ، وكانت نتيجة ذلك أن اضطر بعد قليل ، وقد أصبح وحيدا بلا مال ولا من يحميه ، أن ينخرط فى جوقة حقيرة لمسرح متجول ، وعين فى هذه الجوقة الكمانى الأول ــ ولعله كان الكمانى الوحيد ! ــ وطبيعى أن هذا لا يتفق مع أهدافه التى كان يرمى اليها فى أول الأمر . لقد كان يريد أن يمضى بأقصى سرعة الى بطرسبرج ، وأن يدرس هنالك ، وأن يجد عملا مناسبا ، وأن يصبح فى تلك المدينة العظيمة فنانا مرموقا . ولم تجر حياته فى المسرح المتجول بلا عقبات . فانه لم يلبث أن تخاصم مع رئيس الفرقة ، وترك المسرح المتجول ، وفقد عندئذ كل شجاعة ، واضطر تحت تأثير اليأس ، أن يكتب الى سيده القديم يذكر له وضعه ويسأله بعض المال ، رغم أن ذلك يجرح كبرياءه جرحا عميقا ، الا انه لم يتلق أى جواب على رسالته تلك ، وكان قد كتبها بلهجة عنيفة . فكتب رسالة أخرى ذليلة ، يعترف فيها بفضل سيده عليه ، ويسميه باسم حامى الفنون ، ويتوسل اليه مرة أخرى أن يهبّ الى نجدته . ووصله الجواب : أرسل اليه المالك أخيرا مائة روبل ، مع بضعة أسطر بخط خادمه ، يحذره فيها من طلب المعونة بعد الآن . وحين تلقى عمى هذا المبلغ اعتزم أن يسافر فورا الى بطرسبرج ، لكنه بعد أن سدد ديونه كان ما بقى له من المال لا يفى بنفقات السفر .

وهكذا ظل في الأقاليم ، وانخرط مرة أخرى في جوقة صغيرة . وفي هذه المرة أيضا لم يتفاهم مع أفراد الجوقة . وأخذ ينتقل من عمل الى آخر ، وقد قر في رأسه أن يمضي الى بطرسبرج بأقصى سرعة ممكنة ، وبأية وسيلة من الوسائل . لكنه قضى على هذا في الاقاليم ست سنين طوالا . واخيرا استولى عليه اليأس . ولاحظ ، على رعب وهول ، انه كان يفقد موهبته شيئا فشيئا في هذه الحياة البائسة المشوشة التي لم يكن يلقى فيها الا ذل بعد ذل . وفي ذات صباح ترك عمله ، وحمل كمانه تحت ذراعه، وسافر الى بطرسبرج وهو يكاد يتسول طوال الطريق . وهناك أقام في شونة ، ولم يلبث أن اتصل بـ « ب » الذي كان قد وصل من ألمانيا وكان يحلم هو الآخر بمستقبل عريض . وسرعان ما قامت بينهما صداقة . وما يزال « ب » حتى الآن يتحدث عن صداقتهما في ذلك الوقت بتأثر عميق. لقد كان كل منهما شابا ، وكانت تطوف في رأس كل منهما أحلام واحدة، ويهدف الى عين الغاية التي يهدف اليها الآخر . الا أن « ب » كان لايزال شابا في زهرة شبابه ، ولم يكن قد عانى حتى ذلك الحين كثيرا من الفقر والذل . وكان ألمانياً فوق كل شيء وقبل كل شيء ، يمضي الى غايتـــه بعناد ومثابرة ، ويعرف قواه تمام المعرفة ، ويكاد يعرف مقدما ماسيصبحه، في حين أن رفيقه الذي ناهز الثلاثين وبلغ منه الارهاق مبلغه ، كان قد فقد كل جلد ، وكان قد أتلف صحته وقواه خلال تلك الأعوام الســتة التي اضطر أن يكسب فيها قوت يومه بالعمل تارة في مسرح صـــغير بالعاصمة ، وتارة في جوقة حقيرة . لقد كانت الفكرة الثابتة التي تسيطـر عليه أيامذاك هي أن يخرج من هذا الوضع الحقير ، أن يدخر قليلا من المال ليلحق ببطرسبرج . الا أن هذه الفكرة الغامضة الغائمة كانت نوعا من نداء داخلي مبهم فقد سناه على مرّ السنين ، شيئا بعد شيء ، في نظر يافيموف نفسه ، حتى أصبح وصوله الى بطرسبرج أشبه بوصول انسان

يتحرك بلا ارادة ، أو انسان تحركه رغبة قديمة أصبحت عادة ، وكأنما قد أعشته الرحلة ، فأصبح لا يكاد يعرف ماذا جاء يعمل في بطرسبرج • كان في حماسته شيء من الكسل والمرارة ، فهي لا تزيد على أن تجعله يغتر بنفسه ، الى أن يستعيد الثقة بقواه الأولى ، بحمياه القديمة ، بالهامه الماضي الذي لم ينضب •

وكانت حماسته الدائمة هده تبهر صاحبه البارد الرصين « ب » ، حتى بلغ من شدة اعجابه بعمى أن اعتقد أنه سيصبح فنانا عبقريا ، ولم يستطع أن يتصور مستقبل رفيقه على غير هذا النحو • ومع ذلك فان « ب » لم يلبث أن فتح عينيه ، وأدرك الحقيقة ، ورأى بوضوح أن هذه الحماسة الفائرة المحمومة ليست الا يأسا لا شعوريا من موهبة ضائعة ، موهبة لعلها لم تكن ، حتى في أول أمرها ، بالموهبة الخارقة • ورأى أن كل هذا لم يكن الا مزيجا من عماوة ، وغرور فارغ ، وزهو في غير محله ، وخيال طائش ، وأحلام في عبقرية يخال المرء أنه يحملها في نفسه • وقد تحدث «ب» قائلا : « ولكنني لم أكن أستطيع أن أمتنع عن العجب لطبيعة رفيقي الغريبة • لقد ظل المسكين ، خلال سبع سنين طوال، يجتر أحلام مجده المقبل دون أن يشعر أنه كان يفقد المبادىء الاولية في الموسيقى ، بل والتكنيك الذي لا بد منه لمبتدىء • وكان ، مع ذلك ، يرسم للمستقبل في خياله المضطرب ، أضخم المشاريع الوهمية • كان يريد أن يصبح أحد أوائل العازفين على الكمان في العالم • وكان يعد نفسه منذ ذلك الحين عبقريا من هذا الطراز ، بل كان ، وهو الذي يجهل أبسط مبادىء الطباق ، يعتقد أنه خلق ليكون مؤلفا موسيقيا • الا ان ما كان يدهشني أكثر من أي شيء آخر هو أن هذا الرجل ، رغم ضعف المامه بالتكنيك الموسيقي ، كان يملك معرفة بالموسيقى واضحة ، معرفة «غريزية» ان صح التعبير • لقد كان احساسه بالموسيقى من القوة ، وكان فهمه

للموسيقى من العمق بحيث لا بد أن يخدع عن حقيقة قيمته ، وأن يعد نفسه لا ناقدا عميقا نافذ الحدس فحسب، بل أحد جهابذة الفن وعبقريا من عباقرته أيضا . وكان يتفق له ان يقول لى بلغته البسيطة الخشنة ، وهو الذى كان غريبا عن كل ثقافة ، حقائق تبلغ من العمق انني كنت أقف حيالها مشدوها ، لا أفهم كيف كان في وسعه أن يدركها ، هو الذى لم يقرأ في حياته شيئا ، ولا تعلم شيئا . ولااكتم انني استفدت منه كثيرا ، وانتفعت بنصائحه فيما حققت من تقدم . وكنت مطمئنا الى مصيرى . لقد كنت ، أنا أيضا ، شغوفا بفني متعلقا به أشد التعلق ، رغم انني كنت أعرف أن مواهبي ليست بالمواهب الفذة ، وانني سأكون عاملا من عمال الفن ، وكنت راضيا بذلك قانعا به ، ولكنني أستطيع أن أعتز بأنني لم أقبر ماحبتني به الطبيعة ، بل ضاعفته مائة مرة . ان الناس ليثنون على مرونتي في العزف وعلى ما حصلته من براعة تكنيكية مدهشة . لكنني أعترف بأنني أدين بهذا العمل المتواصل العنيد الذى أخذت به نفسي ، أدين به لمعرفتي الواضحة بقيمتي الحقيقية ، أدين به لنفورى من كل ما يمت بصلة الى الطمع والزهو ، الى القناعة الهينة والكسل ، الى كل هذه الصفات التي تنتج عن رضى المرء عن نفسه . » .

وقد حاول « ب » أن يسدى النصح ، بدوره ، الى هذا الرفيق الذى طالما أصغى هو الى نصائحه باحترام، الا أن رفيقه كان يضيق بنصائحه ذرعا ويغضب منها غضبا شديدا . ولم تلبث صداقتهما أن اعتراها الفتور . ولاحظ «ب» أن عمى يزداد استسلامه للخمول والحزن والضجر شيئا بعد شيء ، وأن وثبات حماسته أصبحت أندر من ذى قبل ، وأصبح يعقبها نوع من القلق القاتم المحطم . وأخيرا هجر يافيموف كمانه أسابيع طويلة. ولم يكن السقوط النهائى ببعيد . اذ لم يلبث أن انهارالمسكين انهيارا تاما . وتحقق كل ما تنبأ به المالك !

فها هو ذا يافيموف يدمن على السكر ادمانا لا يردعه عنه شيء • وكان « ب » ينظر الى ذلك وقد امتلأ قلبه رعبا • ولم يبق لنصائحه من أثر البتة ، حتى أصبح يتحاشى أن يوجه اليه أى نقد •

ووصل يافيموف من ذلك شيئا فشيئا الى استهتار لا يعرف الخجل : انه يعيش الآن عالة على « ب » ، ولكن ذلك لا يشعره بشيء من الاسف أو الندامة ، حتى لقد كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يعيش عالة عليه !

وكانت أسباب الرزق تنضب شيئا بعد شيء • لقد كان « ب » يعطى بعض الدروس فى الموسيقى ، او كان يقوم بالعزف في حفلات ساهرة لدى بعض أهل التجارة من الالمان ، أو لدى بعض الموظفين الفقراء ، وكان لا يتقاضى الا أجرا ضئيلا ، الا أنه أجر على كل حال • وكان يافيموف يأبى أن يرى حالة الفقر التى يعانيها رفيقه • وكان يعامله في كثير من الصلف والكبرياء ، حتى لقد تمضى أسابيع طويلة دون أن يكلف نفسه عناء التحدث الى رفيقه بكلمة واحدة •

وفى ذات يوم قال « ب » لعمى ، فى كثير من الرقة واللطف ، ان من الأفضل له ألا يهمل كمانه كثيرا حتى لا يفقد مرونة أصابعه • لكن يافيموف غضب غضبا شديدا • وكأنما تخيل أن صاحبه سيركع متوسلا اليه أن يعود الى كمانه ، فقال انه هجر كمانه عمدا ، وانه لن يمسه بعد الآن أبدا • وفى مرة أخرى احتاج « ب » الى زميل يعزف فى حفلة ساهرة دعى اليها ، فطلب الى يافيموف أن يصحبه ، الا أن هذا العرض أثار فى يافيموف حنقاً هائلا ، فقال لصاحبه فى احتقار وازدراء انه ليس ممن يعزفون فى الشوارع ، وانه ليس من التفاهة ، كصاحبه «ب» بحيث يرضى أن يدنس فنه النبيل بالعزف لأناس من أصحاب « الدكاكين » وكان

تعلق أحدهما بالآخر قد بلغ من القوة أن تصرفات يافيموف الغريبة ، وعيوبه الواضحة كانت لا تزيد « ب » الا تعلقا بصديقه • لقد كان « ب » يفهم صديقه ويقرأ ما في نفسه • كان يوجس النهاية التى سيصير اليها كل هذا •

وقد تعانق الاثنان ساعة الانفصال ، بل وقع كل منهما في ذراعي الآخر ، وأخذا يبكيان • وفى تلك الساعة صرخ يافيموف قائلا ، من خلال الدموع والشهيق ، انه ليس الا انسانا شقيا ، ليس الا انسانا ضالا ، وانه كان يعرف ذلك منذ مدة طويلة ، ولكنه في هذه اللحظة انما يدرك أنه على شفا الهاوية ، كمحتضر • وختم كلامه ، وقد امتقع لونه ، بقوله :

ـ انني لا أملك أية موهبة •

وتأثر « ب » من ذلك تأثرا رهيبا • ثم قال لصديقه :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش • أنت مخطىء • انك بهذا اليأس تدفع بنفسك دائما الى الانهيار • انك لا تملك جلدا ولا شجاعة • تدعى الآن أن ليس لك موهبة • لكن هذا يرجع الى حزنك • ليس صحيحا انك لا تتمتع بموهبة • أنت تتمتع بالموهبة • أؤكد لك أن الموهبة لا تعوزك • هذا واضح من قدرتك على فهم الموسيقى والاحساس بها • وأستطيع أن أبرهن لك على ذلك بالرجوع الى حياتك نفسها • لقد ذكرت لى أنك تألمت فى حياتك كثيرا ، وهذا يدل على انك منذ ذلك الحين ، تحمل فى نفسك هذا اليأس نفسه • فى ذلك الوقت ، أدرك فيك استاذك الاول ، ذلك الانسان الغريب الذى طالما حدثتنى عنه والذى أيقظ فى نفسك حب الموسيقى ، أدرك فيك الموهبة الموسيقية • لكنك لم تكن تعرف أنت نفسك ماذا يجرى فى أعماق نفسك • لم تكن تشعر بالراحة والطمأنينة عند المالك ، وكنت تجهل ماذا تريد • ومات أستاذك قبل الأوان ، وتركك

لامال ومطامع غامضة مبهمة ، ولم يكشفك لنفسك ، وهذا أهم ما فى الامر .. كنت تشعر ان عليك ان تسلك سبيلا أخرى ، سبيلا أرحب . كنت تشعر ان حياة أخرى تنتظرك ، لكنك لم تكن تعرف الطـــريق اليها . ويئست ، فصرت تكره كل ما حولك . ان السنين الست التى قضيتها فى بؤس متلاحق لم تذهب ســـدى ، فقد تعلمت فنك ، وفكرت ، وعرفت فواك ، حتى أصبحت تفهم فنك وقيمتك . يا صديقى لا بد من الصـــبر والشجاعة . ان ما خصتك به الطبيعة أعلى كثيرا مما خصتنى بهأنا . انك فنان أكثر منى مائة مرة ، ولكننى أسأل الله أن يهب لك جزءا مما وهب لى من صبر . اعمل ، ودع الشراب ، كما نصحك بذلك صـــاحبك المالك الممتاز .. واستأنف من البداية ، استأنف من الالف باء . ما الذى يقعدك؟ الفقر ؟ العوز ؟ ولكن الفقر هو الذى يصنع الفنان . وهو أمر لا بد منه فى البداية . انك الآن انسان مهمل ، لا يحتاج اليك أحد ، ولا يحتاج أحد أن يعرفك .. تلك هى الحياة . وسترى فى المستقبل قساة آخرين حين يُعرف من أنت ، وحـــين تُعرف قيمتـــك . ســـيخنقك الحسد وستخنقك النذالات وحماقات الناس أكثر مما يخنقك الفقر . ان الموهبة فى حاجة الى حب ، انها فى حاجة لأن تُفهم ، وسترى كيف سيعاملونك حين تشارف على تحقيق غايتك . سيدوسونك بالأقدام ، سيحتقرون هذا الذى تكون قد اكتسبته بالعمل الشاق ، بالحرمان والجوع وسهر الليل .. لن يشجعك رفاقك الآتون ، ولن يواسوك . لن يدلوك على مافيك من عناصر الخير والصدق . بالعكس ، سيحصون عليك كل غلطة ، ولن يروا غير عيوبك ، ولن يبينوا لك الا ما أنت فيه مخطىء ، سيفعلون ذلك وفى نفوسهم فرح خبيث . واذا تظاهروا لك بأنهم لايحفلون بأمرك بل يزدرون شأنك كانوا فى الحقيقة يفرحون لكل ما تقع فيه من أخطاء (كأن الانسان معصوم من الخطأ) ! .

ثم انك امرؤ لا تتحمل شيئا ، انت انسان صلف في غير داع الى صلف . وأنت لذلك معرض في كل لحظة لأن تجرح كبرياء طبل منفوخ .. ذلك هو سر شقائك ، لانك ستظل وحدك ، وهم العدد الكبير. سيعذبونك بوخزات الابر . لقد بدأت أنا نفسي أشعر بذلك . هيا يا عزيزى ، انهض من كبوتك الآن . ولست أعزل من كل سلاح . انك تستطيع أن تكسب رزقك . لا تحتقر التمارين اليدوية المبتذلة : ليس يضيرك أن يكون عزفك أول الأمر كنشر الخشب ثقلا ، فلطالما نشرت أنا الخشب سهرات برمتها في بيوت أولئك البائعين التافهين . الا انك لا تملك الجلد اللازم ، وانت لهذا مريض .

ثم انك تعوزك البساطة . انك تنتقد ، وتسرف في التفكير : رأسك وحده هو الذى يعمل . انت جرىء في الكلام ، حتى اذا كان عليك أن تمسك بقوسك ارتعشت خوفاً وهلعاً .

ان كبرياءك قوية ، ثم أنت لا تجرؤ على تحقيق شيء . كن شجاعا وعليك بالصبر ، وخذ نفسك بالتمرين ، واذا أعوزتك القوة حقا ، فعليك يومئذ بالمغامرة : ان فيك حماسة ، وان نفسك لتفيض بالعاطفة ، وربما بلغت هدفك على هذا النحو . وهبك لم تبلغه ، فامض مع ذلك الى أمام . لن تخسر في ذلك شيئا ، بل سيزداد امتلاكك ناصية فنك . أجل يا صديقى ، ان « المغامرة » أمر عظيم ، بالنسبة الينا معشر الفنانين !

◆◆◆

وقد أصغى يافيموف في أول الأمر الى صديقه القديم منفعلاً أعمق الانفعال . وحين كان «ب» يتكلم كانت وجنتا يافيموف الشاحبتان تنتعشان وتحمران شيئا فشيئا . والتهبت عيناه ببريق من الجرأة والامل غير معهود فيه .

ولكن سرعان ما انحدرت هذه الجرأة النبيلة مرة أخرى الى

الاستهتار ثم الى الوقاحة ، فلما أنهى «ب» كلامه كان يافيموف قد أخذ يتململ . ومع ذلك فقد شد على يد صاحبه بحرارة ، وشكره . الا انه انتقل فجأة من مشاعر الذل العميق والحزن الشديد الى التعالى والكبرياء والصلف ، فصرخ فى وجه صاحبه بلهجة متحدية ، قائلا : « لا تصدع رأسك بالاهتمام بمصيرى . اننى أعرف ما ينبغى لى أن أعمل ، وسترى قريبا عند من سأعمل ! سأحيى فى القريب حفلات موسيقية رائعة ، وسأحصل على المجد والمال معا » .. ولم يعترض «ب» على هذا الكلام ، بل اكتفى بأن هز كتفيه . وعندئذ افترق الرفيقان القديمان .. الى حين طبعا ..

فان يافيموف سرعان ما بدد المال الذى تركه له رفيقه ، وعاد عبثا عليه مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة .. فعاشرة .. الى أن نفد صبر « ب » . حتى اذا عاد يافيموف مرة ، أوعز «ب» أن يقال له ان صاحبه ليس فى البيت . ومنذ تلك اللحظة لم يعد يراه !

◆◆◆

وانقضت على ذلك بضع سنين . وفى ذات يوم ، بينما كان « ب » عائدا من عمله ، اصطدم ــ فى زقاق صغير ، على باب احدى الخمارات المنحطة ــ بسكران رثّ الثياب يناديه باسمه . كان هذا السكران هو يافيموف ، ولكن وجهه كان قد تغير وشحب حتى لا يكاد يُعرف . واضح اذن انه لم يدع حياته المضطربة الفاسدة ، حتى لقد تركت هذه الحياة على وجهه طابعا لا يمحى .

وشعر « ب » بكثير من السعادة لهذا اللقاء ، وهمّ أن يتكلم ، لكن يافيموف لم يدع له فرصة الكلام ، بل جرّه الى داخل الخمارة ، وهناك ، فى حجرة صغيرة مدخنة استطاع « ب » أن ينعم النظر فى يافيموف . لقد

كان صاحبه فى خرق بالية ، وكان حذاؤه ممزقا ، وكان سرواله ملطخا بآثار الشراب ، وكان شعره قد ابيض وقلت غزارته .

ابتدره «ب» قائلا :

ــ كيف أنت ؟ وأين أنت الآن ؟

وظهرت على وجه يافيموف علائم الاضطراب ، وبدا عليه الارتباك. وكانت أجوبته على أسئلة «ب» مفككة متقطعة ، حتى خيل الى «ب» انه أمام انسان مختل . واعترف يافيموف أخيرا انه لا يستطيع الكلام قبل أن يقدَّم له شىء من الشراب ، وان صاحب هذه الحانة أصبح يرفض أن يقدم له الشراب ديناً منذ مدة طويلة .. احمر وجه « يافيموف » وهو يقـول هذا الكلام ، رغم محاولته أن يتجلد .. وكان منظر هذا كله يثير الشفقة والحزن والألم ، فاهتزت نفس الصديق الطيب ، وفاضت حنانا ورحمة . لقد كانت مخاوفه اذن فى محلها . وأمر يافيمـوف بشراب .. فمـا ان احتساه حتى تغير وجهه !!

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجـر الدمع من عينيـــه عرفانا بالجميل ، وحاول أن يقبِّـل يد «ب» المحسن اليه . وصعق «ب» حين علم أثناء الغداء أن صاحبه البائس قد تزوج ! .. الا أن دهشته تجاوزت كل الحدود حين قال له « يافيموف » ان امرأته هى السبب فى انهياره ، وانها قتلت موهبته .

فسأله «ب» :

ــ وكيف ذلك ؟!

فأجاب :

ــ انقضت سنتان ، يا عزيزى ، لم ألمس خلالهما كمانى . انها امرأة

من طبقة منحطة ، امرأة عامية تافهة .. قتلها الله ! .. ان كل ما نستطيع أن نعمله معا ـ أنا وهى ـ هو أن نتضارب !

ـ ولكن اذا كانت كذلك ، فلم تزوجتها ؟

ـ كنت أتضور جوعا حين عرفتها ، وكانت تملك ألف روبل . وفقدت عقلى ، فتزوجت . وهى التى تهالكت على ، وتمسكت بعنقى .. لم أدفعها الى ذلك . وذهب المال بسرعة يا عزيزى ، أما بقية الموهبة ، فقد ضاعت هى الاخرى !

لاحظ « ب » أن يافيموف كان فى حاجة لأن ينتحل لنفسه الاعذار .

وأردف يافيموف يقول :

ـ لقد هجرت كل شىء ..

وهنا صرح بأنه فى المدة الأخيرة كاد يصل الى كمال امتلاكه ناصية فنه ، وانه لو شاء لما استطاع « ب » أن يلحق به ، رغم أنه أحد أوائل العازفين على الكمان فى العاصمة !

وفوجىء « ب » بهذا الكلام ، فسأله :

ـ ولماذا هجرت اذن كل شىء ؟ أما كان عليك أن تبحث عن عمل ؟

فأجاب يافيموف ، وهو يحرك يده علامة الاحتقار

ـ عبثا . أين منكم من يفهم الموسيقى ؟ ماذا تعرفون من الموسيقى ؟ لا شىء .. لا شىء البتة .. قصاراكم ان تنفخوا لحنا راقصا فى باليه .. انكم لم تروا ولم تسمعوا عازفا على الكمان مجيدا . فعلام أفسد عليكم راحتكم ؟ ظلوا اذن حيث أنتم ، ما طاب لكم ذلك !

ودعم « يافيموف » كلامه مرة أخرى بحركة من يده ، وترنح على

مقعده ثملا ، ثم دعا « ب » ان يصحبه الى بيته ، وألح فى الدعوة . الا أن « ب » رفض ، واكتفى بأن آخذ عنوانه ، مؤكدا انه سيأتى لزيارته فى الغد . وأخذ يافيموف ـ وقد اكتظت معدته ودارت فى رأسه الخمرة ـ ينظر الى رفيقه القديم نظرة ساخرة ، ويحاول أن يلذعه لذعا قويا بأية وسيلة . فلما نهض « ب » يريد الانصراف ، هب « يافيموف » فتناول فراءه الغالى وقدمه اليه ، كما يفعل الخادم مع عظيم من العظماء . وبينما كانا يجتازان القاعة ، توقف يافيموف ليقدم صاحبه للخدم وللجمهور ، قائلا انه أول عازف على الكمان فى العاصمة ، بل العازف الوحيد .. والخلاصة أنه كان فى منتهى الوقاحة .

ومع ذلك ، مضى « ب » يزوره فى صباح الغد ، فى الغرفة الحقيرة الوحيدة التى كنا نسكنها جميعا .. كنت يومئذ فى الرابعة من عمرى ، وكان قد انقضى على زواج « يافيموف » بأمى سنتان . ولقد كانت أمى شقية حقا . كانت قبل أن تتزوج أبى تعمل مربية ، وكانت على جانب من ثقافة ، الا أنها لفقرها تزوجت موظفا عجوزا هو أبى .. ولم تعش معه الا سنة واحدة ، مات أبى بعدها فجأة . وبعد موته وزعت تركته الهزيلة بين وارثيه ، فأصاب أمى قدر زهيد من الدراهم ، وبقيت أمى وحيدة معى .. وكان من الصعب أن تجد من يستخدمها مربية بعد أن أصبحت تحمل على ذراعيها طفلا .

وفى تلك الأثناء ، عرفت يافيموف صدفة ، فأحبته وافتتنت به ، والحق يقال . ذلك انها امرأة شديدة الحماسة ، حالمة ، فصدقت ما كان يكيله يافيموف لنفسه من الثناء على مواهبه ، وما كان يتحدث به عن مستقبله اللامع .

وساعدها الخيال فانطلقت تداعبها آمال رائعة .. وراق لها أن تكون مرشدا وسندا لرجل عبقرى ، فتزوجته .

ولكن ما ان انقضى على زواجها به شهر واحد ، حتى تبددت جميع أحلامها وجميع امالها ، ليحل محلها الواقع المحزن . ذلك أن يافيموف ـ ولعله تزوجها من أجل روبلاتها الالف ـ تنكر لها منذ نفد المال ! .. وكانما راق له أن يتعلل عن اخفاقه بهذه الحجة ، فطفق يعلن لكل من يلقاه أن زواجه قد قتل مواهبه ، وانه يستحيل ان يعمل في غرفة خانقة ، ومن حوله أسرة جائعة ، وانه ما من الهام موسيقى يمكن أن تواتيه في جو كهذا الجو ... وأخيرا ، أن القدر قد تآمر عليه منذ طفولته وانذلك كله واضح وضوح النهار .. ولعله انتهى ـ هو نفسه ـ الى تصـــديق شكاواه ، فلقد كانت هذه الحجة الجديدة تغريه أيما اغراء .

ان هذه الموهبة الشقية ، هذه الموهبة المتعطلة ، كانت تبحث ـ عـلى غير شعور ـ عن علة خارجية تلقى عليها تبعة كل ما تلقاه من اخفاق ، و كل ما تعانيه من بؤس ..

ولم يكن يافيموف قادرا على أن ينظر الى الحقيقة الرهيبة وجهـا لوجه ، فيعرف انه فيما يتصل بفنه قد انتهى الى الأبد ، ومنذ مدة طويلة .. كان يكابر ويتمزق تمزق المريض حاصرته أحلام الحمى .. كان في حرب مستمرة على الحقيقة المخيفة . فاذا اتفق له أن تفتحت عينـــاه لحظة من الزمن ، فاستشف هذه الحقيقة ، كان يذعر حتى ليشعر انه على شفا الجنون .. كان يستحيل عليه أن يتنازل عن أحلامه التى كانت حيا ته نفسها خلال مدة طويلة ، فظل يعتقد ـ حتى لفظ أنفاسه الاخيرة ـ ان ساعته لم تحن بعد ، وان مجده آت لا ريب فيه .

وكان فى الساعات التى يتضعضع فيها ايمانه هذا، يندفع الى الشراب، فاذا ضباب السكر يطرد همومه وينفي قلقه . ولعله لم يكن يدرى الى أى حد كانت حاجته الى امرأته شديدة . لقد كان وجودها حجة يتعلل

بها عن اخفاقه، حتى لقد رسخ فى عقله أخيرا أن حياته لن تستأنف مجراها السليم الا بعد أن يقبر هذه المرأة التى ضيعته !

ولم تكن أمي تفهمه .. فهى امرأة حالمة ، حتى انها لم تستطع أن تتحمل الصدمة الاولى حين تبدت لها الحقيقة المرة . وقد أصبحت سريعة الاهتياج ، كئيبة المزاج ، كثيرة التأنيب والتقريع ، فكانت المشاجرات بينهما لا تنقطع ، وكان هو يجد لذة فى تعذيبها ، وكانت لا تنى تحثه على البحث عن عمل . الا أن عماوة عمى ، وطبعه الشاذ ، وما رسخ في عقله من ان امرأته هى السبب في ضياعه .. كل ذلك جعل منه انسانا لا يعرف الرحمة الانسانية ، فلا سبيل للعاطفة الى قلبه . فكان لا ينقطع عن الضحك عليها ، وكان يقسم بصراحة قاسية انه لن يعس كمانه مادامت امرأته على قيد الحياة. ولم تطق أمي هذه الحياة ، رغم انها كانت تحب زوجها حبا عنيفا ، ورغم أنها ظلت تحبه الى آخر لحظة من حياتها ، فاعتلت صحتها ، وأصبحت لا تفارقها الاوجاع ، ولا يفارقها الذعر والفـزع . الا أن ذلك كله لم يعفها من تبعة اطعام الاسرة ، وحاولت أن تستضيف سكانا يطعمون عندها بأجر ، الا أن زوجها كان يسرق دراهمها خلسة ، وكثيرا ما اتفق لها ان وضعت الصحون فارغة أمام هذين الشخصين اللذين تناضل من أجلهما .

وحين أتى « ب » لرؤيتنا ، كانت أمي منهمـكة فى غسل الثيـــاب وترقيع الملابس العتيقة .. تلك هى الحياة الشقية التى كنا نعيشـــها فى ظلمات غرفتنا الحقيرة .

وتأثر « ب » لرؤية شقائنا . فما كان منه الا أن قال لعمي :

ــ اسمع . انك لا تقول الا هراء وسخفا .. فلا تعد على مسامعى قصة موهبتك الميتة .. ما عملك هنا ما دامت هى التى تطعمك ؟

فأجاب عمي :

ــ لا شيء !

الا أن « ب » لم يكن يتصور ، بعد ، كل ما تعانيه أمي •• فكثيرا ما كان أبي يعود الى البيت في صحبة أناس حقيرين ممن لا عمل لهم الا التسكع في الازقة •• ويالهول ما كان يجري في البيت عندئذ !

وأخذ « ب » يعظ رفيقه القديم طويلا • وصرح له ـ أخيرا ـ بأنه ان لم يرعو عن غيه ويسلك سلوكا شريفا ، فلن يمد له يد المعونه ، وقال له ـ بلا لف ولا دوران ـ انه لن يعطيه شيئا من المال ، ما دام سيبدده في الشراب • ثم طلب اليه أن يمسك بكمانه فيسمعه عزفه ليحكم على قدرته • ومضى عمي لاحضار كمانه ، فانتهز « ب » هذه الفرصة ، ومدّ الى أمي خلسة بعض المال ، الا أن أمي لم تشأ أن تقبله ، فتلك هي المرة الأولى التي تتلقى فيها صدقة ! •• عندئذ مد « ب » المال اليّ أنا ، فأخذته ، وانفجرت أمي المسكينة باكية •• وأتى عمي بكمانه، الا انه طلب أن يقدّم اليه قليل من الخمر ، قائلا انه لا يستطيع أن يعزف بدون ذلك •

وجيء له بالخمر فشرب ، وسرعان ما انطلقت أساريره وانتعش • ثم قال متجها الى « ب » وهو يخرج من الدرج دفترا كبيرا غطاه الغبار :

ـ باسم الصداقة ، سأعزف لك شيئا من تأليفي •

ثم قال وهو يشير الى الدفتر :

ـ هل ترى ؟ •• هذا كله من تأليفي ! •• ولكنه من عجينة أخرى غير ألحان « الباليه » التي تعزفونها •

وأخذ « ب » الدفتر ، وقلب بعض صفحاته صامتا • ثم أخرج من جيبه دفترا موسيقيا ، وطلب الى عمي أن يدع الآن مؤلفاته ، وأن يعزف له قطعة عيّنها له من دفتره هو •

وانزعج عمي من ذلك قليلا • الا انه لخوفه من أن يضيع هـــذا

المحامي الجديد ، نفذ ما طلب اليه . وأدرك « ب » عندئذ أن رفيقه القديم الذي يتباهى بأنه لم يلمس كمانه منذ زواجه ، كان ـ في الواقع ـ قد تمرن كثيرا أثناء ذلك ، فتحسن عزفه تحسنا واضحا خلال فترة انفصالهما !

ليتكم ترون الفرح الذي فاض في وجه أمي المسكينة في تلك اللحظة !.. لقد أخذت تتأمل زوجها في كثير من التباهي والاعتزاز .. وسر الصديق الطيب « ب » سرورا صادقا هو الآخر ، ووعد أن يجد لعمي عملا . وكانت له ـ في ذلك الحين ـ علاقات بذوي الشأن ، فما لبث أن أعمل هذه العلاقات ، فأوصى بعمي خيرا ، بعد أن استقطعه عهدا على نفسه أن يصلح سيرته ويقوم سلوكه . واشترى « ب » لعمي ثيابا لائقة ، وقدمه لأشخاص من أصحاب النفوذ يتوقف عليهم ايجاد العمل الذي كان يريد أن يحصل له عليه . والحق أن « يافيموف » لم يكن يتصلف ويتكبر الا بالكلام ، أما في أعماق نفسه ، فقد ملأه فرحا هذا العرض الذي تقدم به اليه صديقه القديم .

وقد روى « ب » ـ فيما بعد ـ كيف كان يشعر بخجل شديد حين كان عمي يطفق يتملقه ويتزلف اليه ويتذلل له ويغمره بسيل من عبارات التعظيم والاجلال ، خوفا على نعمه أن يقطعها عنه . والحق أن « يافيموف » فهم أنهم يريدون أن يردوه الى الطريق السوي ، ففرح لذلك حتى انقطع عن الشراب .. وأخيرا وجدوا له عملا في جوقة أحد المسارح ، واجتاز المسابقة بنجاح باهر لأنه استطاع خلال شهر من الدأب والعمل ، أن يسترد كل ما كان فقده خلال ثمانية عشر شهرا من القعود عن العمل . وقطع على نفسه عهدا أن لا يكف عن العمل بعد ذلك ، وأن يقوم بواجباته الجديدة على نحو دقيق منظم . الا أن حالة أسرتنا لم

تتحسن • فان عمى لم يعط أمى من رواتبه قرشا واحدا ، بل كان ينفقها كلها على موائد يدعو اليها أصحابه الكثيرين ، الذين لم يلبث عددهم أن أصبح كبيرا جدا •

ولكنه كان يتجنب الاشخاص الذين يتمتعـون بموهبــة حقيقية ، ويجالس خاصة موظفى المسرح وأفراد « الكورس » وغيرهم ممن يستطيع أن يسيطر عليهم •

واستطاع أن يوحى اليهم باحترام خاص لشخصه ، اذ بين لهم ـ منذ البداية ـ ان الناس لا يفهمونه وانه يتمتع بمواهب فذة ، وان امرأته هى السبب فى ضياعه ، وان رئيس جوقتهم ـ أخيرا ـ لا يفهم فى شئون الموسيقى شيئا البتة ! •• وكان يسخر من جميـع فنانى الجوقة ، ومن اختيار المسرحيات التى تمثل ، ومن مؤلفيها • وأخيرا ، أخذ يشرح نظرية جديدة فى الموسيقى • ثم تشاجر مع زملائه ومع رئيس الجوقة ، وكان فظا مع رؤسائه ، حتى اشتهر بين الجميع بأنه انسان مختل ، مزعج ، لا يصلح لشىء •• هكذا عرف يافيموف كيف يتصرف على النحـو الذى يتعب جميع الناس ، فما يطيقون بعد ذلك احتماله !

والحق أن ثمة ما يثير الاستغراب فى هـــذه الادعاءات المتطرفة ، تصدر عن موسيقى فى مثل اهماله ، وعن عازف فى مثل عجزه ، لاسيما حين كان يمدح نفسه بمثل هذا الافتخار ، وبمثل تلك اللهجة الجازمة القاطعة •• ولم يستثن من اتهاماته صديقه «ب» ، بل أخذ يشيع عنه تهما حقيرة ووشايات وضيعة ، يبتكرها ثم يذيعها على انها حقائق لا تقبــل الشك • وانتهى ذلك كله الى أن تعكر الجو بين عمى وبين «ب» • ولم تنقض ستة أشهر على عمله فى الجوقة على هذا النحو الفوضوى المستهتر، حتى اضطروا الى اخراجه • الا انه لم يدع أروقة المسرح بهذه السهولة

وسرعان ما أصبح يُرى من جديد ، بخرقه البالية القديمة ، بعد أن باع أو رهن ملابسه المناسبة ، وطفق يتردد على زملائه القدماء ، لا يعنيه أن يعرف هل يسرهم أو يزعجهم أن يستقبلوا زائرا مثله • فكان ينقل اليهم الأقاويل ، ويروج عندهم الحكايات السخيفة ، ويشكو اليهم حياته يوما بعد يوم ، ويدعو كلا منهم الى زيارته في بيته للاعجاب بزوجته المجنونة •

وطبيعي أنه كان يجد دائما بينهم من يسره أن يقدّم لزميـــل له مطرود قدحا من الشراب ليسمعه يلفق أسوأ الأقاويل • ثم ان حـديث يافيموف كان بارعا يفيض ملاحظاتٍ مرةً لاذعة تفتن هـذا النوع من المستمعين • وكانوا يعاملونه كمهرج شبه‌مجنون ، يحضونه على الثرثرة تزجية للوقت وملئا للفراغ • وكان يحلو لهم أن يسـتثيروا غضـــبه ، بالتحدث أمامه عن عازف جديد وصل الى العاصمـــة • فسرعان ما كان يتغير وجهه ، ويشرد لبه ، ويعضه الحسد ، ويسأل عن هـــذا العازف الجديد من هو وما هي مواهبه • وأعتقد أن ذلك الوقت كان بداية جنونه الحقيقي ، بداية الفكرة الثابتة التي حاصرت عقله واستبدت به ، أعني ايمانه بأنه أول عازف على الكمان ، في بطرسبرج على الاقل ، وأن الحظ هو الذي خانه، وأنه مضطهد مهان، وأنه ضحية أنواع شتى من المؤامرات وان الناس لا يفهمونه ، وانه لذلك مجهول • وكانت هذه الفكرة الاخيرة تروق له وتتملق غروره ، فهناك أناس يحبون أن يعتقدوا أنهم‌مضطهدون مهانون ، حتى يستطيعوا أن يتفجعوا جهارا ، وأن يتأســـوا في سرهم بعبادة عبقريتهم المجهولة • وكان « يافيموف » يعرف جميع العازفين من أولهم الى آخرهم ، ويزعم أنه ما من أحد منهم يستطيع أن يضـارعه • وكان الهواة الذين يعرفون لوثته يحبون أن يثنوا أمامه على عازف من العازفين ليحضوه على ابداء رأيه •

وكانوا يستعذبون ضغينته ، ويستلطفون ملاحظاته المحكمة وكلماته

اللاذعة الفكهة التى كان يطلقها فى التهكم على عزف خصمه الخيالى ! • وكانوا كثيرا ما لا يفهمونه ، الا انهم كانوا يعتقدون أنه ما من أحد فى العالم يستطيع أن يصف مشاهير الموسيقيين فى تلك الآونة وصفا « كاريكاتوريا » فى مثل براعته وفكاهته ، حتى ان الفنانين الذين كان يسلط عليهم لسانه المر كانوا يخشونه بعض الشيء ، لأنهم يعرفون السم الذى يقطر من أحاديثه ، ويشعرون بما فى ملاحظاته من أحكام صائبة ! •• واعتاد الناس أن يروه فى أروقة المسرح وكواليسه •• وكان المستخدمون يدعونه يدخل دون اعتراض ، كشخص لا غنى عنه • لقد أصبح « ترسيت » * هذا المكان •

ودامت هذه الحياة سنتين أو ثلاث سنين ، الى أن سئمه جميع الناس ، حتى فى هذا الدور الأخير ، وعندئذ طرد طرداً نهائيا • واختفى عمى بعد ذاك سنتين كاملتين اختفاء تاما ، لا يعلم أحد ممن يعرفونه الى أين مضى • الا ان «ب» صادفه مرتين على حال من البؤس والشقاء استدرت شفقته ، فتغلبت الرحمة فى قلبه على الاشمئزاز ، فناداه مرة ، الا أن عمى ارتبك ، وتظاهر بأنه لم يسمعه وشد قبعته المشوهة الرثة على رأسه حتى غطت عينيه ، وتابع سيره • وفى صباح أحد الاعياد جاء خادم « ب » يقول له ان صديقه القديم على الباب أتى يقدم اليه تهانيه بالعيد وتمنياته• فخرج «ب» للقائه • كان يافيموف فى حالة سكر شديد ، فلما رأى «ب» خرّ راكعا حتى كاد يلامس الارض اظهارا لذله ، وتمتم ببضع كلمات ، وأبى أن يدخل • وكان لسان حاله طبعا يقول : ليس من حقنا نحن أهل الشقاء أن نعاشر عظماء فى مثل منزلتكم •و كل مايسمح لنا به ، نحن صغار الناس ، ان نفعل ما يفعله الخدم : نتملق واقفين على

عتبة الباب ، ونخر راكعين ثم ننصرف . ذلك كان سلوكه المزرى . ولم يره «ب» منذ ذلك الحين الا بعد مدة طويلة ، أى يوم وقعت الواقعة التى اختتمت بها هذه الحياة الشقية المريضة الفاسدة . لقد كانت فاجعة فظيعة. انها لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر طفولتى فحسب ، بل بحياتى كلها ، وسأروى لكم الآن كيف وقعت . ولكن لا بد لى ، قبل كل شىء ، أن أذكر ماذا كانت طفولتى ، وماذا كان بالنسبة الىّ ذلك الرجل الذى خلّف فى عواطفى الاولى أثرا مؤلما الى هذا الحد ، ذلك الرجل الذى سبب موت أمى المسكينة .

الفصل الثاني

تبدأ ذكرياتى الا متأخرة جدا ، فى نحو التاسعة من عمرى . لاأدرى كيف يمكن ذلك . الا أن كل ما انقضى قبل هذا العهد لم يدع فى نفسى أى أثر يمكن أن أذكره الآن . ولكننى فى مقابل ذلك أستطيع أن أرى بوضوح تام كل ما وقع بعد الثامنـــة والنصف من من عمرى ، يوما بيوم ، دون أى انقطاع ، كأنه وقع بالامس . صحيح اننى أستطيع أن أتذكر بعض الحوادث التى سبقت هذه المرحلة ، الا أن ذكرياتى عن هذه الحوادث أشبه بأحلام مريض : ما زلت أرى ـ مثلا ـ سراجا صغيرا يعس فى ركن مظلم الى جانب أيقونة قديمة . وما زلت أعلم أننى كنت ذات يوم فى الشارع ، فداسنى حصان ، وقيل لى اننى بقيت بعد ذلك طريحة الفراش طوال أشهر ثلاثة . وما زلت أذكر أيضا أننى أثناء ذلك المرض استيقظت ذات مرة مذعورة (وكنت أنام مع أمى عـلى فراش واحد) وان أوهامى والسكون وقرقعة فأر فى ركن الغرفة أرعبتنى أشد الرعب ، فقضيت بقية الليل أرتعد منكمشة على نفسى تحت الغطاء ،

دون ان اجرؤ على ايقاظ امي (وهـــذا ما يجعلني افترض انني كنت اخشاها اكثر مما اخشى سائر المخاوف مجتمعة !) •• الا انني منذاللحظة التي شعرت فيها بذاتي ، أصبح نموي سريعا وعجيبا ، حتى أنني أحسست بكثير من المشاعر التي ليست من الطفوله في شيء • لقد اضاء كل شيءامام نظري ، وسرعان ما اصبح كل شيء مفهوما • ان اللحظة التي بدات فيها ذكرياتي الحقيقية قد تركت في نفسي اثرا حادا من الالم ، وكان هـــذا الاثر يزداد يوما بعد يوم ، حتى اضفى على جميع حياتي التي قضيتهـا بين عمي وأمي ، أعني على طفولتي كلها ، لونا قاتما غريبا !

يخيل الي الان انني كانما استيقظت فجاة من نوم ثقيل ، استيقظت في غرفة كبيرة منخفضه السقف ، قذرة ، تفوح منها روائح الاختناق ، جدرانها ملطخة بلون رمادي قذر ، وفي احـدى زواياها تنتصب مدفاة روسية قديمة • والنوافذ تطـل على الشـارع ، او قل على سـطح البيت المقابل ، وهي جميعها أشبه بشقوق ، لشدة ضيقها وامتدادها عرضا ، وحوافيها تبلغ من البعد عن أرض الغرفة أنني احتجت ، فيما أذكر ، الى أن أضع كرسيا والى أن أضع فوق الكرسي مقعدا حتى أستطيع أن أصل الى هذا المكان الذي كنت أحب أن أجلس فيه حين لا يكون في البيت أحد • لقد كان المنظر يمتد من هذه النوافذ على نصف المدينة • لقـد كنا نعيش تحت السقف من عمارة كبيرة تتألف من ستة طوابق ، وكان أثاث بيتنا كله لا يزيد على « ديوان » من قماش مشمع أصبح مزقا مغبرة باهتة ، وعلى طاولة كبيرة من خشب أبيض وكرسيين ، وعلى سرير أمي ، وخزانة صغيرة ، وأخرى متداعية أسندت الى زاوية من زوايا الغرفة ، وحاجز من ورق تمزق •

اني أتذكر ذلك المساء ، عند الشفق • كان كل شيء قد تبعثر على

أرض الغرفة : المقشة ، خرق المسح ، أوانينا التي من خشب ، زجاجة مكسورة ، وأشياء أخرى أيضا •• وأمي تبكي مرتعدة من شدة الهيجان، وعمي جالس في أحد أركان الغرفة ، يرتدي ردنجوته السرمدي • وكان عمي يرد على كلام أمي هازئا ساخرا ، وكان ذلك يزيد غضب أمي •

وفجأة تعود المقشة والأواني الى رقصها العنيف • وأخذت أصرخ غارقة في الدموع ، واندفعت الى أمام أحاول أن أباعد بينهما • كنت في حالة ذعر هائل • وأحطت عمي بذراعي أريد أن أغطيه بجسمي لأحميه• كنت أعتقد ، لا أدرى لماذا ، ان أمي هي المخطئة في غضبها عليه ، وانه ليس بمذنب • ووددت لو أتشفع له ، وأن أحتمل عنه كل قصاص •

كنت أخاف أمي خوفا شديدا ، فكان يتراءى لي انه ما من أحد الا ويخشاها كما أخشاها أنا •

وشدهت أمي في أول الأمر ، ثم أمسكت بيدي وجرتني الى ماوراء الحاجز • واصطدمت يدي بالسرير فآلمتني ألماً شديداً ، الا أن الخوف كان أشد من الألم ، فلم أحرك ساكنا ، ولا ظهرت على وجهي علامة من علامات الألم •

وما زلت أذكر أن أمي خاطبت أبي بعد ذلك بلهجة عنيفة وهي تشير الىّ باصبعها (سأسميه بعد الآن أبي في قصتي هذه ، لأنني لم أعلم أنه ليس أبي الا بعد مدة طويلة) • ودام هذا المشهد ساعتين طويلتين كنت أحاول عبثا خلالهما ، وأنا أرتجف من القلق ، أن أحرز كيف سينتهي الأمر •

وأخيراً هدأت المشاجرة ، وانصرفت أمي • وعندئذ ناداني أبي

فقبلني ، وداعب رأسي ، وحملني الى ركبتيه بينما كنت أشد جسمي اليه برفق وحب •

كانت تلك فيما أعتقد أول ملاطفة أبوية • ولعلها هي السبب في أن ذكرياتي اصبحت منذ تلك اللحظة واضحه هذا الوضوح • ولاحظت بجلاء تام انني اكتسبت عطف أبي بالتحزب له • ولعل هذه هي المرة الاولى التي قام فيها في ذهني أن امي كانت تجعل حياة أبي قاسية شاقة• ومنذ استقرت هذه الفكرة في نفسي اصبحت تعذبني وتزيدني عذابا يوما بعد يوم •

وشعرت نحو أبي ، منذ تلك اللحظة ، بحب ليس له حدود ، حب غريب ليس من الطفولة في شيء • حتى لأستطيع أن أقول ان هذه العاطفة تشتمل على شيء مما تشعر به الام نحو ابنها من حب وقلق ، ان لم يكن مضحكا أن توصف عاطفة طفل بمثل هذا • كان يتراءى لي أن أبي حقيق بالرثاء ، معذب ، مضطهد ، وأن من الظلم أن لا أحبه حبا قويا ، وأن لا أواسيه ، وأن لا أظهر له أية عاطفة ، وأن لا أهب له نفسي مخلصة صادقة • ومع ذلك فانني لا أعرف الآن لمَ كانت الفكرة التي استقرت في ذهني يومئذ هي أن أبيأشقى الناس وأكثرهم عذابا • ما الذي ألهمني هذه الفكرة ؟ كيف استطعت ، أنا الصغيرة ، أن أنفذ الى أعماق نفسه فأدرك الآلام التي كان يعانيها ثمرة لاخفاقه ؟ لقد نفذت مع ذلك الى هذه الآلام ، وان كنت قد بدلت صورتها طبعا ، وجعلتها في مستوى خيالي • والى الآن لا أدري من أين أتاني هذا الحدس • لعل قسوة أمي الشديدة عليَّ هي التي دفعتني الى التعلق بأبي ، تعلقي بانسان يعاني مثل الشقاء الذي أعانيه ، وفقا للصورة التي رسمتها نفسي له •

رويت الى الآن يقظتي الأولى من نوم الطفولة ، والحادث الأول في

حياتي . وقد جرحني هذا الحادث جرحا عميقا ، ومنذ ذلك اليوم أخذ نموى يتم بسرعة عجيبة ، بسرعة مرهقة ، وأصبحت لا أكتفي بالمشاعر التي تصلني من الخارج بل صرت أفكر ، وأحكم ، وألاحظ . فاذا كل ما يحيط بي يرتسم في ذهني وفقا للصورة الخيالية التي كان يكررها أبي، والتي كان لا بد أن أعدها الحقيقة الخالصة . وأدركت أشياء كثيرة عجيبة. أدركت مثلا (لا أفهم الآن كيف تم لي ذلك) انني أعيش في أسرة عجيبة ، وأن أبوي لا يشبهان الناس الذين كان يتفق لي أن ألقاهم . كنت أتساءل : « لماذا يختلف مظهر الناس الذين أراهم عن مظهر أبوي ؟ لماذا أرى في وجوههم فرحا .. على حين أنه ما من أحد يضحك يوما في بيتنا ، في ركننا النائي ، ما من أحد يعرف الفرح سبيلا الى نفسه !؟ » لست أدري الآن ما الذي كان يدفعني ، أنا الطفلة التي لم تتجاوز التاسعة من عمرها ، الى ملاحظة الناس بمثل هذا الانتباه الشديد ، والى الاستماع الى كل كلمة يقولونها بمثل هذه المرارة اللاذعة ، حين كنت ألقاهم عرضا على سلم البيت ، أو في الشارع ، أو حين كنت أمضي الى أحد الحوانيت ، ملفعة بثوب أمي ، لأشترى ببضعة قروش قليلا من السكر أو الشاى أو الخبز ؟ .. وفهمت ــ لا أدري كيف ــ أن شقاء لا يحتمل يختبيء في بيتنا ، في هذا البيت الحقير . وكنت أعصر ذهني باحثة عن علة ذلك ، ولا أدري ما الذي ساعدني على حل اللغز على النحو التالي : قلت في نفسي أن أمي هي المسئولة ، انها سبب شقاء أبي . وهذا يضطرني الى التساؤل مرة أخرى : كيف أمكن أن ترسخ هذه الفكرة الشيطانية في نفسي . ومهما يكن من أمر فان تعلقي بأبي أخذ يزداد ، وأخذ يزداد كرهي لأمي ، وما زالت هذه الذكرى تحدث لي ألما عميقا حتى الآن .

وهذا حادث آخر عجّل تعلقي بأبي أكثر من الحادث الأول : ذات

مرة ، في نحو الساعة التاسعة من المساء ، أرسلتني أمي الى السوق لشراء قليل من الخميرة ، أثناء غياب أبي عن البيت . ووقعت في الشارع وانا عائدة الى البيت فانسفح على الارض كلُّ ما كان يحويه الفنجان . وتصورت ، اول ما تصورت ، جامّ الغضب الذى ستصبه أمي على راسى ، وشعرت الى جانب ذلك بالم فظيع في ذراعى اليسرى ، ولم استطع أن أنهض على قدمى ، وتجمع حولى « المتفرجون » . وحاولت امراة أن تنهضنى ، ومر صبى وهو يركض فلكمنى على رأسى ومضى ، وأنهضونى أخيرا ، فلملمت قطع فنجانى ، ومضيت مرتعشة مرتجفة لا أكاد أقوى على السير . وفجاة لمحت أبي . لمحته في وسط جمهور تجمع أمام المنزل الجميل الذى يقابل بيتنا . كان هذا المنزل الذى يقطنه أناس أغنياء يتألق بضياء رائع . وأمام باب البيت كان يقف عدد من العربات . ومن خلال النوافذ كانت تخرج أصوات موسيقى . وأمسكت بطرف ثوب أبي ، وأريته فنجانى المكسور ، وذكرت له ، باكيةً ، انني خائفة من العودة الى البيت . لا أدرى الان لِمَ كنت على ثقة من أنه سيصحبنى وأنه سيدافع عنى ، لا أدرى من أين أتانى هذا اليقين ، ومن ذا الذى أوحى الىَّ بأنه سيحمينى ، وأنه يحبنى أكثر مما تحبنى أمي كثيرا . لا أدرى كيف اتجهت اليه دون أن يساورنى أى خوف . وأمسك أبي بيدى ، وأخذ يواسينى ، ثم قال لى انه سيرينى شيئا . ورفعنى بين ذراعيه . لم أستطع أن أرى شيئا ، لأنه شد ذراعى المجروحة ، فآلمنى ألما هائلا . غير أننى لم أصرخ ولم أتوجع ، لأننى كنت لا أحب أن أزعجه في شيء . وسألنى ملحا هل أرى شيئا . وحاولت ، جهد اليائس ، أن أجيبه بما يحب ، فقلت له اننى أرى ستائر حمرا . وحين أراد أن يحملنى الى الجانب الآخر من الشارع ، بالقرب من البيت ، رأيتنى أبكى فجأة على رغم ارادتى وأخذت أتوسل اليه ، وقد أحطت عنقه بذراعى ، أن يصعد بى الى البيت

بسرعة • انني أتذكر الان آن مداعبات أبي في تلك اللحظة كانت تؤلمني، فانني لم احتمل ان يحبني ويداعبني احد هذين اللذين أود آن احبهما كل الحب ، في وقت اخاف فيه الاخر وأخشى ان أمثل بين يديه • الا أن أمي لم تكد تغضب ، وأمرتني آن آمضي الى فراشي وآنام • وأذكر أن ألم ذراعي أخذ يشتد ويشتد ، حتى سبب لي حمي شديدة • ورغم ذلك كانت سعادتي عظيمة جدا ، لأن الامر انتهى بسلام ، حتى لقد حلمت طوال الليل بالبيت الذي يقابل بيتنا وبستائره الحمر •

لذلك كانت صورة هذا البيت أول ما مثل في خاطري حين استيقظت في صباح اليوم التالي • وما كادت أمي تنزل الى فناء المنزل ، حتى تسلقت حافة النافدة لاتامل ذلك البيت مرة أخرى ، وكنت آفكر فيه منذ زمان طويل ، وكنت أحب آن أنظر اليه في المساء خاصة ، حين تضيء الأنوار في الشارع ، فتصطبغ بلون الدم ، تحت الاشعة الخاصة التي تسقط عليها من خلال نوافذه العالية المغللة بالستائر الارجوانية ، والمضاءة اضاءة قوية •

وأمام الباب ، تقف دائما عربات فاخرة شدت اليها خيول رائعة • كان كل شيء يثير في نفسي حب الاستطلاع : الصراخ ، الازدحام ، القناديل المبرقشة ، النساء المتبرجات ينزلن من العربات • كان خيالي يخلع على هذا كله جوا سحريا مترفا كجو الاساطير • وفي ذلك اليوم على وجه الخصوص ، بعد لقائي بأبي على عتبة هذا البيت ، ازداد البيت في نظري فتنة وسحرا • وكانت صور الروعة قد بدأت تتخاطر في ذهني الهائم • اني أعيش بين أناس شاذين كأبي وأمي ، فلا عجب أن أصبحت شاذة عجيبة ، أنا الأخرى ، فما من ذلك مهرب • من ذلك أن رؤية أمي وهي تتحمل هذا العناء كله في سبيل اعالتنا ، وما كنت أسمعه من تقريعها أبي دون انقطاع على انها وحدها تعمل ، كل ذلك كان يشغل بالي

ويصدعه . فكنت أتساءل ، بالرغم مني : لماذا لايساعدها أبي آبدا ، ولماذا يعيش بيننا كأنه غريب عنا ؟ ان بعض كلمات أمي أيقظت في نفسي هذه الفكرة . وكانت لى مفاجأة كبيرة يوم فهمت أن أبي شخص « موهوب » ، انه « فنان » . ورسخت هذه الكلمة فى ذاكرتى ، وسرعان ما استقر فى ذهنى ان الفنان مخلوق عجيب ، لا يشبه غيره من الناس . لعل سلوك أبى هو الذى انتهى بى الى هذه النتيجة ، أو لعل كلمة سمعتها ثم نسيتها هى التى رسَّخت فى نفسي هذه الفكرة . ومهما يكن من أمر فان هناك عبارة قالها أبى ذات يوم بحرارة قوية ورسخت فى ذاكرتى لا تبرحها قال : سيأتى يوم لن يكون هو فيه انسانا رثاً بل سيداً محترما ورجلا غنياء سيأتى يوم يبعث فيه بعثا جديدا ، هو اليوم الذى تموت فيه أمى ! ..أذكر اننى ما ان سمعت هذه الكلمات حتى انتابنى فى أول الأمر رعب شديد ، فلم أستطع أن أبقى فى الغرفة . فهربت الى الممر البارد ، وانكمشت الى جانب النافذة ، وقد اعتمدت وجهى بين يدى ، وأخذت أشهق وأنتحب . ثم لما فكرت فى الأمر مليا ، وهبَّ الخيال الى نجدتى ، وجدتنى آلف رغبة أبى الكريهة هذه . وكنت ، من جهة أخرى ، لا أستطيع أن أظل مدة طويلة أمام سر لا يمكن فهمه ، وكان لا بد لى من أن أستقر على افتراض يرتاح اليه عقلى ، وهكذا وجدتنى أعتقد (لا أدرى كيف تم ذلك) أنه متى ماتت أمى فسيترك أبى هذا البيت الحقير ، ويمضى بى الى مكان آخر . أما أين يكون ذلك المكان ، فذلك ما لم أستطع أن أتخيله واضحا الى آخر لحظة . والذكرى الوحيدة التى بقيت لى عن المكان الذى سنمضى اليه (وكنا سنمضى اليه من أجلى أنا طبعا) هو أنهسيكون مكانا رائعا فخما عظيما . لقد خلقت من أحلامى الخيالية واقعا حيا . وتراءى لى اننا سنصبح أغنياء فى طرفة عين ، فما احتاج أن أذهب الى شراء بعض

الحاجات من الدكاكين ، وكان هذا العمل كريها جدا الى نفسي ، فقد كان أولاد البيت المجاور يتحرشون بي كلما خرجت ، وكنت أخشاهم خاصة حين أحمل قليلا من الحليب أو الزبدة ، فأسقط ما أحمل على الأرض ، وأتعرض لعقاب أمي القاسي • وتراءى لي أن أبي سيشترى لنفسه ثيابا جميلة • وتخيلت أننا سنمضي بعد ذلك الى البيت الذي يقابل بيتنا ، فنقيم فيه • نعم ، ان البيت الغني ذا الستائر الحمر الذي رفعني أبي أمام نوافذه ذات يوم من أجل أن يريني ما بداخله ، قد هبّ كذلك لنجدة خيالي • وحللت المسألة على الفور : سيكون هذا البيت بيتنا ، وسنمكث في حناياه في عيد دائم ، في سعادة أبدية • ومنذ تلك اللحظة صرت اذا جاء المساء أقف على نافذة بيتنا أتأمل القصر المسحور في شوق ما بعده شوق : فأرى وصول العربات ، وأرى الزوار في أجمل الحلى ، وأسمع أصوات موسيقى عذبة تخرج من خلال النوافذ ، وأتأمل الظلال التي تتخاطر على الستائر ، وأحاول أن أحرز ما يعمله الناس في هذا البيت الذي كان في نظري جنة ، وعيدا أبديا ، وصرت أحتقر مسكننا الوضيع ، وأحتقر الخرق البالية التي أرتديها •

◆◆◆

وذات يوم غضبت أمي فأمرتني أن أنزل عن النافذة ، حيث أطلق لأحلامي العنان على عادتي • فما لبثت أن اعتقدت أن أمي انما تمنعني من التفكير في هذا البيت ومن النظر اليه لأن مستقبلنا لا يحلو لها ، ولأنها تريد أن تحول بيننا وبينه • وظللت طوال السهرة أرقب أمي بحذر •

كيف أمكن أن أكون في مثل هذه القسوة على انسان لقي من العذاب الأبدى ما لقيت أمي ؟ اليوم فقط أصبحت أدرك انها كانت تعيش في جحيم ، اليوم فقط أدرك ، وقلبي يتمزق من الأسى ، أنها شهيدة • على انني في تلك الفترة القاتمة من طفولتي الغريبة ، في تلك الفترة من

حياتي التي كنت انمو فيها نموا غير طبيعي ، كثيرا ما كان ينقبض صدري الما ورحمه ، كثيرا ما كان يثور ضميري كلما تراءى لي انني اظلم امي • الا ان القلق والخوف والريبة ظلت اقوى من كل شيء اخر • والحق اننا كنا بعيدين احدانا عن الاخرى • فلست أذكر انني تمنيت في يوم من الايام ان اخلو بها • لذلك كانت أية ذكرى من ذكرياتي تسمم الان نفسي وتجعلني أرتعد من شدة الألم •

أذكر مرة (ولا شك أن ما سأرويه أمر مبتذل ، الا أن ذكـريات من هـذا النوع هي التي تعاودني الان وتعـذبني) أن أمي أرادت ذات مساء ، اثناء غياب ابي ، ان ترسلني الى الدكان اشتري لها قليلا من الشاي والسكر • ولكنها قبل أن ترسلني فـكرت طويلا ، ولم تعـزم أمرها ، وجعلت تعد ، بصوت عال ، المبلغ الضئيل الذي كانت تملكه قطعاً نقدية صغيرة • اعتقد أنها ظلت تعد هذا المبلغ خلال نصف ساعة كاملة دون أن تفرغ من ذلك • لقد كانت المسكينة تصاب في بعض اللحظات بنوع من التبلد ، نتيجةً لما كانت تقاسيه من آلام • واذا صدقت ذاكرتي ، فقـد تمتمت أمي لا أدري بماذا ، دون أن تكف عن عد دراهمها ببطء وعناية كبيرة• كأن الكلمات كانت لاتوافيها • وكانت شفتاها دكناوين، ووجنتاها كابيتين مكفهرتين ، ويداها مرتجفتين ، وكانت لا تني تهـز رأسها ، على عادتها حين تتخذ قرارا •

وأخيرا قالت وهي تنظر الي : « كلا •• مستحيل •• خير لي أن أنام •• أليس كذلك ؟ هل تحبين أن تنامي يا نيتوتشـكا ؟ » • ولم أجب • عندئذ رفعت أمي رأسي ، ونظرت اليّ في رفق ولطف وحب ، وأشرقت في وجهها ابتسامة صافية تفيض بحنان الأم ، فما رأيتني الا وقلبي يخفق•

لقد نادتني بقولها نيتوتشكا ، وهذا يشير الى انها في تلك اللحظة أحبتني حبا خاصا • كانت هي التي تخيلت فيما مضى ان تغير اسمي ، وهو آنا ، فتناديني بهذا الاسم المصغر الذي يشير الى الحب ، وحين كانت تناديني بهذا الاسم المصغر كان ذلك يعني أنها على استعداد لأن تلاطفني وتداعبني • وانفعلت انفعالا قويا حتى اشتهيت أن أطوق عنقها بذراعي ، وأن أشاركها البكاء •

وداعبت رأسي طويلا ، ولعلها فعلت ذلك على نحو آلي دون أن تشعر ، وظلت تكرر : « صغيرتي انا ، حبيبتي نيتوتشكا » • وتفجرت من عيني الدموع ، الا انني تجلدت لأحبسها •• كابرت جهدي حتى لاأدعها ترى انفعالي ، رغم ما يسبب ذلك لي من ألم •

كلا ! لا يمكن أن يكون هذا مجرد قسوة مني • لا يمكن أن أشعر نحو أمي بالعداوة لمجرد قسوتها عليّ ! لقد كان يدفعني الى كرهها هـذا الحب الموحّد الشديد الذي اشعر به نحو أبي • لقد كان يتفق لي ، في بعض الأحيان ، أن أستيقظ من نومي ليلا ، في الركن الذي أنا فيه ، على حصيرتي الصغيرة ، تحت غطائي الرقيق ، وقد تملكني شعور مخيف • كنت ما زلت أتذكر في ذلك الحـين ، وأنا شـبه نائمة ، انني قبل هذه المدة بقليل ، كنت أنام مع أمي ، وكنت أقل خوفا حين أستيقظ ، وكان يكفيني أن أشد نفسي اليها ، وأن أغمض جفني ، وأن أعانقها بقوة ، حتى أنام على الفور • ثم لقد كنت أشعر انني ، رغم كل شيء ، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن حب أمي في السر • وأدركت بعد ذلك أن كثـيرا من الاطفال قد يفقدون مشاعر الرحمة فقداناً رهيباً ، وأنهم اذا أحبوا شخصا أحبوه وحده ولم يعبأوا بمن عداه • فكذلك كانت حالي أنا •

وكان يسيطر على منزلنا الحقير ، في بعض الأحيان ، صمت رهيب

يدوم اسابيع برمتها ، وذلك حين يسام أبي وأمي مشاجراتهما . كنت أعيش بينهما حياتي كلها دون ان انبس بكلمة، غارقة في افكاري وحزني، ساعيه وراء خيالات آحلامي . وكنت ، لفرط ما تأملتهما ، افهم ما يكن كل منهما للآخر ، وأفهم هذا البغض الاصم المستمر الذى يرين بينهما ، وافهم هذه الحياة الفاسدة التي يعيشانها في كوخنا الحقير .

وطبيعي ان آفسر ذلك كله على النحو الذى أستطيعه ، ما دمت أجهل أسبابه ولا اعرف نتائجه . لقد كان يتفق لى خلال سهرات الشتاء الطويلة أن أظل قابعة في ركني ساعات كاملة أتأملهما، وكنت أحاول وأنا أطوّف بصرى في وجه أبي ان أحزر مايفكر فيه ، وما يشغل باله . وكان وضع أمي يدهشني في بعض الاحيان ادهاشا يبلغ حد الفزع : كانت تسير في الغرفة جيئة وذهابا خلال وقت لا ينتهي ، وكان يتفق لها ذلك حتى في الليل ، حين يمضها الارق ، فكانت تدندن وتشير بيديها كأنها وحدها لا يراها أحد ، فهي تارة تضع يديها على صدرها ، وتارة تعضهما وقد تملكها يأس رهيب ، وتارة تجرى دموعها على وجهها ، ربما دون أن تعلم لذلك سببا ، فقد كانت تفقد وعيها في بعض الاحيان . لقد كانت تعاني مرضا خطيرا أهملته اهمالا تاما .

وازدادت وطأة وحدتي وصمتي حتى أصبحت لا أجــرؤ على أن أخرج منهما . وانقضت سنة كاملة على تيقظ شعورى ، وعلى استرسالى في التأملات والاحلام ، وعلى تمزقى صامتةً بين مطامح غامضة نشــأت فيّ بغتة . وأصبحت متوحشة كأنما أنا عشت في وسط غابة . وأخيرا انتبه أبي الى وضعى هذا ، فاستدعاني وسألني لماذا أحدّق فيه كل هذا التحديق . ولا أدرى الآن بم أجبته . الا أنه ، بعد لحظة من تفكير ، وعدني ، وهو يداعب يدى ، أن يحضر لى كتاب الابجــدية في الغد ، وأن يعلمني القراءة .

وانتظرت هذا الكتاب بفارغ صبر ، وحلمت به الليل كله ، دون أن أدرك ما هي الابجدية على وجه الدقة • وفي اليوم التالي بدا أبي يعلمني القراءة • وفهمت ما يطلب الي في طرفة عين ، وتقدمت في دروسي بخطى سريعة ، لعلمي أن ذلك يسر أبي ، وكانت تلك أسعد مرحلة في طفولتي البائسة • وحين كان أبي يثني على سرعة فهمي ، ويداعب رأسي ويقبلني، كنت أطفق أبكي من شدة الفرح •

وازداد أبي حبا لي شيئا بعد شيء • وأصبحت أجرؤ على أن أكلمه ، وأصبحنا كثيرا ما نمضي نثرثر معا ساعات طوالا • وكان يتفق لي أن لاأفهم شيئا مما يقول ، ولكنني كنت أتظاهر بفهم كل شيء ، خشية أن يظن أبي انني أضيق بحديثه • واعتاد أن يقضي السهرة معي ، فأصبح يعود الى البيت عند الغروب ، فما ان يصل حتى أحمل أبجديتي وألحق به ، فيجلسني أمامه على المقعد ، حتى اذا فرغنا من الدرس أخذ يقرأ لي بصوت عال • وكنت لا أفهم شيئا مما يقرأ • الا انني أضحك دون انقطاع، لاعتقادي بأن ذلك يسره سرورا عظيما • ولم أكن مخطئة في اعتقادي ذلك : فقد أولع بي حقا ، وكان يفرحه أن يسمعني مغرقة في الضحك • وفي ذات مساء ، قص علي ، بعد الدرس ، حكاية من حكايات الجن • كانت تلك أول حكاية أسمعها • وغمرتني هذه الحكاية بفيض من الفتنة والسحر • على أن خيالي لم يكن في حاجة الى مثلها ليفتتن ويسحر • كل ما في الأمر انني تقبلت الآن هذه الحكاية على انها جد ، وخلقت من الوهم واقعا • فاذا البيت ذو الستائر الحمر يتراءى لي ، لا أدري كيف ، واذا الشخصية الاساسية في الحكاية تتقمص أبي وهو يقص علي الحكاية ، واذا أمي تظهر لتحول بيننا وبين السفر لا أدري الى أين ، واذا أنا أعيش مع أحلامي الرائعة وقد حم رأسي وغلي برؤاه العجيبة المستحيلة• وتداخل

هذا كله وتشابك ، ثم لم يلبث أن كون سديما لاشكل له ، سديما جعلني، خلال مدة من الوقت ، افقد صوابي وأفقد شعوري بالواقع ، واعيش بين السحب •

وأحرقتني رغبة قوية في أن أسال أبي عما يخبئه لنا المستقبل ، عما ينتظر هو نفسه ، عن الامكنة التي سيقودني اليها ، عن الموعد الذي سنترك فيه بيتنا الحقير • كنت واثقة من جهتي ، ان هذا كله لن يتأخر كثيرا ، ولكن كيف وعلى أية صورة ؟ عبثا حاولت أن أبحث عن جواب على هذا السؤال المرهق • وكان يتراءى لي في بعض اللحظات ، ولا سيما أثناء السهرة ، ان ابي سيطلب الي فجأة ، بحركة خفية ، أن أمضي الى الممر ، فاذا انا أنهض خلسة ، دون أن تلاحظ أمي ذلك ، فأتناول أبجديتي عابرة ، واتابط اللوحة (وهي صورة مطبوعة لا قيمة لها كانت متدلية على جدار الغرفة بدون اطار منذ زمن لا أول له ، وكنت قد عزمت على أن أحملها معي) ، ثم نمضي دون أن نحدث ضجة ، نمضي الى غير رجعة ، لا الى البيت ولا الى أمي • وذات مرة ، لم تكن أمي في البيت ، فأردت انتهاز لحظة رأيت أبي فيها فرحا جدا (يتفق له ذلك بعد أن يحتسي قليلا من الشراب) ، فاقتربت منه لأدير الحديث حول هذا الموضوع الحبيب الي • وسرعان ماظفرت باضحاكه • عندئذ أحطت عنقه بذراعي ، وشددت نفسي بقوة اليه ، ورحت أسأله (وقد أخذ قلبي يخفق من شدة الخوف مما سأقوله من أمور سرية رهيبة) رحت أسأله في تمتمة وفي كلام متهدج ، عن المكان الذي سنمضي اليه ، وعن موعد السفر أهو قريب ، وعما سنحمله معنا ، وعن حياتنا كيف ستكون ، وعن البيت ذي الستائر الحمر هل نسكنه ؟

- أي بيت ؟ أي ستائر حمر ؟ ماذا تقولين أيتها الحمقاء الصغيرة ؟

وشعرت برعب لم أشعر به من قبل ، وأخذت أشرح له اننا لن نبقى

هنا في هذا البيت الحقير بعد موت أمي ، وانه سيأخذني بعـــد موتها الى مكان آخر نعيش فيه سعيدين ، غنيين • وآكدت له آخيرا أنه هو الـذي وعدني بذلك • وكنت على يقين ، وأنا أقول له هذا الكلام ، من أن أبي قد حدثني عن هذه الاشياء ، أو انني قدرتها تقديرا على الاقل •

وأردف أبي يقول :

ـ أمك ؟ تموت ؟ حين تموت ؟ ماذا تقولين أيتها البلهاء الصـــغيرة البائسة ؟

قال ذلك وهو ينظر الىّ مشدوها ، مقطبا ما بين حاجبيـه الكثيفين المبيضين ، مكفهر الوجه على حين فجأة •

ثم وبخني ، وظل مدة طويلة يقرعني ويقـــول انني طفلة بلهـــاء لا أستطيع أن أفهم شيئا •

لست أتذكر الآن ألفاظ التأنيب التي صبها على رأسي ، ولكن استياءه كان شديدا جدا •

على أنني لم أفهم قوله ، ولا فهمت هذا الحزن الذي شعر به حين أدرك انني أصغيت الى كلامه وترجمت الى لغتي الخاصة عبارات البغض التي كان يكيلها لأمي •

ومهما يكن من أمر سلوكه حينذاك ، ومهما تكن آراؤه الشخصية السيئة في أمي ، فمما لا شك فيه أن كلامي قد شدهه • أما أنا فانني لم أستطع أن أفهم غضبه ، وشعرت بحزن مر ، وانفجرت باكية ، واعتقدت أن ما ينتظرنا هو من الخطورة بحيث لا يجوز لي ، أنا الطفلة الغبية ، أن أتحدث عنه ولا أن أفكر فيه • على انني ان لم أفهم شيئا من غضب أبي ، فقد شعرت انني أهنت أمي ، ولو شعورا غامضا مبهما ، حتى أن الخوف

والارتياع بلغا منى مبلغا جعل الشك ينشب اظافره فى أعماق نفسى • وحين رآنى ابى باكية معذبة ، اخذ يواسينى ، ومسح دموعى بكمه ، وأمرنى آن اكف عن البكاء • وبقينا بعد ذلك جالسين مدة من الزمن صامتين ، وكان باديا على وجه أبى انه يفكر منقبض الاسارير • ثم اخذ يتكلم من جديد ، الا ان كل ما قاله بدا لى غير واضح ، رغم ما حاولته من تركيز انتباهى ؛ والكلمات القليلة التى بقيت فى ذاكرتى الى الان من حديثه تجعلنى أستنتج أنه تحدث عن مواهبه العظيمة ، عن كونه فنانا كبيرا ، عن أن الناس لا يفهمونه ، الخ • وما زلت أذكر انه سألنى هل أفهم ما يقول ، فلما أجبته بما يرضيه حملنى على ان اكرر على مسامعه أنه موهوب فقلت « موهوب » •• وكاد يبتسم لدى سماعه هذه الكلمة ، ولعله ابتسم لانه رأى من المضحك أن يتحدث معى فى موضوع خطير فى نظره الى هذا الحد• وانقطت محادثاتنا بوصول كارل فيودورفتش • فما لبثت أن استعدت مرحى وأخذت أضحك ، حين قال لى أبى مشيراً اليه :

ـ هل ترين ؟ هــذا كارل فيــودروفتش ! انه لا يملك ذرة من موهبة !

كان كارل فيودروفتش انسانا عجيبا • مازلت أتخيله كأننى رأيته بالامس • (ولا عجب ، فان الناس الذين عرفتهم فى حياتى حتى ذلك الحين كانوا قلة) • وكان الرجل ألمانيا ، أتى الى روسيا تهزه رغبة شديدة فى الانتساب الى هيئة الباليه ببطرسبرج • الا أن رقصه كان من الرداءة بحيث لم يمكن أن يسند اليه فى الفرقة أى دور مهما يكن ثانويا ، على انهم كانوا يستخدمونه أحيانا فى بعض الادوار الجماعية ، مع فرســان فيرون مثلا ، الذين يبلغ عددهم العشرين ويجب عليهم أن يصرخوا معا فى لحظة من اللحظات هاتفين وفى أيديهم خنــاجر من ورق مقوى :

« لنمت فى سبيل الملك » • ولكن لا شك فى انه ليس على وجه الارض ممثل واحد بلغ شغفه بدوره مثلما بلغ شغف كارل فيودروفتش بدوره !

على أن أفظع تعاسة فى حياته كلها هى انه لم يستطع أن ينخرط فى هيئة الباليه • كان يعتقد ان فن الرقص يفوق جميع فنون الدنيا ، وهو من هذه الناحية يحرص على فنه حرص أبى على كمانه • وقد تصادق الرجلان حين كانا يعملان معا فى المسرح • ومنذ ذلك الحين لم يدع هذا الممثل البسيط أبى أبدا • فكانا يلتقيان فى كثير من الاحيان ، يتفجعان معا على حياتهما المحطمة ، ويشكوان غدر البشر • ولقد كان هذا الالمانى أكثر الناس عاطفية ، فكان يحمل لأبى أعنف مشاعر الصداقة وأخلصها • الا ان أبى لم يكن يقدره كثيرا ، وانما يحتمله لانه لم يكن له صديق غيره فى ذلك الحين • ثم ان أبى كان يرفض ، لتعصبه ، أن يسلم بأن الرقص فن من الفنون • وكان ذلك يجرح كبرياء الالمانى المسكين الى حد البكاء• فما يكاد هذا البائس يتحمس للرقص حتى يأخذ أبى يسخر منه ، ويهزأ بفنه ، فيمس بذلك وترا حساسا فيه • ولقد سمعت « ب » فيما بعد يتحدث كثيرا عن كارل فيودروفتش هذا ، وقد روى لى كثيرا من التفاصيل عن صداقة هذين الشخصين اللذين لم يخلق أحدهما للآخر ، واللذين كانا اذا احتسيا قليلا من الخمر معا ، يذرفان الدموع على حظهما العاثر وعلى ان الناس لا يفهمونهما !

وكنت اذا رأيتهما يبكيان آخذ فى الشهيق والنحيب ، أنا ايضا ، دون سبب يدعو الى ذلك • وكان ذلك يقع فى غياب أمى دائما • لقد كان الالمانى يخافها خوفا كبيرا ، حتى أنه كان اذا جاء قبع فى الممر مدة ، الى أن يخرج أحدنا فاذا علم ان أمى موجودة فى البيت ، طار لبه من الخوف وهرب يتدحرج على السلم بسرعة • وكان يأتينا دائما بقصائد

ألمانية تنال أعجابه ، وتثير حماسته ، فيأخذ ينشدنا اياها بصوت عال ، ثم يترجمها الى الروسية ترجمة خرقاء لنفهمها • وكان ذلك يفرح ابى كثيرا ، ويجعلنى أضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا • وفى ذات مرة وقع بين أيديهما كتاب روسى أعجبا به كلاهما أيما اعجاب بل افتتنا به افتتانا ، حتى انهما كانا كلما وقعا عليه بعد ذلك يعيدان قراءته • وكان هذا الكتاب ، فيما أذكر ، درامة شعرية لمؤلف روسى شهير • وقد رسخت الأبيات الأولى من هذه الدرامة فى ذاكرتى رسوخا قويا ، حتى اننى بعد انقضاء سنين كثيرة على ذلك صرت كلما وقع هذا الكتاب بين يدى مصادفة أتعرف عليه بلا عناء • وكانت هذه الدرامة تدور حول رسام كبير ، يدعى « جرينارو أو لاكوبو » ، يشكو حظه الشقى ويصرخ فيما يصرخ قائلا : « ان الناس لا يعرفون قيمتى » ، ثم يصرخ فى موضع آخر قائلا : « ان الناس يعرفون قدرى » ، وفى موضع يقول : «ليس لى من موهبة» ، وفى موضع آخر يقول : « ان لى مواهب عظيمة » • وخاتمة الدرامة محزنة • لاشك أن هذا الكتاب ليس له من قيمة • غير أنه ــ وتلك هى المعجزة ــ كان يفعل فعل السحر فى هذين القارئين اللذين يجدان بينهما وبين بطله الرئيسى صفات مشتركة كثيرة • وكان كارل فيودوروفتش يبلغ من الانفعال انه يقفز من مكانه ، ويعدو الى الطرف الآخر من الغرفة ، ثم يتجه الىّ (وكان ينادينى « مادموازيل ») والى أبى ، متوسلا الينا ، وقد تفجر الدمع من عينيه ، أن نكون جمهورا له نرى رقصه ونحكم عليه • ثم يأخذ يقوم بأنواع شتى من خطوات الرقص ، صارخا فينا أن نعلن رأينا فى رقصه صراحة : أهو فنان أم لا ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم أنه ليس بموهوب ؟ وكان أبى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مباغت ، ويومىء الىّ بعينيه خلسة أنه سيسخر من الالمانى ، وأن الامر سيكون مضحكا جدا • وكانت تنتابنى رغبة فى الضحك مجنونة ، حتى يشير ابى

الىّ بيده مهددا ، فأمسك عن الضحك • ومازلت حتى الآن لا أستطيع أن أتذكر هذه المشـاهد دون آن أضحك • ومازلت أرى المســكين كارل فيودوروفتش كانه أمامي : انه قصير القامة ، نحيل مفرط في النحـول ، مبيض الشعر ، انفه كبير أحمر آشبه بمنقار الغراب ، اما ساقاه فمقوستان تقوسا بشعا جدا ولكنه كان يتباهى بشكلهما الجميل، حتى لقد كان يرتدى سروالا ضيقا يلتصق بهما ابرازا لمفاتنهما • وحين كان يتجمد على حركة أخيرة ، باسطا يديه نحونا ، مبتسما ابتسامة الراقصين على المسرح حـين يفرغون من احدى رقصاتهم ، كان أبى يظل صامتا لحظة من الزمن ، كأنه عزم على ان لا يعلن رآيه • الا أنه كان يفعل ذلك عمدا ليدع الراقص في وضعه ذاك ، مترنحا على قدميه ، جاهدا أن يحافظ على توازنه فى كثير من العناء • وأخيرا يلتفت أبى الىّ فى هيئة رزينة رصينة ، كأنما ليدعونى أن أكون شاهدا على حكمه الصادق الذى لا تحيز فيه ، وتلك هى اللحظة التى كان فيها الراقص يثبت بصره فىّ أنا أيضا ، وقد فاضت عيناه بمعانى الحياء والتوسل ، واخيرا يقول له آبى ، متظاهرا بالاستياء من الاعتراف بالحقيقة المرة :

ـ كلا ، ياكارل فيودوروفتش • لم تتقنها بعد !

وعندئذ يطلق كارل فيودوروفتش من أعماق صدره آهة حرى ، الا أنه يتجلد ، ثم يطلب الينا بحركات سريعة ان ننتبه اليه مرة أخرى ، زاعما ان الحظ لم يحالفه في المرة الأولى ، متوسلا ان نصبر عليه ونصدر حكمنا في هذه المرة الجديدة • ثم يركض من جديد الى الطرف الآخر من الغرفة • وكان في بعض الاحيان لفرط حماسته يبلغ من شدة الوثب ان رأسه يصطدم بالسقف ، فيحدث له ألما شديدا جدا ، الا انه كان يحتمل الألم ببطولة ، كاسبارطى ، ثم يتجمد مرة أخرى فى وضع من الاوضاع، مبتسما ، مادا يديه نحونا ، طالبا أن نصدر رأينا فى رقصته هذه المـرة •

ولكن أبى كان لا يعرف الرخمة ، فكان يجيب بنفس اللهجة الساخرة التى أجاب بها فى المرة الأولى ويقول :

ـ كلا ، يا كارل فيودوروفتش ، لم تحسنها بعد ، رغم كل ماعملت!

وكنت عندئذ لا أستطيع ان أضبط نفسى ، فأطلقها قهقهة مجلجلة يرد عليها أبى بقهقهة مثلها ، ويشعر كارل فيودوروفتش فجأة أننا انما نسخر منه ، فيحمر وجهه خجلا ، ويقول لابى وقد فاضت عيناه بالدموع وسرت فى لهجته عاطفة عميقة مضـــحكة فى آن واحد ، عاطفة كانت تحملنى بعد ذلك على أن أرثى لحاله :

ـ انك لست بصديق •

ثم يتناول قبعته ، ويهرب وهو يقسم أغلظ الايمان انه لن يعـــود أبدا • الا أن هـــذا النوع من المخاصـــمات لم يكن يدوم طويلا ، فاذا بصاحبنا يعود بعد بضعة أيام ، واذا بالصديقين يستأنفان قراءة تلك الدرامة التى يحبانها ، واذا بالدموع تترقرق من جديد ، واذا الســـاذج كارل فيودوروفتش يطلب الينا أن نكون حكما بين مواهبه وبين الجمهور ، ولكن بعد أن يتوسل الينا أن نكون جادين فى الحكم ، كما يليق بأصدقاء مخلصين بدلا من أن نسخر منه •

وفى ذات مرة أرسلتنى أمى الى الدكان اشترى لها شيئا من الأشياء ، وعدت ممسكةً بالنقود الصغيرة التى ردها لى البائع ، فلقيت أبى هابطا على السلم ، فابتسمت له كما كنت أبتسم كلما لقيته ، وكنت فى الواقع أعجز من ان لا أبتسم له • الا أنه وقد انحنى علىّ يريد تقبيلى، لمح النقود التى أقبض عليها بيدى ـ (نسيت أن اذكر اننى تعودت ان اقرأ فى وجهه ما يدور فى خلده ، حتى أصبحت ادرك رغباته من أول نظرة • وكنت اذا

رأيته حزينا ينهشني الالم نهشا • وكان حزنه يزداد حين تفرغ يده من الدراهم فراغا تاما ، فما يســتطيع أن يحتسي قليلا من الخمر ، بعد أن أصبح الكحول حاجة لا يستغني عنها) ـ في تلك اللحظة التي لقيته فيها على السلم لاحظت ان به شيئا خاصا • كانت نظرته قاسية ، وكانت عيناه متجمدتين ، حتى أنه لم يرني في اللحظــة الأولى • الا انه حــين رأى النقود البراقة التي أمسكها بيدي ، احمر وجهه فجأة ، ثم شحب ، ثم مد يده ليأخذها ، ثم ما لبث ان كبح حركته هذه • واضح ان صراعا قام في نفسه • وكأنما سيطر أخيرا على نفسه ، فأمرني أن أصعد • وهبط هــو بضع درجات على السلم ، الا انه توقف بعد ذلك فجأة ، وناداني •

لقد كان في حالة انزعاج فظيع •

ـ اسمعي يا نيتوتشكا • أعطيني هذه النقود • وسأردها اليك فيمـا بعد • ستعطين اباك هذه النقود يانيتوتشكا ، اليس كذلك ؟ انك ابنة طيبة ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟

كنت كأنما أوجست أنه سيفعل ذلك • الا أن صورة الغضب الذي ستصبه أمي على رأسي ، وخوفي ، ولاسيما خجلي عليه وعلى نفسي ، كل هذا صدني عن ان أمد اليه المال • ولاحظ هو ذلك فورا فبادر الى القول :

ـ على كل حال ، لا داعي ، لا داعي ••

ـ بل خذ يا بابا ، سأقول لأمي انني أضعته ، سأقول ان أبناء الجيران اختطفوه !

ـ حسنا ، حسنا • كنت أعرف ذلك ، أعرف انك ابنة طيبة ذكية •

قــال ذلك ، دون ان يكتم فرحه حين أحس بالدراهم في يده ، وعادت الابتسامة الى شفتيه المرتعشتين ، وأضاف :

ـ انك ابنة صغيرة رائعة ، أنت ملاك صغير . أنت ملاكي الصغير ، هات يدك الصغيرة ..

وتناول يدى يريد تقبيلها ، غير انني انتزعتها منه بقوة . واجتاحني شعور غريب بالشفقة يمازجه شعور بالخجل والعار آخذ يعذبني ! ... فتركت ابى دون أن استأذنه ، وركضت ركضا حتى بلغت باب البيت ، كانما يدفعني الخوف دفعا .ودخلت وقد تملكني ذعر مجنون . كان خداى كأنهما من جمر ، وكان قلبي يخفق خفقانا عنيفا . لم يكن شيء من هذا قد وقع لى قبل الآن . ومع ذلك زعمت لأمي ، بجرأة ، أن القطعة النقدية سقطت من يدى في الثلج فلم أستطع أن أجدها. وكنت أتوقع أن تضربني، ولكنها لم تضربني رغم انها استاءت استياء شديدا أخرجها عن طورها في أول الأمر ، لشعورها بفقرنا الفظيع ، فأخذت تقرعني وتؤنبني ، لكنها ما لبثت أن استعادت رباطة جأشها ، واكتفت بأن تلومني على اهمالى ، وقالت انني لو كنت أحبها حقا لعرفت كيف أحافظ على دراهمها . وآلمتني هذه الملاحظة أكثر من الضرب . لقد كانت أمي تعرفني حق المعرفة ، فلاحظت أن حساسيتي أصبحت مرهفة الى حد مرضي ، وانها ان لامتني على هذا النحو المرير ، واتهمتني بأنني لا أحبها ، كان ذلك أوقع في نفسي ، وأولى بأن يجعلني في المستقبل أكثر تيقظا وانتباها .

وعند هبوط الليل ، في الساعة التي يعود فيها أبي الى البيت ، مضيت الى الممر أنتظره على عادتي . كنت في هذه المرة مضطربة أشد الاضطراب . كانت الندامة تملأ كياني كله ، وتقلقني أعنف القلق . وعاد أبي أخيرا ، فسررت بعودته سرورا كبيرا ، كأنما هو يحمل الىّ العزاء والسلوى . وكان ثملا بعض الشيء ، فقد نظر الىّ حين رآني نظرة حائرة وغريبة في آن واحد ، وبعد أن قادني الى ركن من الممر ألقى على باب

الغرفة نظرات خائفة ، وأخرج من جيبه قطعة من الحلوى اشتراها لى ، ثم حذرنى من أن أسرق بعد الآن شيئا من نقود أمي ، قائلا ان هذا أمر سيىء ، معيب • وأضاف ان هذا حدث في هذه المرة لأن بابا كان في حاجة ماسة الى بضعة دراهم ، وان بابا سيعيد هـــذه الدراهم ذات يوم ، وانني أستطيع يومئذ أن أقول لأمي انني وجدت ما أضعته ، وأن سرقة الدراهم من ماما شيء فظيع ، ينبغي أن لا أعود اليه قط ، بل أضاف انه سينتبه الى هذا الامر بعد الان ، وانني ان أطعته فسوف يأتيني بحلوى أخرى •• بل ذهب الى أبعد من ذلك وقال ان عليّ أن أرثي لحال أمي ، المريضـة ، البائسة ، التي تعمل وحدها لتطعمنا نحن الثـــلاثة • واستمعت الى كلام أبي ، وأنا أرتجف من الخوف ، وقد فاضت دموعي • بلغ انفعـــالي من القوة أنني لم أستطع أن أجيب ولا أن أتحرك • ثم دخل البيت بعـد أن أمرني بأن لا أبكي وبأن لا أذكر شيئا مما حدث • ولاحظت عندئذ أنه كان في حالة انزعاج هائل ، هو الآخر • وقضيت السهرة كلها فزعة ، كأنما أنا أترقب خطرا كبيرا ، ولأول مرة لم أجرؤ على أن أنظر الى أبي ، وعلى أن أقترب منه • وكانت أمي تسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وتحدث نفسها كأنها غائبة عن وعيها ، على عادتها • كانت وطأة المرض عليهـا في ذلك اليوم أقسى ، كانت تعاني نوبة حادة من الاوجاع • وأخيرا انتابتني حمى من شدة الانفعال الاصم الذي كنت أكابده • وحين أظلمت الغرفة لم أستطع أن أنام ، وهاجمتني أحلام مزعجة مخيفة ، فأخـــذت أشـهق باكية • واستيقظت أمي على أصوات شهيقي ، فنادتني اليها وسألتني عما بي • وبدلا من أن أجيب ، ازداد شهيقي قوة • عندئذ أشعلت أمي الشمعة ، واقتربت مني تحاول تهدئتي ، لاعتقادها بأن حلما أفزعني ، وأخذت تقول : « كفي كفي ، أيتها الحمقاء •• أتبكين بسبب حلم ؟ كفي ، كفي • » ثم قبلتني وأرادت أن تأخذني الى سريرها أنام الى جانبها • ولكنني رفضت • لم

أستطع أن أضع ذراعى على عنقها ، ولا أن أتبعها • كان عذابى يتجاوز كل الحدود ، وودت لو أعترف لها بالحقيقة ، وما كنت لأستطيع أن أمسك عن ذلك ، لولا اننى تذكرت أبى ، وتذكرت أنه حذرنى من افشاء السر !

وقالت أمى ، وهى ترتب سريرى وتغطينى بمعطفها العتيق ، اذ لاحظت اننى أرتعش من الحمى :

ــ مسكينة أنت يانيتوتشكا ! أعتقد أنك مريضة مثل أمك •

ثم تأملتنى بحزن شديد فلم أملك أن أحتمل نظرتها ، فأغمضت عينى ، واستدرت الى جهة الحائط • لا أدرى متى نمت ، الا أن صورة أمى المسكينة وهى تكلمنى ظلت ماثلة أمامى وأنا بين النوم واليقظة • لم أكن شعرت قبل ذلك بألم ثقيل الى هذا الحد • كان صدرى منقبضا انقباضا خانقا ، الا اننى شعرت بتحسن فى صباح اليوم التالى ، وأخذت أتحدث مع أبى دون أن أشير الى حوادث الامس ، لشعورى بأن اشارة كهذه لن تسره • وما لبث أن انبسطت أساريره ، فقد كان هو الآخر ينظر الىّ فى قلق أصم ، حتى اذا رآنى مسرورة ، عاد اليه صفاؤه بل عاد اليه مرح ساذج • وبعد قليل ، خرجت أمى من البيت فلم يستطع أبى أن يكبح جماح نفسه فأخذ يقبلنى بقوة حتى كدت أجن من شدة الفرح ، فصرت أبكى وأضحك فى آن واحد ! •• ثم أخبرنى أنه ، مكافأة على اننى كنت ابنة طيبة عاقلة ، سيرينى شيئا جميلا جدا ، شيئا يسرنى كثيرا أن أراه • ثم فك أزرار سترته فأخرج مفتاحا صغيرا كان معلقا على رقبته بخيط أسود ، وألقى علىّ نظرة غريبة كأنما يريد أن يقرأ فى عينى السرور الذى كان لا بد ــ فى رأيه ــ أن أشعر به • وفتح الصندوق فأخرج منه، فى كثير من الحذر ، علبةً سوداء ذات شكل غريب ، لم أرها قبل ذلك

أبدا • ولمس العلبة بنوع من الرهبة غير مألوف فيه ، وامحت الابتسامة من وجهه ليحل محلها فجأة مظهر الرصانة والجلال • وأخيرا فتح العلبة الغريبة بالمفتاح ، وأخرج منها شيئا غريب الشكل لم أره قبل ذلك أيضا • وتناول الشيء بيديه في عناية أشبه بالاجلال قائلا : ان هذا هو كمانه • ثم حدثني بصوت خافت رصين حديثا لم أفهمه • والشيء الوحيد الذي بقي في ذهني هو ما كنت أعرفه من قبل من أن أبي فنان ، ومن انه موهوب ، ومن انه سيعزف على كمانه في يوم من الايام ـ بعد هذا اليوم أو قرب ـ ومن اننا سنصبح يومئذ أغنياء نعيش حياة سعيدة رخية لا يكدرها شيء • وسالت دموع أبي على خديه ، وتملكني أنا انفعال شديد، وأخيرا طبع على كمانه قبلة رقيقة ثم مده الي لأفعل مثلما فعل • ثم لاحظ انني أتمنى لو أرى الآلة عن كثب ، فأجلسني على سرير أمي ، ووضع الآلة بين يدي • الا انني شعرت أنه كان يرتجف خوفا على الآلة أن أكسرها ، ومع ذلك نقرت على الاوتار نقرا خفيفا ، فأخرجت صوتا ضعيفا، فرفعت نظري الى أبي قائلة :

ـ هذه موسيقى ••

فقال ، وهو يفرك يديه ، وقد أشرق وجهه فرحا :

ـ نعم ، نعم ، موسيقى • انك صغيرة ذكية ، شجاعة •

غير أنني لاحظت بوضوح ، رغم مداعبته وحماسته ، انه يرتعد خوفا على آلته ، واستولى علي الخوف أنا أيضا ، فبادرت أردها اليه •• فأعادها الى علبتها بعناية كبيرة ، وأغلق العلبة ثم أرجعها الى مكانها في الصندوق • ووعدني وهو يداعب رأسي أنه سيريني الكمان مرات أخرى كلما كنت عاقلة مطيعة مثلما أنا الآن •

هكذا طرد الكمان حزننا كلينا • ومع ذلك همس أبى فى أذنى ، حين أتى المساء ، أن لا أنسى ما أوصانى به أمس •

وعلى هذا النحو كبرت فى بيتنا البائس • وكان حبى لأبى (والافضل أن أقول « هيامى » بأبى ، لأننى لا أعرف كلمة قوية تستطيع أن تعبر تعبيرا كاملا عن هذه العاطفة الجارفة التى كانت تعذبنى وتدفعنى نحو أبى دفعا) أقول : كان هيامى بأبى يشتد ويشتد حتى أصبح نوعا من الهوى المرضى ! •• صرت لا أجد فى الحياة من متعة غير أن أفكر فيه، وأن أحلم به •• صرت لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أعمل كل ما أستطيع عمله لأهيىء له ولو أقل مسرة • كم من مرة انتظرت عودته على السلم ، وأنا أرتجف من البرد ، لا لشىء الا أن أحس وجوده وأراه قبل الموعد بلحظة • وكنت أجن من الفرح حين يتفق له أن يمسنى بمداعبة عابرة • على ان فتور عاطفتى نحو أمى كثيرا ما كان يسبب لى حزنا أشبه بالعذاب • كنت اذا نظرت اليها امتلأت نفسى هولا • الا اننى لم أكن أستطيع أن أظل محايدة فيما كان يقوم بين أبوى من خصومات لا تنقطع • كان لابد لى أن أختار احدهما فأتحزب له • وقد تحزبت لهـذا الانسان نصف المجنون ، لأنه كان فى نظرى انسانا بائسا مضطهدا ، ولأنه قد خاطب خيالى منذ البداية • ومع ذلك ، من يدرى ؟ لعلى تحزبت له لغرابته الشديدة ، وحتى لغرابة مظهره ، فان هذا المجنون لم يكن صارم الوجه حزين الملامح كأمى ، بل كان يضحك ويهرج كأنه طفل ، ولعلنى أحببته لأننى لم أكن أخشاه كما كنت أخشى أمى ، ولأننى لم أكن أحترمه كما كنت أحترم أمى ، بل أنظر اله نظرتى الى ند من أندادى ، أو الى ترب من أترابى •• حتى لقد شعرت شيئا فشيئا اننى سيطرت عليه ، اننى

أخضعته ، واننى أصبحت له حاجة لا غنى عنها . ولم يصبنى زهو وغرور، ولكنه الشعور بالظفر . وكنت من شدة تقديرى لمنزلتى فى نفسه بحيث كدت فى بعض الأحيان أن أدل عليه ، وأتظرف له . الحق أن فى تعلقى الغريب هذا شيئا يذكر بالروايات . الا أن هذه الرواية لم يقدر لها أن تدوم طويلا ، فاننى ما لبثت أن فقدت أبى وأمى . لقد انتهت حياتهما بفاجعة فظيعة ما زالت ذكراها محفورة فى نفسى ترهقها وتمضها ، واليكم كيف وقعت الفاجعة :

الفصل الثالث

في تلك الفترة ، راج في بطرسبرج أن العازف الشهير على الكمان « س » سيصل الى العاصمة وشيكا ، فأحدث هذا النبأ في بطرسبرج ضجة كبيرة ، واهتز له العالم الموسيقى اهتزازا كبيرا ، وأقبلت المغنيات والشعراء والرسامون ومحبو الموسيقى يختطفون تذاكر الحفلة اختطافا ، بل وأقبل على ذلك أناس ممن يصرّحون في كبرياء متواضعة بأنهم لا يفهمون من الموسيقى شيئاً ! .. كانت صالة الحفلة لا تتسع لعُشر هؤلاء المتحمسين الذين كانوا على استعداد لأن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول خمسة وعشرين روبلا . ان شهرة « س » ، وشيخوخته التي يتوجها المجد ، وموهبته النضرة التي لم تجففها الايام ، وما ذكر عنه من أنه لم يمسك قوسه أمام الجمهور الا نادرا منذ زمن ، ومن انه يقوم بآخر جولة له في أوروبا قبل أن ينقطع عن العمل نهائيا ، كل ذلك كان له أثره في حفز الناس الى حضور الحفلة . الخلاصة : لقد اهتزت بطرسبرج لهذا النبأ اهتزازا قويا عميقا .

وقد سبق أن قلت أن وصول كل عازف جديد على الكمان، أو كل موسيقي شهير ، كان يولد في ابي شعورا مؤلما • كان دائما اول المقبلين على سماع اى فنان يمر بالمدينة ، ليحكم على موهبته، وكثيرا ماكان يمرضه الثناء الكثير على القادم الجديد ، ثم لا يجد الراحة والطمأنينة الا حين يستطيع أن يأخذ على عزفه عيبا من العيوب ، فاذا هو يطفق يذيع رايه فيه ، اينما استطاع ذلك ، في سخرية مرة لاذعة • لقد كان هذا المهووس المسكين لا يرى في الدنيا الا موهبة واحدة ، هي موهبته ، ولا يرى في الدنيا الا فنانا واحدا ، هو شخصه • ومع ذلك فان وصول « س » ، الموسيقى العبقرى ، قد أحدث في نفسه نوعا من الرعب • وينبغى ان نذكر هنا انه ليس بين الموسيقيين المشهورين الذين مروا ببطرسبرج خلال السنين العشرة الاخيرة موسيقى واحد يمكن أن تقاس موهبته بعبقرية « س » • كان أبى اذن لا يعرف شيئا البتة عما عسى أن يكون عزف موسيقى كبير عرف في أوروبا كلها بأنه من كبار الفنانين •

وقد رووا لى انه ما ان أذيع نبأ وصول « س » الى بطرسبرج ، حتى ظهر أبى من جديد فى كواليس المسرح ، وقالوا لى أيضا انه كان يبدو منفعلا أشد الانفعال ، وانه كان يسائل الناس قلقاً عن « س » ، وعن الحفلة المزمع احياؤها ، وهو أشد ما يكون اضطرابا • وكان ابى قد غاب عن هذه الامكنة منذ مدة طويلة ، فلما ظهر فيها من جديد أثار انتباه الناس والتفاتهم ، ثم ما لبث أن قال له أحدهم مستفزا :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش ، لن تسمع فى هذه المرة ، ياعزيزى ، موسيقى « باليه » • وانما ستسمع موسيقى تحرمك لذة الحياة !

وقد أكدوا لى ان لونه قد امتقع لدى سماع هذه الكلمة • الا انه حمل نفسه على الابتسام وقال :

ـ سنرى • ليس فى وسع غريب آت من بعيد أن يخدع الناس فى حقيقـــة أمره مـــدة طويلة • أظن أن « س » قد عزف فى باريس • والفرنسيون هم الذين أطاروا اذن صـيته ، ونحن نعرف قيمة هـــؤلاء الفرنسيين !

على هذا النحو كان يتجمع حوله الناس ، ويأخذون فى الضحك • لقد كان المسكين يشعر بالحنق يعضه عضا ، الا انه كان يتحامل على نفسه، ويتجلد ، ويؤكد انه ليس فى نيته أن ينتقد ، وأن الانتظار لن يطول ، ما دامت الحفلة ستقام بعد غد •

وقد روى لى « ب » انه ، فى ذلك المساء نفسه ، لقى الامير «ك» ، وهو من هواة الموسيقى المعروفين الذين يفهمـون الفن ويتذوقونه تذوقا عميقا ، وكان الاثنان يسيران معا وهما يتحدثان عن القادم الجديد ، فاذا « ب » يلمح أبى فجأة ، عند منعطف أحد الشوارع ، واقفا أمام أحـــد المخازن يحدق فى اعلان ملصوق على البلور ، يعلن بأحرف كبـيرة عن حفلة « س » •

فقال «ب» للامير وهو يدله على أبى :

ـ هل ترى هذا الشخص ؟

فسأله الامير :

ـ من هو هذا الشخص ؟

ـ انك تعرفه • هو يافيموف الذى حدثتك عنه غـــير مرة ، والذى أردت أن تتفضل عليه بحمايتك •

فهتف الامير قائلا :

ـ آ ••• أهذا هو ؟ نعم لقد حدثتني عنه كثيرا •• يقال انه انسان عجيب ، لكم يشوقني أن أسمعه •

فأجاب « ب » :

ـ كلا ، ان ذلك لايستحق العناء • ان الاستماع اليه مؤلم • لاأدرى ما هو الاثر الذى يمكن أن يحدثه في نفسك • أما أنا فانه يمزق قلبى تمزيقا • ان حياته ماساة محزنة • انني أعرف حقيقـــة نفســـه • ورغم انحداره الى الدرك الاسفل ، لم تمت عاطفتى نحوه موتا تاما • لقد قلت منذ هنيهة ، يا سيدى الامير ، ان سماعه لا بد أن يكون أمرا شائقا • هذا صحيح • الا انه يحدث فى النفس شعورا مؤلما قبل كل شيء • انه أولا انسان شاذ ، وهو عدا هذا مجـرم ثلاث مرات : مجرم فى حق نفسه اذ أفسد حياته ، ومجرم فى حق امرأته وفى حق ابنته اللتين أفسد حياتهما أيضا • انني أعرفه • لو أدرك جريمته لمات على الفور •• وهذا هو الامر الفظيع فى المأساة كلها : انه منذ ثمانى سنين يكاد يدرك ذلك ، وهو منذ ثمانى سنين فى صراع مع ضميره !

ـ وهو يعيش حياة بائسة ؟

ـ نعم • والبؤس سعادة له ، لأنه حجة يتعلل بها ، فهو يستطيع الآن أن يزعم لكل انسان ان الفقر هو الذى يحول بينه وبين الوصول الى قمة المجد ، وانه لو كان غنيا لاستطاع أن يتفرغ لفنه ، ولأمكن أن يعـرف الناس عندئذ ، على الفور ، من هو وما قيمته • لقد تزوج يحدوه أمـل عجيب هو أن تستطيع الروبلات الالف التى كانت تملكها زوجته أن تقيله من عثرته • لقد تصرف على هذا النحو كانسان مجرد من الحس العملى ، كشاعر ، وكان هذا شأنه فى سائر حياته على كل حال • هل تعرف ماذا يردد فى كل يوم منذ ثمانى سنين ؟ انه يدعى أن امرأته هى المسئولة عن

جميع مبائسه ، انها هي التي تمنعه من الوصول الى المجد • ثم هو يعقد ذراعيه ويأبى أن يعمل ، ولو انتزعت منه امرأته لأصبح بلا سلاح البتة • هذه سنين ثمان لم يلمس خلالها كمانه ، لماذا ؟ لأنه كلما أمسك بقوسه شعر في أعماق نفسه انه لا شيء • حتى اذا عاد فأراح قوسه في مكانه ، رجعت اليه آماله كلها ، وأصبح واثقا من انه موهوب • ذلك انسان حالم : انه يتخيل أن معجزة ستتحقق فجأة فتجعل منه موسيقيا شهيرا • شعاره : « اما أن أكون قيصر ، واما أن لا أكون شيئا ! » •• كأنما يستطيع المرء أن يصبح قيصر في طرفة عين ! •• وحين يصبح شعور كهذا الشعور هو الشاغل الوحيد الذي يملأ رأس فنان ، لا يبقى هذا الفنان فنانا ، لأنه يكون قد فقد الغريزة الفنية الاساسية ، أعني حب الفن للفن ، هذا الحب الذي لا شأن له بالمجد ولا بغير ذلك • أنظر الى « س » مثلا : انه متى أمسك بقوسه غاب عن كل شيء في الوجود الا الموسيقي ، والشيء الذي يحتل المكانة الاولى عنده بعد الموسيقى انما هو المال • أما المجد فانه لا يأتي الا في المرتبة الثالثة فيما أعتقد • انه آخر مشاغله • هل تعرف ما الذي يشغل بال هذا البائس يافيموف في هذه اللحظة ؟ انه يكرر على نفسه هذا السؤال السخيف ، المضحك ، المحزن : أهو متفوق على « س » أم أن « س » متفوق عليه ؟ لا شيء غير هذا السؤال يشغل باله • لأنه يظل مقتنعا رغم كل شيء بأنه أعظم موسيقى في العالم ! •• ولو برهنت له على انه ليس أعظم موسيقى في العالم فأنا كفيل لك بأنه سيموت على الفور ، كأن صاعقة سقطت على رأسه ؟ •• لا شيء أفظع من التحرر من فكرة ثابتة ، وخاصةً حين يكون المرء قد وقف عليها حياته كلها ، في ايمان خطير عميق •• على أن يافيموف قد بدأ بداية صادقة في الواقع •

فقاطعه الامير قائلا :

ـ لا شك أن مشاهدة انفعاله لدى سماع « س » أمر شائق •

فأجاب « ب » سادرا :

ـ نعم • بل لا • انه سيستعيد ثقته بنفسه فورا • لأن جنونه أقوى من الحقيقة • سيجد لنفسه مهربا على الفور •

ـ تعتقد ؟

وفي هذه اللحظة وصلا الى أبي الذى أراد أن يتوارى حالا • الا أن « ب » أمسك به وأخذ يكلمه • ساله هل ينوى أن يذهب الى الحفلة ليسمع « س » ، فأجاب أبي ـ بلهجة من لا يحفل بهذا الموضوع ـ قائلا انه لا يدرى هل يذهب أو لا يذهب ، وانه مشغول بأمر أهم من حفلات الموسيقيين الاجانب ، وانه سينظر في الامر على كل حال ، وانه لا مانع عنده من الذهاب اذا وجد في وقته ساعة من فراغ ، وانه قد يذهب مع ذلك • قال هذا ثم ألقى نظرة على « ب » وعلى الامير ، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة ، ورفع قبعته ، وحنى رأسه ، وتركهما زاعما أنه في عجلة من أمره ! ••

أما أنا فكنت قد لاحظت اضطراب أبي منذ الليلة البارحة •

كنت أجهل سبب هذا القلق الذى عصف به ، على وجه الدقة ، الا انني رأيت ذلك القلق الفظيع يقضمه قضما • حتى ان أمي لاحظت ذلك• وكانت يومئذ مريضة جـدا ، بل كانت لا تكاد تقـــوى على الوقوف على قدميها • وكان أبي لا ينى يدخل ويخرج بلا انقطاع • وفي الصباح جاءه ثلاثة أشخاص أو أربعة من رفاقه القدماء ، فاستغربت ذلك ، ولا سيما انه لم يكن يغشانا أحد تقريبا ، عدا كارل فيودوروفتش ، بعد أن هجرنا جميع الناس منذ انقطع أبي عن التردد على كواليس المسرح • وأخيرا جاء كارل

فيودوروفتش راكضا ، لاهثا ، يحمل في يده « برنامجا » • كنت اشهد هذه الحركة غير المألوفة ، وأصغى اليها ، بانتباه عميق ، وأنا في حالة تأثر وانفعال ؛ كأنني السبب في هذا القلق الذى أقرؤه في وجه أبى • وددت لو أعرف ما الأمر ، وسمعت لأول مرة اسم « س » ، ثم فهمت انه لا بد من خمسة عشر روبلا على أقل تقدير لمشاهدة حفلة « س » • وأذكر أيضا أن أبى لم يستطع أن يكبح سورة اضطرابه ، فكان يقوم بحركات كثيرة ، ويردد قائلا انه يعرف هذه العبقريات التى تأتى من البلاد الاجنبية، انه يعرف هذه المواهب الفذة ، يعرف قيمتها ، ويعرف « س » أيضا ؛ يعرف انه يهودى بائس ، جاء الى روسيا ـ كغيره ـ باحثا عن المال ، وان الروسيين أناس سذج يصدقون جميع الاكاذيب ؛ لا سيما حين يكون الفرنسيون ملفقيها ! •• وكنت قد تعلمت معنى هذه الكلمات : « لاموهبة له » • وبعد أن ضحك الزائرون كثيرا ، انصرفوا الى شأنهم ، وتركوا أبى لهياجه العنيف • وأردت أن أسليه عن حزنه فاقتربت منه ، وأمسكت بالبرنامج وقرأت فيه بصوت عال اسم « س » • ثم نظرت الى أبى جالساً على الطرف الآخر من الطاولة مستغرقاً فى التفكير ، وقلت له ضاحكة : « لا شك أن هذا الرجل مثل كارل فيودوروفتش ، لن يخرج منه شيء حسن ، هو الآخر » •• فانتفض أبى كأنما استولى عليه خوف مفاجيء ، وانتزع البرنامج من بين يدى ، وأخذ يصرخ ويضرب الارض بقدمه ، ثم تناول قبعته وهم بالخروج ، الا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك ، والتفت الىّ ، ودعانى أن أوافيه في الممر • وهناك قبلنى وأخذ يردد لى ، بنوع من الارتباك ، بنوع من الخوف لم يستطع أن يكبحه ، اننى ابنة طيبة عاقلة ، واننى لاأحب له طبعا أن يتألم ، وانه يعوّل علىّ فى أمر هام • ولكنه لم يقل لى ما هو هذا الامر الهام • على ان حديثه آلمنى ، فقد

أدركت ان كلماته وملاطفاته ليست صادقة ، وكان هذا وحده كافيا لاشاعة الاضطراب في نفسي ، وهكذا أصبح قلقي عليه عذابا ممضا •

وفي اليوم التالي ـ وهو اليوم الذي سبق موعد الحفلة ـ بدا لي ابي أثناء الطعام منهك الاعصاب محطما • لقد حدث في نفسه تغيير رهيب • كانت نظراته تنتقل بيني وبين أمي بغير انقطاع • ولشد ما كانت دهشتي كبيرة حين رأيته يتحدث الى أمي ، لا سيما وانه كان لا يكاد يخاطبها بكلمة واحدة • وبعد أن فرغنا من الطعام لاطفني كثيرا ، وجعل يدعوني في كل لحظة الى الممر منتحلا مختلف الاعذار ، وهناك يأخذ ينظر من حوله كأنما هو يخشى أن يقبض عليه بالجرم المشهود ، فاذا اطمان الى انه ما من أحد يراه ، طفق يداعب رأسي ويقبلني ويردد على مسامعي انني ابنة طيبة ، وانني أحب بابا من غير شك ، وانني سأفعل كل ما يطلبه الى مافي ذلك ريب • فأسلمني هذا الى قلق لا يطاق • حتى اذا دعاني الى الممر أخيراً ، للمرة العاشرة ، اتضحت الامور : في هذه المرة نظر أبي الى جميع الجهات نظرة مرتابة ، ثم سألني وقد تقبض وجهه ، هل أعرف أين خبأت أمي الخمسة والعشرين روبلا التي أتت بها في صباح الامس ؟ •• فما ان سمعت هذا السؤال حتى شعرت كأنني أموت من شدة الخوف ، الا أن أبي وقد سمع صوتا على السلم ، ارتاع فتركني حيث أنا وهرب • ولم يعد الا في المساء ، حيث جلس على كرسي وقد بدا عليه الاضطراب وانشغال البال ، وأخذ ينظر الىّ بنوع من الحياء الوجل • وتملكني خوف شديد حتى صرت أحاول أن أتحاشى نظرته • وأخيرا نادتني أمي ، وكانت في السرير طوال اليوم من وطأة المرض ، فأعطتني قطعة نقدية ، وأرسلتني أشتري لها من الدكان قليلا من الشاي والسكر • كان الشاي لا يشرب الا نادرا في بيتنا ، اذ كانت أمي لا تسمح لنفسها بهذا الترف ، ونحن فيما نحن فيه من الفقر ، الا حين تشعر أنها مريضة محمومة •• فأخذت

الدراهم ، وما ان خرجت الى الممر حتى جعلت أعدو ، خشية أن يلحق بى أبى . الا ان ما كنت أخشاه قد وقع : فقد أدركنى أبى فى الشارع وأعادنى الى السلم وهناك قال لى بصوت مرتعش :

ـ نيتوتشكا ، حبيبتى ، اسمعى ، أعطينى هـذه الدراهم ، وغدا سوف ...

فارتميت على ركبتيه وأخذت أتوسل اليه قائلة :

ـ بابا ، بابا ، لا أستطيع . لا يجوز . ان ماما فى حاجة الى الشاى. لا يجوز أن تسرق ماما . كلا لايجوز . مرة أخرى ..

فدمدم كأنما هو يهذى :

ـ آ . لا تريدين ؟ لا تريدين ؟ حسنا .. الآن أتركك .. ابقى مع ماما . أما أنا فسأذهب وحدى . هل تسمعين ، أيتها الابنة السيئة ؟ هل تسمعين ؟

ـ بابا . خذ . ما العمل ؟ ستبكى أمى أيضا . وستؤنبنى أيضا .

قلت هذا وأنا أرتعد من الخـوف ، وأضرب كفا بكف ، وأتعلق بذيله .

لم يكن أبى يتوقع هذه المقاومة . على انه أخذ المال ، ولم يستطع أن يحتمل نحيبى ، فتركنى على السلم وهرب . وصعدت السلم . الا أن قواى خانتنى على باب مسكننا ، فلم أجرؤ على الدخـــول ، لم أستطع الدخول . كنت فى حالة ذعر شديد واضطراب فظيع . كان قلبى كأنما انخلع . ووضعت وجهى بين ذراعىّ كما فعلت فى المرة الاولى يوم سمعت أبى يتمنى موت أمى . وبلغ منى الذعر أن أقل صوت على السلم كان

يجعلنى كقطعة من الثلج ترتجف • وأخيرا سمعت وقع خطوات سريعه تصعد السلم فعرفت انه أبى •

قال أبى هامسا :

ـ هذا أنت ؟

وارتميت على عنقه •

ـ خذى • خذى دراهمك • ولست أباك بعد الآن • هل تسمعين ؟ لا أريد أن أكون أباك • اذهبى الى أمك • لا أريد أن آخذك معى •

فلما أنهى هذا الكلام دفعنى عنه ، وهرب مرة أخرى هابطا السلم • فركضت وراءه باكية ، أريد أن أمسك به ، وصرخت محتجة :

ـ بابا • أبت العزيز • سأفعل كل ما تريد • أنت تعلم اننى أحبك• خذ • خذ الدراهم • خذها !

الا انه كان قد غاب • بلغت من شدة الذعر أننى ظللت السـهرة كلها محمومة لا أستطيع حراكاً • وأذكر أن أمى كلمتنى ، وجاءت بى الى جانبها ، الا اننى كنت أشبه بمن فقد وعيه ، فما أرى شيئا ولا أسمع شيئا • وأدى ذلك كله الى نوبة : فأخذت أبكى وأعول ، وارتعبت أمى فلم تدر ماذا تصنع • ووضعتنى فى سريرها • وكنت خائفة مما أتوقع ان يقع بين دقيقة وأخرى ، فاذا أنا أنام ، لا أدرى كيف ، متشبثة بعنقها • وانقضى الليل على هذا النحو ؛ فلم أستيقظ الا فى ضحى اليوم التالى ، بعد أن غادرت أمى البيت الى عملها • ورأيت مع أبى فى البيت رجلا غريبا ، وكان الاثنان يتحدثان بصوت عال جدا • وانتظرت أن يذهب الزائر بصبر فارغ ، حتى اذا مضى وأصبحنا وحدنا ، ارتميت على عنق أبى باكية منتحبة، أتوسل اليه أن يغفر لى سلوك البارحة •

فسألني بلهجة قاسية :

ـ هل تصبحين عاقلة كما كنت في الماضي ؟

فأجبت :

ـ نعم ، يا أبت • أعدك بذلك • سأقول لك أين تخبيء أمي دراهمها •• لقد وضعتها أمس مساء في هذه العلبة ، على الرف •

فصرخ أبي منتفضا :

ـ أين ؟ أين ؟

وقفز من مكانه وسألني مرة أخرى :

ـ أين الدراهم ، تقولين ؟

ـ العلبة مقفلة بالمفتاح ، يا أبت • انتظر حتى هذا المساء • سترسلني أمي لتبديل الورقة النقدية بقطع صغيرة ، رأيت ذلك بنفسي •

ـ انني في حاجة الى خمسة عشر روبلا ، يانيتوتشكا • هل تسمعين؟ خمسة عشر روبلا فقط ! هاتيها اليوم ، وسأردها اليك غدا • وسامضي حالا أشتري لك حلوى ، وجوزا •• ولعبة أيضا • وغدا ، غدا على التاكيد ، أرد اليك الدراهم •• وسأشتري لك حلوى في كل يوم ، اذا كنت عاقلة فاعطيني خمسة عشر روبلا !

ـ كلا ، يا بابا ، لا أريد حلوى • لن آكل الحلوى اذا جئتني بها ، سأردها اليك •

قلت ذلك محتجة باكية ، وقد تمزق قلبي من القلق •

أدركت في تلك اللحظة أن ليس في قلبه ذرة من رحمة بي ، وانه

لا يحبنى ما دام لا يقيم لعاطفتى نحوه وزنا ، وما دام يظن اننى اخضع لارادته طمعا في الحلوى ! .. ومع اننى كنت طفلة ، استطعت ان انفذ الى أعماقه نفاذا بلغ من القوة اننى شعرت منذ تلك اللحظة ان عبادتى اياه قد تسممت الى الابد . شعرت اننى لن استطيع أن احبه بعد الان ! .. شعرت اننى فقدت بابا الحبيب القديم الى الابد . اما هو فقد سره وعدى ، بل سحره . لقد رأى اننى مستعدة من اجله لكل شيء ، ويعلم الله ماذا كانت تعنى كلمة « كل » هذه في خيالى ! كنت اعلم قيمة هذه الدراهم عند أمى المسكينة ، وكنت أعرف العذاب الذى ستلقاه حين تفقدها ، فكان ضميرى يعول من اليأس . الا أن أبى لم يلحظ شيئا من ذلك . كنت أفهم كل شيء . غير أن أبى كان لايرى في الا طفلا في الثالثة من عمره . وتملك أبى فرح هذيانى ، فغمرنى بالقبل ، وتوسل الى أن لا أبكى ، وأكد لى ، مداعبة لخيالى ، اننا سنسافر الى مكان بعيد عن ماما في بحر اليوم نفسه . ثم أخرج البرنامج من جيبه ، وذكر لى ان الرجل الذى سيمضى الى سماعه هذه الليلة انما هو عدوه ، بل أحد أعدائه الألداء ، الا أن عدوه لن يستطيع أن ينتصر عليه ، لا هو ولا غيره . لا شك أنه هو الطفل ، لا أنا ، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه ! .. ولما رأى أننى ظللت صامتة لا أجيب ولا أبتسم كما أبتسم عادة ، تناول قبعته ، ومضى ، كمن حان وقت ذهابه . الا انه قبل أن يتركنى ، قبلنى مرة أخرى . وتبسم لى ، وأشار الى اشارة الاتفاق ، كأنه غير واثق منى كل الثقة ، فهو يريد أن يعمل ما ينبغى عمله ليمنعنى من التفكير والتردد .

◆◆◆

سبق أن قلت انه تغير منذ الأمس تغيرا كبيرا حتى لكأنه شخص آخر . كان لا بد له من الحصول على المال لشراء تذكرة ، مهما كلف

الأمر . فقد كان يعتقد أن هذه الحفلة سيكون لها في حياته تأثير حاسم ، حتى انه حين آراد أن يستولى على الدراهم القليله التي كنت آمسكها بالامس ، لم ينتبه من شدة اضطرابه الى أنها لا تكفي لشراء التذكرة . وقد تجلى اضطراب عقله المحموم هذا ، على نحو أوضح ، اثناء الطعام . كان عاجزا عن أن يستقر في مكانه ، ولم يلمس الطعام ابدا ، فكان ينهض ، ثم يعدل عن رأيه ، ثم يجلس مرة آخرى ، أو كان يهم أن يمضي ، فيتناول قبعته ثم تستولى عليه حيرة غريبة ، فيبقى في مكانه لا يتحرك ، ويدمدم بكلام يخرج من بين أسنانه ، أن يلقى عليّ نظرة سريعة ، ويغمزني بعينه ، ويقوم بحركات واشارات يظهر لي بها حرصه على الحصول على الدراهم الموعودة بسرعة .. لكأنه يحقد عليّ لانني لم أسرقها من أمي بعد . وأخيرا لاحظت أمي اضطرابه الشاذ ، وجعلت تنظر اليه نظرة استغراب . أما أنا فكنت أشعر بخوف كخوف شخص حكم عليه بالاعدام ! ... فلما نهضنا عن المائدة ، اختفيت في ركن من أركان الغرفة وأنا أرتعد من الحمى ، وأخذت أعد الدقائق بانتظار اللحظة التي اعتادت أمي أن ترسلني فيها الى السوق . رباه ! انني لم أعان في حياتي بعد ذلك تجربة قاسية هذه القسوة ، وستظل هذه الدقائق محفورة في ذاكرتي الى الأبد . ان في الحياة ساعات كأنها تتجمع فيها آلام سنين طويلة برمتها.. كنت أعلم انني قادمة علىإقتراف عمل سيىء . ألميحاول أبي نفسه أن يوقظ في نفسي غرائز الخير في المرة الأولى حين دفعني الى فعل الشر دون تفكير، ثم هاله عمله فبين لي خطيئتي ، ونصحني بأن لاأعود اليها ؟ أليس في وسعه اذن أن يدرك الآن ان من الصعب أن يغش نفسا ظمأى الى المشاعر الواضحة ، نفسا أوجست الخير والشر وفكرت فيهما طويلا ؟ على انني أدركت انه اذا كان يدفعني الآن الى اقتراف الشر مرة أخرى ، فيضحي بطفلة بائسة لاحيلة لها في الدفاع عن نفسها ، ويعرضني

كذلك لفساد الضمير ، فلا شك انه خاضع لسلطان ضرورة هائلة ! ..
ثم تساءلت من الركن الذى كنت مختبئة فيه : « لماذا يريد ان يكافئنى على عمل ساقوم به طواعية ؟ » .. وهاجمتنى احساسات جديدة ، وآمال جديدة — خرجت لا أدرى من أين — وحاصرتنى أسئلة جديدة . ثم اذ بى فجأة لا افكر فى أمى ، ولا فى الالم الذى ستعانيه حين تفقد آخر درهم مما حصلته بعرق الجبين . وفجأة تركت آمى العمل الذى كانت آخذة نفسها به فى عناء ، ونادتنى . فاقتربت منها وأنا أرتعد ارتعادا شديدا ، فأخذت الورقة النقدية من الخزانة الصغيرة وناولتنى اياها وهى تقول :

— اذهبى يا نيتوتشكا . ولكن أرجوك ، أناشدك الله ، أن تنتبهى الى المبلغ الذى سيرده اليك البائع . اياك أن يسرقوك ، وحذار أن تضيعى شيئا .

فألقيت على أبى نظرة متوسلة . الا أنه هز رأسه ، وابتسم ابتسامة تشجيع ، وأخذ يفرك يديه من فراغ صبره ، فان الساعة تدق الآن السادسة ، وستبدأ الحفلة فى السابعة . لقد سبب له الانتظار ، هو الآخر ، ألمًا كثيرا .

ووقفت على السلم أنتظره . لقد بلغ انفعاله وتعجله من القوة أنه أسرع ورائى دون أى احتياط أو تحفظ . وناولته الدراهم . كان السلم مظلما جدا ، فلم أستطع أن أتبين وجه أبى ، الا أننى شعرت بأنه يرتجف وهو يتناول المال . وظللت متجمدة فى مكانى لا أستطيع حراكا ، ولم أنتبه الى نفسى الا حين طلب الىّ أن أصعد الى البيت لآتيه بقبعته . كان لا يريد أن يعود الى البيت .

فقلت له بصوت متقطع ، وكان أملي الاخير هو أن يدافع عني ، قلت :

ـ بابا ، لماذا لا تصعد معي ؟

ـ لا ... اصعدى وحدك .

ثم هتف ، بعد تفكير ، قائلا :

ـ انتظرى انتظرى . انتظرى ريثما آتى اليك بالحلوى أولا . ولكن اصعدى قبل ذلك ، وأتينى بقبعتى .

شعرت كأن يدا من جليد تقبض على قلبي . فانطلقت من صدرى صرخة ، ثم هربت أصعد السلم ركضا . وحين دخلت الى البيت كنت من الانهيار بحيث لو قلت لأمي ان المال قد سرق لصدقتني . غير أنني كنت عاجزة عن الكلام. وتهالكت مهدمة على سرير أمي مخبئة وجهي بذراعي. فما انقضت دقيقة على ذلك حتى فتح الباب بهدوء ، وظهر أبي .. لقد جاء لأخذ قبعته . وحزرت أمي فجأة أن شيئا ما قد حدث ، فصرخت بي قائلة :

ـ أين الدراهم ؟ أين الدراهم ؟ قولي . قولي !

ثم حملتني بقبضة يدها ، ووضعتني على قدمي في وسط الغرفة . ولكنني أطرقت ، وسكت ، وأنا لا أكاد أفهم ما وقع لي ، ولا ما يراد مني. وصرخت أمي مرة أخرى قائلة :

ـ أين الدراهم ؟

الا انها اتجهت فجأة نحو أبي ، الذى تناول قبعته ، وسألته :

ـ أين الدراهم ؟ آ ... لقد أعطتك اياها ! .. وضيع . مجرم . مجنون . تريد أن تشقيها هي أيضا ، هي الطفلة . لا . لا. انتظر . لن تذهب هكذا !

ووثبت الى الباب ، فأقفلته بالمفتاح ، ووضعت المفتاح في جيبها .

ـ هيا . تكلمي . قولي الحقيقة . اعترفي بكل شيء . تكلمي ، تكلمي ، والا فأنا أعرف ماذا أصنع بك !

قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع من شدة الانفعال ، وهي تقبض عليّ ، وتهز ذراعي . فأقسمت في هذه اللحظة لألزمن الصمت ، ولا أتهم أبي . ورفعت عينيّ نحوه ، مرة أخيرة ، في حياء . كان يكفيني منه عندئذ نظرة واحدة ، كلمة واحدة ، على نحو ما اتوقع ، على نحو ماأتمنى، حتى أكون سعيدة ، رغم أي تعذيب ينالني . الا انه بدلا من ذلك ـ يا رباه ! ـ أمرني أن أسكت ، باشارة مهددة باردة .. كما لو كان يمكن أن أخشى شيئا من الاشياء في مثل هذه اللحظة . وشعرت بحلقي يتقبض ، وبأنفاسي تتقطع ، وبساقيّ تلتويان تحتي ، وسقطت الى الارض مغشيا علي ، وانتابتني مرة أخرى النوبة العصبية التي صرعتني بالامس .

واستيقظت فجأة على طرق باب منزلنا . وفتحت أمي الباب . فرأيت رجلا يرتدي ثيابا موشاة مما يرتديه خدم النبلاء ، رأيته يدخل البيت ، ثم ينظر الينا نظرات تنم عن الدهشة ويسأل عن الموسيقي يافيموف، فيتقدم أبي نحوه ، فيناوله الرجل عندئذ مظروفا ، وهو يقول انه رسول «ب» الموجود الآن في منزل الأمير سيده . كان المظروف يحتوي على تذكرة ممتازة لحضور حفلة الموسيقي «س» !

ان ظهور الخادم الأنيق الذي يأتي خصيصا من قبل سيده الامير

لدعوة الموسيقى البائس يافيموف ، قد أحدث في نفس أمي ، فجأة ، تأثيرا كبيرا • قلت في أول هذه القصة ، ان هذه المرأة البائسة كانت تحب أبى حب العبادة • وكان قلبها ، في هذه الدقيقة ، رغم السنين الثماني التي قضتها معه في شقاء دائم ، لم يتغير أبدا • كانت قادرة على أن تحب زوجها رغم كل شيء • ومن يدرى ! فلعلها اعتقدت فجأة بأن الحظ سيبتسم ، وان كل شيء على وشك أن يتغير • لقد كان يكفي خيالها ظل من أمل ، حتى يسترسل في أحلامه ! لعل عدوى الاحلام المجنونة التي كانت تملأ رأس زوجها قد سرت الى رأسها هي الاخرى ، ولعلها أصبحت مثله تثق بعبقريته ثقة لا تتزعزع ! ومهما يكن من أمر ، فمن المستحيل أن لاتتأثر امرأة ضعيفة بمثل هذه البادرة ، وأن لا تجعلها التفاتة الامير تتخيل في طرفة عين ألف أمل وأمل • وفي طرفة عين أصبحت مستعدة لأن تلتفت الى زوجها ، لأن تغفر له الحياة البائسة التي قضتها معه ، لأن تغفر له حتى الجريمة الأخيرة التي اقترفها في حقها وهي افساد طفلتها الوحيدة • لقد أصبحت مستعدة ، في انطلاقة الحماسة وتجدد الامل ، لان تبرىء زوجها من تلك الجريمة ، فما ترى فيها الا خطيئة بسيطة ، ترجع الى قلة التبصر ، وتأثير البؤس ، وحياة الذل ، وضياع الأمل • الخلاصة : لقد كان كل ما فيها الآن سرورا وامتنانا ، وأصبحت مستعدة لأن تنسى كل شيء في سبيل زوجها المسكين •

أما أبي فكان لا يستطيع أن يستقر في مكانه من شدة فرحه • لقد سحرته التفاتة الامير وصديقه «ب» • واقترب من أمي غير متردد ، وهمس في أذنها بضع كلمات خرجت أمي على أثرها من الغرفة ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل نقودا استبدلتها بالورقة المالية •

فتناول أبي روبلا على الفور ، وقدمه للرسول • وانسحب هذا بعد

اظهار آيات الاحترام المهذب • وخرجت أمي من الغـرفة مرة أخرى ، وعادت بعد لحظة « بمكواة » ، فاخذت تكوى قميصا هو أحسن قمصـان زوجها ، وتولت بنفسها عقد ربطة عنقه البيضاء التى كانت قد حفظتها في خزانتها ، بعناية ، استعداداً للطوارىء ، مع الرداء الاسود الذى كان قد اشتراه لعمله في المسرح ـ وكان قد أصـابه البلى بعض الشيء ـ فلمـا انتهى أبى من زينته ، تناول قبعته ، وهم أن يخرج ، الا أنه قبل أن يخرج طلب شيئا يشربه •. لقد كان ممتقع اللون ، ولم يستطع أن يظل واقفا ، فارتمى على كرسى ، وأتيت له أنا بكأس من الماء • لعل شعور العداوة قد دب من جديد في قلب أمي ، فأخمد حماستها الاولى • ومضى أبى وبقينا وحدنا • ولطوت فى أحد أركان الغرفة ، وأخذت أتأمل أمي مدة طويلة ، وأنا صامتة • لم أرها يوما فى مثل هذه الحالة : كانت شفتاها ترتجفان ، واحمر خداها الشاحبان فجأة ، ورأيت جسمها يرتعد من حين الى حين • وأخيرا أخذ انفعالها يخرج آهات ، وكلاما متقطعا ، وشهقات صما •

ـ أنا المجرمة ، أنا وحدى المجـرمة • ما أشـقانى يا رباه ، ماذا ستصبح حين أموت !

قالت ذلك ، وهى واقفة فى وسط الغرفة ، كأن صاعقة وقعت على رأسها حين فكرت فى ذلك • ثم أردفت تقول ، وهى تضمنى الى صدرها وتقبلنى :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتى البائسة ، من ذا الذى سيعنى بأمرك بعد أن لم أحسن تربيتك ولا ملاحظتك فى هذه الحياة التى نعيشها • آه • انك لا تفهمين • هل ستذكرين ما أقوله لك الآن ؟ نيتوتشكا ، قولى ، هـل ستذكرينه ؟

فصرخت وأنا أضم يدىّ احديهما الى الاخرى باشارة التوسل :

ـ نعم • نعم يا أماه ••

وضمتني اليها في قبلة طويلة ، قوية ، كأنما تعذبها فكرة الانفصال عني •

شعرت كأن قلبي يتمزق •

وسألتها وأنا أبتلع دموعي :

ـ أماه ، أمي الحبيبة : لماذا •• لماذا •• لا تحبين أبي ؟

ولم يسمح لي الشهيق بأن أتم كلامي •

وانطلقت من صدرها صرخة ، ثم استأنفت سيرها في طول الغرفة وعرضها وقد أخذ حزنها الشديد بخناقها من جديد •

ـ صغيرتي ، صغيرتي المسكينة • رباه • لم ألاحظ أنها شبت من دور الطفولة • انها تفهم الآن كل شيء ، كل شيء • رباه ! أي آثار ستخلف فيها هذه المشاهدة ! وأيةَ قدوةٍ ترى !

ومرة أخرى ، ضربت كفا بكف ، علامة الألم واليأس • ثم عادت اليّ وارتمت عليّ ، تغمرني بسيل من القبل • وأخذت تتناول يدي وتقبلهما ، وتبللهما بدموعها ، وتسألني أن أصفح عنها ، وأن أغفر لها • لم أر في حياتي ألماً كهذا الألم • وبدت أخيرا منهوكة القوى ، فسقطت في نوع من الانهيار • وقضت على هذه الحال ساعة طويلة • ثم نهضت محطمة ، وطلبت اليّ أن أمضي الى سريري وأنام • فمضيت الى ركني ، وتدثرت بغطائي ، ولكني لم أستطع أن أغفو • لقد كان يعذبني التفكير فيها ، والتفكير في أبي • وكنت أنتظر عودة أبي بصبر نافد يمازجه نوع من الرعب • وبعد نصف ساعة تناولت أمي الشمعة واقتربت من سريري

تريد أن تتأكد انني قد غفوت • فأغمضت عيني تطمينا لها ، وتظاهرت بأنني غارقة في سبات عميق • وبعد أن تأملتني بعض الوقت ، اقتربت من خزانتها سائرة على أطراف الأصابع ، ففتحتها وسكبت لنفسها قدحا من الخمر شربته ، ثم نامت ، تاركة الشمعة مشتعلة والباب مشقوقا ، على عادتها حين يعود أبي متأخرا •

كنت مستلقية على حال من الخدر ، مفتحة العينين رغم النعاس • كنت ما ان أغمض جفني حتى تجتاحني رؤى فظيعة ، فأنتفض مذعورة • وكان خوفي يشتد ويشتد • .

كنت أود لو أصرخ ، الا أن صوتي يختنق في حلقي • وأخيرا ، في ساعة متأخرة جدا من الليل ، سمعت أبي يدفع الباب • لقد كان شاحبا شحوبا فظيعا • كان يهوم في غرفتنا صمت الموت • وكانت الشمعة على وشك أن تذوب كلها ، وهي تضيء مسكننا بنور حزين •

نظرت الى أبي مدة طويلة ، وهو جالس على كرسيه مطرق الرأس، مجمد اليدين على الركبتين في سكون تام • حاولت عدة مرات أن أناديه، الا انني لم أستطع ، فكأنني مشلولة • وأخيرا ، تحول فجأة ، ورفع رأسه، ونهض عن كرسيه ، وظل خلال لحظة من الوقت واقفا في وسط الغرفة ، كأنه بسبيل اتخاذ قرار ما ، ثم تقدم بغتة من سرير أمي ، وانحنى عليها يتنصت ، فلما أيقن أنها نائمة ، اتجه نحو الصندوق الذي يرتاح فيه كمانه ، ففتحه ، وتناول العلبة السوداء ، ووضعها على الطاولة ، ثم نظر مرة أخرى حوله • كان ينظر دون أن يرى ، كانت عيناه في اضطراب لم أعهد مثله فيهما من قبل •

وهمّ بتناول كمانه ، الا انه سرعان ما تركه ، وعاد الى الباب يقفله ، ثم لاحظ أن الخزانة مفتوحة ، فاتجه اليها بخطى كخطى الذئب ،

وراى القدح ، فملاه خمرا وشربه . ثم عاد مرة ثانية الى كمانه ، فتناوله، ليتركه من جديد ، ومضى الى سرير امي مرة اخرى . وقبعت انتظـر ما سيقع ، وانا اشد ما اكون انهيارا ..

واصاخ السمع مدة طويلة جدا ، ثم رفع الغطاء فجاة عن وجه امي، ومد اليه يده يجسه . ارتجفت . وازداد انحنـــاؤه على رأس أمي حتى لامسه بوجهه . ولما نهض عنه رأيت ابتسامة صفراء رهيبة مرعبة تطوف في وجهه . ثم أرجع الغطاء على رأس النائمة وعلى قدميها المكشوفتين ، بهدوء ورفق وعناية . أخذت أرتعد ، وقد تضـاعف خوفي وذعرى : خفت من أمي ، من نومها العميق هذا العمق . خفت من الخطوط المتجمدة التي يرسمها جسمها تحت الغطاء . ودبت في نفسي فكرة فظيعة وقعت مني موقع الصاعقة .

ولما فرغ أبي من جميع أعمال التمهيـد هـذه ، عاد الى الخزانة ، وافرغ في جوفه باقي الزجاجة . كان يرتجف كورقة في مهب الريح ، حتى اذا عاد الى الطاولة كان من الشحوب بحيث لا يُعرف . وتناول كمانه. لقد رايت هذه الالة من قبل ، وكنت أعرف فيم تستعمل ، ومع ذلك فقد كنت أتوقع أمرا رهيبا ، فظيعا .. وانتفضت حين سمعت أول صـوت . لقد أخذ أبي يعزف . الا أن الاصوات كانت تأتي متقطعة . كان يتوقف في كل لحظة ، كأنما هو يستجمع ذكرياته . وأخـذ ينظر الى السرير نظرة غريبة . كان هناك ، على السرير ، شيء يزعجه . وعاد مرة أخرى الى السرير . وأخذت ألتهم بعيني كل حركة من حركاته ، وقد تملكني خوف لا اسم له !

وفجأة ، أخذت يداه تجسان النائمة ، بسرعة ، وراودتني الفـكرة نفسها مرة أخرى كالصاعقة : لماذا تنام أمي نوما عميقا هذا العمق ؟ كيف لا تستيقظ على يدي أبي تجسانها هذا الجس ؟ وأخيرا رأيت أبي يجمـع

كل الأشـياء التى تقـع تحت يديه : معطف أمى العتيـق ، معطفه هو ، قميص نومه ، حتى الملابس التى خلعتها حين نمت ، ثم يضـعها جميعـا فوق أمي حتى اختفت تحتها تماما • وظلت أمي متمددة ، لم يختلج لهـا عضو !

لقد كانت تنام نوما عميقا •

وحين فرغ من ذلك ، أطلق آهة من يتخفف من عبء • الآن لن يزعجه أحد • ومع ذلك ما زال هناك شيء يقلقه • وغير مكان الشمعة • وجلس أمام الباب ، مديرا ظهره للسرير • وأخيرا تناول كمانه بحركة يائسة ، وأمسك بقوسه ، وبدأت الموسيقى •

ان هذه الموسيقى لم تكن موسيقى •• ما زلت أتذكر كل شيء تذكرا تاما ، حتى أبسط حركة • ما زلت أتذكر كل ما أسر انتباهى وقتئـذ • كلا ، لم تكن تلك موسيقى شبيهة بما سمعت بعد ذلك من موسيقى •• لم تكن تلك أصوات كمان ، لقـد كانت صراخا دوى فى منزلنـا المظلم لاول مرة • من الممكن أن تكون حالتى المرضية وقتئذ قد ضخمت الأمور، ومن الممكن أن تكون حواسى فى تلك اللحظة مضطربة مشوشة • الا أننى مقتنعة بأننى سمعت آهات وصرخات انسانية ، ونحيبا •• لقد كان يتفجر من هذه الأنغام ألم فظيع ، حتى اذا زمجرت نهاية اللحن ، بدت تلف كل شيء فى آن واحد : كل هول النحيب ، كل عذاب القلق ، كل الاحتضار اليائس •

ولم أستطع أن أتجلد أكثر مما تجلدت • فوثبت من مكانى مرتعدة، وقد أغرق الدمع وجهى ، فارتميت على أبى ، وطوقته بذراعى ، وأنا أعول من الخوف • فأطلق أبى صرخة قوية ، ووضع كمانه على الارض• وكمن فقد صوابه ، أخذ يرسل نظرته التائهة الطائشة فى كل مكان باحثـا عن

سلاح ما • ثم تناول كمانه فجأة ، وهمّ أن يهوى به على رأسى ••• ولو قد انقضت ثانية أخرى لهوى بالكمان على رأسى ، فحطمنى فى مكانى • الا أننى صرخت متوسلة :

ـ بابا • بابا •

فتعـرف صوتى ، وأخـــذ يرتجف كورقة ، وتراجـع الى الوراء خطوتين •

ثم حملنى من كتفى ، وقال :

ـ آ • أنت هنا • اذن لم ينته كل شيء • اذن ستبقين معى •

فقلت متوسلة من جديد :

ـ أبت • أبت • لا تنظر الى هكذا • لو تعرف كم أنا خائفـة ! آه ••

وأثرت فيه دموعى • فوضعنى برفق على الارض ، ونظر الىّ بضع ثوان نظرة فاحصة تريد أن تعرف وأن تفهم • ثم كأن فكرة فظيعة راودته فجأة ، فتفجرت من عينيه المضطربتين دموع سخينة ، وانحنى علىّ • وأخذ ينظر فى وجهى فاحصا • فكررت قائلة ، وأنا شبه مجنونة :

ـ بابا • بابا العزيز • لا تنظر الىّ هكذا • بابا ، لنذهب من هنا ، لنذهب بسرعة • لنذهب •

ـ نعم • لنذهب • لنذهب • آن الأوان • لنذهب يا نيتوتشكا • بسرعة ، بسرعة •

وتحرك حركة من فهم فجأة ما بقى عليـه أن يعمـله • فألقى على الغرفة نظرة مستديرة ، ولمح وشـاح أمى سـاقطا على الارض ، فرفعه ،

ووضعه في جيبه ، ثم رأى قبعتها فحملها أيضا ، وخبأها تحت ثيابه ، كمسافر يزمع رحلة طويلة ، فيأخذ كل ما قد يحتاج اليه .

أما أنا ، فبعد أن ارتديت ثوبي بسرعة ، أخذت أجمع ما بدا لي ضروريا للرحلة . ثم سألني أبي :

ـ هل انتهيت من أخذ كل ما يجب ؟ هل هذا كل شيء ؟ هل انتهيت من كل شيء ؟ اذن فلنذهب بسرعة .

وحزمت متاعي بسرعة ، ولفمت رأسي بوشاح . الا انني في اللحظة التي أوشكت أن أخرج فيها ، تذكرت أن علي أن أحمل اللوحة المعلقة على الحائط ، ووافق أبي على ذلك فورا . انه الآن هادىء ، يتكلم همساء ويردد أن علينا أن نمضي بسرعة . كانت اللوحة معلقة في مكان عال جدا من الجدار . فتعاونا معا على وضع كرسي أسندناه الى الحائط ووضعنا فوقه مقعدا صغيرا ، حتى استطعنا بفضل هذه السقالة وبفضل جهودنا المشتركة أن ننزل اللوحة من مكانها. وبعد ذلك لم يبق علينا الا أن نسير. وأمسك أبي بيدي ، الا انه استوقفني حين أوشكنا أن نجتاز عتبة الغرفة. وحك جبينه مدة طويلة كمن يحاول أن يتذكر ما بقي عليه أن يعمله . وأخيرا وجد ما كان يبحث عنه : مضى الى سرير أمي ، فتناول من تحت مخدتها مفتاح الخزانة الصغيرة ، وراح ينبش في هذه الخزانة على عجل ، ثم عاد يحمل الي بضعة دراهم وجدها في قاع الدرج ، وقال لي مدمدما:

ـ خذي هذا ، احتفظي به . لا تضيعيه . حذار أن تضيعيه .

وقد دس الدراهم ، أول الامر ، في يدي ، الا انه غيّر بعد ذلك رأيه ، فاستردها مني ، ووضعها في قميصي . ما زلت أتذكر الرعدة التي سرت في جسمي حين شعرت ببرودة الدراهم على جسدي . أعتقد انني

في تلك اللحظة انما أدركت قيمة المال • لقد انتهت كل تحضيراتنا الآن، ومع ذلك استوقفني أبي مرة أخرى •

قال وهو يستجمع أفكاره في جهد :

ـ نيتوتشكا • اسمعي يا بنيتي الصغيرة • ولكن نسيت • ماذا ؟ ماذا يجب أيضا ؟ ها • نعم • نعم • تذكرت ، تعالى • هلمي يا نيتوتشكا •

وقادني الى الركن الذي وضعت فيه الصور ، وأمرني أن أركع •

ـ صلي يا بنيتي • هذا أولى بك • هذا أولى بك • نعم هـذا أولى بك •

قال ذلك هامسا وهو يريني الأيقونة ، ويلفني بنظرة غريبـة • ثم أضاف بصوت متوسل :

ـ صلي • صلي •

فركعت ، وضممت يدي احديهما الى الاخرى ، ثم لم ألبث ـ وقد خنقني الخوف ـ ان وقعت على الارض لا أعي ، وبقيت على هذه الحال بضع دقائق • ثم استجمعت قواي كلها ، ووجهت عاطفتي كلها الى الصلاة، غير أن الخوف ظل أقوى من كل ذلك ، فنهضت وقد اجتاحني حـزن فظيع • وددت منذ تلك اللحظة أن لا أتبع أبي ، لقد كان يخيفني •• وددت لو أبقى • ثم انفرجت شفتاي عن سبب عذابي الشديد فقلت وقد تفجر دمعي غزيرا :

ـ وماما ؟ ماذا بها ؟ أين هي •• أين ماما ؟

ولم أستطع أن أتم كلامي من شدة الانتحاب •

فلما رآني أبكي ، أخذ يبكي هو الآخر •

ثم أمسك بيدى ، وقادنى الى السرير ، فرفع كومة الملابس • ورفع الغطاء • رباه • انها ترقد ، باردة ، صفراء الوجه •• فارتميت عليها كالمجنونة ، لأطوقها بذراعى • وأمرنى أبى أن أركع مرة أخرى ، وهو يقول هامسا :

ـ انحنى يا بنيتى ، قولى لها وداعا ••

انحنيت باحترام عميق ، وانحنى أبى فى الوقت نفسه • لقد كان شاحبا شحوبا رهيبا ، وكانت شفتاه تتحركان بهمس • قال وهو يشير الى الجثمان بيد مرتعشة :

ـ لست أنا ، يا نيتوتشكا ، لا ، لست أنا • هل تسمعين ؟

لست أنا الذى فعلت هذا • لست بمجرم • تذكرى هذا ، يانيتوتشكا •

دمدمت ، وقد بلغ بى الذعر حداً لم أعرفه من قبل :

ـ لنمض ، يا أبى ، آن الأوان ••

قال :

ـ نعم ، آن الأوان ، آن الأوان •

ثم أمسك ذراعى بقوة ، وقادنى الى خارج الغرفة •

ـ هلمى يا نيتوتشكا • لقد انتهى كل شىء ، الحمد لله •

وهبطنا السلم ، واستيقظ البواب ، ففتح لنا الباب وهو ينظر الينا نظرة ارتياب • واجتاز أبى العتبة بسرعة كبيرة ، تحاشيا لأسئلته ، ولم أستطع أن ألحق به الا بصعوبة • وبعد أن سرنا فى الشارع حتى آخره ، وقفنا عند ضفة القناة • كان الثلج ، خلال الليل ، قد غطى أرض الشارع،

وكانت خطاى ترتعد ؛ وكنت أركض وراء أبى منهوكة ، متعلقة بأذيال ردائه • كان يحمل كمانه تحت ابطه ، يتوقف فى كل لحظة ليرفعه ، وهو يوشك أن يسقط من الانزلاق •

مشينا هكذا قرابة ربع ساعة • وأخيرا هبط أبى على الرصيف المنحدر ، فلما وصل الى ضفة الماء ، جلس على حافته ، فكان الماء يهدر على خطوتين منا ، وليس حولنا أى مخلوق • ان الذعر الذى تملكنى فى تلك اللحظة سيبقى منقوشا فى نفسى الى الأبد ! •• ان ما حلمت به خلال السنة الماضية قد تحقق • ها نحن قد هجرنا منزلنا الحقير • ولكن أين هذا مما كنت أتوقعه ، مما كنت آمله ، مما صوره لى خيال الطفلة ، من أجل سعادة هذا الانسان الذى كنت أحبه حبا عنيفا كل هذا العنف ، عميقا كل هذا العمق ؟ •• ثم ان ذكرى أمى كانت تلاحقنى ، فكنت أتساءل : « لماذا تركناها هنالك وحدها ؟ لماذا تركنا جثمانها كما يترك شيء لا فائدة فيه ؟ » • كان هذا التفكير يعذبنى •

ولم أستطع أن أحتفظ لنفسى بهذه الأفكار التى تشغل بالى ، فناديت أبى :

ـ أبت • أبت الحبيب ••

ـ ماذا ؟ (قال ذلك بلهجة صارمة) •

ـ أبت الحبيب ، لماذا تركنا أمى هناك ، لماذا تركناها ؟ أبت الحبيب• لنعد الى البيت ، فندعو أحدا يبقى الى جانبها !

فصرخ فجأة وهو ينهض مرتعدا ، كمن واتته فكرة تحل جميع مشاكله :

- نعم يا نيتوتشكا • لا يمكن أن نفعل هكذا • يجب الرجوع الى جوار ماما • ان الجو بارد عليها هناك • اذهبي اليها يا نيتوتشكا ، اذهبي اليها • ليست الغرفة مظلمة • فهناك شمعة مشتعلة • لا تخافي • ادعي اليها أحدا ، وارجعي • اذهبي وحدك • اني منتظرك • لن اتحرك من هذا المكان قبل أن ترجعي •

ومضيت فورا ، الا انني لم أكد أصل الى الرصيف حتى شعرت كأن ضربة تصيب قلبي ، فالتفت الى الوراء ، فاذا أنا أرى أبي يهرب في الجهة الأخرى • لقد تركني • تركني في لحظة كهذه ! •• فصرخت بكل قواي ، وأخذت أعدو وراءه عدوا سريعا ،وقد تملكني خوف مجنون • •الا انه كان أسرع مني ركضاً فما لبث أن غاب عن بصري ، وأنا ألهث مهدودة القوى خائرة •• ووجدت قبعته في الطريق • لقد سقطت عن رأسه وهو يركض • فحملت القبعة ، وتابعت عدوي • شعرت بأنفاسي تتقطع ، وبساقيّ تترنحان تحتي • أحسست أن ما يقع لي الآن ليس أمرا طبيعيا ، وأنه لا بد أن يكون أضغاث أحلام •• ان ما أعانيه لشبيه جدا بما يشعر به الحالم ، حين يريد الافلات من شخص يلاحقه ، فتأبى أقدامه السير ، وينتهي به الامر الى الاغماء • كانت تمزقني مشاعر فظيعة • كنت أشفق على أبي : كان صدري يختنق اذ أتذكر أنه بلا معطف ، وبلا قبعة، بعيدا عني ، بعيدا عن طفلته الحبيبة • كنت أود أن أدركه ، حتى أستطيع أن أعانقه ، مرة واحدة على الاقل ، عناقا قويا ، وحتى أستطيع أن أقول له أن لا يخاف مني •• حتى أستطيع أن أطمئنه •• حتى أستطيع أن أؤكد له انني لن أعدو وراءه اذا كان يريد ذلك ، وانني عائدة وحدي الى جانب أمي • ولمحته من بعيد يدخل في أحد الشوارع • وحين دخلت في هذا الشارع في أعقابه كنت أراه أمامي • الا أن قواي خانتني عندئذ فأخذت أجهش بالبكاء وأصرخ • وما زلت أذكر انني ، أثناء ركضي ، اصطدمت

بشخصين ، وقفا فى وسط الرصيف ، وأخذا ينظران الينا ، أنا وأبى ، دهشين • وصرخت مرة أخيرة :

ـ بابا • بابا •

الا أن قدمى زلت على الرصيف ، فسقطت أمام عتبة أحد البيوت • وأحسست بالدم يسيل على وجهى •• ثم أغمى على ، فلم أشعر بعد ذلك بشىء •

• • •

وحين فتحت عينى ، وجدتنى على سرير دافىء جميل ، ورأيت الى جانبى وجوها لطيفة أفرحتهـا يقظتى • ورأيت سيدة مسنة على عينيهـا نظارتان ، وسيدا طويلا ينظر الىّ وقد ظهرت على وجهه امارات شـفقة عميقة ، ورأيت امرأة شابة جميلة ، ورأيت كذلك عجوزا أشيب يمسك بيدى وهو ينظر فى ساعة • لقد بعثت الىّ حياة جديدة •

ان أحد الأشخاص الذين صادفتهم فى طريقى أثناء ركضى المسعور كان هو الامير «ك» ، وقد سقطت على عتبة منزله • فقرر هذا الامير الذى أرسل الى أبى تذكرة حضور الحفلة التى أقامها الموسيقى «س» ، قـرر ـ حين عرف من أنا ، بعد بحث طويل متعب ـ أن يسكننى فى بيته ، وأن يربينى مع أبنائه ، متأثرا من هذه المصادفة العجيبة •.وبحثوا عن المصـير الذى آل اليه أبى ، فعرفوا أنه عُثر عليـه فى ركن من أركان احـدى الضواحى ، وهو فى نوبة هذيان شديد فقادوه الى أحد المستشفيات ، حيث مات بعد يومين •

الموت ! مثل هذه النهاية نتيجة طبيعية ، حتمية ، للحياة التى عاشها• كان لا بد أن يموت هكذا ، حين غاب عنه ـ فى طرفة عين ، كما يغيب

سراب مبهم فارغ ـ كل ما كان يشـــده الى الحياة •• حين تبـدد أمله العظيم ، حين أدرك ادراكا واضحا باهرا انه قد خدع في حقيقة قيمته ، خلال حياته كلها • لقد تجلت له الحقيقة ساطعة تظهره على مدى ضلاله • لقد سمع ، في ساعته الاخيرة ، عبقرية رائعة فتحت عينيه وأعلنت له أنه لا شيء ، فحكمت عليه هكذا بالموت •• حين سمع أبي اللحن الاخير الذى فجره « س » من أوتاره ، أدرك ما هو الفن الرائع ، الغني دائما ، الصادق القوى أبدا ، وعرف ما هي العبقرية • ان كل ما كان يقلقـه في غياهب نفسه ، خلال حياته كلها ، كل ما لم يكن حتى هذه اللحظة الا رؤى غائمة وخيالات متهربة ، كل ما أوجسه في بعض اللحظات ثم دفعه عن نفسه خائفا ، كل ما لفع به حياته من كذب عنيد ، كل ما كان يراه مقبلا، ويخشى أن يراه ، كل ذلك بدا أمام عينيه الآن فجأة ، أمام عينيه اللتين كانتا تصران على أن لا تريا أن النور نور ، وأن الظلمات ظلمات • الا أن الحقيقة كانت أقوى من أن يحتملها نظره : انه مضطر ، لأول مرة ، أن ينظر الى الأمور ، على حقيقتها ، وجهـا لوجه ؟ وأن يرى المصـير الذى رسمه لنفسه • فلما رأى ذلك كله بلغ من الاضطراب حداً أفقده عقله ، لقد وقعت الحقيقة على عقله موقع الصاعقة •• على أن الحقيقة التى أدركها كان ينتظرها ، بالرغم منه ، خلال حياته كلها ، وهو يرتعد من الخوف • كأن فأسا كانت مسلطة على رأسه خلال حياته كلها ، فكان ينتظر الضربة القاضية في كل لحظة ، وها هي ذى الضربة القاضية قد أتت ! نعم انهـا ضربة قاضية • كان يريد أن يهرب من محكمة ضميره ولكنه أصبح الآن لا يستطيع أن يجد ملجأ يهرب اليه • زال آخر أمل له ، وتبددت آخر حجة يمكن أن يتعلل بها •• ان تلك التى ضاق بوجودها ذرعا خلال مدة طويلة ، تلك التى كانت تسمم حياته ، والتى كان يعتقد أن من حقه أن

يتمنى موتها منقذا له ، قد ماتت أخيرا •• ها هو ذا الآن حر ، لا يزعجه أحد ؛ وقد زالت عماوته ؛ وتملكه حزن مهـلك • أراد أن يحـكم على نفسه بقسوة لا ترحم ، بقسوة من يحـكم حكما لا تحيز فيـه • الا أن قوسه الضعيف لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يردد النغمات الاخيرة التى عزفها الموسيقى العبقرى «س» •• !

لقد كان الجنون يتربص به منذ عشر سـنين •• وها هـو ذا الآن ينقض عليه بغتة !

الفصل الرابع

ثم استرد صحتي الا بعد مدة طويلة • وحين استطعت أن أترك سريري نهائيا ، كانت ذاكرتي ما تزال من الوهن بحيث ظللت مدة طويلة لاأفهم ما صرت اليه • كنت في بعض اللحظات أحسب أنني في حلم ، وتمنت أن يكون كل ما وقع لي حلما من الأحلام • كنت، اذا جاء المساء ، وهممت أن أنام ، آمل أن أستيقظ فجأة فاذا أنا في مسكننا البائس ، بين أمي وأبي •• الا أنني أدركت شيئا فشيئا انني وحدي ، وانني أعيش عند غرباء •

شعرت أخيرا انني يتيمة •

وأخذت أتأمل ، في كثير من الشراهة ، ما يحيط بي من أشياء جديدة عليّ كل الجدة ، فبدا لي كل شيء ، في أول الأمر ، غريبا عجيبا محيرا : هذه الوجوه الجديدة ، هذه العادات الجديدة ، هذه الحجرات الفخمة في قصر قديم من قصور الامراء • ما زلت أرى هذه الحجرات

واسعة ، عالية ، مترفة ، وما زلت أراها كذلك حزينة ، كئيبة ، يتملكني الخوف حين أجتاز احداها ؛ وأشعر انني لا بد ضائعة فيها • لم أكن قد شفيت تماما بعد • كان خوفي المستتر منسجما تمام الانسجام مع هذا المسكن الحزين ، على روعته وجلاله • ثم ان حنينا قويا عنيفا كان ما ينى ينفذ عميقاً الى قلبى الفتى • كنت أتسمر خائفة أمام لوحة من اللوحات ، أو مرآة من المرايا ، أو مدفأة من المدافىء الأنيقة الصنع ، أو تمثال يخيل الىّ أنهم دفعوه خصيصا الى قاع ركن من الاركان ليحسن التحديق الى تخويفا لى • كنت أتسمر ، ثم أنسى فجأة لم وقفت وماذا أريد ، وفيم أفكر ، حتى اذا عادت الىّ ذاكرتى رأيتنى من الخوف بحيث يخفق قلبى خفقانا عنيفا •

بين الذين كانوا يعودوننى أيام كنت مريضة جدا ، فيما عدا الطبيب العجوز ، كان هنالك شخص أثر وجهه فى نفسى تأثيرا كبيرا • كان وجهه رصينا وطيبا ، وكان ينظر الى فى كثير من الشفقة والمحبة • كنت أوثر وجهه على جميع الوجوه الاخرى ، وكنت أشعر برغبة قوية فى مخاطبته، الا اننى لم أجرؤ على ذلك • كان يبدو دائما حزينا جدا ، وكان يتحدث قليلا ، وبصوت متقطع ، دون أن تطوف فى شفتيه يوما أضعف ابتسامة • كان ذلك الشخص هو الامير «ك» نفسه ، الذى حملنى من الشارع وأسكننى فى بيته • كانت زياراته تقل شيئا فشيئا مع تقدمى فى مرحلة النقاهة • وفى آخر مرة زارنى فيها حمل الىّ حلوى وكتاب صور • ثم قبلنى ، ورسم علىّ اشارة الصليب ، وطلب منى أن أحاول المرح، وأنبأنى – على سبيل التشجيع – انه سيكون لى بعد قليل صديقة من سنى ، هى ابنته « كاتيا » التى كانت يومئذ فى موسكو • ثم التفت الى فرنسية متقدمة فى السن هى مربية أبنائه ، والى فتاة تعنى بشئونى ، فأوصاهما بشىء يتعلق بى • ثم خرج ، ولم أره الا بعد ثلاثة أسابيع من تلك اللحظة •

كان الامير يعيش حياة خاصة ، في عزلة تامة عن الناس • وكانت الاميرة تشغل نصف القصر ، وكانت هي نفسها ، خلال أسابيع طويلة ، لا ترى زوجها • ولاحظت بعد ذلك أن سكان هذا المنزل لا يتحدثون عن الامير كثيرا ، كانما هو غائب • الا أن كلا منهم كان يحترمه • ان المرء ليشعر أنهم يحبونه ، ولكنهم يعدونه انسانا شاذا بعض الشيء • وكأنما كان يدرك هو نفسه انه ليس كغيره ، فكان لهذا السبب لا يظهر الا نادرا • (ولسوف اتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) •

وفي ذات صباح ، جاءوني بملابس داخلية بيضاء جميلة ثم بثوب من الصوف الاسود مزين ، اخذت ارمقه دهشة قلقة ، ثم أنزلوني ، بعد ان اتموا زينتي ، الى جناح الاميرة • طاش لبي حين رأيتني أمامها • لم يسبق لي في حياتي أن رأيت نفسي في جو مترف رائع الى هذا الحد • غير ان انشداهي لم يدم طويلا • سمعت الاميرة تطلب الى أن اقترب ، وامتقع لوني • لقد قدرت ، وهم يلبسونني ، أنهم انما يهيئونني لامتحان خطير • لا أدري كيف راودتني فكرة كهذه ، على أنني كنت قد دخلت حياتي الجديدة وفي نفسي حذر غريب من كل من يحيطون بي • ولاطفتني الاميرة كثيرا ، بل قبلتني ، فتجاسرت عندئذ أن أنظر اليها • كانت هي السيدة الجميلة التي رأيتها واقفة الى سريري حين أفقت من الاغماء • وارتعش جسمي كله وأنا أقبل يدها ، ولم أستطع أن أجد في نفسي من القوة ما يكفي للاجابة على أسئلتها بشيء • وأجلستني قريبا منها على مقعد صغير ، وكأن هذا المكان قد أعد لي خصيصا • كان واضحا ان الاميرة كان يسعدها أن تحبني حبا صادقا ، وأن تغمرني بالقبل ، وأن تكون لي أما ، غير أنني لم أفهم هذه السعادة التي تهبط علي ، فلم أحظ بتقدير الاميرة كثيرا • وأعطيت كتابا جميلا من صور ، أمرت أن أنظر

فيه ، بينما أخذت الاميرة تكتب ، وكانت تترك قلمها من حين الى حين ، لتحدثني ، فكنت أضطرب وأجيب اجابات طائشة .

والخلاصة : انني تصرفت تصرف طفل تافه ، مذعور ، خائف ، بل غبي . وان غباوتي خاصة هي التي ساءت الاميرة ، ولئن ضاقت بي ذرعا بعد مدة قصيرة ، فلا شك أنني مسئولة وحدي عن ذلك .

وفي نحـــو الساعة الثـــالثة بدأت الزيارات ، ولم تلبث الاميرة أن أصبحت أكثر عناية بي ، وأكثر رقة معي من ذي قبـــل . وأجابت على أسئلة الزوار عني بأن قصتي قصة غريبة جدا، ثم أخذت تتحدث بالفرنسية حالا . فكان الزائرون أثناء حديثها ينظرون الي وهم يهزون رءوسهم ، ويطلقون من أفواههم صرخات التعجب . حتى ان شابا من الحاضرين أدار نظارته ليحدق في . وحاول عجوز أشيب أن يقبلني . وكنت أنا أرتجف، واصفر، واحمر ، وظللت قابعة في مكاني مطرقة ، لا أجرؤ على القيام بحركة . وكان قلبي منقبضا يؤلمني . أخذت أفكر في منزلنا البائس .. في أبي .. في سهراتنا الطويلة الصامتة .. في أمي .. فلمـا تذكرت أمي فاضت عينـــاي بالدموع ، وانقبض حلقي ، ووددت لو أهرب ، لو أختفي ، لو أختبيء .. وما ان انتهت الزيارات حتى استعاد وجـه الاميرة قسوته . فكانت لا تنظر الي نظرة رقيقة ، بل تخاطبني بخشونة . الا أن ما كان يرعبني أكثر من ذلك انما هـــو شفتاها المشـــدودتان ، وعيناها السوداوان اللتان تحملقان في أحيانا ، خلال ربع ساعة .

ولما أتى المساء ، أعادوني الى فوق . وعند منتصف الليل استيقظت محمومة ، وأخذت أبكي مذعورة من أحلامي المخيفة . وفي صباح اليوم التالي ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادوني مرة أخرى الى جناح الاميرة . ولعل الاميرة قد ملت قص مغـــامراتي لزوارها ، واستنفـد الزوار ، من

جهتهم ، اهتمامهم بی وعطفهم علی . ثم اننی طفلة عادية جدا ، ليس فی شیء من « براءة الطفولة » (هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسيدة مسنة سألتها هل يمكن أن لا يزعجها وجودی) .. وفی ذات مساء ، ارجعونی الی فوق مرة أخيرة ، ولم يقودونی بعد ذلك الیالاميرة قط . انتهی الامر . لم يبق لی من حظوة لديها . الا انه كان يسمح لی أن أطوف حيث اشاء من أرجاء البيت . ولما كنت لا أستطيع أن أستقر فی مكان ، لفرط اضطرابی وقلقی ، فقد كنت أشعر أننی من أسعد الناس طرا حين كنت أستطيع ان أنعزل فی الطابق الأدنی ، فی أعماق الحجرات الواسعة . وأذكر أننی شعرت برغبة قوية فی أن أكلم سكان البيت ، ولكنی كنت من خوفی أن أزعجهم أوثر تجنبهم . والذی كنت أحبه أكثر من كل شیء آخر هو أن أنطوی فی ركن من الاركان لا يرانی فيه أحد ، وراء قطعة من الاثاث مثلا ، غارقة فی ذكری ما وقع لی . ولكن العجيب فی الأمر اننی كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فی بيت أبوی . كانت تخطر أمامی صور ووقائع .. والحق اننی كنت أتذكر كل شیء ، كنت أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبی . كنت أتذكر كيف دبرت له المال .. أما التفكير فی هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت عاجزة عنه كل العجز . لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدری ، وحين كنت أصل منها الی ذكری أمی ، الی اللحظة التی ركعت فيها أمام جثمانها أصلی ، كانت تسری فی ظهری قشعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ، وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسی ؟ ويبلغ انقباض صدری ، وخفقان قلبی ، وذعری ، حدا لا يسعنی معه الا أن أهرب من مخبئی .

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركوننی وحدی ، فالحق أنهم كانوا يراقبوننی مراقبة دقيقة ، دون أن يظهر عليهم ذلك . لقد

كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لا يزعجونى فى شىء وأمر مع ذلك ان لا أغيب عن بصرهم دقيقة واحدة .. فكنت ، من حين الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو احد الخدم ، يلقى نظرة على الغرفه التى أكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى هذا الانتباه وأقلقني ، ولم أستطع ان أفهم له سببا ، كنت أعتقد انهـم يراقبونني لقصد خفى مبيت ، يريدون أن يصـنعوا بى شيئا فيما بعد ، لذلك كنت أجهد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبـأ أختفى فيه عنــد الضرورة . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سلم واسع من رخام فرش بالسجاد ، وزين بالازهار ، وبروائع الخزف . وفى نهاية كل طبقة منه جلس حارسان طــويلان ، يرتديان ثيابا موشاة وقفازات بيضاء ، وربطة عنق ناصعة البياض . نظرت اليهما قلقة ، ولم أستطع أن أفهم لم يجلسان هنالك ، ينظر أحدهما الى الآخر ، دون أن يقولا شيئا ، ودون أن يعملا شيئا !

وكنت أزداد سرورا ، يوما بعد يوم ، بهذا الطواف وحدى . ثم ان هنالك سببا آخر كان يحدونى الى الهرب من الطـــابق الأعلى . كانت تعيش هنالك عمة للاميرة عجوز ، انقطعت عن الخروج ، ولا تقابل أحدا. لقد تركت هذه المرأة العجوز فى نفسى أثرا واضحا جدا . وشعرت أنها ان لم تكن أهم شخصيات المنزل، فهى قريبة من ذلك . كان جميع من فى الدار يخضعون فى صلاتهم بها لمراسم فخمة ، بل ان الاميرة نفســها ، ذات النظرة الشامخة الآمرة ، كانت مضطرة أن تصعد فى زيارة خاصــة لعمتها مرتين فى الاسبوع ، فى يومين معينــين . كانت تزورها عادة فى الصباح ، فيدور بين الســـيدتين حديث رصين كثيرا ما تقطعه فترات من الصمت ، تملؤها العجوز بدمدمة صلواتها ، أو عد أورادها على سبحتها . وكانت الزيارات تطول أو تقصر وفقا لمشيئة العمة ، اذ كانت العمــة ،

تنهض فجأة ، فتقبل الاميرة على شفتيها ، مشيرة بذلك الى أن الزيارة قد انتهت . ولقد كان على الاميرة فى أول الأمر ، أن تزور عمتها مرة كل يوم ، الا أن هذه المراسم قد تراخت بعد ذلك بموافقة السيدة العجوز ، وصار يكتفى من الاميرة أن ترسل أحدا فى كل صباح يستفسر عن أنباء العمة . ثم ان العمة ، وقد طعنت فى السن كثيرا ، كانت تعيش منزوية . لقد كانت عذراء . وقد أرادت فى الخامسة والثلاثين من عمرها أن تدخل الدير ، الا أنها بعد أن قضت فيه سبعة عشر عاما دون أن تقطع عهد الترهب ، تركت الدير وعادت الى موسكو . أرادت أن تعيش هنالك مع أختها ، أرملة الكونت «ل» ، التى كانت صحتها تسوء سنة بعد سنة . وأن تتصالح مع أختها الأخرى ، الاميرة «ك» ، بعد خصومة بينهما دامت عشرين عاما على أقل تقدير : الا أن هاته العجائز لم يستطعن ، فيما يقال، أن يتفاهمن يوما واحدا ، وأردن ألف مرة أن ينفصلن دون أن ينفذن ذلك ، اذ كن فى كل مرة يشعرن فى آخر لحظة بحاجة بعضهن الى بعض ، لدفع الملل ومزعجات الشيخوخة . ورغم أن حياتهن العائلية هذه لم تكن جميلة ، ورغم الضجر الوقور الذى كان يخيم على مسكنهن النسوى بموسكو ، فقد كان المجتمع الراقى كله فى المدينة يشعر بأنه مضطر الى زيارة المنزويات الثلاث . كان الناس يعتبرونهن حارسات التقاليد الارستقراطية كلها ، ويرون فيهن الصورة الحية للنبالة القديمة . كانت الكونتة امرأة ممتازة ، خلّفت كثيرا من الذكريات الجميلة . كان جميع الذين يصلون من بطرسبرج يُخصون السيدات بأولى زياراتهم . وكان جميع الذين يستقبلون فى منزلهن يستقبلون بعد ذلك فى كل مكان . الا أن الأختين انفصلتا ، بعد موت الكونتة . أما الاميرة «ك» ، وهى الكبرى ، فقد بقيت فى موسكو ، لكى تصفى حساب نصيبها من تركة الكونتة التى توفيت عن غير ولد . وأما الصغرى ، المترهبة ، فقد مضت

الى بطرسبرج تقيم عند ابن أخيها ، الامير «ك» • وبسبب هذا الحداد ، يقيم ولدا الأمير ، كاتيا والكسندر ، عند عمتهما الكبيرة بموسكو ، يواسيانها في وحدتها • ورغم أن الاميرة كانت تحب ولديها حبا هائما ، فانهـا لم تسمح لنفسها بأن تعترض على انفصالهما عنها طوال مدة الحداد • نسيت أن أقول ان الحداد كان ما يزال قائما يوم دخلت منزل الامير ، الا انه كان مشرفا على الانتهاء •

وكانت الاميرة العجوز ترتدى دائما ثوبا من صوف أسود تزينـه ياقة صغيرة بيضاء تضفي عليها حقا هيئة راهبة • ولم تكن تترك سبحتها، وكانت تمضى الى الصـلاة في كثير من الفخامة والجـلال ، وتصوم كل يوم ، وتستقبل رجالا من أهل الوقار ، وسدنة الكنيسة ، وتقـرأ الكتب المقدسة ، أى كانت على الجملة تعيش حقا حياة رهبنة • وكان الصـمت في الطابق الأعلى رهيبا • كان لا يمكن أن يسمع فيه صرير باب يفتح أو أى صوت آخر ضئيل دون أن ترسل الآنسـة العجوز أحد الخـدم تسأل عن سبب هذه الضجة (كانت أذنها مرهفة السمع كأذن صـبية في الخامسة عشرة !) • وكان الجميع يتحدثون هنالك همسا ، ويمشـون على رءوس الاصابع • وحتى الفرنسية المسكينة اضـطرت ، رغم سنها ، أن تتنازل عن حذائها المفضل ، ذى الكعب : ان الاحذية ذات الكعب ممنوعة في الطابق العلوى • وقد أرسلت الاميرة ، بعد دخولى البيت بأسبوعين ، تسأل عن أمرى : من أنا ؟ وما وجودى في البيت ؟ الخ •• فأسرعوا في الاجابة على سؤالها باحترام عظيم • عندئذ أرسلت تسـأل الفرنسية مرة أخرى عن السبب في انها لم ترنى بعد • فأدى ذلك الى حركة كبيرة في البيت : أخذوا يسرحون شعرى ، ويغسلون وجهى ويدى ، دون ما داع الى ذلك ، ويعلموننى كيف أمشى ، وكيف أقدم لها احترامى واجلالى ؛ وأوصـونى بأن أكـون ألطـف وأرق ، وكالوا لى كل أنواع التـأنيب

والتقريع . ثم أرسلوا رســـولا يسأل الاميرة العجوز هل تود أن ترى اليتيمة . فقيل للرسول كلا ، وأُمر بأن أحضر اليها فى الغد بعد الصلاة. لم يغمض لى جفن طوال الليلة كلها ، وقيل لى فيما بعـد اننى هذيت . كنت أرانى أصلى بلا انقطاع ، أمام السـيدة ، استرحم عفـوها وألتمس غفرانها !

وأخيرا ، جاءت لحظة المثول بين يديها .. فرأيتنى أمام عجوز نحيلة قصيرة ، غارقة فى مقعد كبير . أشارت الىّ أن أتقدم ، ووضعت نظارتيها على عينيها ، لترانى من كثب . أذكر أننى لم أفز باعجابها أبدا . وتفضلت فقالت اننى متوحشة حقا ، لا أعرف كيف أركع ولا كيف أقبل اليد . وانهالت علىّ بأسئلتها ، فكنت لاأكاد أجيب ، حتى اذا سألتنى عن أبوى ، انفجرت باكية . وساء السيدة العجوز أن ترانى حساسة الى هذا الحد . وظنت مع ذلك أنها تواسينى اذ أمرتنى أن أفوض أمرى الى الله ، وأن أضع أملى فيه . ثم سألتنى عن آخر مرة ذهبت فيها الى الكنيسة ، فلما لم أكد أعرف ما معنى هذا ، لأن تربيتى الدينية كانت مهملة جدا ، ظهـــر على العجوز امتعاض لا يوصف . واسـتُدعيت الاميرة الشابة ، وعُقـد اجتماع قرروا فيه أن يقودونى الى الكنيسة فى يوم الاحد القادم، وتعهدت الاميرة العجوز بأن تدعو لى فى صلواتها . الا أنها أمرت فى الوقت نفسه بأن أنصرف ، لأن رؤيتى ، فيما قالت ، تؤلمها كثيرا . لم أر فى كل هذا شيئا خارقا ، وأنا فيما أنا فيه . الا أن الشىء المحقق الذى لا ريب فيـه هو أنها كرهتنى جدا . وفى هذا اليوم نفسه أرسلت تقول اننى أكثر من الحركة ، وان حركتى مسموعة من أول البيت الى آخره ، مع اننى فى الواقع ظللت طيلة اليوم قابعة فى مكانى لم أتحرك . لقد خلقت السـيدة العجوز هذه الفكرة من خيالها ، وثبت ذلك فى اليوم التالى حين أرسـلت تبدى هذه الملاحظة عينها . الا اننى فى ذلك اليوم نفسه سقط من يدى

فنجان ، فتحطم على الارض ، فذعرت الفرنسية وجميع الوصيفات ذعرا شديدا ، وأقصينني فورا الى أبعد غرفة ، ولحقن بي مذعورتين ذعرا هائلا •

لا أتذكر الآن كيف انتهت هذه القضية • ولكنني سعدت جدا بالنزول الى الحجرات الكبيرة السفلى ، والطواف فيها وحدى ، مطمئنة الى أنني لا أزعج أحدا •

وفي ذات مرة ، كنت جالسة في احدى هذه الحجرات السفلى ، مطرقة الرأس ، مسندة وجهي الى يدى ، منذ ساعات ، أفكر ، وأفكر • لم يكن عقلي من النضج ولا من القوة بحيث أستطيع أن أعرف حزني ، الذي كان مع ذلك يزداد حتى ليخنقني خنقا • وفجأة سمعت صوتا رقيقا ينبعث أمامي :

ـ ما بك ، أيتها الصغيرة المسكينة ؟

كان ذلك الصوت هو صوت الامير • وكان وجهه يعبر عن رحمة عميقة • فلما رفعت اليه بصرى ، ولمح في نظرتي الهلاك والبؤس ، ترقرقت في عينيه الزرقاوين دمعة •

قال وهو يداعب رأسي :

ـ مسكينة أيتها اليتيمة !

فصرخت وأنا أشهق :

ـ كلا • كلا • كلا • لست يتيمة •

ونهضت ، ووثبت اليه فأمسكت بيده ، وأخذت أغرقها بالقبل والدموع ، وأنا أقول :

ـ كلا • كلا • لست يتيمة •

ـ ولكن ماذا بك ؟ ماذا بك يا عزيزتي الصغيرة ؟ يانيتوتشكا المسكينة ؟ ماذا بك ؟

صرخت وقد ازداد شهيقي :

ـ أين أمي ؟ أين أمي ؟

ولم أستطع أن أخفي حزني ، فهويت على ركبتيه ، وأنا أقول :

ـ أين أمي ؟ قل لي أين هي !

ـ سامحيني يا صغيرتي ! آه . يا بنيتي المسكينة .. فيها اذن كنت تفكرين .. ماذا صنعت ! تعالي معي ، يا نيتوتشكا ، اسرعي .

وأمسك بيدي ، وجرني بخطى سريعة . كان متأثرا الى أعماق نفسه . ودخل بي أخيرا في غرفة لم أكن أعرفها بعد .

كانت تلك الغرفة هي غرفة المصلى . انها مظلمة ، فيما عدا القناديل الصغيرة تنعكس أضواؤها الخفيفة على الاطر المذهبة ، وعلى الاحجار الكريمة في الايقونات . وكان القديسون ، من قلب الاطر اللامعة ، ينظرون الي في غموض . لا شيء في هذا المكان يشبه الحجرات الأخرى. ان جوها جو سري ، وقور ، حتى ان نفسي تملكها شعور قريب من الخوف . وهذا ، على كل حال ، أمر طبيعي في الحالة الصحية التي كنت فيها . وبادر الامير فأركعني أمام صورة للعذراء ، وركع هو الى جانبي ، وهو يقول بصوت ناعم متهدج :

ـ صلي ، يا صغيرتي ، صلي ، سنصلي معا .

ولكن لم يسعفني أي دعاء . كنت منفعلة جدا ، خائفة جدا كذلك. تذكرت كلمات أبي ، في تلك الليلة الاخيرة ، أمام جثمان أمي ، وانتابتني أخيرا نوبة عصبية . ورجعت الى السرير مريضة . وكدت أموت أثناء هذه النكسة . واليكم كيف جرت الامور :

في ذات صباح قرع سمعي اسم معروف هو اسم «س» ، لفظه أحد الى جانب سريري ، فارتعدت . وهاجمتني الذكريات تترى ، وقضيت ساعات من الهـــذيان أبحث في ذاكـرتي ، وأحلم ، وأتعـذب . وحين استيقظت ، بعد مدة طويلة ، كان الظلام يخيم في الغرفة . كان القنـديل قد انطفأ ، وكانت الخادمات قد مضين ، مع أن العادة أن يبقين الى جانبي. وفجأة سمعت أصوات موسيقى آتية من بعيد . كانت هذه الاصوات تخف أحيانا حتى لا تسمع ، وتدوى أحيانا أخرى كأنها تأتي الىّ . لا أدرى أي شعور اجتاحني في تلك اللحظة ، ولا أفهم هذا القرار الذى انبجس في دماغي المريض على حين غرة : رأيتني أنهض من سريري ، وأرتدي ثوبي الاسود ، ثوب الحداد ، بسرعة ، دون أن أملك القوة لذلك ، ثم أترك الغرفة وأنا أتحسس طريقي . لم ألق أحدا ، لا في الغرفة المجاورة، ولا في الغرفة التي دخلتها بعد ذلك . ووجدتني أخيرا في الممر. اقتربت الاصوات . في وسط الدهليز كان يقع السلم الذى اعتدت أن أهبط عليه الى القاعات الكبيرة . ان الأنوار تتلألأ فيه ساطعة . وسمعت وقع أقـدام في أسفل ، فلطوت في ركن حتى أرى . ولم أدخل في الدهليز الا حين اعتقدت أن أحدا لن يراني . كانت الموسيقى تنبعث من حجرة مجاورة . وكانت ضجة الاصوات هنالك تنبيء بوجود عدد من الناس كبير . كان أحد أبواب القاعة ، وهو الباب المطل على الدهليز ، مغطى بستار مزدوج من مخمل قرمزي . رفعت أحد ذيول الستار الاول ، واختبأت وراءه . كان قلبي يخفق خفقانا قويا ، وكنت لا أكاد أقوى على الوقوف على قدمي. غير انني استطعت ، بعد بضع دقائق ، أن أملك زمام انفعالي ، وجازفت فرفعت ذيل الستار الثاني . يا الهي ! تلك القاعة الواســعة المظلمة التي كنت أخاف أن أدخلها ، تسطع الآن بألوف المصابيح ! بحر من النــور أغرقني . وعشيت عيناي من شدة النور ، فقد تعودتا على الضوء الخفيف.

وهب على وجهي هواء عطر ، دافيء . كان الناس في داخل الحجرة يذهبون ويجيئون ، وكان الفرح باديا في وجوههم جميعا . والنساء يرتدين أثوابا ناصعة مترفة . لم أر الا نظرات مشرقة بالسرور. وتجمدت في مكاني من فرط الدهشة . كان يبدو لي مع ذلك أن قد سبقت لي رؤية هذا كله ، في مكان ما ، في الحلم .. وتراءى لي بيتنا الحقير ، عند المساء ، والنافذة العالية ، والشارع العميق بفوانيسه المتلألئة ، والنوافذ المقابلة بستائرها الحمر ، والعربات المصطفة أمام درجات الباب ، والخيول الشامخة تكدف وتصهل ، والطيوف على النوافذ .. وسمعت صراخا ، وضوضاء ، والموسيقى خافتة لبعدها . قلت في نفسي : « آه . هذه هي الجنة . هنا الجنة اذن . هذا هو المكان الذي كنت أريد أن أمضي اليه مع أبي المسكين . لم يكن ذلك حلما ! .. لقد رأيته هكذا تماما ، في الماضي، في خيالي ، في أضغاثي . » وازدادت نفسي التهابا ، على التهابها بحمى المرض .. وتفجرت من عيني دموع حماسة لا توصف .. وطفقت أبحث بنظري عن أبي . قلت في نفسي ، وقد وثب قلبي ، وتقطعت أنفاسي : « لا بد أن أبي هنا .. انه هنا حتما . » وفجأة سكتت الموسيقى ، وماجت القاعة . وسمعت همسا من كل صوب . وأخذت أحدق في كل الوجوه التي كانت تمر أمامي ، جاهدة أن أعرف أحدا . وفجأة اجتاح القاعة اضطراب شديد جدا.فلمحت على المنبر شيخا نحيلا طويلا يمسك بكمان. كان وجهه الشاحب يبتسم ، وكان ينحني الى جميع الجهات في تحية لطيفة . وعاد الصمت . انه صمت عميق ، حتى لكأن الناس قد حبسوا أنفاسهم . كل واحد ينظر الى الشيخ ، كل واحد ينتظر . تناول الشيخ كمانه ، وهز الأوتار بقوسه . بدأت الموسيقى . ولكني لم ألبث أن شعرت بأنني أختنق . ان هذه الاصوات تزيد اضطرابي الى حد لا يوصف . أصبحت لا أستطيع أن أتنفس . انني أعرف هذه الاصوات . لقد سمعتها

من قبل . ان فيها انذارا ، انذارا بشيء رهيب ، غريب ، يتضح الآن في أعماق نفسي . وانطلقت الاصوات أسرع وأعنف . ثم جاءت الآهات والزفرات وشهقات النحيب . انها صلاة تهوى الى اليأس .

كان كل ذلك يصبح مألوفا لدى أكثر فأكثر . الا أن قلبي كان يأبى أن يصدق . وشددت أسناني بعضها الى بعض حتى لا أعول من الالم ، وتمسكت بالباب حتى لا أقع . وكنت في بعض الاحيان أغمض عيني ثم أفتحهما ، آملة انني سأخرج من حلم لأجد نفسي في منزلنا ، حيث سمعت هذه الموسيقى ، في تلك الليلة الفظيعة . وكنت اذا فتحت عيني ، أحدق في الجمهور لأتيقن . كلا . هؤلاء أناس آخرون ، هذه وجوه أخرى . وبدا لى أن كل واحد من الجمهور ينتظر ـ مثلى ـ حدثا ، وانهم جميعا ، مثلى ، غارقون في غم عميق . بدا لى انهم جميعا يودون لو يصرخون مع هذه الآهات ، وهذه الأنات ، ليخففوا العبء عن نفوسهم . الا ان الآهات والأنات تزداد حدة ، وألما ، وعمقا . وفجأة ، انفجر الصوت الاخير ، صرخة طويلة ملحة ، فانتفضت . لم يبق من شك . انها تلك الصرخة عينها . انني أعرفها . لقد سمعتها . هي الصرخة التي صعقتني في تلك الليلة . ومر برأسي خاطر كالبرق : « بابا . بابا . انه هنا . هو الذي يدعوني . وهذا كمانه ! » .. وأطلق الجمهور زفرة طويلة واسعة . وانطلق التصفيق محموما يهز القاعة هزا . وانشق صدري عن شهقة قوية صارخة . لم أطق أن أحبس نفسي ، فرفعت الستار ، وانطلقت في الصالة مسرعة ، وأنا أصرخ :

ـ بابا . بابا . أهذا أنت ؟ أين أنت ؟

لا أدرى كيف وصلت الى الشيخ الطويل . لقد تركوني أمر ، وأفسحوا الطريق أمامي . وارتميت عليه بصرخة هائلة . كنت أعتقد

اننى أقبل أبى . وفجأة شعرت بيــدين نحيلتين طــويلتين تمسكان بى . ورأيت عينين سوداوين تحــدقان فى عينى ، كأنهما تحرقانى بلهيبهما . نظرت الى الشيخ ، فاذا بى أقول فى نفسى فجأة : « كلا . ليس هــــذا بابا . هذا قاتله ! » وتملكتنى حميا هائلة . وخيل الى أننى أسمع ضحكا فوق رأسى ، وان هــــذا الضحك يترجع فى القاعة كلها . ثم لم أشعر بشىء ! .

الفصل الخامس

كانت تلك نكستى الثانية والاخيرة •
حين فتحت عينى رأيت وجه طفلة منحنية علىّ ، وجه صبية فى سنى ، فما ان رأيتها حتى مددت لها ذراعى • منذ أول نظرة شاعت فى نفسى كلها عاطفة رقيقة فرحة • تصور وجه طفلة هى فى الجمال آية • جمال مشرق يأسر البصر • وجه من تلك الوجوه التى تنفعل أمامها اعجابا ، من تلك الوجوه التى اذا رأيتها وقفت مشدوها لا تستطيع حراكا من فرط افتتانك• ذلك هو وجه «كاتيا» ابنة الامير التى عادت من موسكو • فلما مددت اليها ذراعى طافت على ثغرها ابتسامة ، فشعرت بارتياح كبير ينفـذ الى أعماق كيانى •

ونادت الاميرة الصغيرة أباها ، وكان على بعد خطـوتين يتحدث مع الطبيب •

قال ، وقد أمسك بيدى ، وأشرق وجهه اشراقة الفـرح الصادق :

ــ الحمد لله !

ثم أردف يقول بكلمات سريعة ، على عادته :

ـ انني سعيد ، سعيد جدا • جدا • هذه كاتيا ابنتي • لتتعرف كل منكما الى الاخرى • هل ترين ؟ ستكون هذه صديقتك ! هيا استعيدى صحتك بسرعة ، يا نيتوتشكا ، أيتها الصغيرة الشيطانة التى أخافتنى كل ذلك الخوف !

تحسنت صحتي بسرعة كبيرة • وما انقضت أيام قليلة حتى استطعت أن أنهض • وكانت كاتيا تأتي الى قرب سريرى ، كل صباح ، باسمة مرحة • كان الضحك لا يستطيع أن يهجر ثغرها • وكان ظهورها هو السعادة عينها لى • آه ! كم وددت لو أقبلها • الا أن هذه الشيطانة الصغيرة لم تكن تبقى أكثر من دقائق • انها لا تستطيع أن تستقر فى مكان • لا بد أن تتحرك ، أن تركض ، أن تثب ، أن تحدث صخبا ، أن ترجّع الاصداء فى البيت كله• كان ذلك حاجة لها ملحة• لذلك أوضحت لى منذ زيارتها الأولى أنها لا شيء يزعجها كالجلوس الى جانب سريرى ، وانها لهذا لن تأتي الا نادرا ، وانها ستأتى مع ذلك لأنها تشعر نحوى بالشفقة ، واننى سأرى ، على كل حال ، حين أبل من مرضى ، اننا سنتفاهم تفاهما أعمق وأكمل • كانت الكلمة الاولى التى توجهها الى كل صباح هى هذا السؤال السريع :

ـ هيه ؟ شفيت ؟

ولما كنت شاحبة نحيلة رغم كل شيء ، وكانت الابتسامة لا تجد سبيلها الى وجهى الحزين الا بصعوبة ، فسرعان ما كانت الاميرة تقطب حاجبيها ، وتهز رأسها ، وتضرب الارض بقدميها ، مستاءة مغتاظة •

ـ غريب • مع انني قلت لك بالامس أن تبلي من مرضك • فلماذا لم تشفي ؟ لعلهم لا يطعمونك كثيرا ؟

فأجبت أجاريها ، لأنني كنت أشعر أمامها بخجل شديد :

ـ كلا • لا يطعمونني كثيرا •

لم يكن بي الا رغبة واحدة ، هي أن أفوز برضاها • لذلك كنت أخشى كل كلمة ، وكل حركة •• وكان افتتاني بوصولها يزداد قوة وعنفا ، يوما بعد يوم • فاذا جاءت لم يفارقها نظري لحظة ، بل لقد كان يتفق لي ـ حين تمضي الى سبيلها ـ أن أظل أتأمل الجهة التي غابت فيها ، مشدوهة مفتونة ! •• كنت أثناء غيابها أتحدث اليها طويلا ، أتصور أنها صديقي ، فألعب معها وأخاتلها ، ونبكي معا اذا أنبنا أحد على خطيئة ما • الخلاصة : كنت أحلم بها حلم العاشق بمعشوقه • وكنت أرغب رغبة جنونية في أن أعافى وأن أسمن بأقصى سرعة ممكنة ، عملا بنصيحتها ونزولا على أمرها ••

حين كانت كاتيا تصل عند الصباح لتصرخ قبل كل شيء : « مازلت مريضة ؟ ما زلت نحيلة ؟ » كنت أرتاع كأنني مجرمة • كانت كاتيا تشعر بدهشة صادقة حين ترى أن يوما كاملا من أربع وعشرين ساعة لم يكن كافيا لشفائي •• حتى لقد انفجرت غاضبة أخيرا :

ـ هل تريدين أن آتيك بفطيرة ؟ ستأكلينها ، فتسمني بسرعة !

أجبت ، وقد ملأني سرورا أنها ستعود مرة ثانية :

ـ نعم • هاتي •

وكانت الاميرة الصغيرة بعـد أن تسألنى عن صـحتى ، تجلس الى جانبى وتأخـذ تحـدق فىّ بعينيها السـوداوين • وفى أول الأمر كانت تفحصنى هكذا في كل لحظة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وقد بدت على وجهها دهشة ساذجة • الا أن حديثنا لم يكن يجرى متصـلا هينا • فقد كنت أظل وجلة خجلة ، وكنت رغم تحرقى شوقا الى التحدث معها ، أخاف تأنيبها •• فكانت بعد فترة من الصمت ، تبادرنى قائلة :

ـ لمـاذا لا تقولين شيئا ؟

فأجيب ، سعيدة جدا بوجود عبارة يمكن دائما أن يُبدأ بها الحديث:

ـ وأبوك ، كيف حاله ؟

ـ حاله حسـنة • شربت اليوم فنجانين من الشـاى بدلا من فنجان واحد • وأنت ؟

ـ فنجاناً واحداً •

ويعود الصمت •

ـ اليوم أراد « فالستاف » أن يعضنى •

ـ أهو كلب ؟

ـ نعم • كلب •• أما رأيته ؟؟

ـ بلى • رأيته ؟

ـ اذن لمـاذا تسألين هل هو كلب ؟

ولا أعرف بم أجيب ، فتنظر الىّ الاميرة الصغيرة دهشة :

ـ قولى هل تسرين حين أكلمك ؟

ـ جدا • أكثرى مجيئك !

ـ قالوا لى ان مجيئى يسرك • ولكن غادرى فراشـــك بسرعة • سآتيك اليوم بفطيرة • هذا وعد أكيد • ولكن ماذا بك حتى تصـمتى هكذا ؟

ـ لا أعرف •

ـ ألا تنقطعين عن التفكير ؟

ـ أفكر فى أشياء كثيرة •

ـ أما أنا فيقولون عنى اننى أتكلم كثيرا ولا أفكر فى شىء • هـل الكلام اساءة ؟

ـ أبدا • أبدا • اننى أسر حين تتكلمين •

ـ يجب أن نسأل عن هذا مدام ليوتار • انها تعرف كل شىء • ولكن فيم تفكرين ؟

قلت بعد صمت :

ـ فيك أنت •

ـ هل يسرك هذا ؟

ـ نعم •

ـ اذن فأنت تحبيننى !

ـ نعم •

ـ أما أنا فلا أحبك بعد • انك نحيلة جدا • انتظرى ، ســآتيك بفطيرة • الى اللقاء • الى اللقاء •

وبعد أن قبلتنى الاميرة الصغيرة ، تقبيلا خاطفا ، غابت عن الغرفة •

ومع ذلك فقد أتتني بعد الغداء بالفطيرة التي وعدتني بها • جاءت الي كالمجنونة ، تضحك من شدة الفرح ، لأنها تطعمني طعاما مُنع عني•

ـ كلي • انه طعامي احتفظت به لك • والآن الى اللقاء •

وغابت بمثل السرعة التي أتت بها !

وفي مرة أخرى ، وثبت الى جانبي ، في ساعة غير منتظرة أيضا ، بعد الغداء • كان شعرها منفوشا ، وخداها محمرين ، وعيناها تضيئان ببريق قوي • لا شك أنها كانت تركض وتقفز منذ ساعة أو ساعتين •

صرخت بسرعة ، وهي تلهث ، وقد بدت عليها الرغبة في العودة الى ألعابها على الفور :

ـ هل تحسنين اللعب بالكرة الطائرة ؟

ـ كلا •

قلت ذلك وأنا أشعر بأسف مر على انني لا أستطيع أن أقول نعم •

ـ طفلة عجيبة حقا ! هيا • ابلي من مرضك ، وسأعلمك • جئت لأسألك هذا فحسب • انني ألعب الآن مع مدام ليوتار • الى اللقاء • انها تنتظرني •

واستطعت أخيرا أن أترك سريري رغم ضعفي • فكانت أول فكرة راودتني عندئذ هي أنني لن أنفصل بعد الآن أبدا عن كاتيا • ان عاطفة لا تقاوم تدفعني نحوها • كنت ألتهمها بعيني التهاما ، وكان هذا يثير دهشتها كثيرا • كان انجذابي اليها من القوة بحيث انني استسلمت لعاطفتي الجديدة هذه في حماسة لم تخف أخيرا على كاتيا • وبدا لها ذلك في أول الأمر شيئا غريبا بل عجيبا • وأذكر أنني ، ذات مرة ، وكنا

نلعب معا ، رأيتني أرتمي على عنقها وأقبلها دون أن أستطيع كبح هـذه الرغبة الجامحة ، فما كان الا أن تخلصت مني وأمسكت بيدي ، وقطبت حاجبيها كأنني أهنتها ، وسألتني :

ـ ما بك ؟ لماذا تقبلينني هكذا ؟

وانتفضت لهذا السؤال المباغت ، وخجلت خجلا شديدا ، ولم أستطع أن أجيب بكلمة • فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها علامة الحيرة والدهشة (وكانت هذه حركة مألوفة فيها) وعضت شفتيها المثلثتين ، في جد ، وانقطعت عن اللعب ، ثم مضت الى ركن من الاركان فجلست على أحد المقاعد • وظلت في ركنها ذاك مدة طويلة تتأملني ، وتفكر ، كأنها تحل لغزا عرض لفكرها فجأة • وهذا أيضا كان عادة من عاداتها في اللحظات الحرجة ، بحيث لم أستطع خلال مدة طويلة أن أتلاءم مع وثبات طبعها المفاجئة •

واعتقدت أنني أخطأت ، وأيقنت على كل حال ان هذا لا بد أن يبدو غريبا • على انني ظللت أتعذب ، فكنت أتساءل : لماذا لم أستطع أن أفوز منذ اللحظة الاولى ، والى الأبد ، برضى كاتيا •• وأن أصبح صديقتها •

كان اخفاقي هذا يحرقني حرقا ، وكنت أشعر أنني على وشك أن أجهش باكية كلما وجهت الى كلمة قاسية ، أو كلما نظرت الى نظرة حذرة • وكان حزني يزداد يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ، لأن الأمور لا تجري مع كاتيا سهلة يسيرة • وشعرت بعد قليل من الوقت أنها بدلا من أن تحبني أخذت تكرهني • ان كل شيء ، لدى هذه البنية، يتم بصورة سريعة ، مفاجئة ، بل كان يمكن أن نقول وحشية ، لولا أن لطفا مفطورا كان يثوي وراء هذه الاندفاعات السريعة البارقة التي تصدر عن طبع متحمس صادق •

والواقع ان ما شعرت به نحوى في أول الامر كان نوعا من الشك لم يلبث ان انقلب الى احتقار ، والسبب فى هذا الاحتقار ، فيما يخيل الى، هو أننى لم أستطع أن أشاركها ألعابها المختلفة . كانت الاميرة الصغيرة تحب الحركة والركض ، كانت صحتها قوية ، وكانت نشيطة ، حاذقة ، بينما كنت أنا نقيض هذا تماما . لقد ظللت بعد مرضى ضعيفة ، هادئة ، غارقة في التفكير والصمت. لم يكن يشوقنى أى نوع من أنواع اللعب.. أى لم أكن أملك أى شيء يتيح لى الفوز بقلب كاتيا . ثم اننى بطبيعتى لا أطيق أن أشعر أن أحدا غير راض عنى . واذا شعرت بشيء من ذلك فسرعان ما ينتابنى حزن شديد ، وسرعان ما أفقد كل شجاعة ، وتخوننى قواى ، فما أستطيع أن أصلح أخطائى وأن أبدل الأثر السيء الذى تركته فى نفس غيرى بأثر حسن . ومعنى هذا أنه متى كرهنى أحد ، كان كرهه الى غير رجعة .. وهذا ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه !

وحين لاحظت ، بعد أن ظلت ساعة طويلة تشرح لى لعبة الكرة الطائرة بغية أن تعلمنيها ، حين لاحظت أننى لم أفهم شيئا البتة ، أدهشها ذلك الى حد الخوف ، وأخذت تنظر الىّ على عادتها نظرة استغراب. أما أنا فشعرت أننى أوشك أن أجهش فى البكاء . وبعد أن فكرت فى أمرى مرتين أو ثلاثا دون أن تصل الى نتيجة ، هجرتنى تماما ، وأصبحت تلعب وحدها ، دون أن تدعونى الى مشاركتها أبدا ، ودون أن توجه الىّ كلمة واحدة خلال أيام طويلة ! .. وكان تأثير ذلك فى نفسى قويا لا أكاد أطيق احتماله . وثقلت علىّ وحدتى الجديدة أكثر من وحدتى القديمة. ثم لم ألبث أن عدت الى حزنى ، واجتاحتنى أفكار سود ...

ولاحظت مدام ليوتار ، وكانت تراقبنا ، هذا التغير الذى طرأ على علاقتنا ، وانتبهت خاصة الى صد كاتيا وهجرها اياى . لذلك اتجهت اليها

رأسا ، فأنبتها على ذلك ، وطلبت اليها أن تحسن سلوكها معى • الا أن الاميرة الصغيرة قطبت حاجبيها ، وهزت كتفيها ، وصرحت بأنها لا تعرف ماذا تصنع بى ، وقالت اننى أظل طوال الوقت أفكر ، وأن الأفضل لها أن تنتظر أخاها « ساشا » الذى سيعود من موسكو قريبا ، وأن الحياة معه ستكون أحفل بالسرور وأمتع •

غير أن مدام ليوتار لم تقنع بهذا الجواب • فنبهت كاتيا الى اننى ما زلت مريضة ، واننى لا استطيع ان اكون فى مثل مرحها وصخبها • بل اضافت الى ذلك أن هدوئى خير من حركتها ، لان كاتيا تتجاوز الحدود : أليست ترتكب كثيرا من الحماقات ؟ الم توشك ، اول امس ، ان يفترسها الكلب ؟ الخلاصة أن مدام ليوتار قرعت الاميرة الصغيرة بلا رحمة ، وارسلتها الى لمصالحتى فورا •

أصغت كاتيا الى مدام ليوتار فى انتباه شديد ، كأنما هى تدرك شيئا جديدا وصحيحا من وراء هذا التأنيب • ثم ما لبثت أن تركت العجلة التى كانت تجرى وراءها فى القاعة ، واقتربت منى ، وسألتنى دهشة ، وهى تنظر الى نظرة رصينة :

ـ هل تريدين حقا أن تلعبى ؟

ـ لا ••

قلت ذلك من فرط خوفى عليها وعلىّ من تأنيبات مدام ليوتار •

ـ اذن ماذا تريدين ؟

ـ أفضل أن أظل جالسة • اننى لا أستطيع أن أركض • ولكن لا تغضبى يا كاتيا ، اننى أحبك كثيرا •

ـ حسنا ، اذن سألعب وحدى ..

قالت ذلك في رقة ونعومة ، وفى لهجة من يكتشف ، دهشا ، انه ليس بمذنب . ثم أضافت :

ـ والآن ، الى اللقاء . ولن أغضب منك .

فأجبت وأنا أنهض وأمد لها يدى :

ـ الى اللقاء .

ـ لعلك تريدين أن تقبلينى ؟

قالت ذلك بعد لحظة من تفكير ، لعلها تذكرت فيها المشكلة التى قامت بيننا بصدد ذلك . وكان واضحا أنها تريد أن تفعل كل ما تستطيع فعله لادخال السرور الى نفسى ، بغية أن تتخلص منى بأقصى سرعة ممكنة وعلى أحسن نحو .

قلت فى رجاء خجول :

ـ اذا شئت .

فاقتربت منى ، وقد اكتسى وجهها طابع الجد ، ولم تختلج شفتاها بابتسامة ، ومنحتنى قبلة . فلما أنهت هكذا كل ما طلب منها ، بل أكثر مما طلب منها ؟ اسعادا لهذه البنية الصغيرة التى أرسلت اليها ، هربت راضية مطمئنة . وسرعان ما أخذت تدوى من جديد فى أرجاء الغرف جميعا ضحكاتها الصاخبة وصرخاتها . ودام الأمر على هذا الحال الى أن عادت من لعبها لاهثة ، وارتمت على أحد المقاعد تستريح وتستجمع قواها الغضة . وظلت طوال السهرة تنظر الىّ فى ارتياب وحذر . كان واضحا اننى أبدو لها طفلة عجيبة شاذة ، وكان واضحا انها تود أن تسألنى مستوضحة أمرى . ولكن لا أدرى لم أمسكت فى هذه المرة !

وكانت دروس كاتيا عادة تتم في الصباح • وكانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية • على أن تعليم الفرنسية هذا كان لايعدو تكرار قواعد النحو ، وقراءة أقاصيص لافونتين • ولم تتعلم كاتيا شيئا كثيرا ، اذ كان من الصعوبة بمكان حملها على الجلوس والقراءة ساعتين في كل يوم • لكنها قررت أخيرا أن تتعلم نزولا على رغبة أبيها ، واطاعة لأوامر أمها : كانت اذا قطعت على نفسها عهدا تلتزمه وتحققه بدقة • وقد أوتيت كاتيا مواهب ممتازة ، فكانت تفهم سريعا ، غير انه كان لها ، مع ذلك ، بعض العيوب : كانت اذا استعصى عليها فهم أمر من الأمور ، تحاول أن تفهمه وحدها ، ولا تطيق أن تسأل أحدا شرحا ، لانها تشعر أن السؤال عار !•• وقيل انها كانت في بعض الاحيان تظل أياما بأكملها تصارع سؤالا لا تستطيع حله •• وكان يغضبها أن لا تقدر على حله وحدها ، دون الاستعانة بأحد ، لكنها لم تكن تمضي الى مدام ليوتار لتستنجد بها ، الا في أحوال نادرة ، حين تعجز عجزا تاما • وكان أمرها يجري على هذا النحو في كل ما تصنع : تفكر وتتأمل أكثر مما يظن فيها لأول وهلة • ولكنها في الوقت نفسه مسرفة في السذاجة بالنسبة الى سنها • وكانت في بعض الاحيان تطرح أسئلة غبية حقا ، وفي أحيان أخرى كانت اجاباتها لا تخلو من براعة وفطنة ••

وأخيرا أصبحت صحتي تسمح لي بأن أتعلم شيئا أنا الاخرى ، فامتحنتني مدام ليوتار لتعرف مقدرتي ، فاكتشفت انني أقرأ قراءة حسنة جدا ، لكنني أكتب كتابة سيئة جدا ، وان من الضرورة بمكان أن تعلمني الفرنسية حالا •

لم أحتج على ذلك •• وذات صباح ، رأيتني جالسة مع كاتيا جنبا الى جنب ، الى منضدة الدرس • وأظهرت كاتيا ، في هذه المرة ، كأنما عن

قصد ، كسلا وغباء ، حتى أنكرتها مدام ليوتار ! •• أما أنا فقد تعلمت الألفباء الفرنسية في هذه الجلسة وحدها ، وجهـدت أن أرضى معلمتي بكل ما أوتيت من قوة • وفي نهاية الدرس كانت مدام ليوتار غاضبه جدا من كاتيا ، فقالت لها وهي تشير الى :

ـ انها مريضـة تدرس لأول مرة ، ومع ذلك فقـــد بذلت عشرة أضعاف ما بذلت أنت • ألا تشعرين بالخجل لهذا ؟

فسألتها كاتيا دهشة :

ـ اذن فهي تعرف أكثر مما أعرف ! ولكن كيف ؟ انها ما زالت تتعلم الألفباء ••

ـ كم درسا استغرقت انت في تعلمها ؟

ـ ثلاثة ••

ـ أما هي فقد استغرقت درسا واحدا • معنى هذا انها أسرع منك في التعلم ثلاث مرات ، وانهـــا ستتفوق عليـــك بعد قليل • أليس كذلك ؟

ففكرت كاتيا لحظة ، ثم احمر وجهها احمرارا شديدا حين أدركت أن مدام ليوتار على حق • هكذا كان حالها دائما : حين تؤنب ، سـواء لذنب اقترفته أو لاخفاق في الدرس أصابته ، فانها تحمر ، ويحـــرقها الشعور بالعار ، أو الحزن ، أو الكبرياء الجريحة • وفي هذه المرة كادت الدموع تنفجر من عينيها ، غير أنها حبستها ، ونظرت الى كأنها تريد أن تصعقني ••

وفهمت فورا ما بها : لقد كان كبرياء الطفلة المسكينة عظيما • وحين

بعدنا عن عيني مدام ليوتار أردت أن أسرع فأقول لها ، تخفيفا عنها ، انه ليس ذنبي ان الفرنسية خاطبتها بهذه اللهجة ، غير أن كاتيا تظاهرت بأنها لا تسمع ما أقول ، وظلت صامتة •

وبعد ذلك بساعة ، دخلت الى الغرفة التي كنت جالسة فيها أقرأ ، ولا ينصرف تفكيري الا اليها • كان يعذبني ويخيفني أن أتصور أنها ، مرة أخرى ، لا تريد أن تكلمني • ونظرت الىّ ساهمة ، وجلست على الديوان كعادتها ، ولم تحول نظرها عني خلال نصف ساعة • ثم لم أتمالك نفسي ، فأرسلت اليها نظرة مستفهمة •

فسألتني كاتيا :

ـ هل تحسنين الرقص ؟

ـ كلا •

ـ أنا أحسنه ••

صمت ••

ـ هل تحسنين العزف على البيانو ؟

ـ كلا ••

ـ أنا أحسنه • والواقع أن تعلمه عسير ••

صمت ••

ـ تقول مدام ليوتار انك أذكى مني •

ـ كانت مدام ليوتار مستاءة منك ، فقالت ذلك •

ـ وبابا هل يستاء أيضا ؟

ـ لا أدري •

صمت جديد ••

وضربت الاميرة الصغيرة الارض بقدمها الصغيرة ، وقد فرغ صبرها .. ثم لم تستطع أن تخفى مضضها ، فسألت :

ـ اذن ستهزئين بى لأنك أسرع فهما منى !

فصرخت وأنا أثب من مكانى لأسرع اليها وأقبلها :

ـ أبدا . أبدا .

وفجأة ، قالت مدام ليوتار ، وكانت تصغى الى حديثنا منذ خمس دقائق ، مخاطبة كاتيا :

ـ ألا تخجلين من هذا القول ، ومن طرح أسئلة كهذه ؟ .. أسفى عليك يا آنسة . تحسدين هذه الطفلة البائسة وتدلين عليها بأنك تحسنين الرقص والعزف على البيانو . أسفى عليك يا آنسة . سأروى هذا لأبيك !

والتهب خد الأميرة الصغيرة بحمرة قانية . بينما استطردت المربية :

ـ هذا لا يليق . انك تعذبينها بأسئلتك هذه . كان أهلها أناسا فقراء ، فلم يستطيعوا أن يستأجروا لها مربية تعنى بتعليمها . وما تعرفه انما تعلمته وحدها لأن لها قلبا نبيلا وفؤاداً ذكياً . يجب عليك أن تحبيها بدلا من أن تحقدى عليها . عيب . عيب . اذكرى أنها يتيمة ، وان ليس لها أحد فى هذا العالم . لم يبق الا أن تدلى عليها بأنك أميرة ، وانها ليست بشىء ، سأتركك وحدك . فكرى فيما قلته لك ، وأصلحى نفسك .

وفكرت الاميرة الصغيرة ، يومين كاملين ! .. خلال يومين كاملين لم تدوّ قهقهاتها وصرخاتها فى البيت . وكنت اذا استيقظت فى الليل ، أسمعها تتم فى المنام حديثنا مع مدام ليوتار . لقد ضعفت خلال هذين

اليومين ، وفقد وجهها الزاهر شيئا من ألوانه . وأخيرا ، في اليوم الثالث ، التقينا فى القاعة الكبرى ، فى أسفل . كانت الاميرة الصغيرة خارجة من غرفة أمها ، فلما راتنى ، توقفت ، ثم جلست أمامى ، قريبـــة منى : وانتظرت ما سيقع ، مرتاعة ، مرتجفة ، وأخيرا سألتنى :

ـ نيتوتشكا ، لماذا أنبونى بسببك ؟

فأجبت أبرىء نفسى :

ـ لم يكن ذلك بسببى .

ـ ألم تقل مدام ليوتار اننى أسأت اليك ؟

ـ كلا يا كاتيا ، كلا ، لم تسيئى الى .

فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها ، علامة الشك فيما أقول . ثم سألت بعد لحظة من الصمت :

ـ ولماذا تبكين طوال الوقت ؟

فأجبت من خلال دموعى :

ـ لن أبكى اذا شئت .

ومرة أخرى هزت كتفيها .

ـ ولكن هل كنت تبكين فى بيتكم دائما مثلما تفعلين الآن ؟

لم أجب .

ثم سألتنى فجأة ، بعد صمت جديد :

ـ ولماذا أنت فى بيتنا ؟

فنظرت اليها دهشة ، وكأن طعنة نفذت فى قلبى . ولم أستطع أن أجيب الا بعد أن استعدت أنفاسى . قلت :

ـ لأنني يتيمة •

ـ وكان لك بابا وماما ؟

ـ نعم •

ـ وكانا لا يحبانك ؟

ـ بلى • كانا يحبانى •

قلت ذلك بصعوبة •

ـ وكانا فقيرين ؟

ـ نعم •

ـ فقيرين جدا ؟

ـ نعم •

ـ ولم يعلماك شيئا ؟

ـ بلى • علمانى القراءة •

ـ هل عندك لعب ؟

ـ لا •

ـ هل كنت تأكلين فطائر ؟

ـ لا •

ـ ما عدد حجرات بيتكم ؟

ـ حجرة واحدة •

ـ حجرة واحدة ؟

ـ واحدة •

ـ والخدم ، هل كان عندكم خدم ؟

ـ لا .

ـ ومن كان يخدمكم اذن ؟

ـ كنت أنا أشترى الاشياء من السوق .

كانت أسئلة كاتيا تؤلمنى أكثر فأكثر . ثم ان هـــذه الذكريات ، ووحدتى ، ودهشة الاميرة الصغيرة ، كل ذلك كان يبـــدو لى انه رتب خصيصا ليجرحنى ، ليدمى قلبى ، كنت أرتعش من أخمص قدمى الى قمة رأسى ، واختنقت بدموعى .

ـ اذن فأنت سعيدة بوجودك فى بيتنا .

لم أجب .

ـ وهل كان لك ملابس جميلة ؟

ـ لا .

ـ كانت ملابسك بشعة ؟

ـ نعم .

ـ لقد رأيت فستانك .

فما ان سمعت هذا حتى رأيتنى أنهض من مكانى تحت تأثيراحساس غريب ، وأقول :

ـ لماذا تسألييننى اذن كل هذه الاسئلة ؟

ثم أضفت وقد احمر وجهى حنقا :

ـ لماذا تستجوبيننى هكذا ؟ لماذا تسخرين منى ؟

وتخضب وجه الاميرة بحمرة قانيـة ، ونهضت من مكانهـــا هى الاخرى ، الا انها لم تلبث أن سيطرت على انفعالها ، وقالت :

ـ كلا لست أسخر منك • وانما أردت أن أعرف هل كان أبواك حقا فقيرين •

فقلت وأنا أبكي ألما :

ـ لماذا تسألينني عن أبى وأمى ؟ لماذا تسألينني عنهما على هذا النحو ؟ فيم أساءا اليك يا كاتيا ؟

واضطربت كاتيا اضطرابا شديدا ، ولم تعرف بم تجيب • وفي هذه اللحظة دخل الامير •

فلما رآنى أبكي ، قال :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟

ثم التفت الى كاتيا ، وكانت بلون الجمر احمرارا ، وكرر على سؤاله :

ـ ماذا بك ؟ ماذا هنالك ؟ لماذا اختصمتما يا نيتوتشكا ؟ فيم تشاجرتما ؟

ولكنني لم أكن أستطيع جوابا ، ورأيتني أرتمى على يده أقبلها باكية •

ـ كاتيا ، لا تكذبى • قولى ماذا جرى !

ولم تكن كاتيا تعرف الكذب فقالت :

ـ قلت لها انني رأيت فستانها الردىء الذى كانت تلبسه يوم كانت تعيش مع أبيها وأمها •

ـ من أراك الفستان ؟ من ذا الذى سمح لنفسه بأن يريك اياه ؟

فأجابت كاتيا بلهجة جازمة :

ـ رأيته بنفسي ، لم يرنيه أحد •

ـ حسن ، حسن • لا تريدين أن تشي بأحد • أنا أعرفك • اكملي كلامك •

ـ أخذت تبكي وسألتني لماذا أسخر من أبيها ومن أمها •

ـ اذن فقد سخرت منهما •

لئن لم تسخر كاتيا من أبوي ، لقد كان ذلك في نيتها قطعا ، كما شعرت •

لهذا لم تجب على سؤال أبيها بكلمة ، ومعنى صمتها انها تقر بخطئها فقال لها الامير مشيرا الي :

ـ ستعتذرين لها حالا •

الا ان الاميرة الصغيرة ، وقد امتقع لونها ، لم تقم بأية حركة • فقال الأمير :

ـ انني أنتظر •

فما كان منها الا أن صرخت فجأة ، وقد التمعت عيناها بالشر ، وضربت برجلها الارض :

ـ كلا • لا أريد • لا أريد • لا أريد أن أعتذر لها • يا بابا • انني لا أحبها • ولا أحب أن أبقى معها بعد الآن • ليس ذنبي أنها تظل تبكي طوال النهار • لا أريد • لا أريد !

ـ تعالي معي •

قال الامير ذلك ، ثم أخذ يدها ، وقادها نحو حجرته •

والتفت الى قائلا :

ـ اصعدى ، يا نيتوتشكا •

وددت لو أرتمى على الامير أطلب اليه أن يغفر لكاتيا ، الا أنه كرر أمره بلهجة صارمة ، فصعدت الى الجناح الاعلى من المنزل ، وأنا أشبه بالميتة • فما ان بلغت غرفتنا حتى سقطت على « الديوان » مخفية وجهى بين ذراعى • وأخذت أعد الدقائق • كنت أنتظر كاتيا بفارغ صبر ، لارتمى على قدميها • وأخيرا عادت كاتيا • ولكنها مرت بجانبى دون أن تقول كلمة واحدة ، ومضت الى ركن من أركان الغرفة تجلس فيه • كانت عيناها حمراوين ، وكان خداها مبللين بالدموع • فما ان رأيتها على هذه الحال حتى خارت قواى وفقدت كل شجاعة ، وأخذت أنظر اليها فى رعب لم أستطع من فرطه أن أتحرك •

واتهمت نفسى بكل قواى ، وبكل قواى جهدت أن أقنع نفسى بأننى وحدى المذنبة • وهممت ، ألف مرة ، أن أقترب من كاتيا ، ولكننى كنت أتوقف ، خشية أن تسىء استقبالى •

وفى مساء اليوم التالى لاحت كاتيا أكثر مرحا ، وطفقت تطارد عجلتها فى الغرفة ، ولكنها لم تلبث أن تركت لعبها ، وعادت تجلس فى ركنها وحيدة • وقبل أن تمضى الى سريرها بلحظة واحدة ، التفتت الى ، بل تقدمت نحوى خطوتين ، وانفرجت شفتاها تريد أن تكلمنى ، الا انها توقفت فجأة ، وأشاحت بوجهها عنى ، ومضت الى سريرها •

وانقضى على هذا يوم آخر ، واستغربت مدام ليوتار حالة كاتيا ، وبدا لها أن تسألها : ماذا بها ؟ هل هى مريضة حتى تغدو هادئة كل هذا

الهدوء ؟ فأجابتها كاتيا ببضع كلمات ، ثم تناولت كرتها الطائرة • ولكن ما ان انصرفت مدام ليوتار حتى انفجرت باكية ، وهربت من الغـرفة ، بعيدة عن أنظارى • وأخيرا حزمت كاتيا أمرها • فهاهي ذات مســاء ، بعد مشاجرتنا بثلاثة أيام ، تصل الى غرفتنا على حين غرة ، وتقترب مني خجلة ، وتقول :

ـ أمرنى بابا أن أعتذر لك • هل تريدين أن تصفحى عنى ؟

وأمسكتْ كاتيا بكلتا يدىّ ، فقلت لهــا ، وأنا ألهث من شــدة الانفعال :

ـ نعم ، نعم •

ـ وأمرنى بابا بأن أقبلك • هل تريدين أن تقبلينى !

وكان جوابى على هذا انى أخذت أقبل يديها وأغرقهما بالدموع • وحين رفعت بصرى الى كاتيا ، لاحظت أنها لم تكن فى حالتها المعتادة : ان عينيها مبللتان بالدموع ، وان شفتيها لترتجفان ، الا انها سرعان ما كبتت انفعالها ، وعادت الابتسامة فجأة الى ثغرها •

قالت فى هدوء ، كأنما هى تحدث نفسها :

ـ سأمضى أقول لبابا اننى اعتذرت لك واننى قبلتك •

وأردفت ، بعد لحظة من الصمت :

ـ منذ ثلاثة أيام لم أره • لقد منعنى من المجىء اليه قبل أن أنفذ أمره •

ثم نزلت الى لقاء أبيها ساهمة وجلة •

وما انقضت على ذلك ساعة حتى دوى في البيت ، فجأة ، الصراخ والصخب والضحك وعواء « فالستاف » • وسمعت شيئا يتدحرج ويتحطم •• وطارت كتب الى الارض • وانطلقت العجلة تدور من غرفة الى أخرى • ففهمت أن الصلح قد تم بين الاب وابنته ، ووثب قلبي من مكانه فرحا بذلك •

الا أن كاتيا لم تقترب مني • كان واضحا أنها تجهد أن لا تكلمني • على انها كانت تستغرب أمري استغرابا شديدا ، وتتحرق شوقا الى فهمي ، فكان ذلك يربكني ويؤلمني • أصبح جلوسها أمامي متفرسة ، يزداد يوما بعد يوم • وأصبحت الملاحظات التي تبديها بصددي أكثر سذاجة مما كانت ! ان الشيء الذي لم تستطع أن تفهمه هذه الطفلة الرقيقة التي كان كل من في البيت يدللها ، ويعبدها ويحتضنها ككنز جميل ، هو انها لقيتني في طريقها عدة مرات في وقت لم تكن تحرص فيه على أن تراني أبدا • على أنه كان لها قلب صغير رائع يعرف بغريزته ، دوما ، كيف يجد الطريق القويم • كان أبوها أكثر الناس تأثيرا فيها ، وكانت هي تحبه حبا عظيما ، كما كانت أمها تحبها حبا جنونيا • غير أنها كانت تعاملها في قسوة شديدة • ولقد ورثت كاتيا عن أمها الزهو والكبرياء والعناد وقوة الارادة • الا أن هذا لم يكن يمنعها من احتمال جميع نزوات أمها التي تبلغ أحيانا حد الاستبداد والتعذيب الروحي • وكانت الاميرة الأم تفهم التربية فهما غريبا : كانت تربيتها لكاتيا مزيجا عجيبا من دلال لا حد له ومن قسوة لا يشفي لها غليل ! •• فما كان مسموحا به أمس ، يصبح اليوم ممنوعا ••• وهكذا كان الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع • على انني سأعود الى هذا فيما بعد • وانما أحب أن أذكر الآن أن كاتيا عرفت كيف تنظم علاقتها بأبويها : اما مع أبيها فكانت تبقى على طبيعتها حرة منطلقة لا تلف ولا تدور • وأما مع أمها فكانت منطوية على

نفسها ، حذرة ، مطواعة • غير أن هذه الطاعة لم تكن تجرى على سجيتها صادقة منطلقة ، وانما كانت مبدأ وخطة • وسأشرح هذا أيضا فيما بعد • على انه لا بد من القول ــ وذلك أمر يشرف كاتيا ــ انها انتهت أخيرا الى فهم أمها : فلئن كانت تطيعها ، فلأنها شعرت شعورا قويا بما تكنه لها أمها من حب لا حد له ، من حب يبلغ أحيانا حد الهوى المرضى ! •• لقد كانت الاميرة الصغيرة التى لا يعوزها نبل النفس تحسب حساب هذه الناحية • الا أن هذا الحساب ، وا أسفاه ، لم يسعف رأسها الصغير ، فيما بعد ، الا قليلا •

وكنت أنا لا أفهم ماذا بنفسى • كان كيانى يجيش باحساس جديد لا سبيل الى فهمه ، ولست أبالغ اذا قلت ان ذلك كان يعذبنى كثيرا • والأفضل أن أعترف بأن عاطفتى نحو كاتيا كانت هى العشق •• اغفروا لى استعمال هذه الكلمة • نعم كانت هى العشق بعينه ، بدموعه ، وأفراحه، العشق الهائم الجامح • ما الذى كان يجذبنى اليها ؟ لماذا نشأ فى نفسى هذا الحب ؟ لقد بدأ من النظرة الأولى ، لقد اهتزت جميع عواطفى اهتزازا لذيذا حين رأيت ، فجأة ، هذه البنية الجميلة جمال الملائكة • كل شىء فيها جميل ، ما من عيب من عيوبها أصيل فيها ، جميع عيوبها دخيلة عليها ، لا تنفك تصطرع مع نفسها الاصيلة • كل شىء فيها يلتمع برجاء مشرق ، كل شىء فيها يبشر بمستقبل رائع •

ولم أكن أحبها وحدى • كان كل انسان يحبها • كان يتفق لنا أن نخرج فى نحو الساعة الثالثة فى نزهة ، فما ان تقع علينا أبصار المارة حتى يتوقفوا فى أماكنهم متجمدين • وكثيرا ما كانت صرخات الاعجاب تنطلق وراء هذه الصبية السعيدة متلاحقة : « لقد خلقت للسعادة ، وهى تعيش لها •• » • ذلك كان لسان حال كل من يراها • أما أنا فلعل الاحساس الجمالى هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر • لعل الشعور بالجمال

هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر فما ينبغى أن نبحث عن غيره علة" لحبى كاتيا .

.. على أن آفتها الأساسية كانت هى الزهو .. هذا الزهو الـذى يدفع بصاحبه دفعا الى الرجوع الى طبيعته الخاصة ، ويجعله بذلك مقاتلا. كان الزهو يتجلى حتى فى سذاجات صبيانية ، ويختلط بالانانية اختـلاطا يبلغ من القوة ان أى معارضة ، مهما تكن صورتها ، كانت تدهشها أكثر مما كانت تسوءها أو تغضبها . كانت لا تستطيع أن تقبل أن يتم أمر من الأمور لم ترده . ومع ذلك كان احساسها بالعدل يسيطر على كل شىء . فما ان تدرك أنها كانت على خطأ ، حتى تذعن لتأنيب ضميرها دون مواربة أو تعلل . ولئن ساء سلوكها معى حتى تلك اللحظة ، فاننى أسند ذلك الى نفور كانت تشعر به نحوى ، دون أن تستطيع له دفعا ! .. كان سلوكها هذا أمراً لا مفر منه . كانت تستسلم لاندفاعاتها فى كثير من الجموح ، وكان لا بد لها ، دوما ، من أمثلة ومن تجارب حتى تعـود الى الطريق القويم . ورغم أن نتائج كل ما تقوم به من أعمال كانت نتائج جميـلة وصـادقة فانها لم تكن تصل الى هذه النتائج الجميلة الصادقة الا بعد انحرافات مستمرة ، وأخطاء متواصلة .

ولم تلبث كاتيا أن شبعت من ملاحظتى والتفرس فى ، وقررت أخيرا أن تدعنى وشأنى .. وأصبح سلوكها سلوك من لا يشعر بوجودى ، فما من كلمة توجهها الى ، الا فيما مست اليه ضرورة .. وأبعـدتنى عن ألعابها ، ولكن بدون قسـوة . اقصتنى عنها ببراعة ، حتى لكأن هـذا الاقصاء تم بارادتى !

وكانت الدروس تسير فى مجراها . ولكننى فقدت شرف الاساءة الى كبريائها باتخاذى مثلاً يضربونه لها على الذكاء والرقة ، مع أن هذه

الكبرياء كانت من سرعة التأثر بحيث أنه كان لكلبنا ، « سير جون فالستاف » ، سلطان كبير عليها . كان فالستاف ذا مزاج بارد ، الا أنه كان شريرا كنمر . فاذا اهتاج ، أصبح وحشا كاسرا ، فلم تستطع كاتيا أن تملك زمامه . وأكثر من ذلك انه كان لا يحب أحدا . الا أن عدوه الأول ، عدوه الطبيعي ، كان هو الاميرة العجوز من غير ريب ـ وسوف تأتي قصة ذلك في حينها ـ أما كاتيا المتكبرة فكانت تستعمل كل الوسائل للتغلب على عداوة فالستاف . كانت لا تطيق أن يكون هذا الحيوان الكائن الحي الوحيد الذي يستطيع ، في هذا المنزل ، أن يتجاهل سلطتها وقوتها، فلا يخضع لها ، ولا يحبها ! .. لذلك قررت أن تهاجم الكلب . ان كاتيا تريد الآن أن تفرض سيطرتها على هذا الحيوان . كيف يجرؤ فالستاف ان يقاومها ؟

غير أن الكلب العاصي لم يخضع .. ففي ذات مرة ، بعد العشاء ، بينما كنا جالسين في القاعة الكبرى ، في الطابق الاسفل ، جاء الكلب واستقر في وسط القاعة ، ليستمتع بقيلولته . عندئذ قررت الاميرة الصغيرة أن تشرع في تنفيذ خطتها . فتركت لعبها ، واقتربت منه ، حذرة ... على رءوس الأصابع ، وهي تناديه بأرق الأسماء ، وتدعوه اليها بألطف الحركات والاشارات . الا أن « فالستاف » كشر عن أنيابه الفظيعة ، من بعد ، فتوقفت الاميرة الصغيرة . ان ما كانت تريده هو أن تأتي اليه ، أن تداعبه ، أن تحمله على اللحاق بها ، وهذا ما لم يكن يسمح به لأحد غير الاميرة الأم ، التي كان أثيرا لديها .

وكانت الخطة عسيرة ، تقتضي كثيرا من البراعة ، بل تشتمل على خطر كبير ، لأن فالستاف لن يزعجه أن يعض يدها ، ولا أن يمزق يدها اربا ، اذا بدا له ذلك . انه قوي ، كالدب .

وكنت أرقب محاولة كاتيا ، قلقة ، خائفة . الا ان صرفها عن فكرة بدت لها لم يكن بالامر السهل . ان الأنياب التى كشر عنها فالستاف لم تستطع أن تحولها عن عزمها ، فلما أدركت أنها لا تستطيع أن تقترب من عدوها على خط مستقيم ، أخذت تدور حوله ، محاذرة . ولم يتحـرك فالستاف . وبعد أن أنهت دورتها الأولى ، دارت دورة أضيق ، وما زالت تضيق دورتها حتى أصبحت من فالستاف على المسافة التى يراها معقولة ، فلما همت أن تتجاوزها كشر عن أنيابه مرة أخرى ، فما كان من الاميرة الا أن ضربت الارض بقدميها ، وابتعدت ساخطة ، وجلست على «الديوان» تفكر .

وما هى الا عشر دقائق حتى اهتدت الى وسيلة للاغراء جـديدة : فاذا هى تخرج من الغرفة ثم تعود وفي يدها مكسرات وحلوى . لقـد غيرت سلاحها . الا أن فالستاف لم يبال هذا الاغراء الجديد ، ربما لأنه لم ينظر الى قطعة الحلوى التى رمتها اليه . ولكن حين دخلت الاميرة الصغيرة حدود الدائرة التى يعدها أرضه ، أظهر الكلب معارضة أبلغ وأقوى من معارضته فى المرة الاولى ، فرفع رأسه ، وكشر عن أنيابه ، وأخذ يهمهم ، وهمَّ بحركة تدل على أنه مستعد لأن يثب من مكانه . فالتهب وجه كاتيـا غضبا ، ورمت قطعة الحلوى التى كانت تمسكها ، وعادت تجلس فى مكانها ..

انها مضطربة أشد الاضطراب ، ان خديها كالجمر احمرارا ، بل ان دموعها لتتفجر من عينيها . ولما رأت اننى أنظر اليها ، غلى الدم فى رأسها ، فاذا هى تثب من مكانها فجأة فى اتجاه الحيوان الكاسر !

ولعل فالستاف قد تجمد فى هذه المرة من الدهشة ، فترك عـدوته تجتاز الحدود ، ولم يحيِّ البنت الطائشة بهمهمة مخيفـة الا حـين رآها

قريبة جدا منه • فتوقفت كاتيا ثانية أو أقل من ثانية ، ثم تابعت سيرها بخطى ثابتة • تجمد الدم في عروقي من شدة الذعر • كانت الاميرة الصغيرة في حالة من الهياج ما رأيتها في مثلها يوما • لقد كان اليقين من الانتصار يلهب عينيها • لم تحول نظرها عن الكلب الكاسر وهو يرمقها بنظرات غاضبة ، ولم ترتجف أبدا أمام أنيابه المهددة •• بينما انتصب الكلب • وانطلق من صدره الكثيف هدير رهيب ، فقلت في نفسي : لن تنقضي دقيقة واحدة الا ويمزقها اربا ! •• الا ان الاميرة الصغيرة وضعت يدها الصغيرة عليه فجأة في اعتزاز ، وداعبت ظهره ثلاث مرات وقد بدت عليها خيلاء الظفر • وظهر على الكلب نوع من التردد • كانت تلك أسوأ اللحظات • لكن الكلب لم يلبث أن نهض متثاقلا ، وتمطى ، ولعله قال في نفسه انه لا يليق به أن يقتتل مع طفلة ، ثم ترك الغرفة في هدوء ووقار• وبقيت الاميرة الصغيرة سيدة المكان ، فرمقتني بنظرة خاصة ، نظرة مفعمة بالنشوة ، نظرة من أسكرها الشعور بالنصر • وكنت أنا شاحبة شحوبا كبيرا • ولاحظت هي ذلك فابتسمت • الا أن وجنتيها أخذتا تشحبان ، وما استطاعت أن تعود الى « الديوان » الا في كثير من العناء • فتهالكت عليه فاقدة الوعي تقريبا •

منذ ذلك اليوم أصبح هواي لا يعرف الحدود • أصبحت أخاف على كاتيا خوفا شديدا ، وأصبح الحزن يحرقني حرقا • ألف مرة أوشكت أن أرتمي على عنقها وسمرني الوجل في مكاني • وكنت أحاول أن أتحاشاها حتى لا ترى انفعالي ، فاذا اتفق أن دخلت الغرفة التي كنت أظن أنني مختبئة فيها ، أخذ قلبي يدق دقا قويا حتى لأرى الاشياء أمامي تدورا ••• وأعتقد أن هذه البنية الشيطانة لاحظت الأمر ،لأنها ظلت خلال يومين بادية التململ • الا انها لم تلبث أن اعتادت على ذلك •

وانقضى شهر . كنت أتعذب في سري . ويجب أن أذكر أننا ، أنا وكاتيا ، لم نتبادل خلال هذه المدة كلها خمس كلمات ! . الا انني أدركت شيئا فشيئا ، من بعض القرائن الصغيرة ، ان سلوك كاتيا نحوى لا يمليه عليها أنها نسيتني أو انها لا تحفل بأمرى ، وانما يمليه عليها قرار ارادى ، كأنما هي آلت على نفسها أن لا تدعني أتجاوز بعض الحدود ، ومع ذلك بلغت من العذاب أنني أصبحت لا أستطيع أن أنام ، وأصبحت لا أستطيع أن أخفي انفعالي حتى عن مدام ليوتار . أصبح حبي لكاتيا مرضا ! .. اذكر انني ذات مرة سرقت أحد مناديلها خلسة ، وفي مرة أخرى سرقت أحد أشرطة شعرها ، وقضيت ليالي برمتها أقبلهما باكية !

الفصل السادس

كان اعراض كاتيا عنى فى أول الامر قد أرهقنى ، الا ان كل شىء قد اختلط الآن فى أعماق نفسى ، حتى صرت لا أعرف ما أشعر به . وهكذا أخذت مشاعرى الجديدة تمحو مشاعرى القديمة ، وأصبحت ذكرى ماضى الحزين تفقد من قوتها ومن ألمها ، لتحل محلها آلام حياتى الجديدة .

كان يتفق لى أن أستيقظ فى الليل ، فانهض من سريرى ، وأقترب من سرير الاميرة الصغيرة على رءوس الاصابع ، ثم أظل الى جانب سريرها ساعات طويلة أنظر اليها على ضوء المصباح الشاحب . وكنت فى بعض الأحيان أجلس على حافة سريرها ، وأنحنى على وجهها أتنسم أنفاسها الدافئة . وفى رفق ، وأنا أرتعد خوفا ، أقبل يديها ، وكتفيها ، وشعرها ، وقدميها ـ حين تبرز قدماها من تحت الغطاء ـ ولاحظت شيئا فشيئا (وكان نظرى لا يفارقها منذ شهر !) ان كاتيا تزداد وجوما ، يوما بعد يوم ، وان مزاجها يزداد تقلبا ساعة بعد ساعة ، فها هى اليوم تقضى النهار كله

لا يسمع لها صوت ، وهاهي فيالغد تحدث صخبا أقوى من كل ماأحدثت قبل ذلك من صخب ! •• وهي الآن سريعة الاهتياج ، كثيرة المطالب ، تحمر وتغضب في كل لحظة ، ولا يخلو سلوكها نحوى من شراسة وقسوة • وفجأة ، أصبحت ترفض أن تتناول الطعام معي ، وأن تجلس الى جانبي ، كأنما هي تشمئز مني !

ثم صار يتفق لها أن تمضي الى غرفة أمها تقضي معها النهار كله ، ربما لانها تشعر انني أتحطم حزنا في غيابها • وفجأة ، أصبحت تحدق فيّ ساعات طويلة ، فيصرعني الاضطراب صرعا ، وأحمر وأصفر ، ثم لا أدري ماذا أصنع بنفسي ، ولا أجرؤ أن أدع الغرفة •

وانتابت الحمّى كاتيا مرتين ، وهي التي لم تمرض قبل ذلك أبدا ! وأخيرا ، ذات صباح ، انتهت الى قرار لم يكن في الحسبان : قررت كاتيا ، على حين غرة ، أن تقيم في الطابق الاسفل مع أمها • وكادت امها تموت خوفا حين علمت أن ابنتها مريضة تنتابها الحمى • وينبغي أن أذكر أن الأم كانت حانقة عليّ ، فهي تعزو اليّ جميع التغيرات التي لاحظتها في سلوك ابنتها ، وترى أن مزاجي الحزين الكئيب قد انعكس على مزاج ابنتها • ولئن لم تفصل احدانا عن الاخرى منذ زمان طويل فما ذلك الا تحاشيا لما قد يقوم بينها وبين زوجها من نقاش بهذا الصدد • كان زوجها يسايرها عادة في كل أمر ، الا انه كان في بعض الاحيان صلبا عنيدا لا سبيل الى صرفه عن رأيه •• وكانت الاميرة تفهم الامير حق الفهم •

وهكذا كان لانتقال كاتيا الى الطابق الاسفل مثل وقع الصاعقة على نفسي ، فقضيت أسبوعا كاملا في لوعة مبرحة • وأخذت أحطم رأسي بحثا عن سبب الكره الذي تحمله كاتيا لي ! ••

كان الحزن يمزقني تمزيقا ، ثم أخذت فكرة العدالة تذر قرنها في نفسي الجريحة ، وأخذ يجتاحني شعور بالاستياء والاستنكار • وخالجني

فجأة نوع من العزة . حتى اذا خرجت مع كاتيا فى ساعة نزهتنا ، رأيتنى أنظر اليها فى كبرياء وجد لم تعهدهما فى من قبل ، فأدهشها ذلك أشد الدهشة . طبيعي أن هذا التبدل لم يكن يظهر الا ليزول ، فسرعان ما كان قلبي يخفق خفقانا شديدا ، فاذا أنا أشد ضعفا وخجلا مني فى أى وقت مضى !

وأخيرا ، ذات صباح ، ظهرت كاتيا فى الطـابق الأعلى ، فأذهلنى ظهورها هذا ، وأشاع في نفسى اضطرابا فرحا . انها تسرع الى التعلق برقبة مدام ليوتار ، وهى تضحك ضحكا صاخبا ، وتنبئها بأنها عائدة الينا . ثم ترجوها أن تعفيها من الدراسة في هذا الصباح ، وتنطلق تركض وتلعب .. لم أرها يوما فى مثل هذا الفرح والمرح .

غير أنها هدأت فى المساء ، فاذا هى واجمة تفكر ، ثم اذا بالحـزن يلقى ظله على وجهها الجميل . وحين صعدت الاميرة تريد أن تراها ، لاحظت أن كاتيا تحاول جهدها أن تظهر مرحة . وما ان مضت أمهـا ، حتى انفجرت باكية . وتأثرت أنا بمنظرها تأثرا شديدا ، واذ لاحظت كاتيا تأثرى ، انصرفت . ان أزمة لم تكن فى الحسـبان تتهيأ فى نفسها . واستدعت الاميرة الطبيب ، وطلبت الى مدام ليوتار أن توافيها بتقـرير يومى عن كل ما يتصل بابنتها تفصيلا . وأمرت بأن تراقب كاتيا مراقبة دقيقة !

لكنني كنت أنا وحدى التى أوجست الحقيقة ، وقلبى ينبض أمـلا ورجاء . ان روايتنا الصغيرة تشارف على نهايتها .. فبعـد ثلاثة أيام من عودة كاتيا الى جناحها ، رأيتها تنظر الى طويلا بعينيها الرائعتين . والتقى بصري ببصرها عدة مرات ، فكنا فى كل مرة نحمر خجلا ، كأن كلاً منا يشعر بأنه مذنب في حق الآخر . وأخيرا انصرفت كاتيا ، وهى تضحك .

ودقت الساعة الثالثة ، وألبسونا ثياب النزهة ، فاذا بكاتيا تقترب مني فجأة وتقول :

ـ لم يُربط حذاؤك جيدا . دعيني أربطه ..

فاحمر وجهي احمرارا شديدا ، لأن كاتيا كلمتني أخيرا ، وأردت ان أنحني لأتولى ربط حذائي بنفسي ، فقالت كاتيا وهي تضحك :

ـ دعيني أربطه ..

ثم انحنت ، وأمسكت قدمي رغما عني، فوضعتهما على ركبتها وأخذت تربط الحذاء .. فاجتاحني خوف عذب ، جعلني ألهث ، ولا أستطيع لانفعالي حبسا .. فلما نهضت كاتيا بعد أن فرغت من ربط الحذاء ، أخذت تنظر الى من الرأس الى القدمين .

ثم قالت وهي تلمسني بأطراف أصابعها :

ـ والعنق غير مغطى . دعيني أصلح ربط الوشاح ..

ولم أحتج ، فحلت كاتيا وشاحي ، ثم لفت به عنقي على طريقتها ، واعادت ربطه .. ولم تلبث أن استطردت :

ـ والا فقد تصابين بزكام .

قالت ذلك وهي تبتسم ، وتنظر الى بعينين سوداوين مغرورقتين .

أما أنا فكنت في حالة اضطراب شديد ، لا أفهم شيئا مما يقع لى ، ولا أفهم شيئا مما يجيش في نفس كاتيا . وكانت نزهتنا قصيرة لحسن الحظ ، والا لما استطعت أن أمنع نفسي عن الارتماء على عنقها وتقبيلها في عرض الشارع ! .. واستطعت مع ذلك ، ونحن نصعد السلم ، أن أختلس قبلة على كتفها . ولاحظت هي ذلك فارتعشت ، الا انها لم تقل شيئا . ولما أتى المساء ألبسوها أجمل حلة . وأنزلوها الى جناح الاميرة أمها ، لتشترك في استقبال الزائرين .

غير أن البيت انقلب رأسا على عقب أثناء الاستقبال • ذلك أن نوبة عصبية ألمت بكاتيا ، فاضطربت الاميرة اضطرابا شـديدا ، واستدعت الطبيب • وظهرت على الطبيب علائم الحيرة والارتباك ، وأرجع هـذه النوبة ، طبعا ، الى اضطراب السن ، الا اننى كنت أعلم أن حالة كاتيـا ترجع الى سبب آخر • وعادت كاتيا فى صباح اليوم التالى الى طبيعتهـا ، متوردة الخدين ، مرحة المزاج ، تفيض صحة ونشاطا ونزوات •

ورفضت كاتيا طوال فترة الصباح أن تطيع مدام ليوتار ، ثم أرادت فجأة أن تزور الاميرة العجوز • ووافقت الاميرة العجوز أن تأتى اليهـا كاتيا ، على خلاف عادتهـا ـ فقد كانت العجـوز لا تطيق كاتيا ، وكانت تشاجرها بلا انقطاع وترفض أن تراها ! ـ وبدا الانسجام بين العجـوز وكاتيا على أحسن ما يرام ، خلال الساعة الاولى من لقائهما ، فان الشيطانة الصغيرة أخذت تستغفر العجوز عن أخطائها ، عن كثرة حركتها وصخبها، عن تعـكيرها صفاء الآنسـة عمتها • فترقرقت الدموع فى عينى الاميرة العجوز ، وغفرت لها أخطاءها فى لهجة رصينة ووقورة • ومضت كاتيـا الى أبعد من هذا (وكانت تعتز بشقاوتها) فزعمت للعجوز أنها نادمة على خطاياها ، تريد أن تصـلى وأن تصـوم وأن تضرع الى الله • فارتاحت الاميرة التقية لهـذه التوبة ، وشعرت فى أعماقها بكثير من الزهو • لقـد استطاعت أن تسيطر على هذه الطفلة التى هى كنز البيت ومعبودته ، هذه الطفلة التى كانت أمها نفسـها ترضخ لجـميع نزواتهـا وتحقق كل رغباتها !

عندئذ اعترفت الشيطانة الخبيثة أنها كانت تنوى أن تعلق بطاقة على ثوب السيدة العجوز ، وأن تسكن الكلب « فالستاف » تحت سريرها ، وأن تكسر لها نظاراتها ، وأن تأخذ جميـع كتبها لتضـع فى مكانهـا روايات

فرنسية من مكتبة أمها ، وأن تشترى متفجرات ترميها على أرض غرفتها، وان تدس فى جيبها مجموعة من ورق اللعب .. اعترفت بأنها كانت تنوى القيام بسلسلة من الاعمال الخبيثة . فما ان سمعت الانسة العجوز هذا الكلام حتى خرجت عن طورها ، واصفرت واحمرت سخطا وغضبا، ولم تستطع كاتيا أن تمتنع عن اظهار فرحها ، فهربت وهى تنفجر ضاحكة. ولم تلبث العجوز أن استدعت ابنة أخيها على الفور . وكانت قصة . ظلت الاميرة ، خلال ساعتين ، تتوسل الى عمتها ، والدموع فى عينيها ، آن تصفح عن كاتيا ، وآن لا تأمر بمعاقبتها ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى أن الطفلة مريضة . غير أن الاميرة العجوز لم تشأ فى أول الامر أن تسمع شيئا ، وصرحت أنها ستغادر البيت فى الغداة ، ولم تهدأ الا حين قطعت الاميرة عهدا على نفسها أن تنزل بكاتيا العقاب الشديد الذى تستحقه ، متى ابلت من مرضها . وفى انتظار ذلك أُنبت كاتيا تأنيبا شديدا ، واقتيدت الى تحت ، الى جناح آمها . غير أن المذنبة الصغيرة استطاعت أن تفر بعد العشاء . فقد لقيتها على السلم بينما كنت أهبط ، ورأيتها تشق الباب ، وتدعو « فالستاف » . ففهمت على الفور أنها تدبر انتقاما فظيعا . واليكم التفاصيل :

لم يكن للاميرة العجوز من عدو ألد من « فالستاف » . وكان فالستاف لا يسمح لأحد بمداعبته ، ولا يحب أحدا . انه حيوان مغرور صلف الى أبعد حدود الغرور والصلف . كان اذن لا يحب أحدا ، ولكنه كان يقتضى الجميع احتراما يراه من حقه . والواقع ان كل من فى البيت كان يوفيه حقه هذا من الاحترام ، خوفا ورهبة . ولكن الوضع اختلف كل الاختلاف حين وصلت الاميرة العجوز . لقد أهين فالستاف عندئذ أفظع اهانة ، اذ منع من الوصول الى الجناح الأعلى !

وغضب فالستاف فى أول الامر غضبا شديدا ، وظل أسبوعا كاملا

يخدش باب السلم المؤدى الى مدخل الجناح الأعلى ، الا انه لم يلبث أن فهم سبب اقصائه ، حتى اذا جاء يوم الاحد ، ورأى العجوز خارجة الى الكنيسة ، هجم عليها وهو يهمهم ويعوى ، ولم يمكن تخليصها من انتقامه الا بشق الأنفس • وأصبحوا لا يمنعونه منعا باتا من الصعود الى الجنـاح الأعلى فحسب ، بل أصبحوا كلما نزلت الاميرة العجوز يقصونه الى أبعد مكان ممكن • لقد صدرت للخدم أوامر قاسية بهذا الصدد • ومع ذلك استطاع الحيوان الحاقد الحانق أن يصعد الى الجناح الاعلى ثلاث مرات، وكان فى كل مرة يعدو خلال الحجرات انسلالا حتى يصل الى مخـدع الاميرة العجوز ، دون أن يقدر أحد على وقفه ، الا أن الباب يكون مغلقا لحسن الحظ ، فما يستطيع فالستاف أن يزيد على الزئير وراءه زئيرا مرعباء الى أن يسارع الخدم فينزلوه الى أسـفل • أما الاميرة العجـوز فكانت ، طوال زيارته الوقحة ، تصرخ صراخ من يسلخ جلده ، ثم تقع مريضة من شدة الذعر • وأرسلت العجوز عدة مرات انذارا الى ابنة أخيها تقول فيه ان هذه هى المرة الاخيرة ، وان على فالستاف أن يخرج من البيت أو تخرج هى منه ، الا أن الاميرة لم تقرر أن تنفصل عن كلبها •

ذلك أن فالستاف كان أحب سكان البيت الى قلب الاميرة بعد أبنائها، واليكم السبب :

ذات يوم ، منذ ست سنين ، جاء الامير الى البيت ، فى عـودته من نزهته ، بكلب قذر مريض يرثى لحاله ، وان كان ينتمى الى فصيلة ممتازة من فصائل الكلاب • لقد أنقذ الامير هذا الكلب من الموت • ولـما كان القادم الجـديد شرس الطبع فظا ، فقـد أمرت الاميرة بأن يربط فى فناء المنزل • ولم يعترض الامير على ذلك ••

وبعد سنتين ، بينما كانت الاسرة كلها فى الريف ، سقط «ساشا»

ـ أخو كاتيا ـ في نهر (نيفا) على حين غرة • فاخذت الاميرة تصرخ ، ورمت بنفسها في النهر • ولم ينقذوها من موت عاجل محقق الا بعد كثير من العناء • أما الطفل ، وقد جرفه تيار النهر السريع ، فقد ظل عائمـا على سطح المـاء بفضل ثيابه الطافية • وأسرعوا الى قارب ففكوه محاولين أن يمضوا به الى الطفل • ولكن كان لا بد من معجزة للعودة بالطفـل حيا •• وفيما هم كذلك اذا بكلب ضخم يرتمي في الماء ، ويمضي قدما نحو الامير الصغير الذي يوشك أن يغرق ، فيقبض عليه بأسنانه ، ويعدو به الى الشاطىء ظافرا • وترتمي الاميرة على الكلب المبلل تقبله ، الا أن فالستاف (وكانوا يطلقون عليه حتى ذلك الحين اسما شعبيا هو «فريسكا») كان في ذلك الحين لا يطيق المداعبات ، فرد على مداعبـات الاميرة وعلى قبلاتها بعضة في كتفها عميقة جدا • وقد ظلت الاميرة تحس هـــذا الجرح خلال حياتها كلها ، الا ان ذلك لم يقلل من شعورها نحو الكلب بعواطف الشكر والامتنان • وبعد هذه الحادثة أصبح يسمح لفالستاف بالتجـول في أجنحة المنزل ، ويعتنى بنظافته ويزين جيده بعقد من فضة جميل • وصار يحق له أن يستقر في حجـرة الاميرة على جلد فاخـر من جلود الدببة ، وما لبثت الاميرة أن توصلت الى مداعبته دون أن تخشى عضـة سريعة قاسية ، وحين علمت أن أثيرها هذا يدعى «فريسكا» استاءت استياء شديدا وبحثت له ، فورا ، عن اسم جديد ، حرصت على أن يكون من أسماء الاقدمين ، ما أمكن ذلك • الا أن أسماء مثل اسم « هكتور » أو « سربير » كانت شائعة مبتذلة ، وكان لا بد من ايجاد اسم أليق • واقترح الامير أخـيرا ، لمـا يتصف به فريسكا من شراهة قـوية ، أن يسميه «فالستاف» • وسرت الاميرة بهذا الاسم بل تحمست له • وكان سـلوك فالستاف سلوكا لا غبار عليـه • كان صـامتا وقورا كانجليزي حقيقي ، لا يتقدم أول المتقدمين أبدا ، ولا يطلب من الجميع الا أن يخلوا له مكانه

على جلد الدب ، وأن يحيطوه بالاحترام اللازم • وكأن ذكريات كانت توافيه فى بعض الأحيان ، فيتملكه نوع من الكآبة : كان فى تلك اللحظات يفكر فى الثأر من عدوته اللدود التى جرؤت أن تفتئت على حقوقه ، ولم يستطع أن ينتقم منها حتى الآن •• فكان اذا ألفى الباب مغلقا ، قبع فى ركن قريب ينتظر ـ مختاتلا ـ مجيء أحد يدع الباب من ذهوله مشقوقا • وأحيانا كان هذا الحيوان الماكر يظل ينتظر هكذا ثلاثة أيام طوالا !

ـ فالستاف ، فالستاف •

هكذا نادته الاميرة الصغيرة « كاتيا » وقد فتحت الباب وأشارت اليه ، فى رقة ولطف ، أن يتبعنا على السلم •

وكان فالستاف قد شعر بأن الباب يفتح ، فتهيأ لاجتياز العتبة • غير أن نداء الاميرة الصغيرة بدا له من الغرابة بحيث أنه رفض فى أول الامر أن يصدق أذنيه • انه ماكر كالهرة : فلكى لا يظهر انه لاحظ ترك الباب مفتوحا ، مضى الى النافذة ، ووضع قائمتيه الجبارتين على حافتها ، وجعل يتأمل البيت المقابل ، كما يفعل شخص غريب يتوقف أثناء نزهة ليتأمل جمال عمارة قريبة •

كان الترقب يملأ قلبه بشرا ورجاء • تصوروا اذن أية دهشة كبيرة ، وأى فرح طافح ، وأية حماسة شديدة لا بد أنه شعر بها حين لم يفتح الباب فحسب ، بل نودى عليه ودُعى الى الدخول ، بل ضُرع اليه أن يصعد ويأخذ ثأره المشروع على الفور !

زأر فالستاف زئير الفرح ، وشمر شفتيه ، ثم مرق كالسهم بوثبة رهيبة ظافرة •

وكانت وثبته من القوة بحيث قلبت كرسيا اعترض فالستاف فى

طريقه ، فطار الكرسي حتى وقع على بعد مترين من مكانه ، بعد أن دار كما يدور الخـذروف • كان فالسـتاف يمـرق مروق قنبلة خرجت من مدفع • وصرخت مدام لوتار مذعورة ، الا أن فالستاف كان قد بلغ الباب الحرام ، وأخذ يضربه بقدميه • ولم يستطع أن يفتحه ، فجعـل يعول عويلا يهز أركان البيت ، وسرعان ما أجابته العجوز بعـــويل كعويله • ولكن فرق الانقاذ ما لبثت أن تقاطرت من كل صوب ، اذ سارع الخدم جميعا الى فوق ، واستطاعوا أن يلقوا على فكّـي الكلب كمامة ، وأن يكبلوا قوائمه الاربع ، وأن يربطوا طوقه بحبل ، فاضطر فالستاف ، فالستاف الرهيب ، أن يترك ساحة المعركة ، وأن يعود الى أسفل ، على حال من الهوان يرثى لها •

واستدعيت الاميرة •

ولم تكن المسألة فى هذه المرة مسألة تعلل أو اعتذار • ولكن من ذا الذى يجب أن يعاقب ؟ فهمت الاميرة حقيقة الامر من أول نظرة ألقتها على ابنتها • لا مجال للشك • ورأيت كاتيا ممتقعة اللون ترتعد خوفا • فى تلك اللحظة أدركت الصغيرة المسكينة هول مزحتها • كان يمكن أن تقع الشبهات على الخدم ، على أبرياء ، ولكن كاتيا كانت على استعداد لأن تعترف بالحقيقة كلها •

سألتها أمها فى صرامة :

ـ هل أنت الفاعلة ؟

ونظرت الى كاتيا فهالتنى صفرتها ، فما رأيتنى الا وأنا أتقـدم الى أمام ، وأقول بصوت جازم :

ـ أنا التى تركت « فالستاف » يمر !

ثم أضفت ، وقد تبددت شجاعتي بتأثير النظرة المتوعدة التي ألقتها عليّ الأميرة :

ـ ولكنى لم أفعل ذلك عن عمد ..

فاتجهت الاميرة الى مدام ليوتار ، وأمرتها قائلة :

ـ مدام ليوتار ، انزلى بها العقاب الشديد الذى تستحقه !

ثم تركت الغرفة .

نظرت الىّ كاتيا . كانت واقفة كأنها متجمدة ، وقد أسبلت ذراعيها ، وأحنت رأسها الشاحب .

كانت العقوبة الوحيدة التي تنزل باولاد الامير هى أن يحبسوا فى غرفة خالية . ولم يكن البقاء فى مثل هذه الغرفة ساعتين بأمر ذى بال ، فى ذاته . ولكن حين يوضع الطفل فيها برغم ارادته ، وحين يقال له ، زيادة على ذلك ، انه سجين محروم من الحرية ، فالعقاب عندئذ لا يخلو من شدة . اذن فقد جرت العادة أن تحبس كاتيا أو أن يحبس أخوها خلال ساعتين . أما أنا فقد جُعلت عقوبتى أربع ساعات ، لفداحة ذنبى !

لكنى دخلت الى السجن فرحة مسرورة . كنت أفكر فى الاميرة الصغيرة ، واعلم ان النصر لى ، ولكننى بدلا من أن أبقى أربع ساعات ، بقيت حتى الساعة الرابعة من الصباح . واليكم السبب :

بعد دخولى السجن بساعتين علمت مدام ليوتار أن ابنتها مرضت فجأة لدى وصولها من موسكو ، وأنها تريد أن تراها . فتركت البيت دون أن تفطن الى وجودى فى السجن . وظنت الوصيفة التى كانت تهتم بأمرنا أنه قد أُطلق سراحى ، كما أن كاتيا استدعيت الى أسفل ، وظلت

الى جانب أمها حتى الساعة الحادية عشرة مساء • وذهبت كاتيا حين عادت فوجدت سريرى خاليا • وجردتها الوصيفة من ثيابها واضجعتها فى سريرها ، ولم تشا الاميرة الصغيرة ان تسأل عنى ، وكانت واثقة على كل حال من أن خادمتنا « ناستيا » ستعيدنى متى انتهت ساعاتى الاربع فى السجن • الا ناستيا كانت قد نسيتنى ، لا سيما وأننى آتولى خلع ملابسى دائما بنفسى • وهكذا قضى على أن أقضى الليل فى السجن !

وفى الساعة الرابعة من الصباح سمعت قرعا على الباب ، ولاحظت أنهم يحاولون فتحه عنوة • كنت نائمة على ارض الغرفة ، فصرخت جزعة ، الا اننى لم ألبث أن سمعت صوت كاتيا ، وكان يعلو جميع الاصوات ، ثم سمعت صوت مدام ليوتار ، فصوت ناستيا مذعورة ، ثم أصواتا أخرى • وفتح الباب اخيرا ، ورأيت مدام ليوتار تبكى ، ثم تقبلنى ، وتطلب الىّ ان اغفر لها انها نسيتنى ، فالقيت ذراعى على عنقها باكية ، وكنت أرتجف من البرد بعد أن قضيت هذا الوقت كله نائمة على الارض ، وشعرت بألم ينفذ الى عظامى • ونظرت أبحث عن كاتيا ، الا انها كانت قد هربت الى غرفتها وقفزت الى سريرها • وحين عدت الى الغرفة كانت قد نامت أو تظاهرت بالنوم • لقد غفت فى المساء بالرغم منها وهى تنتظرنى ، ولم تستيقظ الا فى الساعة الرابعة من الصباح ، فلما لم ترنى فى سريرى جُنّ جنونها فأيقظت مدام ليوتار التى عادت الى البيت فى ساعة متأخرة ، وأيقظت الخادمة ، والوصيفات ، لاطلاق سراحى •

وفى الضحى كان جميع من فى البيت يعرف أمر حبسى ، حتى أن الاميرة نفسها وجدت أن العقوبة قد تجاوزت الحدود • أما الامير فقد رأيته ، لأول مرة فى حياتى ، غاضبا : فقد صعد فى نحو الساعة العاشرة وهو أشد ما يكون اهتياجا ، وتوجه الى مدام ليوتار صارخا :

ـ ماذا صنعت ؟ كيف عاملت هـذه الصغيرة البائسة ؟ هــذا عمل وحشى ، هذا عمل غير انسانى • طفلة ضعيفة مريضة ، خيالية الى هــذا الحد ، جزعة الى هذا الحد ، تحبسينها فى غرفة مظلمة طوال الليل كله ! أتريدين اذن قتلها ! هذه وحشية هائلة ، هذه قسوة فظيعة ، أقول لك هذا بلا مواربة ، وكيف تسمحون لانفسكم بانزال مثل هــذه العقوبة ؟ من ذا الذى جرؤ على اختراع هذه العقوبة ؟ من ؟

وحاولت مدام ليوتار المسكينة ـ وقد أخذ الاضطراب منها مأخذه ، وفاضت عيناها بالدموع ـ أن تشرح القضـــية من أولها الى آخــرها ، فاعترفت انها نسيتنى بسبب وصول ابنتها من موسكو ، ثم قالت ان هــذه العقوبة حسنة فى حد ذاتها ، اذا لم تدم طويلا ، لأن جان جاك روســو نفسه قد دعا الى شىء من هذا القبيل •

ـ جان جاك روسو ؟ •• جان جاك روسو لم يقبل شيئا من هذا • وجان جاك روسو ليس حجة ، يا سيدتى • جان جاك روسو لا يحق له أن يتكلم فى التربية ، كلا ، لا يحق له • جان جاك روسو أهمل أبنــاءه أنفسهم ، يا سيدتى • جان جاك روسو حقير ، يا سيدتى •

ـ جان جاك ، جان جاك حقير ! ماذا تقول يا سيدى الامير ؟

واحمر وجه مدام ليوتار حتى صار بلون الدم •

كانت مدام ليـــوتار امرأة طيبــة ممتــازة ، تكره أن تغضب أكثر ما تكره • ولكن حين يُمسُّ أحد الأثيرين الى قلبها بسوء ، حين يطعن أحد فى « كورنى » أو « راسين » ، حين يقدح أحد فى « فولتير » ، أو حين يُعدُّ « جان جاك روسو » حقيرا ، فان الكيل عندئذ يطفح !

وتفجرت الدموع من عينى مدام ليوتار سخينة سخية ، وأخذت ترتجف من شدة الانفعال •

ثم قالت وقد عجزت عن كبح استيائها :

ـ انك تنسى نفسك ، يا سيدى الامير •

وسرعان ما توقف الامير عن الكلام ، ثم اعتذر لمدام ليوتار ، واقترب منى فقبلنى قبلة تفيض بحنان عميق ، وحرك يده باشارة الصليب ، ثم انصرف •

ـ مسكين أيها الامير !

قالت مدام ليوتار ذلك ، وهى أشد ما تكون تأثرا • ثم جلسنا الى الدرس •

الا أن الاميرة الصغيرة كانت تدرس بغير حماسة • وقبيل الذهاب الى المائدة بلحظة واحدة ، جاءت الىّ وقد امتلأت نفسها حمية وارتسمت على ثغرها ابتسامة ، فأمسكتنى من كتفى ، وقالت بلهجة متعجلة ، خجلى بعض الشيء :

ـ اذن فأنت قد تحملت العقاب من أجلى ؟ اسمعى • سنلعب بعد العشاء فى القاعة الكبيرة •

ومر شخص بجانبنا ، فابتعدت الاميرة الصغيرة مسرعة •

•••

وبعد العشاء ، عند الغسق ، نزلنا معا الى القاعة الكبرى ، وقد أمسكت كل منا بيد الاخرى • كانت الاميرة تعانى انفعالا بلغ من العمق

انها بدت تغص بأنفاسها • وشعرت أنا بفرح وسعادة يندر أن أشعر بمثلهما •

فلما وصلنا الى القاعة قالت :

ـ هل تحبين أن تلعبي بالكرة ؟ قفي هنا •

وأوقفتني في احدى زوايا الصالة • الا انها بدلا من أن تبتعد ، وترمي الي بالكرة ، توقفت على بعد ثلاث خطوات مني ، ونظرت الي ، فاحمر وجهي ، ثم اندفعت نحو الديوان فجلست عليه جاعلة وجهها بين يديها • وتحركت نحوها • فظنت انني أهم أن أمضي فقالت :

ـ لا تذهبي يا نيتوتشكا • ابقي معي •

ثم ما لبثت أن وثبت من مكانها ، وقد احمر خداها وترقرق الدمع في عينيها ، فارتمت على عنقي مسرعة • كانت وجنتاها كالنار حرارة ، وكانت شفتاها كالخوخ حمرة وتورما ، وكانت خصلات شعرها مضطربة •• وأخذت تغمرني بقبل محمومة مجنونة : على الوجه ، على العين ، على الشفتين ، على الخدين ، على اليدين • كانت تشهق وتنتحب كأنها في نوبة عصبية • وضممتها الى صدري ضما قويا ، ثم ظللنا متعانقتين في حنان، كصديقين ، بل كعشيقين يلتقيان بعد طول بعاد • وكان قلب كاتيا يخفق خفقانا شديدا ، حتى سمعت ضرباته •

وفيما نحن كذلك ، اذا بصوت يدوي في الغرفة المجاورة • ان الاميرة أرسلت تستدعي كاتيا •

ـ آه ، نيتوتشكا • الى اللقاء في هذا المساء ، في هذه الليلة • اصعدي • انتظريني في الطابق الأعلى •

وقبلتني قبلة أخيرة ، عذبة قوية ، وخرجت تستجيب لنداء «ناستيا» •
صعدت مسرعة كمن بعث الى الحياة بعد موت • فارتميت على « الديوان »
وأغرقت رأسي في وسادة ، وأخذت أشهق من شدة الفرح • كاد قلبي
يشق صدري من شدة الخفقان • لا اتذكر الان كيف استطعت التذرع
بالصبر الى الليل • وأخيرا دقت الساعة الحادية عشرة ، واضطجعت في
سريري •• ولم تعد كاتيا الا في منتصف الليل • فتبسمت لي من بعيد ،
دون أن تنبس بكلمة ، وكانت ناستيا كانها تتعمد البطء في تجريدها من
ثيابها ، فدمدمت كاتيا تقول :

ـ عجلي ، يا ناستيا ، عجلي •

ـ ماذا بك ، يا أميرة ؟ ان قلبك يخفق خفقانا قويا • لا شك انك
صعدت السلم عدوا •

ـ هوه ! ناستيا • انك تزعجينني • عجلي • قلت لك عجلي •

وضربت برجلها الارض مغتاظة •

قالت ناستيا وهي تقبل قدم الاميرة الصغيرة بعد أن جردتهـــا من
حذائها :

ـ هذا القلب الذي يخفق !

وانتهى أخيرا كل شيء : اضطجعت كاتيا على سريرها ، وخرجت
ناستيا من الغرفة • وفي طرفة عين ، رأيت كاتيا تخـرج من سريرها ،
وتثب اليّ ، فما ان لمستني حتى انطلقت من صدري صرخة •

ـ هلمي • تعالي الى سريري • أسرعي •

أمرتني بذلك وهي تنهضـني • وما هي الا لحظـة حتى كنـا في

سريرها متعانقتين أضمها وتضمني ضما قويا . كانت قبلات كاتيا تخــرج من أعماق روحها .

قالت قد احمر وجهها حتى أصبح بلون الدم :

ـ هل تعلمين انني رأيتك حين قبلتني في الليل ؟

فطفقت أشهق . بينما همست كاتيا ، من خلال دموعها تقول :

ـ نيتوتشكا ، عزيزتي ، انني أحبك منذ زمان طويل ، هل تعلمين ؟ هل تريدين أن أقول لك منذ أي يوم ؟

ـ منذ أي يوم ؟

ـ منذ اليوم الذي أمرني فيه أبي أن أعتذر اليك .. منذ ذلك اليوم الذي أردت فيه أن تدافعي عن أبيك ، يا نيتوتشكا ..

وأردفت تقول وهي تغمرني بالقبل ، وتضحك في آن واحد :

ـ يتيمتي العزيزة ..

ـ كاتيا !

ـ ماذا ؟

ـ لماذا ظللنا طوال هذه المدة .. طوال هذه المدة ..

ولم أستطع أن أتم كلامي . وتعانقنا . وخيم الصمت ثلاث دقائق
ـ ما كان رأيك فيّ يا نيتوتشكا ؟

ـ آه ، يا كاتيا . كنت لا أفعل شيئا غير أن أفكر فيك ، ليل نهار .

ـ وكنت في الليل تتكلمين عني . سمعتك .

ـ مستحيل •

ـ بلى ! ما أكثر ما بكيت •

ـ اذن لماذا كنت قاسية كل هذه القسوة ؟

ـ كنت حمقاء ، يا نيتوتشكا • هذه الحماقة تتملكنى أحيانا • ولا أستطيع لها دفعا • كنت حاقدة عليك ، هذا كل ما فى الأمر •

ـ لماذا كنت حاقدة على ؟

ـ لا لسبب • لأننى شريرة • ثم لأنك أحسن منى • ثم لأن أبى يحبك كثيرا • ان أبى انسان طيب جدا ، ألا ترين معى هذا يا نيتوتشكا ؟

ـ أوه • بلى • بلى •

قلت ذلك ، وقد ترقرق الدمع فى عينى ، على ذكر الامير •

وأضافت كاتيا ، في لهجة رصينة :

ـ انه انسان طيب جدا •• ثم اننى حين طلبت اليك الصفح ، كنت على وشك أن أبكى •• وبسبب هذا أيضا حقدت عليك •

ـ نعم • لاحظت ذلك • لاحظت أنك تودين لو تبكين •

فصرخت كاتيا وقد وضعت يدها على فمى :

ـ أسكتى • أنت نفسك تميلين للبكاء • اسمعى • آه • لقد أحببتك حبا قويا • ولكن ، فجأة ، رأيتنى أكرهك ، أكرهك كرها ، هل تسمعين ؟

ـ لماذا ؟

ـ لا لسبب • كنت حاقدة عليك ، لا أدرى لماذا ! ولاحظت انك لا تستطيعين أن تعيشى بدونى • قلت فى نفسى : فلأعذبها قليلا ••

ـ آه • كاتيا •

وأردفت كاتيا تقول ، وهى تقبل يدى :

ـ حبيبتى •• ثم قررت أن لا أكلمك أبدا • هل تذكرين يوم داعبت فالستاف ؟

ـ آه • لشد ما أخفتنى !

ـ ولشد ما خفت أنا أيضا • هل تعلمين لماذا أقدمت على مداعبته ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك كنت تنظرين الىّ • حين رأيت انك تنظرين الىّ •• قلت فى نفسى : ليكن ما يكون •• وجازفت •• ألم تخافى خوفا شديدا ؟

ـ خوفا فظيعا !

ـ لاحظت • لو تعلمين كم سررت حين انسحب فالستاف • رباه ! •• ولشد ما ارتعدت خوفا ، بعد ذلك ، حين ابتعد •• هذا الغول !

ثم انطلقت من صدر الاميرة الصغيرة ضحكة عصبية • وفجأة ، رفعت رأسها المحموم ، وأخذت تحدق فى • كانت دموع كاللؤلؤ ترتجف على حافة أهدابها الطويلة •

ـ ولكن علام أحبك كل هذا الحب ؟ انك شاحبة • وشعرك الزاهى قبيح • وأنت غبية •• وبكاءة • نعم يا يتيمتى الصغيرة العزيزة !

وعادت كاتيا تغرقنى بقبلاتها ، وسالت قطرات دموعها على عنقى • انها مضطربة أعمق الاضطراب •

ـ نعم أحببتك كثيرا • ولكنى قلت فى نفسى : كلا ، كلا ، ثم كلا• لن أصارحها • وأصررت على عنادى • لماذا كنت خائفة ؟ لماذا كنت خجلة ؟ آه ، هل ترين كم نحن سعيدتان الآن ؟

قلت فى غمرة من الفرح الطافح :

ـ اننى أشعر بألم فى كل موضع من جسمى • ان قلبى يوشك أن يتحطم !

ـ نيتوتشكا • اسمعى • نعم اسمعى • ولكن قولى : من أسماك نيتوتشكا ؟

ـ أمى •

ـ سترويين لى كل شىء عن أمك ، أليس كذلك ؟

فأجبت فى حماسة :

ـ نعم • كل شىء ، كل شىء •

ـ وأين المنديلان اللذان سرقتهما منى • وأين شريط شعرى ؟ لماذا أخذت شريطى ؟ ألا تخجلين ؟ اننى أعرف كل شىء ، هل ترين ؟

وأخذت أضحك ، واحمر وجهى حتى طفرت من عينى الدموع •

واستأنفت كاتيا كلامها :

ـ قلت فى نفسى • كلا • فلتنتظر • يجب أن أعذبها أولا • وكنت أقول لنفسى فى بعض الأحيان : كلا ، اننى لا أحبها ، لا أحبها أبدا ولا أطيق رؤيتها • وبقيت أنت لطيفة وديعة مثل حمل • آه ! لشد ما كنت

أخشى أن تعديني بليدة ! ذلك أنك ذكية يانيتوتشكا ! أنت ذكية جدا ، أليس كذلك ؟

قلت ، وقد كادت كرامتي تجرح :

ـ لماذا تتكلمين هكذا ، يا كاتيا ؟

فأجابت كاتيا في لهجة رصينة جازمة :

ـ بل انت ذكية ، هذا أمر لا شك فيه . وفي ذات صباح ، استيقظت من نومي وأنا أشد ما أكون حبا ولوعة . لم أطق ذلك ، وكنت قد حلمت بك الليل كله . عندئذ قررت أن أمضي الى أمي أرجوها أن تقبلني في غرفتها . كنت أريد أن لا أحبك ، نعم ، كنت أريد أن لا أحبك . وفي الليلة التالية ، رأيتني أقول لنفسي وقد اضطجعت في سريري : آه ... ليتها تأتي كما أتت في تلك الليلة ! لقد عرفت كيف أتظاهر بالنوم في تلك الليلة . أليس كذلك ؟ لكم يستطيع الانسان أن يكون خبيثا ، يا نيتوتشكا !

ـ ولماذا كنت تمنعين نفسك من حبي ؟

ـ لغير ما سبب . هي فكرة راودتني . ولكن ماذا أقول ؟ لقد أحببتك يا نيتوتشكا ، أحببتك دائما . وكنت أقول لنفسي : سأخنقها بالقبل ، وسأظل أعضها وأقرصها حتى أفجر الدم من جسمها ، وسيسرها ذلك ، هذه الحمقاء الصغيرة !

وتوقفت قليلا ، ثم قالت :

ـ هل تذكرين ، يوم ربطت لك حذاءك ؟

ـ أذكر .

ـ كنت مسرورة جدا ، أليس كذلك ؟ نظرت يومئذ اليك ، وأنا أقول في نفسي : ما ألطفها ! •• سأربط لها حذاءها ، لأرى ما وقع ذلك في نفسها ! وكنت أنا فرحة • هل تذكرين ؟ واشتهيت لو أقبلك • ولكنني لم أقبلك • وما أكثر ما ضحكت في سرى بعد ذلك ! ، نعم ، ما أكثر ما ضحكت في سرى ! طوال النزهة لم أفعل شيئا غير أن أحبس نفسي عن الضحك ، حتى انني لم أستطع أن أنظر اليك ! آه • وما كان أشد سروري حين كنت في السجن ! لشد ما أسعدني أن أشعر انك في السجن من أجلي • هل فزعت ؟

ـ فزعا فظيعا •

ـ لم يسعدني انك اتهمت نفسك ، وانما أسعدني انك في السجن نيابة عني • هل تفهمين ؟ قلت في نفسي : انها تبكي بينما أحبها أنا كل هذا الحب ! غدا سأقبلها ، نعم سأقبلها كثيرا • والحق انني لم أشفق عليك ، لم أشفق عليك أبدا ، أبدا • ومع ذلك فقد بكيت •

ـ اما انا فما بكيت • كنت سعيدة جدا !

ـ ما بكيت ؟ آه منك أيتها المفسدة الصغيرة !

قالت كاتيا ذلك وهي تقبلني قبلة عنيفة •

ـ كاتيا ، كاتيا • انك لطيفة جدا •

ـ أليس كذلك ؟ نعم • والآن تستطيعين أن تصنعي بي ما تشائين• تستطيعين أن تعذبيني • أن تقرصيني • أرجوك • اقرصيني بقوة •

ـ عفريتة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ حمقاء صغيرة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ قبليني •

وتبادلنا القبل ، وبكينا ، وأخذنا نضحك •• وتورمت شفتانا من قوة القبل •

ـ نيتوتشكا ! ستنامين دائما معي • ثم ، هل تحبين القبل ؟ اذن أقبلك وتقبلينني • ثم انني لا أريد أن تكوني حزينة هكذا ! لم أنت حزينة ؟ ستقولين لي كل شيء ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأقول لك كل شيء • ولكنني لست حزينة الآن ، انني فرحة •

ـ كلا ، يجب أن تكون وجنتاك متوردتين ، مثلي ! آه • لا أحب أن يأتي الغد • هل أنت تعسة يا نيتوتشكا ؟

ـ كلا •

ـ اذن فلنتحدث • هيا نتحدث •

وتحدثنا ساعتين ، لا أدري فيم تحدثنا ! شرحت لي كاتيا خططها للمستقبل ، وشرحت لي الوضع الحاضر • علمت أنها تحب أباها أكثر من أي انســان آخر ، أكثر مما تحبني تقريبا • واتفقنا كلتانا على ان مدام ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، غير قاسية البتة • ثم تخيلنا ما سنفعله غدا ، وما سنفعله بعد غد ، بل رسمنا برنامجا يمتد الى عشرين سنة ، على أقل تقدير ! •• وارتأت كاتيا أن تجري الامور هكذا : يوما تأمر وأطيع ،

ويوما امر وتطيع ، ويوما نامر كلتانا وتتعمد احدانا ان لا تطيع فنتظاهر بالمخاصمة ثم نسارع الى المصالحة • الخلاصة : ان سـعادة كبرى انفتـح طريقها امامنا • واخذ منا التعب مأخذه ، من فرط ما ثرثرنا ، واطبقت أجفاننا • ونامت كاتيا قبلى ، مع انها هزئت بى لأننى كنت أتثاءب • وفى الصباح استيقظنا فى وقت واحد ، فتبادلنا قبلة على عجل ، لأننا سـمعنا وقع خطوات تقترب من الباب ، وسارعت الى سريرى •

وطوال النهار كنا من شدة الفرح كمن طاش عقله • وحرصنا على أن نختبىء دائما فى أقصى مكان ممكن خشية أن يرانا أحد • وبدأت اخيرا اروى لكاتيا قصتى ، فكانت تصغى الىّ مضطربة الى حد البكاء •

ـ لماذا لم تقصى علىّ كل هذا من قبل ، ايتها الخبيثة ؟ لو قد قصصته علىّ لكنت أحببتك ، لكنت أحببتك كثيرا ! أكان يعذبك كثيرا هؤلاء الصبية الذين كانوا يضربونك فى الشارع ؟

ـ جدا • وكنت أخاف ، أكاد أموت من الخوف !

ـ آه ، من هؤلاء الاشقياء ! رأيت مرة فى الشـــارع صبيا يضرب صبيا آخر • غدا سآخذ سوط فالستاف خفية ، وأمضى الى الشارع ، فاذا رأيت صبيا من هذا النوع ، جلدته ، جلدته جلدا • سترين !

والتهبت عيناها حنقا وسخطا ••

كنا نرتجف اذا دخل علينا أحد ، كنا نرتعد خوفا من أن يباغتونا متعانقتين • وتعانقنا فى ذلك اليوم مائة مرة على أقل تقدير • هكذا انقضى اليوم الاول ،فاليوم التالى •

الا ان سعادتنا لم تدم طويلا !

كان على مدام ليوتار أن تنقل الى الاميرة كل حركة من حركات ابنتها وكل سكنة من سكناتها ، فراقبتنا خلال ثلاثة ايام ، وجمعت فى هذه المدة كثيرا مما يمكن أن يقال . واخيرا ذهبت الى الاميرة ، وقصت عليها كل ما لاحظته : ذكرت لها اننا في نشوة عظيمة ، اننا لا نفترق لحظة من اللحظات ، اننا نتعانق في كل دقيقة ، أو نبكى ، أو نضحك كالمجانين ، اننا لا ننقطع عن الحديث لحظة ، وهذا امر لم يقع قط من قبل .. وأنها لاتعرف كيف تعلل هذه الامور ، وان أغلب الظن عندها ان الأميرةالصغيرة تعانى أزمة مرضية ، وان من الافضل على كل حال أن لا نلتقى كثيرا .

وقالت الاميرة :

ـ انني أفكر في هذا منذ زمان طويل . كنت أعرف أن هذه اليتيمة العجيبة ستسبب لنا كثيرا من المتاعب . ان ما قصوه عليّ عن حياتها أمر فظيع ، فظيع جدا . ولا شك انها تؤثر فى كاتيا تأثيرا سيئا . تقولين ان كاتيا تحبها كثيرا ؟

ـ حبا لا يعرف الحدود !

واحمرت الاميرة من الغيظ . ان هذه العاطفة التى تشعر بها ابنتها نحوى تثير غيرتها !

وقالت الاميرة متعجبة :

ـ عجيب . لقد ظلتا غريبتين احداهما عن الاخرى مدة طويلة ، ويجب أن أعترف بأن ذلك قد سرنى كثيرا . ان هذه اليتيمة ما زالت صغيرة ، غير أنها لا توحى اليّ بالثقة . هل تفهمين ؟ لقد رضعت مع الحليب تربية خاصة ، وعادات خاصة ، ولعلها رضعت كذلك سلوكا

مشبوها • لا أفهم تعلق الامير بها • لقد حاولت ألف مرة أن أرسلها الى مدرسة داخلية ، فكان الامير يرفض ذلك •

وودت مدام ليوتار لو تتشفع لى ، لكن الاميرة كانت قد عزمت على التفريق بيننا عزما لا يتزعزع •• فما لبثت أن استدعت كاتيا ، وأبلغتها أنها لن تراني قبل يوم الاحد القادم ، أى قبل انقضاء أسبوع كامل !

وقد بلغنى ذلك متأخرا ، فى المساء ، فصعقت للنبأ ، واعتقدت أن كاتيا لن تتحمل هذه القطيعة أبدا ، وبلغ منى القلق المبرح اننى مرضت أثناء الليل • وجاءنى الامير فى الصباح يهمس فى أذنى أن لا أقطع الرجاء ، وكان قد حاول فعلا أن يثنى الاميرة عن عزمها ، الا انه لم يظفر بطائل ، فان الاميرة لم تتزحزح عن رأيها قيد شعرة ، واجتاحنى اليأس شيئا فشيئا حتى خنق أنفاسى ••

وفى صباح اليوم الثالث جاءتنى ناستيا بكلمة كتبتها كاتيا بالقلم الرصاص بأحرف كبيرة ركيكة :

« أحبك كثيرا • اننى أبقى الى جانب ماما ، ولكننى لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أهرب اليك ، وسأتوصل الى ذلك • أعدك وعدا قاطعا • يجب اذن ألا تبكى • أكتبى الىّ انك تحبيننى • ظللت طوال الليل أحلم بك وأقبلك • لقد تألمت كثيرا ، يانيتوتشكا • أرسل اليك بعض الحلوى • الى اللقاء • »

وأجبت على رسالة كاتيا برسالة من نوعها • وظللت طوال النهار أغرق رسالتها بالدموع • وألحت مدام ليوتار فى مواساتى • وبلغنى فى المساء انها ذهبت تقول للامير انها نادمة على الوشاية بنا للاميرة ، واننى سأمرض مرة ثالثة ، ما فى ذلك ريب ، اذا أنا لم أر كاتيا •• وسألت

ناستيا عن كاتيا ، فذكرت لى ان الاميرة الصغيرة لا تبكى ، ولكنها شاحبة شحوبا رهيبا •

وجاءتنى ناستيا فى صباح اليوم التالى تهمس فى أذنى :

ـ اصعدى الى حجرة سعادة الامير ، على السلم الايمن •

شعرت أن سعادة تنتظرنى ، فانتعشت روحى ، وأسرعت أعدو على السلم لاهثة ، حتى بلغت باب حجرة الامير ، ففتحته • لم تكن كاتيا هنالك • ولكن سرعان ما شعرت بها تعانقنى من خلف ، وتأخذ تقبلنى فى عنف وحرارة • وكانت ضحكات ، وكانت دموع •• ثم اذا بكاتيا تنتزع نفسها منى فجأة ، وتتجه الى أبيها تتسلق كتفيه ، ثم تفقد توازنها فتتدحرج على « الديوان » هى وأبوها • كانت كاتيا تبكى من شدة الفرح •

ـ أبت • أبت • كم أنت طيب ! كم أنت نبيل !

ـ أيتها الشيطانتان الصغيرتان ! ماذا حل بكما ؟ ما هذه الصداقة ؟ ما هذا الحب ؟

ـ اسكت يا أبت • انك لا تعرف شيئا من هذا !

وغرقنا فى القبل مرة اخرى •

وتفرست عندئذ فى كاتيا : لقد نحلت فى هذه المدة : ذهبت ألوان وجهها فى هذه الايام الثلاثة ، وأصبحت شاحبة • وحزنت لهذا حتى بكيت •

وأخيرا جاءت ناستيا تقرع الباب ، وكان معنى ذلك أنهم يستدعون كاتيا •• فامتقع لونها امتقاعا شديدا •

وقال الامير :

ـ كفى ، أيتها الصغيرتان • سنلتقى معا فى كل يوم • فلتودع كل منكما الاخرى الآن • وليبارككما الله •

لقد أثر فيه منظرنا تأثيرا كبيرا • الا أن الامير قال ما قال دون أن يحسب حساب المفاجآت • ففي مساء ذلك اليوم نفسه جاء نبأ من موسكو يقول ان « ساشا » مرض فجأة ، وان حياته في خطر • فقررت الاميرة أن تسافر الاسرة الى موسكو في الغداة • وتم تنفيذ القرار بسرعة عظيمة ، حتى اننى لم أعلم بشىء الا لحظة الوداع • وقد أصر الامير على أن انزل مودعة ، ووافقت الاميرة على مضض • أما كاتيا فكانت كأنما صعقها نبأ السفر صعقا • وقد عدوت الى أسفل كالمجنونة وارتميت على عنق كاتيا • كانت العربة تنتظر أمام الباب • ولما رأتنى كاتيا انطلقت من صدرها صرخة ، وسقطت بلا وعى • أغرقتها بالقبل • الا أن الاميرة أمرت بأن تُردّ كاتيا اليها • وانتعشت أخيرا ، فطوقتنى بذراعيها • ثم قالت وهى تنفجر فى ضحكة مباغتة ، ويرتسم على وجهها تعبير لا يمكن وصفه :

ـ الى اللقاء يا نيتوتشكا • لا تنظرى الىّ هكذا • لست مريضة • بعد شهر أعود • ولا فراق بعد ذلك أبدا •

فقالت الاميرة فى لهجة باردة جافة :

ـ كفى • هيا بنا •

الا أن كاتيا التفتت الىّ مرة أخرى لتضمنى بذراعيها • وهمست وهى تقبلنى :

ـ أنت حياتى كلها • الى اللقاء •

وبعد هذه القبلة الاخيرة ، غابت الاميرة الصغيرة ، مدة طويلة جدا• لم ألقها الا بعد ثمانى سنين !

لقد أسهبت ـ عن عمد ـ فى قص تلك الفترة من طفولتى ، أعنى فترة ظهور كاتيا فى حياتى . ذلك أن تاريخينا لا ينفصل أحدهما عن الآخر . ان روايتها هى روايتى . لكأن القدر قد شاء أن تجد احدانا الاخرى . لذلك لم أستطع أن أمتنع عن لذة التوقف على ذكريات هذه الفترة من طفولتى . وسأسرع فى سرد ما بقى مما أريد سرده .

أصبحت حياتى بعد سفر كاتيا حياة هادئة ساكنة ملازمة للبيت .. (لم أستيقظ منها الا فى نحو السنة السادسة عشرة من عمرى ، ان صح التعبير ، كما سيجىء بيان ذلك ..)

ولكن لا بد من بضع كلمات عما صرت اليه بعد سفر أسرة الاميرة الى موسكو .

بقينا أنا ومدام ليوتار وحدنا .

وبعد خمسة عشر يوما جاء رسول من الامير يبلغنا ان عودة الاسرة قد أرجئت الى حين . ولما كانت مدام ليوتار لا تستطيع أن تذهب الى موسكو ، لأسباب عائلية ، فقد اضطرت الى ترك خدمة بيت الامير . الا أنها ظلت فى خدمة هذه العائلة نفسها ، اذ انتقلت الى منزل الابنة الكبرى للاميرة ، « الكسندرين ميخائيلوفنا » .

وأنا لم أتحدث بعد عن الكسندرين ميخائيلوفنا ـ وكنت لم أرها ، على كل حال ، الا مرة واحدة ـ وهى ابنة الاميرة من زواج أول . ولم يكن محتد الاميرة بالمحتد الرفيع ، ولا كان أهلها من وجوه الناس فى المجتمع ، وكذلك لم يكن زوجها الاول سوى تاجر خمور . وحين تزوجت مرة أخرى لم تعرف ماذا تصنع بابنتها من الزوج الاول. لم تكن تأمل لها زواجا ممتازا ، لأن المهر الذى يخصها كان ضئيلا . وأخيرا

استطاعت الاميرة منذ أربع سنين أن تزوجها رجلا غنيا ذا مكانة رفيعة، فدخلت الكسندرين ميخائيلوفنا ، بهذا الزواج ، حلقة من المجتمع غير حلقة أمها ، وأصبحت تلقى أناسا يختلفون كل الاختلاف عمن تلقاهم أمها . وكانت الاميرة تزورها مرتين في السنة ، كما كان الامير ، زوج أمها ، يأتيها بكاتيا مرة كل أسبوع . ولكن الاميرة أصبحت في المدة الاخيرة لا تحب أن ترسل كاتيا الى أختها ، فكان الامير يأخذها اليها خفية . وكانت كاتيا تحب أختها حبا عظيما ، رغم أن طبع كل من الاختين كان نقيض طبع الاخرى .

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا شابة في الثانية والعشرين من عمرها، ناعمة رقيقة ودوداً ، يظلل وجهها نوع من الألم الخبيء . على أن الوقار والرصانة لم يكونا يوافقان ملامحها الملائكية الجميلة أكثر مما توافق الطفلةَ ثيابُ الحداد ، فلم تكن تستطيع أن تراها دون أن تشعر نحوها بحب عميق . ومن فرط شحوبها قيل يوم رأيتها لأول مرة ان بها استعدادا للاصابة بمرض السل .

وهي لا تحب أن تزار أو تزور ، بل تعيش حياة عزلة وانزواء . وأذكر انني حين جئت لأرى مدام ليوتار اقتربت مني وقبلتني في كثير من العطف والحنان . وكان في صحبتها رجل نحيل ، مشرف على الهرم، فما ان رآني حتى أخذ يبكي . انه العازف على الكمان «ب» . وطوقتني الكسندرين ميخائيلوفنا بذراعيها ، وسألتني هل أحب أن أعيش في بيتها وان أصبح ابنتها ، فتأملتها لحظة وعرفت فيها أخت كاتيا ، حبيبتي ، فاذا بي أرتمي على عنقها ، منقبضة القلب ، كأن أحدا دعاني مرة أخرى بكلمة « يتيمة » . وعندئذ أرتني الكسندرين ميخائيلوفنا رسالة من الامير تضم بضعة أسطر ، موجهة اليَّ ، قرأتها وأنا أجهش ببكاء عميق . كان الامير

يباركنى فيها ويتمنى لى حياة مديدة سعيدة ، ويطلب الىَّ أن أحب ابنته الكبرى . وقد كتبت كاتيا بضع كلمات أيضا في حاشية الرسالة ، تذكر فيها انها الآن لا تفارق أمها .

وهكذا وجدتنى ، في ذلك المساء ، في كنف أسرة أخرى ، فى منزل آخر ، بين وجوه جديدة ! .. وانتُزع من قلبى ، مرة ثانية ، كل ما كان عزيزا على ، كل ما كان قريبا الى . لقد وصلت الى هذا المأوى الجديد وفى نفسى غم عميق ..

والآن تبدأ قصة جديدة .

الفصل السابع

سارت حياتي الجديدة بلا صدمات ولا عثرات ، في جو من الصمت والسكون ، كأنه جو دير من الأديرة ! .. فقضيت بين أحضان هذه الاسرة الجديدة ثماني سنين لا أذكر أنه أقيمت خلالها حفلة ساهرة ، أو دعي ضيف الى مأدبة ، أو عقد اجتماع يضم أقارب أو أصدقاء أو معارف ، اللهم الا مرة أو مرتين ! .. وفيما عدا شخصين أو ثلاثة كانوا يترددون على المنزل زائرين ، وفيما عدا الموسيقي «ب» صديق الاسرة ، وفيما عدا الاشخاص الذين تدعوهم أعمالهم الى لقاء زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، لم يكن يغشى المنزل أحد . وكان هذا الذي أسميته زوج الكسندرين ميخائيلوفنا مشغولا بأعماله دائما لا ينعم الا بقليل من أوقات الفراغ يوزعها بين أسرته وبين علاقاته في خارج البيت . وكانت علاقاته هذه كثيرة هامة لا يستطيع اهمالها ، وتضطره الى الظهور في المجتمع الراقي . ولئن كان يوصف عامة بأنه ذو طموح لا حد له ، فقد كان يُعرف الى جانب ذلك بأنه امرؤ جدي رصين ، سيما وانه يحتل

مكانة مرموقة جداً • كان الحظ والنجاح يبتسمان له ، فكان رأى الناس فيه حسنا ، بل كان جميع الناس يحبونه ، ولكنهم كانوا في مقابل ذلك يضنون بهذا الحب على امرأته • لقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تعيش في عزلة تامة ، وكانت تجد في هذه العزلة راحة ولذة ؛ كان طبعها الهادىء قد فطر على حب الانزواء •

وقد تعلقت بى تعلقا قويا صادقا ، وأحبتنى كأننى ابنتها • أما أنا فقد ارتميت فى أحضان هذه الأم الرءوم على ظمأ شديد ، عاجزةً عن حبس دموعى بعد فراق كاتيا •• ولم يفتر هذا الحب العنيف الذى منحتها اياه لحظة واحدة بعد ذلك • كانت لى أما وأختا وصديقة ، أو كانت بمثابة مصب لجميع ما أشعر به من عواطف الحب • وقد عنيت بى ودللتنى طوال مرحلة المراهقة التى قضيتها فى كنفها • ثم اننى أدركت منذ البداية ، بنوع من الغريزة أو الحدس ، أن حظ هذه المخلوقة ليس لامعا الى الحد الذى يمكن أن توحى به هذه الطمأنينة الهادئة فى حياتها ، وهذه الحرية الظاهرة ، وهذه الابتسامة الرائقة الصافية التى تضىء وجهها فى غالب الاحيان • وكنت فى كل يوم أزداد فهما للمصير الحزين الذى تعيشه (وقد نفذ قلبى الحزين الى هذا في بطء ومشقة) ، فكانت عاطفتى نحوها تزداد فى كل يوم قوة ••

كانت « الكسندرين » ضعيفة الارادة • وكان وجهها يضىء بطمأنينة هادئة ، اذا رآها الرائى لأول مرة لم يحسب أن فى وسع أى نوع من أنواع المتاعب ، مهما ضؤل ، أن ينفذ الى هذه النفس المطمئنة ! •• ثم انك اذا رأيتها أدركت أنها لا يمكن أن تكره أحدا مهما يكن شأنه : ان عواطف الرحمة تتغلب فى نفسها على مشاعر الكره • ومع ذلك كان أصدقاؤها قلة ، وكانت تعيش فى عزلة تامة ••

وعلى أنها قوية العواطف شديدة التأثر ، فقد كان يبدو أنها تخشى مشاعرها وتراقب قلبها ، ولا تسمح له بأى انحراف ، ولو فى الحلم ! •• وكنت في بعض الاحيان أرى دموعا فى عينيها ، كأن ذكرى ثقيلة خانقة تعذب ضميرها ، وتحز في نفسها •• كأن شرا مستطيرا يهوم فوق سعادتها ، ويهم أن ينقض عليها ! •• كلما بدت أسعد ، وكلما لاحت حياتها أهدأ وأقرب الى الطمأنينة ، كانت نوبة القلق أدنى الى موافاتها • وكانت الدموع أسرع الى التفجر من عينيها على حين غرة • وكان ذلك يراودها نوبات قاسية ، فما أذكر أن شهرا واحدا قد انقضى خلال هذه السنين الثمانى دون أن ينتابها شيء من ذلك ! ••

وكان يلوح على زوجها انه يحبها حبا جما ، وكانت هى من جهتها تكن له حبا يقارب العبادة ! •• ومع ذلك ، كان يخيل الى الرائى ، من أول نظرة ، أن بين الزوجين أمورا خفية • كأن ثمة سرا يحوم فوق حياة هذه المرأة •• أو ذلك على الاقل ما قدرته فورا !

•••

وقد أوحى الىّ زوج الكسندرين ميخائيلوفنا من أول نظرة بشعور مؤلم لم تزده السنون الا تفاقما• كان رجلا نحيلا طويلا، خيّل الىّ كأنه يخفى عينيه ، عمدا ، بنظارتين خضراوين ضخمتين • وكان فاتر المزاج ، قليل الكلام ، لا يجد موضوعا للحديث حتى حين يخلو الى زوجته • كان كأنما يزعجه وجود شخص آخر الى جانبه !

وكان لا يلتفت الىّ البتة ، وكنت مع ذلك أشعر من وجوده بكثير من الضيق والحرج ، حين يتفق أن نحتسى الشاى جميعا فى صالة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أضطرب وأغتم ، وأختلس النظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأشعر انها ترتجف • كانت ازاءه تراقب كل

حركة من حركاتها ، وكان لونها يمتقع اذا رأته أكثر كآبة وصمتا مما عهدت فيه من كآبة وصمت ، وكانت فى بعض الاحيان تحمر فجأة ، كأنما هي تدرك في كلامه غمزا أو تلميحا ! •• وأدركت أن حياتها مع مثل هذا الرجل حياة شاقة مرهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه دقيقة واحدة •

ولشد ما أدهشني انتباه هذه المرأة العجيب الى زوجها ، الى كل كلمة من كلماته ، الى كل حركة من حركاته ! •• كانت تحاول أن تجاريه وترضيه في كل أمر ، كأنما هي ترى نفسها عاجزة عن تحقيق ما يحب • كانت كأنها تستجدى رضاه استجداء : تكفيها ابتسامة باهتة تطوف في وجهه ، أو كلمة عاطفية صغيرة تخرج من بين شفتيه ، حتى تفيض نفسها بشرا وغبطة وسعادة •• فكأنها ترتد عندئذ الى الدقائق الأولى من حب لما يزل خجولا ، ولما يزل بلا رجاء ••

وكانت تحيط زوجها بجميع أنواع الرعاية والعناية التي يحاط بها مريض من المرضى • ومع ذلك كانت ، متى عاد الى حجرته بعد أن يصافحها وينظر اليها نظرة متلطفة شاقة ، تتبدل تبدلا كبيرا ، فتصبح حركاتها وأقوالها أكثر مرحا وأكثر انطلاقا •• غير أن ذلك لم يكن يحدث فورا ، فانها في كل مرة بعد لقاء زوجها كانت تظل مضطربة بعض الوقت ، وتأخذ تتذكر وتزن كل كلمة من الكلمات التي وجهها اليها ، وكثيرا ما كانت تلتفت اليّ وتسألني : هل هذا ما قاله بطرس الكسندروفتش ؟ •• كان واضحا انها تبحث في أقوال زوجها عن معنى آخر ، وكان لا بد لها من ساعة كاملة حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها تماما ، وحتى تثق كل الثقة من أنه لا يحقد عليها البتة ، وأنها قلقت بغير

داع الى القلق ، فاذا هي بعدئذ مرحة سعيدة ، واذا هي تقبلني وتضاحكني أو تجلس الى البيانو فتظل تعزف ـ ارتجالا ـ قرابة ساعتين ..

وفي بعض الاحيان كان يتبدد فرحها دفعة واحدة فتطفق تبكي على حين غرة ، حتى اذا نظرت اليها قلقة ، جزعة ، أسرعت تقنعني همسا ، مخافة أن يسمعها أحد ، بأن دموعها لا سبب لها ، وانها فرحة جدا ، وان عليّ أن لا أقلق .

وفي أحيان أخرى ، أثناء غياب زوجها ، كانت تقلق عليه أشد القلق ، فترسل احدى الخادمات تسأل عما يفعل : كانت في حاجة لأن تعرف لماذا أمر باعداد العربة ، وهلم جرا .. كانت كأنما لا تجرؤ أن تفاتحه في موضوع أعماله ومشاغله ؟ وكان اذا أسدى اليها نصيحة أو طلب منها شيئاً ، تصغي اليه في خضوع وذل ، كأنها خادم أو عبد . وما أشد فرحها حين يجود عليها بثناء يسير ، بصدد كتاب قرأته ، أو شيء صنعته بيديها ، أو ما الى ذلك . كان ذلك يرفع رأسها ويغرقها في بحر من السعادة !

وكان فرحها يتجاوز كل الحدود حين يبدو له ـ وذلك أمر نادر ـ أن يداعب أحد طفليها الصغيرين : كان وجهها يتبدل عندئذ تبدلا كبيرا ، فيشرق بسعادة عظيمة ، تتجاوز في تلك اللحظات حدود المرح التي تسمح لنفسها بها أمام زوجها ، فاذا هي مثلا تجرؤ أن تعرض عليه (دون أن يشجعها هو على ذلك ، وبصوت وجل مرتجف طبعا) أن يسمع قطعة موسيقية جديدة وصلتها مؤخرا ، أو تبدي رأيها في كتاب جديد قرأته ، أو تمضي الى أبعد من ذلك فتحب أن تقرأ له صفحة أو صفحتين لمؤلف أعجبها اعجابا شديدا . وكان زوجها يذعن لرغبتها أحيانا ، بل لقد يمضي الى أبعد من ذلك فيبتسم لها ابتسامة كريمة سمحة !

غير أن هذه الابتسامة كانت تزعجني حتى أعماق نفسي ـ لا أدري لماذا ـ كما كانت تزعجني بدورها أوضاع الانقياد والذل من جهة الزوجة .. كان يزعجني فقدان المساواة في العلاقات بين هذين الزوجين. ولكنني كنت أسكت ، واضبط نفسي ، واكتفي بأن ألاحظ هذا الرجل ، بدهشة الصغار وعقل الكبار في آن معا ! .. وكنت ألاحظ في أحيان أخرى ذكرى تطوف بخاطره فجأة ، ذكرى شيء مؤلم ، رهيب ـ لا يُلأم صدعه ولا يُرتق فتقه ـ يوافيه رغم ارادته ، ورغم عقله ، فاذا هو يتجلد ويتحامل على نفسه ، ثم تزول الابتسامة السمحة عن ثغره في طرفة عين، وينظر الى امرأته الفزعة ، على حين غرة ، نظرة تعبر عن الرحمة والشفقة فأرتعد أنا ـ كأن هذه الشفقة تنصب علي ، وكأن شعورا بالعار يغشاني أنا أيضا ! ـ ويبارح الفرح وجه الكسندرين ميخائيلوفنا ، وتنقطع الموسيقى أو تنقطع القراءة ، وتمسك المرأة المسكينة عن الكلام ، وقد امتقع لونها امتقاعا شديدا ، وتعقب ذلك دقائق من الغم الممض والألم الكاوي ، أحسبها دهرا ! ..

وكان الزوج ـ أخيرا ـ يضع لهذا الموقف حدا ، اذ ينهض من مكانه ، ويبدو كأنه يحاول أن يخنق في نفسه كل حنق وكل انفعال ، ثم ، بعد أن يدور في الغرفة عدة مرات ، في صمت حزين ، يصافح زوجته ، ويزفر زفرة عميقة ، ويقول بضع كلمات موجزة ، مضطربة ، كأنه يحاول أن يواسي زوجته ، ثم يترك الغرفة .. فتنفجر الكسندرين ميخائيلوفنا عندئذ في بكاء سخين ، أو تغرق في حزن رهيب لا ينتهي . وكان في بعض الاحيان يدعو لها ، وهو يرسم اشارة الصليب ، كما يفعل المرء مع طفل قبيل أن ينام ، وكانت هي تقبل دعواته في احترام واجلال، بل كان الدمع يترقرق في عينيها اعترافا بالجميل .

ولكنى لن أنسى تلك الامسيات (أمسيتين أو ثلاثا لا أكثر ، طوال هذه السنين الثماني !) التى تبدلت فيها الكسندرين ميخائيلوفنا تبدلا تاما على حين فجأة ، حتى لكأنها شخص آخر .. فاذا بنوع من الكره ، نوع من الغيظ والحنق ، يشع فجأة فى وجهها الذى ألف الهدوء والنعومة ، طاردا ذلك الذل الأبدى الذى تشعر به ازاء زوجها ، وتلك العبادة الخاصة التى تمنحه اياها . كانت العاصفة تتجمع أحيانا خلال ساعة طويلة ، فيبدو الزوج أكثر صمتا وحزنا ووجوما ؛ ويطفح قلب المرأة المسكينة أخيرا ، فتأخذ تتكلم بصوت متهدج من شدة الانفعال ، وبألفاظ متقطعة مفككة مشحونة غمزا ولوما مرا ، ثم لا تستطيع أن تكبح ألمها فتنفجر باكية ، ويصل بها اليأس الى غايته فتطفق تتفجع ، وهى تجهش فى نحيب مؤلم كالمحمومة . ليتكم ترون زوجها فى تلك اللحظات : ليتكم ترون صبره فى الاستماع اليها ، ولطفه فى محاولة تهدئتها . لقد كان يبلغ من ذلك أنه يأخذ يقبل يديها ، ثم يطفق أخيرا يبكى معها . الا انها كانت تنتفض فجأة ، انتفاضة من تيقظ ضميره وشعر أن ليس من حقه أن يُغتفر له ذنبه : كانت تهولها دموع زوجها ، فاذا هى تزداد لوعة واضطرابا ونحيبا ، فترتمى على قدميه تسأله الغفران ، وسرعان ما يجود عليها به ..

وكان ضميرها يعذبها مدة طويلة بعد هذه الأزمات ، فتظل شهورا برمتها لا تنقطع عن البكاء ، ولا تكف عن طلب الغفران ، وتقف أمام زوجها أكثر خجلا ووجلا وارتعادا منها فى أى وقت مضى . وكنت لا أستطيع أن أفهم شيئاً من هذه الأزمات ، سيما وقد كنت أُحمل أثناء ذلك على ترك الغرفة ، فى غير لطف أو رفق ! .. على انه كان يستحيل عليهما أن يخفيا عنى كل شىء . كنت ألاحظ وأحزر ، وكان

قد استقر فى ذهني شيء من الارتياب الغامض منذ البداية : لا بد أن في أعماق هذه الامور سرا • ان هذه الأزمات المفاجئة التي تعصف بهـذا القلب الطافح ألما مرا لا يمكن أن تكون بلا سبب ، لا يمكن أن تنشأ عن حالة عصبية فحسب ••• ثم ان تجهم وجه الزوج ، وهذه الشفقة الملتبسة التي يشعر بها نحو زوجته المريضة ، وهذا الخجل الأبدي ، وهذا القلق الذليل من جانب الكسندرين ميخائيلوفنا ازاء زوجها ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون علة ، لا ولا هـذا الحب الغريب الصامت الذي تحمله ولا تجرؤ أن تظهره ، وهذه الوحدة ، هذه الحياة المنزوية التي تعيشها هذه المرأة ، هذا الاحمرار المفاجيء وهـذا الاصفرار المفاجيء اللذين يغشيان وجهها متى لقيت زوجها ، كل هذا لا بد أن يكون له سبب !

ولكن لما كانت هـذه الأزمات بين الزوجين نادرة جدا ، وكانت حياتنا تجري رتيبة على نسق واحد ، وكنت أعرف جميع تفاصيلها تقريبا، ولما كنت أنمو بسرعة ، وكانت هنالك أشياء أخرى تثير انتباهي وتشغل اهتمامي رغما عني ، فسرعان ما ألفت هذه الحياة ، وهذه العادات ، وهذه الطباع التي تحيط بي • صحيح انني كنت في بعض اللحظات لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير والتأمل ، حين أنظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، ولكن تأملاتي لم تكن تخلص الى أية نتيجـة • كنت أحب ألكسندرين ميخائيلوفنا حبا قويا ، وأحترم الحزن الذي يكتنفها ، وأخشى أن أزعجها باستطلاع في غير محله • على انها كانت تفهمني •• وكم من مرة شكرت لي تعلقي بها !

وكانت اذا لاحظت قلقي عليها، ابتسمت من خلال دموعها ، وأخذت تتندر على كثرة بكائها ، أو أخذت ــ في أحيان أخرى ــ تقول لي ، فجأة، انها على أحسن حال من الفرح والمرح ، وانها سعيدة الى أقصى حـدود

السعادة ، وان جميع الناس يغمرونها طيبا وكرما ، وان جميع من عرفتهم حتى الآن يحبونها ، وان الامر الوحيد الذى يعذبها هو ان ترى بطرس الكسندروفتش قلقا بسببها ، بسبب حالات الكرب التى تراودها ، مع أنها سعيدة جدا ، جـدا جـدا • وكانت تعانقنى عندئذ فى كثير من الحنان ، ويشرق وجهها عندئذ بحب عميق ، حتى لينخلـع قلبى شـفقة ان صح التعبير •

رباه ! لن تمحى قسمات وجهها من ذاكرتى يوما • انها قسـمات قويمة يزيدها النحول والشحوب جمالا وفتنة• أما شعرها الاسود المسدول على جيدها فانه يلقى على جنبات وجنتيها ظلا ظاهرا قاسيا ، يزيد ـ بحكم منطق الاضطداد ـ من لطف نظرتها ، وجمال عينيها الزرقاوين الناصعتين اللتين تشبهان عينى طفل ، ورقة بسمتها الخجلى ، وفتنة ملامحها الرقيقة التى يطوف فيها فجأة كل هذا الصدق وكل هذا الخفر ، ويزيد من روعة وجهها الأعزل المنقاد لكل اندفاعة من اندفاعات قلبها : وهى الفرح السريع فى بعض الأحيان والكآبة الناعمة فى معظم الأحيان •• ففى بعض ساعات سعادتها الهادئة الراضية تصبح نظرتها النافذة العميقة من الصفاء والاشراق والطمأنينة ، وتصبح عيناها الناصعتان نصوع زرقة السماء من قوة التعبير عن الحب والحنان والصبوة الى كل ما هو نبيل ، والى كل ما يستثير الشفقة ويذكى الألم ، بحيث لا يسع المرء الا أن يستسلم لها رغم أنفه ، والا أن ينجذب اليها رغم أنفه ، ليجنى قليـلا من هذا الصـفاء ، من هـذه الطمأنينة ، من هذا السلام الروحى ، من هذا الحب الذى ينبع من أعماق وجودها •

ان المرء حين ينظر الى زرقة السماء يشعر أحيانا انه قادر على أن يظل مدة طويلة فى تأمل متعبد حار تتحرر فيه النفس من عقالها ، وتصبح أشبه بصفحة ماء هادىء تنعكس عليها فجأة قبة السماء العالية • وقد كانت

الكسندرين ميخائيلوفنا حين ترى الجمال تبلغ من شدة الحميا ، في كثير من الأحيان ، أن وجهها يتخضب ، وصدرها ينفر ، وتلتمع في عينيهـــا بروق ، بل تنطلق من عينيها شرارات ، كأن روحها تتجه عفيفة نحو شعلة صافية تريد أن تنصب فيها وان تتحد بها ! •• وكانت في تلك اللحظات تبدو ملهمة حقا ، فاذا بوثباتها المفـاجئة ، واندفاعاتهـا المباغتة تنقلها من الخجل الرقيق الى الانفعال الرفيـع والحماسـة الجريئة • ولـكن ما أكثر ما كانت تظهر عندئذ من سذاجة ، ومن تعجـل كتعجـل الاطفال ، ومن سرعة الى التصديق كسرعة المراهقين ! لست أشـك في أن مصـورا من المصورين مستعد لأن يهب نصف حياته ، في سبيل أن يرسم على قماشه لحظة من وجدٍ في مثل هذه الروعة ، على وجه انتابه مثل هذا التحول ••

•••

وقد أدركت في الأيام الأولى من اقامتي في هذا البيت أن الكسندرين ميخائيلوفنا التي تعيش في هذه العزلة التامة ، سعيدة بوجودي الى قربها • لم يكن لها عندئذ الا طفل واحد ، لم تكن قد أصبحت أماً الا منذ سنة واحدة فأصبحت أنا ابنتها • كانت لا تستطيع أن تفرق بيني وبين طفلها• ليتكم ترون حماستها الشـديدة في الانكباب على تربيتي ! لم تكن مدام ليوتار تستطيع أن تمتنع عن الابتسام حين تراها مندفعة هـذا الاندفاع ، متعجلة هذا التعجل • والحق اننا اندفعنا كلتانا الى كل شيء في آن واحد، حتى لم تعد تفهم شيئا ، لا هي ولا أنا • كانت تعلمني أشياء كثيرة وافرة ، دفعة واحدة ، فكان ذلك يدل من جانبها على حماسـة حارة ، وعلى صبر جميل ، أكثر مما يدل على حسٍ عملي • وقد ساءها طيشها هذا في أول الامر ، الا اننا قررنا بعد ذلك أن نضحك منه ، واستأنفنا كل شيء من جديد •

ذلك أن ألكسندرين ميخائيلوفنا ، رغم هذه البداية السيئة ، كانت

تحب أن تنهج في التربية نهجا مخالفا كل المخالفة لنهج مدام ليـوتار ، وكانتا تتناقشان في هذا الموضوع بسرور ومرح ، فكانت مربيتي الجديدة تعلن في لهجة قاطعة انها تناهض كل منهج محدد ، وتؤكد اننا بالتلمس والمحاولة سنجد الطريق الصحيحة ، وانه ليس من الضروري أن تحشو رأسي بمعلومات عقيمة ، وأن نجاحي في الدراسة يجب أن يعتمـد على مواهبي الطبيعية ، على البراعة في ايقاظ ارادتي الحسنة .

ولقد كانت على حق فيما قالت ، ما دامت قد نجحت نجاحا تاما . لقد زال من بيننا دور التلميذة ودور المعلمة ، فكنا معا كصديقتين ، حتى لقد كانت من البراعة في هذا بحيث كان يبدو في بعض الاحيان انني انا التي أعلمها ! .. وكثيرا ما كانت تدور بيننا مناقشات حادة ، فأحاول أن أبرهن بحـرارة على صـحة آرائي ، دون أن أدرك أن الكسـندرين ميخائيلوفنا هي التي تقود خطاي في هذا السبيل . وكنت أدرك حيلتهـا هذه فجأة بعد أن نفرغ من المناقشة ، وبعد أن تتضح المسألة اتضاحا كافيا، فأقدر عندئذ الجهـد الذي تحملته ساعات طـويلة في بعض الاحيـان ، والتضـحية التي بذلتها من أجـلي ، فأرتمي على عنقها ، وأقبلهـا بقوة وعنف ..

كان كل درس من الدروس ينتهي على هـذا النحـو .. وكانت حساسيتي تدهشها ، بل تهيجها الى حد القلق . وأخذت تسألني عن ماضيّ في كثير من الاهتمام ، تريد أن تعرفه مني ، فكلما قصصت عليها بعض ذكرياتي رأيتها تغدو أكثر رقة معي ، وأكثر جدا في معاملتي ، أقـول « أكثر جدا » لأن طفـولتي البائسة كانت توقظ في نفسـها ، فضلا عن الشفقة ، نوعا من الاحترام . وكنا ، بعد أن أفضي اليها بذكرياتي ، نغرق عادة في مناقشات طويلة ، فكانت تشرح لي ماضيّ شرحا يتراءى لي معـه

انني أعيشه مرة أخرى في الواقع ، وأعرف عنه أمورا كثيرة من جديد !

وكانت مدام ليوتار ترى أن هذه المناقشات مسرفة في الجد ، بل كانت ترى أنها في غير محلها ـ حين تلاحظ انهمار دموعي بالرغم مني ـ أما أنا فكنت أرى نقيض رأيها تماما • لقد كنت ، بعد هذه « الدروس » أتخفف من آلامي تخففا كبيرا فما أعود أرى في قدري شيئا محزنا • والذي أحمده لالكسندرين ميخائيلوفنا ، فوق كل شيء ، هو انني كنت مضطرة الى أن أزداد حبا لها يوما بعد يوم • ان مدام ليوتار لم تكن تعلم أن كل ما قد أثار في نفسي ، في الماضي ، عواطف مضطربة مبكرة ، كان بهذه الطريقة يفقد حدته شيئا بعد شيء • وينصهر في انسجام متماسك قوي ؛ ولم تكن مدام ليوتار لتتصور الى أي حد قد تسممت نفسي بما قاسيت •• الى أي حد أرهقتني قسوة القدر الغاشم •• الى أي حد بكيت دون أن أعلم من أين تأتيني الضربة التي تهوي على رأسي !

• • •

وكنا في أول الصباح نجتمع في حجرة الأطفال ، فنوقظ الطفل ، ونعنى بهندامه وطعامه ، ونضحكه ، ونكلمه ، ثم نتركه لنمضي الى العمل• كنا ندرس كثيرا جدا ، ولكن •• الله أعلم بقيمة هذه الدراسة التي تشتمل على كل شيء ، ولا تشتمل في حقيقة الأمر على أي شيء محدد !•• كنا نقرأ معا ، ونتبادل الآراء ، ثم نترك الكتب وننصرف الى الموسيقى ، فكانت الساعات تنقضي سريعة لا نحس انقضاءها •• وفي المساء كثيرا ما كان «ب» ، صديق ألكسندرين ميخائيلوفنا ، يأتي زائرا ، وكانت مدام ليوتار تأتي أيضا ، فتدور بيننا في بعض الاحيان مناقشات حادة عن الفن ، وعن الحياة (التي لا نعرفها في حلقتنا الصغيرة الا عن طريق السماع) ، وعن الواقع والمثل الأعلى ، وعن الماضي والمستقبل ، ونقضي نصف الليل

في مثل هذه الأحاديث • وكنت أصغى الى الحديث ملء اذنى ، وأتحمس حين يتحمس الآخرون ، واضحك معهم ، أو تهيجنى الشجون حين أعلم فجأة بعض ما يتصل بأبى وبطفولتى الاولى •

وكنت أثناء ذلك أتقدم في السن ، وفي الوعى • وعهدوا الى بعض الاساتذة بتعليمى ، ولـكنى ما كنت لأتعلم منهم شيئا لولا ألكســندرين ميخائيلوفنا • ما كنت لولاها لأزيد ، مع أستاذ الجغرافيا ، على أن تعمى عيناى في البحث عن مواقع المدن والانهار على الخريطة • أما الكسندرين ميخائيلوفنا فكانت تقوم معى برحلات على الارض ، فنزور البلدان ونرى العجائب ونعيش هذا كله في حماسة وحميا ، ساعات طوالا ، حتى أصبحت كتب الكسندرين ميخائيلوفنا لا تروى ظمأنا ، وحتى أصبحنا في حاجة الى التهام كتب أخرى ، وحتى صرت قادرة على أن أنصح أستاذى بقــراءة بعضها !

على انه لا بد لى من انصاف أستاذى : فقد ظل الى آخر لحظة يفوقنى في معرفة خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما مدينة من المدن ، وفى معرفة عدد سكان هذه المدينة محددا بالألوف ، وبالمئات ، بل وبالعشرات • وكان أستاذ التاريخ يتقاضى أجرا حسنا هو الآخر • الا اننا أخذنا ، بعد ذهابه ، نتعلم التــاريخ ـ وأنا والكســندرين ميخائيلوفنا ـ على طريقتنــا الخاصة ، فكنا نأخذ كتبنا ، ونظل نقرأ أحيانا الى ساعة متأخرة من الليل ، والأصح أن ألكسندرين ميخائيلوفنا هى التى كانت تقرأ ، لأنهــا كانت تراقب ما نقرأ ••

وأذكر أننى لم أشعر في حياتى بحماسة كالتى كنت أشعر بها بعد هذه القراءات • كنا نتحمس كأننا أبطــال ما نقــرأ • وكنا نقــرأ ، عدا السطور ، ما بين السطور • وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا تجوّد القراءة

حتى لكأن كل ما تقرؤه قد وقع لها . ولـكن يجب أن أعترف أن ثمـة شيئا مضحكا فى هذه الحماسة التى كانت تحرمنا من النوم نصف الليل : أنا الطفلة ، وهى القلب الجريح الذى يحتمل الحياة فى مشـقة وعناء ! (وكنت أعلم أن ألكسندرين ميخائيلوفنا تجد الى جانبى عزاء وسلوى). وأذكر اننى كنت فى بعض اللحظات أفكر تفكيرا غريبا وأنا أنظر اليها . كنت من فرط محاولتى الفهم قد فهمت كثيرا عن أمور الحياة ، قبل أن أبدأ الحياة !

***

وبلغت الثالثة عشرة من عمـرى . وازدادت صـحة الكسـندرين ميخائيلوفنا أثناء ذلك سوءا على سوء . أصبحت أسرع الى الاهتياج ممـا كانت ، وازدادت حدة الحزن الذى يغشاها من حين الى حين دون ماسبب، وكثرت زيارات زوجها لها . وأصبح يبقى الى جانبها مدة أطول ، الا أنه ظل على عادته حزينا كئيباً لا يكاد ينبس بكلمة . وأخذ مصير الكسندرين ميخائيلوفنا يشغلنى على نحو أقوى وأعنف . ان مشاعر جديدة تتكون الآن فى نفسى ، وأنا أخرج من مرحلة الطفولة . صرت أبحث ، وأفترض وأستنتج ، وأصبح السر الذى أحسه مرفرفا فى جو هذه الاسرة يقلقنى مزيداً من القلق .

وكنت فى بعض اللحظات أحسب اننى فهمت هذا السر بعض الفهم. وفى لحظات أخرى يضعف شعورى بذلك ويقـل اهتمامى بالأمر ، بل أحس بالملل والضجر ، فأنسى ما كنت أحب أن أعرفه ، ولا أعود أحفل به . وكنت فى أحيان أخرى أجد لذة كبيرة فى أن أبقى وحدى ، غارقة فى أفكارى . وكانت تلك الايام تشبه فترة من حياتى الماضية بين أبوى ، تلك التى أحببت فيها أبى ، فظللت سنة كاملة أفكر بغير انقطاع، وأتخيل،

وأحلم ، وأنا قابعة في ركني .. تلك الفترة التي كنت فيها أشبه بمتوحشة غارقة في ضروب من الاوهام يلفقها خيالي من هنا ومن هناك . الا أن ثمة فرقا بين الفترتين : فصبري الآن أفرغ ، وقلقي أقوى ، واندفاعاتي الجديدة أوثق اتصالا باللاشعور ، وظمئي الى الحركة أشد ، فكنت لا أستطيع أن أتركز على نقطة واحدة كما كنت في الماضي .

وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا كأنما تحب أن تبتعد عني هي نفسها. فانني ، في هذه السن ، لا أكاد أصلح صديقة لها . لست الآن طفلة ، وان أسئلتي الآن لكثيرة ، واني لأنظر اليها أحيانا ، فما يسعها الا أن تغض طرفها . كانت هنالك لحظات غريبة . وما كنت أستطيع أن أراها تبكي ، وكثيرا ما كانت دموعي تتدفق من عيني غزيرة حين أراها كذلك ، ثم أرتمي على عنقها أقبلها في حرارة . ماذا عساها تقول لي ؟ كنت أشعر أنني عبء عليها !

وفي لحظات أخرى - هي أكثر اللحظات قسوة وحزنا - كانت تعانقني هي نفسها عناقا قويا ، كأنما تملكها يأس شديد .. فكانت في تلك اللحظات كأنها تستدر حبي ، كأنها لم تعد تطيق وحدتها ، كأنها تشعر أنني قادرة على أن أفهمها وعلى أن أشاركها ألمها ! .. على أن هذا كله لا يمنع ان ثمة سرا كان ما يزال قائما بيننا . كان ذلك من الوضوح بحيث كنت أراني في بعض الاحيان أبتعد عنها فجأة ، اذ يؤلمني أن أبقى الى جانبها . ثم انه لم يبق هنالك الا قليل مما يقرب بيننا ، فيما عدا الموسيقى . على أن الاطباء انتهوا أخيرا الى الحيلولة بينها وبين الموسيقى.. أما الكتب فقد أصبح أمرها أعوص وأعسر . ان الكسندرين ميخائيلوفنا لا تدري الآن ماذا ينبغي أن تقرأ معي . فمن الممكن أن نتوقف الآن عند الصفحة الاولى من كل كتاب نقرؤه : كل كلمة يمكن أن تكون تلميحا

الى شيء ، وكل جملة يمكن أن تكون لغزا • وحاولنا كلتانا ان نتحاشى أحاديثنا القديمة ، الملتهبة ، التي تنفذ الى صميم الاشياء ••

في هذه اللحظة شاء القدر ، ارتجالا ، ودون أن يكون ذلك في الحسبان ، أن يفرض على حياتي مجرى آخر ، فاذا انتباهي ، وعواطفي ، وقلبي ، ورأسي ، ووجودي كله ، اذا كل ذلك يتجه اتجاها جديدا ، يكتنفه التوتر الحماسي القوي • رأيتني فجأة ، دون أن ألاحظ ذلك ، أنتقل الى عالم جديد • ولم أستطع أن أرتد الى الوراء ، ولا أن أنظر حولي ، ولا أن أفكر • كنت معرضة للضياع ، وكنت أشعر بذلك ، الا أن الاغراء كان أقوى من الخوف ، فانطلقت على غير هدى ، مغمضة العينين • أهملت الامور التي كانت تقلقني ، والتي كنت أبحث فيها عن مخرج دون أن أظفر بطائل ، وأنا أشد ما أكون ظمأ الى معرفتها ، أهملت هذه الأمور مدة طويلة • واليكم كيف تطورت الامور :

•••

كان لقاعة الطعام ثلاثة أبواب ، يؤدي أحدهما الى الأجنحة الكبرى ويؤدي الثاني الى غرفة الاطفال ، ويؤدي الثالث الى المكتبة • وكان للمكتبة باب آخر يؤدي الى حجرة العمل ، المتصلة بغرفتي • في هذه الحجرة كان يستقر عادة سكرتير بطرس الكسندروفتش ، الذي كان يعمل ناسخا وقيماً على البيت في آن واحد • وكان مفتاح المكتبة في عهدته • وفي ذات يوم ، بعد العشاء ، بينما كان السكرتير غائبا عن البيت ، عثرت بهذا المفتاح على أرض الحجرة • كان حب الاستطلاع أقوى من أي شيء آخر ، فانتهزت الفرصة ودخلت المكتبة • انها حجرة واسعة ، مضاءة أحسن اضاءة ، تحتوي على ثماني خزائن مملوءة كتبا • من هذه الكتب عدد كبير انتقل الى يدي بطرس الكسندروفتش بطريق الوراثة ، الا أن

قسما كبيرا منها انما جمعته الكسندرين ميخائيلوفنا التى كانت لا تنقطع عن شراء الكتب •

ولم يكونوا يسمحون لى بالقراءة حتى ذلك الحين الا فى كثير من الحذر •• فلم يكن صعبا علىّ أن أعتقد أن هذه الكتب الممنـــوعة عنى تنطوى على سر • لهذا السبب رأيتنى ـ وقد عصف بى ظمأ الى الاطلاع لا يقاوم ، وتملكنى خوف شديد ، وفرح عظيم ، وحماسة كبيرة حقا ـ رأيتنى أفتح الخـزانة الاولى وأخـرج منهـا كتابا • كانت تلك خـزانة الروايات • ثم أغلقت الخزانة ، وحملت كتابى وفى نفسى شعور غريب ، وفى قلبى خفقان شديد ، حتى لكأننى أوجس التغير الكبير الذى ستحدثه القــراءة فى حياتى • فلمـا عدت الى غرفتى ، أغلقتهــا علىّ ، وفتحت الرواية ••

غير أننى كنت عاجزة عن القراءة • كان يشغلنى أمر آخر ، هو أن أطمئن اطمئنانا نهائيا الى أننى أستطيع دخول المكتبة دون أن ينتبه أحد الى أننى آخذ منها الكتب التى أهواها • وهكذا أرجأت لذة القراءة الى فرصة أخرى ، ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح • كان ذلك أول عمل سيء أقترفه • وانتظرت النتائج !

ولكن الأمور سارت على أحسن ما يرام ، فان سكرتير بطـــرس ألكسندروفتش ظل طوال المساء وجزءا من الليــل يبحث عن المفتاح فى أرض الغرفة على ضوء شمعة دون أن يظفر بطائل ، حتى اذا جاء الصباح استقدم قفالا ، ووجد القفال فى جعبته مفتاحا يناسب قفل باب المكتبـة ، فانتهى بذلك كل شيء ، ولم يتحدث أحد بعد ذلك عن المفتاح الضائع • واتخذت من جهتى جميع الاحتياطات ، فى غير قليل من المكر ، فقررت أن لا أجازف فأدخل المكتبة الا بعد انقضاء أسبوع على ذلك ، أى بعد أن

أتيقن من زوال كل شبهة ، وكل خطر • واخترت وقتا كان فيه السكرتير غائبا عن البيت ، فدخلت قاعة الطعام • وينبغي أن أذكر أن السكرتير كان يحتفظ بالمفتاح في جيبه ، ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من ذلك فيتصل بالكتب ، بل لقد كان لا يدخل حجرة المكتبة أبدا •

ومنذ تلك اللحظة أخـــذت أقرأ في كثـير من الشره ، وسرعان ما أصبحت القراءة هوى قـويا يملك عليَّ نفسي ، فاذا جميـع حاجاتي الجديدة ، وصبواتي الحديثة ، وجميع اندفاعات مراهقتي ، هذه الاندفاعات التي ما زالت غامضة والتي كانت تقلقني وتشيع في نفسي الاضـطراب ، وكل ما قد أثار عقلي المبكر اثارة قوية ودفعه في اتجاه آخر ، اذا كل هذا يجد مخرجا غير منتظـــر ، فيندفع فيه الى مدى بعيد • كنت كأنني شبعت من ذلك الغذاء الجــديد شبعا تاما ، ثم وجــدت الآن طـريقي الصحيحة • وسرعان ما أصبح قلبي من النشوة وأصبح عقلي من الافتتان وأصبح خيالي من قوة التحليق بحيث نسيت كل ما قد أحاط بي حتى ذلك الحين • كأن القدر نفسه سمرني على عتبة الحيـــاة الجـديدة التي كنت أتحرق شوقا الى الاندفاع فيها ، تلك الحياة التي كنت أحلم بها ليل نهار بلا انقطاع • كأن القدر ، قبل أن يدفعني في الطريق المجهولة رفعني الى قمة عالية ، حتى يريني مستقبلي في صورة رائعة أطل عليها من فوق ، صورة تفيض بالآمال الســاحرة • ان الحظ يتيح لي الآن أن أجـرب مستقبلي ، بقراءته في أول الامر في الكتب ، في أحلامي ، في آمالي ، في وثباتي الجامحة ، في جميع العواطف العـذبة التي تفيض بهـا روحي الشابة •

وقرأت في أول الامر الكتب التي تقع بين يدي ، دون تخير ، غير أن ما كنت قد تعلمته وقاسيته حتى ذلك الحين كان من النبل والرفعـة

بحيث كنت لا أستطيع أن أجـــد أية متعة في قراءة صفحات اباحية أو بذيئة • كانت غريزتي الطفولية ونموى المبكر وماضى كله ، كان هذا كله يحميني ويحرسنى • وأصبح شعورى الآن ينير كل ما قد وقع لى فى الماضى ، حتى لقد كانت كل صفحة أقرؤها تبدو لى شيئاً أعرفه منذ مدة طويلة : هذه الأهواء ، هذه الحيوات المختلفة المعروضة أمامى فى صور غير منتظرة ، في لوحات جذابة ، انني أعرفها من قبل !

وكيف لا أصل الى نسيان الحاضر ، بل والى نسيان الواقع تقريبا ، وأنا أجد في كل كتاب أقرؤه ثمرات قدر واحد بعينه ، وأجد فيه قانونا تفرضه على الحياة الانسانية روح واحدة هي روح المغامرة ، قانونا مشتقا من قانون أساسى آخر هو شرط السلامة والخلاص والسعادة ؟ لقد كنت أتحسس هذا القانون ، وكنت أحاول أن أحذره بكل ما أوتيت من قوة ، بكل الغرائز التي كان يوقظها في نفسي الشعور بنوع من الحماية • كنت أشعر انني معصومة مقدما ، كأن هناك شخصا يرشـدنى ويطلب الىّ أن أكون ساهرة ويقظة ••

والى جانب اندفاعاتي التي كانت تشتد وتقوى يوما بعد يوم ، كانت تضطرم في نفسي نبوءة حقيقية تجعلني أؤمن بمستقبلي ، وأؤمن بأن حياتى ستكون حياة فنان تهزه شاعرية جامحة • الا أن خيالى ، كما قلت ، كان يغلب اندفاعي • فكانت جرأتي ، في الواقع ، لا تتعدى أحلامى • وكانت الغريزة ، ازاء الوقائع الحقيقية ، تردني الى الخجل • وكأنما أردت أن أكون على اتفاق مع نفسى ، فقررت ـ على غير شعور منى ـ أن أكتفى فى أول الامر بعالم الخيال ، هذا العالم الذى ملكت ناصيته ، هذا العالم الذى ليس فيه الا متعة وفرح ، هذا العالم الذى ليس للشقاء فيه ـ ان وجد ـ الا دور سلبى ، دور موقت ، دور لا بد منه للتناقضات الممتعة ، لتبدلات

القدر التي تمد رواياتي بخواتيمها السعيدة . أو هكذا على الأقل ما أفهمه الآن من حياتي النفسية في ذلك الوقت !

هذه الحياة ، التي ليس فيها شيء غير الخيال ، هذه الحياة الغريبة كل الغرابة عن حياة الأشخاص الذين يحيطون بي ، قد استمرت ثلاث سنوات طوال ..

***

وكانت هذه الحياة سري المكنون ، الخفي ، أخشى عليه أن يتكشف .. حتى لقد صرت أخشى أية نظرة يلقيها عليّ أحد ، مخافة أن ينفذ الى أعماقي ويكشف عن سري . وعشت حياة داخليـة غنية ، فكنت أرخي العنان لخيالي .. سيما وقد كان كل من في البيت يعيش في عزلة تامة ، بعيدا عن الآخرين ، في صمت كصمت الأديرة ، فكان كل منا يميل الى الانطواء على نفسه والاكتفاء بنفسه ، أو هذا ما حدث لي على كل حال ، فما من شيء تغير من حولي ، خلال هذه السنين الثلاث ، بل احتفظ كل شيء بطابعه المألوف ومظهره المعتاد . فكانت العلاقات بيننا رتيبة ، متشابهة، مملة .. ولولا أن سري كان يواسيني ، ولولا أن نشاطي كان يسليني (أدرك ذلك اليوم) لبلغ بي الضجر مبلغا كان يمكن أن يدفعني الى أي تطرف ، هربا من هذه البيئة الثقيلة الحزينة .. وكان يمكن أن يؤدي ذلك الى هلاكي .

كانت مدام ليوتار قد بدأت تشيخ وتهرم ، فأصبحت لا تكاد تترك غرفتها . وكان الولدان ما يزالان صغيرين ؟ أما «ب» فكان لا يخرج عن سلوكه التي يجري على وتيرة واحدة ، وأما زوج ألكسندرين ميخائيلوفنا فكان محتفظا بعبوسه ، وكبريائه ، ووجهه المقطب ، وكان السر الخفي بينه وبين زوجته ما يزال قائما ، بل كان هذا السر يزداد في نظري خطرا

وتهديدا ، وكنت أزداد خوفا على ألكسندرين ميخائيلوفنا . كانت حياتها الخالية من الفرح ، حياتها العقيمة ، تذوى امام بصرى يوما بعد يوم ، وكانت صحتها تسوء مزيداً من السوء .. وكأن نوعا من اليأس قد سيطر على روحها آخر الامر ، فكان المرء يحس انها ترزح تحت وطأة شيء مجهول ، لا يمكن ادراكه أو تعليله .. شيء فظيع رهيب .. غير انها كانت راضية به رضى من حكم عليه بالصلب فلا مفر !

وقسا قلبها أخيرا بتأثير هذا العذاب الأصم ، بل ازدادت روحها ظلاما وحزنا . وثمة شيء كان يسترعى انتباهى أكثر من أى شيء آخر: كان يلوح لى أنها تبتعد عنى بقدر ابتعادى عن الطفولة ، حتى تطور حذرها منى الى تبرم ثقيل ، وحتى كدت أعتقد في بعض اللحظات أنها أصبحت لا تحبنى البتة ، كأنما أنا أزعجها . سبق أن قلت اننى قد ابتعدت عنها في اول الامر بارادتى ، الا اننى حين فعلت ، شعرت كأن الجانب السرى من طبعها قد سرت عدواه الىّ ، ولهذا السبب فان جميع ما فكرت فيه خلال هذه السنين الثلاث ، وجميع ما نبت فى نفسى من أحلام ومشاعر وآمال وأهواء وحماسات ، قد احتفظت به سرا لنفسى ، لم أطلع عليه أحدا . فلما أصبحنا سرين ، لم نتقارب بعد ذلك أبدا ، رغم أن عاطفتى نحوها قد اشتدت وقويت أكثر من أى وقت مضى .

...

لا أستطيع أن أتذكر – دون أن أبكى – كم كان تعلقى بها شديدا ، وكم أغدقت علىّ من كنوز حبها ، هذا الحب الذى شاء أن يقوم بوظيفته نحوى الى آخر درجاته ، الى درجة حب الأم . والحق أن تباريحها الكامنة كانت تجعلها تهملنى فى بعض الاحيان حتى لكأنها نسيت وجودى، وحاولت جهدى أن لا ألفت انتباهها ، حتى استطعت أن أبلغ السادسة

عشرة من عمــــرى دون أن يفطن أحد الى ذلك • الا أن الكسندرين ميخائيلوفنا كانت فى لحظات تيقظ الضمير تلقى على من حولهـا نظرات صافية جدا ، فاذا هى فجأة ، وقد تملكها قلق عليّ ، تدعونى الى غرفتها ، وتنتزعني من دروسى أو مشاغلى ، وتغمرنى بوابل من الاسئلة ، كأنهـا ظمأى الى معرفتى على أكمـل نحو ، ثم لا تتركنى خـلال أيام برمتها ، محاولةً أن تحزر كل ما يستهوينى ، وان تدرك جميع رغباتى ، لا يعنيها شىء غير نموى وتطـــورى ، غير حالتى الراهنـة ومســتقبلى ، مبدية استعدادها لأن تساعدنى بكل ما فى قلبها من مشاعر الاعجاب وعواطف المودة والحب •

غير أنها وقد كانت بعيدة عني فى تلك الفترة ، كانت تعمد فى سبيل ذلك الى وســائل ساذجة مسرفة في الســذاجة ، وكنت أدرك نياتهـا ومقاصدها بسهولة • وقدرت هى فجأة اننى ما تعـديت فى قراءاتى كتب الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة من العمر ، فهالها ذلك كثـيرا ، وحزرتْ أنا سبب شعورها ذاك ، ولاحظته فى كثير من الانتباه ؟ ولقـد ظلت بعد ذلك أسبوعين كاملين كأنما هى « تختبرنى » ، لتقف على درجة نموى ، ومدى كفاءاتى ، ثم عزمت أمرها أخيرا ، فظهر على طاولتنا كتاب (ايفانويه) ، الذى كنت قد قـرأته قبـل ذلك ثلاث مرات على الاقل ، فكانت تراقب انفعالاتى فى خجل يقظ ، كأنما هى تخشى هذه الانفعالات• وأخيرا زال من بيننا هذا التوتر ــ وكان بالنسبة اليّ ظاهريا ــ وتحمسنا كلتانا للرواية ، وبلغت من فرحي اننى كدت أعترف لها بكل شىء•••وحين وصلنا الى النقطة التى تنحل فيها عقدة الرواية كانت حماستها قد بلغت أوجها • وكانت كل ملاحظة من المـلاحظات التى أبديهـا أثناء القـراءة صائبة ، وكل رأى أسوقه صادقا ، فأدركت « ألكسندرين » أن نمـوى سريع مبكر ، وهزت هذه الفكرة عاطفتها ، بل أثارت اعتزازها ، فأخذت

تتابع تربيتى مرة أخرى فى كثير من الحماسة ، وانتــوت أن لا تتركنى لنفسى بعد الآن أبدا •• غير أن ذلك لم يكن فى مقدورها ، فقـــد تكفل القدر بالتفريق بيننا ، وبالحيلولة دون تقاربنا من جديد •• فها هى تصاب بنكسة فى صحتها ، وها هو حزنها الابدى يعــود فيــلازمها ، وها نحن نتباعد ، ثم تزول الألفة ، ويحل محلها الحذر والتهكم ، وربما الاهمال والبغض !

◆◆◆

غير أن ثمة دقائق كانت ، حتى فى تلك الفترة ، تفلت من رقابتنا ، فكانت القراءة المشتركة أحيانا ، وبعض كلمات التودد التى ترسلها احدانا فجأة ، والموسيقى ، تجعلنا ننسى كل شىء •• بل تجعلنا نفرط فى النسيان أحيانا ، حتى لتلبث احدانا بعدئذ كأنها خجلى من الاخرى •• وما هى الا لحظات من التفكير حتى تنظر كل منا الى صاحبتها فى استطلاع حذر هو الى الخوف أدنى ، وتشعر كل منا أن ثمة حاجزا يقف عنده تقاربنا ، واننا لا نستطيع أن نجتاز هذا الحاجز رغم رغبتنا فى ذلك •• !

وذات مســاء ، ســاعةَ الغســق ، كنت فى مخــدع الكســندرين ميخائيلوفنا ، أقرأ فى كتاب من الكتب ذاهــلة • وكانت هى تعــزف على البيانو ألحانا مرتجلة مستلهمة من لحن ايطالى تؤثره ، حتى اذا وصلت الى مقطع معين من هذا اللحن ، رأيتنى وقد دبت حماسة الموسيقى فى قلبى آخذ فى الغناء بصوت خافت خجول ، ثم لا ألبث وقد ازدادت حماستى أن أنهض من مكانى وأقترب من البيانو •• وكأن الكسندرين ميخائيلوفنا أدركت اهتمامى هذا ، فأخذت تصاحب بعزفها كل نغمة من النغمات التى كنت أغنيها ، وهى أشد ما تكون دهشة ••

لقد فاجأها صوتى مفاجأة كبيرة • لم أكن قد غنيت أمامها أبدا قبل

تلك اللحظة . ثم انني كنت أجهل ـ أنا نفسي ـ مقدرتي في الغناء . وأخذنا الآن نتبارى ، صرت أرفع صوتي أكثر فأكثر ، وهي تتابع غنائي بعزفها ارتجالا ، وتزداد دهشة وحماسة ، ويزيد ذلك في حماستي أنا الأخرى .. حتى فرغنا ، فاذا هي من اعجابها تمسك يدي في تأثر قوي، وتنظر الىّ فرحة وهي تقول :

ـ آنيت .. آنيت . ان لك صوتا رائعـا ! رباه ! كيف أمكن أن لا ألحظ ذلك ؟

فأجبت وقد غمرني فرح شديد :

ـ لم أكن أعرف ذلك أنا الاخرى .

ـ ليباركك الله ، أيتها البنية التي لا تعرف الكبرياء ولا الزهو ! اشكري الله على ما أودع فيك من مواهب . من يدري ... آه ، رباه ! رباه !

كانت من شدة التأثر لهذا الاكتشاف غير المنتظر ، وكان فرحها من شدة الفيض ، بحيث لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تداعبني . كانت تلك لحظةً من صراحة تامة ، ومودة متبادلة ، وتقاربٍ بَعُدَ عهدنا به كثيرا، وما هي الا ساعة حتى كان البيت كله في عيد ، وأرسلوا يستدعون «ب» على الفور !

وفي انتظار وصوله ، فتحنا على غير هدى دفترا موسيقيا آخر أعرفه معرفة أتم ، لنجرب لحنا ثانيا . وكنت في هذه المرة أرتعد خجلا ووجلا. كنت أخاف أن أخفق فأفسد الأثر الأول .. لكن جرس صوتي سرعان ما طمأنني ورد الىّ شجاعتي ، وازدادت حيرتي ودهشتي من هذه القوة التي أملكها ، ولم يبق بعد هذه التجربة الثانية من شك . وطفح فرح

الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاستدعت ولديها ، بل واستدعت خادمتها . ثم طفحت حماســتها أكثر من ذلك فمضت الى زوجهــا فى حجرة عمله تستدعيه ـ وهو أمر ما كان لها أن تسمح لنفسها به فى الاحوال العادية !ـ وأحسن بطرس الكسندروفتش استقبال النبأ ، وهنـأنى ، وكان اول من قال ان علىّ أن أتلقى دروسا ، فشعرت الكسندرين ميخائيلوفنا من اقتراحه هذا بسعادة كبيرة ، بل قبلت يديه عرفانا بالجميل ، كما لو كان ينعم عليها هى بشىء !

وأخيرا وصل «ب» ، وكان يحبنى كثيرا ، فصرح بأنه سعيد بالنبأ ، وتحدث عن أبى وعن الماضى ، ثم بعد أن غنيت أمامه مرتين أو ثلاثا أعلن وقد لاحت فى وجهه علائم الهم أنى مؤهلة للغناء من غير شك ، واننى قد أكون موهوبة ، وان من الضرورى أن يثقف صوتى على كل حال . ثم كأن «ب» والكسندرين ميخائيلوفنا شعرا بأنهما أسرفا فى الثناء فبادرا الى القول بأن امتداحى على هذا النحو خطر جدا ، ورأيتهما فى الوقت نفسه يتغامزان خلسة ، فيفضحان بذلك تآمرهمــا علىّ ، وهــو تآمر مسرف فى الســـذاجة ، مسرف فى الخراقة على كل حال ، وظللت أتســلى بالنظر اليهما طوال السهرة ، وكانا بعد كل لحن جـــديد أغنيه يحــاولان أن يحبسا فرحهما ، ويتعمدان أن يعلنا جهارا بعض الملاحظات عن أخطائى .

لكنهما لم يستطيعا أن يلتزما هذا الموقف مدة طويلة ، وكان « ب » أول من فضح نفسه من فرط ما ظهر عليه من بشر وحبور ـ ولم أكن أتصور أنه يحمل لى كل هذه العاطفة ـ وجرى الحديث خــلال السهرة كلها وديا حارا . وقص علينا «ب» حياة بعض المغنين المشهورين ، فكان يقصها فى حماسة الفنان وقوة حبه وعمق عاطفته .. ثم ارتد الى أبى ، وتحدثنا عنى ، وعن طفــولتى ، وعن الامير وعن أسرة الامير ، التى لم

أسمع أحدا يتحدث عنها الا قليلا منذ مدة طويلة • ولم تكن الكسندرين ميخائيلوفنا نفسها تعرف من أنبائها الا النزر اليسير • وكان « ب » أكثر اطلاعا على شئونها لانه سافر الى موسكو عدة مرات • لكننا حين وصلنا من حديثنا الى هذا الموضع تلفع الكلام بأسرار وأحاجٍ فلم أفهمه ، ولا سيما ملاحظتان أو ثلاث تتعلق بالامير ، لم أستطع أن أدرك كنهها البتة ! •• واستفهمت الكسندرين ميخائيلوفنا عن « كاتيا » أيضا ، غير أن « ب » لم يستطع أن يقول بصددها أي شيء واضح ، حتى لقد بدا أنه يؤثر أن لا يقول شيئا !

وفجأني ذلك كثيرا • انني لم أنس حبي لكاتيا ، حتى لقد كنت لا أستطيع أن أتصور ــ لحظةً واحدة ــ أن قد طرأ على كاتيا أي تغير مهما يكن شأنه • لقد غاب عني حتى تلك اللحظة كل شيء : فراقنا ، والسنوات الطويلة التي قضيناها بعيدتين احدانا عن الاخرى دون أن نتكاتب ، واختلاف التربية ، واختلاف الطبع •• ولم تكن كاتيا قد بارحت خيالي أبدا • كانت لا تزال تعيش الى جانبي ، ففي أحلامي ، في رواياتي ، في مغامراتي الخيالية ، كنا نسير دائما جنبا الى جنب ، وقد تأبطت كل منا ذراع الاخرى • كنت اذا تخيلت نفسي بطلة الكتاب الذي أقرؤه سرعان ما أفسح لصديقتي الاميرة مكانا الى جانبي ، وسرعان ما تنقسم الرواية قسمين ، أحدهما من اختراعي !

والخلاصة : لقد قرر مجلس الاسرة استدعاء أستاذ يعلمني الغناء ، وأوصى « ب » بأستاذ هو أشهر الأساتذة وأقدرهم ، فما ان أتى اليوم التالي حتى حضر الينا الايطالي « د » ، فسمع غنائي ووافق على رأي صديقه «ب» ، ثم أضاف الى ذلك انني اذا ذهبت الى حضور دروسه مع تلامذته الأخرين كان ذلك أعود بالنفع عليَّ ، لأن التنافس هنالك سيحملني

على زيادة العناية بتثقيف صـــوتي ، كما ان المقـارنة بين أصوات كثيرة ستفيدني في اثراء صوتي • ووافقت السكندرين ميخائيلوفنا عـلى ذلك ، وصرت منذ ذلك الحـــين أذهب ثلاث مرات في الاســـبوع الى دروس (الكونسرفاتوار) ، تصحبني وصيفة •

والآن أريد أن أقص حادثا غريبا كان له في نفسي تأثير كبير ، بل كان فاتحة حياة جديدة • كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري ، وقد أصبت فجأة في ذلك الحين بنوع من تبلد الحس وخمود العاطفة ، لاسبيل الى دفعه • كنت أعاني ضربا من فراغ النفس رهيبا ، لا يطاق ولا يفهم • كان خيالي قد كبا ، وكانت وثباتي قد انطفأت ، وكانت أحلامي قد تبددت حتى لكأنني لا أستطيع أن أحلم ! وحل محل الحماســة القديمـة فتور شديد ، حتى ان موهبتي التي كان يعترف بها الجميع والتي كنت فخورة بها قد فقدت كل بريق ، وصرت أهملها دون أن أشعر من هذا الاهمـال بأي ندم • لم يبق ثمة شيء يشوقني أو يجـــذبني ، حتى ان السكندرين ميخائيلوفنا أصبحت لا تثير فيّ الا البرودة ، وكنت ألوم نفسي على ذلك ، سيما وانني لم أكن أستطيع الا أن ألاحظه • وكان تبلد شعوري مشـوبا بحزن لا علة له ، ونوباتٍ من البكاء مفاجئة • وصرت أنشـد الخلوة والوحدة •

في تلك الفترة هزني هذا الحادث الغريب الذي سأقصــــه الآن ، وقلب نفسي رأسا على عقب ، وأحال الخدر الى عاصفة • لقد جرح قلبي جرحا هائلا •• واليكم كيف تم ذلك :

الفصل الثامن

دخلت المكتبة ذات يوم (وتلك لحظة لن أنساها ماحييت) فتناولت رواية من تأليف « والتر سكوت » هي (مياه سان رونان) • انها الكتاب الوحيد الذى لم أقرأه بعده• مازلت أذكر أن نوعا من القلق المر كان كأنما يجعلنى أوجس أمرا • كانت بى رغبة فى البكاء • وكان النور فى الغرفة ساطعا بأشعة الشمس الغاربة التي تتدفق فى أرجاء الغرفة من النافذة العالية وتنعكس على البلاط المتلألى •• وكان يسود ثمة سكون تام • ما من مخلوق فى الغرف المجاورة •• كان بطرس الكسندروفتش غائبا عن البيت ، والسكندرين ميخائيلوفنا تعانى من آلام مرضها ، فهى تستريح فى سريرها •

وطفقت أبكى دون أن أستطيع حبس دموعى ، ثم فتحت الكتاب من نصفه الثانى وقلبت بضع صفحات على غير هدى ، كأنما أريد أن أحزر شيئا ما ، من نهايات الجمل التى تخطر أمام عينى • كنت كأننى أفتش عن نبوءة أو فأل ، كما يفعل بعض الناس حين يفتحون كتابا من الكتب على

غير هدى • ثمة لحظات يريد فيها المرء أن يوتر عقـــله وقواه الى أقصى حدود الالم ، حتى تنبجس المعرفة كشرارة ، فاذا بطيـوف من النبـوءة تجتاح النفس المرتعشة ، النفس القلقة لتنبؤها بالمصير الذى ينتظرها • ان كياننا كله ، وقد جرفه الظمأ الى الحياة بأى ثمن ، يستسلم عندئذ للأمل ، مهما يكن هذا الأمل أعمى ومهما يكن عنيفا ، وينادى المستقبل بكل مافيه من مجهول ومن سر ، يناديه أن يأتى ان صح التعبير ، يناديه ولو كان مشحونا بالعواصف والزوابع ، حسبه منه انه الحياة ••• كنت أجتاز لحظة من تلك اللحظات •

وطويت الكتاب ، ثم فتحته مرة أخرى مؤمّلة أن أقرأ مستقبلى فى الصفحة التالية التى تقع تحت بصرى عرضا •• فاذا أنا أرى فى داخله رسالة مطوية أربع طيات يظهر من شدة انضغاط حوافيها أنها نُسيت فى هذا الكتاب منذ مدة طويلة • نظرت الى الرســـالة فى كثـــير من حب الاستطلاع • كانت بلا عنوان ، مذيلة بهذا التوقيع : « س • و » ••• واشتد انتباهى • نشرت طيات الرسالة ، وكانت أشبه بالملتصقة ، مصفرة ، متهرئة ، وكان واضحا أن صـــاحبها قد قرأها وأعاد قراءتها مرارا ، ثم حفظها فى هذا المكان كما يحفظ كنز من الكنوز !

وكان الحبر قد شحب ، من بُعد عهد الكتابة ••• وقفزت الى عينى بضع كلمات ، فأخذ قلبى يخفق خفقانا قويا من شدة الانفعال • واضطربت اضطرابا شديدا ، فصرت أقلب الرسالة بين يدى دون أن أصمم على البدء بقراءتها • ونظرت اليها فجأة من خلال النور: نعم ! ان دموعا قد جفت على وريقاتها ••• وما زالت بقعهـــا فوق الورق ، بل ان بعض الكلمات قد أمحت بتأثيرها أو تشوهت • من عسى أن يكون ساكب هـذه الدموع ؟ وأخيرا قرأت نصف الصفحة الأولى ، فصعقت من فرط الدهشة وانطلقت

من صدرى صرخة • أعدت الكتاب الى مكانه • وأغلقت المكتبة ، ودسست الرسالة فى صدرى ، وعدوت الى غرفتى ألوذ بها لأستأنف القراءة • كان قلبى يدق دقا عنيفا حتى لقد كانت الكلمات تترنح وتتراقص أمام عينى • ولم أستطع أن أفهم الا بعد مدة طويلة •

ان هذه الرسالة تكشف لى عن السر الذى كان يقلقنى كثيرا •• ووقعت الرسالة من نفسى موقع الصاعقة ، لأننى حزرت صاحبها الذى وجهت اليه • كنت أعلم اننى بقراءة هذه الرسالة اقترف عملا سيئا ، الا أن الامر كان أقوى منى ، فلم أستطع أن أمنع نفسى عن قراءتها • كانت الرسالة موجهة الى ••• الكسندرين ميخائيلوفنا •

لسوف أنسخ لكم هذه الرسالة • كنت قد فهمت موضوعها فهما غامضا ، وبعد أن قرأتها ثم أعدت قراءتها لازمت فكرى بل حاصرته حصارا شديدا ، وكأن حياتى قد تحطمت منذ تلك اللحظة ، لأن هذه الرسالة كانت نبوءة حقا ، أدخلت الى قلبى الذعر والثورة الى أمد بعيد ، ان لم يكن الى الابد • لقد تطيرت من مستقبلى !

انها رسالة وداع ، رسالة تمزق القلب تمزيقا • وانقبض صدرى بعد أن قرأتها كأننى فقدت كل شىء ، كأنما انتُزع منى كل شىء ، حتى الحلم والرجاء ، كأنما لم يبق لى شىء على الاطلاق ، الا حياة عقيمة غير ذات جدوى !

تُرى من كاتبُ هذه الرسالة ؟ ان الرسالة تشتمل على تلميحات كثيرة ، على وقائع كثيرة ، فلا يمكن أن يُخدع المرء فى أمرها ، ولكنها تشتمل فى الوقت نفسه على ألغاز كثيرة ، حتى ليضيع المرء بصددها فى ظنون وتخمينات ! •• على اننى فهمتها فهما صائبا • كان الاسلوب وحده

يقول أشياء كثيرة عن قيمة العلاقات التى تحطمت فسحقت قلبين • ان أفكار كاتب هذه الرسالة وعواطفه معروضة عرضا واضحا ، انها أفكار وعواطف شخصية ، وهى كما قلت كافية لتكشف لى عن السر • ولكن اليكم نص هذه الرسالة ، نسخته كلمة كلمة :

« قلت انك لن تنسينى • وأنا أصدقك ، وسأعيش بعد الآن بهذا القول • يجب أن نفترق • لقد دقت ساعتنا ! ولقد كنت ، يا عزيزتى الرقيقية الحزينة ، أعرف ذلك منذ زمان طويل ، غير اننى لم أفهمه الا اليوم • طوال العهد الذى أحببتنى فيه ، كان قلبى ، رغم حبك ، قلقا معذبا فى كل لحظة • هل تصدقين اننى من شدة ما تألمت فى سبيل حبنا أشعر الآن بشىء من الراحة ؟ كنت أعرف منذ زمان طويل ان علاقاتنا ستنتهى لا محالة ، وان القطيعة قد كتبت علينا منذ البداية ! ذلك قدر محتوم •• اسمعى ، ياألكسندرين، اننا لم نكن متكافئين، لقد شعرت بذلك دائما ، دائما • لم أكن جديرا بك ، فعلىّ أن أتحمل وحدى اذن جزاء سعادتى الذاهبة ! قولى ، ماذا كنت قبل أن أعرفك ؟ رباه ! هاتان سنتان تنقضيان ، وما زلت الى الآن لا أستطيع أن أفهم لماذا أحببتنى أنت ! لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يقع شىء كهذا ؟!

« ما أنا اذا قورنت بك ؟ هل كنت جديرا بك ، حتى تلتفتى الىّ ، وحتى تختارينى ؟ لقد كنت رجلا فظا ، غليظا ، أخرق ، عبوسا • ولم أكن أصبو الى حياة أخرى ، لم تكن بى حاجة لا الى معرفة حياة أخرى ، ولا الى نداء حياة أخرى • كان كل شىء قد اختنق فى نفسى حتى كنت لا أرى فى الدنيا ما هو أهم شأنا من عملى اليومى الموحش •

« وكان قد بقى لى شاغل واحد ، هو الغد ، بل كنت لا أحفل حتى بهذا الأمر • وقبل ذلك الحين ، قبل ذلك الحين بمدة طويلة ، كنت استشف بعض الاشياء وأحلم كما يحلم غبى من الاغبياء • ولكن كان قد

انقضى على ذلك زمان طويل ، طويل جدا ، وأصبحت من الاستقرار في حياتى المنزوية الكالحة الهادئة بحيث لا أشعر حتى بالصقيع الذى يجلد قلبى . كان قلبى يغط فى نوم عميق . ثم قلت لنفسى انه لن تشرق على قلبى شمس .. كنت آؤمن بذلك ، ولا آتمرد عليـه ، لعلمى بأن الأمر يجب أن يكون على هذا النحو . وحين مررت بى ، لم أستطع أن أفهم أن فى وسعى أن أجرؤ على رفع بصرى اليك : كنت أمامك عبدا . ولم يخفق قلبى ، ولا انقبض ، ولا انجذب . لم تزد دقات قلبى قوة . ولم تعـرف روحى روحك ، وان أحسست بهذا الضوء الناعم يشع من آختها الرائعة .

« على ان احساسى هذا كان غامضا أصم . كنت قادرا على الشـعور به لأن آخر حشرة من الحشرات التى يغرقها نور الشمس تشعر بالدفء والدغدغة مثلما تشعر به الزهرة المتألقة التى تحتمى بها الحشرة ! ... وحين فهمت كل شىء فى ذلك المساء ، بعد الاقـوال التى هزت أعمـق أعماق نفسى ، عميت عيناى ، وطاش صوابى ، هل تذكرين ؟ ودار فى نفسى كل شىء ، وبلغ انفعالى من القوة أن اعتقـدت أننى لا أفهـم ، هل تعلمين ؟ لم أحدثك عن شىء من هذا فى يوم من الايام ، ولم تعرفى عنه شيئا البتة . لست الآن ماكنته قبل أن أعرفك . ولو قد استطعت أن أحدثك، لو قد جرؤت أن أحدثك ، لاعترفت لك بهذا كله منذ زمان طويل . غير اننى سكت ، واذا كنت أقول لك ذلك الآن ، فلكى تعرفى من هذا الذى تتركين ، من هذا الرجل الذى تفارقين !

« هل تعلمين متى بدأت أفهمك ؟ لقد ألهبنى الهوى كالنار ، نفذ الى دمى كالسهم ، وهز قلبى ورأسى جميعا . كنت سكرانا ، كنت مشلولا ، كنت مخـــدرا ، فلم أزد على أن أستجيب لحبك النقى ، لحبك الرءوف الحنون الرحيم ، دون أن أشعر أننى كفء لك ، دون أن أكون جـديرا

بك • كنت لا أعـرفك ، وأستجيب لك اسـتجابتى لمن كانت فى نظـرى تهبط الى ، لا استجابتى لمن كانت تريد أن ترتفع بى اليها • هل تعلمين ماذا ظننت فيك ، وماذا تعنى هذه الكلمة : الهبوط الى ؟ ولكن لا ، لا أريد أن أسيء اليك باعتراف كهذا • على أننى أحب أن أؤكد لك شيئا : لقـد خدعت في أمرى كثيرا ، فما كان يمكن أن أرقى اليك فى يوم من الأيام• وبعـد أن فهمتك ، أصـبحت لا أستطيع الا أن أتأملك ، أنت التى كنت لا أستطيع أن أرتفع اليك ، والتى أحببتنى هذا الحب القوى •

« غير أن ذلك لا يكفر عن خطئى • ان حبى الذى شرف بك لم يكن حبا • كنت أخشى الحب ، وما كان لى أن أبيح لنفسى أن أحبك • لأن الحب يقوم على وصال روحى لست جديرا به ، وعلى مساواة لست أهلا لها ! •• كنت أجهل ما بنفسى ! أواه ! كيف أقول هـذه الأشياء ، كيف أفهمك اياها ؟ فى أول الامر لم أستطع أن أصدق ••• آه ! هـل تذكرين ، بعد هدأة الانفعال الاول ، حين استطاعت عيناى المضطربتان ان تريا رؤية واضحة • هل تذكرين كيف ان شعورى الاول عنـدئذ كان دهشة وحيرة وهلعا ، وكيف اننى ارتميت على قدميك أشهق وأنتحب ؟ هل تذكرين كيف انك سألتنى ، مرتاعة ، عما بى ؟ لقد سكت يومئـذ ، لأننى كنت لا أستطيع أن أجيبك • كانت السعادة قد مزقت نفسى • كانت السعادة تسحقنى سحقا كحمل ثقيل • وكانت دموعى تقول لى : « عـلام وهب لى كل هذا ؟ فيم أستحقه ؟ كيف أكون أهلا لمثل هذه السعادة ؟

« أختاه •• يا أختى العزيزة ، يا أختى الحبيبة ••• آه •• كم مرة قلبت ثوبك خفية ، دون أن يدور ذلك فى خلدك ، لعلمى بأننى غـير خليق بك ! وكانت أنفاسى تختنق ، وكان قلبى يأخذ فى خفقان بطيء • كان يدق دقات قوية صماء ، كأنه يوشك أن يتوقف الى الابد • وكنت

حين أمسك يديك ، أشحب وأرتجف ، لأن صفاء روحك كان يخجلني ويرهبني ! أواه • انني عاجز عن أن أقول لك كل ما تجمع في قلبي ، كل ما كنت أود أن أعبر لك عنه • هل تعلمين أن حنانك ورقتك الدائمة كانا يؤلماني ؟ حين قبلتني (ولقد حدث هذا مرة لن أنساها ما حييت) شعرت بضباب يغشى عيني ، وشعرت بنفسي كلها تذوب دفعة واحدة ! •• لماذا لم أمت في تلك اللحظة على قدميك ؟ ترين أنني أخاطبك الآن بصيغة المفرد ، لأول مرة ، رغم أنك طلبت الي ذلك منذ زمان طويل • هل تفهمين ماذا أعني بذلك ؟ •• انني أريد أن أقول لك كل شيء ، وسأقول لك كل شيء : نعم ، انك تحبينني كثيرا ، تحبينني كما تحب أخت أخاها ، وتحبينني كما يحب خالق مخلوقه ، لأنك أحييت قلبي : لأنك أنقذت روحي من خدرها ، لأنك غرست في صدري أملا عذبا ، أما أنا فلم أستطع ، لم أجرؤ • انني حتى الآن لم أستطع أن أناديك يا أختاه ، لأنني لا أقدر أن أكون أخاك ، لأنني لست كفئا لك ، لأنك خدعت في أمري !

« ترين انني لا أتحدث الا عن نفسي • حتى في هذه اللحظة التي أعاني فيها شقاء فظيعا ، لا أفكر الا في نفسي ، رغم علمي بأنك تتعذبين قلقة على مصيري • آه • لا تتعذبي من أجلي ، يا صديقتي الحنون • هل تعلمين الى أي حد أشعر بالصغار في نظر نفسي ؟ لقد اكتشف كل شيء وأثير حوله صخب كثير ! •• ولسوف ينبذونك بسببي ، لسوف يغرقونك بالاحتقار ، لسوف يسخرون منك ، لأنني في نظرهم مخلوق حقير جدا ! •• أواه ! •• ما أكبر جريمتي لأنني لم أكن جديرا بك ! •• لو قد كنت أخطر منزلة ، لو قد استحققت الاحترام على نحو ما يفهمونه ، لو قد كنت شخصية في نظرهم ، اذن لغفروا لك ! ••• ولكنني امرؤ نكرة لا قيمة له البتة ، امرؤ مضحك ، وهل أسوأ من أن يكون المرء مضحكا ؟

« وفي الواقع ، من هم الذين استنكروا ونادوا بالويل والثبور ؟ ..
ولان أمثال هؤلاء الناس استنكروا ، فقدت أنا صوابي . لقد كنت دائما رجلا ضعيفا . هل تعلمين في أية حال أنا الآن ؟ .. انني أسخر من نفسي ، ويلوح لى انهم على حق ، اذ لا يمكن الا أن أكون مضحكا وكريها .. انني أشعر بذلك . انني أكره وجهي ، أكره كياني كله ، أكره عاداتي التي ليس فيها شيء من اللباقة واللطف . ولقد كرهتها دائما . أواه ! اغفري لى يأسي الفظ . لقد علمتني أن أقول لك كل شيء . ولقد فقدتك الآن ، وجلبت لك السخط والقهقهات الساخرة . لأنني لم أكن جديرا بك .

« ان هذه الفكرة تعذبني . انها تدور في رأسي بلا توقف ، انها تضنيني وتسمم قلبي . يتراءى لى دائما انك لم تحبي الا الرجل الذى حسبت انك ترينه فيّ .. يتراءى لى دائما انك ُخدعت في أمرى . ذلك ما يؤلمني ، ذلك ما يعذبني حتى ليكاد يميتني ، ذلك ما ُيطيش لبي ويفقدني عقلي ، ويجعلني أشبه بمجنون !

« وداعا ، اذن . وداعا . الآن وقد عرفوا كل شيء .. الآن وقد صرخوا ما شاء لهم الصراخ ، وأنبوا ما شاء لهم التأنيب (سمعتهم يفعلون !) .. الآن وقد صغرت في نظر نفسي .. الآن وقد شعرت بالعار يجللني ، وشعرت بالعار يلطخك أيضا لأنك اخترتني .. الآن وقد لعنت نفسي ، فقد وجب عليّ أن أهرب ، أن أختفي ، لأوفر لك الهدوء . لن تريني بعد الآن أبدا ، أبدا . يجب أن أختفي ، ان القدر يأمر بذلك ! .. لقد وهب لى القدر أكثر مما أستحق . لقد أخطأ القدر ، وها هو يتلافى الآن خطيئته ويسترد كل شيء . لقد تقاربنا وعرف كل منا الآخر ، وها نحن الآن ننفصل الى لقاء آتٍ .. ُترى أين يكون هذا اللقاء الآتي ، ومتى يكون ؟

•• آه ! قولى لى ، يا حبيبة ، أين عسانا نلتقى ؟ •• أين ينبغى أن أمضى باحثا عنك ، وهل أعرفك اذا لقيتك ، وهل تعرفيننى اذا لقيتنى ؟ •• ان روحى كلها ملآى بك ، أواه ! لم هذا العقاب ؟ •• لماذا ننفصل ؟ قولى لى ـ فانى لا أفهم لأننى أصبحت لا أدرك شيئا ـ قولى لى كيف يمزق المـرء حياته جزئين ؟ •• كيف ينتزع قلبه من صدره ، كيف يعيش بلا قلب ؟ آه •• لا أستطيع أن أتصور اننى لن أراك بعد اليوم أبدا ، أبدا أبدا !

« رباه •• ما أشد ما صرخوا ! •• لكم أخاف عليك الآن ! •• لقد لقيت زوجك منذ قليل • اننا كلينا غير جديرين به ، رغم اننا لم نجرم فى حقه • انه يعرف كل شىء • لقد رآنا ، وانه ليفهم كل شىء • منذ مدة طويلة أصبح كل شىء واضحا أمام باصرته وضوح النهار • لقد دافع عنك دفاع البطل ، وسينقذك • سيخلصك من هذه المناقشات ومن هـذه الصرخات ، انه يحبك كثيرا ويقدرك كثيرا • هو ينقذك وأنا أهرب ! •• لقد ارتميت عليه أريد أن أقبل يده •• فطلب الىّ أن أمضى على الفور ، ونفذت الأمر • يقال انه قد تخاصم معهم بسببك • جميعهم هناك ضدّك• حتى لقد اتهموه بالمجاراة والضعف • يا الهى ! ما عساهم قائلين أيضـا ؟ انهم لا يعرفون ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا ، انهم عاجزون عن الفهم ! سامحيهم يا عزيزتى المسكينة ، كما أسامحهم أنا ، انهم قد اضطهدونى أكثر منك بكثير ••

« لم أعد أفهم ، لم أعد أعرف ماذا أكتب اليك • ماذا قلت لك أمس مودّعا ؟ •• لقد نسيت • كنت خارجا عن طورى •• وكنت تبكين ••• اغفرى لى هذه الدموع •• اننى ضعيف • اننى جبان !

« كنت أريد أن أقول لك شيئا آخر أيضا • آه ! ليتنى أستطيع مرة أخرى أن أغرق يديك بالدموع كما أغرق هذه الرسالة فى هذه اللحظة !

.. ليتنى أستطيع أن أجثو مرة أخرى عند قدميك . آه ! .. ليتهم يعلمون شيئا عن جمال عاطفتك ! .. لكنهم عمى وليس فى قلوبهم الا الزهـو والـكبرياء .. انهم لا يرون ، ولن يروا ابدا ! .. انهم عاجـزون عن ذلك ! لن يصدقوا انك بريئة طاهرة ولو أتى أهل الارض جميعا يعلنون ذلك أمام محكمتهم ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا شـيئا . أية أحجار سيرجمونك بها أيضا ؟ .. أية ذراع سترفع حجرا قبل الجميع ؟ ... آه ، انهم لن يخجلوا ، سيرفعون ألف حجر ! .. سيجرؤون عـلى رفع الاحجار ، لأنهم يعرفون معنى ذلك : سيرفعون أحجارهم جميعا فى وقت واحد ، وسيقولون انهم يتحملون تبعة ذلك لأنهم بلا خطيئة ! .. آه ليتهم علمـوا ماذا يفعـلون ! .. ليت فى الامـكان أن يروى لهم كل شيء بلا اكراه ، عسى أن يروا ويسمعوا ويفهموا ويصدقوا ! ولكن لا ، انهم ليسوا أشرارا الى هذا الحد .. لعلنى أقول فيهم سوءا لأننى فى حالة من الانهيار واليأس . ولعل مخاوفى أن تولد فيك شيئا من الهلع .. فلا تخشـيهم ، ولا تخشى شيئا ، يا حبيبتى . سيفهمونك . ألم يفهمك واحد منهم ؟ نعم. انه زوجك فلا تقطعى الرجاء .

« وداعا ، وداعا . ولا أقول لك شكرا ، وانما أقول لك وداعا .. الى الأبد .

س . و

◆◆◆

بلغت من الاضطراب ـ على اثر قراءتى الرسالة ـ اننى ظللت مدة طويلة لا أعى ما حدث لى . كنت مذعـورة منهـارة فى آن واحد . ان الواقع يدخل فجأة فى هذه الحياة الغنية الحالمة التى عشتها منـذ ثلاث سنوات . أدركت ـهلعةـ اننى أقبض على سر خطير ، وان هـذا السر

يربط منــذ الآن كل وجــودى •• كيف ؟ لا أدرى ، ولكننى كنت على يقين من ان مستقبلى يبدأ بهذه اللحظة نفسها • أصبح لا بد لى الآن ، رغما عنى ، من أن أشارك مشاركة وثيقة فى حياة وعلاقات هؤلاء الذين كانوا الى ذلك الحين عالمى كله •

وتملكنى الخوف : كيف أدخل فى صميم حياتهم ، أنا التى لم أدع الى ذلك ، أنا الغريبة ؟ •• ماذا عسى أن أحمل لهم ؟ •• وكيف يمكن أن تنحل هذه الروابط التى ربطتنى بسرّ غيرى على حين فجأة ؟ •• أين السبيل الى معرفة ذلك ؟ •• لعل دورى الجديد أن يربكنى ويربكهم معا؟ •• لست أستطيع أن أسكت ، وأن أمتنع عن الدور الذى عين لى ، وأن أحبس ما اكتشفته فى أعماق قلبى الى الأبد • وما مصيرى فى هذا كله ؟ •• ماذا أعمل ؟ •• ثم ماذا يعنى هذا الذى اكتشفته ؟ •• ألف سـؤال غامض مبهم انتصب أيضا أمام عينى ، وألقى بثقله الرهيب على صدرى ، حتى أصبحت كالتائهة •

وأذكر أن قد مرت بى لحظات أخرى تحمل الىّ احساسات جديدة، غريبة ، لا عهد لى بها من قبل • ان شيئا ما قد انتزع من صدرى : زال قلقى القديم دفعة واحدة ، ليحل محله قلق آخر لا أعرف معناه • كنت لا أدرى هل ينبغى أن يحزننى ذلك أم ينبغى أن يسرنى • كنت فى تلك اللحظة أشعر شعور من يهجر بيته الى الابد ، شعور من يدع حياة كانت الى ذلك الحين هادئة مطمئنة ، ليغامر فى رحلة بعيدة الى بلد مجهـول ، فاذا هو ، وقد انقبض صدره قلقا واستشعر أن مستقبله فى هذه الطـريق التى يتوغل فيها قد يكون سيئا ، يلقى نظرة أخيرة على ما حوله ويودع فى فكره ماضيه الذى كان• وأخيرا مزقت صدرى شهقات عنيفة متشنجة،

وبلغت من انقباض القلب انني شعرت بحاجة قوية الى أن أرى أحدا ، الى أن أسمع أحدا ، الى أن أقبّل أحدا قبلة عنيفة ..

لم أعد أستطيع أن أبقى وحيدة ، لم أعد أريد أن أبقى وحيدة . فهرعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وقضيت الى جانبها السهرة كلها . كنا وحدنا . ورجوتها أن لا تجلس الى البيانو ، وأن لا تطلب الىّ الغناء . كان كل شيء يشق على نفسي . وكنت عاجزة عن تركيز فكرى في أى شيء . واظن اننا بكينا معا . الا انني أذكر انني أخفتها كثيرا . فكانت تتوسل الىّ أن أهدىء روعى وأن لاأكون مضطربة هذا الاضطراب كله .. وكانت تراقبنى في قلق هائل ، وهي تردد انني مريضة من غيرشك ، وانني لا أعتنى بنفسي . وآخيرا تركتها وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، كنت في حالة من الهذيان الحقيقى ، ثم نمت بعد أن انتابتني حمي شديدة .

◆◆◆

وانقضت أيام عديدة قبل أن أصبح قادرة على أن أسترد هدوئى ، وعلى أن أنظر الى الموقف نظرة واضحة . كنا نعيش عندئذ ، أنا والكسندرين ميخائيلوفنا ، في عزلة تامة . ذلك أن بطرس الكسندروفتش لم يكن في بطرسبرج ، فقد سافر الى موسكو استجابةً لنداء أعماله، وكان عليه أن يقضى هناك ثلاثة أسابيع . ورغم أن هذا البعاد كان قصيرا جدا ، فقد حزنت له الكسندرين ميخائيلوفنا حزنا هائلا .. وكانت تهدأ في بعض الاحيان ، ولكنها تعتزلنى ، كأن وجودى أصبح عبئا عليها ! .. ثم انني كنت أنشد العزلة أنا الاخرى . كان ذهني يعمل في نوع من الضباب الخانق ، وهو متوتر توترا مرضيا . كان يتفق لى أن أبقى ساعتين طويلتين في هذا الهمّ المؤلم ، وكان يخيل الىّ أثناء ذلك كأنني أسمع أحدا يسخر منى بصوت خافت ، وأشعر باضطراب ينفذ الى نفسي ويشوش كل

أفكاري . وأصبحت لا أستطيع خلاصا من صور تحاصر شعوري ولا تدع لي راحة ..

كنت أتصور هذا الألم الطويل الذى لا مخرج منه ولا نهاية له . كنت أتصور هذا الخوف ، وهذا القلق ، وهذه التضحية تقبلها الكسندرين ميخائيلوفنا ذليلة دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تنبس بكلمة ! ... وكنت أرى أن هذه التضحية عبث لا طائل تحته ولا جدوى منه . كان يبدو لى أن الشخص الذى تتألم الكسندرين ميخائيلوفنا من أجله يحتقرها ويصب عليها اللعنات .. كنت أرى مجرما يغفر خطايا برىء ، وكان ذلك يمزق قلبى تمزيقا ! وكنت أود في الوقت نفسه ، من أعماق قلبى ، لو أستطيع أن أتحاشى هذه الشكوك .. كنت ألعن هذا الرجل ، وأمقت نفسى ، لأن افتراضاتى لم تكن الا تخمينا ، ولأن ضميرى كان لا يستطيع أن يبرر مشاعرى . ثم أخذت أحلل بعض عبارات الرسالة ، وهذه الصرخات الواعية الرهيبة . وأخذت أتصور ذلك الرجل الذى لم يكن كفئا . حاولت أن أحزر كل ما فى هذه الكلمة من معنى فظيع . وكان هذا الوداع اليائس يعذبني : « شعرت بالعار يجللنى، وشعرت بعار يلطخك أيضا ، لأنك اخترتنى ! » .. من كان ذلك الرجل ؟ .. ومم كان يتألم هذان المخلوقان ؟ .. ماذا كان يعذبهما ؟ .. ماذا فقدا ؟ .. وكنت أهدىء من روعى وأعود فأقرأ الرسالة في انتباه ، فتتمزق نفسى يأسا . وأحار فى فهمها ، ثم تسقط الرسالة من بين يدى ، وقد تقبض قلبى أكثر فأكثر ، وتملكنى انفعال خانق .. والخلاصة : كان لا بد لهذا كله من أن ينحل على نحو من الأنحاء ، ولكننى لم أر منه مخرجا ، فكان ذلك يخيفنى !

وذات يوم ، وكنت مريضة جدا ، جلجلت فى مدخل البيت أصوات عربة بطرس الكسندروفتش ـ وكان عائدا من رحلته الى موسكو ـ

فانطلقت من صدر الكسندرين ميخائيلوفنا صرخة فرح ، وبقيت أنا في مكاني كالمتجمدة . أذكر انني دهشت الى حد الذعر من انفعالي المباغت . ولم أستطع أن أملك زمام نفسي ، فهرعت الى غرفتي . لم أفهم شيئا من هذا الخوف الذي غشيني فجأة ، ولكنني كنت خائفة من هذا الخوف ! . وبعد ربع ساعة استدعوني ، وسلموني رسالة من الامير . ورأيت في القاعة رجلا لا أعرفه جاء مع بطرس الكسندروفتش من موسكو ، وعرفت من بضع كلمات أدركتها ادراكا خاطفا انه سيقيم بيننا مدة طويلة .

كان ذلك الشخص هو وكيل الامير ، جاء الى بطرسبرج لينهي بعض الاعمال الهامة التي تتعلق بالأسرة والتي كان يسعى فيها بطرس الكسندروفتش منذ مدة طويلة . أعطاني الوكيل الرسالة وذكر لي أن الاميرة الصغيرة ـ كاتيا ـ كانت تنوي أن تكتب اليّ أيضا ، وانها ظلت تؤكد له حتى آخر دقيقة انها تهيىء هذه الرسالة ، الا انها تركته يمضي أخيرا خالي اليدين ، وهي ترجوه أن يبلغني أنه ليس هناك في الواقع أي شيء تريد أن تكتبه اليّ ، وان كتابة رسالة لا تعني شيئا ، وانها سوّدت خمس صفحات ثم مزقتها ، وانه لا بد أولا من أن تنعقد صداقتنا مرة أخرى حتى نستطيع أن نتكاتب . ثم كلفته أن يعدني بأنني سألقاها في القريب !

وأجاب هذا الشخص المجهول على أسئلتي الملحاحة بأن نبأ اللقاء القريب نبأ صحيح في الواقع ، لأن أسرة الامير تنوي العودة الى بطرسبرج . وقد بلغت من فرحي لسماع هذا الكلام انني لم أستطع أن أملك نفسي ، فهرعت الى غرفتي ، وأغلقت عليّ الباب ، ثم فضضت كتاب الامير والدموع تنهمر من عيني . ان الامير يبشرني في رسالته هذه بأنه سيراني قريبا مع كاتيا ، وهو يهنئني على موهبتي تهنئة حارة ، ويثني على

المستقبل اللامع الذى ينتظرنى ، ويؤكد لى رعايته وحمايته . وقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة ، الا أن عذوبة دموعى هذه كانت مشوبة دائما بمرارة القلق الهائل الذى يثوى فى قرارة نفسى . لم أكن أفهم من حالتى هذه شيئا ، عدا اننى خائفة من نفسى !

* * *

وانقضت على ذلك أيام . وفى الغرفة التى تجاور غرفتى ، أعنى الغرفة التى كان يقيم فيها سابقا سكرتير بطرس الكسندروفتش ، كان القادم الجديد يعمل فى كل صباح ، وكثيرا ما كان يعمل أيضا فى المساء الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل . وكان فى كثير من الاحيان ينتقل الى حجرة بطرس الكسندروفتش ، فيخلو الاثنان يعملان معا ..

وذات مساء ، بعد العشاء ، رجتنى الكسندرين ميخائيلوفنا أن أمضى الى زوجها فى حجرة عمله أسأله هل يجب أن يتناول الشاى معنا . فلما لم أجد أحدا فى هذه الحجرة اعتقدت أن بطرس الكسندروفتش لا بد عائد اليها من دقيقة الى أخرى ، فلبثت هنالك أنتظر أوبته . كانت صورته معلقة على الحائط . وأذكر اننى ارتعدت فجأة حين نظرت الى الصورة ، ثم حدقت فيها طويلا وقد تملكنى انفعال لا أفهم كنهه . كانت الصورة عالية . ولما كانت الغرفة مظلمة بعض الشىء ، وكنت أود أن أرى الصورة عن كثب ، فقد اعتليت من أجل ذلك ظهر كرسى . كنت فى حاجة لأن أنعم النظر فى هذه الصورة وأن أفحصها فحصا ، كأنما كنت آمل أن أجد فيها جوابا على شكوكى ، والواقع أن العينين فى هذه الصورة قد هزتانى فجأة ، ولم أكن قد رأيتهما من قبل ، لأنهما كانتا مختبئتين دائما وراء النظارتين .

أذكر اننى لم أكن أحب نظرة هذا الرجل منذ كنت طفلة ، يحملنى

على ذلك نوع من التنبؤ الغريب لا يُفهم . وقد جاء الواقع الآن يؤيد نبوءتي ويبررها . وأخذ خيـالي يسرح ويمرح ، فاذا أنا أرى عيني الصورة تشيحان عن نظرتي الحادة وجلتين ، تحاولان أن تهربا منها ، وخيل الى أنني لا أرى فيهما الا الـكذب والخـداع ، وبلغت من قوة اعتقادي بأنني أنفذ الى سرهما أنه تملكني فرح عظيم لا يمكن وصفه . وانطلقت من صدري صرخة . وفي هذه اللحظة سمعت ضجة خفيفة ورائي .. فالتفت فاذا أنا أمام بطرس الكسندروفتش وجها لوجه ، وكان يتأملني في انتباه شديد . وخيل الىَّ انه احمر فجأة ، فاحمررت أنا أيضـا ، وقفزت أهبط من فوق الكرسي .

سألني بلهجة قاسية :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ لماذا ارتقيت الكرسي ؟

ولم أعرف في أول الامر ماذا أقول . ولكنني ثبت الى نفسي ونقلت اليه ـ على نحو ما استطعت ـ دعوة الكسندرين ميخائيلوفنا . لا أذكر الآن بم أجاب ، ولا كيف خرجت من حجرة عمله ، وانما أذكر انني حـين رجعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا كنت قد نسيت تماما الجـواب الـذي تنتظره ، فقلت لها على غير هدى ان زوجها آت .

فهتفت قائلة :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟ ما لوجهك أحمر شديد الحمرة ؟ انظرى الى وجهك في المرآة . ماذا بك ؟

فدمدمت :

ـ لا أدرى .. لقد جريت مسرعة جدا ..

واستأنفت كلامها قلقة :

ـ ماذا قال لك بطرس الكسندروفتش ؟

لم أجب • وفي تلك اللحظة سمعت وقع أقدام بطرس الكسندروفتش فهرولت خارجة من الغرفة • وانتظرت ساعتين طويلتين وأنا أشد ماأكون قلقا • وأخيرا جاءنى من يقول ان الكسندرين ميخائيلوفنا تطلبنى • فمضيت اليها ، فألفيتها صامتة قد لاح على محياها انشغال البال • وحين دخلت ، غرست فى نظرة سريعة ، فاحصة ، ثم لم تلبث أن غضت من طرفها • كان نوع من الانزعاج يشع في وجهها • وسرعان ما أدركت أنها معكرة المزاج جدا ، فهى تتكلم قليلا ، وتتحاشى أن تنظر الى ، وتجيب على الأسئلة الرقيقة التى يوجهها اليها « ب » ، وكان مظهرها يوحى بأنها تشعر بصداع • وكان بطرس الكسندروفتش أكثر انطلاقا مما عهدت فيه ، الا انه كان لا يتجه بالكلام الا الى « ب » •

ونهضت الكسندرين ميخائيلوفنا الى البيانو ذاهلة ، وقالت وقد سرت كثيرا لهذه التسلية التى خطرت على بالها :

ـ نعم ، يا آنيت ، غنى لنا أغنيتك الجديدة •

نظرت اليها ، فاذا هى تتأملنى فى انتباه قلق •

ولكننى لم أستطع أن أضبط نفسى ، فبدلا من أن أقترب من البيانو ، وأن أغنى ، ظللت واقفة فى مكانى ، مضطربة ، مرتبكة ؛ لا أدرى كيف أخرج من هذا الموقف • ثم ازداد حرجى ، فرفضت أن أغنى رفضا باتا !

فسألتنى ألكسندرين ميخائيلوفنا ، وهى تحدق فى ، ثم تلقى على زوجها نظرة مختلسة :

ـ لماذا لا تريدين ؟

وضاعفت هذه النظرة المزدوجة اضطرابَ أعصابى ، فنهضت عن الطاولة وقد اعترتني هزة شديدة لم أستطع كتمانها . كنت أرتعد ارتعادا شديدا . وضاق صدرى حتى لم أعد أطيق الاحتمال ، فأجبت بصوت متهدج بأنني لا أريد أن أغنى لأنني لا أستطيع الغناء . وقلت انني أشعر بأنني مريضة ، قلت ذلك ونظرت الى عيونهم جميعا . يعلم الله ما كان أشد رغبتي حينذاك في أن أكون وحيدة ، بعيدة عنهم ، في غياهب غرفتي ..

ولاحت في وجه « ب » دهشة شديدة . أما ألكسندرين ميخائيلوفنا فقد بدا عليها الاضطراب ، غير انها لم تحتج . وأما بطرس الكسندروفتش فقد تجهم وجهه ، ونهض فجأة عن كرسيه قائلا انه نسى أمرا مستعجلا من أمور أعماله ، وخرج مسرعا وهو يعد بأن يرجع بعد قليل ان استطاع . الا انه صافح « ب » مودعا على سبيل الاحتياط ، خشية أن لا يستطيع الرجوع !

وسرعان ما سألني « ب » :

ـ ولكن ماذا بك ؟ ان المرض يلوح في وجهك حقا !

قلت وقد فرغ صبرى :

ـ انني متعبة جدا ، انني مريضة جدا .

ـ أصدقك . ان وجهك شاحب ، ومنذ هنيهة كان أحمر شديد الحمرة .

قالت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ، ثم صمتت فجأة فهتفت وأنا أتقدم نحوها وأرمقها بنظرة ثاقبة :

ـ أوه ! كفى ..

لم تستطع المسكينة أن تحتمل نظرتى ، فغضت طرفها كمن ضبط متلبسا بالخطيئة ، بينما تخضبت وجنتاها الشاحبتان ببقع حمراء خفيفة .. فتناولت يدها وقبلتها .. وتركتنى أفعل ذلك وهى تنظر الىّ بفرح صادق ساذج :

ـ اغفرى لى اننى كنت اليوم طفلة صغيرة سيئة . ولكنني أؤكد لك انني مريضة . لا تغضبى . دعينى أذهب .

قلت ذلك منفعلة .

فأجابت قائلة :

ـ اننا جميعا أطفال !

ثم همست فى أذنى :

ـ أنا أيضا طفلة ، طفلة أكثر منك بكثير . الى اللقاء . وأتمنى لك الابلال من مرضك . ولكننى أناشدك الله أن لا تؤاخذينى .

فقلت وقد هزنى رجاؤها الساذج هزا قويا :

ـ أؤاخذك ؟ لماذا ؟

فتملكها اضطراب رهيب ، كأنما هى تخاف نفسها فجأة ، وكررت سؤالى قائلة :

ـ لماذا ؟

ثم أضافت :

ـ انك ترين حالتى يا نيتوتشكا ! ماذا قلت لك ؟ الى اللقاء . أنت أذكى منى . اننى أقل فطنة من طفلة صغيرة !

فقلت وقد تأثرت تأثرا شديدا ، دون أن أعرف ماذا أقول :

ـ أوه . بربك اصمتي !

ثم قبلت يدها مرة أخرى وانسحبت .

* * *

وتملكني أسف شديد وقلق عنيف ، وأنا أؤاخذ نفسي على انني لم أكن حكيمة حذرة ولم أحسن التصرف . كنت أشعر بخجل شديد يغريني بالبكاء . ثم نمت وأنا فيما أنا فيه من حزن مبرح ..

وحين استيقظت في صباح اليوم التالي كان أول ما تبادر الى ذهني هو أن ليلة البارحة كانت حلما مزعجا ، كانت سرابا .. لقد تهالكنا على أمور تافهة فأخذناها مأخذ الجد ، وذلك كله يرجع الى خراقتنا ، الى اننا لم نتعود التغلب على المؤثرات الخارجية . قلت لنفسي ان الآفة كلها ترجع الى تلك الرسالة ، انها تحتل من فكري مكانا كبيرا جدا ، وترهق خيالي الى حد الافراط ، فرأيت من الأفضل أن أدعها جانبا . وما ان عزمت أمري على ذلك حتى شعرت بقلقي يخف ؛ وحين أيقنت أن في وسعي أن التزم قراري بسهولة ، مضيت الى حضور درس الغناء في طمأنينة وفرح .

وأعانت طراوة الصباح على تهدئة أعصابي . كنت أحب كثيرا هذه الرحلة الصباحية الى أستاذي . لقد كان يمتعني جدا أن أجتاز المدينة وهي تستعيد نشاطها المألوف في تلك الساعة ، الساعة التاسعة من الصباح . كنا نمر عادة بشوارع صاخبة جدا ، وكان مظهر هذه الشوارع يلفت نظري ، ولا سيما هذا التناقض الذي أحسه بين تفاصيل الحياة اليومية وبين الفن الذي ينتظرني على بعد خطوتين ، في الطابق الثاني من بناية كبيرة ،

يشغلها من أسفلها الى أعلاها سكان لعلهم لا يهتمون البتة بالموسيقى. كنت أمضي الى درسي مارة بين هؤلاء الناس المنهمكين في أعمالهم ، متأبطة دفتر الموسيقى ، بينما كانت « ناتاليا » العجوز التي تصحبني تحملني ، دون أن تشعر بذلك ، على أن أتساءل : ترى فيم تفكر ؟ وكنت أطرح هذا السؤال على نفسي بصدد أستاذي أيضا ، وهو رجل طيب ، بسيط ، لا هو بالايطالي ولا هو بالفرنسي ، بل هو بين بين ، ترفعه أجنحة الحماسة في بعض اللحظات ، ولكنه في الأغلب دعي ، وهو قبل هذا بخيل . وكان ذلك كله يسليني : يضحكني تارة ، ويحملني على التأمل والتفكير تارة أخرى . وكنت من جهة أخرى أحب فني ، أحبه في خجل ، وأحبه في رجاء قوي يجعلني « أبني آلاف القصور في أسبانيا » ، وأتخيل لنفسي مستقبلا رائعا مشرق الألوان ، فكنت أعود الى البيت دائما وقد امتلأت نفسي حماسة ونشاطا ..

وقد كنت في مثل هذه الحالة من الحماسة حين رجعت من درسي الى البيت في الساعة العاشرة . كنت قد نسيت همي ، واسترسلت في أحلام فرحة . الا انني انتفضت فجأة على السلم انتفاضة من لدغته نار ، اذ سمعت صوت بطرس الكسندروفتش الذي يهبط السلم يرن من فوقي. فانتابني لدى سماع هذا الصوت شعور مزعج .. وعادت ذكرى حوادث البارحة الى نفسي قوية واضحة ، حتى لم أستطع أن أخفي قلقي ، وانحنيت له انحناءة خفيفة .. لا شك أن وجهي كان في تلك اللحظة معبرا جدا ، اذ توقف بطرس الكسندروفتش دهشا ، فاحمر وجهي من الانفعال ، وتابعت صعودي وأنا أكاد أركض .. بينما دمدم هو ببضع كلمات ورائي، ثم استأنف هبوطه ..

كنت على وشك أن أبكي من شدة الاضطراب ، وأنا لا أفهم ماذا

اعترانى ، وظللت طوال فترة الصباح أنكر نفسى من فرط التغير الذى أصابنى .. لا أدرى على أى أمر أعزم ، ولا كيف أخرج من هذه الدوامة . وأقسمت ألف مرة أن أهدىء من روعى ، ثم عاد الخوف ألف مرة يلم بى من جديد . كنت أشعر اننى أبغض زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، وكان ذلك فى الوقت نفسه يسلمنى ليأس شديد ، وشعور بالحقد على الناس جميعا ! .. لم أبرح غرفتى لحظة واحدة ، حتى اننى لم أذهب الى الكسندرين ميخائيلوفنا . فاذا هى تأتى الىّ . فما ان ألقت ببصرها علىّ حتى أوشكت أن تصرخ . كنت من فرط الاصفرار بحيث اننى حين نظرت الى وجهى فى المرآة ذعرت ذعرا شديدا . وظلت الكسندرين ميخائيلوفنا الى جانبى ساعة طويلة تعتنى بى عنايتها بطفلة .

غير ان عنايتها هذه كانت تحزننى ، وكانت مداعباتها تشق على نفسى . كنت من شدة الشعور بالخجل حين أنظر اليها بحيث رجوتها أخيرا أن تدعنى وحدى . فانسحبت وهى أشد ما تكون قلقا . وأخيرا انفجر اضطرابى بكاء شديداً . وعند المساء رأيتنى أحسن حالا .

رأيتنى أحسن حالا لأننى قررت أن أمضى الى الكسندرين ميخائيلوفنا أرتمى على ركبتيها وأرد اليها الرسالة التى أدخلت الى نفسى كل هذا الاضطراب ، وأن أعترف لها بكل شىء ! .. أردت أن أعترف لها بالعذاب الذى كابدته ، بالشكوك التى راودتنى ، وأن أقبلها قبلة تحمل كل الحب القلق الذى أشعر به نحوها . أردت أن أذكر لها عذابى الشديد ، وأن أقول لها اننى ابنتها وصديقتها ، واننى أفتح لها قلبى رحبا واسعا ، وان عليها أن تنظر الى نفسى فتجد فيها العاطفة المشبوبة الراسخة التى أحملها لها .

رباه ! كنت أعلم ، كنت أشعر اننى آخر من يمكن أن تفتح له

قلبها ، ولكن خيّل الىّ اننى أستطيع أن أرد السلام الى قلبها ، بما يمكن أن أسوقه من كلام رزين معقـــول • كنت أفهم قلقها ـ ولو فهما غامضا ـ وكنت كلما تصورت أن من الممكن أن تحمر خجلا منى ، وأن تخشى حكمى عليها ، أثور ثورة قوية •• يا عـــزيزتى ، يا عـزيزتى المسكينة ، فيم أنت مذنبة ؟ ذلك ما سأقوله لها وأنا أبكى بين قدميهـا •• كان الشعور بأنها مظلومة يثيرنى اثارة عنيفة حتى لكأننى مجنونة • والحق اننى لم آكن أدرى ماذا أفعل •• ولم أدرك ذلك الا فيما بعـــد ، حين تدخلت مصادفة من المصادفات فأنقذتنا كلتينا من الهلاك ، اذ أوقفتنى عند الخطوة الاولى • وكان الذعر يتملكنى أيضا • هل كان يمكن أن ينبعث الرجاء مرة أخرى فى هذا القلب الموات ، قلب الكسندرين ميخائيلوفنا ؟ •• هل أستطيع أن أنهضها من عثرتها ؟

ولكن اليكم ما وقع : لم يكن قد بقى علىّ الا أن أجتاز غرفتين حتى أصل الى غرفتها •• فاذا ببطرس الكسندروفتش يخرج من باب جانبى، ويمر أمامى دون أن يرانى • كان ذاهبا اليها هـو الآخـر ، فوقفت فى مكانى مشدوهة ، ذلك انه آخر من كان يحتمل أن أصادفه فى مثل هذه اللحظـة ! وكنت على وشك أن أعـــود أدراجى ، حين ســـمرنى حب الاستطلاع فى مكانى فجأة اذ رأيته يتوقف أمام مرآة ، ليصلح من شعره ويدندن ـ يا للدهشة ! ـ بأغنية ما !

وفى طرفة عين رجعت الى ذاكرتى ذكرى بعيدة من أيام الطفولة•• سأذكر لكم هذه الذكرى البعيدة ، حتى تفهموا الشعور الذى اجتاحنى :

خلال السنة الاولى التى عشتها فى هذا البيت لفتت نظـرى وأثرت فى نفسى ظاهرة غريبة تعود الى ذاكرتى الآن واضحةً جلية •• ظاهرة لم تكتسب دلالة ومعنى الا فى هذه اللحظة ، ولقد كانت هـــذه الظاهرة أصل الكره الذى أشعر به نحو بطرس الكسندروفتش دون أن أجد له

تعليلا • سبق أن قلت انني ما شعرت يوما بشيء من الارتياح ازاء هذا الرجل • وسبق أن ذكرت أن تعبير وجهه الكالح، المقطب ، المهموم ، يبث في نفسي الخوف والقلق • وذكرت أيضا أن الساعات التي قضيتها معه على مائدة الشاي في حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا كانت شاقة على نفسي مؤلمة ، ووصفت ما انتابني من انقباض الصدر حين شهدت - مرتين أو ثلاثا - أزمات عنيفة حزينة قامت بينه وبين زوجته ••

ولقد كان يتفق لى أن أصادفه ، كما أصادفه الآن ، في هذه الغرفة نفسها ، في هذه الساعة عينها ، ذاهبا مثلي الى حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أشعر بخجل كالذي يشعر به الاطفال ، فأنزوي في زاوية كأنني مذنبة ، ادعو الله ألا يراني أبدا ! •• كان يتوقف أحيانا أمام المرآة ، كما يفعل الآن تماما ، فأرتعد عندئذ من شعور لا أستطيع وصفه ولا تحديده • كنت أشعر انه « يصنع » لنفسه وجها ! •• كنت على الأقل أرى ابتسامةً واضحة في محياه قبل أن يقف أمام المرآة ، وكان ذلك يدهشني كثيرا ، ولا سيما انه كان لا يبتسم أبدا أمام الكسندرين ميخائيلوفنا • فما ان يقف أمام المرآة حتى تتبدل سحنته فجأة ، فاذا شفتاه تكتسيان ، بارادته ، تعبيرا مرا صادرا من قلب مقروح، تعبيرا يستحيل اخفاؤه ، يستحيل كبته ، مهما كان لديه من الرغبة القوية - التي تفوق طاقة الانسان - في ألا يُظهر من هذا التعبير شيء البتة•• فالعذاب الحبيس يغضن الجبين ، ويقطب الحاجبين ، ويصوّح النظرة من تحت النظارتين !

هكذا كان بطرس الكسندروفتش يستحيل الى شخص آخر في طرفة عين ! •• وكنت أنا أرتجف خوفا ، وكنت أخشى أن « أفهم » هذا المنظر الذي أرى ، والذي ترك في نفسي - الى الأبد - شعورا مؤلما ممضا • وكان بعد أن يتأمل نفسه لحظة في المرآة ، يدلّي رأسه ويتخذ

وضع الانحناء الذى يلازمه متى كان مع زوجته ، ثم يدخل الى الكسندرين ميخائيلوفنا سائرا على أطراف الاصابع •

هذه الذكرى •• هى التى تعودنى الآن !

كان ، في ذلك الوقت ، يحسب نفسه وحيدا ، فيقف أمام المرآة ، كما يفعل الآن • والآن ــ كما في ذلك الوقت ــ لقيته على هذا الحال وأنا أشعر نحوه بالكره والعداوة ، على غير ارادة منى ! •• غير اننى حين سمعته يغني (وكان ذلك في ذاته أمرا لا يمكن أن ينتظر منه !) بلغت من فرط الدهشة اننى تسمرت في مكانى لا أستطيع حراكا • كانت حالتى في تلك اللحظة شبيهة بحالات طفولتي • كان قلبي منقبضا انقباضا رهيبا لا أستطيع له وصفا ، فان أعصابي كلها ارتجفت لدى سماع هذا الغناء الذى لم أكن أتوقعه •• فاذا أنا أنفجر فجأة في ضحكة عصبية ، بالرغم مني !

اذ ذاك انطلقت من المغنى المسكين صرخة ، ووثب خطوتين الى وراء، بعيدا عن المرآة ، وامتقع وجهه حتى أصبح كالميت ، كأنه مجرم يقبض عليه متلبسا بالجرم !•• ونظر الىّ مشدوها ، ساخطا ، غاضبا غضبا جنونيا •• فما زادتنى نظرته الا كرها له واحتقارا ، وأجبت عليه بمضاعفة ضحكي دون أن أغض بصرى ! •• ثم مررت الى جانبه وأنا ما زلت أضحك ، ودخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أعرف انه وراء الباب ، يتردد هل يدخل ، أو لايدخل ، وقد تسمر في مكانه من الغضب والخشية •• وأخذت أرقب ما سيفعل ، في صبر فارغ مثير : كنت على شبه يقين من انه لن يدخل ! •• ولم يخطيء ظنى ، فانه لم يأت الا بعد انقضاء نصف ساعة على ذلك • وحين دخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا، نظرت الىّ في شيء من الدهشة ، ولكنها حاولت عبثا أن تفهم منى

١

ما هنالك ، فانني لم أجب بكلمة ، لأنني كنت كمن يختنق ! •• وفهمت هي أخيرا ان أعصابي مضطربة لا أستطيع ضبطها ، فقلقت لذلك أشد القلق • وحين استطعت أن أهدىء من روعي ، أمسكت بيدها وقبلتها • وفي تلك اللحظة فقط فكرت فيما عزمت عليه وشرعت فيه ، فأدركت ان الفكرة التي راودتني كان يمكن أن تقتلها ، لولا انني صادفت زوجها في الوقت المناسب !

•••

وحين دخل بطرس الكسندروفتش ، لاحظت أنها كمن بعث الى الحياة من جديد ••

واختلست نظرة سريعة اليه ، فلاحظت انه على ما عهدت فيه من هيئة كالحة رصينة حزينة • ولكنني أدركت من صفرة وجهه - ومن رجفة خفيفة في زاوية شفته - انه لا يخفي اضطرابه الا في كثير من المشقة والعناء • وقد حيا الكسندرين ميخائيلوفنا تحية باردة ، ثم جلس صامتا • كانت يداه ترتجفان حين تناول قدح الشاي • كنت أتوقع انفجارا ، وكان ذعري يزداد قوة • الا انني قررت أن أنسحب ، وأن أترك الكسندرين ميخائيلوفنا وحدها ، وقد تغير وجهها حين رأت زوجها • لقد كانت هي الاخرى توجس شيئا غير مألوف !

وأخيرا وقع ما كنت أتوقعه في كثير من الخوف !

فبينما نحن في صمت عميق ، رفعت بصري فرأيت نظارتي بطرس الكسندروفتش تحدقان في ! •• وكنت لا أنتظر هذا ، فأوشكت أن أصرخ ، وغضضت عيني ••

ولاحظت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ••

أما بطرس الكسندروفتش فقال فجأة ، بصوت قاطع خشن :

ـ ماذا بك ؟ لماذا احمر وجهك ؟

لم أجب ، فقد كان قلبي من شدة الخفقان بحيث لاأستطيع أن أنبس بحرف .

ـ ما لها احمرت ؟ ما لها تحمر بلا انقطاع ؟

قال ذلك متجها بالسؤال في هذه المرة الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهو يشير الىّ بيده اشارة وقحة .

وانقطعت أنفاسى من فـــرط الاستياء ، فأرسلتُ الى الكســندرين ميخائيلوفنا نظرة متوسلة ، ففهمتني .. واذ ذاك تضرج خداها الشاحبان، وقالت لى بصوت جازم لم أكن أتوقعه منها :

ـ اذهبى الى غرفتك . سألحق بك بعد قليل ، وسنقضى السهرة معا.

واستأنف بطرس الكسندروفتش يسألنى بصـــوت أعلى ، كأنه لم يسمع ما قالته امرأته :

ـ هل سمعت ما أقول ؟ أريد أن أعرف لماذا تحمرين كلما لقيتنى . أجيبى على سؤالى !

فقالت الكسندرين ميخائيلوفنا تجيبه بصوت يهدجه الانفعال :

ـ أنت تجعلها تحمر ، وتجعلنى أحمر أنا أيضا .

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فى كثير من الدهشة ، والحيرة ، والتعجب ..

ـ أنا ؟ أنا أجعلك تحمرين ؟ أنا ؟

قالها بطرس الكسندروفتش ، وقد ظهرت عليه الدهشة هو الآخر ، وألح على « أنا » •• ثم أردف :

ـ تحمرين أنت بسببي أنا ؟ ولكن كيف يمكن أن أجعلك تحمرين ، الأولى أن تجعليني أنت أحمر ، ما رأيك ؟

كان معنى هذه العبارة واضحا جدا في ذهني ، وقد قالها بطرس الكسندروفتش بلهجة قاسية ساخرة ، فاذا أنا أطلق من صدرى صرخة ، وأهرع نحو الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأرى الدهشة ، والعذاب ، واللوم، والذعر ، تشع جميعا من وجهها الذى امتقع لونه حتى صار كوجوه الموتى ! •• وأرسلت الى بطرس الكسندروفتش اشارة توسل •• وكان كأنما عاد اليه رشده ، لكن الغضب الذى أثارته كلماته لم يكن قد انقضى بعد •• وأدرك مع ذلك ضراعتى الخرساء فاضطرب • كان واضحا من اشارتى أننى فهمت كلماته كل الفهم ، واننى اذن على علم ببعض الأمور التى ظلت حتى ذلك الحين سرا !

ـ آنيت ، اذهبى الى غرفتك ، اننى فى حاجة ملحة لأن أتحدث مع بطرس الكسندروفتش •

قالتها الكسندرين ميخائيلوفنا بصوت ضعيف لكنه جازم ، وقد نهضت عن كرسيها •

كانت تبدو هادئة ، الا أن هدوءها أخافنى أكثر من أى انفعال ممكن ، ولبثت فى مكانى لا أستطيع حراكا ، كأنى لم أسمع ما قالته • كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أقرأ على صفحة وجهها ما دار فجأة فى نفسها ، وكان يلوح لى أنها لم تفهم اشارتى ولا ضراعتى ••
وابتدرنى بطرس الكسندروفتش وهو يمسك ذراعى ويرينى امرأته :

ـ كان لك ما أردت يا آنسة !

رباه ! لم أر في حيـــاتي يأسا كالذي أراه الآن في هـــذا الوجه المتشنج ، في هذا الوجه الميت ! •• وتناول بطرس الكسندروفتش يدي يدفعني الى خارج الغـرفة ، بينما كنت أنظر اليهما كليهما مرة أخـيرة • كانت الكسندرين ميخائيلوفنا واقفة ، مستندة الى المدفأة ، ممسكة برأسها بين يديها • كان وضعها كله ينبيء عن ألم لا سبيل الى وصفه • فأمسكت بيد بطرس الكسندروفتش وضغطت عليها بقوة محمومة ، وغمغمت بصوت مقطع متهدج أقول :

ـ حباً بالله ، حباً بالله ، ترفق بها ••

فأجاب وهو يلفني بنظرة غريبة :

ـ لا تخافي ، لا تخـافي ، ما من خطـــر • هي نوبة ثم تنقضي • اذهبي • اذهبي •

فلما وصلت الى غرفتي ، ارتميت على الديوان ، ووجهي بين ذراعي• ولبثت على هذه الحال ثلاث ساعات طوال في جحيم حقيقي • ثم لم أستطع صبرا فأرسلت أسأل هل تسمح لي الكسندرين ميخائيلوفنا بالمجيء اليها ؟ •• وجاءتني مدام ليوتار بالجواب : لقد طلب اليها بطرس الكسندروفتش أن تبلغني أن النوبة قد انقضت ، وأن الخطر قد زال ، غير أن الكسندرين ميخائيلوفنا في حاجة الى الراحة • ولبثت حتى الساعة الثالثة من الصباح لا أزيد على أن أذهب وأجيء في غـرفتي ، من شدة شـــعوري بحرج وضعي • ومع ذلك كنت أتخفف من قلقي مرددة انني المذنبة الأولى • ثم نمت أنتظر الغد بفارغ الصبر ••

لكنني لاحظت على الكسندرين ميخائيلوفنا في الغد شيئا من الفتور

نحوى ، فأدهشني ذلك وأحزنني • اعتقدت في أول الامر ان هذه المرأة ذات القلب النبيل الطاهر يؤلمها أن ترى نفسها معى بعد أن شهدتُ أزمة البارحة على غير ارادة منى ، وكنت أعلم انها قد تحمر خجلا كطفلة ، وأن تسألني ، كطفلة أيضا ، أن أغفر لها ذلك المشهد الذى ربما ساءني • ولكن سرعان ما لاحظت أن أمرا آخر يسيطر على تفكيرها ، لا تستطيع من سذاجتها اخفاءه • فكانت تارة تجيبني بلهجة جافة باردة ، وتارة تقول كلاما ذا معنيين ، وتارة تستعيد لطفها وتداعبني كأنها تأسف فجأة على ما بدر منها من قسوة ، قسوة لا يمكن أن تكون في قلبها •• وكانت كلماتها في هذه الحالة الاخيرة تحتفظ ، على عذوبتها وهدوئها ، برنة من عتب • وأخيرا سألتُها صراحة عما بها ، وهل تريد أن تقول لى شيئا بعينه ، فهزّها سؤالى العنيف بعض الشيء ، الا أنها لم تلبث أن رفعت عينيها الواسعتين الرقيقتين ، ونظرت الى تقول فى ابتسامة عذبة :

ـ ليس بى شيء ، يا نيتوتشكا ، الا أنك تعرفين أنني اضطرب حين يوجه الىّ سؤال مباغت • وهذا ما فعلته الآن •• أؤكد لك ذلك •• ولكن اسمعي يا بنيتي وصارحيني بالحقيقة : هل في قلبك شيء يمكن أن يجعلك تضطربين هكذا اذا سئلتِ سؤالا مباغتا لا تتوقعينه ؟

ـ كلا •

قلت ذلك وأنا أنظر اليها دون مواربة •

ـ حسنا جدا • لو تعلمين يا عزيزتى كم أشكر لك هذا الجواب الجميل •• وليس معنى هذا انني أستطيع أن أظن فيك السوء ، أبدا ، انني لا أسمح لنفسى بفكرة كهذه • ولكن افهمي : حين ضممتك الى بيتي كنتِ طفلة صغيرة ، وأنت الآن في السابعة عشرة من عمرك ، وأنا الان مريضة ، فالطفلة الآن هي أنا ، وأنا التي يجب أن يُعتنى بها • لم أستطع

أن أكــون أمك كمـا كنت أحب أن أكـون ، على أن الحب ليس هـو ما أعوزني ، ولئن كنت قلقة عليك الآن ، فلست أنت المسئولة عن ذلك ، وانما هي خطيئتي . فاغفرى لى السؤال الذى طرحته عليك . واغفرى لى أيضا أننى لم أف بكل الوعود التى قطعتها لأبى حين ضممتك الى هــذا البيت ؛ وان هذا أيضا ليقلقنى كثيرا ؛ وكثيرا ما عذبنى ، يا عزيزتى .

ارتميت على عنقها باكية . ثم قلت وأنا أغرق يديها بدموعي :

ـ ليباركك الله ، ليباركك الله ، جزاء ما صنعت فى سبيلى . لاتتكلمى هكذا ، انك تهصرين قلبى هصرا . لقد كنت لى أكثر من أم . نعم ، انني أسأل الله أن يجزيكما خيرا عن كل ما صنعتما ، أنت والأمير ، من أجلى ، أنا اليتيمة البائسة . آه ! أيتها الصديقة العزيزة ، أيتها الصديقة الرقيقة اللطيفة !

ـ كفى يا نيتوتشكا ، كفى ! قبلينى قبلة أعنف ، قبلة أقوى . هل تريدين أن أقول لك ؟ اننى أشعر أن قبلتك هذه هى الأخيرة ، لا أدري من أين يأتينى هذا الهاجس !

فاحتججت أقول ، وأنا أنتحب كما ينتحب الاطفال :

ـ كلا . كلا . لا تقولى هذا . ستعيشين أياما سـعيدة كثـيرة .. ستعيشين أياما جميلة . صدقينى . سنكون سعيدتين .

ـ شكرا ، شكرا لك على هذا الحب كله . ليس من حـولى الآن ناس كثيرون .. لقد هجرونى .

ـ من هم الذين هجروك ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

ـ كان من حولى فى الماضى أشخاص آخرون . الا أنهـم هجرونى

جميعا • لقد تبددوا كلهم كما يتبدد السراب • وانتظرتهم طويلا منذ ذلك الحين •• لم أفعل شيئا غير الانتظار ، طوال حياتي كلها •• ليباركهم الله ! هل ترين يا نيتوتشكا ؟ ان الخريف يتقدم ، وقريبا يتساقط الثلج ، وسأموت أنا عند أول مرة يهطل فيها الثلج • نعم ، وان هذا ليحزن قلبي• وداعا •

كان وجهها شاحبا نحيلا ، وكان على كل خد من خديها بقعة حمراء ملتهبة ، وكانت شفتاها ترتجفان ، وقد جففتهما الحمى الداخلية •

واقتربت من البيانو تعزف بعض الألحان • فاذا بأحد الأوتار يقطع فجأة • فيدوي من انقطاعه صوت مباغت ، امتد ثم انطفأ في ارتجاف •

قالت بصوت ملهم وهي تشير الى البيانو :

ـ هل تسمعين يا نيتوتشكا ؟ هل تسمعين ؟ لقد كان هذا الوتر مشدودا أكثر مما ينبغي أن يشد ، فلم يستطع أن يحتمل فمات • لقد سمعت كيف توجع الصوت وهو يموت !

كانت تتكلم في عناء • وكان الالم الأصم الذى يضطرم في نفسها يشع في وجهها ، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ولكن هيا يانيتوتشكا، كفى كلاما في هذا الموضوع ، كفى يا عزيزتي ، كفى • هيا احضري الاولاد •

وأتيت بالطفلين •• ولاح عليها الارتياح وهي تنظر اليهما ، وصرفتهما بعد ربع ساعة •

ـ حين أموت ، لن تتركيهما ، يا نيتوتشكا ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، كأنها تخشى أن يسمعها أحد غيري !

ـ اسكتي ، اسكتي ، انك تقتلينني قتلا بهذا الكلام !

ذلك كل ما استطعت أن أغمغم به .

فقالت وهى تبتسم بعد لحظة من صمت :

ـ انني أمزح . هل صدقت قولى ؟ ألا تعرفين انني فى بعض الاحيان أهرف فى الكلام هرفا . انني الآن طفلة ، طفلة ، وانني فى حاجة الى أن يُغفر لى .

وألقت على نظرة خجلى ، كأنها تخشى أن تقول أكثر مما ينبغى أن تقول .

وانتظرت ..

وأخيرا قالت وقد أغضت بصرها ، وتضرج وجهها فجأة بحمـرة خفيفة ، ولكن بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

ـ حاذرى أن تخيفيه .

ـ من ؟

كذلك سألتها فى دهشة ظاهرة ، فقالت :

ـ زوجى . لا شك أنك ستقصين عليه كل شىء .

وازدادت دهشتى قوة ، فهتفت أسألها :

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ حسنا . قد لا تذكرين له شيئا على كل حال .

قالت ذلك وهى تحاول جهدها أن تنظر الىّ نظرة ماكرة ، الا أن ابتسامة شفتيها احتفظت بصراحتها ، وازدادت البقع الحمر فى وجنتيهـا التهابا . وأردفت تقول :

ـ كفى كلاما فى هذا الموضـــوع • كنت أمزح • هذا كل ما فى الأمر •

وكان قلبى يزداد انقباضا •

وأردفت تقول بلهجة جدية ، ولكنها لهجة عجيبة •

ـ اسمعى مع ذلك • انك ستحبينهما بعد موتى ، اليس كـذلك ؟ ستحبينهما كأنهما ابناك ، أليس كذلك ؟ تذكرى ما أقول ، وتذكرى اننى أحببتك أنا الاخرى كأنك ابنتى ••

فهتفت ، دون أن أعرف ماذا أقول ، وأنا ألهث وأختنق بدموعى :

ـ نعم ، نعم •

وتناولت يدى بسرعة ، وطبعت عليها قبلة محرقة قبل أن أستطيع سحبها ، فهزنى ذلك هزا قويا حتى لم أستطع أن أنبس بكلمة •

وتساءلت فجأة : « ترى ماذا بها ؟ فيم تفكر ؟ ما الذى وقع بينهمـا البارحة ؟ » •

وبعد دقيقة شكت من أنها متعبة ، وقالت :

ـ اننى مريضة منذ مدة طويلة ، غير اننى لم أشأ أن أخيفكما لأنكما تحبانى كلاكما ، أليس كذلك ؟ والآن هيا ، الى اللقاء يا نيتوتشكا ، دعينى الآن ، ولكن عودى فى المساء ، هل تريدين ؟ ستأتين ، أليس كذلك ؟

ووعدتها بأن أعود فى المساء • وكنت سعيدة بالرجوع الى غرفتى ، فاننى لم أعد أحتمل أكثر مما احتملت •

صرخت وأنا أشهق : « مسكينة أيتها البائسة ! أى شك يستحثك

الى القبر . آية لوعة جديدة تسممك وتعض قلبك دون أن تجرئى على ان تقولى عنها كلمة واحدة ؟ رباه ! هذا العذاب الطويل الذى اعرفه الان كله ، هذه الحياة القاتمة التى لم تعرف اشراق النور ، هذا الحب الخجول الذى لا يطلب شيئا ولا يريد شيئا ، هذا الذى تجفله الشكوى ويخيفه اللوم بلا انقطاع ، ما كل هذا ؟ .. وهذه المراة الممزقة التى ترتعد كانها مجرمة ، كيف تستطيع أن تصنع لنفسها ألما جديدا وتخضع له وتموت منه ؟! » .

* * *

وفى المساء ، عند الشفق ، انتهزت فرصة غياب اوفروف ـ سكرتير بطرس الكسندروفتش ـ فدخلت الى المكتبة وفتحت احدى خزائنها وأخذت انبشها لاجد كتابا أقرؤه بصوت عال على مسمع من الكسندرين ميخائيلوفنا . كنت أحب أن أصرفها عن خواطرها السود ، فكنت أبحث عن شيء سهل مفرح . ولبثت أبحث مدة طويلة وأنا ذاهلة شاردة اللب. وتكاثف الشفق ، وأخذ الظلام ينتشر شيئا فشيئا ، وأخذ غمى يزداد قوة وعمقا . ووقع بين يدى مرة أخرى ذلك الكتاب الذى وجدت فيه الرسالة ، ورأيت آثار شكل الرسالة على الموضع الذى كان يشتمل عليها من الكتاب ، وكنت أحتفظ بهذه الرسالة فى قميصى .. هذه الرسالة التى حملت الىّ الصقيع ، والمجهول ، والسر ، والتى كانت تؤثر فى نفسى حتى الآن تأثيرا ينذر بالشر ! .. وساءلت نفسى : « ترى ما الذى سيقع لنا ؟ ان الركن الدافيء الذى كنت ألتجيء اليه سيتهدم .. ان النفس الصافية الرائقة التى رعت صباى وسهرت عليه ستهجرنى . ما الذى ينتظرنى ؟ » كنت كأنما نسيت ماضى ، رغم أنه عزيز على نفسى ، وأصبحت أفكر أكثر ما أفكر فى المستقبل الخطير الذى يملؤه السر والمجهول . اننى أستطيع

ان اعيش تلك اللحظة بكاملها مرة أخرى ، لأنها منقوشة في ذاكرتي نقشا عميقا •

كنت أمسك بين يدي الكتاب والرسالة ، وكنت غارقة في دموعي• وفجاة انتفضت مذعورة • ان صوتا أعرفه كل المعرفة يرن فوقي • وأحسست في الوقت نفسه بان الرسالة تنتزع من بين يدي • فصرخت وانتصبت واقفة ، فرأيت بطرس الكسندروفتش أمامي ! •• وامسكني من يدي بقبضة قوية وسمرني في مكاني ، بينما مد الرسالة باليد الاخرى نحو النور محاولا أن يقرأها • وصرخت • كنت أفضل أن أموت على أن أدع له الرسالة ! •• ورأيت من بسمته الظافرة انه توصل الى قراءة سطورها الأولى • طاش لبي •• وما هي الا دقيقة واحدة حتى ارتميت عليه وأنا لا أكاد أعي ما أفعل فانتزعت الرسالة من بين يديه • وقد تم ذلك بسرعة عظيمة حتى انني لا أفهم الى الآن كيف عادت الرسالة الى يدي • لكنني وقد لاحظت انه يهم أن ينتزع مني الرسالة مرة ثانية ، دسستها بسرعة في قميصي ووثبت ثلاث خطوات الى الوراء !

ونظر كل منا الى الآخر لحظة في صمت • وكنت ما أزال أرتجف خوفا ، وبادر هو الى قطع الصمت ، وكانت شفتاه المرتجفتان قد ازرقتا من شدة الغضب ، فقال في صوت أصم :

ـ لا تضطريني الى استعمال القوة • اعطيني هذه الرسالة بارادتك !

ان الشعور بالعار والامتعاض قد قلب نفسي رأسا على عقب ، ان تلك الاهانة الفظة قد خنقت أنفاسي • فانهمرت سيول من دموع محرقة على خدي الملتهبتين •

ولبثت مدة طويلة لا أستطيع من هول الاضطراب والارتجاف أن أنبس بكلمة •• فقال وهو يتقدم مني خطوتين :

ـ هل تسمعين ؟

فصرخت وأنا أبتعد عنه :

ـ دعني ، دعني . ان ما تفعله شر . ان ما تفعله لحقير خسيس . انك تنسى نفسك ! .. دعني أمضى .

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ آأنت تجرئين على مخاطبتي بهذه اللهجة .. بعد أن .. انني آمرك بأن تعطيني هذه الرسالة ، هل تسمعين ؟

ثم تقدم مني خطوة أخرى ، الا انه وقد لمح في عيني قوة الاصرار والعناد ، توقف متحيرا . وقال أخيرا بلهجة جافة ، تنطوى على الاصرار وان يكن قد جاهد لكبح جماح نفسه :

ـ حسنا ! ندع هذا الآن الى حينه ومحله . ولكن قولى لى أولا من ذا الذى أدخلك المكتبة ؟ ولماذا أرى الخزانة مفتوحة ؟ من أين أخـذت المفتاح ؟

قال ذلك بعد أن أجال بصره من حوله .. فانبريت له :

ـ لن أجيب على سؤالك . ولا أستطيع أن أتناقش معك . دعني أمضى . دعني !

واقتربت من الباب . فقال وهو يمسكني من ذراعى :

ـ لا . لن تخرجي هكذا !

وانتزعت ذراعى منه دون أن أقول كلمة واحدة ، وتقدمت خطـوة أخرى نحو الباب :

ـ اعلمى اننى لا أسمح لك بأن تتلقى فى بيتى رســائل غرام من عشاقك !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى صرخت مذعورة ، ورميته بنظـرات مجنونة •

ـ لذلك ••

ـ كفى •• لا أسمح لك بأن تخاطبنى هكذا •• يا رب ، يا رب !

ـ هيه ؟ ماذا ؟ تهددينني ؟

صعقت من هول ما انتابنى من ذعر ويأس • ان هذا المشهد قد بلغ من القسوة حدا لا أستطيع معه أن أفهم ولا أن أعى • فنظرت الى بطرس الكسندروفتش أتوسل اليه بعينيّ أن يسكت • كنت مستعدة لأن أغفر له ظنونه شريطة أن يتوقف عن الكلام • فحدق فيّ وقد لاح فى وجهه تردد ظاهر •

همست مذعورة :

ـ لا تخرجنى عن طورى !

فهتف أخيرا كأنما هو قد عزم أمرا :

ـ كلا ، لن ينتهي الامر هكذا •

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ أعترف لك ان نظرتك كادت تردني عن ظنونى ، الا ان الاشياء تتحدث من تلقاء نفسها ، وا أسفاه • لقد استطعت أن أقرأ بداية هـــذه الرسالة • انها رسالة غرامية • لن تستطيعى أن تحولينى عن اقتناعى هذا• كلا ، انتزعى هذه الفكرة من رأسك • ولئن ترددت دقيقة أو بعض دقيقة فهذا لا يزيد على أن يدل على اننى يجب أن أضيف الى مزاياك الرائعة مزية أخـــرى هى القدرة على الكذب فى كثير من البراعة •• لذلك أكرر ••

وكان وجهه وهو يتكلم يزداد نضوحا بالبغض والكره • كان ممتقع اللون ، وكانت شفتاه المرتجفتان تكشران بقوة كبيرة حتى انه لم يستطع أن يلفظ الكلمات الاخيرة الا في كثير من العناء •

كان الظلام قد خيم ، وكنت اشعر انني وحدي تحت رحمة هـذا الرجل القادر على اهانة امرأة • ثم ان الدلائل كلها كانت تدينني ، ومع ذلك كنت أتساءل عن غضبه هذا ما مصدره وما سببه ، رغم ان الشـعور بالعار والقلق كان يحطمني تحطيما • وهرعت كالمجنونة دون أن أجيب على كلامه ، فخرجت من المـكتبة ، ولم يثب الىّ رشـــدي الا على باب الكسندرين ميخائيلوفنا ، فلما هممت أن أدخل عليها سمعت ورائي وقع خطوات الكسندروفتش ، فتســـمرت في مكاني كأن صاعقة وقعت على رأسي •

تساءلت في سرعة البرق : « ترى ما الذي سيحدث ؟ ان كل شيء أفضل من هذه الضربة الاخيرة التي قد تتلقاها •• »

وتراجعت بسرعة ، ولكن الأوان كان قد فات، فها هو ذا الى جانبي• همست وأنا أمسك بذراعه :

ـ رحمةً بها • نذهب أين تشاء • لكن لا ندخل الى هنا • أعـود الى المكتبة أو الى أي مكان آخر ، الى أي مكان تشاء • والا قتلتها !

فأجاب وهو يبعدني عنه :

ـ أنت التي تقتلينها •

وتبدد من قلبي كل رجاء • شعرت ان ما يريده انما هو أن يقص على الكسندرين ميخائيلوفنا كل ما حدث •

فقلت وأنا أصده بكل ما أوتيت من قوة :

ـ حبا بالله ، ارحمها ••

ولكن في هـذه اللحظة فُتح الباب وظهرت الكسندرين ميخائيلوفنا أمامنا •

نظرتْ الينا في دهشة ، وكان وجهها ممتقعا أكثر من امتقاعه في أي وقت مضى ، وكانت لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها ، وكان واضحا انها وقد سمعت أصواتنا بذلت جهدا كبيرا للتحامل على نفسها •

سألتنا وهي تنظر الينا في غير قليل من الدهشة :

ـ ماذا هنالك ؟ فيم كنتما تتكلمان ؟

وخيم الصمت بضع لحظات ، وازداد وجهها امتقاعا ، فارتميت عليها وعانقتها وأُدخلتها الى مخدعها ، ولحق بي بطرس الكسندروفتش ، ولبثت أعانق الكسندرين ميخائيـلوفنا في قـوة وعنف وقد أغـرقت وجهي في صدرها الذي يخفق خفقانا عنيفا •

وسألت الكسندرين ميخائيلوفنا مرة أخرى :

ـ ماذا بك ؟ ماذا بكما كليكما ؟

ـ اسألي الآنسة • لقد دافعتِ عنها أمس •

قال بطرس الكسندروفتش ذلك ثم ارتمى على أحد المقاعد في ثقل وهدوء ، فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا تقول وقـد لاحت على وجههـا خشية غريبة :

ـ يا الهي ! ماذا وقع ؟ انك مضطرب ، وهي خائفة • انها تبكي • قولي لي يا آنيت ، ماذا كان بينكما ؟

فقال بطرس الكسندروفتش وقد اقترب مني وأمسك بكتفي وأبعدني عن امرأته :

ـ كلا ، دعيني أتكلم قبلها •

ثم أضاف وهو يضعني في وسط الغرفة :

ـ ابقي هنا ، سأحاكمك أمام تلك التي كانت لك أما !

وتوجه الى الكسندرين ميخائيلوفنا فأجلسها على مقعد وهو يقـول لها :

ـ وانت ، هدئي روعك ، يؤسفني انني لا أستطيع أن أجنِّبك شرح هذه المسألة البشعة ، ولكن لا بد من ذلك •

فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا وهي تنقّل نظرتها القلقة الرهيبة بين زوجها وبيني :

ـ رباه ! ماذا هنالك ؟

وأخذت أقلب يدي وأفركهما في انتظار الدقيقة الرهيبة • ان المرء لا يستطيع أن يأمل من هذا الرجل أي شعور بالرحمة •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ سأقول لك ذلك بايجاز ، والذي أريده هو أن تحكمي عليها معي• لقد كنت دائما تتحزبين لها وتدافعين عنها ـ لا أدري لماذا ، فتلك نزوة من نزواتك ـ حتى لقــد ناقشتني بالأمس في شأنها واستبسلت في الدفاع عنها •• ولا أدري الآن كيف أشرح لك الأمر • انني لأحمر خجلا حين أفكر فيه •• الخلاصة انك قد دافعت عنها واغرقتني باللوم واتهمتني بقسوة لا محل لها ، حتى لقد ألمعت الى عاطفة أخرى لعلها هي التي تدفعني الى

هذه القسوة التي لا محل لها • انك •• ولكنني أتساءل لماذا لا أتوصل الى خنق حمرة الخجل هذه التي تصعد الى وجهي حين أفكر فيما ذهبت اليه من افتراضات • لا أدرى لماذا لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك بهدوء وصراحة أمامها •• الخلاصة انك ••

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا وقد تملكها الانفعال والحمي والشعور بالخجل وقالت :

ـ كلا لن تفعل ، لن تقول ذلك ، ارحمها ، فما قلته بالأمس كان من بنات خيالى أنا ، أما الآن فلم يبق في نفسى ظل من شك • اغفر لى تلك الظنون التى راودتنى • نعم اغفرها لى ، اننى مريضة ، ويجب أن يُغفر لى ، ويجب خاصة أن لا يقال لها شيء من ذلك البتة •

ثم قالت وهى تتجه نحوى :

ـ آنيت آنيت ، اذهبى من هنا بسرعة ، لقد أراد أن يمزح ، أنا المذنبة ، وتلك مزحة فى غير محلها •

واستمر بطرس الكسندروفتش يقول دون أن يرحمها ودون أن يهتز لضراعاتها :

ـ الخلاصة : أنك كنت غيورة منها !

فانطلقت من صدرها صرخة وامتقع لونها امتقاعا شديدا وتهالكت ساقاها ، فتهافتت على أحد المقاعد ، ودمدمت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع :

ـ سامحك الله ، سامحينى يا نيتوتشكا ، انه ذنبى • اننى مريضة • اننى مريضة ، اننى ••

فصرخت أنا كالمجنونة ، وقد فهمت أخيرا لماذا يريد أن يحكم عليّ أمام امرأته :

ـ هذا ظلم . هذا عار . هذا جبن . هذه حقارة . هـــذه خسة . انك ..

فصرخت الكسندرين ميخائيلوفنا وهي تأخذ يدى :

ـ آنيت !

فهتف بطرس الكسندروفتش يقول وهو يقترب منا مضطربا اضطرابا لا يوصف :

ـ هذه مهزلة ، لا أكثر ولا أقل !

واستمر يقول وهو يغرز فى امرأته نظرة تفيض كرها وحقدا :

ـ هذه مهزلة ، وموضوع هذه المهزلة أنت ! .. أما نحن (قال ذلك لاهثا وهو يشير الىّ بيده) فثقى اننا لا نخشى شيئا من مثل هـــذا الايضاح . ثقى اننا لم نعد من الكمال بحيث نمتعض أو نحمر أو نسد آذاننا حين نتحدث عن أمور من هذا النوع . معذرة ، انى أتكلم بلا لف ولا دوران ، وربما كان كلامى خشنا ولكن لا بد من ذلك . هل أنت واثقة يا سيدتى من طهارة هذه .. البنت !

فغمغمت الكسندرين ميخائيلوفنا كالميتة من شدة الخوف تقول :

ـ رباه ! ماذا بك ؟

فقاطعها بطرس الكسندروفتش يقول بلهجة متوعدة :

ـ لا تستعملى ألفاظا جوفاء . أرجوك . اننى لا أحب ذلك . نحن الآن أمام حادث لا تعقيد فيه ، حادث بسيط جدا ، مبتذل الى آخر حدود الابتذال . اننى أسأل عن سلوكها . هل تعلمين أن ..

ولكننى لم أدعه يتـــابع كلامه ، بل أمسكت بذراعه وجررته بقوة وعنف الى ركن من أركان الغرفة ـ فلو قد انقضت على ذلك ثانية أخرى لأمكن أن يضيع كل شيء ـ وهمست فى حماسة أقول لها :

ـ لا تتكلم عن الرسالة ، والا قتلتها على الفور • ان اتهامى اتهـام لها أيضا • انها لا تستطيع أن تحكم علىّ لأننى أعرف كل شيء •• كل شيء •• هل تسمع ؟

فرمانى بنظرة ثابتة وحشية وأخذ يضـحك ، وكان الدم قد صـعد الى وجهه ، فكررت أقول :

ـ أعلم كل شيء ، كل شيء ••

فظهرت عليه علائم التردد وطاف فى شفتيه سؤال حزرته •

والتفت نحو الكسندرين ميخائيلوفنا بسرعة فرأيتها تنظر الينا قلقة وقد ظهر فى محياها الوجل والخجل • قلت بصوت عال :

ـ أنا وحدى المذنبة • اننى أخدعك منذ أربع سنين ! •• لقد أخذت مفتاح المكتبة وكنت أمضى اليها فى كل يوم منذ أربع سنين آخذ كتبـا ، وقد فاجأنى بطرس الكسندروفتش فوجد بين يدى كتابا ينبغى ألا أقرأه • وهو يخاف علىّ ويتصور الخطر كبيرا !

ثم أردفتُ أقول بحماسة ، وقد لاحظت انه يبتسم :

ـ على اننى لا أحاول أن أبرر ذنبى • أنا وحدى المذنبة • لقد كان الاغراء أقوى منى • فلما وقعت فى هـــذه الخطيئة لم أجرؤ على الاعتراف بها •• هذا كل شيء • نعم هذا كل ما كان بيننا •

ـ أوه ما أبرعك !

همس بطرس الكسندروفتش بذلك في أذني •

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تصغي الىّ بانتباه عميـــق ، ولكن وجهها كله كان يعبر عن الارتياب فيما أقول • كانت تنقّــل بصرها بين زوجها وبيني بلا انقطاع • وخيم الصـــمت • كنت لا أستطع أن أتنفس الا في كثير من العناء • ومالت الكسندرين ميخائيلوفنا على صدرها وغطت عينيها بيــديها كأنها تريد أن تفكر وأن تزن كل كلمة من الكلمات التي قلتها • ورفعت أخيرا رأسها وحدقت فيّ قائلة :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتي ، انني أعلم أنك لا تستطيعين الكذب • هل هذا كل ما حدث ؟ تماما ؟

فأجبت :

ـ نعم • هذا كل ما حدث •

فاتجهت الى زوجها تسأله :

ـ هل هذا كل ما حدث ؟

فغمغم بالرغم منه قائلا :

ـ نعم • هذا كل ما حدث ، كله •

ـ هل تقسمين على ذلك يا نيتوتشكا ؟

فأجبت بلا تردد :

ـ نعم • أقسم •

الا انني لم أستطع أن أحتمــل نظـرة بطـرس الكسندروفتش ولا الابتسامة التي ارتسمت على فمه حين سمعني أقسم ، فاحمر وجهي فجأة •• ولم يخفَ ذلك على المسكينة الكسندرين ميخائيلوفنـا ، فانطبعت على وجهها علائم قلق ساحق فظيع !

وقالت فى حزن :

ـ كفى • أصدقكما • لا أستطيع الا أن أصدقكما •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ ان الاعتراف كافٍ فيما أرى • هل سمعت ما قالت ؟ فما رأيك اذن ؟

لم تجب الكسندرين ميخائيلوفنا • وكان المشـــهد يزداد قسوة على نفسى •

وصرخ بطرس الكسندروفتش قائلا :

ـ سأفتش غدا جميع الكتب ، لا أدرى ماذا عندنا منها فى المكتبة ، ثم •••

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا سائلة :

ـ أى كتاب كانت تقرأ ؟

فاتجه الىّ يقول ، وهو يبتسم ابتسامة واضحة :

ـ أى كتاب كنت تقرئين ؟ انك أقدر منى على توضيح هذا الامر •

ولم أستطع أن أجيب من شـــدة الانفعال ، واحمرت الكسندرين ميخائيلوفنا وغضت بصرها ، وأعقب ذلك صمت طويل •• فأخـذ بطرس الكسندروفتش يذهب ويجىء فى طول الغرفة وعرضها وقد بدا على وجهه الانزعاج •

وأخيرا قالت الكسندرين ميخائيلوفنا بلهجة خجولة :

ـ اننى أجهل ما حدث بينكما ••

ثم أردفت تقول وهي تحاول أن تشدد على كلماتها وقد أوشكت أن تنفجر بتأثير تلك النظرة الثابتة التي كان يرميها بها زوجها ـ وكانت هي تحاول أن تتحاشاها ـ أردفت تقول :

ـ اذا كان هذا كل ما حدث فانني لا أفهم هـــذا الغم الذى يسيطر علينا نحن الثــلاثة • ان الذى ينبغي أن يلام انما هــو أنا ، أنا وحدى ، وذلك ما يعذبني • لقد أهملت تربيتها ويجب أن أتحمل تبعة ذلك ، وعلى نيتوتشكا أن تسامحني • أما أنا فلا أشعر أن من حقي أن أحكم عليهــا • واني لأتساءل مرة أخرى : فيم هذا الغم واليأس ؟ ان الخطر قد انقضى • انظر اليها (قالت ذلك وقد ازدادت حماستها وهي ترمي زوجها بنظــرة فاحصة) أنظر اليها • هل ترك هذا الطيش من أثر فيها ؟ هل تغيرت ابنتى الصغيرة تغيرا كبيرا ؟ هل يمكن أن أجهل ما يشتمل عليه قلبها الطاهر من نبل ، وما يملكه رأسها الصغير من ذكاء ؟ (قالت ذلك وهي تجذبني اليها بحركة ملاطفة) • ان لها روحا صافية كالنهار ، وضـــميرا لا يمكن أن يخطىء •• كفي يا عــزيزى ، كفي • لا شــك أنه قد اندس في كربنا المشترك عنصر جــــديد • لعل ظلا من عــداوة قد مسنا لحظة ما ، ولكننا سنطرد هذا الظل بالحب وحسن التفاهم • سنطرد جميع شكوكنا • ربما كان هنالك حتى الآن أشياء كثيرة لم نوضحها فيمــا بيننا ، وأنا المســئولة الأولى عن ذلك • أنا المسئولة الأولى لأنني أول من خبأت نفسى عنكمــا ولأننى أول من سمحت لنوع من الشك السخيف بأن ينبت في نفسى ، وهذا كله يرجع الى رأسى البائس المريض • ولكن •• ولكن اذا نحن تصارحنا فلا بد أن تسامحاني ، لأن ما دار في خلدى من ظنون ليس فيه شر كبير على كل حال •

ونظرت مرة أخرى الى زوجها وقد احمر وجهها ، وانتظرت قلقة ما سيجيب به • وكانت ابتسامته تزداد وضوحا أثناء استماعه الى كلامها •

انقطع عن السير وتسمر أمام امرأته وقد عقد ذراعيه وراء ظهره . كان كأنه سرّ برؤية الاضطراب الذى يراه على وجهها . وزداد اضطرابها أمام هذه النظرة التي يرميها بها . وانتظر قليلا كانه يريد أن يتيح لها ان تتابع حديثها . فتضاعف اضطراب الكسندرين ميخائيلوفنا . وأخيرا قطع هذا الصمت الثقيل المؤلم وهتف فى ضحكة ساخرة ، مرة ، متطاولة ، يقول :

ـ اننى أرثى لحالك أيتها المرأة البائسة .

ثم كف عن الضحك وتابع كلامه بلهجة وقورة كالحة :

ـ لقد اضطلعت بدور يفوق ما تملكين من قوى . ماذا كنت تريدين من ذلك ؟ كنت تريدين أن تحمليني على الاجابة ، أن تغرقيني بشكوك جديدة ، أو على الأصح بشكوك قديمة لا تستطيع كلماتك أن تخفيها . ان معنى كلماتك هو انه ينبغى أن لا تؤاخذ نيتوتشكا ، لأنها كاملة ، حتى بعد قراءتها كتباً غير أخلاقية ، هذه القـــراءة التى آتت أكلها منذ الآن ، اليس كذلك ؟ ألا أن فى هذا الايضاح شيئا آخر ، ان فيه تلميحا ، فأنت تعتقدين أن ارتيابى وقسوتى ترجعان الى عاطفة أخرى . حتى لقد وصلت بالأمس الى اتهامى . أرجوك ، دعينى أتكلم ، اننى أحب أن أتكلم بلا لف ولا دوران. نعم لقد أردت أن تقولى أمس ان الحب لدى بعض الأشخاص (ومن الملاحَظ ان هؤلاء الاشخاص يكونون فى رأيك بوجه عام ، ذوى طبع قاس ، صريح ، رصين ، ذكى ، قوى .. الى آخـــر ما هنالك من صفات أغدقها عليهم كرمك !) .. ان الحب لدى هؤلاء الاشخاص (يعلم الله لماذا لفقت هذا !) لا يمكن أن يعبر عن نفســه الا على نحو خطير ، محموم ، وحشى ، متشكك فى كثير من الاحيان ، مســتعد للاضطهاد والتعذيب فى كثير من الاحيـــان أيضا . لا أذكر الآن على وجــه الدقة

الكلمات التي استعملتها أمس •• أرجوك ، دعيني أتكلم • انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، كل شيء ، اكرر ذلك للمرة المـــائة ، انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، انك مخدوعة في امرها ، ولكنني لا أفهم لماذا يحلو لك ان تحشريني في زمرة هذا النوع من الاشخاص ! •• ليس في سني يقع المرء في عشق بنت كهذه ، وصدقيني أخيرا ، يا سيدتي ، اذا قلت لك انني أعرف واجبي ، ومهما تصدعي رأسي بنبل نفسك فسأظل أكرر لك ماسبق أن قلته ، وهو : ان الجريمة تبقى جريمة ، وان الخطيئة تبقى خطيئـة ، انها تظل حقيرة ، منحطة ، مثيرة للاشمئزاز ، رغم السمو الذي نحب أن نرفع اليه عاطفة الرذيلة • ولكن كفى كفى ، لا أحب أن أسـمع بعـد الآن شيئا عن هذه الحقارات •

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تبكي •

وقالت أخيرا وهي تشهق وتحيطني بذراعيها :

ـ انني أقبل أن أتحمل هذا كله وحدي • أتمنى أن تكون ظنوني دنيئة وأن تنظر أنت الى هذه الظنون نظرة احتقـار • ولكن انت أيتهـا البائسة لماذا حكم عليك أن تسمعي هذه الاتهامات المهينة ؟ انني لا أستطيع أن أحميك • انني لا أملك حق الكلام ! رباه ! انني لا أستطيع مع ذلك أن أسكت يا سيدي • ان الامر أقوى مني •• ان ما تقوله جنون ••

فهمست في أذنها أحاول تهدئتها قائلة :

ـ كفى ، كفى •

كنت أخشى أن يزيد هذا الكلام القاسي الذي وجهته اليه ، أن يزيد غضبه وسخطه ، وكنت أرتعد خوفا عليها !

فاذا هو يهتف قائلا :

ـ ولكن أيتهـا المـرأة العميـاء ، أنت اذن لا تعلمـين ، أنت اذن لا ترين ..

وتوقف عن متابعة كلامه لحظة ، ثم استأنف كلامه وهو يتجه الىّ وينتزعني من بين ذراعي امرأته :

ـ اذهبي من هنا . لا أسمح لك بأن تلمسيها . انك تلوثين زوجتي، ان وجودك اهانة لها !

ثم صرخ وهو يضرب الارض بقدمه :

ـ ولكن فيم أحرص على السكوت حين لا يكون بدّ من الكلام ؟ .. سأقول كل شيء ، كل شيء . انني لا أدري ، يا آنسـة ، ما الذي تعرفينه ، ولا أعلم هذا الامر الذي تظنـين انك تهـددينني به ، ثم انني لا أحب أن أعلمه !

ثم التفت الى الكسندرين ميخائيلوفنا متابعا كلامه :

ـ اسمعي ، أقول لك اسمعي ..

فهتفت وقد هرعت أدخل بينها وبينه :

ـ اسكت !

ـ اسمعي !

ـ اسكت باسم ..

فقاطعني بعنف وهو يرمقني بنظرة متحدية :

ـ باسم ماذا ؟ باسم ماذا ؟ اسمعي يا سيدتي . لقد انتزعت من بين يديها رسالة من عشيقها ... هذا ما يجري في بيتك ، هذا ما تعمله هذه البنت بفضل حمايتك لها ، هذا ما لا ترينه ، ولا تحبين أن تريه !

وترنحت من شدة الذعر • ونظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فاذا هي صفراء كالميتة ••

وقالت لاهثة بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ مستحيل !

ـ لقد رأيت هذه الرسالة ، وأمسكتها بيدى ، وقرأت منها الاسطر الاولى ، ولم يبق بعد ذلك من شك • انها رسالة غرام ولقد انتزعتهـا من بين يدى ، وهى الآن معها • الامر واضح ، ولا يجوز الشك اطلاقا • وان كنت في شك من الامر مع ذلك فما عليـــك الا أن ترى الرسالة ، فتحكمى بنفسك !

فهتفت الكسندرين ميخائيلوفنا وهي ترتمي نحوى :

ـ نيتوتشكا •• ولكن لا ، اسكتي ، اسكتي • يا الهى ! كيف يمكن أن يكون ذلك ، كيف يمكن أن يحدث ؟ يا الهى !

ودفنت وجهها في يديها وهي تنشج نشـيجا قويا ، ثم اســـتأنفت تقول :

ـ ولكن لا • هذا مستحيل ؛

ثم حدقت في زوجها قائلة :

ـ أنت مخطىء • لست أفهم ما معنى هذا كله ! انك لم تخدعيني ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟ قصي على كل شيء دون أن تخبئي شيئا ؟ لقد أخطأ الرؤية ، أليس كذلك ؟ أليس مخطئا ؟ لقد رأى شيئا آخر ، لقد أخطأ ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ اسمعى ، يا آنيت ، لماذا لا تقولين لى كل شيء ، لى أنا يا عزيزتى الصغيرة ، يا ابنتى الحبيبة !

فتهف بطرس الكسندروفتش من فوق رأسى قائلا :

ـ أجيبي . لمـــاذا لا تجيبين ؟ أجيبي : أرأيت بين يديك رسالة أم لا ؟

فقلت لاهثة :

ـ نعم .

ـ وهذه الرسالة كانت من عشيقك ؟

ـ نعم !

ـ ومازالت صلاتك بهذا العشيق قائمة ؟

ـ نعم ، نعم ، نعم .

قلت ذلك دون أن يعنيني هل أنا أجيب على الأسئلة التي تطرح عليّ ، فقد كان كل همي أن أفرغ من هذا الامر بأقصى سرعة ممكنة .

فقال وهو يأخذ يد زوجته :

ـ هل سمعت قولها ؟ والآن ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ ان قلبك مسرف في النبل مسرف في حسن الظن ! صدقيني ، دعي هذه الافتراضات التي نبتت في دماغك المريض .. انك ترين الآن حقيقة هذه .. البنت.. لقد حرصت على أن أبين لك خطل ظنونك . لاحظت ذلك منذ زمان طويل . ويسعدني أخيرا أن أنتزع من ذهنك ما علق فيه من رأي حسن فيها . كان يؤلمني أن أراها الى جانبك ، وأن أراك تداعبينها ، وأن تجلس الى مائدتنا ، وأن أحس بوجودها في بيتنا ، كانت عماوتك تثيرني . ولهذا السبب ، لهذا السبب وحده انتبهت اليها ، وراقبتها . ولاحظت أنت ذلك فنسجت حوله ألف شيء وشيء ، الا أن كل شيء قد اتضح الآن ، وأصبح الشك غير جائز .

ثم التفت الى يختم كلامه قائلا :

ـ غدا يا آنسة تخرجين من هذا المنزل !

فنهضت السكندرين ميخائيلوفنا عن مقعدها وقالت :

ـ لا تتعجل • انني لا أصدق كلمة واحدة من هذه القصة كلها • لا تنظر الىّ هذه النظرة الفظيعة ، لا تسخر مني • سأجعلك حكما على رأيي • آنيت ، بنيتي ، تعالى الى جانبي ، ناوليني يدك ، هكذا !

ثم أضافت تقول في صوت غارق في الدموع وهي تنظر الى زوجها في تواضع وذل :

ـ ما من أحد معصوم من الخطيئة • من ذا الذي يستطيع منا أن يرفض يد أحد ! هاتي يدك يا آنيت ، يا ابنتي • انني لست أفضل منك ولا أحسن ، ان وجودك لا يمكن أن يسوءني ، لأنني أنا أيضا خاطئة •

فصرخ بطرس الكسندروفتش دهشا :

ـ سيدتي ، سيدتي ، انك تنسين نفسك ، عودي الى صوابك !

ـ انني لا أنسى نفسي : أرجوك أن لاتقاطعني ، دعني أتم كلامي حتى النهاية • لقد رأيت بين يديها رسالة ، بل لقد قرأت الرسالة • وأنت تزعم ـ وهي تعترف ـ ان هذه الرسالة من عشيقها ! •• انني لا أدافع عن الرذيلة ، ولو أردت أن أفكر ، لفهمت أو لشعرت أن هذه الطفلة ربما كانت بريئة ! •• كلا ، انني لا أحاول أن أغفر الرذيلة ! ها أنا ذا أبرىء نفسي من ذلك لأريحك • نعم ، لو كانت نيتوتشكا زوجة ، لو كانت أما نسيت واجباتها ، لوافقتك على رأيك • ها أنت ترى اذن انني لا أستثني نفسي •• انظر الى ذلك بعين الاعتبار بدلا من أن تؤاخذني

وتحنق علي • لعلها اذن تلقت هذه الرسالة دون أن تفكر في سوء • لعل عاطفه مفاجئة قد جرفتها دون ان يكون هنالك من يصدها ويأخذ بيدها ! •• واذا كان الامر كذلك فانا المذنبة الوحيدة لانني لم أراقب قلبهـــا • لعل هذه الرسالة هي الاولى ، ولعلك بظنونك الفظة قد دنست العاطفة المقدسة التي تمثلها ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست تفكير هــذه الطفلة ! •• انك اذن لم تر شيئا من هذا الخفر الذي يشع في وجههـا الطاهر ! لقد رأيت هذه الصغيرة المسكينة تجيب على أسئلتك كيفما اتفق لها ، لأنها في اضطراب شديد وارتباك عظيم ، ولأنها لا تريد أن تتخلص من عذاب هذه الاسئلة التي لا محل لها • نعم ، نعم ، ان هــذه الاســئلة لا محل لها ، انها وحشية ، خالية من العاطفة الانسانية • انني أســتنكر تصرفك • لن أغفر لك هذا أبدا !

فصرخت وأنا أعانقها :

ـ نعم ، ارحميني ، ودافعي عني ، أتوسل اليك • لا تتركيني •

وسقطت على ركبتيها •

بينما تابعت هي كلامها تقول بصوت مخنوق :

ـ ولولا انني موجودة ، فلربما كنت أخفتها بكلامك الى حد اقناعها بأنها مجرمة ، لربما كنت خنقت ضميرها وحطمت قلبها •• يا الهي ! كنت تنوي أن تطردها ! ولكن هل تعلم أنك ان طردتها طردتني معها • نعم ، ان طردتنا كلتينا • هل سمعت ما أقول يا سيدي ؟

كانت عيناها تقدحان شررا ، وكانت تلهث بقوة ، وقد أوشك انفعالها المرضي أن يبلغ درجة التشنج •

فصرخ بطرس الكسندروفتش أخيرا يقول :

ـ يكفى هذا يا سيدتى . لقد سمعت ! كفى ، كفى . اننى أعلم ان هنالك عواطف آفلاطونية ، آعرف ذلك على حساب شقائى ، يا سيدتى ، هل تسمعين ؟ .. نعم على حساب شقائى ، لأننى لست من أولئك الذين يمكن أن يغلف لهم العلقم بالسكر يا سيدتى . لست آحب هذا . لاتذرى الرماد فى العيون ! .. اذا كنت تعتبرين نفسك مجرمة ، اذا كان قد بدا لك أن تتركى البيت .. فما علىّ الا أن أذكرك بأنك أخطأت فى أنك لم تنفذى هذا المشروع فى الوقت المناسب ، منذ ... نعم ، أستطيع أنأحدد لك اليوم على وجه الدقة ان كنتِ قد نسيته !

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا . كانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت مستندة الىّ وقد خارت قواها من فرط ما حبست ألمها . ما هى الا دقيقة حتى يمكن أن تنهار مغشيا عليها !

فصرخت وأنا أرتمى على ركبتى بطرس الكسندروفتش :

ـ أوه . حباً بالله ، ارحمها ، ارحمها . لا تزد على ما قلت كلمة واحدة !

غير أن الاوان كان قد فات . فها أنا أسمع جواب كلماتى صرخة ضعيفة ، وها هى المرأة البائسة تهوى على الارض !

قلت :

ـ انتهى الامر . قتلتها . ادع الناس . انقذها . سأنتظرك فى حجرة عملك . أريد أن أكلمك . سأقول لك كل شىء !..

ـ كل شىء ؟ عن ماذا ؟

ـ فيما بعد .

ودامت الأزمات العصبية بعـــد الاغماء ســاعتين ، واهتز البيت كله وانقلب رأسا على عقب • وهز الطبيب رأسه وقد ظهرت فى وجهه علائم القلق • وبعد ساعتين دخل بطـرس الـكسندروفتش الى حجرة عمله ، لقد ترك زوجته منذ لحظة • كان ممتقع اللون مضطربا ، فأخذ يمشى فى طول الغرفة وعرضها جيئة وذهابا ، ويقرض أظافره بقوة حتى ليخرج من أصابعه الدم • لم أره فى حياتى على مثل هذه الحال !

وأخيرا قال بصوت مبحوح خشن :

ـ ماذا تريدين أن تقولى لى ؟

ـ اليك الرسالة التى أردت أن تنتزعها منى • هذه هى ؟

ـ نعم •

ـ خذ •

فأخذ الرسالة وحملها الى النور • راقبته بانتباه شديد • وما هى الا ثوان حتى قلبها على الصفحة الرابعة ليقرأ التوقيع المذيل به •• ورأيت الدم يصعد الى وجهه !

سألنى وقد تجمد من فرط الدهشة :

ـ ما معنى هذا ؟

ـ وجدت هذه الرسالة منذ ثلاث سنين فى أحد الكتب ، ففهمت انها نُسيت فيه ، وقرأتها وحزرت كل شىء • وقد احتفظت بهـا منـذ ذلك الوقت وأنا لا أدرى لمن يجب أن أعطيها • كنت لا أســتطيع أن أردها اليها هى •• أما أنت ، فلم يكن يعقل انك تجهل مضمونها ، أو تجهل شيئا من هذه القصة الحزينة • لماذا كنت تمثل هذه المهزلة ؟ لا أدرى !

•• ان ذلك ما يزال غامضا في ذهني • انني لا أستطيع أن أنفذ الى خفايا نفسك • لعلك أردت أن تبرهن على تفوقك ، أن تسيطر على زوجتك• ولكن لماذا ؟ لكي تظفر على ما يسكن رأسها من أشباح ؟ •• لكي تسيطر على خيالها المريض ؟ •• لكي تبين لها انها متوهمة ، انك بلا خطيئة ، في حين أنها خاطئة ؟! •• ولقد كان لك ما أردت ، لأن ظنونها ما هي الا الفكرة الثابتة التي تستبد بنفس تذوى •• ما هي الا التوجع الاخير يصدر من قلب حطمه الظلم الانساني بحكمه عليه ، وقد شاركت أنت في هذا الحكم الظالم • « انك لا تحبني » ، هذا ما قالته • هذا ما أرادت أن تفهمك اياه • ولكن صلفك واثرتك المستبدة كانا بلا رحمة • وداعا • اعفني من ايضاحاتك • ولكن انتبه ، انني أعرف حق المعرفة ، انني أقرأ حقيقتك في نفسك ، لا تنس هذا !

واتجهت نحو غرفتي ، وأنا لا أكاد أعي ماذا أفعل • وفي اللحظة التي هممت فيها أن أفتح الباب ، استوقفني « أوفروف » ـ سكرتير بطرس الكسندروفتش ـ وهو يقول لي في كثير من الاحترام والتعظيم :

ـ أحب أن أكلمك •

فنظرت اليه دون أن أفهم ما يقول ، ثم أجبته وأنا أمر أمامه :

ـ فيما بعد • اعذرني الآن ، انني مريضة أتألم •

فقال وهو ينحني ويبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ حسنا • الى الغد !

الليالي البيضاء

١٨٤٨

« الليالى البيضاء » (Belyia notchi)
كتبت سنة ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة
« حوليات الوطن » ، فى شهر تشرين
الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٤٨ .

الليلة الأولى

كانت الليلة جميلة ، جميلة جمالا لا نراه الا حين نكون في ريعان الشباب أيها القراء الاحبة ! السماء تتلألأ فيها النجوم ، وهي تبلغ من الصفاء آن المرء يتساءل بالرغم منه حين ينظر اليها : « هل يمكن تحت مثل هذه السماء أن يعيش أناس يملأ قلوبهم البغض وتعبث بنفوسهم النزوات ؟ » السؤال ساذج ، ساذج جداً ، أيها القراء الاحبة ! ولكنني أسأل الله العلي القدير أن يبعثه في أنفسكم أحياناً كثيرة ! .. انني حين أحدثكم عن البشر اللذين تعبث بنفوسهم النزوات ويملأ قلوبهم البغض أتذكر سلوكي خلال ذلك اليوم كله . كانت نفسي تمتلىء حزناً منذ ذلك الصباح ، وكان يخيل الي أن العالم كله يهجرني ، وأن الناس جميعاً يهربون مني .

من حقكم أن تسألوني طبعاً : ولكن من هم « هؤلاء الناس ؟ » . ذلك أن ثماني سنين انقضت على اقامتي بمدينة بطرسبرج ثم لم أستطع أن أعقد مع أحد أواصر صداقة . ولكن فيم كان يمكن أن ينفعني الأصدقاء ؟ انني أعرف بطرسبرج كلها . لذلك خيّل اليّ أن الناس جميعاً هجروني لأن المدينة كلها سافرت الى الريف . انه ليشق على نفسي

كثيرا أن أبقى وحيدا • وهأنذا منذ ثلاثة أيام ، أطوف في المدينة هائماً على وجهي لا أفهم ماذا يجري في نفسي • أجتاز شارع نفسكي ، أو اذهب الى حديقة الصيف ، أو اتنزه على الارصفة * ، فلا أرى هنا ولا هناك أي وجه من وجوه أولئك الذين ألفت أن ألقاهم طوال السنة ، في مواضع معينة وساعات محددة •

صحيح أنني في نظرهم غريب • ولكنني أعرفهم أنا جميعاً • لاشيء فيهم يفوتني • درست هيئاتهم • كنت اعجب بهم حين أراهم مرحين ، وأتألم حين أبصر انهم حزانى • ولقد انعقدت صلة بيني وبين شيخ قصير القامة كنت ألقاه في ساعة بعينها من جميع الأيام على نهر فونتانكا • في وجهه تعال وكبر ، وفي عينيه أحلام • وهو يدمدم دائماً في لحيته ، محركا ذراعه اليسرى ، بينما تمسك يده اليمنى بعصا ذات قبضة من ذهب • لقد لاحظني هذا الرجل ، وهو يهتم بحالتي النفسية • فاذا لم أكن في ساعة معينة في موضع معين من قناة فونتانكا أحزنه ذلك فيما أعتقد* • لذلك يحييي أحدنا الاخر أو يكاد يحييه ، لا سيما حين نكون كلانا في مزاج صاف رائق • فاذا اتفق أن انقضى يومان دون أن يرى أحدنا صاحبه ثم التقينا في اليوم الثالث ارتفعت يدانا الى قبعتينا عفواً ، ولكن كلاً منا مايلبث أن يثوب الى رشده فيمر بصاحبه على بشاشة متبادلة •

والمنازل صديقة لي أيضا • فحين أسير فكأن كل منزل من هذه المنازل يقبل عليّ وينظر اليّ من جميع نوافذه ويقول لي : « نعمت يوماً ! كيف حالك ؟ أنا بخير والحمد لله • في شهر آذار سيضاف اليّ طابق جديد » أو يقول لي : « كيف صحتك ؟ أما أنا فسيصلحونني غداً » أو يقول لي أيضاً : « لقد أوشكت أن أحترق وخفت خوفاً شديداً » • الخ • الخ •• وبين هذه المنازل منازل أوثرها ، فكأنها من رفاقي ، فمنها واحد

ينوي أن يعالج هذا الصيف لدى معمار ، فأنا أتعمد أن أمر به في كل يوم حتى لا يسرفوا في افساده ، وأسأل الله أن يحرسه وأن يصونه ! ..

ولن أنسى ما حييت قصة ذلك البيت الجميل الصغير الوردي اللون ! لقد كان من حجر ، وكان أنيقا لطيفاً ، وكان يرمقني دائماً بنظرة محبة ويبلغ من الادلال والزهو بالنظر الى جيرانه أن قلبي كان يبتهج ابتهاجاً كبيرا كلما رأيته في نزهه من نزهاتي . فلما اجتزت الشـــارع في الاسـبوع الأخير نظرت الى صديقي الصغير فسمعته يئن قائلا : « سيصبغونني بلون أزرق » ! يا للبرابرة الهمج المتوحشين ! انهم لا يشفقون على شيء ولا تأخذهم بشيء رحمة أو رأفة : لا الأعمدة ولا الأفاريز ! وأصبح صديقي أصفر كطائر الكناري . ثارت ثائرتي وكدت أصاب بنوبة عصبية ، وما زلت الى الآن أشعر بأنني لا أستطيع النظر مرة أخرى الى صديقي الصغير الذي شوهوه تشويهاً كاملا وصبغوه بألوان امبراطورية السماء . *

لقد أصبحتم الآن لا تجهلون أيها القراء كيف أعرف بطرسبرج !

سبق أن قلت ان قلقاً قد عذبني خلال ثلاثة أيام الى أن عرفت سببه. كنت أشعر في الشارع بغربة (هذا غائب ، وذاك مسافر ، وأين الآخر ؟) وفي بيتي أيضا أصبحت أنكر نفسي . تساءلت خـلال سهرتين كاملتين : « ما الذي ينقصني في غرفتي الصغيرة ؟ لماذا أشعر بوحشة هنا ؟ » وأمضي أنظر حائراً في الجدران الخضراء التي غشيها الدخان ، وفي السقف المغطى بأنسجة العنكبوت التي كانت ماتريونا تنجح في الحفاظ عليها أيمـا نجاح ، وأعيد النظر الى جميع الأثاث ، فأدقق في كل كرسي من الكراسي علني أجد السبب فيما أشعر به من ضيق (ذلك أن قطعـــة من الأثاث تجعلني مريضاً اذا هي لم تكن في مكانها) . ونظرت من النافذة فلم أظفر بطائل .. لم تتحسن حـــالي . حتى لقـــد أردت أن أنادي ماتريونا ،

فاستدعيتها ولمتها على انها لم تطهر السقف من انسجة العنكبوت ، وأخذت عليها اهمالها عامةً : ولكن عينيها أظهرتا دهشة ثم خرجت دون أن تنطق بكلمة ، وظل نسيج العنكبوت على حاله من الصحة والعافية حيث كان • ولم احزر السبب الا اليـوم فى اخـر الامر • لقد « فلوا » جميعـا الى الريف • اغفروا لى هذه الكلمة العامية ، ولكنني لست الان من صـفاء المزاج بحيث أجيد تخير الالفاظ وانتقاء العبارات • ان بطرسبرج كلهـا قد سافرت الى الضواحى • وما من رجل مهيب المنظر وقور الطلعة أراه ينادى حوذياً فى الشارع الا وأتصوره رب أسرة يسافر ليستريح فى الريف مع ذويه بعد سنة قاسية من عمل قاس ، وما من عابر سبيل الا ونظـرته تقول : « لن نمكث هنا يا سادتى الا برهة قصيرة ، وبعد ساعتين سـنكون فى منزلنا الريفى » • وهذه نافذة تـفتح ، وهذه أصابع صغيرة دقيقة ناعمة بيضاء كالسكر تضرب الزجاج ضربات خفيفة ، وهـذا وجه نضير هو وجه فتاة تظهر من النافذة فتنادى بائع الازهار فيبدو لى ان هذه الازهار انمـا تشترى لتذهب فورا الى الريف وتختفى ، لا لتعطر مسكنا فى المدينة أو لتهب للأعين فرحة الربيع •

ولقد بلغت من التقدم فى هذا النوع من الاكتشافات ، أننى كنت أستطيع أن أعرف بنظرة واحدة أى بيت ريفى يسكنه أى واحـد من هؤلاء المسافرين • ان الأسر التى تقيم فى جزر كامنى وآبتكارسكى وفى طريق بترهوف تتميز بما تتعمده من حركات أنيقة وآداب رفيعة وبمـا تملكه من ملابس غنية للصيف وعـربات فخمة رائعـة • وان سـكان بارجولوفو وسكان القرى المجاورة يلفتـون النظر بفخامة منظرهم وذكاء هيئاتهم * • ولا كذلك سكان جزيرة كريسكوفسكى فانهم أهل فـرح ومرح لا ينطفئان •

فاذا التقيت بمـوكب طويل من المسـافرين يتقدمون بخطى بطيئة

ممسكين أدلتهم بأيديهم قرب عرباتهم الملأى بالاثاث والموائد والكراسى والأرائك التركية وغير ذلك ، وفوقها طباخة نحيلة تحافظ على رزق مولاها محافظتها على بؤبؤ عينيها ، أو اذا رأيت قوارب تجرى على نهر نيفا أو نهر فونتانكا ملأى كذلك بأنواع الأمتعة ـ تكاثر ذلك كله في عينيّ وتضخم مسافروا الى الريف مواكب مواكب • ان بطرسبرج كلها تهدد بأن تصبح صحراء مقفرة • لذلك كنت أشعر بحزن وقلق يملكان عليّ نفسى • كنت لا أعرف أين أذهب • وما كان ثمة داعٍ يهيب بى الى السفر • كنت أتمنى أن أتبع كل عربة من العربات ، وأن أجرى وراء كل مسافر من المسافرين ، ولكن ما من أحـــد يدعونى فقد نسونى ، وكأننى غريب عنهم جميعا !

لبثت أسير زمناً طويلا هائما على وجهى لا أعرف الشـــوارع التى أقطعها ، فاذا أنا أجد نفسى آخر الامر فى ظاهر المدينة • اجتزت حدود المدينة وقطعت الحقول والسهول لا أصغى الى التعب ؛ ولكننى شعرت بأن حملا ثقيلا قد سقط عن كتفى ، وشعرت براحة تشيع فى نفسى وفرح يترقرق فى قلبى • المسافرون ينظرون اليّ نظـــرة محبة ومودة ، حتى لكأنهم يحيوننى • فى وجوههم يلوح الرضى والسرور وهم جميعا يدخنون السيكار • كنت أنا أيضا سعيدا كما لم أكن كذلك فى يوم من الأيام • حتى لقد حسبتنى فى ايطاليا ، فالى هذه الدرجة كانت الطبيعـة جميلة • ان الطبيعة لتملؤنى الآن بشراً واعجابا أنا الساكن المسكين من ســكان المنازل الخانقة فى المدينة •

ان ثمة شيئا لا يمكن تحديده أو وصفه ، شيئاً يؤثر فى النفس أبلغ تأثير فى طبيعة بطرسبرج لحظةَ تفجّر كل قوتها عند اقتراب الربيـع ، فاذا سماؤها تتلألأ جمالا ، واذا أزهارها تسطع بكل ما لها من سناء •••

ان طبيعة بطرسبرج تذكرك عندئذ بعذراء مريضة تنظر اليها أحياناً نظرة اشفاق ، وتنظر اليها أحيانا نظرة حب ، عذراء قد لا تلتفت اليها في ساعات أخرى ولكنها تبلغ على حين فجأة من الجمال أنك تتســاءل وقد جننت اعجابا وافتتانا : « أية قوة تحمــل هاتين العينين الحـزينتين الحالمتين على الاحتراق بنــار كهذه النار ؟ ما الذى نادى الدمع الى هــذين الخــدين الخاسفين الناحلين الشاحبين ؟ أية عاطفة آنهدت هذا الصدر ، وأى هوى جمّل القسمات الدقيقــة من هــذا الوجه ؟ ما الذى دعا القوة والحيــاة والحسن فجاة الى وجنتى هذه الفتاة المسكينة ؟ ما الذى أضاء هذا الثغر بمثل هذه البسمة ؟ ما الذى حرك الفم بمثل هذه الضحكة الرنانة المشرقة ؟ »• وتنظر أنت حولها باحثاً عن أحد فتحزر وتقدر ! • ولكن اللحظة تنقضى• ولعلك سترى فى الغداة تلك النظرة الزائغة نفسها ، وذلك الوجه الشاحب نفسه ، وآثار حزن قاتل يبكى هوى عارضا ••• ويحزنك ان غاب ذلك الحسن الوامض الى الأبد ، ويحز فى نفسك أن الوقت لم يتسع حتى لأن تحبها •••

وكان ليلى أجمل من نهارى واليكم ما حدث لى :

رجعت الى المدينة فى ساعة متأخرة ، وحين قاربت أن أصل الى بيتى كانت الساعة قد دقت العاشرة • كنت أسير على رصيف القناة الذى لا يلقى المرء عليه أحداً فى مثل هذه الساعة • اننى أقيم فى حى بعيد من المدينة• وكنت أسير وأنا أغنى كما يتفق لى ذلك حين أكون سعيداً • وتلك عادة مشــتركة بين جميع المعتزلة الذين ليس لهم أصــدقاء ثم يخطر لهم أن يفصحوا عن فرحهم ! وانى لكذلك اذا بطارىء لم يكن بالحسبان يمنعنى من العودة الى مسكنى •

لقد أبصرت امرأة متكئة بكوعيها على افريز الجسر • كان يبـــدو

عليها أنها تنعم النظر في ماء القناة العكر • ان على رأسها قبعة صفراء صغيرة جميلة ، وهي ترتدي خمارا أسود أنيقا • قلت لنفسي : هذه فتاة ، ولا شك أنها سمراء • لم تسمع وقع خطواتي وأنا أقترب منها ، ولا تحركت قط حين مررت بها حابساً أنفاسي • شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قويا • قلت لنفسي : «غريب ! لا بد انها غارقة في تفكير عميق » ثم لم ألبث أن توقفت فجأة ، كأنني تسمرت في مكاني : لقد سمعت نشيجاً مكتوما ، بكاء مخنوقا • نعم لم يكذبني سمعي ! لقد كانت الفتاة تبكي ! رباه ! ما أشد ما انقبض صدري • صحيح أنني خجول مع النساء • ولكن اللحظة كانت تقضي ••• عدت أدراجي متجها نحـــوها وكدت ان أخاطبهـا هاتفـا : « يا مدموازيل » لولا انني تذكرت أن هذا الهتاف قد كتب آلاف المرات في جميع الروايات الروسية التي يقرؤها أبناء المجتمع الراقي • ذلك هو السبب الوحيد الذي منعني من مخاطبتها هاتفـــا بها « يا مدموازيل » • ولكن ، فيما كنت أبحث عن الكلمة المناسبة التي أخاطبها بها ، ثابت هي الى رشدها ، فانتصبت ، ونظرت حولها ، ثم اندفعت تجتاز رصيف النهر ، فتبعتها فورا ، ولكنها حزرت أنني أتبعها فتركت رصيف النهر ، واجتازت أحد الشـــوارع ، ومضت تسير على رصـيفه • لم أجرؤ بعـــد ذلك أن أتبعها ، فقد أخذ قلبي يخفق خفقان قلب عصفور سجين • غير أن ظرفا لم يكن في الحسبان قد خدمني في هذه اللحظة •

فعلى الجهة الأخرى من الرصيف ظهر فجأة ، غيرَ بعيدٍ من فتاتي المجهولة ، رجلٌ مسن قليلا يرتدي رداء فراك • كانت مشيته غير ثابتة ، فهو يترنح متسنداً على الحائط • والفتــاة تمشي مسرعة تغـذ الخطى ككل الفتيات اللواتي يرفضن سلفا أية دعوة الى اصطحابهن • وما كان لهـذا السيد الذي لا يزال يترنح في مشيته أن يدركها ، لولا أن قـدري قد أوحى اليه أن يعمد الى وسائل متعمدة ، فها هو ذا يسرع الخطو دون أن

يقول كلمة واحدة ، ويركض وراء الفتاة المجهولة • كانت الفتاة تسير مسرعة كالريح ، ولكن السيد الذى كان يمشى مشية سكران أصبح يزداد اقترابا منها شيئا بعد شيء حتى آدركها فأمسك بها فاذا هى تصرخ ••• بورك في القدر الذى جعلنى فى تلك اللحظة حاملا عصاى الرائعة فى يدى اليمنى ، فما هى الا وثبة واحدة حتى كنت فى الجهة الاخرى من الرصيف • وسرعان ما فهم الرجل من ذا الذى يتصدى له ، فلم يلبث أن أذعن لحجتى التى لا سبيل الى مقاومتها ، وانسحب دون آن يقول كلمة واحدة • وكنا قد ابتعدنا أنا والفتاة حين سمعنا تهديدات قوية • ولكن أقواله أصبحت لا تبلغ سمعنا •

قلت للفتاة :

ـ ناولينى يدك فلا يجرؤ بعد ذلك على أن يقترب •

فلما مدت الىّ يدها صامتة شعرت بها ترتعش انفعالا وذعرا • ما أكثر ما باركت ذلك الرجل فى تلك اللحظة ! وألقيت نظرة سريعة على رفيقتى • انها جميلة سمراء • لقد حزرت ذلك • وكانت دموع صغيرة لا تزال تتلألأ على أهدابها الطويلة السوداء • أهو حزن ؟ أهو خوف ؟ لا أدرى ••• ولكن بسمة قد أخذت تنير وجهها منذ الآن ! وألقت علىّ نظرة مختلسة هي أيضا ، فاحمرت قليلا ولزمت الصمت •

قلت لها :

ـ لماذا صددتنى ؟ لو كنت معك لما وقع الذى وقع •

ـ ولكننى لم أكن أعرفك ، فقدرت أنك أنت أيضا •••

ـ والآن هل تعرفين من أنا ؟

ـ قليلا ! ولكن لماذا ترتجف ؟

ـ اذن لقد أدركت دفعة واحدة !

كذلك صحت فرحا • لقد سحرني أن أرى أنها ذكية • وذلك أمر لم يفسد جمالها • وتابعتُ أقول :

ـ نعم لقد أدركت فورا أي رجل أنا ! نعم انني خجول مع النساء • وأنا الآن مضطرب الحواس كاضطرابك أنت منذ لحظة حين أخافك ذلك الرجل ••• ان الرعب قد استبد بي حتى ليخيل الى أنني أحلم ! بل انني في أحلامي نفسها لم يدر في خلدي يوما أنني سأخاطب امرأة •

ـ كيف ؟ أهذا صحيح ؟

ـ نعم ! واذا ارتجفت يدي فلأنها لم تمسك في يوم من الأيام يداً لطيفة كيدك • لقد هجرت معاشرة النساء هجرا تاما ! أعني أنني لم أعاشرهن يوما ، فأنا أعيش وحدي ••• حتى أنني لا أعرف كيف أكلمك ، وما زلت الى هذه اللحظة نفسها لا أعرف ذلك • ألم أرتكب في حديثي حماقة من الحماقات ؟ أجيبيني بصراحة فلست سريع التأذي•

ـ لا •• لا •• بالعكس •• واذا شئت أن أصدقك القول اعترفت لك بأن هذا الخجل يعجب النساء ! واذا أحببت أن تعرفُ المزيد فاعلم أن هذا الخجل يعجبني أنا كثيرا • فأرجوك أن تصحبني الى النهاية •

ـ ولكنك ستجعلينني أفقد كل خجل فأفقد بذلك جميع ما أملك من مزايا •

قلت ذلك وأنا ألهث سعادة •

قالت :

ـ مزايا ؟ أية مزايا ؟ لماذا ؟ ذلك وحده نذير سوء •

ـ معذرة ! كان الامر أقوى منى ! وكيف أستطيع فى لحظة كهذه ألا أتمنى أن أنال •••

ـ الاعجاب ؟ اليس كذلك ؟

ـ طبعا ! أرجو أن تترفقى بى ! احكمى فى الامر بنفسك• لقدبلغت من العمر سته وعشرين عاما ولم ار فى حياتى احدا ، فانى لى ان اجيد الكلام بحذق ولباقة • ولسوف يحسن حالك آنت نفسك حين آتخلص من بعض هذا الخجل ••• لا أستطيع أن أسكت حين يتكلم قلبى ••• لا ضير على كل حال ••• صدقى أو لا تصـــدقى ••• الحقيقة أننى لم أعرف امرأة فى حياتى قط ، ولم تنعقد بينى وبين أحد صداقة حتى الآن ، وأملى فى كل يوم أن ألتقى أخيرا بانسان ! ليتك تعلمين كم مرة تولهت حبا على هذا النحو •

ـ ولكن كيف هذا ؟ وبمن تولهت ؟

ـ لم أتوله بأحد ! وانما تولهت بالمثل الأعلى الذى أراه فى أحلامى• أنا أخلق فى أحلامى روايات بأسرها ! انك لا تعرفيننى ! صـحيح أننى التقيت بامرأتين أو ثلاث ، فليس يستطيع المرء أن يعيش بدون ذلك ••• ولكن من كانت هاته النسوة ! خادمات بيوت ••• سوف أضحكك قليلا، فأعترف لك بأننى أردت عدت مرات أن أشرع فى حديث رقيق فى الشارع مع امرأة ارستقراطية • كانت عندئذ وحدها طبعا ، فاقتربت منها بخجل واحترام وعاطفة قوية •

قلت لها اننى أموت فى عزلتى وسـألتها ألا تصـدنى لأنى لا أملك الوسائل اللازمة لامتـــلاك امرأة • برهنت لها على أن من واجبهــا أن تستجيب لرجاء رجل بائس كبؤسى • ولقد أفهمتها على كل حال أن كل

ما أطلبه منها هو أن تخاطبني بكلمتين ، ببضع كلمات أخوية ، أن تهتم بمصيري ، أن تثق بكلامي وألا تستخف بي (اذا حلا لها ذلك) الا بعد أن تهب لي شيئا من أمل • كنت أرغب في كلمتين منها ، كلمتين فحسب ، ثم نستطيع بعد ذلك أن نفترق الى الأبد ! ••• أراك تضحكين ! ••• على كل حال ، ذلك كان هدفي من سرد هذه القصة •

ـ لا تزعل : أنا أضحك لأنك عدو نفسك ، ولو قد حاولت مغامرة ما فلربما أصبت نجاحا ••• ما من امرأة طيبة (اذا لم تكن حمقاء أو معتكرة المزاج) الا وكان يمكن أن تهب لك تينك الكلمتين الأخويتين اللتين ترغب فيهما تلك الرغبة القوية كلها ••• ولكن ماذا أقول ! لاشك أنها كانت ستحسبك مجنونا • ولقد حكمتُ على الأمر الآن على أساس تفكيري أنا • لست أجهل كيف يعيش الرجال •

صحت أقول :

ـ شكراً •• شكرا •• انك لا تعرفين ما صنعته في سبيلي بهذه الاقوال • لقد أحسنت الى كثيرا •••

ـ طيب ! ولكن كيف عرفت أنني امرأة ••• جديرة ••• بالاهتمام والصداقة ••• لماذا تعرضت لي ؟

ـ لماذا ؟ لأنك كنت وحدك • وقد أسرف الرجل في التجرؤ عليك، والوقت ليل ، ألم يكن من واجبي أن أتدخل ؟

ـ لا ، لا ••• قبل ذلك ••• على الجسر •• أردت أن تكلمني •• أليس كذلك ؟

ـ على الجسر ؟ الحق أنني لا أعرف كيف أجيبك ••• انني خائف

••• لقد كنت اليوم سعيدا ••• كنت أغني وآنا أسير ••• طوفت خارج المدينة • لم أعش في حياتي لحظات سعيدة كل هذه السعادة • وظهرت لي ••• ولكن اعذريني اذا ذكرتك ••• لقد تراءى لي انك كنت تبكين ، ولم أستطع أن أحتمل ما سمعت من نشيجك ••• انقبض صدري ••• قلت لنفسي : رباه ! ألا أستطيع أن أقاسمها حزنها ؟ أكان خطيئة مني أن أشعر نحوك بعطف أخوي ••• اغفري لي استعمالي كلمة « العطف » • ولكن قولي لي هل كان يسوءك حقا أن أقترب منك في تلك اللحظة ؟

ـ اسكت ••• كف عن الكلام •••

قالت ذلك وهي تضغط يدي ضغطا قويا •

وتابعت تقول :

ـ أنا المخطئة في التحدث عن هذه الأمور • ولكن يسرني أنني لم أخطىء في حكمي عليك ••• علي كل حال هأنذا قد وصلت • سوف أنعطف في هذا الممر ، فلا يبقى بيني وبين مسكني الا ثلاث خطوات •• الى اللقاء وأشكرك •

ـ اذن لن نلتقي بعد الآن قط ؟ هل انتهى بنا الامر هنا ؟

قالت وهي تضحك :

ـ لم تكن تريد الا كلمتين ، والآن ••• ثم اننا قد نلتقي •

قلت :

ـ سآتي الى هنا غدا • معذرة ••• هأنذا أملي مطالب منذ الآن ••

ـ نعم أنت قليل الصبر تكاد تصدر أوامر ••

قاطعتها أقول :

ـ اسمعي ••• معذرة اذا قلت لك أيضا هذا •• لا أستطيع الا أن آتي الى هنا غدا • أنا امرؤ حالم يبلغ حظي من الحياة الواقعية من القلة والضآلة انني لا بد لي أن أعيش مرة أخرى في أحلامي اللحظات السعيدة التي تشبه هذه اللحظة • سأحلم بك طوال الليل ، الاسبوع كله ، السنة بأسرها • أعود فأقول لك انني آت الى هنا غدا ، الى هذا المكان ، هذا المكان بعينه ؟ وسأكون سعيدا بأنني سأحيا الساعة الراهنة مرة أخرى • هذه الأماكن عزيزة في نفسي • ان لي في بطرسبرج مكانين أو ثلاثة من هذا النوع • لقد حدث لي مرة أن بكيت لذكرى ، كما حدث لك منذ برهة ••• لعل دموعك كانت تسيل أيضا بسبب ذكرى ••• ولكن معذرة ••• ما زلت أمضي بعيدا • لعلك كنت سعيدة هنا في يوم من الايام !

قالت الفتاة :

ـ لك ما تريد ! سآتي الى هنا غداً في الساعة العاشرة ، كاليوم ! هأنت ذا ترى أنني لا أستطيع أن أمنع عنك هذا •• ولكن لا بد لي أن أكون في هذا المكان ! فلا يذهبن بك الظن الى أنني أضرب لك موعداً •• ها قد أبلغتك •• ان عليَّ أن أكون في هذا المكان لشأن من شئوني أنا • على أنني أعترف لك صراحة بأنني لن أضيق بحضورك • فقد تحدث مزعجات كما حدث اليوم • ولكن كفانا كلاما عن هذا • الخلاصة أنني سأحب أن أراك • ولكن حذار أن تحكم عليَّ حكما قاسيا ، حذار أن تتخيل أنني أضرب مواعيد بمثل هذه السهولة ••• ما كان لي أن أطلب اليك المجيء لولا أن ••• ولكن دع هذا سراً لي !

ـ بل تكلمي ! قولي لي السر ! قوليه فورا ! انني أوافق على كل

شيء ! أنا مسؤول عن نفسي ، وسأكون طيعا ، وسأكون في غاية الأدب والاحترام .. أنت تعرفينني .

كذلك صحت فرحا فأجابت وهي تبتسم :

ـ لأنني أعرفك انما أدعوك الى المجيء غدا ! أنا أعرفك حق المعرفة . ولكن حذار ! .. تعال بشرط .. بشرط عليك أن تتذكره دائما وأن يكون ماثلا في ذهنك كل لحظة ! اياك ثم اياك أن تحبني ... ذلك لا يمكن أن يكون ، أؤكد لك . أنا أنشد الصداقة ! فاليك يدي ولكن لا حب ! لا حب !

هتفت أقول وأنا أمسك يدها :

ـ يمينا لأتقيدن بهذا .

ـ دعك من اليمين ! أنا أعرف أن من الممكن أن تشتعل كالبارود . لا تسيء الظن فيّ اذا أنا قلت لك هذا الكلام . ليتك تعلم ! ... أنا أيضا ليس لي أحد أكلمه بقلب مفتوح ، وليس لي أحد أسأله نصحا ؛ ولا أستطيع أن أخاطب انسانا في الشارع . أنت استثناء ! يخيل الي أنني أعرفك كما لو كنا صديقين منذ عشرين عاما ... انك لن تخونني قط .. أليس كذلك ؟

ـ سوف ترين ! .. ولكنني لا أعرف كيف سأعيش هذا اليوم !

ـ نم جيدا ! سعدت ليلتك . وتذكر أنك نلت ثقتي منذ الآن ! وكما قلت أنت نفسك : ليس علينا أن نحلل عواطفنا حتى ولا عواطف المحبة الأخوية ! لقد عرفت كيف تخاطبني فسرعان ما خطر ببالي أن أثق بك وأن أفضي اليك بما في نفسي .

ـ ولكن ما الذى تريدين أن تبوحي لى به ؟ قولى أرجوك •••

ـ الى الغد ، وليبق هذا سرا الآن • وذلك أفضل لك ، حتى يكون أشبه برواية • قد أقص عليك كل شيء غدا ، وقد لا أفعل ! ستتحدث بادئ الامر ••• وسنصبح صديقين حميمين أكثر من الآن •••

ـ نعم سأقص عليك حياتى كلها ! ولكن ما هذا ؟ ان معجزة تتحقق فى نفسى ••• قولى : ألست نادمة على أنك لم تصدينى منذ البداية كما كان يمكن أن تفعل النساء الأخريات ؟ لقد جعلتنى سعيـــدا بلحظة من حديث : نعم جعلتنى سعيدا • صالحتنى مع نفسى ••• بددت شكوكى •• على كل حال سأقول لك كل شيء غدا ••• ستعرفين كل شيء •• كل شيء •••

ـ اتفقنا •• ستبدأ أنت •••

ـ موافق !

ـ الى اللقاء !

ـ الى اللقاء !

وافترقنا • ظللت الليل كله أطوف فى أرجاء المدينة ! لم أستطع أن أعود الى مسكنى ! كنت سعيدا غاية السعادة ! الى الغد !

الليلة الثانية

قالت لى ضاحكة وهى تشد على كلتا يدى :

ـ هه ••• هل عشت يومك ؟

ـ أنا هنا منذ ساعتين • هل تعرفين كيف قضيت هذا اليوم ؟

ـ أعرف ، أعرف ••• ولكن فلنتكلم في أمور جدية • لماذا جئت الى هنا ؟ اننى لم أجيء لأقول سفاسف وترهات كما فعلت أمس • يجب علينا أن نتصرف تصرفا أذكى • لقد فكرت فى هذا كله !

ـ فى أى شيء يجب أن نكون أذكى ؟ على أننى مستعد •• ولكن الحقيقة هى أننى لم يقع لى فى حياتى أمر أذكى من لقائنا •

ـ حقا ؟ أرجوك أولا أن لا تضغط يدى كل هذا الضغط ، وأعلن لك ثانيا أننى فكرت فيك كثيرا أول الامر •••

ـ وماذا قررت ؟

ـ ماذا قررت ؟ قررت أن علينا أن نعود الى البداية ، أن نستأنف كل شيء من أوله ، لأنني لا أعرفك قط • لقـد تصرفت أمس كطفلة ، كبنية صغيرة • طبعا ••• الذنب ذنب قلبي الطيب ••• لقد مدحت نفسي كما نفعل دائما حين نصدر رأيا في أنفسنا • لذلك سأصلح خطيئتي بأن أسألك عن أدق تفاصيل حياتك ، لأنني لا أستطيع أن أسأل أحدا عنك ، فقص عليّ اذن كل شيء بدون أي تكتم • أي رجـــل أنت ؟ قص عليّ تاريخك ! أسرع •

صحت مذعورا :

ـ تاريخي ! ولـكن من قال لك ان لي تاريخـا ! أنا ليس لي أي تاريخ •

قاطعتني ضاحكة تقول :

ـ كيف عشت اذا لم يكن لك تاريخ ؟

ـ عشت دون أي تاريخ ! عشت •• هكذا •• ببساطة •• وحـدي دائما •• هل تفهمين ؟ عشت وحيدا •

ـ عشت وحيدا ؟ كيف هذا ؟ ألم تر انسانا قط ؟

ـ بلى ! انني أرى كثيرا من الناس ولكنني أظل وحيدا •

ـ كيف هذا ؟ ألست تكلم اذن أحدا ؟

ـ هذه هي الحقيقة خالصة • لست أكلم أحدا •

ـ ولكن من أنت اذن ؟ اسمع ! لقد حزرت •• لعل لك جدة مثلي أنا ؟ انها عمياء ، ولا تسمح لي بالخروج أبدا ، لذلك فقدت عادة الكلام

فقدانا تاما . ولما ارتكبت منذ سنتين بعض الحماقات أدركت أنها لن تستطيع أن تحبسني عن الخروج ، فنادتني وربطتني الى ثوبها بدبوس . هكذا نعيش معا أيامنا كلها : هي تنسج جواربها رغم أنها عمياء ، وأنا أجلس الى جانبها أقرأ لها أو أخيط . عادة غريبة ، أليس كذلك ؟ نحن مشدودتان احدانا الى الأخرى بدبوس منذ سنتين ...

ـ رباه ! ما هذا الشقاء ! .. لا .. ليس لي جدة كهذه الجدة .

ـ فكيف تستطيع اذن أن تمكث في بيتك ؟

ـ أراك تصرين على أن تعرفي من أنا !

ـ نعم .. نعم ..

ـ بأدق معاني هذه الكلمة ؟

ـ بأدق معانيها .

ـ لك ما تريدين ! فاعلمي اذن أنني مخلوق غريب .

ـ مخلوق غريب ؟

كذلك صاحت الفتاة وهي تنفجر ضاحكة بقهقهة مجنونة ، وتابعت تقول :

ـ حقا ان المرء لا يشعر معك بملل. اسمع ! هذا مقعد فلنجلس عليه . ما من أحد يجيء الى هنا ، ما من أحد سيسمع كلامنا . ابدأ سرد حكايتك .. انني مقتنعة أن لك حكاية ! لا تخفها عني ؟ اشرح لي أولا ماذا تعنيه بقولك « مخلوق غريب » .

مخلوق غريب ؟ المخلوق الغريب انسان شاذ ، انسان ... مضحك.

كذلك أجبت وأنا أضحك اذ سمعتها تضـــحك ، وتابعت أقول :

ـ المخلوق الغريب طبع خاص ••• مزاج حالم ••• هل تعلمين ما هو الانسان الحالم ؟

ـ الانسان الحالم ؟ كيف لا أعرفه ؟ أنا نفسى أحلم دائمـا • حين أقضى أيامى كلها جالسة قرب جـــدتى ••• رباه ! ما أكثر ما يدور في نفسى حينذاك ! أحلام لا نهاية لها : أتزوج أمـيرا صـينيا مثلا ••• انه ليسعد المرء كثيرا في بعض اللحظات أن يسترسل في الأحلام •

وأضافت تقول برزانة ورصانة :

ـ على كل حال ، من يدرى ؟ لا بد أن يفكر المرء في أمور جدية أيضا •

ـ حسنا لســـوف تفهمينني أيضـــا ما دمت تخيلت أنك تتزوجين امبراطور الصين • فاسمعى اذن ••• ولكن ••• معذرة لم أعرف اسمك الى الآن !

ـ هه ! الآن تفطن الى ذلك ؟

ـ لم يخطر ببالى هذا الامر • كنا على خير حال هكذا •••

ـ يسموننى ناستنكا •

ـ ناستنكا ؟ أهذا كل اسمك ؟

ـ ألا يكفيك هذا أيها الرجل الذى لا يشبع ؟

ـ بالعكس انه ليسعدنى أن يكون اسمك عندى ناستنكا فقط •

ـ طيب •• طيب هأنذا أصغى الى حديثك الآن •

جلست قربها متجمعا على نفسى ، وأخذت أقص عليها كمن يقرأ قراءة :

ـ ان في بطرسبرج يا ناستنكا أركانا غريبة جدا • الشمس التي تسطع لجميع سكان المدينة لا تنفذ الى تلك الأماكن ، وانما تسطع فى تلك الأركان شمس أخرى ذات ضياء خاص كأنه خلق لهذه الزوايا التائهة وحدها دون غيرها •البشر يحيون فى هذه الزوايا حياة لا تشبه الحياة التى تغلى وتفور حولنا مختلفة غريبة بعيدة • هذه الحياة مزيج من صفاء رائع خيالى مثالى ومن اسفاف تافه وابتذال رخيص •

ـ ألله الله ! ••• يا لها من مقدمة ! ما عسانى سامعة أيضا ؟

ـ ستسمعين يا ناستنكا •• (آه ما أسعدنى اذ أناديك بهذا الاسم !) ستسمعين أن هذه الأحياء يسكنها بشر يثيرون العجب والدهشة • انهم الحالمون • والحالم اذا أردت أن أعرفه لك ليس انسانا بل مخلوق ••• لا تحديد له ••• انه يؤثر الزوايا التى لا يمكن بلوغها والوصول اليها ، كأنه يهرب من ضوء النهار ، مثله كمثل تلك الحيوانات الغريبة ـ السلاحف ـ التى تحمل بيوتها معها • ترى لماذا يحبون كل هذا الحب جدرانهم الصغيرة الأربعة المدهونة دائما بلون أخضر ، التى يشيع فيها الحزن ويملؤها الدخان بغير انقطاع ؟ ترى لماذا حين يجيء الى أحدهم صديق (لاحظى أنه يفعل كل ما يحسن أن يفعله على خير وجه حتى يغيب عنه جميع الاصدقاء اخر الامر) ، ترى لماذا حين يجيء هذا الصديق يهب ذلك الانسان الشاذ الى استقباله خجولا كل الخجل وقد تغير وجهه كل ذلك التغير ، حتى لكأنه قارف بين جدرانه الاربعة الصغيرة جرما ، كأنه صنع أوراقا نقدية مزيفة ، أو نظم أبياتاً من الشعر صغيرة ليرسلها الى مجلة مع رسالة لا يذكر فيها اسمه قائلا ان ناظم هذا الشعر صديق له

قد مات وانه يرى أن من واجبه المقدس أن ينشر انتاجه • ولماذا ياناستنكا يخمد الحديث بين هذين الصديقين ؟ لماذا يضوى ويهن ، فلا ضحكة ، ولا كلمة جريئة ، ولا اشارة الى الجنس اللطيف ؟ لماذا يصبح الصديق نفسه (وهو لن يعود قط ولن يكون له خلف) لماذا يصبح الصديق نفسه مضطربا كل ذلك الاضطراب ؟ لماذا يفقد كل حس سليم (اذا كان له منه شيء) حين يلاحظ كيف تشعث وجه رب البيت الذى فقد صـــوابه هو أيضا فقدانا كاملا • ان رب البيت يحاول عبثا أن يظهر علمه بآداب المجتمع وأن يبعث فى الحديث شيئا من الحياة بالكلام على النساء ، وأن يســلى صديقه الذى جاء يزوره خطأ • ولماذا يتناول هذا الصديق أخيرا قبعتـه ويهرع نحو الباب متذكرا على حين فجأة مهمة عاجـلة لا وجود لها فى الواقع ؟ وفجأة يتحرر من العناق الحار ، عناق صاحبه الذى يجهد أن يعبر عن أسفه وأن يصلح ما أفسده فتوره ؟ لماذا ينفجر الصديق ضـاحكا وراء الباب قاطعا على نفسه عهدا أن لا يضع قدميه بعد اليوم فى بيت هذا الانسان الشاذ الذى هو رجل طيب شهم على كل حال • انه يقـارن فى ذكراه بين وضع هذا المسكين صاحب البيت وبين وضع قطة ضربها الاطفال فهربت مذعورة الى الظلام تحت المائدة ، وظلت ساعة بكاملها تسترد عافيتها شيئا فشيئا وتغسل فمها الجريح بقائمتيها الصغيرتين ، وتظل تنظر بعد ذلك نظرة عداء الى كل شيء وحتى الى الخادمة التى تأتيها بطعامها •

قاطعتنى ناستنكا تقول وعيناها تعبران عن الدهشة :

ـ اسمع ! اننى لا أفهم قط كيف يمكن أن يكون هذا الذى تقصه

قد وقع فعلا • ولماذا تلقى عليّ أسئلة غريبة كل هذه الغرابة ؟ ولكنني أعلم أن هذه المغامرات كلها هي مغامراتك •

أجبتها في جد قائلا :

ـ بدون أدنى شك •

قالت ناستنكا :

ـ أكمل اذن ، فانني أحب أن أعرف كيف سينتهي هـذا كله •

قلت :

ـ انك تحبين أن تعرفي حياة بطلنا أو بالأحرى حياتي ، لأن بطـل قصتنا هذه هو أنا ، هو شخصي المتواضع الصغير • تريدين أن تعرفي لماذا اضطربت هذا الاضطراب كله من زيارة صديقي التي لم أكن أتوقعها ، لماذا انتفضت مذعورا واحمر وجهي احمرارا شديدا حين فُتح باب غرفتي، لماذا أنا عاجز عن استقبال ضيف ؟

أجابت ناستنكا :

ـ نعم •• نعم •• اسمع ! انك تجيد رواية قصتك اجادة رائعـة ولكن أليس في وسعك أن تتكلم بلغة أبسط من هذه اللغة وعبارات أبسط من هذه العبارات ؟ انه ليخيل الى أنك تقرأ في كتاب •

أجبتها بصوت رصين وقور محاولا أن لا أضحك :

ـ ناســـتنكا ! أنا أعرف أنني أجيـد الحديث • ولكنني أستميحك عذرا ، فانني لا أستطيع أن أقص بغير هذه الطريقة • أنا أشبه الآن روح الملك سليمان التي يقال ان أختامها السبعة قـد فضت عنه بعـــد أن ظلت

حبيسة سبعة آلاف عام • لقد التقينا يا ناستنكا بعد فراق طويل ••• ذلك أنني أعرفك منذ زمن طويل جدا • آنا آبحث عن آحد منذ سنين • أنا أبحث عنك أنت منذ سنين • ولقد كتب علينا أن نلتقي ، فاذا ألوف العواطف التي ما تزال مكبوتة قد تفجرت في نفسي • وهأنذا أدع لأمواج من الكلام أن تطفح وتفيض حتى لا أختنق • لذلك لاتقاطعيني يا ناستنكا والا اضطررت أن أسكت •

ـ تكلم اذن تكلم ! فلن أنطق بحرف واحد •

ـ هأنذا أتابع اذن • هناك ساعة من ساعات اليوم أحبها كثيرا : هي الساعة التي تنتهي فيها جميع الواجبات والاعمال فيهرع الناس الى منازلهم للعشاء ، ويستلقون نشدانا للراحة • هذه الساعة هي الساعة التي يفكر فيها الناس كيف يقضون السهرة بل الليلة مرحين • ان بطلنا أيضا (اسمحي لي أن أتحدث عن نفسي بصيغة الغائب) ان بطلنا الذي قضى النهار كله في العمل ، يتبع الآخرين في عودتهم الى منازلهم ، ولكن شعورا غريبا باللذة يلاحظ عندئذ على وجهه المتعب الشاحب • انه ينظر الى الغسق الذي يهبط على سماء بطرسبرج الباردة ، ينظر الى هذا الغسق لا نظرة من لا يبالي ، حتى اني لأكذب حين أقول انه ينظر ، فانما هو يتأمل تأملا ، ربما على غير شعور منه ، كانسان متعب تستغرقه أفكار أخرى ، موضوعات أقرب الى اهتمامه والصق بأشواقه • فهو لذلك لا يولي كل ما يحيط به الا انتباها قليلا • هو سعيد بأنه فرغ الى الغد من أعماله الحزينة ، مرح مرح التلميذ يخرج من المدرسة للعب والمتعة • لاحظيه يا ناستنكا تجدي فورا أن عاطفة الفرح التي يشعر بها قد أثرت في أعصابه المريضة وخياله المحموم • انظري ! لعله يفكر •• هل تظنين أنه يفكر في العشاء ؟ في السهرة التي تنتظره ؟ الى من هو ينظر هكذا ؟ أهو ينظر الى ذلك السيد

الوقور الذى حيا سيدة فى عربتها تحية احترام ؟ لا يا ناستنكا انه لا يحفل بهذه التفاصيل ! انه غني بحياته الداخلية النفسية • وأشعة الشمس الغاربة لم تتلألأ عبثا أمامه ، بل غمـــرت روحه بطائفة من المشاعر الجـديدة • أصبح لا يلاحظ الطريق الذى كانت تفاصيله اليسيرة تفتنه قبل ذلك • ان « الهة الأحلام » (هل قرأت جوكوفسكى يا عزيزتي ناستنكا) تنشر أمام بصره منذ تلك اللحظة النسيج الذهبى والصـــور الرائعة والتهاويل الفاتنة من حياة خيالية ساحرة لا يمكن تصورها • ومن يدرى ؟ لعل الهة الأحلام قد نقلته الى السماء السابعة البلورية ، ولعلها تسير به على رصيف من رائق المرمر ! حاولى أن تستوقفيه وأن تسأليه فجأة : « الى أين أنت ذاهب وأىّ شارع قطعت ؟ » • انه لن يســـتطيع أن يجيبك ، وسيحمر خجلا ، ثم يلفق لك كذبة انقاذا للمظاهر • من أجل ذلك انمـا ارتعش وكاد يصرخ ونظر حواليه مذعورا حين اســـتوقفته تلك المـرأة العجوز القصيرة الطيبة تسأله عن طريقها الذى ضلته • لقـــد قطب حاجبيه وتابع طريقه دون أن يلاحظ المارة الذين ابتسموا ودمدموا بكلام لم يسمعه • وهذه بنية صغيرة قد اضطرت أن تنتحى لتفسح له مجالا ، فاذا هى تنفجر فى قهقهة صاخبة حين نظرت بكلتا عينيها الى ابتسامته العريضــة واشاراته البليغة • ولكن « الهة الأحلام » * تلك تصطاد فى شباكها المرأة العجوز أيضا والمارة المستغربين والبنية التى تضحك وحتى أولئك الرجال الذين يلتهمون طعامهم على قاربهم فى نهر فونتانكا • هؤلاء جميعا يحيون فى هذا الحلم الذى اختطفتهم اليه « الهة الأحلام » كما يختطف العنكبوت الذباب الى نسيجه • هؤلاء جميعا يحيون فى ذلك الحلم الذى يحلمه صديقنا حين يعود الى غرفته الصغيرة فرحا ، فيجلس الى مائدته ، ويتعشى ، ولا يثوب الى نفسه الا حين تحمل اليه ماتريونا غليونه ، فهو يستيقظ عندئذ ويتذكر مدهوشا أنه تناول عشاءه لا يدرى كيف ! الظلام يخيم فى غرفته ونفسه

حزينة مقفرة . مملكة الأحلام قد تهاوت حواليه بلا ضوضاء ولا صخب ولم تترك أثرا ! لقد هربت هروب طيف ! حتى أن بطلنا لا يتـذكر أنه حلم . ولكن عاطفة مبهمة تعود فتهز قلبه ، ورغبة أخرى تدغدغ خياله لذيذة ممتعة ، ثم سرعان ما تهيجه ، وتخلق له عالما جديدا من الاشباح شيئا بعد شيء . الصمت يرين على الغرفة ؛ والعزلة والكسل يهدهدان فكره الذي يصعد ويغلي غليانا خفيفا كالماء في غلاية القهوة التي تصنع فيها العجوز ماتريونا قهوتها في المطبخ . والكتاب الذي تناوله صاحبنا الحالم بغير هدف وعلى غير هدى يسقط من بين يده قبل أن يتم قراءة الصفحة الثالثة منه . لقد اهتاج خياله من جديد . وهـذا عالم رائع يظهـر له في صور مثالية . وهذه حياة حافلة بالمباهج تخطر أمامه أشكالا أخاذة ، حلما آخر ، سعادة جديدة ! وها هو ذا يمتص مزيدا من الامتصاص سم اللذة المرهفة . ماله ولحياتنا الواقعية ! نحن لا نحيا الا قليلا جدا ! نحن لا نحيا الا بطيئا جدا ! نحن لا نحيا الا حياة رتيبة جدا . ونحن نندب حظنا كل يوم غير راضين عنه . انظري من حولك : ألا ترين كل شيء في الواقع برودة وغضبا وقسوة ؟ .. « يا لهم من بؤساء » كذلك يقول الحالم لنفسه. ولماذا لا يقوله لنفسه ؟ ان صورا جميلة بعينها تخطر أمامه ، وان أطيـافا رائعة تداعب خياله على متعة ونشوة ، فيرى بطلنا نفسه شخصية أولى في الصف الأول . تصوري جميع تلك المغامرات المتنوعة . تصـــوري هذه السلسلة التي لا نهاية لها من الأحلام الحارة . ولكن لعلك تسألينني عن موضوع أحلامه ... هو رسالة الشاعر ، المغمور في أول الأمر ، المتوّج باكليل المجد بعد ذلك .. هو صداقته مع هوفمان* ، هو ليلة سان بارتلمي، هو ديان فرنون ، هو السلوك البطولي الذي أظهره ايفان فاسيليفتش عند الاستيلاء على قازان ، هو كلارا موفبراي ، هـو ايفي دينز ، هـو أحبار المجمع البابوي وأمامهم هوس ، هو يقظة الموتى في « روبير الشيـطان »

(ألا تذكرين هذه الموسيقى التى تفوح منها رائحة المقابر ؟) هو مينا ويراندا ، هو معركة بيريزينا ، هو قراءة قصيدة عند الكونتيسة ف...د... هو دانتون ، هو كليوباترا وغرامها ، هو بيت كولومنا الصغير ، هو ركن صغير تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حبيبة تصغى الى كلامه فى أمسية من أمسيات الشتاء فاغرة فاها ، محملقة بعينيها الصغيرتين ـ كما تصغين الى الآن يا ملاكى الغالى .. لا يا ناستنكا ما شأن هذا الانسان الوانى بهذه الحياة التى تجنح اليها كلانا ؟ انه مقتنع بأن هذه الحياة صغيرة مسكينة عامية مبتذلة . وهو لا يقول لنفسه ان ساعة قد تجىء فاذا هو يفرحه ان يبيع جميع هذه السنين التى قضاها فى الاحلام بيوم من تلك الحياة . ولا تحسبى أنه سيختار اليوم الذى هو أسعد الأيام فى هذه الساعة التى يعانى فيها الندامة والالم ، ولكنه فى هذه اللحظة ، بينما هو يحلم ، لا يرغب فى شىء ، لأنه فوق الرغبات ، لأن أحلامه تشبع جميع حاجاته ، وتروى كل ظمئه . انه صانع حياته ، وهو فى كل لحظة يخلق حياته على ما يريد له هواه ! وما أسهل ما يولد هذا العالم الخيالى الاسطورى طبيعيا من تلقاء نفسه ، حتى لكأن الأمر ليس أمر أشباح ! فان صاحبنا الحالم مؤهب حتى للاعتقاد بأن هذه الحياة ليست أكذوبة من أكاذيب الخيال ، ولا خطأ من أخطاء الحواس ، بل هى الواقع الحق القائم ! والا فلماذا يا ناستنكا تتسارع نبضات قلبه وتتدفق الدموع من عينيه وتحترق خداه الشاحبتان ؟ لماذا يمتلىء كيانه كله بفرح لايوصف ، ولماذا تذوب ليالى بأسرها من الأرق فى لحظة سعادة لا سبيل الى التعبير عنها ؟ حين تطلع أشعة الفجر الشاحبة فتنسل من النوافذ وتنير الغرفة الصغيرة الحزينة التى يقطنها صاحبنا الحالم بضياء مبهم لا يحدد ، فانه يرتمى على سريره متعبا مهدود القوى ، وينام باكيا من الفرح مهتاج الروح اهتياجا يشبه أن يكون مرضا . نعم ياناستنكا، قد يخطىء المرء عندئذ فيحسب أن هوى حقا يضطرم فى روحه ، وأن

الواقع قائم في أحلامه المجنونة . خطأ ذلك ! هكذا يكون الحب قد نفذ الى قلبه بفرحه الذى لا ينضب ، وآلامه الحادة الكاوية ... ولكن انظرى اليه ! هل تحسبين أنه لم يعرف أبدا تلك التى يحبها فى أحلامه ! ألم ير حقا تلك المرأة الا طيفا فاتنا ، ولم يزد على أن عانى هواه فى الأحلام ! من يدرى ؟ لعلهما قد عاشا كلاهما سنى عمرهما يدا بيد ، بعيدين عن العالم ، موحدين حياتيهما الى الابد . هل يمكن أن لا تكون هى التى ، فى أواخر الليل ، لحظة الفراق ، قد رقدت ناحبة يائسة على حضنه لا تسمع العاصفة الهوجاء تحت السماء المشئومة ، ولا تسمع الريح التى تنتزع الدموع من أهدابها السوداء وتطير بها فى الفضاء ؟ ألم تكن الا حلما تلك الحديقة الحزينة المتوحشة المنعزلة التى كثيرا ما عاشا فيها اعتكافهما فى الأمل واليأس والحب الحنون الخالد ، وذلك المنزل العريق القديم الغريب الموروث عن الأجداد الذى عاشت فيه زمناً طويلاً مع زوجها الشيخ الكالح المتجهمالصامت المبغض الذى يلاحقهما هما الخجولين كطفلين فى حبهما الصامت المتخفى ! ما أكثر ما كانت تنزل عليهما الالام ! وما أكثر ما كانا يمتلئان خوفا وقلقا ! ما أكثر ما كان حبهما بريئا صافياً ! وما أكثر ما كان الناس (بطبيعة الحال يا ناستنكا) أشرارا فى معاملتهما ! ويا رب ، أليست هى التى التقى بها بعد ذلك بعيدة عن وطنها فى سماء أجنبية جنوبية حارقة ، فى « المدينة الخالدة » الرائعة ابان حفلة راقصة ساطعة وسط أصوات الموسيقى (موسيقى البالازو طبعا) الغارقة فى خضم من نيران ، على الشرفة التى تتعانق فيها فروع الآس وأزهار الورد ، فلما عرفته أسرعت تنضو عن وجهها القناع ، مدمدمة أنا حرة ، وهى ترتجف وتنتحب وترتمى فى ذراعيه، فاذا هما فى صرخة من الحماسة وقد احتضن كل منهما الآخر ، ينسيان ما قاسياه من ألم وما عانياه من عذاب الفراق وصروف الأيام ، وينسيان المنزل القاسى والشيخ والحديقة القاتمة فى

الوطن البعيد ، والمقعد الذى كانا جالسين عليه فى آخر يوم حين انتزعت نفسها من عناقه فى قبلة محمومة وقد تشنجت من فرط الألم ... أواه يا عزيزتى ناستنكا ! اعترفى بأن المرء قد يطير صوابه ويضطرب ويحمر كتلميذ كان يدس فى جيبه تفاحة سرقها من بستان مجاور ، حين يكون على هذه الحال فاذا بفتى فارع القامة ممتلىء بالعافية مرح المزاج جرىء الطبع ذرب اللسان حلو الحديث ، هو صديقه ، يفتح بابه بدون سابق دعوة ويهتف صائحا كأن شيئا لم يكن : « هأنذا يا عزيزى وصلت الآن من بافلوفسك ! » يا رب ! الكونت الشيخ مات ، وهذه هى السعادة جاءت أخيرا ، السعادة التى لا تغلب ، فاذا الناس يصلون فى تلك اللحظة من بافلوفسك !

سكتُّ بنوع من التفخم بعد أن فرغت من أقوالى الملأى فخفخة وانتفاخا . وانى لأذكر أن قد قامت فى نفسى رغبة رهيبة فى أن أضحك ضحكة مجنونة طويلة لأننى شعرت شعورا قويا بوجود شيطان عدو يتحرك فى أعماقى بينما أخذ حلقى ينقبض وأخذت ذقنى ترتعش وأخذت عيناى تخضل .. كنت آمل من ناستنكا التى كانت تصغى الى محملقة بعينيها الذكيتين أن تضحك ضحكتها الفتية المرحة ، وكنت قد أخذت منذ ذلك الحين أندم على أننى أسرفت فى الكلام وأطنبت فى قص ما كان يغلى فى نفسى . كنت قد أدنت منذ زمن طويل حياة الاحلام هذه التى أحياها ولم أكن آمل أن أُفهم الآن حين فتحت قلبى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين رأيت ناستنكا بعد أن لبثت صامتة بضع لحظات تشد على يدى خجلى وتسألنى :

ــ أحقا عشت هذه الحياة ؟

فأجبتها :

ـ دائما يا ناستنكا • وأحسب أننى سأموت هكذا •

قالت قلقة :

ـ لا ! هذا مستحيل ! هذا لن يكون •• وهل أظل أعيش أنا أيضا قرب جدتى الى الأبد ؟ هل تعلم أن الحياة على هذا المنوال ضارة مؤذية ؟
صحت أقول وقد أصبحت لا أملك ضبط فكرى :

ـ نعم يا ناستنكا • أعـــرف ذلك • ولقد أصـــبحت لا أجهل أننى ضيعت أحسن سنى عمرى • وانى لأتألم من هذا اليقين • لا سيما الآن بعد أن أرسلك الله الىّ ، يا ملاكى الطيب من أجل أن تعلمينى هـذا وأن تبرهنى لى عليه • وانى اذ أحدثك ليبدو لى غريبا أن أفكر فى المستقبل الذى يمثل العزلة والوحدة ويمثل تلك الحياة الباطلة نفسها • وما عسى أن يكون موضوع أحلامى بعد اليوم وقد عشت واقع الســـعادة بالقرب منك ؟ بورك فيك أيتها الفتاة العزيزة • لأنك لم تصدينى ولأنك أتحت لى أن أقول اننى عشت فى حياتى أمسيتين •

صاحت ناستنكا تقول والدموع تتلألأ فى عينيها :

ـ لا ، لا ، هذا لن يكون ! لن ننفصل هكذا ! ما أمسيتان ؟

ـ آه يا ناستنكا ، ناستنكا •• ليتك تعلمين كم صالحتنى مع نفسى • لن أحكم على نفسى بعد الآن حكما يبلغ مبلغ سوء حكمى عليها من قبل• لن أظن أننى ارتكبت خطيئة ، اننى ارتكبت جريمة فى حياتى ، لأن هذه الحياة جريمة • ولا تحسبى أننى أبالغ ناشدتك الله ! لا تحسبى هـذا ياناستنكا ، فاننى أعانى حقا لحظات رهيبة من الحزن ، وانى لأقتنع حينذاك أنه يستحيل علىّ أن أبدأ حياة حقيقية • لقد فقدت كل معرفة بالواقع ، فقدت كل شعور بالواقع ؛ وان ساعات اليقظة التى أعيشها بعد ليال خيالية،

لهى رهيبة الوقع فى نفسى • وأنا فى أثناء ذلك ، أرى جمهرة البشر تدور فى اعصار الحياة من حولى ، اعصار الحياة الواقعية التى لا تذهب بددا كحلم ، الحياة التى تتجدد تجددا متصلا وتبقى فتية ريانة الفتــوة • ولا كذلك أحلامى التى تبقى هى هى حزينة عادية أســيرة لظلمــة الفكر ، لاول غمامة تحجب الشمس فتحزن قلوب أهل بطرسبرج الذين يحبون الضياء هذا الحب كله • ان هذه الاحلام لتسأم وتنضب وتنتثر غبارا ، فاذا لم تجيء حيــــاة جديدة تغذيها فمن هذا الغبار انما ســتعود وتنشأ حياة التهاويل والأخيلة • والنفس ترغب أثناء ذلك فى شيء آخر ولكن الحالم يبحث عبثا فى أحلامه القديمة ، كمن يبحث فى الرماد عن شرارة يمكن أن تعيد الحركة الى قلبه الذى جلده الصقيع ويمكن أن تبث الحياة مرة أخرى فى كل ما كان حبيبا الى قلبه ، وحنانا وجمالا فى نظره ، وما كان يستدر دموع عينيه ويفتنه عن نفسه تلك الفتنة الساحرة • هل تعلمــين يا ناستنكا أننى اضطررت للاحتفال بأعياد سنوية لعواطفى ، لما عبدته دائما ولم يوجد فى الواقع قط • ذلك أن هذه الاحتفالات الســنوية تذكرنى بتلك الأحلام الغبية الباطلة التى اختفت هى نفسها • الأحلام تتبدد أيضا ، أليس كذلك ؟ هل تعلمين أننى أحب تذكر الأماكن التى كنت فيها سعيدا، وأن أعود فأراها ؟ اننى أحب أن أعيش الحاضر من خلال ذكرى الماضى، وكثيرا ما أهيم على وجهى حــــزينا بلا هدف أقصـــد اليه فى شــوارع بطرسبرج ودروبها ــ وما أكثر ما هنالك من ذكريات فى كل مكان ! ــ فأتذكر أننى منذ سنة تماما ، فى هذه الساعة عينها ، كنت أسير على هــذا الرصيف عينه منهوك القوى مهدود الروح كالآن؛ وكانت أحلامى حداداً، ولم تكن حياتى أقرب الى الفرح كثيرا ، ولكن يخيل الى أننى كنت أحيا حياة أجمل من حياتى الآن ، وأن الأفكار السود لم تكن تسكن دماغى قوية عنيفة كما تسكن فيه الآن ، واننى لم أكن أعانى من هذه الندامات

وآلام الضمير التي لا تدع لي اليوم راحة . وانني لأسائل نفسي : أين أحلامك كلها اذن ؟ ولشد ما تجري السنون سريعة سريعة ! أحسن مافي حياتك مات . أأنت قد حييت حقا ؟ انظر كيف صار كل ما حواليك جليدا من الصقيع ، وستنقضي سنون أخرى وستظل تعيش هذه العزلة الرهيبة ثم تدب فيك الشيخوخة العاجزة . عالمك الخيالي ستحول ألوانه، وأحلامك الكثيرة ستسقط سقوط الأوراق الصفر عن أشجارها في الشتاء ... آه يا ناستنكا ما أبأس أن يبقى المرء وحيدا ، وحيدا كل الوحدة . وما أبأس ألا يكون له ما يتحسر على انقضائه ... لأن كل ما فقده انما كان عدما باطلاً ، صفرا غبيا ، حلما عابرا .

دمدمت ناستنكا تقول وهي تكفكف دمعها :

ـ كفى ! لا تحزني مزيدا من الحزن . انتهى الأمر الآن . وسنكون بعد اليوم اثنين . ولن نفترق مهما يحدث لي . اسمع ! أنا فتاة بسيطة على حظ ضئيل من الثقافة ، رغم أن جدتي قد سمّت لي أستاذا . ولكنني أفهمك لأنني عشت بنفسي كل ما قصصته عليّ الآن . صحيح أنني ما كنت لأستطيع أن أقصه هذا القص الجميل (كذلك أضافت تقول خجلى) لكنني شعرت بهذا كله حين ربطتني جدتي الى ثوبها بدبوس ، ويسعدني أنك أفضيت اليّ بذات نفسك . أنا أعرفك الآن ، أعرفك حق المعرفة ، وأريد أن أحكي لك حكايتي دون أن أخفي عنك شيئا . وسوف تسدي الي بالنصح بعدئذ . أليس كذلك ؟ ألا تعدني بهذا النصح يا من أنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء ؟

أجبتها أقول :

ـ آه يا ناستنكا ! ما أسديت في حياتي بنصيحة لأحد ، فليس لي

اذن تجربة ، ولكننى أعلم أننا اذا عشنا بعد اليوم معا فسنكون قادرين على أن ينصح كل منا الآخـــر كما لا يستطيع أحـــد أن ينصحه • أما بعد يا ناستنكا اللطيفة ، فأية نصيحة تريدين ؟ كلمينى بصراحة ، اننى فرح• اننى سعيد • اننى مرتاح البـــال مطمئن النفس • وهأنذا أصـغى اليك وسأحدثك بغير اكراه •

قاطعتنى ناستنكا ضاحكة تقول :

ـ لا ، لا ، أنا لاأريد نصيحة ذكية فحسب بل أريد نصيحة صديق، نصيحة أخ ، كأنك قد أحببتنى طوال حياتك !

صحت أقول مفتونا :

ـ موافق يا ناستنكا ، موافق ، ولو كنت قد أحببتك منذ عشرين عاما لما كان حبى أقوى منه الآن •

قالت ناستنكا :

ـ هات يدك •

فأجبتها وأنا أمد اليها يدى :

ـ اليك يدى •

قالت :

ـ الآن أبدأ قصتى •

قصة ناستنكا

ـ لقد علمت نصف قصتي اذ علمت أن لى جدة عجوزا ...

قاطعتها أقول :

ـ اذا كان النصف الآخر موجزا ايجاز النصف الأول ...

ـ صه ! استمع ! ثم انني أطلب شرطا : أن لا تقاطعني قط ، والا لم أستطع أن أكمل . لى اذن جدة عجوز عشت معها منذ كنت بنية صغيرة بعد أن فقدت أبى وأمى فى سن مبكرة جدا . وأغلب الظن أن جدتى كانت فى الماضى غنية ، لأنها تحب أن تتذكر أيامها الخوالى التى كانت خيرا من أيامها الآن . وقد علمتنى اللغة الفرنسية ، ثم سمت لى أستاذا ، فلما بلغت من عمرى السنة الخامسة عشرة (وأنا اليوم فى السابعة عشرة) انتهت دراستى . وفى ذلك الحين انما ارتكبت حماقات . لن أقول لك ماذا فعلت . ولكن اعلم ان الاخطاء التى قارفتها لم تكن كبيرة . غير أن جدتى نادتنى فى ذات صباح وقالت لى انهـا بسبب عماها لا تستطيع أن تراقبنى ، ثم تناولت دبوسا شدتنى به الى ثوبها ، وأعلنت لى عندئذ أننا سنظل نعيش على هذا النحو حياتنا كلها اذا لم يصبح سلوكى أقرب الى العقل والحكمة . معنى هذا أننى أصبحت لا أستطيع أن أسير خطوة واحدة لأعمل وأقرأ وأتعلم . أصبح علىّ أن أمكث قرب جدتى دائما .

وفى ذات مرة أردت أن أستعمل المكر والحيلة ، فرجوت تكلا أن تأخذ مكانى . ان تكلا خادمتنا وهى صماء . حلت تكلا محلى ، ونامت جدتى على مقعدها . وأسرعت أنا أمضى الى صديقة لى ... وانتهى الأمر

نهاية سيئة فحين استيقظت جدتى ، كنت ما أزال غائبة فطلبت شيئا لظنها أننى قربها ، فأدركت تكلا ذلك ، ولكنها لم تستطع أن تلبى رغبتها ، وفكرت فيما عساها تفعل فانتهت الى هـذا القرار : انتزعت الدبوس وهربت •••

توقفت ناستنكا عن الكلام وهى تنفجر ضاحكة فضحكت معها فسرعان ما كفت عن الضحك وقالت :

ـ لا تهزأ بجدتى • اننى أضحك لأن الأمر كان سخيفا •• وما عساى أفعل وهى عمياء ! ولكننى أحبها مع ذلك • ما أكثر ما وعظتنى يومئذ بعد أن أمرتنى أن أظل قربها ومنعتنى من أية حركة •

نسيت أن أقول لك اننا نملك بيتاً ، أعنى أن جدتى تملك بيتاً • هو بيت ليس له الا ثلاثة نوافذ على واجهتـه ، وهو من خشب كله ، طاعن فى السن كجدتى ، وفى أعلاه غرفة تحت سقف القرميد • وقد جاء مستأجر جديد يسكن تلك الغرفة •

قلت :

ـ اذن كان يسكنها قبل المستأجر الجديد مستأجر قديم •

أجابت :

ـ وكان يعرف كيف يصمت خيراً منك ! حقاً كان لا يكاد يحـرك لسانه • أنه شيخ قصير أعجف أخرس أعمى أعرج ، لذلك لم يقو على البقاء طويلا فمات • فجاءنا بعده بقليل مستأجر جديد (اننا لا نستطيع أن نعيش بغير مستأجر لأن معاش جـدتى هو موردنا الوحيد) • وشـاءت المصادفة التى تشبه العمد أن يكون المستأجر الجديد شابا • ولم يكن هذا

المستاجر الشاب من مدينتنا ، وانما وفد اليها لقضاء زمن . واذ لم يساوم فقد أجرته جدتي الغرفة فورا ، ونادتني وسألتني : « قولي لي يا ناستنكا أهو شاب أم لا ؟ » فلم أشأ أن أكذب عليها فقلت : « لا يمكن القول انه فتي ولكنه ليس بالكهل . فامعنت جدتي تسالني : وهل هو حسن المنظر وسيم الطلعة ؟ فقلت لها : نعم هو كذلك ، لانني لم آشأ ان أكذب ايضا . فصاحت جدتي عندئذ تقول : « آه يا للمصيبة يا للمصيبة !! ... لقد سألتك هذا السؤال يا ناستنكا حتى لا تنظرى اليه كثيرا . ويالهذا الزمان من زمان ! مستاجر حسن المظهر ثم هو لا يدفع أجـــرا أكبر ! ... لم يكن الأمر كذلك في زمامنا ! » ان جدتي تتحدث دائما عن « العهد الخالى » الجميل ، فتقول فيما تقول : انها كانت يومئذ فتيــة ، وان الشمس كانت يومئذ شابة ، وان الشمس كانت أكثر دفئا . وكانت القشـــدة لا تفسد بسرعة كما تفسد في هذا الزمان . كان كل شيء حسنا في ذلك العهـد الجميل ! وسكت أنا وفكرت : « لماذا تسألني جدتي هل هو جميل وهل هو فتي ؟ » . على أنني ألقيت هذا السؤال على نفسي ببساطة دون أية فكرة ميتة ، واستمررت أعد الأبازيم ، وأحيك الجـوارب ، ثم نسـيت كل شيء .

وهذا هو المستأجر الجديد يجيء الينا في ذات صباح يذكّرنا بأن ورق جدران غرفته يجب تغييره ، فقالت لي جدتي عندئذ (وهي مكثار كما تعلم) : « هيا أسرعي الى غرفتي يا ناستنكا فأتني بكيسي » . فوثبت فورا وقد احمر وجهي لا أدرى لماذا ، ناسيةً نسيانا كاملا أنني مشدودة الى ثوب جدتي بدبوس ، فبدلا من ان انتزع الدبوس في رفق حتى لايلاحظ المستأجر شيئا ، وثبت مسرعة ، فاذا بالمقعد وجدتي يتبعاني في رحلتي . فلما قدرت أن المستأجر قد عرف عني عندئذ كل شيء ازددت احمرارا ، وتسمرت في مكاني لا أتحرك ، وانفجرت باكية في نشيج . لقد شعرت

في تلك اللحظة بخجل رهيب وعار فظيـع ، وتمنيت لو أغـور مئة متر تحت الارض ! صاحت جدتي تسالني : « لماذا وقفت ؟ » فازداد بكائي•• فادرك المستأجر عندئذ اضطرابي ، فحياني وخـرج • ومنـذ ذلك الحين أصبح يتملكني قلق قاتل كلما سمعت ضجة في الدهليز ، فأقول لنفسي : « انه المستأجر » ، وأسارع فأنزع الدبوس برفق وهـدوء ، ولكنه كان لا يجيء • وانقضى أسبوعان ، وكلف المستأجر تكلا أن تقول لنـا ان لديه كتبا فرنسية كثيرة شائقة جدا ، وأن تسألنا هل تأذن لي جدتي أن أقرأ لها هذه الكتب لأسليها ، ولكن جـدتي سألت عن هذه الكتب أهي كتب فاضلة ، وأضافت تقول لي : « ان لم تكن فاضلة فلن تستطيعي أن تقرئيها يا ناستنكا ، والا علمتك الشر والرذيلة » •

سألتها :

ـ لماذا يا جدتي ؟ ما عسى أن تضمه هذه الكتب ؟

ـ هي كتب تتحدث عن رجال يغوون البنات الفاضلات ، اذ يعدونهن بالزواج ، فيأخذوهن من أسرهن ثم يهجـرون هاته الفتيـات الشـقيات ويتركونهن للقدر يعبث بهن على ما يشاء ، فيهلكن عندئذ في حياة بائسة تعيسة • لقد قرأت كثيرا من تلك الكتب التي بلغ مؤلفوها من الحـذق والبراعة في كتابتها أن المرء يقضي ليلته كلها يقرؤها ثم يقرؤها • هـل سمعت يا ناستنكا ؟ اياك أن تفتحي هذه الكتب ! ما هي الكتب التي أرسلها هذا الشاب !

ـ هي روايات بقلم والتر سكوت يا جدتي !

ـ والتر سكوت ؟ لا شك أن في الأمر شيئا • انظري يا ناستنكا •• هل ترين في هذه الكتب بطاقات صغيرة حلوة ؟

ـ لا يا جدتي ••• ما من بطاقة •••

ـ انظرى تحت الغلاف ! ان هؤلاء الأوغاد يضعونها فى كثير من الأحيان تحت الغلاف ...

ـ لا شيء تحت الغلاف أيضا يا جدتى ...

ـ حسن اذن ..

وشرعنا نقرأ والتر سكوت ، واستطعنا فى أقل من شهر أن نقرأ نصف الكتب التى أعارنا اياها جارنا ، ثم أرسل الينا كتبا أخرى فقرأت بوشكين ، فما هى الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا أستغنى عن القراءة ، وبلغت من ذلك أننى كففت تماما عن التساؤل : « كيف أستطيع أن أتزوج أميرا صينيا ! » وفى ذات يوم التقيت بالمستأجر على السلم . كانت جدتى قد أرسلتنى فى أمر من الامور . وقف الشاب فاحمر وجهى واحمر وجهه أيضا ، ثم ابتسم وحيانى وسألنى عن أنباء جدتى وقال لى : « هل قرأت كتبى ! » فأجبته : «نعم» . فقال : « أيّها أحببت ؟ » . فقلت : « ايفانهويه * وبوشكين » .

كذلك انتهى حديثى .

وبعد أسبوع التقيت به مرة أخرى ، وكنت فى هذه المرة قد شعرت بالحاجة الى الخروج من أجل نفسى . كانت الساعة هى الثالثة ، وكان المستأجر عائدا الى المنزل . قال لى : « يومك سعيد » . فأجبته : « يومك سعيد » .

ـ أليس يضجرك كثيرا أن تلبثى مع جدتك طوال النهار ؟

فاحمر وجهى من هذا السؤال احمرارا قويا ، وشعرت بخجل شديد ، وأحزننى أن أرى الغرباء يسألوننى عن هذا الامر ، وأردت أن أنصرف دون اجابة ، ولكننى لم أقو على ذلك .

ـ اسمعي ! ان لك قلبا طيبا نبيلا ، فاعذريني اذا أنا قلت لك هـذا الكلام ! ولكنني أريد لك الخير أكثر من جدتك نفسها ! أليس لك أية صديقه ؟

فأجبته بأن لى صديقة هي ماشنكا ، ولكنها سافرت الى بسكوف .

ـ هل تحبين أن تصحبيني الى المسرح ؟

ـالى المسرح ؟ وجدتي ؟...

ـ تستطيعين أن تنصرفي .. بهدوء ورفق .. فما يشعر بخروجك أحد .

ـ لا ، لا أريد أن أخدعها ! الى اللقاء !

ـ الى اللقاء اذن !

كذلك أجاب دون أن يزيد شيئاً .

ولكنه جاء الينا بعد العشاء ، ولبث يتحدث مع جدتي مدة طويلة . وسألها هل هي تخرج أحيانا ؟ وهل لها أصدقاء ؟ ثم قال فجأة : « لقـد استأجرت اليوم شرفة في الأوبرا . انهم يمثلون « حلاق اشبيلية * » . وكان يجب أن يصحبني بعض الاصـدقاء ، غير أن مانعـا طرأ في آخر لحظة ، فأصبحت الشرفة خالصة لى وحدى .

صاحت جدتي :

ـ « حلاق اشبيلية » ! ... تلك التي كانوا يمثلونها في العهد الماضي الجميل !

قال :

ـ نعم هي نفسها !

ونظر اليّ . وكنت أنا قد فهمت كل شيء ، فأخذ قلبي يخفق أملا ورجاء ...

قالت جدتي :

ـ آه لقد غنيت بنفسي دور « روزين » * في عرض ببيتنا ذات مرة ... انني أعرف هذا الدور معرفة جيدة ...

قال المستأجر :

ـ تعالوا اذن معي ، والا ضاعت الأماكن سدى .

قالت الجدة :

ـ نعم هيا بنا ! ولِمَ لا ؟ ان ناستنكا لم تذهب يوما الى المسرح . ما أجملها متعة يا رب !

وما لبثنا أن ارتدينا ملابسنا وخرجنا . كانت جدتي تحب الموسيقى كثيرا . وكانت عدا ذلك طيبة القلب جدا . فهي تحب أن تسرني . وما كان لنا أن نذهب الى المسرح وحـدنا . لا أستطيع أن أصف لك الأثر الذي أحدثته في نفسي أوبرا « حـلاق اشبيلية » . ولكن المستأجر ظل طوال تلك السهرة ينظر اليّ بعينين فيهما من الطيبة ويحدثني بكلام فيه من العذوبة ما جعلني أدرك فورا أنه قد أراد أن يمتحنني في الصباح حين عرض عليّ أن أخرج معه وحيدة . ما كان أشد فرحي ! لقد رقدت على فراشي في تلك الليلة فخورة مفتونة . كان قلبي يخفق خفقانا شديدا، حتى لقد أصابتني حمى ، وحلمت طـول الليـل بـ « حلاق اشبيلية » . وقدرت عندئذ أن جارنا سيكثر اختلافه الينا وتردده علينا . ولكن ظني لم يصدق . لقد انقطع عن زيارتنا انقطاعا يشبه أن يكون تاما . لعله أصبح لا يزورنا الا مرة واحدة في الشهر . وهو لا يزورنا هذه الزيارة أيضا

الا ليدعونا الى المسرح • ذهبنا الى المسرح مرتين أخريين • ولاحظت أنه كان يشفق على ويرأف بى ويرثي لحالى اذ يرانى وحيدة مع جدتى دائماء ولكننى كنت أنا أفقد الهدوء يوما بعد يوم • وأصبح يستحيل عليّ أن أبقى ساكنه النفس مطمئنه البال ، حتى لقد صرت اعجز عن القراءة ، ولا أستطيع أن أعمل ؛ وكنت أبكي فى كثير من الأحيان ! وسرعان مانحلت ، وأوشكت أن أمرض • لقد انتهى موسم المسارح • وأصبحنا لا نرى جارنا البتة ، فاذا صادفته مصادفة ، وذلك يكون على السلم دائما ، حيانى صامتا برصانة وجد ، كأنه لا يريد أن يكلمنى ، فأتسمر على الدرجة التي أكون عليها من السلم ، بينما يكون هو قد خرج ، وكنت أحمر عندئذ احمرارا شديدا ، لأننى كنت لا أراه الا ويصعد الدم الى رأسي •

هأنذا أوشك أن أختم قصتي • منذ سنة تماما في شهر أيار (مايو) جاء المستأجر يكلم جدتى • كان قد سوّى جميع شؤونه وأعماله ، فعليه أن يعود الى موسكو • وسيمكث هنالك سنة • فلما سمعته يقول ذلك الكلام شحب لونى ، وتهاويت على كرسى كالميتة • لم تلاحظ جدتى شيئا بطبيعة الحال ، أما هو فقد خرج بعد أن حيانا مودعا •

ماذا كان عليّ أن أعمل ؟ فكرت طويلا ، طويلا ••• ثم عزمت أمرى آخيرا ••• قلت لنفسي : ما دام مسافرا في الغد ، فسوف اراه متى نامت جدتي ••• وذلك ما وقع • حزمت جميع أثوابى وملابسى فى صرة ، وصعدت اليه وأنا أقرب الى الموت مني الى الحياة • أحسب أنى سلخت ساعة برمتها فى صعود السلم ، فحين فتحت عليه الباب فأبصرنى، أطلق صرخة • لا شك أنه ظننى شبحا من الاشباح • ذلك أننى كنت لا أكاد أستطيع الوقوف على ساقى • فلما رآنى على هذه الحال أسرع يجيء بماء لينعشنى به • كان قلبى يبلغ من شدة الخفقان أن صداعا ألم

برأسي وأنني أصبحت لا أفهم ما يجرى من حولى • وثبت الى رشدى بعد قليل ، فوضعت صرتى على السرير ، وجلست غارقة فى دموعى ، دافنة رأسي في يديه • وسرعان ما فهم هو كل شيء • فها هو ذا يقف أمامى شاحب الوجه ينظر الىّ نظرة تبلغ من الحزن أن قلبى تفطر لها •

قال لى :

ـ ناستنكا ! اسمعينى • لا أستطيع شيئا ! اننى فقير ، وليس لى أى مركز ، فكيف عسانا نعيش اذا أنا تزوجتك ؟

تحدثنا طويلا ، وفقدت صوابى آخر الامر فقدانا تاما ،فأعلنت له أننى لن أستطيع أن أعيش بعد الآن مع جدتى • قلت له اننى سأهرب فلست أريد أن أبقى مشدودة الى جدتى بدبوس ، واننى سأتبعه الى موسكو شاء أم أبى ، فقد أصبحت لا أستطيع أن أستغنى عنه • كان الخجل والحب والكبرياء ، كان كل شيء فى نفسى يتكلم فى آن واحد • وتهالكت على السرير مرتعشة أشد الارتعاش • كنت أشعر بذعر من تصورى رفضه •

لبث صامتا بضع لحظات ، ثم نهض واقترب منى ، وتناول يدى ، وقال لى منفعلا أشد الانفعال :

ـ عزيزتى الطيبة ناستنكا ، أقسم لك أننى اذا استطعت يوما أن أتزوج ، فلسوف تحققين أنت وحدك سعادتى • نعم انت وحدك ••• اسمعى ما سأقوله لك : أنا مسافر الى موسكو ، وسأقضى هنالك سنة تماماء وآمل أن أسوى أمورى ، فاذا عدت بعدئذ فوجدت أنك لم تنسينى ، سعدنا معا ، أقسم لك على ذلك • أما الآن فلست أستطيع ولا يحق لى أن أعدك بشيء • على أننى أؤكد لك أننا اذا لم نحقق سعادتنا فى السنة

القادمة ، فسنحققها في يوم من الايام حتما ، هـــذا اذا لم تؤثرى علىّ شخصا آخر بطبيعة الحال ! ذلك أننى لا أستطيع ولا أجرؤ أن أربطك بعهد !

تلك كانت أقواله . وسافر في الغـداة . اتفقنـا على أن لا أحدث جدتى بشيء . فكذلك أراد . هذه هى قصتى أنهيت سردها لك تقريبا . وقد تصرمت السنة وعاد صاحبى الى بطرسبرج وهو هنا منذ ثلاثة أيام ، و ...

صحت أسألها مستعجلا معرفة النهاية :

ـ وماذا ؟

فأجابت ناستنكا وكأنها تجاهد نفسها ..

ـ ما رأيته بعد ! ولا تلقيت منه كلمة ! ... لا شيء ...

وصمتت وخفضت رأسها وانفجرت تنتحب انتحـابا قويا تمزق له قلبى .

لم أكن أتوقع هذه الخاتمة .

قلت بصوت وجل متردد :

ـ ناستنكا ! لا تبكى ! ناشدتك الله ! لعله لم يصل بعد ، مايدريك ؟

صاحت ناستنكا تقول :

ـ بل وصل . انه هنا . أعرف ذلك . ولقد وضعنا هذا الشرط في الليلة التى سبقت سفره حين تنزهنا هنا على رصيف النهر . خرجنـا من البيت معا بعد حديثنا ، وكانت الساعة العاشرة ، وجلسنا على هذا المقعـد

وقد كففت عن البكاء . كنت سعيدة بالاصغاء الى كلامه ... كل السعادة ... قال انه سيأتى الينا متى عاد ، فاذا كنت ما أزال أحبه كاشفنا جدتى بكل شيء . وقد وصل ، فأنا أعرف ذلك ، ولم يبلغنى منه شيء بعد ...

قالت ذلك وطفقت تبكى من جديد .

صحت أقول واثبا وقد تملكنى غم شديد :

ـ رباه ! ألا نستطيع أن نفعل شيئا لدفع هذا الكرب ؟ قولى ياناستنكا: ألا يمكننى أن أذهب اليه ؟

فأجابتنى وهى ترفع رأسها بسرعة وقوة :

ـ أهذا معقول ؟

قلت وقد عدت الى صوابى :

ـ طبعا لا ! ولكنك تستطيعين أن تكتبى اليه رسالة .

فأجابت بلهجة قاطعة وهى تخفض رأسها من جديد متحاشية نظرتى :

ـ لا ! هذا لا يمكن أن يكون .

فتابعت كلامى ملحاً :

ـ لماذا يا ناستنكا ؟ ثقى بى ... فلن أسيء نصحك . ان من الممكن أن يُسوِّى كل شيء . لقد خطوتِ الخطوة الاولى ، فلماذا تحجمين الآن ؟

ـ لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا أريد أن أكرهه اكراها ...

قاطعتها أقول مبتسما :

ـ يا عزيزتي الصغيرة ناستنكا ! أنت مخطئة ! ان من حقك أن تخاطبيه ، لأنه قطع لك عهداً ، ثم انني أفهم من كل ما قصصته عليّ أنه رجل مرهف العواطف رقيق المشاعر •

وتابعت أقول وأنا أزداد اقتناعا بمنطق براهيني :

ـ لقد كان سلوكه حسنا جدا : قطع لك على نفسه عهدا ، وأعلن أنه لن يتزوج غيرك ، وترك لك حرية رفضه اذا شئت ••• فبوسعك اذن أن تقومي بالخطوة الأولى ، ذلك من حقك تماما ما دمت تمتازين عليه بقدرتك على أن تجعليه في حل من عهده •••

ـ ولكن ما عساك تكتب ؟

ـ أكتب ماذا ؟

ـ الرسالة •

ـ أكتب هكذا : « السيد المحترم ••• »

ـ هل ضروري أن تكتب : « السيد المحترم ؟ »

ـ تماما ••• ثم انني أرى •••

ـ طيب •• طيب •• وماذا تكتب بعد ذلك ؟

ـ «السيد المحترم ! •• معذرة اذا أنا ••» لا •• لا داعي الى أي اعتذار •• فالأمر مسوغ من تلقاء نفسه :

« اكتبي فقط ما يلي » :

« أكتب اليك راجية أن تغفر لي نفاد صبري ، فان الأمل قد جعلني سعيدة سنة بكاملها • أفأكون مذنبة اذا أنا لم أطق احتمال الشك يوما

واحدا ؟ ترى هل تغيرت نياتك وقد عدت ؟ ان رسالتي ستنبئك في هذه الحالة بأنني لا أدينك ، فليس يُدان امرؤ لأنه لا يملك زمام قلبه • ذلك هو القدر !

« انك امرؤ رفيع العواطف ، فلن تبتسم اذن حين تقرأ هذه الاسطر التي تدل على نفاد الصبر ولن ترميها الى الارض • تذكر أن فتاة بائسة هي التي تكتب هذه الاسطر • انني وحيدة وليس لى أحد يرشدني ويسدد خطاي ويسدى الىّ النصح • ولم أستطع أبدا أن أسيطر على قلبي ، فسامحني اذا كان قد نبت شيء من الشك في هذا القلب • انك لا يمكن أن تريد اذلال تلك التي أحبتك ذلك الحب كله وما تزال تحبك ، لا تريد اذلالها ولو بالخيال » •

هتفت ناستنكا تقول وقد سطع الفرح بعينيها :

ـ نعم •• نعم •• ذلك ما كنت أفكر فيه • لقد وجدت لى مخرجا من شكوكي ! ان الله نفسه قد أرسلك الىّ ! أشكرك أجزل الشكر ، وأعرب لك عن أعمق الامتنان •

ـ لماذا أرسلني الله اليك ؟

كذلك أجبتها وقد أسعدني أن أتأمل وجهها الصغير الذى أشرق بشراً وبهجة •

قالت :

ـ من أجل هذا كله !

ـ آه يا ناستنكا ! انني أنا الذى أشكر لك أن قد أتيح لى أن ألقاك ، ولسوف تحيين دائما في ذكراى •

ـ كفى ! كفى ! استمع الىّ الآن ! قلت لك اننا قد تواضعنا على هذا الشرط ، وهو أن يبلغنى عودته متى عاد برسالة يودعها احدى صديقاتى المخلصات التى تجهل عنا كل شيء ، فاذا لم يستطع أن يكتب لأن المرء لا يقدر أن يقول كل شيء فى رسالة ، جاء الى هذا المكان نفسه يوم وصوله ذاته فى الساعة العاشرة • ولقد بلغنى نبأ وصوله • ولكننى لم أتلق منه شيئا ، ولست أستطيع أن أترك جدتى فى الصباح ، فانقل أنت هذه الرسالة الى صديقتى غدا فى ساعة مبكرة ، فتتولى هى ارسالها اليه ، فاذا جاء منه جواب ، حملته الىّ بنفسك فى مساء غد •

ـ ولكن الرسالة لا بد من كتابتها ، فلن نستطيع أن نتلقى الجواب اذن الا بعد غد •

فأجابت تقول وقد اضطربت بعض الاضطراب :

ـ الرسالة ••• الرسالة •• ولكن •••

ولم تتم كلامها بل أشاحت وجهها واحمرت حتى أصبحت بلون الورد ، ثم اذا أنا أشعر برسالة توضع فى يدى • لا شك أنها كتبت وختمت منذ مدة ؟ وبرقت فى خيالى ذكرى حبيبة لطيفة :

ـ رو ••• زين

كذلك غنيت ، ثم غنينا معا روزين ، وأوشكت أن أعانقها فى غمرة هذا الفرح الذى ملأ نفسى • وكانت قد ازدادت احمرارا • وهى تضحك الآن من خلال دموعها التى ترتعش على أهدابها الجميلة كأنها اللآلىء •

وقالت أخيراً بسرعة :

كفى .. كفى ! .. الى اللقاء ! اليك الرسالة ! واليك العنوان الذى سننقلها اليه ! الى اللقاء ! الى الغد ! وضغطت يدى ضغطاً قوياً ، وحيتنى مودعةً بحركة من رأسها وانصرفت تشق طريقها نحو الجادة الصفرى كالسهم سرعةً . لبثت فى مكانى زمناً طويلا أشيِّعها بنظراتى .

ـ الى الغد ! ..

كذلك ترجعت هذه الكلمات فى نفسى حين غابت عن بصرى .

الليلة الثالثة

كان النهار حزينا ممطرا لا تتخلله فترات صحو ، كما ستكون شيخوختي • ان أفكارا غريبة قد عذبت روحي وان مسائل مبهمة مضطربة قد هزت فكري ، وأنا لا أقوى على حلها ، لا ولا أرغب في حلها •

لن نلتقي اليوم • وحين افترقنا أمس كانت السحب تغطي السماء وكان الضباب ينتشر في الفضاء •قلت لها : ان الجو سيكون في الغد رديئا• فلم تجب بشيء • ذلك أن هذا النهار سيكون مشرقا بضوء الشمس في نظرها ، فما من غيمة يمكن أن تعكر سعادتها • لقد قالت لي :

ـ اذا أمطرت فلن نلتقي لأنني سأمكث في بيتي •

ولكنني أمّلت أن لا تفطن الى هطول المطر ، وأن تأتي مع ذلك • وأمس كان لقاؤنا الثالث ، كانت ليلتنا البيضاء الثالثة • لشد ما يتفتح الانسان ويزدهر ويزداد جمالا حين يملأ الفرح قلبه وحين تفيض نفسه بالسعادة !

وكأن القلوب تريد أن ينتشر بعضها في بعض ، فترغب أن ترى من ،

حولها البهجة والضحك ! وما أشد سريان هذا الفرح بالعدوى !

كان في أقوال ناستنكا لى كثير من حنان وطيبة وحدب .. وكانت نفسها تفيض مداراة لى ، فهى تلاطفني وتشجع قلبى . وما أروع الفتنة الاخاذة في ذلك الدلال والغنج اللذين كانت سعادتها تضفيهما عليها ؟ حتى لقد نسيت ... فخطر ببالى في بعض اللحظات أن ...

يا رب ! كيف أمكن أن يدور في خلدى ذلك ! كيف أمكن أن أكون أعمى هذه العماوة كلها ، بينما لم يكن شيء لى أنا ، وكان كل شيء للآخر . لم يكن حنانها على ولم تكن ملاطفاتها لى ولم يكن حبها اياى ، لم يكن هذا كله الا ثمرة فرحها بلقائها القريب معه ، والا الرغبة في اشراكى في سعادتها . فلما رأت انه لم يأت ، وأننا انتظرنا عبثا ، غدت قاتمة خجلة وجلة . لم تعد حركاتها ولا أقوالها منطلقة خفيفة فرحة كما كانت من قبل . والغريب أنها ضاعفت ملاطفاتها لى كأنها تريد على غير شعور منها أن تملأني بمخاوفها وبرغبتها . وفجأة بلغت صغيرتي ناستنكا من فرط الخجل والخشية والخوف أنها أدركت أخيرا فيما أعتقد أننى أحبها، وانني أشفق على حبى البائس . فكذلك نحن : نشعر بألم الآخرين شعورا أعمق حين نكون أشقياء معذبين . ان عاطفتنا تشتد عندئذ وتقوى ...

لقد جئت اليها طافح القلب . وقاسيت كثيرا من العناء في انتظار لحظة اللقاء . لم أكن أتنبأ بما سأشعر به حين ذاك ، ولم أكن أوجس الخاتمة ، وكانت هى مشرقة الوجه تنتظر جوابه . وكان الجواب أن يحضر هو نفسه ، الانسان الذى تحبه . بوصلت قبلى بساعة ، فكانت في أول الامر تضحك لكل شيء ، لكل كلمة من كلماتي . وقد بدأت أتكلم ثم سكت فجأة .

قالت :

ـ هل تعلم لماذا أنا سعيدة هذه السعادة كلها برؤيتك ؟ هل تعلم لماذا أحبك هذا الحب كله ؟

قلت وقد اختلج قلبي :

ـ لماذا ؟

ـ انني أحبك لأنك لم تقع في حبي . لو كان شخص آخر غيرك في مكانك لما تركني وشأني هادئة البال بل لعذبني عذابا شديدا ولسقط مريضا ... انك طيب جدا .

قالت ذلك وضغطت يدي ضغطا بلغ من القوة أنني كدت أصرخ . وانفجرت ضاحكة . قالت بعد لحظات بصوت رصين :

ـ ولكنك صديقي ، أرسلك الله الي . ما كان عسى أن تصير اليه حالي لولاك الآن ؟ ألا ما أعظم اخلاصك وتنزهك عن الغرض! ألا ماأطهر عاطفتك وأصفاها وأنقاها ! حين سأتزوج سنبقى صديقين ، سنبقى كأخوين بل أكثر . وسأمحضك من الحب بقدر ما أمحضه هو تقريبا ..

حزنت حزنا رهيبا وأنا أسمع هذه الكلمات . ومع ذلك فان شيئا يشبه أن يكون ضحكة داخلية قد تحرك في نفسي . قلت لها :

ـ أنت خائفة . انك تقدرين أن الآخر قد لا يأتي ، أليس كذلك ؟

أجابت :

ـ ما هذا الكلام الذي تقول ؟ لو كنت أقل سعادة فلربما كنت أبكي من سوء ظنك هذا ومن ملاماتك هذه ! على أنك قد أنبت في نفسي معاني سأفكر فيها في المستقبل ، بل انني أستطيع أن أعترف لك منذ الآن بأن فيما قلته شيئا من حق . انني أنتظر ، وأحسب أنني مسرفة في الابتهاج والفرح . ولكن كفانا حديثا عن العواطف !

وسمعنا في هذه اللحظة وقع خطوات ، وظهر لنا رجل في الظلام.

كان مقبلا علينا • ارتجفنا كلانا • وأوشكت هي أن تطلق صرخة • تركت يدها ، وأردت أن أنصرف ، ولكننا كنا قد أخطأنا الظن فانه لم يكن هو القادم •

قالت وهى تمد الىّ يدها من جديد :

ـ لماذا هذه الخشية ؟ لماذا نبذت يدى ؟ لسوف نراه معا • انى أريد أن يرى كم يحب أحدنا الآخر •

صحت أقول :

ـ كم يحب أحدنا الآخر ؟

وقلت فى نفسى : « آه يا ناستنكا ! ما أكثر الأشياء التى كشفت عنها فى هذه الأقوال ! ان هذا الحب يجمد القلوب ويشجى النفوس • ان يدك باردة ويدى تحترق كالجمر ! ما أعماك يا ناستنكا ! ••• ألا ان السعداء لا يطاقون ولا يحتملون ! ولكننى لا أستطيع أن أزعل » •

وطفح قلبى أخيرا وقلت :

ـ اسمعى يا ناستنكا ! هل تعلمين كيف قضيت نهارى ؟

ـ كيف قضيت نهارك ؟ قل بسرعة ••• لماذا ظللت صامتا حتى الآن ؟

ـ أولا : قمت بما كلفتنى به يا ناستنكا • نقلت الرسالة الى صديقتك ثم عدت الى بيتى فرقدت •••

قاطعتنى ضاحكة :

ـ أهذا كل شيء ؟

أجبتها وأنا أكظم انفعالى الذى فضحته دموع غبية ترقـــرقت فى عينى :

ـ نعم هـــذا كل شيء تقريبا ••• واستيقظت قبـل آزوف موعدنا بساعة ، وكان يخيل الىَّ أننى لم أنم • لا أدرى ماذا حدث لى • لم يبق للزمان عندى وجود ، بعد أن أصبح كل احساس فريد أعانيه وكل شعور جديد أكابده لا بد أن يبقى فى نفسى الى الأبد ! لكأن الحياة كلهـا قد توقفت • وتراءى لى حين استيقظت أننى اســـمع منـذ مدة طويلة أغنية رخيمة عذبة كأنها كانت منسية ، وكأنها كانت تريد أن تنطلق من نفسى منذ الأبد •••

فاطعتنى ناستنكا تقول :

ـ رباه ! ماذا دهاك ؟ اننى لا أفهم •••

ـ أردت أن أطلعك على هذه العواطف الغريبة •

كذلك أجبتها بصوت شاك يختفى فيه أمل بعيد جدا •

فقالت وقد حزرت الماكرة الصغيرة ما أريد أن أقوله فورا :

ـ كفى ! اسكت !•••

وسرعان ما أصبحت طلقة اللسان كثيرة الكلام فرحة النفس عابثـة متخابثة • فتناولت ذراعى ، وأخذت تضحك ، ثم تضحك ، وتسألنى أن أضحك أيضا ، وأصبحت كل كلمة من كلماتى الخجلى تثير فيهـا هذا المرح الصاخب نفسه ••• وبدأت أشعر بشيء من الغضب • لقـد كانت حينئذ فتاة مغناجا •

قالت :

ـ هل تعلم أننى مستاءة قليلا من أنك لم تتـوله بحبى • ما أصعب

فهم الرجل ! ولكنك يا أيها السيد الصامد لا تستطيع الا أن تحمد لى بساطتى • فأنا أقول كل شيء ، أية كانت السخافة التى تخطر ببالى •

قلت وأنا أسمع أصوات الناقوس البطيئة تترجع فى برج المدينة :

ـ أعتقد أن الساعة الحادية عشرة تدق •

فصمتت فجأة ، وأخذت تعدُّ دقات الساعة ، وقالت أخيرا بصوت متردد خجلان :

ـ نعم هى الساعة الحادية عشرة •

ندمت على أننى أرعبتها واضطررتها الى عد دقات الساعة ، ولمت نفسى على روح الشر هذه التى دفعتنى الى ذلك • أشفقت عليها فأخذت أهدئها محاولا أن أعلل غياب ذلك الذى كانت تنتظره • وجدت براهين واستخلصت نتائج ، وما من أحد يمكن أن يُخدع بأيسر مما كان يمكن أن تُخدع به هى فى تلك الساعة • ذلك أن جميعَ الناس فى مثل هذه اللحظات يصغون فرحين الى العزاء الممكن ، بل الى ظل عذرٍ يخطر بالبال •

وتابعت أقول :

ـ نعم ليس فى هذا غرابة • ما كان يمكن أن يأتى ! لقد ضللتنى يا ناستنكا ••• لذلك أخطأت تقدير الزمان ••• انه لم يكد يستلم الرسالة • فافرضى أنه لا يستطيع أن يجيء وأنه يريد أن يرد برسالة ، ففى هذه الحالة لا يمكن أن تصل رسالته الا غدا • سأمضى أستلمها فى ساعة مبكرة جدا من صباح الغد • فأنبئك بذلك على الفور • ثم ان هنالك ألف احتمال ممكن : فلعله لم يعد الى البيت ، فلم يستلم الرسالة • كل شيء يمكن أن يحدث •

أجابت :

ـ نعم نعم انني لم أفكر . كل شيء يمكن أن يحدث .

وكانت تتكلم سريعا بصوت حـــزرت فيـه فكرة مختلفـة بعيدة . وأضافت تقول :

ـ اذن ســتذهب في أيكر ساعة ثم تنبئني هـل هنالك شيء . أنت تعرف عنواني .

قالت ذلك وكررت ذكر عنوانها ثم أصبحت دمثـة لطيفة خجـولة معي ... وكانت تصغي الىّ بانتباه ولكن حين سألتها سؤالا على حين فجأة سكتت وأشاحت بوجهها ، فلما نظرت في عينيها أدركت أن ما خطر ببالي صحيح ... لقد كانت تبكي حقا .

ـ ما هذا ؟ ألا انك لطفلة ! لا تبكي ، أرجوك !

فحاولت أن تبتسم ، ولكن ذقنها كانت ترتجف وكان صدرها ينهد لاهثا .

قالت بعد دقيقة صمت :

ـ انني أفكر فيك . انك طيب القلب نبيل النفس . أيكون قلبي من حجر فما أتأثر من ذلك ؟ هـل تعلم فيم أفكر ؟ لقـد وازنت بينكما في ذهني . لماذا ليس هو أنت ؟ لماذا لا يشبهك ؟ انك خير منه ، رغم أنني أحبه أكثر مما أحبك .

لم أجب بشيء وكان يبدو أنها تنتظر جوابي .

قالت :

ـ لعلني لم أفهمه بعد فهما كافيا . انني لا أعرفه معرفة تامة . كنت

أخشاه دائما ، فقد كان شديد الجد ، أشبه بالمتكبر ، ولكنه يظهر بهـذا المظهر ، أما قلبه فأرق من قلبي .. انني أتذكر نظرته حين جئت اليـه حاملةً صرتي .. انني أحترمه كثيرا . انه أعلى مني .

ـ لا يا ناستنكا ! أنت تحبينه أكثر من أي شيء في العالم ، تحبينـه أكثر كثيرا مما تحبين نفسك .

أجابت بسذاجة :

ـ نعم ، ربما ... ولكن اسمع ! لن أتحدث عنه بل سأقول كـلاما عاما ... انني أفكر في هذا الامر منذ زمن طويل : لماذا لا نكون جميعـا كاخوة مع اخوة ؟ لماذا يحتفظ دائما أفضلنا بسرٍ في نفسه ؟ لماذا هو يلزم الصمت ؟ لماذا لا يقول احـدنا فـورا كل ما في قلبه حين يكون واثقا أن الآخر سيفهمه ؟ ان جميع النـــاس يبدون أقسى كثـيرا مما هم قساة في الواقع ، ويتخيلون أنهم يخفضون قيمة عاطفتهم اذا هم عبروا عنها بسرعة مسرفة .

ـ آه يا ناستنكا ! انك على حق ! ولكن البواعث كثيرة . لقد شعرت أنا نفسي أن عليّ في هذه اللحظة أن أخرس طائفة كبيرة من العواطف .

أجابت بانفعال :

ـ لا .. لا .. أنت لا تشبه الآخرين .. لا أعرف كيف أقول لك ما أشعر به ...

قالت ذلك ثم أضافت خجلة وهي ترمقني بنظرة مختلسة :

ـ انك الآن تضحي بنفسك في سبيلي ! واغفر لي أن أخاطبـك على هذا النحو ... ولكنني فتاة بسيطة لم أر الناس الا قليلا ، ولا أعـرف دائما أن أعبر عما بنفسي كما يجب أن أعبر عنه . (قالت ذلك بصـــوت

مرتعش تختفى وراءه عاطفة قوية وكانت تحاول أن تبتســم) • ولكنني أريد أن أفصح لك عن كل امتنانى وشكرى •• انني أحس بكل ماتفعله• وأسأل الله أن يهب لك السعادة جزاء هذا النبل وهذه الشهامة ••• ان ما قصصته علىّ فى ذلك اليوم عن الرجل الحـالم لا يتناولك قط • أنت الآن أحسن حالا • لقد تغيرت فلم تبق ذلك الرجل الذى وصفته لى • اذا أحببت يوما فاننى أتمنى لك أن تتمتع بالسعادة الكبرى التى تســتحقها ، ولست أتمنى لها هى شيئا ، لأنها ستكون سعيدة معك • أنا أعرف ذلك ، فأنا امرأة وفي وسعك أن تصدق ما أقول •

فرغت من الكلام وصمتت وضغطت يدى ضغطا قويا ، وبلغت أنا من شدة الانفعال أننى لم أستطع أن أجيب •

وانقضت لحظات •••

قالت أخيرا وهى ترفع رأسها :

ـ لن يأتى اليوم فالوقت متأخر •

فقلت لها بصوت جازم ولهجة قاطعة :

ـ سيأتى غدا •

فقالت جذلى :

ـ نعم ! أنا مقتنعة بذلك ••• الى اللقاء ! الى الغد ! وقد لا آتى اذا أمطرت السماء ، ولكننى سأجىء بعد غد ، مهما يقـع لى ، فتعـال حتما ، فاننى أريد أن أراك لأتحدث معك أيضا •

فلما افترقنا مدت الىّ يدها وتمتمت وهى تنظر فى عينى :

ـ لأننا سنظل دائما معا ، أليس كذلك ؟

ـ آه يا ناستنكا ! لو علمت كم أنا وحيد الآن •

حين دقت الساعة التاسعة لم أستطع أن أمكث في غرفتي ، فارتديت ثيابي ، وخرجت رغم سوء الجو ، وذهبت الى هناك أجلس على مقعدنا • وأردت أن أجتاز شارع بيتهم ولكنني خجلت • فرجعت دون أن أنظر الى نوافذ البيت ، رجعت الى غرفتي وقد استبد بي كرب شديد لم أعرف مثله في حياتي قط • وكان الجو كالحا جهما رطبا ، ولولا ذلك لخرجت أتنزه على شواطىء النهر طول الليل ••

ولكن الى الغد ، الى الغد ، غدا ستقص عليّ كل شيء •

ومع ذلك لم تصل منه رسالة اليوم • ولكن أليس هذا في طبيعة الامور • انهما الآن معا •

الليلة الرابعة

ربّاه يا لتلك النهاية التى انتهى اليها ذلك الأمر كله ! جئت فى الساعة التاسعة • كانت هناك • رآيتها من بعيد • انها متكئة على افريز الجسر كما كانت متكئة عليه فى اليوم الاول • ولم تسمع وقع خطواتى وأنا أقترب منها • ناديتها مجاهدا نفسى للتغلب على انفعالى •

ـ ناستنكا !

فالتفتت بسرعة وسألتنى قائلة :

ـ هيه ! هيه ! قل •• أسرع •

فنظرت اليها مشدوها •

ـ أين الرسالة ! أهى معك ؟

كذلك رددت تقول مستندة على الافريز •

قلت أخيرا :

ـ لا ! ليس معى أية رسالة • ألم يأت هو اذن ؟

شحب لونها شحوبا رهيبا • ولبثت تنظر الىّ جامدة لا تتحرك زمنا طويلا • لقد حطمت آخر رجاء لها •

وتمتمت أخيرا تقول :

ـ طيب .. لا باس .. فليفعل ما يشاء . ما دام يهجرني هكذا ...

وخفضت عينيها ، ثم أرادت أن ترفع بصرها نحـــوى ، ولكنهـا لم تستطع . جاهدت انفعالها بضع لحظات أخرى ، ثم وضعت كوعيهـا على افريز رصيف النهر وأجهشت تبكى منتحبة .

قلت لها :

ـ هدئى روعك ! هدئى نفسك ! أرجوك .. أضرع اليك .

ولكننى لم أقو على الاستمرار في الكلام . وما كان عساى أن أقوله لها ؟ قالت من خلال دموعها :

ـ لا تحاول أن تعزينى وأن تواسينى . لا تحدثنى عنه بعد الآن ! لا تقل لى بعد هذه اللحظة انه سيأتى وانه لم يهجرنى بقسوة ! ... لماذا ؟ لماذا ؟ اننى لم أكتب اليـه شـيئا فى تلك الرسالة . ما كان لتلك الرسالة الشقية أن ...

وعلا نحيبها فلم أستطع أن أسمع تتمة كلامها ، وكان قلبى يتمـزق وأنا أنظر اليها .

وعادت تقول من جديد :

ـ ماأقسى هذا ! تلك قسوة فوق قدرة الانسان على احتمال القسوة . أما من سطر ؟ أما من كلمة ؟ كان فى وسعه أن يجيب بأنه فى غير حاجة الىّ . كان فى وسعه أن يصدنى . ولكنه لم يفعل شيئا طوال هذه الايام الثلاثة . ما أسهل عليه أن يذل وأن يؤذى فتاة مسكينة عزلاء كل ذنبهـا أنها تحبه ! آه كم قاسيت من آلام فى هذه الايام الاخيرة ! يا رب يا رب!

يا رب .. لا أريد أن أتذكر أنني جئت اليه وأقبلت عليه وأذللت نفسي أمامه وتضرعت باكية أسأله قليلا من حب ... وماذا بعد ؟

قالت ذلك ثم أردفت وهي تنظر الىّ وقد سطعت عيناها السوداوان :

ـ ولكن اسمع ! ما ينبغي أن يكون الامر هكذا ! ذلك غير طبيعي ! لا بد أن أحدنا قد أخطأ ... لعله لم يتلق الرسالة ... لعله يجهل كل شيء حتى الآن ... ما رأيك ؟ مستحيل آن يكون الامر غير ذلك ! اشرح لي ، أرجوك ... أنا لا أستطيع آن أفهم سلوكا يبلغ هذا المبلغ من القسوة ... هل يعقل أن لا يكتب لي كلمة واحدة ؟ فأين الشفقة بالبشر اذن ؟ أيكون أحد قد قال له سوءا في حقي ؟ (كذلك صاحت) ما رأيك ؟

ـ ناستنكا ! سأذهب اليه غدا موفداً منك .

ـ ثم ماذا ؟

ـ سأسأله أن يقول لي كل شيء ... وأحكي له ...

ـ ثم ماذا ؟ .. ثم ماذا ؟

ـ اكتبي له رسالة أخرى ... لا تقولي لا . لا ترفضي . سوف أجبره على احترامك يا ناستنكا . وسوف نعلم كل شيء .. واذا ..

ـ لا يا صديقي ، لا ! كفى ! لن أكتب له كلمة واحدة ... لن أكتب له سطرا واحدا ... كفى ! انني لا أعرفه ... أصبحت لا أحبه .. سوف أنساه ... و

لم تتم جملتها .

قلت لها وأنا أجلسها على المقعد :

ـ هدئي نفسك ، هدئي نفسك ، اجلسي هنا .

ـ أنا هادئة . كفى ! لا ضير ... هى دموع ثم تجف ... أتظن أننى سأنتحر ؟ أتحسب أننى سوف أرمى نفسى فى الماء ؟

كان قلبى طافحا . أردت أن أتكلم ، ولكننى لم أقو على قول كلمة واحدة .

وتابعت تقول وهى تتناول يدى :

ـ اسمع ! لو كنتَ فى مكانه أكنت تتصرف تصرفه ؟ أكنت تنبذ الفتاة التى جاءت اليك من تلقاء نفسها ؟ أكنت تصب احتقارك على قلبها الضعيف الغبى ؟ أما كنت تحمى هذه المرأة ؟ أما كنت تتذكر أنها وحيدة ليس لها من يرشدها ويسدد خطاها ، ولا هى قادرة على مجاهدة حبها لك ؟ وليس لها من ذنب ... ليس لها من ذنب ... ولم تصنع شيئا يمكن أن ... آه ! يا رب ! يا رب !

صحت أخيرا أقول وقد أصبحت عاجزا عن السيطرة على انفعالى :

ـ ناستنكا ! انك تمزقين نفسى ! انك تحطمين قلبى ! انك تقتليننى يا ناستنكا ! أصبحت لا أطيق أن أصمت ، ولا بد لى أن أقول أخيرا كل ما يخنقنى هنا فى قلبى ...

وكنت قد نهضت عن مكانى فتناولت يدى ونظرت الىّ مدهوشة وسألتنى :

ـ ما بك ؟

قلت بصوت حاسم :

ـ اسمعينى يا ناستنكا ! ان كل ما سأقوله لك الآن سخيف غبى لا سبيل الى تحقيقه . أنا أعلم أن هذا لا يمكن أن يقع ، ولكننى لا أستطيع

أن أصمت فباسم آلامك وما تقاسين من ألوان العذاب ، أضرع اليك أن تغفري لى ..

سألتنى وقد انقطعت عن البكاء والتمع فى عينيها الاستطلاع :

ـ ما الذى تريد أن تقوله لى ؟

ـ هو أمر لا يتحقق ... ولكننى أحبك ... هأنذا قد قلت كل شيء (وحركت يدى باشارة معبرة) فهل عليك بعد الآن أن تبوحى لى بشيء ، أن تفضى الى بسرٍ من أسرارك ، وأن تصغى الى ما سأقوله لك .

قاطعتنى تقول :

ـ لم لا ؟ أنا أعرف منذ زمان أنك تحبنى ، ولكن كان يخيل الىّ أنك تحبنى هكذا .. حبا بسيطا .. آه يا رب ! يا رب !

ـ كان الامر بسيطا فى البداية . أما الآن فأنا أشبه ناستنكا حين صعدت الى صديقها حاملةً صرتها ، بل شأنى أسوأ الآن من شأن ناستنكا . فصاحبك لم يكن يحب أحدا حينذاك ، أما أنت فتحبين .

ـ أصبحت لا أفهمك البتة . فيم هذه الكلمات ؟ هذه أقوال لا داعى اليها . ولماذا تقولها على هذا النحو المباغت ؟ يا رب ! ما هذه الحماقات التى أنطق بها ! ... ولكنك ...

اضطربت ناستنكا كل الاضطراب واحمرت احمرارا شديدا وخفضت عينيها .

ـ ولكن ما حيلتى يا ناستنكا ؟ أنا مذنب .. لقد أسأت استعمال الثقة التى محضتنى اياها ... لا بل لست أنا بالمذنب ... اننى أحس بذلك .

قلبي يقول اني على حق • أنا لا يمكن أن أسيء اليك في شيء • كنت صديقك وما زلت • ألم أخن لك عهدا • انظري يا ناستنكا : انني أبكي أيضا • فلتنهمر دموعي • انها لا تؤذي أحدا • انها ستجف يا ناستنكا •

قالت وهي تدفعني الى المقعد :

ـ اجلس •• اجلس •• آه ! يا رب ••

ـ لا يا ناستنكا • لن أجلس • ما ينبغي لي أن أبقى هنا • ولن تريني بعد الآن • سأقول لك كل شيء ثم أنصرف • لو قد استطعت أن أسيطر على نفسي لما عرفتِ يوما أنني أحبك ، ولكتمت عنك سري ، ولما عذبتك الان بأنانيتي • كنتِ أنت البادئة بالكلام ، فأنت المذنبة اذن ، ولا يمكنك أن تصديني •••

قالت البنية المسكينة وهي تخفي اضطرابها ما وسعها ذلك :

ـ ولكنني لا أصدك ، لا •• لا ••

ـ أنت لا تطردينني • كلا • ولكنني كنت أود أن أهرب من تلقاء نفسي • على أنني سوف أنصرف بعد أن أقول لك كل شيء • انني لم أستطع أن أحتمل رؤية دموعك منذ برهة ، وأن أطيق هذا اليأس الذي هويت اليه حين شعرت أنك محتقرة وحين أحسست أن حبك منبوذ • لقد شب في قلبي حب كبير يا ناستنكا ، حب كبير جدا لك ، وآلمني أن لا أستطيع شيئا • آه من هذا الحب ! ••• وتمزق قلبي ولم أطق أن أسكت ، فكان لا بد أن أتكلم ياناستنكا •

ـ نعم •• نعم •• تكلم •• تكلم •• أرجوك أن تتكلم • قد يبدو لك هذا الرجاء غريبا •• ولكن تكلم وسأشرح لك بعدئذ كل شيء •

قالت ذلك بلهجة لا أملك أن أصفها :

ـ انك تشفقين عليّ يا ناستنكا . ان شفقتك وحدها هي التي تتكلم الآن يا ناستنكا . ما وقع فقد وقع . ولا عودة الى الماضي ! هانت ذي تعرفين الان كل شيء . ولكن اصغي الى ايضا . حين كنت تبكين كنت اقدّر ـ ولكن دعيني اعبّر عن فكرتي ـ كنت أقدر انك .. كنت أحسب على نحو من الانحاء أنك أصبحت لاتحبينه ، وعندئذ (وأنا منذ يومين اثنين لا افكر الا في هذا) كان يمكن ان أفعل كل شيء في سبيل ان تحبيني . فلقد قلت انت نفسك يا ناستنكا انك تحبينني يا ناستنكا ! هأنذا قد أنهيت كلامي ، ولم يبق على الا ان اقول ما الذي سيحدث اذا احببتني فعلا . ذلك كل ما بقي عليّ أن أقوله ولا شيء سواه . فاستمعي الىّ اذن يا صديقتي الصغيرة ـ وأنت صديقتي على كل حال : أنا رجل فقير بسيط لا قيمة له (وليس الأمر أمرَ هذا على كل حال ، ولكنني لا أستطيع أن أخرس خجلي) غير أن في وسعي ، لو قد أحببتني ، أن أحبك حباً يبلغ من القوة أن هذا الحب ما كان ليبدو لك شاقاً متعباً ، حتى ولو ظللت تفكرين في الآخر . كل ما هنالك أنك كنت ستشعرين في كل لحظة بوجود قلب معترف بالجميل ممتلىء حرارة يخفق الى جانب قلبك . آه يا ناستنكا ! آه ياناستنكا ! ماذا صنعت بي ؟

قالت ناستنكا وهي تنهض :

ـ لا تبك ! .. لا أريد أن أرى دموعك ...

ثم أضافت تقول وهي تجفف دموعها بمنديلها :

ـ تعال . تعال معي .. سأقول لك كلاما آخر .. لقد هجرني .. لقد نسيني .. ورغم أنني ما زلت أحبه فانني لا أستطيع أن أخفي ذلك..

قل لي : لو أحببتك ••• آه يا صديقي ، يا صديقي المسكين ! ما أشد ما آذيتك في ذلك اليوم حين عبثت بعاطفتك وهنأتك على أنك لم تتوله بحبي ! يا رب ! كيف أمكن أن لا أتنبأ بهـذا ؟ ••• والآن قررت أن أعترف لك بكل شيء ••

ـ اسمعي ياناستنكا • سأنصرف • انني أعذبك • هـذا ضميرك يتألم منذ الآن من أنك لم تفهمي حبي • انني لا أريد أن أزيد حزنك حزنا ••• لا ، أنا المذنب يا ناستنكا ، الى اللقاء •

ـ انتظر ••• اسمع ••• هل تستطيع أن تنتظر ؟

ـ آنتظر ماذا ؟

ـ انني أحبه ، ولكن هذا الحب سينقضي ، سيزول ، بل انه ينقضي منذ الآن ••• أنا أحس ذلك ••• ومن يدرى ؟ ••• فلعل هذا الحب سينتهي في هذا اليوم نفسه ، لأنني أكرهه ما دام قد احتقرني • أما أنت فقد بكيت هنا معي • ولو كنت في مكانه لما نبذتني ، لأنك تحبني حبا صادقا ، ولا كذلك هو ••• فانه لا يحبني ••• الخلاصة ••• انني أحبك ••• نعم أحبك كما تحبني ••• سبق أن قلت لك ذلك ••• أنت تعلم هذا ••• أنت خير منه ••• أنت أنبل منه •• فانه هو ••

بلغ انفعال البنية المسكينة أنها لم تستطع أن تتابع كلامها ، فألقت برأسها على كتفي ، وأجهشت باكية • واسيتها ، حاولت أن أهدئها ، ولكن محاولاتي لم تنفع • كانت ما تزال تضغط يدي ، وتقول من خلال النشيج : انتظر •• انتظر •• لقد انتهى الأمر • لايذهبن بك الظن الى أن دموعي ناشئة عن ••• لا ••• فما هي الا من الضعف ••• انتظر لقد انتهى كل شيء ••• وهدأت أخيراً ، وجففت دموعها وتابعنا طريقنا ،

وأردت أن أكلمها ، ولكنها رجتني أن أصمت لحظة أخرى . صمتنا ، فما هي الا برهة ، حتى بذلت جهدا وأخذت تتكلم . قالت بصوت ضعيف مرتعش ، ولكنه صوت يترجع فيه شيء طعن قلبي وأحدث في نفسي ألماً لذيذاً :

ـ اسمع ! لا تحسب أنني خفيفة القلب متقلبة العاطفة ! فأنا لا أستطيع أن أنسى بمثل هذه السرعة ، وأن أخون بمثل هذه السهولة .. لقد أحببته سنةً بكاملها .. ويميناً ما خنت عهده مرة ولو بالخيال ! وقد احتقر هو هذه العاطفة فله ما يشاء ، ولكنه جرحني وأذلّ قلبي فأصبحت لا أحبه .. لأنني لا أستطيع أن أرتبط الا برجل نبيل ، برجل يفهمني ، برجل شريف . هكذا خُلقت . انه غير جدير بي ، وما وقع فهو خير . فلعل آمالي كانت ستخيب حين أعرفه على حقيقته ... ولعل حبي لم يكن الا خطأ من أخطاء الحواس ووهما من أوهام الخيال . وأغلب ظني أن اسراف جدتي في مراقبتي ومحاصرتي كان هو السبب الوحيد الذي حملني على أن آخذ هذه العاطفة مأخذ الجد . ولعل واجبي كان يقضي عليّ أن أحب رجلا آخر ، رجلا آخر يشفق علي ... وأريد أن أقول لك اذا كنت تشاء رغم حبي لذلك الرجل (حبي الماضي) ... اذا كنت تعتقد أن عاطفتك تبلغ من القوة أنها تستطيع أن تنسيني الآخر ، اذا كنت لا تريد أن تتركني لمصيري محرومةً من الأمل محرومةً من العزاء ... اذا كنت تريد أن تحبني دائماً كما تحبني الآن ... فأنا أقسم لك أن امتناني ، أن حبي ، سيكون جديراً بحبك ... هل ترفض يدي ؟

فما ان سمعت هذا الكلام ، حتى صحت أقول والنشيج يهزني هزاً قوياً :

ـ ناستنكا ! ناستنكا ! آه يا ناستنكا !

قالت :

ـ كفى ! كفى ! لقــد قلت كل شيء . أليس كذلك ؟ أنت الآن سعيد ... اذن فاعلم أنني سعيدة أيضا ... ولا داعي الى كلمة واحـدة أخرى . اشفق علي ... تكلم في شيء آخر ... أرجوك .

ـ نعم يا ناستنكا ، نعم ... أنا سعيد ... هيَّا هيَّا ... فلنتكلم في شيء آخر ... فلنسرع الى الكلام في شيء آخر ... أنا مستعد ...

ولكننا لم نجد أي موضوع آخر يدور عليه الحديث . كنا نضحك ونبكي ونقول كلاما لا تسلسل فيه ، نسير تارةً على الرصيف ، ثم نعود أدراجنا مرة أخرى نجتاز الشارع ، ثم نتوقف ، ثم نرجع الى النهر من جديد ، كالاطفال ...

قلت :

ـ أنا أعيش الآن وحيداً يا ناستنكا ! أما غدا ... أنت تعلمين أنني فقير .. وأن مواردي كلها تقتصر على الفٍ ومائتي روبل في السنة ... ولكن لا قيمة لهذا ..

ـ حتماً ، ولجدتي معاش ... فلن نكون في عسر قط .. سنضم جدتي الينا .

ـ طبعاً سنضم الجدة الينا ... وعندي ماتريونا ...

ـ نعم ونحن عندنا تكلا .

ـ ان ماتريونا فتاة طيبة ... ولكن فيها عيباً : انها يعوزها الخيال ، ليس لها خيال البتة . هل تفهمين ؟ ولكن لا ضير في هذا .

ـ طبعاً . ستكونان كلتاهما معنا ... ولكن تعال الينا منذ الغد .

ـ أجيء اليكم ؟ أتمنى ذلك .. ولكن ...

ـ بل تعال ! تستأجر عندنا غرفة ... ان لدينا شقة صغيرة مؤثثة فوق .. كانت تسكنها عجوز قصيرة سافرت منذ قليل . وأنا أعلم أن جدتي تؤثر أن يكون المستأجر الجديد فتى . وحين سألتها لماذا تؤثر ذلك أجابتني بقولها : « لقد طعنت في السن يا ناستنكا ، ودلفت الى الشيخوخة ، ولكن لا يذهبنْ بك الظن أنني أريد أن أزوجك منذ الآن ... » . وأدركت أنا ...

ـ ناستنكا ! ...

وانفجرنا نضحك كلانا .

ـ هيا ! كفى ! أين تسكن أنت ؟ لقد نسيت .

ـ هناك ، قربَ جسر « ... سكوى » في منزل بارانيكوف .

ـ أهو منزل كبير ؟

ـ نعم هو منزل كبير .

ـ ها ! .. نعم .. أنا أعرف .. انه منزل جميل .. ولكن اتركه وتعال الينا بأقصى سرعة .

ـ غداً يا ناستنكا غداً . انني ما زلت مديناً لصاحبة البيت ببعض المال .. ولكن لا قيمة لهذا .. سوف اتقاضى راتبي قريباً .

ـ اسمع ، لعلني أستطيع أن أعطي دروساً ؟ أتلقى دروساً في أول الأمر ، ثم أعطي دروساً بعد ذلك .

ـ عظيم ... وسأنال أنا مكافأة في القريب يا ناستنكا ...

ـ اذن تعال غداً وستكون جاري •

ـ نعم وسنذهب الى المسرح معاً ، نسمع « حلاق اشبيلية » ••• سيمثلونها قريباً •••

قالت ضاحكة :

ـ فكرة حسنة ، أو قل سنذهب الى المسرح نسمع شيئاً آخر •••

ـ نعم نسمع شيئاً آخر ••• انك على حق ••• لم يخطر ببالى هذا ••• الافضل أن نسمع شيئاً آخر •••

كنا ونحن نتكلم هكذا نسير كلانا سيرَنا فى ضباب ، لا نفهم ماذا يجرى لنا • اجتزنا أحياء مجهولة ، وظللنا نمعن فى السير ثم نمعن فى السير ، نضحك ذلك الضحك نفسه ، ونذرف تلك الدموع نفسـها • وأرادت ناستنكا فجأة أن تعود الى البيت ، فرافقتها ، ولكننا وجدنا نفسينا بعد ربع ساعة على رصيف النهر قرب المقعد ••• كانت تتنهد ، وكانت تنبجس من عينيها دموع • شعرت بوجل ، وتجمد قلبى ، ولكنها سرعان ما ضغطت يدى بيدها ، وجرتنى من جديد لنمشى ، لنثرثر ، لنتكلم ••

قالت :

ـ آن لنا أن ننصرف ••• لا شك أننا تأخـرنا كثيراً ••• كفانا صبيانية •

ـ نعم يا ناستنكا ! ولكننى لن أسـتطيع أن أنام ، ولن أعود الى بيتى ••

ـ وأنا أيضاً لن أستطيع أن أنام • ليس بى نعاس ولكن رافقنى •

ـ طبعا •

ـ ذلك أنه لا بد للمرء أن يعود الى بيته •

ـ حتماً •

ـ أتقطع لى عهداً بذلك ؟ ••• ان على المرء أن يعود الى بيته عاجلا أو آجلا ••

قلت ضاحكا :

ـ لك عليّ هذا العهد •

ـ اذن هيا

وسرنا • قلت :

ـ انظرى الى السماء يا ناستنكا ! سيكون الجو فى الغد جميلا •• ما أروع هذا القمر ! ما أروع هـــذه السماء الزرقاء ! انظرى الى تلك الغمامة الصفراء ! انها سوف تغشى القمر ، ولكن لا ، انها تمر قريبةً منه • انظرى ! لماذا لا تنظرين ••

لم تنظر ناستنكا الى الغمامة بل لبثت صـــامتة ، وكأنها مسمرة فى مكانها • وما هى الا لحظة قصيرة حتى شدّت نفسها اليّ وجلةً ، وكانت يدها ترتعش فى يدى • نظرت اليها ••• ازدادت التصاقاً بى •

وفى تلك اللحظة مرّ شاب قربنا ، وتوقف فجأة ، وحدّق الينا ، وأقبل نحونا بضع خطوات أخرى • ارتجف قلبى ••• قلت أسأل ناستنكا بصوت خافت :

ـ من هذا يا ناستنكا ؟

فتمتمت تقول وهى تزداد اقتراباً منى :

ـ انه هو ...

أوشكت أن أسقط على الأرض ...

صاح صوت خلفنا :

ـ ناستنكا ! ناستنكا ! أهذا أنت ؟

وفي هذه اللحظة نفسها جاء الشاب الينا ...

رباه ! يا لها من صيحة ! ماأشد ماارتجفت ناستنكا ! وانتزعت ناستنكا نفسها من بين ذراعيّ وهرعت اليه ... نظرتُ اليها مصعوقاً ، وماكادت تمد يدها اليه ، ثم تعانقه ، حتى اندفعت نحوى سريعةً كالريح ، كالبرق ، ثم اذا هي ، قبل أن أثوب الى نفسى ، تمسك رأسى بيديها وتقبلنى قبلةً قوية . ودون أن تقول كلمة واحدة ، عادت الى الآخر ، فأمسكت ذراعه وسارت معه ...

لبثت أتابعهما بنظرى طويلا ... وما هي الا برهة حتى أصبحت لا أراهما .

الصباح

ليالىّ فى ذلك الصباح . كان النهار حزيناً .. المطر يتساقط ، ويلطم زجاج نافذتى كئيباً كآبة الحداد . الظلام يخيم فى غرفتى ، وأنا أشكو من صداع فى رأسى ، وأعانى دواراً .

قالت لى ماتريونا :

ـ رسالة لك يا مولاى جاء بها ساعى البريد .

ـ رسالة ؟ ممّن ؟

كذلك صحت وأنا أثب من على كرسيى .

ـ لا أعرف يا مولاى . أنظر أنت ، فترى بنفسك .

ففضضت الرسالة ، انها منها :

« اصفح عنى ! أتوسل اليك راكعةً أن تصفح عنى ! لقــد خدعتك

وكنت مخدوعة عن نفسي . كان ذلك حلماً ... لشد ما تألمت من أجلك اليوم ! فاغفر لي ، اغفر لي ! ...

« لا تتهمني ! لقد قلتُ لك انني سأحبك . واني لأحبك الآن حقاً. بل انني أحبك مزيداً من الحب . رباه ! ليتني أستطيع أن أحبكما كليكما ! لماذا لست أنت هو ؟ لماذا ليس هو أنت ؟

شقت هـــذه العبارة رأسي . « هـــذه أقوالك أنت يا ناســتنكا تعاودني ... » .

«الله يعلم ماذا كنت أحب أن أفعل في سبيلك ! انني أحس كم تتألم. لقد أذللتُ عاطفتك ، ولكنك لا تجهل أن المحب ينسى الاساءة . وأنت تحب .

« واني لأشعر نحو حبك هذا بأعمق الامتنان ، وسيظل منقــوشاً في ذاكرتي حلماً من أجمل الاحلام ، يتذكره المرء بعد اليقظة زمناً طويلا. سأذكر دائماً تلك اللحظة التي فتحت لي فيها قلبك ، كما يفتح الأخ لأخته قلبه ، ثم قبلت قلبي الجريح لتحميه وتداويه وتشفيه ... فاذا غفرت لي، فان ذكراك ستعيش في نفسي تجمِّلها عاطفة الامتنان الأبدي هذه التي لن تزول يوماً .. سأبقى وفية لهذه العاطفة . لا أخون قلبي قــط . فانه ثابت لا يتغير . وأنت تعلم بأية سرعة رجع هــذا القلب الى ذلك الذي امتلكه الى الأبد .

« سوف نلتقي في المستقبل . ستجيء الينا ، ولن تهجــرنا . ستظل صديقنا دائماً . ستظل أخي ، فاذا رأيتني ، فسوف تمد اليَّ يدك ، أليس كذلك ؟ نعم سوف تناولني يدك لأنك قد غفرت لي ، ولست أشــك في ذلك . انك تحبني كما كنت تحبني قبل الآن . آه ! أحبني ! ولاتتركني!

لأنني ما زلت أحبك كثيرا في هذه اللحظة وسأكون جديرة بعاطفتك • سأكون خليقة بها يا صديقي العزيز • لقد حددنا الاسبوع المقبل موعدا لزواجنا • لقد عاد الى ممتلئا حبا ولم ينسنى قط •••

« لا تزعل اذا أنا حدثتك عنه ، سنجيء اليك كلانا وسوف تحبه ••

« اغفر لى وتذكرنى وأحب عزيزتك :

ناستنكا

قرأت الرسالة مرارا وانبجست من عينى دموع • وأفلتت الرسالة من يدى أخيراً فأغمضت عينى •

ـ مولاى ! مولاى !

كذلك قالت ماتريونا •

فسألتها :

ـ ماذا يا عجوز ؟

قالت :

ـ انظر ! لقد نزعت نسيج العنكبوت • تستطيع الآن أن تتزوج ، تستطيع أن تدعو أصدقاءك ، فالبيت نظيف •

نظرتُ الى ماتريونا • انها ما تزال عجوزاً قصيرة ، شابة ، نشيطة • ولكن نظرتها بدت لى ميتة على حين فجأة ، ورأيت في جبينها غضونا ••• وتراءت لى الغرفة كلها عجوزا هرمة مثلها ••• الجدران والارض حائلة ألوانها • أنسجة العنكبوت تكاثرت • ونظرتُ من خلال النافذة فبدا لى المنزل المقابل (لا أدرى لماذا) قد دلف الى الشيخوخة وحال لونه هو

أيضاً ، وتقشرت أعمدته واسودّت أطنافه ، وتشققت ، وصارت جدرانه ضاربة الى احمرار ، بعد أن كانت صفراء قاتمة ...

فاما أن شعاعاً من شمس كان قد شق الغيوم لحظةً ثم عاد يختبىء تحت السحب المثقلة بالمطر ، فاذا كل شيء يرتد مظلماً قاتما في نظرى . واما أنني أدركتُ في طرفة عين آفاق مستقبلي الحزين فرأيت نفسى على نحو ما أنا الآن بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على ذلك العهد ، وقد شخت في هذه الغرفة نفسها ، على هذه العزلة نفسها ، مع ماتريونا هذه نفسها التي لم تجعلها هذه السنون كلها أكثر رهافة .

وقد قلت لنفسي يومئذ : كفاني يا ناستنكا ! لا أريد أن أنكأ جرحي بالذكرى . لا لن أحمل غيوماً قاتمة الى سعادتك المضيئة الساجية ، لن أوقظ في قلبك الحسرات بملامات مرة ، لا ولن أثير فيه ظلاً خفياً من عذاب الضمير . لن أضطره أن يخفق حزينا في لحظات سعادتك وهناءتك .. لا لن أجعد الزهرات الحلوة التي ستضيفينها الى ضفائرك السود يوم تجيئين معه الى الهيكل للزفاف . لا لن أفعل هذا أبداً ! ألا فلتظل سماؤك مضيئة . ألا فلتظل بسمتك مشرقة مطمئنة ، وبوركت يا من وهبت لحظةً من هناءة وسعادة لقلبي الممتن الذى يعيش في وحشة العزلة !

« لحظة بكاملها من سعادة ... رباه هل تحتاج حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ » .

بروخارتشين

١٨٤٦

« بروخارتشـــين » * : كتـــب دوستويفسكي هـذه القصـــة سـنة ١٨٤٦ ، ونشرت في مجلة « حوليات الوطن » في شـــهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٦ ، مج ٤٨ .

كان سيميون ايفانوفتش بروخارتشين يشغل من مسكن أوستينيا فيدوروفنا ركناً هو أحلك أركانه ظلمةً وأكثرها ضعة . انه رجـــل بلغ سن الكهولة ، عاقل حكيم ، لا يتعاطى شرب الخمـــر ، وهـــو موظف صغير ، يتقاضى مرتباً يتفق وكفاءاته . وكانت أوستينيا فيدوروفنا ترى أنه من غير اللائق أن تطالبه بأكثر من خمس روبلات فى الشـــهر أجراً للركن الذى يشغله من مسكنها . كان بعض الناس لا يرون فى رحابة صدرها هذه الا نتيجة حساب معيَّن مقصود . تُرى هل كان ذلك رغبةً منها فى السخر من النمامين الثالبين ؟ المهم أنها كانت تعامل السيد بروخارتشين معاملة انسان أثير عندها ، عزيز عليها ، ولكن فيما لا يجانب الخير ، ولا يجافى الشرف . يجب أن نذكر أن أوستينيا فيدوروفنا ، وهى من أجدر النساء بالاحترام وأميلهن الى البدانة ، عدا ميلها القوى الى أكل اللحم وشرب القهوة ، وعدا نفورها الشديد من أيام الصيام ، كان يسكن فى بيتها مستأجرون أُخَـر . ولكن هؤلاء كانوا يدفعون ضعفى ما يدفعه سيميون ايفانوفتش . كان هؤلاء الطائشون المعربدون ، هؤلاء « العابثون

الأشرار » قد سقط اعتبارهم فى نظر صاحبة البيت من سخرهم بها واستخفافهم بوضعها كأرملة ليس لها من يحميها أو يدافع عنها • ولولا أنهم كانوا يدفعون أجور حجراتهم فى مواعيدها لما ارتضت أن تؤويهم ، بل لما ارتضت أن تراهم •

ولقد أصبح سيميون ايفانوفتش عزيزا عليها أثيرا عندها منذ اليوم الذى نقل فيه الى مقبرة فولكوفو جثمان" كان أثناء حياته يحب الشراب حبا عظيما • ان هذا الشخص الذى أحيل على التقاعد ــ ولا أقول طرد من وظيفته طردا ، وذلك من قبيل الأدب ــ هذا الشخص ، رغم عينه المفقوءة وساقه المقطوعة اللتين فقدهما فى « حادثة شهامة وشجاعة » على ما كان يقول ، هذا الشخص كان قد حظى بجميع النعم التى كانت تستطيع أوستينيا فيدوروفنا أن تُنعم بها على أحد من الناس ولا شك فى أنه كان يمكن أن يظل عالة عليها زمنا طويلا لولا أنه مات على حين فجأة سكيرا بلغ الدرك الأسفل من الادمان ، على أثر سكرة بلغت من الاسراف أنه لم يصح منها • حدث ذلك فى بيسكى يوم لم يكن عند أوستينيا فيدوروفنا الا ثلاثة مستأجرين تركها اثنان منهم بعد انتقال المسكن وتوسعه فلم يبق لها الا السيد بروخاتشين وحده •

لا أدرى أيجب أن نضع اللوم على عيوب السيد بروخاتشين التى لا شك فيها أم يجب أن نضعه على نقائص جيرانه : المهم أن العلاقات بينه وبينهم لم تكن على ما يرام منذ البداية • يجب أن نذكر أن المستأجرين الجدد لدى أوستبنيا فيدوروفنا كانوا يعيشون كما يعيش اخوة حقا • كان بعضهم موظفين فى مكاتب واحدة ؛ وكانوا يتناوبون الخسارة بالمقامرة بعضهم مع بعض فى مطلع كل شهر ؛ وكانوا جميعا يحبون أن يتمتعوا بمباهج الحياة جماعة • وكان يحلو لهم فى بعض الأحيان أن يتحدثوا

فى شئون رفيعة أيضا ، رغم أن الأمور لا تجرى عندئذ بدون مشاحنات ومشاجرات ، ولكن الوئام ما يلبث أن يسود ، لأن الأحكام السابقة لاوجود لها في هذه الجمهورية •

وابرز هؤلاء السادة مارك ايفانوفتش ، وهو رجل عاقل متبحر فى الآداب ، وآوبلافانييف وهو أحد المستاجرين ، وبريبولوفينكو وهو رجل يفيض شهامة وبساطه • وهناك أيضا زينوبى بروكوفتش الذى كان هدفه الوحيد أن يصل الى المجتمع الراقى ، وآوكيبانوف الكاتب فى المحكمة الذى أوشك فى لحظة من اللحظات أن يحظى بآلاء أوستينيا فيدوروفنا • وهناك شخص اخر هو كاتب فى المحكمة أيضا يقال له سودبين ، وهناك البورجوازى كانتاريوف ، وآخرون • ولكن يظهر أن سيميون ايفانوفتش لم يكن له بينهم صديق •

لا شك فى أنه ما من أحد كان يريد له شراً ، لا سيما وأن كل واحد منهم قد أنصفه منذ الأيام الأولى ، فعدَّه انسانا طيب القلب دمث الخلق ، لا يألف الناس كثيرا ، ولكنه امرؤ يوثق به و يُركن اليه• صحيح أن له نقائصه وعيوبه ، ولكنهم كانوا يقدرون ان العيب الوحيد الذى قد يعاب عليه أنه امرؤ يعوزه الخيال تماما •

وعدا هذا العيب ، كان السيد بروخارتشين لا ينعم بمظهر من شأنه أن يخلِّف فيمن يراه أثرا حسنا ، وبالمظهر انما يحلو للساخرين أن يتعلقوا أكثر ما يحلو • ومع ذلك لم يسبب له مظهره المنفِّر هذا نتائج تعود عليه بالضر • والواقع أن مارك ايفانوفتش ، من حيث هو رجل عاقل ، قد أخذ على عاتقه أن يدافع عن سيميون ايفانوفتش ، حتى لقد جهر قائلا بأسلوب مزهر جميل ان بروخارتشين رجل ناضج السن جاد الطبع تجاوز زهرة العمر وعفى عليه عهد الشعر • وعلى هذا يمكن القول:

لئن لم تكن العلاقات بين سيميون ايفانوفتش ممتعة ، فان الذنب في ذلك يقع عليه وحده •

ولقد ثبت الانتباه أول الامر على بخله الشديد وشحه النادر . ذلك أمر سرعان ما اكتشفه فيه هؤلاء السادة وسجلوه له • كان مثلا لا يرضى بحال من الاحوال أن يعير أحدا غلاية الشاى التى يملكها ولو لحظة قصيرة ، وهذا أمر لا مسوّغ له ، لا سيما وأنه كان قلما يشرب الشاى ، فهو يستعيض عن الشاى بشراب طيب المذاق من أعشاب برية يختزن منها مئونة كبيرة دائما • وكان له الى ذلك طراز فى الطعام غريب جدا • فهو لا يسمح لنفسه يوما بتناول الوجبة التى تقدمها أوستينيا فيدوروفنا لسكان بيتها ؛ ذلك أن ثمن الوجبة خمسون كوبكا فكان سيميون ايفانوفتش لا يأكل الا بخمسة وعشرين كوبكا يطلب بها أجزاء من الوجبة : شيئا من خضار مع قطعة من فطير ، أو صحنا من اللحم ؛ ولكنه فى أكثر الأحيان لا يطلب خضارا ولا لحما ، بل يكتفى بالخبز مع بصل أو جبن أو بيض أو خيار مملح أو أى طعام آخر زهيد الثمن ، ولا يعزم أمره على العودة الى الوجبة التى سعرها نصف سعر الوجبة الكاملة الا حين يموت جوعا •

هنا يعترف كاتب قصة حياة هذا الرجل أنه ما كان له قط أن يسترسل في سرد تفاصيل تافهة هذه التفاهة كلها في الظاهر تفاصيل تبلغ هذا المبلغ من الحقارة بل ومن الازعاج لقراء يفتنهم الأسلوب الراقى ، لولا أن هذه التفاصيل تؤلف السمة المميزة والصفة المسيطرة في طبع بطلنا • ذلك أن السيد بروخارتشين لم يكن أبدا ، كما كان يحلو له أن يعلن ذلك ، فى عوز يضطره الى أن لا يطعم من جوع • فلئن كان يحرم نفسه هذا الحرمان كله بغير حياء ولا خجل ، غيرَ عابىء بما قد يقوله

القائلون من النمامين ، فانه كان يفعل ذلك ارضاء لبخله الذى يشبه أن يكون جنونا ، وكذلك من باب الافراط في التبصر بالعواقب ، كما سنفهم ذلك مزيدا من الفهم فيما سيلى من سرد قصة حياته •

وكان يمكن أن نتحرج من املال قرائنا باستعراض جميع أهـواء سيميون ايفانوفتش الغريبة استعراضا مفصلا ، وكان يمكن أن نعدل حتى عن وصف ثيابه مهما تبدُ لنا عجيبة مضحكة ، ولكن أوستينيانا فيدوروفنا أصرت اصرارا قاطعا على أن نذكر الامر التالى : ان سيميون ايفـانوفتش لعله لم يعهد يوما بشيء الى الغسالة ، أو لعله على الأقل لم يفعل هذا الا نادرا جدا حتى ليمكن أن يجهل المـرء هل كان يمـلك في عداد أمواله المنقولة أى ملبس من الملابس الداخلية •

قالت صاحبة البيت :

ان العزيز جدا سيميون ايفانوفتش قد حلا له خلال عشرين سـنة متتالية أن يراكم التتن فوق التتن فى الركن المخصص له ، دون أن يبدو عليه أنه خجلان من ذلك كثيرا ، وعدا انه طوال حياته على هذه الارض لم يهتم أى اهتمام بالأجربة أو المناديل أو غير ذلك من الزينـات الباطلة ، فقد استطاعت أن ترى بعينى رأسها من خلال ثقب فى الحاجز العتيق ، أنه كان يتفق له أن لا يستطيع ستر عورة جسمه • ولم تأخذ هذه الشائعات بالانتشار الا بعد موت سيميون ايفانوفتش لأنه فى أثناء حياته ـ وعن هذا خاصة انما نشأ عدم تفاهمه مع المستأجرين الآخرين ـ لم يكن يطيـق ، رغم علاقات الصداقة أن يسمح أحد لنفسه بأن يحشر أنفه فى « ركنه » قبل أن يحصل منه على اذن سابق بذلك • كان سيميون ايفانوفتش رجلا صعب المراس متجمعا على نفسه عنيدا لا يجدى فيه الكلام ولا تنفع معـه الخطب الطويلة • كان لا يقبل النصائح أكثر مما يقبل السخريات ، وكان

يعرف كيف يسارع الى اقحام كل من يخطر بباله أن يسدى اليه نصحا ، فهو يقول له : « انت تزجى الى النصائح ايها الولد الطائش ؟ خير لمهرج من نوعك ان يعنى بشئون نفسه قبل ذلك . » . ولم يكن سيميون ايفانوفتش متكبرا ، وكان يحب ان يخاطب جميع الناس بصيغه المفرد ، وهو لا يطيق افشاء أسراره ، ولا يحتمل ، حين يعرف أحد شيئا عن اهوائه ، ان يساله عما يحتويه صندوقه الصغير ... لقد كان لسيميون ايفانوفتش صندوق صغير يضعه تحت سريره ويحافظ عليه محافظته على بؤبؤ عينه ، رغم أن كل واحد يعرف حق المعرفة أن الصندوق لا يحتوى الا خرقا بالية ، وزوجين أو ثلاثة أزواج من أحذية أصبح لا يمكن انتعالها ، وأنواعا شتى من ملابس عتيقة . كان يحرص على هذا الصندوق حرصا شديدا ، حتى لقد سُمع يعلن أنه سيشترى له قفلا جديدا من صنع ألمانى . ويوم قادت الحماقة زينوبى بروكوفتش الى ابداء رأى فظ قليل الأدب خال من الحشمة قائلا ان سيميون ايفانوفتش لعله يخفى مدخراته في هذا الصندوق لورثته ، فقد اهتاج السيد بروخارتشين اهتياجا صعقت نتائجه الخارقة جميع الحضور .

في أول الأمر لم يعرف السيد بروخارتشين كيف يعثر على تعبيرات مناسبة يدفع بها هذا الغمز السخيف المضحك . وانقضت لحظة طويلة لم يخرج خلالها من فمه غير كلام خال من أى معنى . واستطاع الحضور أخيرا ، بغير قليل من العناء ، أن يفهموا أن السيد سيميون ايفانوفتش يعيب على زينوبى بروكوفتش عملا قديما لكنه شائن قذر ، ثم هو يتنبأ لهذا الرجل الطائش بالاخفاق المحقق في جميع ما يقوم به من محاولات للنفاذ الى المجتمع الراقى ، ويبشره في الوقت نفسه بأن الخياط الذى يدين له زينوبى ببعض المال سيضربه في القريب ضربا مبرحا لا ريب فيه ؟ ثم هو يصفه بأنه ليس الا صبيا :

ـ أتطمع في آن تصبح ضابطا من سلاح الفرسان ؟ هلا أنعمت النظر اذن في نفسك ؟ انك لن تصبح كذلك • وفوق هذا فان رؤساءك سيعرفون كيف يؤدبونك حين يطلعون على حكاياتك كلها • هل سمعت أيها الصبي الاحمق الطائش !

قال سيميون ايفانوفتش ذلك ثم بدا عليه أنه هدأ بعض الهدوء وتخفف من حنقه • ولكنه بعد خمس ساعات من صمت ، استانف يعظ زينوبي بروكوفتش ، فذهل الحفل من ذلك ذهولا شديدا • ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ففي المساء ، حين نظم مارك ايفانوفتش والساكن بريبولوفانيكو حفلة شاي دعوا اليها كاتب المحكمة أوكيانوف ، ترك سيميون ايفانوفتش سريره ، وجاء ينضم اليهم دافعا نصيبه من نفقات الحفلة خمسة عشر كوبكا أو عشرين • وكان واضحا أن هذه الحاجة الى الشاي ليست الا عذرا وتعلة ' ذلك أنه لم يلبث أن أخذ يشرح في اسهاب أن الانسان الفقير لا يمكن أن يخطر بباله التوفير والادخار ، لأنه ليس الا انسانا فقيرا • وانتهز السيد بروخارتشين الفرصة ليعترف بفقره ، مضيفا الى ذلك أنه فكر أول امس في اقتراض روبل من رجل وقح ، ولكنه صرف النظر عن ذلك الان طبعا • ذلك آن مثل هذا الانسان الوقح ، آن مثل هذا الصبي الطائش ، لا بد أن يمضي متباهيا بذلك مدلا به • أما هو سيميون ايفانوفتش ، فانه يرسل في كل شهر خمسة روبلات الى امرأة أخيه ، وأن امرأة أخيه هذه كان يمكن أن تموت جوعا لولا أنه يرسل اليها هذا المبلغ في كل شهر ، ومع ذلك فلو ماتت لاستطاع أن يشتري لنفسه رداء جديدا منذ زمن طويل •••وظل سيميون ايفانوفتش يتكلم على هذا النحو مسهبا مطنبا ، وبلغ من تكرار الحديث عن فقره وعن امرأة أخيه وعن الخمسة روبلات أثناء كلامه أنه ارتبك آخر الامر ولم يسعه الا أن يصمت •

وبعد ثلاثة ايام ، بينما كان لا يخطر ببال أحد أن يناكده ، وبينما نسوا جميعا هذه القضية ، جاء يختم كلامه قائلا : ان زينوبى بروكوفتش، هذا الرجل الوقح ، الذى لم يكد ينتسب الى سلاح الفرسان ستبتر ساقه فى الحرب ، فلا يملك عندئذ الا أن يحل محل الساق المبتورة ساقا من خشب ، وانه سيرى يومئذ آتيا الى سيميون ايفانوفتش مستجديا كسرة خبز ، ولكن سيميون ايفانوفتش سيسعده كثيرا أن يرفض ضراعات « الصبى » دون أن يلقى عليه نظرة واحدة .

وطبيعى أن يستطرف الجمع هذا الامر كله وأن يتسلوا به ، وأن يقرروا دون مزيد من التأمل والتفكير أن يشنوا على سيميون ايفانوفتش هجوما حاسما . وكان السيد بروخارتشين قد قرر أن يختلط بالحفل ، فهو يبدو الآن حريصا على الاطلاع على كل شىء ، يلقى الأسئلة تلو الاسئلة لغاية سرية لا يعرف أحد ما هى ، حتى أصبحت المنازعات تشب بينه وبينهم بلا مصاعب ولا مقدمات . ومن أجل أن يدخل سيميون ايفانوفتش فى الموضوع ، ارتأى أن يلجأ الى وسيلة مرهفة جدا عرفها قراؤنا من قبل ، فهو يترك سريره متى حان وقت شرب الشاى ، ويقترب من الجماعة كما يمكن أن يفعل ذلك انسان متواضع ذكى أنيس بشوش، فيدفع العشرين كوبكا المفروضة ، معلنا عن رغبته فى المشاركة فى هذه الحفلة الصغيرة ، فتأخذ هذه الجماعة الشابة تتواطأ فيما بينها بغمزات سريعة ، وتدير الحديث محتشما جادا وقورا فى أول الامر .

ثم ما يلبث واحد شجاع منهم أن يمضى ساردا ، على حين فجأة ، مجموعة من الأخبار مختلقة لا تصدق ، فهو يقول مثلا انه سمع صاحب السعادة يسر الى ديميد فاسيليفتش أن الموظفين المتزوجين خير من الموظفين العازبين ، وأنهم أجدر بالترفيع والترقية منهم ، لأن الرجال الهادئين العقلاء

حقا يكتسبون من ممارسة الحياة العائلية مزايا كثيرة ؟ ويضيف المتحدث الى ذلك قوله انه ينوى ، رغبة منه في التميز على غيره وفي زيادة مرتبه ، أن يتزوج مرة أخرى امرأة يقال لها ففرونيا بروكوفييفنا ؟ أو انه لاحظ لدى بعض زملائه في كثير من الاحيان انهم يبلغون من جهلهم باداب المجتمع وباللباقة الاجتماعية ان قبولهم في مجتمع الناس أمر مستحيل ؟ وان السلطات العليا قد قررت لذلك، تفاديا لهذا الوضع السيىء ، أن يحسم من الرواتب مبلغ معين لانشاء قاعة رقص يمكن أن يتعلم فيها المرء رفعه الاوضاع ، وحسن الهندام ، وأدب المعاشرة ، واحترام الشيوخ ، وقوة الارادة ، وصلابة الخلق ، وطيبة القلب ، والشعور بالواجب ، والعرفان بالجميل ، وعددا آخر من المزايا الحميدة والخصال الجميلة . أو يذكر فجاة ، في مرات اخرى ، ان جميع الموظفين ، حتى اقدمهم ، سيخضعون قريبا لامتحان تعرف به درجة ثقافتهم * ، وان ذلك سينشأ عنه أن كثيرا من الحجب ستتمزق ، وان كثيرا من الموظفين سيطردون من وظائفهم . الخلاصة أن أنباء سخيفة كثيرة من هذا النوع كانت تذاع في الجماعة بحضور صاحبنا . وكان الحضور جميعا يتظاهرون بتصديقها ، ويقبلون على الاصغاء اليها والاهتمام بها ، لانها تعنيهم ، ويشيرون الى عواقب مثل هذه الاجراءات بالنسبة الى بعض أفراد جماعتهم ؟ أو يصطنعون الحزن والأسى ، ويهزون رءوسهم كأنهم يستجدون النصح من كل جهة ويلتمسون أن يعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا اذا وقعت مصيبة كهذه المصيبة.

والنتيجة معروفة طبعا : فحتى من كان أقل بساطة وأقل خوفا من السيد بروخارتشين يمكن أن تفقده هذه الأقاويل صوابه . ولقد ظهرت على بروخارتشين جميع العلائم التى تدل على أنه أخذ يفقد صوابه فعلا . انه انسان محدود العقل غير مهيأ لقبول أية فكرة جديدة عليه . ولا شك

أنه أخذ يقلب في رأسه كل نبا من هذه الانباء المثيرة ، باحثا عن الباعث عليه والدافع اليه ، حتى اختلطت الامور في عقله ، وحتى اضطرب ذهنه أشد الاضطراب في هذه المتاهة المتشابكة من الخواطر العجيبة ، لا يعرف كيف يوائم بينها وبين طريقته في التفكير ، ولا يعرف كيف يخرج منها الى شيء من استقرار النفس وهدوء البال ••• وانكشفت في سيميون ايفانوفتش صفات عجيبة لم تخطر ببال أحد ولا كانت في الحسبان ••• وسرت في حقه اشاعات ما انفكت تتضخم وتتضخم ، حتى وصلت الى الديوان • وتفاقم أثر ذلك من تبدلات ظهرت في هيئة بطلنا التي لم تتغير منذ سنين متلاحقة كثيرة : فوجهه الآن أصبح قلقا ، ونظرته أصبحت ريّابة وجلة ، وأخذ يرتجف ويرتعد ، وصار يصغي الى كل نبأ كاذب جديد بانتباه شديد وعقل محموم ؟ واستبد به هوى استطلاع الاخبار واستجلاء الحقائق ، وبلغ هذا الهوس عنده أنه تجرأ فمضى الى ديميد فاسيليفتش مرتين يسأله عن صحة هذه الأنباء • واذا كنا نسكت عن العواقب التي أدت اليها مساعي سيميون ايفانوفتش هذه ، فما ذلك الا من قبيل الاحترام لذكراه •

وخلص الناس من ذلك في أول الامر الى أن الرجل انسان يكره معاشرة البشر ويهمل المواضعات الاجتماعية ، ورأوا فيه شخصا غريب الأطوار • وكانوا في ذلك مخطئين ، فقد فاجأوه مرارا على حالة غريبة من نسيان نفسه ، والذهول عن ذاته ، فاغرا فاه ، رافعا قلمه في الهواء ، كأنه متجمد الجسم ، فهو أقرب الى شبح انسان عاقل منه الى هذا الشخص ذاته • وقد حدث غير مرة أن رآه زميل ذاهل من زملائه على هذه الحال الغريبة من جمود النظرة وشرود اللب ، فشده الزميل من ذلك وأخذ يرتعش خوفا ، وبلغ من جزعه أن سقطت على تقريره قطيرة كانت في يده ، أو كتب في هذا التقرير كلمة ليست في محلها • وصار سلوك

صاحبنا يذهل من يراه من عقلاء الناس ، حتى لم يبق لدى احد شك في ان سيميون ايفانوفتش قد اختل عقله ؛ بل لقد سرت في ذات يوم اشاعة في الديوان تقول ان السيد بروخارتشين قد روع ديميد فاسيليفتش نفسه ، وجمده في مكانه فلم يستطع الرجل ان يرجع القهقرى ، وذلك حين صادف السيد بروخارتشين في احد الممرات على هذا الوضع المقلق المخيف ... فلما وصل هذا كله الى سمع سيميون ايفانوفتش ، نهض عن مكانه ببطء ، وسار في طريقه بين الموائد والكراسي محاذرا ، وتناول معطفه ، وغاب عن الديوان زمنا . ترى هل خاف ؟ هل دفعه الى ذلك دافع آخر ؟ اننا نجهل ذلك ، ولكن ما حدث هو انهم لم يستطيعوا ، خلال مدة طويلة ، أن يعثروا عليه لا في بيته ولا في مكتبه .

لن نحاول أن نعلل أفعال سيميون ايفانوفتش باختلال عقله . وحسبنا أن نذكر للقارىء أن بطلنا كان لا يحب معاشرة الناس وأنه لخجله قد عاش حتى ذلك الحين في عزلة تشبه أن تكون كاملة ، متميزا بطبع سرى صموت في آن واحد . لقد ظل طوال مدة اقامته في بيسكي مستلقيا على سريره وراء الحاجز ، في صمت مطلق ، دون أن تكون له علاقة بأحد من الناس . كان الشخصان الآخران ، اللذان يساكنانه في ذلك المنزل ، غريبين مثله ، يعيشان حياة كحياته تماما ، فقضى الثلاثة حوالى خمسة عشر عاما يضطجع كل واحد منهم في سريره وراء حاجزه ، في صمت كامل ، والأيام والليالى تمضى على هذا النحو سعيدة بطيئة خدرة ، وكل شيء يجرى على ما يرام ، حتى أن سيميون ايفانوفتش وأوستينيا فيدوروفنا أصبح لا يذكر أحد منهما المصادفة التي جمعتهما . كانت المرأة تقول للسكان الجدد الذين يقيمون في منزلها : « انه يعيش في منزلى ربما منذ عشرة أعوام ، وربما منذ خمسة عشر عاما ، وربما منذ عشرين عاما . » . فمن الطبيعى اذن أن يضطرب صاحبنا بعض الاضطراب خلال

هذه السنة الأخيرة بين شبان صاخبين معربدين ، وهو الانسان الرصين الوقور المتحفظ .

أثار اختفاء سيميون ايفانوفتش اضطرابا كبيرا فى المنزل ، أولا لأنه أثير صاحبة البيت ، وثانيا لأن جواز سفره الذى كان محفوظا لديها لم يعثر عليه . وظلت اوستينيا فيدوروفنا يومين تذرف سيلا من الدموع على عادتها فى اللحظات الحرجة الصعبة . وظلت يومين كاملين تتهجم على سائر المستأجرين ، ناعية عليهم أنهم سبب جميع مبائس صاحبها المستأجر الآخر الذى فقدته بسبب سخرياتهم . وفى اليوم الثالث أمرتهم جميعا أن يهبوا باحثين عن التائه ، وأن يردوه اليها حيا أو ميتا مهما كلف الأمر . وفى المساء رئى كاتب المحكمة سوبدين يعود الى البيت أول العائدين معلنا أنه تقفى أثر الهارب ، فرآه فى سوق تولكوتشى * وفى غيره ، وأنه تبعه من قرب ، لكنه لم يجرؤ ان يكلمه حتى حين واجهه أنفا لانف عند الحريق الذى شب فى شارع كريفوى . وبعد نصف ساعة وصل أوكيانوف وكونتاريوف فأيدا ما ذكره سوبدين حرفا حرفا : لقد مرّا قرب الهارب ، ربما على مسافة عشر خطوات منه ، لكنهما لم يجسرا ان يكلماه أيضا . وقد لاحظا ، كلاهما ، أن سيميون ايفانوفتش كان فى صحبة رجل يشبه أن يكون شحاذا هو شخص سكير « تلاحقه الديون » . ثم وصل الساكنان الأخيران . فلما أصاخا بسمعهما الى ما سلف قوله ، قررا أن بروخارتشين ليس بعيدا عن المنزل ، وأنه لن يلبث أن يعود . وكانا يعلمان من جهة أخرى ، منذ زمن طويل ، أن بروخارتشين أصبح يعاشر هذا الشحاذ ، وهو رجل سيىء السيرة كثير العربدة منافق مراء ، فلا شك أنه قد فتن صاحبنا بحيلة من الحيل . ولقد ظهر هذا الرجل أول مرة فى كنف الرفيق رمينوف ، فقضى فى المنزل بضعة أيام ، مدعيا أنه انسان « معذب فى سبيل الحقيقة » ، وأنه كان موظفا فى الأقاليم ، ثم طرد من

وظيفته مع عدد من رفاقه على أثر مرور أحد المفتشين • فلما وصل الى بطرسبرج ارتمى على أقدام بورفيري جريجوريفتش متوسلا اليه أن يجد له عملا في مكتب من المكاتب ، ثم أمكنه أن يحصل على هـــذا العمل ، ولكن شاء سوء حظه أن يجد نفسه بلا عمل مرة أخرى ، اذ أغلق المكتب ثم أعيد تنظيمه دون أن يؤخذ صاحبنا في عداد الموظفين الجدد ••• وذلك بسبب عجـــزه الاداري ، وبسبب كفاءته في نوع آخر من العمل ••• ناهيك عن حبه الحقيقة وعن مؤامرات زملائه • فبعد أن قص الرجل هذه القصة التي هب أثناءها زيموفايكين هذا عدة مرات يقبل صديقه رمينوف، الرجل القاتم المزاج المشعث اللحية ، سلم على سائر الحضور واحدا بعد واحد ، سلاما خافتا جدا ، واصفا كل واحد منهم بأنه محسن اليه مفضل عليه ، ثم راح يصف نفسه بأنه انسان سيىء الخلق ، جبان ، رعـديد ، مزعج ، عربيد ، أحمق ، متضرعا الى الحفل ألا يحقد عليه وهو فيما هو فيه من شقاء وبؤس •

فلما نال حماية هؤلاء السادة ورعايتهـم ، غـدا مرحا مسرورا على الفور ، وأخذ يقبِّل يدى أوستينيا فيدوروفنا ، رغم الاحتجاجات المتواضعة التي قدمتها هذه السيدة واصفة يديها بأنهما غليظتان خشنتان ، وبأنهمـا ليستا على شيء من الرفعة والنبل • ووعد الرجل الجماعة بأن يكشف لهم في ذلك المساء نفسه عن مواهبه في رقصة من طراز قوى • ولكن القصة انتهت في الغداة نهاية مؤسفة ، اما لأن زيموفايكين أودع رقصته قوة مبالغا فيها ، واما لأنه « لطخ شرف » أوستينيا فيدوروفنا حقا ، كما تؤكد ذلك هي التي « كانت تعرف ياروسلاف ايلتش والتي كانت منذ زمن طـويل زوجة ضابط مرموق » • المهم أن الرجل انصرف يومئـذ ، ثم عاد مرة أخـــرى ، فطرد شر طردة ، لكنه عرف كيف يستميل اليـــه سيميون

ايفانوفتش وكيف ينال حظوته ، وها هو ذا يظهر مرة اخرى بصفه جديدة هي انه صاحب بطلنا وفاتنه ومغويه •

ما ان عرفت صاحبه البيت ان سيميون ايفانوفتش سليم لم يمسسه سوء ، وانه لا داعي الى البحث اذن عن جواز سفره ، حتى هدات توا ، ومضت تستريح • وفي اثناء ذلك اتفق عدد من سكان المنزل أن يستقبلوا الهارب استقبالا رائعا • عمدوا الى الحاجز فأبعدوه عن السرير دون خوف على مفصلاته أن تفسد ؟ ونفشوا السرير واضعين الصندوق الصغير عند موضع القدمين ، ومددوا على السرير نفسه « امرأة الاخ » دمية صنعوها من شال صاحبة البيت وقبعتها ومعطفها ، وأجادوا صنعها حتى ليحسبها الناظر اليها شخصا حقا • فلما فرغ هؤلاء السادة من انجاز هـذا العمل على أكمل وجه لبثوا ينتظرون وصـــول سيميون ايفانوفتش بصـبر نافد ليبلغوه عند وصوله أن امرأة أخيـه تركت قريتهـا وجاءت تزوره ، وأن المسكينة لم تملك الا أن تنزل وراء الحاجز • وانتظروا طويلا •••

وفي أثناء هذا الانتظار اتسع وقت مارك ايفانوفتش لأن يقامر مع بريبولوفينكو وكونتاريوف وأن يخسر أجره البالغ خمسة عشر روبلا • ومن كثرة ما لطم أوكيانوف أنفه توبة وندامة تورم هـــذا النتوء واحمر احمرارا شديدا • وكان آفدوتيا بعد أن نام طوال سكرته يهم أن ينهض عن فراشـه ليجيء بشيء من الحطب يشـــعل به المـدفأة • أما زينـوبي بروكوفتش فقد تبلل حتى صـــار كالحساء من فـرط ما كان يمضي الى الشارع مرة بعد مرة عسى أن يرى وصول سيميون ايفانوفتش • ولكن بطلنا لم يظهر ، لا ولا ظهر الشحاذ صديقه • وأيس الجماعة من الانتظار، فانتهى كل منهم الى النوم ، مع ابقائهم « امرأة الأخ » وراء الحاجز • وفي الساعة الرابعة من الصبح سُمعت جلبة رهيبة عند باب الدار أيقظت النائمين

من نومهم فكانت مكافأة لهم على ما بذلوا من جهد حتى لا يناموا • انه هو، هو نفسه ، سيميون ايفانوفتش ، السيد بروخارتشين ، ولكن فى آية حالة !!••• صاح الجميع بصوت واحد : آ ••• وبلغوا من شدة الانفعال حين رأوه أنهم نسوا « امرأة الاخ » فهي لا تخطر لهم الآن ببال • كان الهارب يبدو مغشيا عليه ، يقوده بل قل يحمله على كتفيه حوذى ليلى يرتدى أسمالا ممزقة ، وترتعد فرائصه من شدة البرد • فلما سألته صاحبة البيت أين استطاع نزيلها أن يبلغ هذا المبلغ من السكر ، أجابها بقوله :

ـ ما هو بسكران • أؤكد لك أنه لم يشرب قطرة خمر واحدة • يظهر أن الأمر سكتة أو ما يشبه ذلك •

أسندوا سيميون ايفانوفتش الى المدفأة من قبيل السهولة ، وأخذوا يفحصونه ، فثبت لهم فعلا ان الامر ليس سكرا ، ولكنه ليس سكتة أيضا• لاشك أن به شيئا ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ ذلك أنه كان ، دون أن يستطيع تحريك لسانه ، يهتز اهتزازا شديدا ويصفق أجفانه ، ويحدق مدهوشا تارة الى هذا وتارة الى ذاك من الشهود الذين كانوا فى ملابس النوم • وسألوا الحوذى من أين أتى به ، فقال :

ـ سادة لطاف مرحون أسلمونيه وهو على هذه الحال • كانوا عائدين من كولومنا • هل اشتجروا معه ؟ هل أصابته تشنجات ؟ لا أدرى ••• مهما يكن من أمر ، فهم سادة محترمون لطاف مرحون •

أنهضوا سيميون ايفانوفتش ، وحملوه الى سريره • فلما رقد على السرير فأحس بوجود « امرأة الاخ » الى جانبه ، وأحس بالصندوق الصغير عند قدميه ، أطلق صرخة رهيبة ، وأنهض جسمه حتى صار كالجاثى على أربع ، محاولا وهو يرتعش أن يغطى بيديه وبجسمه كله

أكبر مساحة من مرقده ، وينظر الى من حوله نظرات وحشية مذعورة كأنه يريد أن يقول انه يؤثر الموت على ان يترك ولو جزءا من مائة جزء مما يملك .

لبث سيميون ايفانوفتش يومين أو ثلاثة أيام راقدا وراء الحاجز على هذه الحال ، بعيدا عن الناس في منجى من كل تلك الجلبة الباطلة . لقد نُسي منذ الغداة ، فما يخطر ببال أحد . والزمان يجري مجراه أثناء ذلك : الساعات تتلو الساعات ، والايام تعقب الايام ؛ والمريض راقد في فراشه وقد استولى على رأسه المحموم الممزق الثقيل نوع من الخدر الهاذي . ولكنه لا يتحرك ، ولا يئن ، ولا يتوجع او يتشكى ، بل يلزم صمتا وحشيا ، ويشد جسمه الى سريره كأرنب مذعور يلتصق بالارض متى اقترب منه صياد . وكان يخيم على المنزل صمت حزين قاتم في بعض الاحيان ، اشارةً الى ان جميع النزلاء قد مضى كل منهم الى مشاغله ، فكان سيميون ايفانوفتش يستطيع عندئذ أن يسلي نفسه عن حزنه على مهل ، مصغيا الى الأصوات القريبة الصادرة عن المطبخ حيث تقوم صاحبة البيت بعملها ، أو مصيخا بسمعه الى وقع أقدام تطوف في أرجاء جميع الغرف ، وقع أقدام آفدويتا تنظف المنزل . هكذا كانت تنقضي ساعات ، ساعات كسل ووسن ، ساعات رتيبة تجري على وتيرة واحدة ، كقطرات الماء التي يسمع تساقطها على مغسل المطبخ . ثم يتوافد النزلاء آحادا أو جماعات ، فيسمعهم سيميون ايفانوفتش يتذمرون من رداءة الجو أو يطلبون وجبة الطعام ، ويحدثون جلبة وصخبا ، ويدخنون ، ويشتجرون ويتصالحون ، ويقامرون بالورق ، ويقرقعون الفناجين حين اعداد الشاي . ويقوم المريض بحركة آلية من أجل أن ينهض وان ينضم اليهم بدفع ما يترتب عليه، ولكنه مايلبث أن يسقط الى خدره مرة أخرى على حين فجأة . فاذا هو يحلم عندئذ أنه كان منذ لحظة على المائدة يشرب الشاي ويشارك

في الحديث ، وان زينوبى اسرع ينتهـز الفرصـــة فدس في الحـديث غمزات تتناول « نســـوة الاخوة » وما قد يقوم بينهن وبين مثـل اولئك الرجال الشرفاء من علاقات • فيحاول سيميون ايفانوفتش ان يبرىء نفسه وان يجيب ، ولكن جملة جبارة قويه تتنـــافظ من جميع الافواه دفعـة واحدة تقول : « لاحظنا مرارا ••• » ، فتقطـع عليه هـــذه الجملة كل اجوبته ، فلا يجد عندئذ خيرا من ان يحلم باليوم الاول من الشهر ، اليوم المبارك الذى يتقاضى فيه الروبلات من الحكومة • وها هو ذا على السـلم يفض الاوراق النقدية التى قبضها، ويلقى نظرة مختلسة عجلى على ماحوله، ثم يسارع الى اخفاء نصف المبلغ الذى استحقه آجرا له ، في عنق احد حذائيه • وها هو ذا يقرر ، وهو ما يزال على السلم (دون آن يدرك آن هذه الأمور كلها انما يجريها فى سريره) أن يدفع لصاحبة البيت أجرها متى وصل الى المنزل ، وأن يشترى بعد ذلك بعض الاشــياء التى لا غنى عنها ، وأن يصرح لمن يجب أن يصرح له بذلك أنه قد اقتطعت من راتبه « حسميات » فلم يبق له ما يرسله الى امرأة أخيه ، ثم يرثى لحالها على النحو المناسب ، ثم لا يتحدث الا عنها يومين متتاليين ، ثم يعود يتكلم بعد عشرة أيام على فقره وبؤسه حتى يقتنع رفاقه بذلك مزيدا من الاقتناع • وها هـو ذا يلاحظ ، بعد أن اتخــــذ هذه القرارات كلهـا ، ان آندره يافيموفتش ، الرجل الصموت الأصلع ، الذى تفصله عنه في المكتب ثلاث غرف ، والذى ظل عشرين سنة لم يسمع منه كلمة واحدة فى يوم من الأيام ، ها هو ذا يلاحظ أن آندره يافيموفتش هذا واقف هو أيضا على سلم المكتب يعد روبلاته ، ويقـول ملوحا برأسه : « أهذا مالى ؟ » ، ثم يهبط السلم خاتما كلامه بقوله « اذا لم يكن مال فلا طعام ! » ، حتى اذا وصل الى درجات الفسحة أمام الباب أضاف يقول : « لى سبعة أولاد أيها السيد » ، ثم اذا بهذا الرجل القصير الأصلع لا يخشى أن يسلك سلوك

سبح ، ويخالف قوانين الحياة الواقعية ، فيعلو فجأة مقدار ذراع فوق الارض ويرسم بيده المرتعشة في الهواء خطا مواربا هابطا ، ويجمجم قائلا ان ابنه الاكبر تلميذ في المدرسه الثانويه ، ثم يرشق بروخارتشين بنظرة حانقة كأنه يعده مسئولا عن وجود هؤلاء الاولاد السبعة ، ثم يغطس قبعته حتى تصل الى عينيه ، ويلتفت يسرة ويغيب . ويتأثر سيميون ايفانوفتش تأثرا شديدا . ورغم ايمانه المطلق بانه بريء ، يأخذ يسلم بأن الذنب ذنبه حقا اذا كان هذا البيت البائس يضم سبعة أولاد . ويستبد به خوف ، فياخذ يركض ، لانه يعتقد ان الرجل القصير الأصلع عاد أدراجه يحاول ان يمسك به عازما عزما أكيدا على ان ينبشه ويسلبه ماله باسم أولاده السبعة ، مستبعدا استبعادا كاملا ان ينظر بعين الاعتبار الى « نساء الاخوة » وما قد يكون بينهن وبين سيميون ايفانوفتش من صلات .

ويظل السيد بروخارتشين يركض ويركض حتى تتقطع أنفاسه ، وهؤلاء أناس كثيرون يركضون الى جانبه فيسمع رنين الفضة في جيوب صديراتهم ؛ ثم يأخذ جميع الناس يركضون ، وتدوى في الجو اصوات أبواق رجال المطافيء ، فتحمله أمواج من البشر على قللها تقريبا ، فيتدحرج الى مكان ذلك الحريق الذي شهده أخيرا في صحبة العربيد . كان السكير ، أقصد السيد زيموفايكين ، ينتظر هنالك . فلما رآه أقبل عليه محتفيا به وأمسك يده يقوده الى وسط الجمهور الكثيف . وها هو ذا سيميون ايفانوفتش يرى الآن ، مثلما رأى هناك ، جمهرة من الناس تتلاطم تلاطم الامواج من حولهما ، فتسد رصيف نهر فونتاكا بين الجسرين ، كما تسد جميع الشوارع والأزقة المجاورة ؛ والناس تدفعهما فتزجهما في ورشة واسعة من خشب ، امتلأت بالمستطلعين جاءوا من كل حدب وصوب من المدينة ومن سوق تولكوتشي أو خرجوا من البيوت والملاهي القريبة . انه يرى هذا كله واضحا كأنه يشهده في الواقع ،

وها هي ذي وجوه غريبة تاخد تتخاطر امام عينيه من خلال زوابع الحمى والهذيان • انه يتعرف بعض هذه الوجوه • هذا هو السيد المهيب ، الفارع القامة ، الطويل الشاربين ، الذي ظل طوال مدة الحريق معسكرا وراء ظهـره ، يزجي له المديح حين تعترى بطلنا حماسـة عنيفة فيروح يدبدب كانه يصفق تشجيعا لبسالات رجال المطافيء الذين يراهم من مكانه المرتفع رؤية تامة • وهذا وجه آخر : وجه ذلك الرجل الطويل القـوى الذى رفعه بضربة من قبضة يده على ذلك الحائط يريد أن يجتازه ليقوم بعمل من أعمال الانقاذ • وهذا وجه ذلك الشيخ العجوز الذى يشبه أن يكون لونه لون التراب ، والذى يرتدى معطفا باليا من معاطف المنزل ويحـزمه زنار لا تدرى ما هو : ان هذا الشيخ العجوز كان قد خرج من منزله قبل اندلاع الحريق يريد أن يشترى لنزيله من عند أحد البقالين قليلا من خبز وتبغ ، وها هو ذا الآن يشق الجمهور متجها نحو بيتـه الذى تأكله النيران وتحترق فيه زوجته وابنته مع ثلاثين روبلا ونصـفا مخبـأة تحت سرير من الريش • غير أن أوضح صورة كان يراها سيميون ايفانوفتش هى صورة تلك المرأة الفقيرة التى حلم بها مرارا أثناء مرضه ، وهو يراها الآن مرة أخرى كما كانت تماماً : بحذاءين من قشور الشـجر ، مع عصا باليد ، فى ثياب رثة بالية ، وعلى ظهرها كيس مضفور • لقد كانت تصيح وتصرخ أكثر من رجال المطافيء والجمهور مجتمعين ، قائلة ان أولادها طردوها ، وانها أضاعت فى الوقت نفســه قطعتى نقـد بعشر كوبكات : « الأولاد •• النقود •• النقود •• الأولاد •• » • انها لا تنفـك تنطـق بهذه الألفاظ فى خليط من الكلام لا سبيل الى فهمه ، وقد انتهى النـاس الى تركها على حالتها تلك يائسين من أن يعرفوا ماذا تريد • ولكن العجوز لا تهدأ ، فهى تصرخ وتعول وتحرك يديهـا ، لا تلتفت أى التفـات الى

الحريق ولا الى الجمهور ولا الى شقاء الآخرين ، ولا الى الشرارات التي تتطاير من الحريق وتصل الى هناك •

وشعر السيد بروخاتشين أُخيرا بخوف يعتريه ، ذلك أنه رأى بوضوح أن هذا كله ليس بالامر الهين ، وأُنه لن ينقضي على هـــذه الصورة من البساطة واليسر • فهذا فلاح قريب جداً منه ، متدثر بمعطف ممــزق ، يصعد على كومة من خشب ، ويأخذ ، وقد احترق شعره واحترقت لحيته قليلا ، ياخذ يحرض الجمهور على سيميون ايفانوفتش ، فيتكاثف الناس ويتكاثفون ويظل الفلاح يصيح ويشتم ، ويتجمد السيد بروخاتشين هلعاً وجزعا ، ثم ما يلبث ان يتذكر فجاة أن هذا الفلاح ليس الا حــوذى عربة سبق لسيميون ايفانوفتش أن سرقه منذ خمس سنين سرقة دنيئة ، اذ قفز من العربة قبل أن يدفع الاجر واختفى مارقا كالريح عبر منزل له مخرجان • أراد السيد بروخاتشين أن يصرخ ، أن يتكلم ، ولكن صوته اختنق في حلقه • وهو يحس ضغط الجمهور الهائج الخانق الذى يحيط به احاطة أفعى متعددة الألوان ويخنقه خنقاً • وها هو ذا السيد بروخاتشين يبذل جهداً فوق طاقة البشر فيستيقظ • ولكنه ما ان يستيقظ حتى يرى أن الركن الذى يقبع فيه قد اندلعت فيه النار وأخذت تلتهم الحاجز والبيت كله وأوستينا فيدوروفنا ونزلاءها • ان سريره مشـــتعل لهباً ، وكذلك مخدته وغطاؤه وصندوقه ، وحتى فراشه الثمين • وثب سيميون ايفانوفتش عن سريره ، وتناول الفراش وركض يجره وراءه حتى وصل الى غرفة صاحبة الدار وهو على هذه الحال بقميص النوم حافي القدمين • هنــالك قُبض عليه وأوثق ورُدّ الى ما وراء الحاجز الذى لم يكن يحترق في الواقع ، وانما الحريق في رأس صاحبنا المسكين • أرقــدوا المريض على سريره من جديد • وعاد المريض الى تهاويله : هـــذا صاحب الدمى ، الرثّ الثياب ، الكالح الوجه ، الطويل الشعر ، يرتب في قاع صندوقه

أراجوزه الذى تحرك كثيراً ، لاطماً جميع الناس بائعاً روحه للشيطان، فالى أن يقوم صاحب الدمى بعرض جديد يكف أراجوزه عن الوجود راقـداً فى الصندوق مع ذلك الشيطان نفســـه ومع الزنجى وبيارو وكولومبين وعشيقها السيد ومفوّض الشرطة •

تحلق نزلاء الدار جميعاً حول سرير سيميون ايفانوفتش ، ولبثـوا واقفين هنالك يصوّبون نحو المريض نظرات مستطلعة • وأفاق المـريض آخر الامر ، فاذا هو ، اما حياءً واما لسبب آخر ، يأخذ يسحب الغطـاء على جسمه بكل ما أوتى من قوة، ، اختباءً عن هـذه العيون المشفقة من غير شك • وكان مارك ايفانوفتش أول من قطع الصمت ، اذ أخذ وهـو الانسان العاقل يقول بلطف ان على سيميون ايفانوفتش أن يهدىء نفسه ، وان من العيب والعار على المرء أن يبقى مريضاً على هذا النحو ، وان هذا شىء يصلح للأطفال لا للرجال ، وان على سيميون ايفانوفتش أن يبل من مرضه وأن يعود الى عمله • حتى لقد ختم كلامه بمزحة صغيرة قائلا ان رواتب الموظفين المرضى لمّا تُحدَّدْ بعد ، ولما كان الموظفون المرضى لا ينالون أية ترقية ، فان حالة سيميون ايفانوفتش لن تعـود عليه بفائدة • الخلاصة : لقد شارك الجميع سيميون ايفانوفتش آلامه ، ورثوا لحاله •

ولكن سيميون ايفانوفتش كفر بالنعمة ولم يعترف بالجميل ، فأصرّ على البقاء فى السرير صامتاً لا يتكلم ، شاداً على جسمه غطاءه مزيداً من الشد • مع ذلك لم يشعر مارك ايفانوفتش بأنه غُلب ، وكبح جماح نفسه فقال بضع كلمات لطيفة ، لأن على المرء أن يدارى المرضى وأن يراعيهم • غير أن سيميون ايفانوفتش ظل مصراً على أن لايسمع • ان وجهه يعبـر عن الحذر ، وهو يدمدم بين أسنانه بكلام لا تدرى ما هو • وفجأة أخذ يُدير على اليمين والشمال عينين مهتاجتين حانقتين يخرج منهما شرر كفيل

وحده بسحق جميع الشهود . ان هذا الوضع يجعل المداراة زائدة لامحل لها . لذلك لم يستطع مارك ايفانوفتش أن يكبح ثورة نفسه ، واذ رأى أن الرجل قد آلى على نفسه أن يظل عنيداً ، فقد استاء استياءً شديداً ، وبلغ منه الغضب مبلغه ، فقال له بصراحة قاطعة دون تمهيد انه قد آن له أن ينهض وانه لا يجوز له أن يبقى على هذه الحال راقداً على أذنيه ، وان من الحماقة وقلة الحياء وسوء التربية أن يظل يصيح في الليل والنهار متكلماً عن حدائق ونساء اخوة وسكارى وصناديق وما الى ذلك ، وانه اذا كان لا يريد هو أن ينام فليس من حقه أن يحرم غيره من النوم، فليكن هذا معلوماً لديه ...

أحدث هذا الخطاب أثره . فها هو ذا سيميون ايفانوفتش يلتفت نحو الخطيب فوراً فيقول له حازماً ولو بصوت ضعيف مبحوح :

ـ اسكت أنت أيها الولد البطال ... ما أنت الا ثرثار ... أتراك تظن نفسك أميراً ؟ هه ؟

ثارت ثائرة مارك ايفانوفتش ، ولكنه وقد تذكر أنه أمام مريض هدأ وأراد أن يخجل المريض من نفسه بالملاطفة . ومع ذلك أجابه سيميون ايفانوفتش قائلا انه يرفض أى مزاح ، ولو جاء من ناظم أشعار مثل مارك ايفانوفتش . وأعقب ذلك صمت . وأخيراً أفاق مارك ايفانوفتش من دهشته فقال بلهجة قوية وفصاحة بليغة ان على سيميون ايفانوفتش أن يعرف أنه ابن أناس من علية القوم ، وأن لايجهل كيف يجب على المرء أن يتصرف فى مجتمع راق . ينبغى أن نذكر بالمناسبة أن مارك ايفانوفتش كان يمارس الخطابة ويحب أن يؤثر فى المستمعين . ولا كذلك سيميون ايفانوفتش فانه من طول تعوده الصمت لايقول الا كلاما موجزاً ولايجرى الا اشارات مختصرة ، فاذا اضطر الى القول فترة طويلة كانت الكلمة الأولى تستدعى

الكلمة الثانية ، وكانت الثانية تستدعي الثالثة ، فسرعان ما يمتلىء فمه بالكلمات ، فلا تنطق الكلمات عندئذ الا في فوضى غريبة ، لذلك يتفق له رغم كل تعقله وحكمته أن تفلت من لسانه سخافات • أجاب يقول :

ـ أنت كاذب • ما أنت الا فاسق • ولكنك ستنتهي الى أن تحمل كيسك وتمضي مستعطياً مستجدياً • ما أنت الا زنديق • ما أنت الا صعلوك • هذا أنت أيها الشويعر !

ـ سيميون ايفانوفتش ، انك ما تزال تهذر •

قال المريض :

ـ هل تعلم ؟ يهذر أحمق ، ويهذر كلب ، أما العاقل فيحكم عقله • وأنت لا تعرف شيئاً البتة ، يا صعلوك ••• يا عالم ••• يا كتاب مطبوع • ستحترق في ذات يوم ، ثم لا تشعر بأن رأسك يحترق • هل فهمت المثل ؟

ـ طيب ••• ولكن ••• أقصد ••• ماذا تقول ؟ تقول ان رأسي سيحترق ؟

ولم يكمل مارك ايفانوفتش كلامه • لقد اتضح للجميع أن سيميون ايفانوفتش لم يسترد توازن عقله وأنه يهرف •• ولكن صاحبة البيت لم تستطيع أن تمسك عن أن تذكر ، عرضاً ، أن هناك فتاة صلعاء أحرقت منزلا في شارع كريفوي بايقاد شمعة أشعلت بلهبها خزانة حفظ الطعام • ولكن حادثا كهذا لا يمكن أن يحدث هنا قطعاً ، ويمكن كلّ فرد أن يكون مطمئنا في ركنه كل الاطمئنان •••

صاح زينوبي بروكوفتش يقول مقاطعاً صاحبة البيت خارجاً عن طوره :

ـ اسمع يا سيميون ايفانوفتش ! ما عساك تظننا ؟ ما نحن بمن يقص عليك حكايات نساء الأخوة أو الامتحانات أو الرقص ... أليس هـذا ما تتخيله ؟

واستأنف بطلنا يقول وهو يجمّع آخر قواه لينهض عن سريره وقد أحنقته علائم الاهتمام هذه :

ـ واسمع أنت ، اسمع مني هذا يا أنت : ما المهرّج ؟ هو أنت أو هو كلب . ولكنني لن أقول سخافات لأسرّك وأمتعك . هل سمعت أيها الولد القذر ؟ أنا لست خادمك يا سيد ! ...

وأراد سيميون ايفانوفتش أن يقول شيئاً آخر أيضاً ، لكنه وقد خارت قواه عاد يسقط على سريره . ولبث جميع الحضور هناك ، وقد فغرت أفواههم من الذهول ، وأدركوا أين هو صاحبهم الآن ، واحتاروا لا يعرفون كيف يسعفونه . وفجأة صرّ باب المطبخ ، وشُقّ ، ورئى رأس يطل منه : انه رأس السكير صديق بروخاتشين ، السيد زيموفايكين، يفحص المكان وجلا على عادته . وكأنما كان الجميع ينتظرونه ، فها هم أولاء يومئون اليه أن يقترب بأقصى سرعة . فيسر الرجل سروراً عظيماً ، ويدنو من السرير حتى دون أن يخلع معطفه .

لا شك أن زيموفايكين قد مرت به في الليل لحظات صعبة . الجانب الأيسر من وجهه مختفٍ تحت ضماد، جفناه المتورّمان مبتلان بقيح يرشح من عينيه . والجزء الأيسر من ردنجوته ومن جميع ثيابه الممزقة ملطخ بوحلٍ لا تدري ما هو . وتحت ابطه كمان، لا شك أنه كان ماضياً يريد بيعه . لم يخطىء الجمع حين ناداه مستنجداً به ، فانه ما ان عرف الأمر ، حتى صاح يخاطب سيميون ايفانوفتش بلهجة من يشعر بتفوقه عليه ، ويعرف الزر الذي يجب أن يضغطه :

ـ هيَّا يا سينكا ، انهض • ما هذا يا سينكا ؟ عد الى رشدك يا بروخارتشين العاقل الحكيم • فاذا أصررت على عنادك ، رميتك عن سريرك رمياً • فاياك والعناد ! هل تريد ؟

دُهش الحضور من القوة الموجزة في هذا الخطاب • ولكن دهشتهم كانت أشد من ذلك كثيراً حين لاحظوا أن هذه الكلمات وما اصطنعه الرجل من مظهر قد أثرت في بروخارتشين ، وأرعبته ، وبلغت من ذلك أنه لم يكد يستطيع أن يعزم أمره على الدمدمة بين أسنانه بما كان لا بد منه من تسفيه • قال :

ـ اذهب أنت أيها الشقي البائس • ما أنت الا انسان تعيس • ما أنت الا لص • هل تسمع ؟ ما أنت بصالحٍ لشيء أيها الأمير الجميل ••• أنت لص •

فأجابه زيموفايكين قائلا دون أن يفقد شيئاً من هدوء أعصابه وبرودة دمه :

ـ لا يا أخ ••• لا يابروخارتشين العاقل الحكيم • تصرفك هذا لا يليق بك •

وألقى على من حوله نظرة راضية ، وأردف يقول :

ـ أنصحك بالطاعة والاذعان ، اذا أردت أن لا أفضحك ، اذا أردت أن لا أروي كل شيء ، هل سمعت ؟

فوجيء سيميون ايفانوفتش بهذه الكلمات وهزته هزاً قوياً : لقد أخذ يرتعش ، ويجيل على ما حوله نظرات مذعورة • وسُرَّ السيد زيموفايكين بما أحدثه من أثر سروراً كبيراً ، وهمَّ أن يتابع كلامه ، ولكن مارك ايفانوفتش سبق حماسته ، فما ان رأى أن سيميون ايفانوفتش

قد ثاب الى صوابه قليلا حتى بادر يقول له : « ان تصور مفاهيم كهذه المفاهيم ليس فى هذه اللحظة غيرَ ممكن فحسب ، بل هو ضار أيضاً ، وليس ضاراً فحسب ، بل هو مناف للأخلاق أيضاً ، وان فى هذا اساءة الى الآخرين ، وانه يقدم للآخرين أسوأ مثل . »

توقع الحضور أن تؤتى هذه الموعظة خير ثمرة ، لا سيما وأن سيميون ايفانوفتش ، وقد هدأ الآن كل الهدوء ، قد أجاب عليها باعتدال . وبدأت بين أفراد هذا الجمع مناقشة ودية . وأخذوا يسألون سيميون ايفانوفتش عن السبب الذى جعله يجزع هذا الجزع . فأجابهم ، ولكن جوابه كان هروباً من الجواب . وألحوا فرد عليهم . وتناوب الطرفان الكلام مرة أخرى ، وتدخل الجميع فى الأمر ، فاذا بالحديث يجرى مجرى يبلغ من الغرابة والادهاش أن المرء يعجز حقاً عن نقله . لقد استحال الاعتدال تبرماً ، واستحال التبرم صراخاً ، واستحال الصراخ دموعاً ، وهذا مارك ايفانوفتش يشتد به الحنق فينصرف مرغياً مزبداً ، قائلا انه لم يصادف فى حياته انسانا مناكداً كهذا الانسان. وهذا أوبليانييف يبصق احتقاراً . وبدا الذعر على أوكيانوف . وبكى زينوبى بروكوفتش .. وذرفت أوستينيا جدولا من دموع قائلة فى تأوه ان « نزيل بيتها قد انتهى أمره ، وانه قد فقد عقله ، وانه سيموت وهو فى ريعان شبابه ، وانها يتيمة ، وانهم يجرونها الى الهاوية من غير شك . » . الخلاصة أن الجميع قد استطاعوا أن يقتنعوا أن البذرة قد نبتت ، أن كل شىء قد أثمر ثمرته على ما كانوا يحبون، أن التربة كانت مباركة وأن سيميون ايفانوفتش قد فقد عقله فى صحبتهم الى الأبد ، وأنه صار الى الجنون أحسن مايكون الجنون . وصمتوا جميعا .. ذلك أنهم اذا كانوا قد استطاعوا أن يروّعوا سيميون ايفانوفتش قد أصبحوا هم أنفسهم خائفين ، وأصبحت نفوسهم تفيض شفقة ...

صاح مارك ايفانوفتش يقول :

ـ ما هذا ؟ ما الذى تخشاه ؟ أية ذبابة لسعتك ؟ من ذا الذى تخطر أنت بباله ؟ بأى حق ترتجف هذا الارتجاف ؟ ماذا أنت ؟ أنت صفر ، يا سيد ، أنت أهون شأنا من بذرة برتقالة ! ذلك هو أنت ••• هل فى ذلك ما يستحق كل هذا الاضطراب والقلق ؟ أئذا سحقت امرأة فى الشارع تخيلت أنك سُحقت أنت أيضا ؟ أئذا احترق منزل ظننت أن من الواجب أن يحترق رأسك أنت أيضاً ؟ هيه ؟ ماهذا يا سيد ، ما هذا ؟

دمدم سيميون ايفانوفتش يقول :

ـ أنت ••• أنت ••• أنت ••• غبى ! سوف يؤكل أنفك • سوف تأكله أنت مع خبز ، ولكن دون أن تلاحظ ذلك •

صرخ مارك ايفانوفتش يقول وهو لا يصدق أذنيه :

ـ غبى ! •• غبى ! •• طيب •• لنسلم أننى غبى • ولكن هل علىّ امتحانات يجب أن أؤديها ؟ هل علىّ أن أتزوج ؟ هل علىّ أن أتعلم الرقص ؟ هل ستعوزنى الأرض ؟ ماذا ياعزيزى ، أليس لك مكان كاف ؟ هل ستنهار الأرض تحتك ؟

ـ نعم نعم ••• سوف يسألونك رأيك • سيغلقونها ••• هذا كل شىء •

ـ كل شىء ! كل شىء ! ماذا سيغلقون ؟ ماهذه الحكاية أيضا ؟ هيه ؟

ـ هذا لا ينفى أن السكير قد طردوه •••

ـ طيب ••• طردوه ••• ولكنه سكّير ••• أما أنت وأنا فلسنا كذلك • نحن أناس لاثقون !

ـ لاتقون ••• طيب ••• ومع ذلك فهى ما تزال هناك •••

ـ ما تزال ؟ ••• ماذا تعنى ؟

ـ أعنى الادارة ••• المكتب •••

ـ طبعاً يا أحمق ••• هم فى حاجة الى المكتب •

ـ هم فى حاجة اليه اليوم ، وغداً ، وبعد غد ••• ولكن من الممكن جداً أن تنقطع حاجتهم اليه فى يوم من الأيام • هى القصة نفسها •••

ـ ولكنهم فى هذه الحالة سيدفعون لك رواتبك عن السنة بكاملها•• ألا ان أمرك لعجيب حقاً • ثم انهم ، بحكم خدماتك السابقة ، سيوظفونك فى ادارة أخرى •

ـ رواتبى ••• سأكون مضطراً الى أن آكلها ، وسيسرق منها سارقون ••• ثم هناك امرأة أخى • هل فهمت ؟ هل فهمت يا رأساً من خشب !

ـ امرأة أخيك ؟ قل لى : أأنت رجل ؟

ـ أما أننى رجل فنعم ••• أنا رجل ••• أما أنت ، يا أيها العالم ، فأنت غبى ، أنت رأس من خشب ••• ذلك أنت • لست فى حاجة الى الرد على تشجيعاتك الكاذبة • قد تلغى فى لحظة من اللحظات كل وظيفة• ان ديميد فاسيليفتش ، هل تسمع ؟ ان ديميد فاسيليفتش هنا أيضاً •••

ـ آه ••• ديميد ••• ديميد ••• ولكن •

ـ طبعاً ••• تماماً ••• واذا بالمرء يجد نفسه بلا وظيفة • حاول أن ترد على هذا الكلام !

ـ دعك من هـــذه السخافات ••• اللهم الا أن تكون قد سقطت مطرقة على رأسك • لا تستح يا عزيزى ، قلْ : هل فقدت صوابك ؟

صاح بعضهم يقول ، وهو يعض يديه أسفاً وحزناً :

ـ فقد صوابه ••• انه مجنون •••

واضطرت صاحبة البيت أن تمســـك ذراع مارك ايفانوفتش حتى لا يمزق سيميون ايفانوفتش ارباً •

قال زيموفايكين متوسلا :

ـ سينكا ، يا ذا القلب الرقيق ، ياذا العقل الحكيم ، أصارت نفسك وثنيةً اذن ؟ ألا تفهمني اذن وأنت الانسان البسيط المهذب الفاضـــل ؟ وا أسفاه ! ما منشأ هذا كله الا اسرافك فى الفضـــيلة • أنا ، ما أنا الا عربيد غبى ، ما أنا الا شحاذ قذر ، ومع ذلك لم ينبذنى هـــذا الانسان الممتاز ، بل عاملنى بتقدير واحترام • اننى أشكر له جميله ، كما أشكر للسيدة صاحبة البيت جميلها • اننى أحييهما كليهما منحنيـــاً لهما حتى الارض ، وأنا اذ أفعل هذا لا أفعل الا واجباً أيتها السيدة المحترمة •

قال زيموفايكين ذلك وانحنى فعلا حتى الأرض ، بحركة لا تخلو من نبل • وأراد سيميون ايفانوفتش أن يتابع كلامه ولكنهم لم يدعوا له فرصة فى هذه المرة : هبوا جميعاً يغرقونه بسيل من الضراعات والحجج المقنعة ، والمواساة ، الى أن استحى فطلب اليهم بصوت ضعيف أن يشرح أمره • قال :

ـ طيب ••• صحيح ••• أنا لطيف ، مهـــذب ، رقيق ، دمث ، فاضل ، أمين ، مخلص ، مستعد أن أبذل آخر قطرة من دمى ••• فى سبيل المحافظة على وظيفتى ، هل سمعت أيها الصبى ؟ ولكننى فقير ، فاذا

ألغوها ••• ـ اسكت أنت ! ـ هى الآن موجودة ، ولكن من الممكن أن تلغى فجأة ••• هل فهمت ؟ وفى هذه الحالة سأمضى فى الطرقات ، حاملا كيسى على ظهرى ، أطلب الصدقات • هل فهمت ؟

زأر زيموفايكين يقول بصوتٍ أقوى من كل الجلبة القائمة :

ـ سينكا ، ما أنت الا زنديق ••• وسأقص كل شىء • ماذا أنت ؟ ما أنت الا عيّاط شيّاط ، يا رأساً كرأس كبش ! أنت غبى ، أنت زيّاط سيُكنس من وظيفته كنساً بلا احتفال • ماذا أنت ؟

قال سيميون ايفانوفتش :

ـ هذه هى القضية تماماً •

ـ كيف هذه هى القضية ؟ هلاّ تحدثت معه ؟

ـ كيف أتحدث معه ؟

ـ طبعاً • من كان حراً فهو حر ••• أما من يبقى فى السرير •••

ـ أما من يبقى فى السرير كزنديق ، كواحدٍ من أنصار مذهب فولتير ، فانه ••• اسمع يا سينكا ، ما أنت الا زنديق ، ما أنت الا زنديق !

صرخ السيد بروخارتشين وهو يحرك يده طالباً الصمت :

ـ كفى • ولكن افهم ، افهم يا أحمق : أنا وجل ، وجل اليوم ، ووجل غداً ، ثم أفقد وجلى فى ذات يوم ، فأطلق كلمة وقحة ••• وافعل عندئذ ما تشاء ••• وأصبح زنديقاً !

أرعد مارك ايفانوفتش يقول واثباً عن كرسيه الذى كان قد قعد عليه ليستريح ، ومتجهاً نحو السرير وقد استبد به اضطراب شديد وأخذ يرتجف غضباً وحنقاً :

ـ ولكن ماذا دهاه ؟ ما هذا أيها الأحمق ؟ أتحسب أن الدنيا خُلقت من أجلك ؟ أتراك تظن نفسك نابوليون ؟ ماذا أنت ؟ أأنت نابوليون ؟ قل لى : أأنت نابوليون ؟ ولكن هلا أجبتنى أيها السيد ؟ أأنت نابوليون ؟

ولكن السيد بروخارتشين لم يجب ٠ لا لأن هذه الفكرة ، وهي أنه نابوليون ، قد أخجلته ، ولا لأنه يخشى أن يتحمل مثل هذه المسئولية ، بل لأنه أحس أنه عاجز عن المناقشة ، عاجز عن أن يقول أى شيء معقول ... واعترته بعد ذلك نوبة : ان سـيلا من الدموع يتدفق من عينيه البائستين الرماديتين اللتين أحرقتهما الحمي ٠ وها هو ذا يخفي وجهه بيديه الهزيلتين المعروقتين ويأخذ يتكلم من خلال النشيج متأوها قائلا انه انسان فقير جداً ، بائس جداً ، بسيط جداً ، غبي جداً ، جاهل جدا ، فهو يستحق أن يُمنّ عليه بالصفح ، وأن يعتني به ، وأن يدافع عنه ، وأن يُعطى ما يأكله ويشربه ، وأن لا يُترك و يُهجر ... قال هذا وقال مالا يعلم الا الله أيضاً ٠ وكان وهو يتشكى هذا التشكي يلقى على ما حوله نظرات مذعورة كأنه يتوقع أن يهوى السقف ، أو أن تغور الأرض ٠

ورثى الجميع لحاله ورق قلبهم له ٠ وأخذت صاحبة البيت تبـكى منتحبة ، وراحت تُرقد المريض بنفسها ٠ واقتنـع مارك ايفانوفتش بأنه لا جدوى من تهجمه على ذكرى نابوليون ، فعاد الى حسن المعاملة وساعد صاحبة البيت في ارقاد المريض ٠ وأحب الآخرون أن يكون لهم نفع هم أيضا فاقترحوا أن يهيئوا للمـريض شراباً من مغـلى التوت قالوا انه ذو تأثير سريع قوى فى جميع الأمراض ٠ ولكن زيموفايكين اعترض على هذا الادعاء ، قائلا انه لا شيء أمتع من فنجان بابونج ٠ أما زينوبى بروكوفتش فقد كان لطيبة قلبه يجهش باكياً ، ويذرف سيلا من الدموع ، ويعبّر عن ندمه على أنه أفزع سيميون ايفانوفتش بتلك الحـكايات السخيفة ...

وتذكر أن المريض اشتكى من فقره ، وأنه طلب التصدق عليه ، فاقترح الاكتتاب في تبرع يقتصر الآن على هذه الحلقة الصغيرة من النزلاء .

وراح كل واحد من الحضور يتأوه ويئن ويندب حظ سيميون ايفانوفتش العاثر ، دون أن يستطيع مع ذلك فهم مثل هذا الذعر الشديد الذي اعتراه على حين فجأة . فيم هذا الذعر كله ؟ ماذا لو كان يشغل منصباً خطيراً وكان له زوجة وأولاد ؟ وماذا لو كان قد أحيل الى محكمة؟ انه لا يساوي شيئاً ، ولا يملك من حطام الدنيا الا صندوقاً عتيقاً وقفلا ألمانياً . وقد لبث عشرين عاما من حياته راقداً وراء حاجز ، جاهلا كل شيء عن العالم والحياة ومتاعبها . ثم اذا هو بمزحة باطلة سخيفة ينقلب عقله فجأةً ، ويجزع هذا الجزع كله حين يكتشف أن الحياة قاسية ... أليست الحياة قاسية على جميع الناس ؟ « لو أنه كلف نفسه عناء التفكير في أن الحياة قاسية على الناس كافة ، كما سيقول أوكيانوف فيما بعد ، اذن لاحتفظ بعقله ، واستمر يعيش كما نعيش نحن جميعا . » .

لبث المنزل طوال النهار لا يُعنى أحد فيه بغير سيميون ايفانوفتش. فهم ما ينفكون يجيئون اليه ، ويسألونه عن حاله ، ويغدقون عليه المواساة ... ولكن لم يبق ثمة حاجة الى مواساة في المساء حين التهب جسمه بالحمى وراح يهذي . وأوشكوا أن يستدعوا طبيباً ، وهبَّ جميع النزلاء يعتنون ويتناوبون السهر قرب سريره طوال الليل مخافة أن يقع له مكروه . ثم كلفوا صديقه السكيربالسهر عليه قرب سريره ، ومضوايلعبون بالورق ليساعدهم اللعب على مواصلة السهر . ولكنهم لم يلبثوا أن سئموا اللعب لأنه لم يكن قماراً بمال ، فليس فيه اغراء . وعندئذ تركوا اللعب وأخذوا يتناقشون ، واحتدم النقاش حتى صار صراخاً وضرباً على المائدة ، وحتى انسحب كل منهم الى ركنه وهو يصيح ويطلق كلاما هاجراً عنيفاً.

واذ استبد بهم الحنق والغضب جميعاً ، لم يشأ أحد منهم أن يقوم بدوره في الحراسة . وانتهوا بأن ناموا جميعاً ، فخيّم على البيت صمت مطبق . ثم ان البرد كان شديداً . وقد نام أوكيانوف آخر من نام . فاليكم ماروواه بعد ذلك :

« لا أدرى أكان ذلك حلماً أم كان واقعاً . ولكنني أحسست أن رجلين ، على مقربة مني ، كانا يتحدثان في نحو الساعة الثانية من الفجر » .. لقد أدرك أوكيانوف أن زيموفايكين كان بسبيل ايقاظ صديقه رمينوف وسمع الرجلين يتحدثان زمناً طويلا ، ثم يقوم الثاني فيحاول أن يفتح باب المطبخ بمفتاح . وقد شهدت صاحبة البيت بعد ذلك أن المفتاح كان تحت مخدتها وأنه اختفى في تلك الليلة . ثم خيّل الى أوكيانوف أنه يسمع الرجلين يمضيان الى ما وراء حاجز المريض ، فيوقدان هنالك شمعة .

ثم لم يعرف أوكيانوف عدا ذلك شيئا ، لأنه لم يلبث أن نام ولم يستيقظ الا مع سائر من استيقظوا وهرعوا نحو السرير على أثر صرخة كفيلة بايقاظ ميت . وخيّل الى الجميع أنهم رأوا شمعة مشتعلة تختفى . وفي أثناء ذلك دوّت وراء الحاجز ضجة صراع ، حتى اذا أضاءوا المكان، ورأوا رمينوف وزيموفايكين يقتتلان ويكيل كل منهما لصاحبه التهم والشتائم .. صاح رمينوف يقول :

ــ ما أنا ... بل هذا القاتل .

فصرخ السيد زيموفايكين يقول :

ــ اتركني . انني بريء . أحلف انني لبريء .

لم يكن وجها الرجلين وجهى بشر ، ولكن لم ينتبه أحد الى ذلك كثيرا أول الأمر ، لأن المريض كان قد غادر سريره . حتى اذا استطاعوا

أن يفصلوا المحتربين أحدهما عن الآخر ، رأوا السيد بروخارتشين ممدداً تحت فراشه ، وربما مغشياً عليه . كان قد شد الى جسمه غطاءه ومخدته ، فما يُرى على السرير الا فراش عتيق قذر لا مفرش عليه (ولا كان عليه مفرش في يوم من الأيام على كل حال) . فأخرجوا سيميون ايفانوفتش من تحت الفراش ، وأضجعوه فوقه ، ولكنهم لم يلبثوا أن لاحظوا فوراً أنه لا فائدة من القيام بأى شيء ، وأن أمر المريض قد انتهى ، فأعضاؤه قد تصلبت ، وأنفاسه لا تكاد تخرج من صدره . وأحاطوا به . ان جسمه كله يرتعش . ورأوه يحاول أن يومىء وأن يتكلم ، ولكنه لايستطيع أن يحرك لا يديه ولا لسانه . ومع ذلك كانت أجفانه تصطفق مثلما تصطفق، على ما يقال ، أجفان رءوس قطعها الجلاد منذ هنيهة فهى لا تزال حارة نازفة .

وتوقفت الارتجافات والتشنجات أخيراً ، فتمددت ساقا السيد بروخارتشين ومضى يؤدى حساب حسناته وسيئاته . ما الذى حدث له ؟ هل خاف ؟ هل وافاه كابوس كما أكد ذلك رمينوف فيما بعد ؟ هل وقع شيء غير هذا ؟ لا يعرف أحد . وانما الامر الواقع هو أن من المحتمل أن سيميون ايفانوفتش ما كان ليحرك أصبعا حتى ولو جاء مفوض الشرطة الى المنزل بنفسه ليطرد منه سيميون ايفانوفتش بسبب آرائه الفولتيرية وادمانه على السكر ، أو دخلت متسولة تعلن أنها امرأة أخيه أو جاء أحد يقول له انه استحق مكافأة قدرها مائتا روبل أو امتدت النار الى فراشه فاحترق رأسه. ولكن بينما كان يتبدد الانشداه الأول، ويسترد الحاضرون موهبة الكلام شيئاً بعد شيء ، ويأخذون يعرضون ما يبدو لهم من افتراضات ، وبينما كانت أوستينيا فيدوروفنا محمومةً تنبش تحت المخدة وتحت الفراش وحتى فى الحذائين ، وبينما كانت تلقى أسئلة موجزة على رمينوف وزيموفايكين ، فان النزيل أوكيانوف الذى كان الى

ذلك الحين أقل هؤلاء الناس ذكاءً وأكثرهم خجلا وأقلهم حماسةً ، قد استرد ، على حين فجأة ، حضور الذهن وسرعة البديهة ، واسترد جميع مواهبه الطبيعية ، فتناول قبعته وانسل خارجا من البيت •• وفي اللحظة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها في هذا المنزل الذي كان الى ذلك الحين هادئاً ساكناً ، فتح الباب ، فظهر كالصاعقة تأثيراً سيدٌ مهيب الطلعة نبيل المظهر قاسي الوجه مستاء التعبير ، يتبعه ياروسلاف ايلتش * وتابعه ، ووراءهما يقف السيد أوكيانوف مضطرباً محتاراً • سار السيد النبيل المظهر القاسي الوجه قدما الى السرير الذي كان يرقد عليه سيميون ايفانوفتش ،فجسَّه، فاذا هو يصعّر وجهه ويرفع كتفيه ويعلن أن الأمر قد انتهى ، وأن الرجل مات ، مذكّراً مع ذلك أن هذا الحادث نفسه قد وقع في هذه الأيام الأخيرة لسيد نبيل المحتد رفيع القدر فارع القامة بدا له هكذا أن يموت • قال ذلك وابتعد عن السرير ، مضيفاً أنه قد أُزعج بغير فائدة ، ثم خرج •

وسرعان ما احتـــل ياروســـلاف ايلتش مكانه ، فأصـــبح رمينوف وزيموفايكين بين يدى من يجب أن يكونا بين يديه • ألقى المفوض بضعة أسئلة ، واستولى بلباقة على الصـــندوق الذى كانت صاحبة البيت تتهيأ لفتحه ، وردّ الحذائين الى مكانهما ، ملاحظاً انهما مثقبان باليان لايصلحان للاستعمال ، وأمر بأن ترد اليه المخدة ، ونادى أوكيانوف ، وطلب مفتاح الصندوق الذى وُجد في جيب السكّير زيموفايكين كأنما بمصـــادفة ، وفتح مأوى كنوز سيميون ايفانوفتش • كان كل ما في الصندوق كاملا لم ينقص منه شيء : خرقتان ، وجوابان ، ونصف منديل ، وقبعة عتيقة ، وعدة أزرار ، ونعال مهترئة ، وسيقان أحذية ، أي كل ما يخطر بالبال من مزق تفوح منها رائحة العفونة والتبن • ولم يكن هنالك ما يصلح غير القفل الألماني • وسُئل أوكيانوف بقسوة ، فقال انه مستعد لحلف اليمين• وفتّشت المخدة ، فلم يلاحظ أن هناك ما يميزها غير قذاراتها الشديدة ، أما

من جميع النواحي الأخرى فهي تشبه أية مخدة • وأقبلوا عندئذ على الفراش • رفعوه أولا ، ثم لم يلبثوا أن توقفوا لحظةً يفكرون ، حين سقط منه على الأرض شيء ثقيل رنّ رنين معدن • وتناولوا الشيء الذي سقط وجسوه فعرفوا أنه لفافة عشرة روبلات •

ـ هيه ! هيه ! هيه !

كذلك هتف ياروسلاف ايلتش مشيراً الى ثقب في الفراش كان يخرج منه الشعر والقطن الذي حشي به الفراش • ونظروا في الشق من كثب فلاحظوا أنه ، وطوله نصف ذراع ، قد شُق منذ وقت قصير بسكين اكتشفوها في الفراش نفسه بدس اليد ، ولم تكن الا سكين مطبخ صاحبة البيت • وما كاد ياروسلاف ايلتش يهتف مرة أخرى « هيه ! هيه ! » حتى سقطت لفافة ثانية تبعتها بضعة نقود مختلفة القيم • تناولوا فورا كل ما سقط • وقدّروا عندئذ أن من المستحسن فتح الفراش ، فطلبوا مقصاً •

ان بقية باقية من شمعة كانت تضيء في تلك اللحظة لوحةً شائقة جداً لمن يلاحظها •• عشرة نزلاء متحلقين حول السرير ، بملابس غريبة ، مشعثي الشعر ، لم يحلقوا لحاهم ، ولا غسلوا وجوههم ، قد تورمت أجفانهم من النعاس • بعضهم شاحب ، وبعضهم يتصبب منه العرق •• بعضهم يرتجف محموماً ، وبعضهم يقشعر جسمه من البرد • وصاحبة البيت مذهولة عن نفسها ، تقف هنالك وجلى ، مكتوفة اليدين تنتظر امتثالا لياروسلاف ايليتش • ومن أعلى المدفأة تحملق الخادمة آفدونيا والقطة الأثيرة عند صاحبة البيت ، متأملين باستطلاع وذعر ، هذا المشهدَ الذي يحده الحاجز المخلع • والصندوق المبتور بطنه يكشف عن أحشائه التي تبعث على الاشمئزاز • والغطاء والمخدة ملقيان على الارض تحت الحشو

الذي ينزع من الفراش • وهذه كومة من قطع فضية ونقود أخرى ترى متلالئة على المنضدة العرجاء • وسيميون ايفانوفتش محافظ على هدوئه ، متمدد على سريره ساكنا لا يبدو شاعرا بدماره وخرابه • حتى اذا جيء بالمقص ، وأراد مرءوس من مرءوسي ياروسلاف أن يظهر نشاطا وهمة فشد الفراش بشيء من العنف ليسحبه من تحت صاحبه بمزيد من السرعة ، آخذ سيميون ايفانوفتش يتحرك متدحرجا على جنبه بكثير من الادب ، حتى صار ظهره الى الشاهدين • فلما شدّ الرجل الفراش شدّة أخرى دار سيميون ايفانوفتش على بطنه ثم تدحرج مرة ثانية ، ولما كان خشب السرير ينقصه أحد ألواحه رئى رأس سيميون ايفانوفتش يغطس فجأة الى تحت ، فما يرى الناظر بين ذلك الا قدمين معروقتين هزيلتين مزرقتين تشبهان غصنين من أغصان الشجر متكلسين • ولما كانت غطسة السيد بروخارتشين في هذا الاتجاه هي الغطسة الثانية في هذا الصباح ، فقد نبت في الأذهان بعض الشك ، فاذا ببعض النزلاء يتسلقون على السرير بقيادة زينوبي بروكوفتش بغية أن يروا هل خُبِّيء هنالك شيء • ولكن هؤلاء المتحرين لم ينتفعوا من الصاق جباههم بالجدار باحثين منقبين• وبأمر موجز من ياروسلاف ايلتش يدعوهم الى أن يخلوا على الفور مكان تحقيقاته ، قام اثنان من أعقلهم فشدّ كل واحد منهما احدى ساقي سيميون ايفانوفتش ، هذا الرأسمالي الذي لم يكن في الحسبان ، وأعادوه الى السرير • وفي أثناء ذلك كانت قبضات الريش والقطن ما تنفك تطير هنا وهناك في جميع الجهات ، وكان المال يتكدس أكواما ما تزال تكبر ثم تكبر ••• لقد أخرجت من الفراش روبلات ثقيلة كثيفة من روبلات النبلاء ، وأخرجت منها روبلات جديدة وأنصاف روبلات ، ونقود من ذات الخمسين كوبكا ، ونقود شعبية من ذات الخمسة وعشرين كوبكا ، وفسالات مما تجمعه العجائز ، أي نقود من ذات العشر كوبكات والخمسة

كوبكات فضه . وكانت قطع النقد هذه ملفوفة بورق في كثير من الاعتناء، ومرتبه على نظام ومنهج ، ومصفوفه صفا متقنا . وكان ثمه نقود نادرة ، ونقود مجهـوله ، وكانت بعض الروبلات ترجع الى عهـود قديمـة : مصكوكات مطموسه النقوش مختلطه الرسوم ، من عهد اليزابث وبطرس الاكبر وكاترين ، بينها دنانير المانيه من التاليرات المـزدانه بصـلبان . ووجدت كذلك نقود اصبحت الان نادرة جدا : نقود فضية من ذات الخمسه عشر كوبكا قد نقبت لتجمل افراطا ودرست نقوشها تماما ، ووجدت نقود نحاسية علاها صدا أخضر . وظهرت ورقة نقدية حمراء لا وجود لهـا الان . حتى اذا فرغوا من هذا الفحص التشريحي وهزوا حشو الفراش فلم يسمعوا صليل أى نقد ، وأيقنوا من أنه لم يبق ثمة شيء ، وضـعوا الأموال كلها على المنضدة وأخذوا يقومون بواجب عدّها . لقد تخيلوا فى أول الأمر أنها تبلغ مليونا . وكان المبلغ ضخما على كل حال ، وان يكن بعيدا كل البعد عن أن يبلغ مليونا . كان مجموعه ألفين وأربعمائة وسبعة وتسعين روبلا وخمسين كوبكا . فلو قد تم اكتتاب التبرع الذى اقترحه زينوبى بروكوفتش فى الليلة البارحة اذن لوصل المبلغ الى ألفين وخمسمائة روبل .

صُرّ المال . ووشم صندوق الميت بالختم ، وقيل لصاحبة البيت حين سُمعت شكاواها أين ومتى تستطيع أن تقدم الشهادة التى تثبت ديونها على المرحوم . وطُلب التوقيع ممن يجب أن يوقّعوا ، وأشير بكلمتين الى امرأة الأخ . ولكن سرعان ما وضح أن امرأة الأخ هذه لم تكن الا أسطورة ، نشأت عن فقر فى خيال المرحوم بروخارتشين ، وهو فقر فى الخيال طالما عيب عليه فتقرر عندئذ أن لا يؤتى على ذكرها ، باعتبار أن ذلك لا فائدة منه عدا أنه يسيء الى سمعة السيد بروخارتشـين . فلما انقضى الانفعال الأول ، وعُرف ماذا كان المتوفى ، أصبح الحضـور جميعاً صامتين لا

يتكلمون ، وأخذوا يتبادلون نظرات الريبة والشك . وثار بعضهم من أسلوب بروخارتشين هذا في الحياة ، وشعر بامتعاض عميق .. ثروة كهذه ! كيف أمكن هذا الرجل أن يجمع مبلغا ضخما كهذا المبلغ ؟

وأخذ مارك ايفانوفتش يشرح ، واثقا من نفسه مسيطرا عليها ، لماذا سقط سيميون ايفانوفتش فجأة في مرض الذعر هذا . ولكن لم يصغ اليه أحد . وأطرق زينوبى بروفوكتش شارد اللب يفكر ، وشرب أوكيانوف جرعة ، وتجمع الآخرون على أنفسهم ، وفي المساء أخذ كاتاريوف القصير الذى يتميز بأنف كأنه منقار عصفور ، أخذ يحزم أمتعته ويربطها بعناية ، ثم غادر البيت منتقلاً الى غيره قائلا لسائليه بلهجة فاترة ان الزمان صعب ، وان الأجور في هذا البيت باهظة جدا . أما صاحبة البيت ، فكانت تبكي بغير انقطاع ، لاعنةً سيميون ايفانوفتش هذا الذى لم يتورع عن الاضرار بيتيمة فقيرة مسكينة . ولمّا سأل أحدهم مارك ايفانوفتش لماذا لم يودع سيميون ايفانوفتش ماله أحدَ البنوك في رأيه ، أجابه هذا بقوله :

ـ ماذا تريد ؟ هو انسان بسيط العقل ، يعوزه الخيال .

فقال أوكيانوف لصاحبة البيت :

ـ وأنت يا عزيزتى لم تكوني دونه بساطة ... رجل أَرَدْتهُ مزحة بسيطة ، يقيم عندك عشرين عاما ثم لا تستطيعين أن ... هيء هيء ! ... يا عزيزتى ! ...

قالت صاحبة البيت تجيب ذلك الذى وجه السؤال الى مارك ايفانوفتش ، متظاهرةً بأنها لم تسمع الكلمات المغرضة التى قالها أوكيانوف:

ـ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ علام يودع أمواله البنك ؟ ما كان عليه

الا أن يحمل الىّ قبضة طيبة منها ، وأن يقول لى : « خذى هـــذا لك يا أوستنيوشكا الشابة ، وأطعميني الى آخر أيامى • » وأحلف لك أنه لو فعل ذلك لأطعمته و ُعنيت به ! آه ••• يا له من كذاب • لقد خدعنى أنا اليتيمة الفقيرة ! »

وعادوا قرب سرير سيميون ايفانوفتش • انه الآن راقد رقدة لائقة، مرتد أحسن رداء عنده ، وهو الرداء الوحيد على كل حال ، وذقنـــه المتصلبة مختبئة وراء ربطة العنق التى أسىء عقدها • لقد غسلوه ، ومشطوا شعره ، ولكنهم لم يحلقوا له ذقنه لأنهم لم يجدوا فى المنزل موسى حلاقة• كان ثمة موسى حلاقة ، هى ملك زينوبى بروكوفتش ، ولكنها بلغت من التثلم أنها أصبحت لا تصلح للاستعمال ، فبيعت بسعر بخس فى ســوق تولكوتشى ، وأصبح جميع النزلاء منذ ذلك اليوم يحلقون ذقونهم عنــد الحلاق • ولم يتسع الوقت لاصلاح الفوضى فى ركن سيميون ايفانوفتش• ان الحاجز المحطم راقدٌ على الأرض يكشف عن عزلة ذلك الانسان الذى اختبأ وراءه ، ويرمز الى هذه الحقيقة : وهى أن الموت ينزع جميع الحجب، ويهتك جميع الأسرار ، ويعرّى جميع المكائد • وحشو الفراش منثــور على الأرض كلها ، فلو رآه شاعر لما فاته أن يشبه هذا الركن الذى أصبح الآن باردا خربا بعش من أعشاش أنثى السنونو « ربة البيت » • لقـــد خرّبت العاصفة كل شىء : ماتت الأم وصغارها ، وتبعثر العش الذىصنعه الحب من ريش وزغب •

غير أن وجه سيميون ايفانوفتش أقرب الى أن يكون وجـــه أنانى عجوز ، أو دورى سارق • هو الآن هادىء كل الهدوء ، كانسان مرتاح الضمير ، كأنه لم يكن صانع تلك المكائد التى تخدع الناس خداعا دنيئا • أصبح لايسمع بكاء صاحبة البيت المهجورة • بل انه أشبه برأسمالى خبيث

فرر أن لا يضيّع وقته في غير عمل حتى القبر ، فهو الآن مستغرق استغراقا كاملا في حسابات لاتنتهي. وجهه يعبّر عن تأمل عميق ، وشفتاه مزمومتان على وقار ما كان يُظن يوما أنه قادر عليه أثناء حياته . كان يبدو أنه قد اكتسب ذكاء كثيراً . انه لم يغمض عينه اليمنى الا نصف اغماض ، كأنه أراد أن يبلّغ أمراً من الأمور على عجل ثم لم يتسع وقته لشرحه ... كان كمن يقول :

« هلاّ كفكفت دموعك أيها الحمقاء ؟ هيَّا موتي ، هل تسمعين ؟ لقد مت أنا ولم تبق بي حاجة الى أي شيء . ما أحلى أن يرقد المرء هـذه الرقدة المريحة ... مادمت أقول لك انني مت ! هذا مستحيل حقا، ولكن، مع ذلك ، هبيني لم أمت ، وهبيني أنهض فجأة ، فما عسى أن يترتب على ذلك ؟ »

الجــارة

١٨٤٧

« الجارة » (Hozialka) ، كتب دوستويفسكى هذه القصـــة ســـنتى ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة « حوليات الوطن » فى شهرى تشرين الأول (أكتـــوبر) وكانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٧ ، مج ٥٤ ، مج ٥٥ .

الفصل الأول

١

قرّر أوردينوف أخيرا أن يستبدل بمسكنه مسكنا آخر • ان صاحبة البيت التى ينزل عندها ، وهى امرأة طاعنة فى السن ، فقيرة جدا ، أرملة موظف ، قد اضطرت ، لأسباب لم تكن فى الحسبان ، أن تترك سان بطرسبرج وأن تمضى تعيش عند أقرباء لها ، فى قرية صغيرة ، حتى دون أن تنتظر الى آخر الشهر ، موعد انتهاء استئجارها المنزل • وقد بقى الشاب حتى آخر الشهر ، المدفوع الاجرة سلفا ، وهو الآن يفكر ، على أسف وحسرة ، فى هذا البيت الذى يضطر الى تركه ، ويشعر من ذلك بحزن شديد • ومع ذلك فالشاب فقير ، وأجرة المسكن باهظة • ها هو ذا منذ الغداة ، بعد سفر صاحبة البيت ، يضع قبعته على رأسه ، ويخرج مطوّفا فى الأزقة الضيقة من بطرسبرج ناظرا الى اللافتات

الملصوقة على أبواب الدور ، متوقفا خاصة على العمارات القائمة المظلمة المكتظة بالسكان ، فان الأمل فى العثور على غرفة تناسبه لدى مستأجرين فقراء فى مثل هذه العمارات أكبر منه فى عمارات أخرى •

وانه لفى هذا الطواف والبحث ، اذا هو يشعر بعد فترة باحساسات جديدة تكاد تكون مجهولة ، تغزوه شيئا بعد شيء • لقد أخذ ينظر فيما حوله ، ذاهلا غير حافل أول الامر ، يقظا شديد الانتباه بعد ذلك • ان الجمهور وحياة الشارع والصخب والحركة والاشياء الجديدة وهذا النشاط كله وهذا الاضطراب الذى تضطربه الحياة اليومية فيضجر ساكن بطرسبرج المشغول المجهد المرهق الساعي عمره عبثا ، بجهد ضخم ، الى الهدوء والراحة فى عش دافىء يحصّله بعمله أو وظيفته أو بوسائل أخرى ، ان كل هذه الاشياء التافهة السخيفة ، توقظ الآن فى نفس أوردينوف احساسا عذبا فرحا يوشك أن يكون حماسة • فخداه الشاحبان يغشاهما شيء من حمرة ، وعيناه تسطعان بأمل جديد ، وهو ينشق الهواء البارد الطرى أنفاسا كبيرة ، بشراهة • انه يحس بخفة عظيمة لا عهد له بمثلها من قبل •

لقد عاش دائما حياة هادئة معتزلة ، وحصل منذ ثلاث سنين على درجة علمية ، فلما أصبح بذلك حرا على قدر الامكان ، مضى يزور رجلا عجوزا لم يكن يعرفه قبل ذلك الا بالاسم • وقد تُرك ينتظر مدة طويلة، الى أن تكرم حاجب يرتدى ثياب الحجاب فى منازل الكبار ، أن يبلغ العجوز وصول الشاب مرة ثانية • فأُدخل الى قاعة عالية السقف مظلمة مقفرة لا تحسن وفادة زوارها ، قاعة من هذه القاعات التى لا يزال يوجد مثلها فى بعض القصور التى تجمدت فيها الحياة • هنالك فى هذه القاعة رأى شيخا أشيب الشعر مثقلاً بالأوسمة والنياشين هو صديق المرحوم أبيه ، والوصىّ عليه • نقده الشيخ مبلغا ضئيلا من المال هو البقية الباقية

من ميراث أجداده الذى بيع بأمر من القضـــاء سدادا لديونه • فتناول أوردينوف المال غيرَ مبال ، ثم ودّع الشيخ الوصيَّ عليه الى الأبد ، وخرج الى الشارع • كان ذلك الأصيل من الخريف باردا مظلما ، وكان الفتى ساهما شارد اللب واجما ، في قلبه حزن كبير يمزقه تمزيقا • ان عينيـه تشتعلان بلهب ، وان جسمه تعتريه رعشات حمى • وكان ، وهو سائر فى طريقه ، يجرى فى ذهنه حسابا ، فيدرك أنه بالمال الذى أخذه من الشيخ قد يستطيع أن يعيش سنتين أو ثلاثا ، وربما أربعا ، هذا اذا لم يأكل دائما كلما جاع • وهبط الليل • وأخذ المطر يهطل • واستأجر الفتى أول مأوى وقع عليه ، فما هى الا ساعة حتى كان قد أقام به ، واستقر فيه • وهنالك ، في هذا المسكن ، حبس نفسه حبس من يعيش فى دير ، واستغنى عن العالم استغناء كاملا ، حتى أصبح بعد سنتين متوحشـا كل التوحش لا يعاشر أحدا •

أصبح كذلك دون أن يلاحظ • كان لا يخطر بباله أن هناك حياة أخرى صاخبة مضطربة متغيرة جذابة ، لامفر منها عاجلا أو آجلا • صحيح أنه سمع عن هذه الحياة بالرغم منه، ولكنه كان يجهلها ولايسعى الىمعرفتها •• لقد قضى حياته في عزلة • وهـو الآن غارق غرقا كاملا في هوىً عميق ، هوىً لا يشبع ولا يرتوى ، هوىً من تلك الأهواء التى لا تدع لأشخاص مثل أوردينوف أي فرصة للقيام بأى نشاط عملي حياتي : ذلك الهوى هو « العلم » • كان ذلك الهوى يفسد شبابه بسمٍ بطيء لذيذ ، حتى ليعكر عليه راحة لياليه ، ويحرمه من الغذاء الصحي والهواء النقى الذى لم يكن يدخل مأواه قط • ولكن أوردينوف ، المولع بهواه المشغوف به ، كان لا يريد أن يلاحظ ذلك • انه شاب ، وهو لا ينشد الآن شيئا عدا ذلك • ان هواه يدعه طفلا فى كل ما هو حياة خارجية ، ويجعـله عاجزا الى الأبد عن اقصاء بعض الناس ليتخذ لنفسه مكانا صغيراً بينهم عند

الضرورة . ان العلم هو في بعض الأيدى رأسمال ، أما هوى أوردينوف فقد كان سلاحا موجها ضده .

ولم تكن الرغبة الواضحة المنطقية في التعلم هي التي وجّهته الى الدراسات التي وقف نفسه عليها حتى ذلك اليوم ، بل كان ذلك نوعا من انجذاب لا شعوري . لقد عُدَّ شخصا غريبا منفردا منذ أن كان طفلا ، لأنه لم يكن يشبه رفاقه في شيء . انه لم يعرف أبويه . وهو بسبب طبعه الغريب وبسبب توحشه قد قاسى كثيرا من زملائه في المدرسة ، فزاده ذلك عبوسا ، حتى ابتعد شيئاً فشيئاً عن جميع الناس ابتعادا كاملا ، وانطوى على نفسه .

وهو في دراساته المعتزلة لم يتبع لا في الماضي ولا في الحاضر نظاما أو ترتيبا . كان ذلك فيه أشبه بالاندفاعة الأولى ، بالحماسة الاولى ، بالحميا الاولى التي يشعر بها الفنان . خلق لذاته مذهبا خاصا به : فكر فيه سنين طويلة ، فكانت تتكون في نفسه ، شيئا بعد شيء ، صورة ما تزال غامضة ، ما تزال بغير شكل ، ولكنها جميلة جمالا لا نظير له ، صورة الفكرة تتجسد في شكل جديد مشرق مضيء . وكان هذا الشكل الذى يريد أن يخرج من نفسه يعذبه ويرهقه من أمره عسرا . انه يشعر بأصالته وصدقه وقوته شعورا وجلا خجلا . كان مخلوق يريد منذ الآن أن يعيش بنفسه ، أن يتخذ شكلا ، أن يتقوى وأن يتعزز في هذا الشكل، ولكن نهاية الاختمار ما تزال بعيدة ، ولعلها بعيدة جدا ، ولعلها مستحيلة المنال لا يمكن الوصول اليها بحال .

ها هو ذا أوردينوف اذن يسير في الشوارع كغريب ، كناسك خرج فجأة من صحراء صمته ، في المدينة الصاخبة المتحركة . ان كل شيء يبدو له جديدا طريفا شائقا . ولكنه غريب عن هذا العالم الذى يغلى من حوله

ويضطرب ، يبلغ من غرابته عنـــه أنه لم يخطر بباله أن يدهش من احساساته العجيبة هذه • كان لا يبدو أنه واعٍ توحشه • بالعكس : ان شعورا بالفرح ، شعورا يشبه شعور الجائع الذى صام زمنا طويلا ، ثم أعطي ما يأكله ويشربه ، كان ينشا في نفس اوردينوف • لقد يبدو امرا غريبا أن يكون حادث تافه تفـاهة تغير مسكن كافيـا لأن يطيش لبّ ساكنٍ من سكان بطرسبرج وأن يلقى في نفسه هذا الانفعال ، ولو كان أوردينوف• ولكن يجب أن نذكر أن هذه المرة التى يخرج فيها أوردينوف ربما كانت هي المرة الاولى التي يخرج فيها لعمل• وكان استمتاعه بالطواف في الشارع ما ينفك يزداد ، وأصبح ينظر الى جميع الاشياء نظرة متسكع•

ولكنه ما يزال حتى الآن وفيا لشاغله المألوف ، فهو يقرأ في المشهد، الذى ينكشف أمامه رائعا ، قراءته بين سطور كتاب • ان كل شيء يفجأ بصره ، انه لا يدع احساسا واحدا ، وهو بنظرته الساهمة يتفرس وجوه المارة ، ويلاحظ مظهر كل ما يحيط به في انتباه ، ويصغي مفتونا الى اللغة التى يتخاطب بها الشعب ، كأنه يتحقق خاصة من صدق النتائج التى خلص اليها في هدوء لياليه المعتزلة • وكثـيرا ما يخطف بصره أمر تفصيـلى ، فيوقظ في نفسه فكرة ، فيشعر لأول مرة بالأسف والحسرة على أنه دفن نفسه حيا في زنزانته • ان كل شيء يجرى هنا جريانا أسرع : نبضـات قلبه أقوى ، وفكره الذى أرهقته العزلة وكان لا يعمل الا بتحريضٍ من الجهد المتحمس ينطلق الآن بخفة وثقة وجرأة • وهو يتمنى ، عدا ذلك، على غير شعور تقريبا ، أن يدخل في هذه الحياة الغريبة عليه ، بشكل من الأشكال • ذلك أنه ، حتى هذا اليوم ، كان لا يعرف هذه الحياة • أو قل انه كان لا يتوجسها الا بغريزة الفنان • ان قلبه يخفق الآن بقلق الحب والمودة رغما عنه • انه يتفرس بمزيد من الانتباه وجـوه الناس الذين يمرون أمامه ، ولكنهم جميعا بعيدون مهمومون ساهمون ••• وشيئا فشيئا

تبددت عاطفة آوردينوف • أخذ الواقع يرهقه منذ الآن ، ويفرض عليه نوعاً من الخشية والاحترام • ان هذه الفورة من الاحساسات التي كان يجهلها الى ذلك الحين أخذت تتعبه • فكما ينهض مريض من المرض عن سريره لأول مرة فرحا ، ثم يعود فيهـــوى بتأثير الضياء وزوبعة الحياة الساطعة ، كذلك أوردينوف بهرته ألوان الجمهور الذى يمـــر أمامه ، وأتعبته ضجته ••• فاعتراه الحزن ، وانتابه القلق • وأخذ يشعر بخوف على حياته كلها ، وعلى نشاطه ، وحتى على مستقبله • ان فكرةً جـديدة تقتل هدوءه : لقد قال لنفسه فجأة انه وحيد ، فما من أحد يحبه ، ولاآتيح له هو أن يحب أحدا في يوم من الايام • ان بعض المارة الذين كلمهم عرضا حين بدأ جولته قد نظروا اليه نظرة غريبة ، جارحة • لقد لاحظ أنهم يعدونه رجلا مجنونا ، أو يعدونه انسانا شاذا كل الشذوذ في أقـل تقدير ، وذلك صادق تماما على كل حال • وتذكر عندئذ أن جميع الناس كانوا يضيقون ذرعا بوجوده ، دائما ، وتذكر أن جميع الناس كانوا ، منذ طفولته ، يتحاشونه ويتجنبونه بسبب طبعه المغلق العنيد ، حتى أن العطف الذى كان يظهر في نفسه أحيانا كان يشـــق على الآخرين أو كانوا لا يفهمونه • ولقد تألم من هذا كله في طفولته ، يومَ لم يكن يشبه أى طفل في سنه • انه يتذكر ذلك الآن ، فيدرك أن جمـــيع الناس قد هجروه وهربوا منه في كل وقت من الأوقات •

وظل أوردينوف يسير ويسير ، فاذا هو يجد نفسه في حيٍ بعيدٍ جدا عن وسط المدينة ، دون أن يشعر كيف وصل الى هذا المكان • وبعد أن تناول غداءً مختصرا في مطعم صغير ، استأنف طوافه في الشوارع ، فاجتاز ميادين ، حتى وصل هكذا الى طريق تصطف على جانبيه أشجار صفراء وغبراء • ليس ها هنا عمارات غنية ، بل أكواخ بائسة ، ومبـــاني مصانع ضخمة عملاقة جمراء مسوَّدة ذات مداخن عالية • وكل ما حول

ذلك أرض خلاء قفراء • ان كل شيء هنا عابس كالح عـدو ، أو ذلك ما بدا لصاحبنا أوردينوف • وكان المساء يقترب • وفي آخر شارع ضيق طويل وصـل اوردينوف الى الساحة الصـغيرة التي تقع فيها كنيسة الأبرشيه •

دخل اوردينوف الكنيسة ذاهلا • كان القداس قد انتهى منذ قليل• والكنيسة تشبه أن تكون خالية • هاتان امرأتان عجوزان راكعتان عنـد المدخل • وهذا قندلفت ، وهو شيخ قصير اشيب الشعر ، يطفىء الشموع• ان أشـعة الشمس الغاربة تجتاز زجاج القبـة الضيقة موجة كبيرة فتنير أحد الهياكل بضياء ساطع • ولكن تلالؤ الاشعة يكبو شيئا بعد شيء ، فكلما ازداد تكاثف الظلام في داخل المعبد ازدادت في بعض المواضـع روعة تألق الأيقونات المذهبة ينيرها الضياء المهتز المنبعث من السُرُج والشموع•

ألمّ بأوردينوف غم عميق ، وشعور غريب بالاختنـاق ، فاستند الى الجدار في أعتم ركن من الكنيسة ، واسترخى لحظة • ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه حين سمع وقع خطوات صماء منتظمة تدوى تحت قبةالكنيسة، هي خطوات زائرين اثنين • رفع أوردينوف عينه فأحس بحب استطلاع لا يوصف حين وقع بصره على هذين القادمين • انهما شيخ عجوز وامرأة شابة • العجوز فارع القامة منتصب القد ، لكنه شديد النحول يعلو وجهه شحوب مرضي • يقدّر المرء من النظر الى مظهـره أنه تاجر من اقليم بعيد • انه يرتدى قفطانا طويلا أسود محلول الأزرار مبطنا بفراء لا شك أنه الرداء الذى يرتديه للأعياد ، وتحت القفطان يبدو ثوب آخر طويل جدا أُحكم عقد أزراره من أعلاه الى أدناه • وقد لف عنقه بوشاح أحمر فاقع ، على اهمال ، وأمسك بيده طاقية من فرو ، وتهدّلت على صـدره لحية رقيقة شيباء ، والتمعت تحت حاجبيه الكثيفين نظرة محمومة متكبرة عميقة •

أما المرأة فهي في نحو العشرين من عمرها ، جميلة جمالا رائعا . انها ترتدي معطفا جميلا قصيرا أزرق مبطنا بفراء نادر . وقد غطت راسها بمنديل من حرير أبيض ، معقود تحت الذقن . وهي تمشي غاضة طرفها : ان وقارا واجما نابعا من شخصها كله ، يلاحظ واضحا حزينا على حواشي وجهها الرقيق ذي الخطوط الدقيقة المرهفة العذبة الحلوة ، الفتية المراهقة .

ان في هذين الرفيقين غير المنتظرين لشيئا غريبا .

توقف الشيخ في وسط الكنيسة وانحنى الى جميع الجهات رغم أن الكنيسة خالية خلوا تاما ، ففعلت صاحبته مثلما فعل ، ثم تناول ذراعها وقادها أمام صورة كبيرة من صور العذراء التي باسمها تسمى الكنيسة ؛ كانت الصورة تسطع قرب الهيكل في ضوء باهر من نيران يعكسها اطارها الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة .

سلم القندلفت ، الذي كان وحيدا في الكنيسة ، على الشيخ باحترام. فرد عليه الشيخ السلام باشارة من رأسه . وركعت المرأة أمام الايقونة ؛ فتناول الشيخ طرف الحجاب المعلق بالأيقونة فغطى به رأسها . ودوى في الكنيسة بكاء منتحب أصم .

دهش أوردينوف من جلال هذا المشهد كله ، واشتعل فيه شوق شديد الى رؤية خاتمته . بعد دقيقتين أنهضت المرأة رأسها ، فأنار ضوء المصباح القوي وجهها الجميل الأخاذ من جديد . ارتعش أوردينوف وتقدم خطوة الى أمام . كانت المرأة قد مدت يدها للشيخ ، فتناولها وخرج الاثنان من الكنيسة على هون . كانت دموع تلتمع في عيني المرأة الشابة، وهما عينان زرقاوان عميقتان ، تعلوهما أهداب تبرز على بياض وجهها وتظلل خديها الشاحبين . وكانت ابتسامة تضيء شفتيها ، ولكن وجهها

يحمل اثار رعب غريب وذعر شديد من ذعر الاطفال • سدت نفسها الى الشيخ وجلة خجلى ، وكان من يراها يلاحظ أنها ترتعش ارتعاشا قويا من شدة الانفعال •

شعر اوردينوف بعاطفة غريبة فرحة عنيدة تحرضه على أن يتبعها فأسرع يسير وراءهما حتى اذا وصلا الى الفناء الذى يقع أمام الكنيسة قطع عليهما الطريق ، فرشقه الشيخ بنظرة شزراء قاسية معادية ، والقت عليه المرأة الشابة نظرة قاسية أيضا ، ولكن ليس فيها شيء من حب الاستطلاع ، وانما هى نظرة ذاهلة ، كأن فكرة أخرى بعيدة كانت تستغرقها •

ظل أوردينوف يتبعهما من غير أن يدركا ذلك • وكان الليل قد هبط • دخل الشيخ العجوز والمرأة الشابة فى شارع كبير عريض قذر تملؤه دكاكين صغيرة شتى ، ومخازن دقيق ، وفنادق حقيرة ، شارع يفضى الى ظاهر المدينة رأسا • وفى هذا الشارع دخلا زقاقا طويلا ضيقا يحف به من طرفيه سياجان ، وينتهى عند جدار ضخم مسود هو جدار عمارة كبيرة مؤلفة من أربعة طوابق ، يطل مخرجها الآخر على شارع كبير مكتظ بالسكان • فلما أوشكا أن يبلغا هذه العمارة التفت الشيخ فجأة الى وراء ، ورشق أوردينوف بنظرة تعبر عن التبرم ونفاد الصبر • فتوقف الفتى فورا وقد دهش هو نفسه من سلوكه • ثم التفت الشيخ مرة ثانية كمن يريد أن يتأكد من أن تهديده قد أحدث أثره • وولج الاثنان ، الشيخ والمرأة الشابة ، فى فناء المنزل •

عاد أوردينوف أدراجه يثوب الى منزله • انه معتكر المزاج قاتم النفس • وهو يأخذ على نفسه أنه أضاع نهاره كله سدى على هذا النحو، وأنه أجهد نفسه بغير داع الى هذا الاجهاد ، وأنه خاصة قد قام بهذا العمل الذى عده نوعا من مغامرة وما هو فى حقيقة الأمر الا حادث تافه مبتذل•

ورغم ما شعر به عند الصباح من أسف لعزلته وتوحشه ، فان غريزته الان تحمله على أن يتجنب كل ما يمكن أن يصرفه عن عالمه الداخلي الفني ، وأن يذهله عنه وأن ينتزعه منه • انه الآن يفكر في ركنه الهادىء ، بشيء من الحزن وشيء من الحسرة • ثم شعر بغم وخوف ، وأحس بهم وقلق ، قلق على وضعه غير المستقر ، وعلى المساعي التي يجب أن يقوم بها ، وكان يحنقه في الوقت نفسه أن يضطر الى الاهتمام بمثل هذه الأمور التافهة البائسة • وأخذ منه التعب كل مأخذ حتى أصبح لا يستطيع أن يربط بين فكرتين ، ووصل أخيرا ، في ساعة متأخرة ، الى مسكنه • وما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه أوشك أن يمر أمام بيته دون أن يعرفه • فهز رأسه استغرابا لهذا الذهول الذي عزاه الى تعبه ، وصعد سلم المنزل صعودا آليا حتى وصل الى غرفته التي تقع تحت السطح • أشعل أوردينوف شمعة • فما هي الا دقيقة واحدة حتى انبعثت صورة المرأة الشابة الباكية في خياله • ان هذه الصورة تلازمه وتحاصره قوية التأثير في نفسه • وهو يتأمل قسمات وجهها الحلوة العذبة الهادئة ، وجهها الذي يرين عليه حنان خفي وخوف قوي ، وتبلله دموع حماسة من حماسة الأطفال أو ندامة من ندامة الأطفال ، فيتأمل ذلك كله بحب يبلغ من القوة أنه يحس عينيه تحتجبان وأنه يشعر بنار تسري في عروقه كلها • ولكن الرؤيا ما تلبث أن تزول • فبعد الاهتياج يأتي التفكير ، ثم يأتي الندم ، ثم يأتي نوع من الغضب • وبعد ذلك يتدثر أوردينوف بأغطيته ويرتمي على سريره ، دون أن يخلع ملابسه ، وقد هده التعب هدأ •••

استيقظ أوردينوف في ساعة متأخرة من الضحى • انه يشعر بحنق ، ويشعر بحزن ووهن • ارتدى ثيابه بسرعة محاولا أن يفكر في همومه اليومية ، حتى اذا صار خارج المنزل ، وجه خطاه في اتجاه هو عكس

الاتجاه الذى سار فيه بالأمس • واهتدى أخيرا الى غرفة في مكان ما ، بمنزل رجل ألماني فقير يسمي سيز ، ويعيش مع ابنته تينيش • فبعد أن استلم سيز عربون أجر الغرفة ، راح ينزع اللافتة التى كانت معلقة عند مدخل المنزل • وقد ارتضى أن يؤجر الغرفة لصاحبنا أوردينوف بسبب شغف أوردينوف بالعلم ، لأنه كان ينوى هو نفسه أن ينصرف الى الدرس انصرافا جديا • وقدر أوردينوف أنه سيستقر بهذا المنزل فى ذلك المساء نفسه • وعاد يسير فى الطريق المفضى الى بيته ، ولكنه لم يلبث أن فكر قليلا ، فاذا هو يتجه فجأة في الاتجاه المعاكس • كان نافد الصبر ، فبدا له الطريق طويلا كل الطول • ووصل أخيرا الى الكنيسة التى دخلها مساء أمس • كانت الصـلاة ترتل • فاختـار مكانا يستطيع منه أن يرى جميع الداخلين الى الكنيسة تقريبا • ولكن الشخصين اللذين كان ينتظرهما لم يكونا هنالك • وبعـد أن لبث ينتظر مدة طويلة ، خـــرج متقـد الوجه احمرارا • واذ أصر على أن يكبح عاطفة كانت تغزوه رغما عنه ، حاول أن يغير مجرى تفكيره بكل ما أوتى من قوة • وارتد يفكر في الشـئون اليومية ، فرأى أنه قد آن له أن يتغدى ، واذ ظن أنه يشعر بجوع حقا ، دخل الى ذلك المطعم الصغير نفسه الذى تغدى فيه بالأمس • ولم يتذكر بعد ذلك كيف تركه •

وظل يطوف زمنا طويلا في الشوارع والأزقة المـزدحمة بالسكان أو الخالية المقفرة ، دون أن يكون في ذهنه أفكار واضحة ؟ فوصل أخيرا الى مكان ناء ليس من المدينة ، بل هو برية يمتد فيهـا حقـل مصـفر • هنالك كان يرين صمت عميق ، فشعر أوردينوف باحساس لم يشعر بمثله من زمن طويل ، فآب الى نفسه • ان ذلك النهار هو من تلك النُهُـر الجافة الباردة التى تُرى أحيانا فى شهر تشرين الاول ببطرسبرج• وغير بعيد من ذلك المكان كان ثمة كوخ من أكواخ الفلاحين ، وعلى مقربة من

الكوخ ، كان ثمة كومتا علف • وهذا حصان صغير ناتىء الجنبين، خافض الراس متدلى اللسان ، يقف بلا عدة قرب عربة صغيرة ذات عجلتين • كان الحصان كأنه يحلم بشيء ما • وهذا كلب يهمهم وهو يقضم عظمة قرب عجلة محطمة • وهذا طفل في الثالثة من عمره لا يرتدى من الثياب الا قميصا يحك رأسه الأشقر ، وينظر مدهوشا الى هذا الحضرى الواقف هنالك • ووراء الكوخ تبدأ حقول وبساتين وعند الأفق يرى الخط الاسود الذى تبدأ عنده الغابة ، يحف بالسماء الزرقاء • وفى الجهة المقابلة تتكدس غيوم ثلج وتبدو كأنها تطارد أمامها سربا من الطيور المهاجرة هاربا فى السماء بلا صياح • كل شيء صامت ، كل شيء حزين ، كأنه نوع من الانتظار ••• أراد أوردينوف أن يوغل مزيدا من الايغال ، ولكن القفر أخذ يقبض صدره • فعاد الى المدينة حيث سمع على حين فجأة رنين نواقيس الكنائس تدعو المؤمنين الى صلاة الغروب • حث أوردينوف الخطى ، فلم يلبث أن وجد نفسه أمام الكنيسة التى أصبح يعرفها معرفة جيدة منذ الليلة البارحة •

كانت المرأة المجهولة موجودة هنالك •

انها راكعة ، عند المدخل ، بين جمهور المصلين • شق أوردينوف لنفسه طريقا بين الشحاذين والعجائز اللابسات أسمالا رثة والمرضى وذوى العاهات الذين ينتظرون الصدقات على باب الكنيسة ، وجاء يركع قرب المرأة الشابة المجهولة • تلامست ثيابهما • سمع أوردين نفسها اللاهث يخرج من بين شفتيها ، ويهمس بدعاء حار • ان عاطفة من تقوى تعصف بقسمات وجهها الآن ، كما كانت تعصف بها أمس ، وان دموعا تسيل على خديها الملتهبين وتجف عليهما ، كأنما لتغسلهما من جريمة رهيبة •• كان المكان الذى يصليان فيه مظلما تماما • وفى لحظات قليلة

كان الهواء الذي يدخل من النافذة الضيقة المفتوحة يهز شعلة الشمعة فتنير وجه المرأة الشابة بضياء مترنح ، فاذا بكل قسمة من قسمات هذا الوجه المنقوش في ذاكرة أوردينوف يعتم بصر الرجل ويطرق قلبه بألم أصم لا يطاق . ولكن هذا الألم كان يشتمل على متعة لا تغالب . ولم يستطع أوردينوف أن يتمالك نفسه ، فها هو ذا صدره يرتجف ، وها هو ذا يبكي ناشجا ويميل بجبينه المحترق فيضعه على البلاط البارد من أرض الكنيسة . أصبح لا يسمع شيئا ولا يحس شيئا الا عذاب قلبه الذي يموت ألما لذيذا .

هل العزلة هي التي أنشأت لدى أوردينوف هذه الحساسية المفرطة وهذا الصفاء وهذا الضعف في العاطفة ؟ أكان توثب القلب هذا يتهيأ في ذلك الصمت الخانق اللانهائي ، صمت الليالي الطويلة الساهرة الأرقة التي تتخللها صوات لا يشعر بها صاحبها ، وتخالطها رعشات روح نفد صبرها ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد آن أوان اللحظة الباهرة ، المحتومة ، التي لا معدى عنها ولا مفر منها ؟ انه ليتفق في يوم حار خانق أن تتجهم السماء كلها على حين بغتة ، فتسقط الصاعقة مطرا ونارا على الارض العطشى ؛ وتهطل الصاعقة لآلىء ماء على أغصان الشجر ، وتلطم عشب الحقول وتسحق الأزهار الطرية على الارض ، حتى اذا طلعت اولى أشعته انبعثت الحياة في كل شيء من جديد ، وأخذ كل شيء يهلل للسماء ويرسل اليها بخوره المنعش ، ويغني لها نشيد العرفان بالجميل ... ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن يدرك ما يجري في نفسه ، ولا يكاد يشعر بوجوده .

انتهت الصلاة أخيرا ، حتى دون أن ينتبه أوردينوف الى ذلك ، ورأى نفسه يسير في اثر المرأة المجهولة خلال الجمهور المتكاثف عند مخرج الكنيسة . فكانت المرأة الشابة المجهولة تلتفت اليه كلما أوقفها

الجمهور عن سيرها من لحظة الى لحظـة • ان دهشـتها ما تنفك تزداد ، وها هو ذا وجهها يصطبغ بالحمرة على حين فجأة •

وفى هذه اللحظة ظهر الشيخ الذى كان يرافقها بالأمس ، ظهر بين الجمهور بغتة ، فأمسك بذراعها • والتقى أوردينوف من جديد بنظـرته الشزراء الساخرة ، فعض قلبه غضب غريب مفاجىء • واذ غابا عن بصره فى الظلام ، اندفع بجهد عنيف فخرج من الكنيسة • ولكن الهواء الطرى الذى كان يملأ جو المساء لم يستطع أن ينعشه • ان تنفسه يتقطع ويضعف، وان قلبه يخفق خفقـانا بطيئا قويا حتى لكأنه يريد أن يشق صـدره • وأدرك أخيرا أنه ضيع صاحبيه المجهـــولين تماما ، فانه لم يرهمـا لا فى الشارع ولا فى الزقاق الضيق • ولكن ها هى ذى فكرة خطـة جريئـة غريبة تنبت فى ذهن أوردينوف ، فكرة مشروع من تلك المشاريع الجنونية التى تكلل مع ذلك بالنجاح فى جميع الأحيان تقريبا •

ففى الساعة الثامنة من صباح الغد مضى أوردينوف يذهب الى منزلهما من جهة الزقاق الضيق ، فدخل فناء صغيرا قذرا يشبه أن يكون حفـرة لأوساخ العمارة •

كان البواب منهمكا فى عمل من الاعمال بالفناء ، فلما رأى أوردينوف داخـــلا توقف عن العمل مسندا ذقنـه الى ذراع مجرفته ، ناظـرا الى أوردينوف من رأسه الى قدميه ، ثم سأله عما يريد •

البواب فتى فى نحو العشرين من عمره ، تترى الأصل قصير القامة له وجه شاخ قبل الأوان فهو مغضن •

أجابه أوردينوف ثائرا :

ـ أبحث عن مسكن •

فسأله البواب مبتسما ، وهو ينظر اليه نظرة من يعرف قصته كلها :

ـ أى مسكن ؟

فقال أوردينوف :

ـ أريد استئجار غرفة لدى جيران •

قال البواب بلهجة غريبة :

ـ ليس فى هذا الفناء غرفة للتأجير •

ـ وهنا ؟

ـ ولا هنا !

قال البواب ذلك وعاد يتناول مجرفته •

قال أوردينوف وهو يدس فى يد البواب عشرة كوبكات :

ـ لعلهم يؤجروننى غرفة مع ذلك •

فنظر التترى الى أوردينوف ، ووضع النقود فى جيبه ، وعاد يتناول مجرفته مرة أخرى ، ثم قال يكرر بعد صمت قصير انه ليس هنالك غرفة للتأجير •

ولكن الفتى كان قد كف عن الاصغاء اليه ، وأخذ يصعد الألواح العفنة الملقاة على بركة واسعة من الماء تفضى الى المدخل الوحيد الذى يوصل من هذا الفناء الى الجناح الاسود الوسخ الذى يشبه أن يكون غارقا فى هذا الماء الموحل •

كان يسكن فى الطابق الارضى من الجناح صانع توابيت فقير ، مرّ أوردينوف أمام ورشته ثم أخذ يصعد الى الطابق الأعلى على سلم لولبى

زلج • وعثر وهو يتلمس فى الظلام ، على باب كبير أعوج ، فأدار مزلاجه وفتحـــه • لم يخطىء ظن أوردينوف • فها هو ذا العجوز الذى يعرفه أوردينوف واقفا أمامه يحدق اليه بنظرة ثابتة ودهشة شديدة •

قال العجوز موجزا بما يشبه الوشوشة :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أعندكم مسكن للتأجير ؟

بذلك أجاب أوردينوف ناسيا كل ما كان يريد أن يقوله تقـــريبا • ومن وراء كتف الشيخ العجوز ، لمح المرأة الشابة •

لم يجب الشيخ بشىء ، بل طفق يعيـــد اغلاق الباب دافعـــا معـه أوردينوف •

فقالت المرأة الشابة ، فجأة ، بصوت رقيق عذب :

ـ عندنا غرفة •

فترك الشيخ الباب •

قال أوردنيوف وهو يهرع داخلا فى البيت متجها الى الجميلة :

ـ أنا فى حاجة الى ركن ، أى ركن •

ولكنه لم يلبث أن توقف مدهوشا ، حتى ليشبه أن يكون متجمدا ، حين ألقى نظرة على هذين الشخصين اللذين سيسكن عندهما • كان يمر أمام بصره مشهد صامت عجيب • ان وجه الشيخ ممتقع كوجه ميت • فمن رآه حسب أنه مريض • وهو يلقى على المرأة نظرة من رصاص ، نظرة ثقيلة ثاقبة • والمرأة تشحب فى أول الأمر ، ولكن الدم ما يلبث أن يزدحم

في وجهها ، وما تلبث عيناها أن تسطعا بلمعان غريب • وها هي ذي تقود اوردنيوف الى الغرفة الاخرى •

المنزل يتألف كله من حجرة واسعة يقسمها حاجزان الى ثلاثة أقسام • فمن فسحة السلم يدخل المرء رأسا الى حجرة ضيقة مظلمة ، فيواجهه الباب الذي يؤدي طبعا الى غرفة أصحاب المنزل ، وعلى اليمين غرفة للتأجير • انها غرفة ضيقة واطئة السقف ، لها نافذتان صغيرتان واطئتان أيضا ، تزدحم بأشياء شتى مما يوجد في كل بيت • ولئن كانت فقيرة طفيفة ، فهي نظيفة على قدر الامكان • أثاثها لا يتعدى منضدة من خشب أبيض وكرسيين عاديين جدا ومقعدين ضيقين وضعا في جهتي الغرفة على طول الجدار • وقد علقت في الزاوية أيقونة كبيرة ذات تاج مذهب ، يشتعل أمامها سراج • وهناك مدفأة روسية ضخمة غليظة يطل نصفها على هذه الغرفة ويطل نصفها الآخر على حجرة المدخل •

واضح أنه ليس في الامكان أن يعيش في هذا المنزل ثلاثة أشخاص •

بدأت المساومة على الأجر ولكن بغير تسلسل في الأفكار ، حتى لا يكاد يفهم بعض عن بعض شيئاً • وكان أوردينوف يسمع خفقان قلب المراة الشابة وهو على بعد خطوتين منها • كان يرى انها ترتجف انفعالا ، بل وخوفا • وتم الاتفاق على الأجر أخيرا • قال الفتى انه سيسكن في الغرفة فورا ، ونظر الى صاحب المنزل • كان الشيخ واقفا أمام الباب ، لا يزال شاحب الوجه ، غير أن ابتسامة رقيقة بل وواجمة كانت تطوف على شفتيه • فما ان التقى بنظر أوردينوف حتى عاد يعبس مقطبا حاجبيه•

سأل الشيخ الفتى فجأةً بصوت عال وكلام موجز ، وهو يفتح باب حجرة المدخل :

ـ أعندك جواز سفر ؟

فأجابه الفتى بشيء من الدهشة :

ـ نعم .

قال الشيخ :

ـ من أنت ؟

فأجاب الفتى بلهجة هي لهجة الشيخ نفسها :

ـ فاسيلي أوردينوف . متعلم . لا أعمل في مكان ، وانمـــا أهتم بشئوني .

قال الشيخ :

ـ وأنا كذلك . اسمي ايليا مورين ، بورجوازي . هل يكفيـك هذا ؟ هيا ...

وما هي الا ساعة حتى كان أوردينوف في مسكنه الجـديد . ولم تقل دهشته من هذا التغير عن دهشة الألماني الذي كان قد أخذ يخشى هو وابنته تينيشن أن يكون المستأجر الجديد قد دبر لهما مكيدة من المكائد .

أما أوردينوف فانه لم يكن يفهم كيف وقع هذا كله ، ولا كان يريد أن يفهم ...

٢

خفقان قلب أوردينوف من القوة أن بصره اضطرب ورأســه أصــابه دوار ٠ وأخذ أوردينوف يرتب أشياءه الضئيلة في مسكنه الجديد ذاهلا عن نفسه ، يعمل كما تعمــل آلة ٠ فض صرة تضم أشــياء مختلفة ، ثم فتح صندوق كتب فنضد الكتب على الطاولة ، ولكن هذا العمل لم يلبث أن ثقل عليه ٠ ان صورة المرأة الشابة التي هز لقاؤها كيانه كله، وبث فيه اضطرابا شديدا ، ما تنفك تسطع أمام عينيه ٠٠٠ ان ايمانا كبيرا وحماسة لا تقاوم يدخلان الآن حيــاته ، بينما يخيم على أفكاره ظــلام ، وتهوى نفسه الى القلق والاضطراب ٠

تناول جواز سفره ومضى يأخذه لصاحب البيت آملا أن يبصر المرأة الشابة ٠ ولكن مورين لم يكد يشق الباب شــقا ، فيتنــاول منه الورقة ، ويقول له « أرجو لك حياة هادئة » ، ثم يغلق الباب ٠ ان شعورا مزعجا يعتري أوردينوف ٠ ان رؤية هــذا الشــيخ تثقل على صدره ، لا يدرى لماذا ! ان في نظرته شيئا من احتقار ومن شر ٠ ولكن الشعور المزعج لم

يلبث أن تبدد • ان اوردينوف يعيش منذ ثلاثة أيام فيما يشبه الزوبعة ، اذا قيست حياته الآن بحياة الهدوء التي كان يحياها من قبل ، ولكنه لا يستطيع ان يفكر ، بل هو يخشى أن يفكر • ان كل شيء قد اختلط واضطرب في وجوده • أحس احساسا مبهما بأن حياته قد انشطرت شطرين • فهناك الآن صبوة وحيدة ، هناك رنو وحيد استولى على كيانه كله ، فما من فكرة أخرى لها عليه سلطان •

عاد أوردينوف الى غرفته مدهوشا • وهناك ، قرب المدفأة ، حيث يهيأ الطعام ، كانت تعمل امرأة عجوز قصيرة متغضنة • انها تبلغ من القذارة ، وان ملابسها تبلغ من الرثاثة والوساخة ان منظرها يبعث الشفقة حقا • ولكن في وجهها خبثا وشرا ، وهي تدمدم بين أسنانها ببعض الكلام من حين الى حين • ان هذه العجوز هي خادمة أصحاب البيت • حاول أوردينوف أن يعقد معها حديثا ، ولكنها اعتصمت بالصمت ، عن مكر واضح • حتى اذا حانت ساعة الغداء أخرجت من المدفأة حساء كرنب وفطائر لحم فحملتهما الى أصحاب البيت ، ثم قدمت لأوردينوف هذا الطعام نفسه • وبعد الغداء ساد المنزل صمت كأنه صمت الموت •

تناول أوردينوف كتابا ، فظل يقلب صفحاته محاولا أن يفهم ماسبق ان قرأه مرارا دون أن يظفر بطائل ، فثارت ثائرته ، فرمى الكتاب ، وعاد يحاول أن يضع أشياءه في مواضعها • ثم مشط شعره ، وتدثر بمعطفه ، وخرج •

ظل يضرب في خارج البيت على غير هدى ، لا يعرف الطريق الذى يسير فيه ، محاولا طوال الوقت أن يركز أفكاره المشتتة ما أمكن التركيز ، وأن ينظر في وضعه قليلا • ولكن هذا الجهد لم يزد على أن سبب له عذابا • انه يشعر ببرد ثم يشعر بحر ، وان قلبه ليبلغ من شدة الخفقان في بعض اللحظات أنه يضطر الى الاتكاء على جدار • همس يقول محموم

الشفتين مرتعشا دون أن يفكر فيما يقول : « لا ••• الموت خير من هذا ••• الموت أفضل من هذا ! » •

ولبث يمشي زمنا طويلا • فلما أحس أخيرا أنه ابتل حتى العظام ، ولما لاحظ لأول مرة أن المطر كان يهطل غزيرا ، قفل راجعا الى البيت •

فحين أصبح على مقربة من البيت لمح البـواب ، فبدا له أن التترى يحدق اليه بشيء من حب الاستطلاع ، ولكنه حين أدرك أن أوردينوف يلاحظه تابع سيره •

قال له أوردينوف وقد لحق به :

ـ نهارك سعيد • ما اسمك ؟

فأجاب التترى كاشفا عن أسنانه :

ـ أنا بواب ، واسمى بواب •

ـ أأنت فى هذا المنزل منذ زمن طويل ؟

ـ نعم منذ زمن طويل •

ـ هل صاحب بيتى بورجوازى ؟

ـ هو بورجوازى اذا كان يقول ذلك •

ـ ماذا يعمل ؟

ـ انه مريض ، يعيش ، ويصلى ••• هذا كل شيء •••

ـ وهذه المرأة زوجته ؟

ـ أى مرأة ؟

ـ المرأة التى تعيش معه ؟

ـ هي زوجته اذا كان يقول ذلك . وداعا يا سيدي !

قال التتري ذلك ملامسا طاقيته ودخل بيته .

عاد أوردينوف الى مسكنه . فتحت له العجوز الباب وهي تتمتم ببعض الكلام ، ثم أقفلته بالمزلاج ، ورجعت تستقر على المدفأة حيث تكمل حياتها . كان الليل يهبط . مضى أوردينوف يجيء بنور ، فلاحظ أن باب صاحبي البيت مقفل بالمفتاح . نادى العجوز . كانت العجوز تحدق اليه من فوق المدفأة مسندة رأسها الى كوعها وكأنها تتساءل ما عساه يستطيع أن يفعل قرب القفل من غرفة صاحبي البيت . ودون أن تقول له شيئا ، رمت اليه علبة كبريت .

رجع الى غرفته ، وأخذ للمرة المائة يرتب أشياءه وكتبه . ولكنه شيئا فشيئا ، دون أن يدري ماذا يحدث له ، رأى نفسه يجلس على المقعد ، وخيل اليه أنه ينام . وكان يثوب الى نفسه في بعض اللحظات ، فيدرك أن نومه ليس نوما ، بل هو نوع من غيبوبة مرضية أليمة . سمع الباب يُفتح ثم يغلق . فقدر أنهما صاحبا البيت عائدان من صلاة الغروب . فخطر بباله ان عليه أن يذهب اليهما ليجيء من عندهما بشيء . فنهض عن مكانه يريد أن يذهب اليهما ، ولكنه ترنح وسقط على كومة من حطب كانت المرأة العجوز قد ألقتها في وسط الغرفة . وعندئذ أغمي عليه تماما . فلما أفاق بعد فترة وفتح عينيه لاحظ مدهوشا أنه راقد على نفس المقعد الطويل العتيق ، مرتد ثيابه كاملة ، وأن وجه امرأة بارع الجمال ، مبللا بدموع عذبة حلوة كدموع أم ، كان يميل عليه حانيا عاطفا شديد الانتباه . وشعر أن مخدة توضع تحت رأسه ، وأنه يُدثَّر بشيء دافيء ، وأن يداً رقيقة تمسح جبينه المحترق . أراد أن يقول شكرا ، أراد أن يتناول هذه اليد الرقيقة ، أن يقربها من شفتيه الجافتين ، أن يبللها بدموعه ، أن يقبلها

الى الأبد ••• أراد أن يقـــول أشياء كثيرة أيضـا ••• ولكن ماذا ؟ انه لا يدرى هو نفسه • أراد فى تلك اللحظة أن يمـوت ••• كانت يداه كالرصاص ثقلا ، وظلتا ساكنتين جامدتين لا تتحركان • وخيِّل اليه أنه أصبح أخرس • لكنه يحس بدمه يتدفق فى جميع شرايينه تدفقا قـويا كأنه يريد أن ينهضه عن مرقده • ناوله أحد ماء ••• ثم أغمى عليه •

استيقظ فى الصباح ، فى الساعة الثامنة من الصباح • كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من خلال الزجاج الضارب الى الخضرة ، الوسخ ، زجاج نوافذ غرفته • ان احساسا عذبا يسرى فى جميع أعضاء المريض • كان هادئا ساكنا سعيدا غاية السعادة • وخيِّل اليه أن أحدا كان منذ برهة ساهرا عليه • استيقظ باحثا من حوله عن ذلك الانسان الذى لا يراه • كان يود لو يستطيع أن يعانق صديقا ، أن يقول لأول مرة «صباح الخير، صباح الخير ، يا صديقى » •

قال صوت امرأة عذب رقيق :

ـ نمت نوما طويلا •

فاستدار أوردينوف • ان وجه الجارة الجميلة يبتسم ابتسامة فاتنة ، مضيئة كالشمس ، ويميل عليه •

قالت :

ـ طال مرضك • كفاك هذا • انهض الآن • لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ ان الحرية أشــهى من الخبز ، وأبهى من الشمس • انهض يا صديقى انهض •••

تناول أوردينوف يدها ، وشـد عليها شدا قويا • خيِّـل اليه أنه ما يزال يحلم •

ـ انتظر . لقد أعددت لك شايا . هل تريد قليلا من الشاي؟اشرب شيئا من الشاي . سينفعك شرب الشاي . أعرف هذا ، فقد مرضت أنا أيضا .

ـ نعم نعم ، اسقني شيئا .

كذلك قال أوردينوف بصوت منطفيء .

ونهض . كان لا يزال ضعيفا جدا . ان قشعريرة تسري في ظهره. وانه يحس بأوجاع في جميع أعضائه ، كأن جميع أعضائه مكسرة محطمة. غير أن في قلبه نورا ، وأشعة الشمس تنعشه وتبث في روحه فرحا رائعا. انه يشعر أن حياة جديدة ، قوية ، خفية عن الأبصار قد بدأت فيه . وكان يشعر بشيء من دوار .

قالت المرأة الشابة :

ـ هل اسمك فاسيلي ؟ لعلني أخطأت السمع ، ولكن رب الدار سماك بهذا الاسم أمس .

ـ نعم ، فاسيلي . وأنت ما اسمك ؟

قال أوردينوف ذلك وهو يقترب منها ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه .

وترنح ، فأمسكته من يده وضحكت ، ثم قالت له وهي تحدق الى عينيه بعينيها الزرقاوين الصافيتين :

ـ أنا ؟ كاترين .

وتماسكا يدا بيد .

سألته أخيرا :

ـ هل تريد أن تقول لى شيئا ؟

فأجابها أوردينوف بقوله :

ـ لا أدرى .

واظلم بصره .

ـ ألا ترى الحالة التى أنت فيهـا ؟ .. حسبك هـــذا يا طائرى ، حسبك . لا تعذب نفسك مزيدا من التعذيب . اقعد هنا ، أمام المنضدة ، قبالة الشمس . امكث هنا هادئا ، ولا تتبعنى (أضافت قولها هذا اذ لاحظت أن الفتى يهم أن يتحرك ليمسك بها) . سأعود فورا . ستراني كثيرا .

وعادت بعد دقيقة تحمل الشاى ، فوضعت الشاى على المائدة ، وقعدت أمام أوردينوف .

قالت :

ـ خذ . اشرب . هل بك صداع ؟

ـ لا . زال الصداع الآن . لا أدرى . قد يكون بى صـــداع . لا أريد ... كفى كفى ! لا أعرف ما الذى بى .

قال ذلك مضطربا أشد الاضطراب بعد أن استطاع أخيرا أن يتناول يد كاترين ... وأضاف يقول لاهثا من فرط الحماسة ، وكأنه ينتزع كلامه من قلبه ، بينما يملأ النشيج حلقه :

ـ على عينىّ غشاوة ... عينـاى مبهـورتان ... اننى أنظـر اليك نظرتى الى الشمس .

ـ يا صديقى ، أنت اذن لم تعش فى كنف انســـان شـهم . أنت وحيد ، وحيد . أليس لك أقرباء ؟

ـ ليس لى أحد . أنا وحيد . ليس لى أحد . آ ... تحسنت حالى الآن . أنا الآن بخير .

قال أوردينوف ذلك هاذيا ، وكان يرى الغرفة تدور من حوله .

قالت بعد لحظة صمت :

ـ أنا أيضا ظللت وحيدة عدة سنين . ما أغرب نظرتك الىّ ! ...

ـ ماذا فى نظرتى ؟

ـ انك تنظر الىّ نظرة من تحييه رؤيتى وتبث الدفء فى قلبه ! هل تعلم ؟ انك تنظر الىّ نظرة من يشعر بحب ... أما أنا فقد خفق قلبى لك منذ أول كلمة . اذا مرضت فسوف أعني بك . ولكن لا تمرض. لا لا ، حين ستشفى من مرضك سنعيش أخا وأختا . هل تريد ؟ صعب أن يصبح للمرء أخت اذا لم يكن الرب قد وهب له أختا ..

قال أوردينوف بصوت واهن :

ـ من أنت ؟ من أين أنت ؟

ـ أنا لست من هنا ! ولكن فيم يعنيك هذا ؟ هل تعلم ؟ يُحكى أن اثنى عشر أخا كانوا يعيشون فى غابة مظلمة ... وحدث أن ضلت فتاة فى هذه الغابة ... فوصلت الى منزلهم ، فرتبت كل شيء فيه ، وشملتهم بحبها جميعا . عاد الاخوة ، فعرفوا أن أختا مرت بمنزلهم فى النهار .. نادوها . جاءت اليهم . سموها جميعهم أختا . فكانت لا تفرق بينهم ، بل تعاملهم معاملة واحدة . هل تعرف هذه الحكاية ؟

أجاب أوردينوف بصوت خافت :

ـ نعم أعرفها .

ـ الحياة متعة . أيسرك أن تحيا ؟

ـ نعم نعم .. أن أحيا طويلا .. طويلا ..

كذلك أجاب أوردينوف . فقالت كاترين ساهمة :

ـ لا أدرى . انني أتمنى الموت أيضا . الحياة متعة ... ولكن ... أواه ! ما لوجهك يشحب لونه من جديد ؟

ـ بى دوار !

ـ انتظر . سأجيئك بفراشى . انه خير من هذا . وسأجيئك بمخدة أخرى ، وسأهيىء سريرك . وسوف تنام ، فتراني في نومك ، فيذهب مرضك ... عجوزتنا مريضة هي أيضا ...

كانت تقول هذا الكلام وهى تهيىء السرير ، وتلقى من فوق كتفها نظرة على أوردينوف من حين الى حين .

قالت وهى تدفع صندوق الكتب :

ـ عندك كتب .

واقتربت من أوردينوف ، فتناولت يده اليمنى ، وقادته نحو السرير ، فأضجعته ، وأحاطت به . قالت وهى تهز رأسها واجمة ساهمة :

ـ هل تحب قراءة الكتب ؟

ـ نعم .

قال أوردينوف ذلك وهو لا يدرى أنائم هو أم يقظ ، قال ذلك ، وهو يشد على يد كاترين شدا قويا ليتحقق من أنه ليس بنائم :

ـ عند سيدى كتب كثيرة أيضا . يقول انها كتب رائعة . انه يقرأ

لى دائما فى أحد هذه الكتب . سأريك هذا الكتاب بعد ، فتقول لى ماذا فيه ...

ـ نعم سأقول لك ...

قال أوردينوف ذلك وهو يتفرس فيها .

سألته بعد صمت قصير :

ـ هل تحب الصلاة ؟ أتعلم ؟ اننى أشعر بخوف ، أشعر بخوف من كل شىء ، دائما ...

لم تكمل كاترين جملتها ، ولاح عليها أنها تفكر فى شىء ما .

حمل أوردينوف يدها الى شفتيه .

ـ لماذا تقبل يدى ؟

قالت ذلك وقد احمر خداها قليلا .

ثم أضافت ضاحكة وهى تمد اليه يديها كلتيهما :

ـ هيا ... قبلهما .

ثم سحبت احديهما ووضعتها على جبينه المحترق . ثم أخذت تلاعب شعره . ان حمرة وجهها تشتد . وأخيرا قعدت على الأرض قرب السرير. وأسندت خدها على خد الفتى . ان أنفاسها الحرّى تهب على وجهه ...

وشعر أوردينوف فجأة بدموع سخية تسقط على خده ثقيلةً كالرصاص . كانت كاترين تبكى . أخذ أوردينوف يزداد ضعفا ووهنا . أصبح منذ الآن لا يستطيع أن يرفع يديه . وفى هذه اللحظة دوت ضربة فى الباب . وصرّ المزلاج . استطاع أوردينوف أن يميّز صوت

رب المنزل آتيا من الغرفة المجاورة • ثم سمع كاترين تنهض فتتناول كتابها دون تعجل ودون اصغاء ، ورآها بعد ذلك ترسم عليه اشارة الصليب وهي تنصرف • أغمض عينيه • وفجأة أحس بقبلة حارة طويلة تحرق شفتيه ، وشعر كأن طعنة سكين تنفذ في قلبه • أطلق صرخة ضعيفة ، ثم أغمى عليه •

بعدئذ بدأت بالنسبة اليه حياة غريبة عجيبة •

ففى بعض اللحظات ينبع فى فكره شعور غامض مبهم بأنه قد حُكم عليه أن يعيش حلما طويلا لا نهاية له ، مليئا باضطرابات غريبة وصراعات وآلام عقيمة ؛ فيشعر بذعر شديد ، ويحاول أن يتمرد وأن يثور على هذا القدر الذى ينقل صدره • ولكن حين يبلغ الصراع أشد لحظاته حدة وضراوة ، يحس بقوة مجهولة تضربه من جديد ، فيدرك ادراكا واضحا كيف أنه يفقد ذاكرته مرة أخرى ، وكيف أن ظلاما رهيبا ، لا مخرج منه ، ينتشر أمامه من جديد ، فيندفع اليه صارخا صرخة قلق ويأس • وفى لحظات أخرى يشعر بسعادة عنيفة مسرفة فى العنف ، سعادة ساحقة ؛ يحدث ذلك حين تزداد الحيوية فى الكيان الانسانى كله الى غير حد ، حين يصبح الماضى أوضح وتترجع أصداء انتصار الفرح ، حين يحلم المرء بمستقبل مجهول ، حين يهبط على النفس أمل رائع كالندى المنعش ، حين يشتهى المرء أن يصرخ من فرط الحماسة ، حين يحس أن الجسد عاجز أمام كثرة الأحاسيس وغزارتها ووفرتها ، حين ينقطع خيط الوجود ويعلو فى الوقت نفسه هتاف التهليل لانبعاث الحياة الجديدة •

وكان أوردينوف يرتد فى لحظات أخرى الى خدره ، وعندئذ فان كل ما حدث له فى الأيام الأخيرة يمر فى خاطره من جديد مرور زوبعة• ولكن المنظر يعرض له حينذاك فى مظهر غريب سرى •

وكان في بعض الأحيان ينسى أثناء مرضه ما حدث له ، ويستغرب أن لا يجد نفسه في مسكنه القديم عند صاحبة البيت القديمة ؟ ويدهشه أن لا يرى العجوز تقترب ، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائما ، من المدفأة شبه المنطفئة التي تنير بضيائها الضعيف المهتز المترجح كل الركن المظلم من الغرفة ، وأنها لا تدفىء يديها المعروقتين المرتجفتين على الموقد الذي خبت ناره ، كما ألفت أن تفعل ذلك دائما ، ملقيةً من حين الى حين نظرة دهشةٍ على نزيلها العجيب الذي كانت تعده مجنونا بعض الشيء من طول ما يكب على القراءة .

وكان في لحظات أخرى يتذكر أنه أبدل مسكنه ، ولكن كيف تم ذلك ؟ انه لا يدري كيف تم ذلك ، رغم كل ما يبذله من جهود عنيفة عنيدة في سبيل أن يفهمه ... أما أين وماذا وما هذا الذي يعذبه ويلقى في نفسه هذه النار التي لا تطاق ، هذا اللهب الذي يخنقه ويحرق دمه فذلك ما لم يكن في امكانه أن يعرفه . وها هو ذا يعود الى النسيان من جديد ، فلا يتذكر شيئا البتة . وكثيرا ما كان يقبض قبضا شرها على طيف من الأطياف . وكثيرا ما كان يسمع وقع خطوات خفيفة قرب سريره ، ودمدمة أصوات عذبة مهدهدة رقيقة كأنها موسيقى . وهذه أنفاس لاهثة رطبة تمر على وجهه ، فيهتز كيانه كله حبا . وهذه دموع محرقة تسيل على خديه الملتهبين ، وهذه قبلة طويلة رقيقة تنصب فجأة على شفتيه . ان حياته كلها تنطفىء عندئذ في عذاب لا نهاية له ؟ ويبدو له أن الوجود كله ، والكون كله يتوقفان من حوله ، يموتان من حوله قرونا برمتها ، وأن ليلا طوله ألف سنة يمتد عليه ...

وهو في بعض الأحيان يعيش مرة أخرى السنين الحلوة من طفولته الأولى ، بأفراحها الصافية وسعادتها التي لا حدود لها ، بأولى مشاعر

الدهشة الفرحة ، بجمهرة الأرواح المضيئة تخرج من كل زهرة يقطفها ، وتمضى تلعب معه فى السهل الأخضر المعشب أمام البيت الصغير الذى تحيط به أشجار الأكاسيا ويبتسم له عند بحيرة البلور التى يقضى على شاطئها ساعات طويلة مصغيا الى خرير أمواجها ؛ ومصيخا بسمعه كذلك الى اصطفاق أجنحة تلك الأرواح التى تنشر على مهده الصغير أحلاما زاهية الالوان كقوس قزح بينما تكون أمه ، الحانية على هذا السرير ، تقبله وتنو ّمه مغنية له أغنية حلوة عذبة حلوة فى الليالى الهادئة الساكنة . ولكن انسانا يظهر له من جديد فيقلقه أشد القلق ويرعبه بفزع ليس كفزع الأطفال ، ويسكب فى نفسه أول سم بطيء من سموم الالم والدموع . انه يشعر شعورا مبهما بأن الشيخ المجهول يقبض بسلطانه على جميع سنيه المقبلة ، فها هو ذا يرتعش أمامه ولا يستطيع أن يحول عنه بصره . ان الشيخ الخبيث الشرير يلاحقه فى كل مكان ويطارده أينما يذهب. يظهر له ويطل عليه ويهدده برأسه من فوق كل دغل فى الغابة الصغيرة . يضحك مقهقها ويعاكسه ويناكده ؛ يتجسد فى كل دمية من الدمى التى كان يلعب بها ابان طفولته ؛ يكشّر له ، ينفجر ضاحكا فى يديه ، كجنى خبيث شرير من الجن التى تسكن جوف الأرض . ينبثق من كل كلمة من كلمات كتاب النحو الذى يقرأ الصبى سطوره ، ينبثق مصعّرا وجهه عن أسنانه ... فاذا نام الصبى جلس الشيخ قرب سريره ... يطرد أسراب الأرواح المضيئة التى ترفرف حول مهده بأجنحتها التى هى من ذهب وياقوت . وهو يدفع عنه ، الى الأبد ، أمه المسكينة ؛ ويظل ليلة بكاملها يهمس له بقصة رائعة لا يفهمها قلب طفل ، ولكنها تبث فيه اضطرابا ورعبا وهولا ، وتشعل قلبه بهوى جامح كيس كهوى الأطفال . والشيخ الشرير لا يسمع نحيبه ونشيجه ، ولا يصغى الى رجائه ودعائه ، ويمضى يحدثه ثم يحدثه الى أن يغمى عليه .

ويستيقظ الطفل رجلا . لقد انقضت سنين طـويلة دون أن يدرك ذلك . وفجأة يعرف وضـعه على حقيقته ، ويفهم أنه وحيـد وغريب عن الكون كله . وحيد بين أناس أشرار ، أناس مقلقين ، أعداء يتجمعـون ويتهامسون في أركان غرفتـه المظلمة ، ويومئـون برءوسهم الى العجوز القاعدة قرب النار تدفيء يديها الواهيتين العجفاوين ، وتوميء هي لهـم اليه . ان نفسه مضطربة أشـد الاضـطراب ، يريد أن يعرف ما هـؤلاء الناس ، ولماذا هم هنالك ، ولماذا هو فى غرفته . ويقدّر أنه وقع فى مغارة لصوص من قطاع الطرق ، وأن قوة جبارة مجهـولة هى التى قادته الى هذه المغارة ، قبل أن يفحص هؤلاء السكان وهؤلاء الناس . تستبد به الخشية منذ الآن . وفجاة ، فى وسط الليل ، فىالظلام ، يعود يسمع القصة الطويلة بصوت خافت . هي امرأة عجـوز تتـكلم برفق ، هازّة رأسها الأبيض على حزن ، أمام النار التى تنطفىء . ويقبض عليه الهول والرعب من جـديد . الحكاية تشتد حميًّاها أمامه ، وهـذه وجوه وصـور تتضح لبصره . وهذا هو يرى أن كل شيء ، تهاويله المبهمة في أيام طفولتـه ، أفكاره وأحلامه جميعها ، ما عرفه من الحياة كلها ، ما قرأه فى الـكتب كافة ، ما نسيه منذ زمن بعيـد ، ذلك كله ينبعث الآن ويتجسـد وينتصب أمامه صورا ضخمة ، ويسير ويرقص حلقة حوله . جنائن بديعـة تنبت أمام بصره ، مدن برمتها تتهاوى خرائب وركاما ، مقابر ترد اليه موتاها أحياء يسعون . أمم وشعوب بأسرها تظهر وتكبر وتموت على مرأى منه . كل فكرة وكل حلم يتجسد الآن حول سريره ، سرير المريض ، تجسده حين ولد ؛ فهو لا يحلم الآن بمكان من غير لحم ودم ، بل بعوالم بأسرها. وهو نفسه الآن يجرفه اعصار ، كذرة غبار ، فى هذا العـالم اللانهائى ، هذا العالم الغريب ، الذى لا مخرج له . وهذه الحياة كلها ، باستقلالها

المتمرد ، تدفعه دفعا ، وتلاحقه بسخريتها الأبدية الحقود التي لا يشفي لها غليل .

أحس أنه يموت ، أنه يتهاوى ترابا ، الى الأبد ، بغير انبعاث ممكن . أراد أن يهرب ، ولكن ليس في الكون كله ركن يختبيء فيه . ويستولي عليه أخيرا ذعر رهيب ، فيصرخ ، ويستيقظ ...

ان عرقا باردا كالثلج يغطي جسمه . ومن حوله يخيم سكون كسكون الموت في ليل عميق . ومع ذلك يتراءى له أن حكايته العجيبة ما تزال مستمرة في مكان ما ؟ وأن صوتا أجش يشرع في حديث طويل عن الموضوع الذي يعرفه . انه يسمع كلاما عن غابات مظلمة ، ولصوص خارقين ، وعن فتى باسل شجاع يشبه أن يكون ستنكا رازين* نفسه ، وعن سكارى مرحين فرحين ، وعن رجال يجرون المراكب ، وعن فتاة جميلة ، وعن نهر الفولجا . أهذا حلم ؟ أهو يسمع هذا حقا ؟

وظل راقدا مدة ساعة ، مفتح العينين ، لا يحرك عضوا ، غارقا في خدر رهيب . وأخيرا نهض محاذرا ، فأدرك على فرح أن المرض الفظيع لم يجهز على جميع قواه . تبدد الهذيان . وبدأ الواقع .

لاحظ أنه ما يزال مرتديا ثيابه كما كان أثناء حديثه مع كاترين ، فقدّر أنه لم ينقض اذن وقت طويل على تركها اياه . ان نار العزيمة تجري في عروقه . وانه لكذلك اذا بيده تلمس ، عرضا ، مسمارا كبيرا مغروزا في الحاجز الذي وُضع سريره حذاءه . أمسك المسمار وتعلق به بكل جسمه ، فوصل بذلك الى شق يتسلل منه الى غرفته شعاع ضئيل من نور . وضع عينه على هذا الشق ، وحبس أنفاسه ، وأخذ ينظر .

في ركن من الغرفة الصغيرة التي يسكنها صاحبا البيت ، كان هنالك

سرير ، وأمام السرير مائدة فُرشت بسجادة • وعلى المائدة كتب كثيرة من حجم كبير وشكل قديم ، كتب مجلدة تذكر بكتب الطقوس الدينية • وفي زاوية من الزوايا أيقونة معلقة لا تقل قدما عن الغرفة ، وأمام الأيقونة سراج مشتعل • كان الشيخ مورين ، المريض ، راقدا على السرير • كان يبدو عليه أنه يعانى آلاما شديدة • انه شاحب شحوب ميت • وكان مدثرا بغطاء من فراء ؛ وعلى ركبتيه كتاب مفتوح • وكانت كاترين مستلقية على مقعد قرب السرير ، محيطة صدر الشيخ باحدى ذراعيها ، مسندة رأسها على كتفه • كانت تحدق اليه بعينـين منتبهتين ، طفـوليتين ، مدهوشتين ، وتبدو مصغية بشراهة شديدة ونهم غريب الى ما كان يقصه عليها مورين• وفي بعض اللحظات يعلو صـوت القصاص ، وينتعش وجهـه الشاحب ، ويتقطب حاجباه ، وتسطع عيناه ، فيصـفر وجه كاترين خـوفا وانفعالا ، فيظهر فى وجه الشيخ عندئذ شيء يشبـه الابتسام ، فاذا بكاترين تأخـذ تبتسم فى هدوء ورفق هى أيضا • وتترقرق فى عينيها دموع أحيـانا • فيأخذ الشيخ يلاعب رأسها عندئذ كما يلاعب رأس طفلة ، فتعانقه بمزيد من القوة بذراعها العارية الناصعة كالثلج ؛ وبمزيد من الحب أيضا تميل على صدره •

تساءل أوردينوف أليس ما يراه الآن تتمة حلمه ؟ بل لقد أيقن من ذلك • غير أن دمه ازدحم في رأسه ، وأخذت شرايينه وصدغاه تنبض نبضا يبلغ من القوة أنه أوجعه •

أرخى المسمار ، ونزل عن السرير ، وتقدم يسير مترنحا كمن يمشى فى نومه ، لا يفهم هذا الاهتياج الذى اشتعل كحريق فى دمه • فلمـا وصل الى باب غرفة رب المنزل دفعـه دفعا قويا عنيفـا ، فسقط المزلاج

الصدى ؟ وفي غمار هذه الجلبة وهذه الضجة وجد أوردينوف نفسه في وسط الغرفة •

ورأى أوردينوف كيف ارتعشت كاترين فجأة ، وكيف التمعت عينا الشيخ تحت حاجبيه العابسين المقطبين التماعا شريرا ، وكيف شوّه الحنق والغيظ وجهه تشويها على حين بغتة • ثم اذا بالشيخ يتناول بيده المرتجفة البندقية المعلقة بالجدار ، فيرى أوردينوف أنبوبها ساطعا تسدده الى صدره يد مترددة راعشة غضبا •• وتنطلق الطلقة •• فتجاوبها صرخة وحشية لا يكاد يكون فيها شيء انسانى •• حتى اذا تبدد الدخان ، رأى أوردينوف منظرا مروعا فظيعا •

أخذ جسم أوردينوف يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ومال على الشيخ المتهاوى على الأرض وقد تشنج وجهه وأخذ الزبد يخرج من بين شفتيه المكشرتين • أدرك أوردينوف أن الشيخ المسكين قد انتابته نوبة صرعة • فهب يسعفه مع كاترين •

٣

قضى أوردينوف ليلة سيئة • فلما طلع الصباح خـــرج من المنزل رغم ضعفه ورغم الحمى التى لم تزاوله• فالتقى فى الفناء بالبواب مرة أخرى • ما ان رآه التترى من بعيد حتى نزع قبعته يحييه ، وينظـــر اليه مستطلعا ؛ ثم لم يلبث أن تناول مكنسته ، وأخذ يكنس الأرض ملقيا من حين الى حين نظرة سريعة على أوردينوف الذى كان مقبـــلا بخطى بطيئة •

سأله أوردينوف :

ـ هيه ! ألم تسمع شيئا هذه الليلة ؟

ـ بلى ! سمعت •

ـ ما هذا الرجل ؟ من هو ؟

ـ أنت استأجرت ، فأنت تعرف • أما أنا فأجنبى •

فصاح أوردينوف خارجا عن طوره وقد استبد به هياج مرضى :

ـ أتراك ستتكلم فى يوم من الأيام ؟

قال البواب :

ـ ولكن ماذا فعلت أنا ؟ انها خطيئتك . أنت أرعبتهم . صانع التوابيت ، تحت ، أطرش . ومع ذلك سمع كل شيء . وامرأته ، وهي طرشاء ، سمعت كل شيء أيضا . وحتى في الفناء الثاني ، البعيد مع ذلك، سُمع كل شيء . هذا ما وقع ... سأذهب الى مفوض الشرطة .

ـ بل أذهب اليه أنا .

قال أوردينوف ذلك واتجه نحو باب الفناء .

ـ لك ما تشاء ... ولكنك أنت الذى استأجرت ! سيدى ، سيدى! انتظر !...

نظر أوردينوف الى البواب الذى لمس طاقيته احتراما .

سأله أوردينوف :

ـ ماذا ؟

ـ اذا كنت ذاهبا الى مفوض الشرطة ، فسأخبر المالك ...

ـ ثم ؟

ـ الأفضل أن تغادر هذا المنزل .

ـ ما أنت الا غبى أحمق !

أراد أوردينوف أن ينصرف .

ـ سيدى ! سيدى !

كذلك هتف البواب وهو يضع يده مرة أخرى على طاقيته ، ويظهر أسنانه ابتساما من قبيل التودد . وأردف يقول :

ـ سيدى ! لماذا طردت انسانا مسكينا ؟ ان طرد انسان مسكين اثم لا يرضى عنه الرب .

ـ اسمع ... خذ هذا ... من هو هذا الرجل ؟

ـ من هو ؟

ـ نعم .

ـ سأقول لك من هو ، حتى دون أن تنقدنى مالا .

تناول البواب مقشته ، فكنس بها كنستين ، ثم توقف ، فنظر الى أوردنيوف بانتباه مصطنعا خطورة الشأن :

ـ أنت طيب ياسيدى ، ولكن اذا كنت لا تريد أن تعيش مع انسان صالح ، فلك ما تشاء ... ذلك ما أقوله لك ...

قال التترى ذلك وألقى على أوردينوف نظـــرة تفيض بمـــزيد من التعبير ، ثم طفق يكنس كأنه غاضب . وأخيرا اصطنع هيئة من أنجز أمرا هاما ، اقترب من أوردنيوف كمن يريد أن يفضى اليه بسر ، وقال معبرا بحركة من وجهه :

ـ هو هكذا ! ..

ـ ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

ـ ليس له عقل !

ـ ماذا ؟

ـ نعم . ذهب عقله .

كذلك ردّد التترى بلهجة فيها مزيد من السر أيضا . ثم أضاف :

ـ انه مريض • كان يملك سفينة كبرى ، وسفينة ثانية ، وثالثة • كان يطوف نهر الفولجا • أنا من الفولجا • وكان يملك مصنعا أيضا • ولكن الحريق التهم كل شيء • ففقد الرجل عقله •••

ـ أهو مجنون ؟

قال التترى ببطء :

ـ لا •• لا •• ليس بمجنون •• هو انسان روحانى •• يعرف كل شيء •• قرأ كتبا كثيرة •• وهو يتنبأ للناس بالحقيقة كاملة : يجيئه أحدهم ، فينقده روبلين ، ويجيئه آخر فينقده ثلاثة روبلات ، أو أربعين روبلا ، فيقرأ هو فى الكتاب فيرى الحقيقة كلها • ولكن على شرط أن توضع الدراهم فوق المائدة ، أما بدون دراهم ، فلا شيء •

وهنا أطلق التترى ضحكة فرحة ، بعد أن أوغل فى الكلام على شئون مورين •

قال أوردينوف :

ـ ماذا ؟ أهو اذن ساحر ؟

قال البواب وهو يهز رأسه :

ـ هم •• انه يقول الحقيقة • انه يصلى •• يصلى كثيرا •• وأحيانا تصيبه لوثة •••

وكرر التترى حركة رأسه المعبِّرة •

وفى هذه اللحظة نادى أحدهم البواب فى الفناء الآخر ، ثم ظهر شيخ قصير القامة يرتدى معطفا من جلد الخروف • كان الشيخ يسير

بخطى مترددة وهو يتنحنح مطرقا الى الأرض مدمدما ببعض الكلام • كان الشيخ القصير يبدو مرتدا الى الطفولة •

ـ المالك ، المالك !

كذلك همس البواب بسرعة ، وأومأ لأوردينوف بحركة طفيفة من رأسه ، ثم اندفع مقبلا على الشيخ خالعا طاقيته •

خيّل الى أوردينوف أنه سبق أن رأى هذا الوجه منذ فترة قصيرة في مكان ما • ولكنه اذ لم ير في ذلك ما يستغرب ، خرج من الفناء ، وهو يشعر أن هذا البواب رجل وغد دنيء من أحقر طراز • قال لنفسه: « يا للنذل ! انه يساومني ••• الله يعلم ماذا يجرى هنا ! » •

حين قال أوردينوف هـــذه الكلمات كان قد وصل الى الشـــارع • وشيئا فشيئا احتكرت ذهنه أفكار آخرى • ان نفسه تفيض بمشاعر أليمة• النهار أشـــهب بارد • الثلج يتســاقط • وأحس الفتى بالحمى تنهشه من جديد • كان يشعر أيضا بأن الأرض تنسل تحت قدميه • وفجأة سمع صوتا معروفا له ، صوتا من مقام التينور متصنع العذوبة ، مرتجفا ، مزعجا، يحييه قائلا : نهارك سعيد •

هتف أوردينوف :

ـ ياروسلاف ايلتش * !

كان أمام أوردينوف رجل في نحو الثلاثين من العمر ، قوى البنية أحمر الخدين مربوع القامة له عينان صغيرتان مخضـــلتان ، شهباوان ، باسمتان •• يرتدى •• ما يرتديه ياروسلاف ايلتش دائما • وهذا هـو يمد يده لأوردينوف بتودد كبير •

كان أوردينوف قد عرف ياروسلاف ايلتش منذ سنة على وجه الضبط، معرفة عارضة تماما ، في الشارع تقريبا • ومما سهّل هذا التعارف ، عدا المصادفة ، ما يتصف به ياروسلاف ايلتش من ميل قوى الى البحث في كل مكان عن أناس طيبين نبلاء ، مثقفين خاصة ، تجعلهم مواهبهم وآدابهم على الأقل ، جديرين بالانتماء الى المجتمع الراقي • ورغم أن ياروسلاف ايلتش قد وهب له صوت من مقام التينور متصنع العذوبة جدا ، حتى في حديثه مع الحميمين من أصدقائه ، فلقد كان ينبعث في صوته شيء خارق الوضوح، قوى ، يفرض نفسه ، ولا يطيق أية معارضـــة ، ولعله ليس الا ثمـرة العادة •

صاح ياروسلاف ايلتش يقول فرحا أشد الفرح متحمسا أصـدق الحماسة :

ـ كيف ؟ ماذا جاء بك الى هنا ؟

فقال أوردينوف :

ـ انني أسكن في هذه الجهة •

فتابع ياروسلاف ايلتش يسأل بلهجة ماتنفك تعلو مزيدا من الطلاوة :

ـ منذ زمن طويل ؟ ثم لا أعلم أنا بذلك ؟ ••• نحن اذن جيران • انني أعمل هنا ، في هذه الدائرة • عدت من اقليم ريازان منذ شـهر ها ••• لقد قبضت عليك يا صديقي القديم النبيل !

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وانفجر يطلق ضحكة لطيفة أنيسة •

ثم صاح منتفخا يخاطب شخصا آخر :

ـ سيرجييف ! انتظرني عند تاراســوف ، وقل لهم ان لا يمســوا

أكياس القمح قبل وصولي ••• واشحذ همة بواب أولسوفييف قليلا • مره أن يأتي الى المكتب فورا • سأكون في المكتب بعد ساعة •••

فلما انتهى ياروسلاف الرقيق من اصدار أمره هـذا مسرعا ، تأبط ذراع أوردينوف وقاده الى أقرب مطعم • قال :

ـ لن أكون راضيا قبل أن نتبادل بضع كلمات على انفراد ، بعـد فراق طويل كل هذا الطول •

وأضاف بلهجة تشبه أن تكون احتراما وهو يخفض صوته خفضـا غريبا :

ـ ماذا تعمل الآن ؟ أما زلت تعمل في العلوم ؟

أجاب أوردينوف وقد راودته فكرة طيبة جدا :

ـ نعم ، كما كنت دائما •

فقال ياروسلاف ايلتش وهو يصافح أوردينوف بقوة :

ـ هذا عظيم يا فاسيلي ميخائيلوفتش ، هـــذا نبيـل • ستكون زينة جماعتنا ••• أسأل الله أن يفرش طـــريقك بالســـعادة ! رباه ! ما أشد سعادتي بلقائك ! لطالما فكرت فيك ! لطالما قلت لنفسي : أين صديقنا الطيب النبيل الروحاني فاسيلي ميخائيلوفتش ؟

قعد الرجلان في حجرة خاصة بالمطعم • أمر ياروســلاف ايلتش بمشهيات ومقبلات ، وأمر بخمرة ، ونظر الى أوردينـــوف منفعلا كل الانفعال ؛ ثم بدأ يقـــول بصــوت خجول ، صوت فيه شيء من المـداراة والمراعاة :

ـ لقد قرأت كثيرا منذئذ • قرأت بوشكين كله •

كان أوردينوف ينظر اليه ذاهلا •

أضاف ياروسلاف ايلتش :

ـ ما أروع وصفه لأهواء الانسان • ولكن اسمح لى قبل كل شىء أن أعرب لك عن شكرى وامتنانى • لقد أحسنت الىّ احسانا كبيرا بنبل الهامك ، وروعة أفكارك •••

ـ العفو •••

ـ لا •• اسمح لى •• أنا أحب الانصاف • واننى لفخور بأن هذا الشعور على الأقل لم ينطفىء فى نفسى •

ـ العفو •• أنت لا تنصف نفسك ! أما أنا فالحقيقة أننى •••

ـ لا بل اننى منصف تماما • ماذا أنا بالقياس اليك ؟

كذلك اعترض ياروسلاف ايلتش بحرارة شديدة •

ـ العفو •••

ـ نعم •••

وأعقب ذلك صمت •

واستأنف ياروسلاف ايلتش يقول بلهجة خجولة مادحة :

ـ لقد انتفعت بنصائحك فقطعت صلاتى بكثير من الأشخاص التافهين• وأنا أقضى فى المنزل أكثر أوقات الفراغ التى يدعها لى عملى فى الوظيفة• فأقرأ فى المساء ، أقرأ كتابا جيـــدا ، و ••• ليس لى من رغبة يا فاسيلى ميخائيلوفتش الا أن أكون نافعا لوطنى بعض النفع •••

ـ لقد عددتك دائما انسانا نبيلا جدا يا عزيزى ياروسلاف ايلتش•

ـ ستظل أنت العطر الفواح ••• أيها الشاب النبيل •

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يشد على يد أوردينوف شدا قويا •

ثم أضاف يلاحظ بعد أن هدأ بعض الهدوء :

ـ أراك لا تشرب •

ـ لا أستطيع • أنا مريض •

ـ مريض ؟ أجدٌ ما تقول ؟ أمنذ زمن طـويل ؟ كيف مرضت ؟ هل تريد أن أقول لك•• أى طبيب يعالجك ؟ هل تريد أن أخبر طبيبنا ؟ سأذهب اليه بنفسي • انه حاذق جدا •••

لم يقل ياروســلاف ايلتش ذلك الا وكان قد تنـاول قبعته يهم أن ينهض للبحث عن الطبيب •

قال أوردينوف :

ـ لا ••• شكرا • ليس يعالجنى طبيب ، أنا لا أحب الاطباء •••

قال ياروسلاف ايلتش متوسلا :

ـ ما هذا الذى تقول ؟ أهــذا الكلام معقول ؟ ثم انه طبيب حاذق جدا ، منذ مدة ••• اسمح لى أن أقص عليك هذا يا عزيزى فاســيلى ميخائيلوفتش ••• منذ مدة جاءه قفَّال فقير ، فقال له : « لقــد وُخزت أصبعى بأداة من أدواتى • فعالجنى واشفنى » ، فلما رأى سيميون بافنوتتش أن المسكين مهدد بالغنغرين قرر أن يبتر العضــو المصاب • ففعــل ذلك بحضورى ••• فعله بحذق يبلغ من النبل ، أقصد يبلغ من المهارة اننى أؤكد لك أن رؤية العملية كان يمكن أن تكون متعة كبيرة ، من قبيل حب

الاطلاع على الأقل ، لولا ما يشعر به المرء من شفقة انسانية ••• ولكن أين وكيف مرضت ؟

ـ مرضت على أثر تبديل مسكني ••• ولم أنهض الا منذ قليل •••

ـ ولكنك ما تزال ضعيفا جدا ، وما كان ينبغي لك أن تخرج • اذن لقد انتقلت من مسكنك القديم ؟ ولكن ما الذى دعاك الى ذلك ؟

ـ صاحبة البيت الذى كنت أسكنه غادرت بطرسبرج •

ـ دومنا سافيشنا ! أهذا ممكن ؟ يا لها من عجوز طيبة ، نبيلة حقا ! هل تعلم أننى كنت أشعر نحوها باحترام يشبه أن يكون احترام الابن أمه ؟ كان فى حياتها المنتهية شىء من تلك الروعة الباقية من زمان أسلافنا القدامى ، فاذا نظر اليها المرء رأى ماضينا القديم يحيا مرة أخرى أمام عينيه ، رآه بكل ما فيه من عظمة ! •• أقصد •• هل ترى •• شىء شعرى •••

بذلك ختم ياروسلاف ايلتش كلامه ، وقد اشتد خجله فجأة ، واحمر وجهه حتى الأذنين •

ـ نعم لقد كانت امرأة شهمة •

ـ ولكن هل تسمح لى أن أعرف أين تسكن الآن ؟

ـ هنا •• غير بعيد •• فى منزل كوشماروف *

ـ أعرفه •• شيخ مهيب • أستطيع أن أقول اننى أكاد أكون صديقه المخلص • شيخ نبيل •

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يكاد يرتعش فرحا وحنانا • وأمر بكأس أخرى من الخمر ، وبغليون •

ـ لقد استأجرت شقة اذن ؟

ـ بل استأجرت غرفة •

ـ عند من ؟ لعلني أعرف أيضا •••

ـ عند مورين ، شيخ طويل القامة •

ـ مورين ، مورين ••• اسمح لى ••• أهو ذلك الذى يسكن فى الفناء الداخلى فوق صانع التوابيت ؟

ـ نعم ، نعم •

ـ أأنت مرتاح هنالك ؟

ـ لم أسكن الا منذ برهة قصيرة •

ـ هيم ••• أردت فقط أن أقول ••• هيم ••• ألم تلاحظ شيئا خاصا ؟

ـ لاحظت •

ـ أقصد ••• أنا واثق أنك سترتاح اذا كنت راضيا عن مسكنك •• لم أقصد هذا ••• ولكننى لمعرفتى بطبعك •• كيف وجدت هذا العجوز البورجوازى ؟ •••

ـ يخيّل الىّ أنه رجل مريض •••

ـ نعم ••• مريض جدا ••• ولكن ألم تلاحظ شيئا خاصا ؟ هل كلمته ؟

ـ قليلا جدا ••• انه لا يحب معاشرة الناس كثيرا ••• وهو سريع الغضب •••

ـ هيمْ ...

كذلك قال ياروسلاف ايلتش سادرا مفكرا . ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

ـ انه رجل تعيس شقي جدا .

ـ هو ؟

ـ نعم . تعيس شقي جدا . وهو في الوقت نفسه غريب الاطوار .. طريف كل الطرافة . على كل حال ، اذا كان لايزعجك ... معذرة اذا كنت أتكلم في مثل هذا الموضوع ... لقد ثار حب الاستطلاع في نفسي.

ـ الحق أنك أثرت في نفسي حب الاستطلاع أيضا ... ووددت لو أعرف من هذا الرجل ! ثم انني أسكن في بيته ...

ـ يقال انه كان في الماضي على جانب كبير من الثراء . كان تاجرا ، ولعلك سمعت عن ذلك . ولكنه فقد ثروته على أثر ظروف تعسة مختلفة : غرقت له بواخر أثناء عاصفة . وكان يملك مصنعا عهد بادارته الى قريب من أقربائه يحبه كثيرا ، فتدمر المصنع بحريق ومات قريبه في الحريق . لا شك أنك تعترف أن هذه خسارات جسيمة رهيبة ! وعندئذ انهار مورين فيما يقال ، حتى أصبح الناس يخشون على عقله أن يذهب . وبالفعل ، فانه أثناء مشاجرة قامت بينه وبين تاجر آخر يملك بواخر على الفولجا أيضا تصرف فجأة تصرفا يبلغ من الغرابة والشذوذ أن الناس عزوا ذلك الى جنون متأصل . وأنا أميل الى تصديق هذا أيضا . لقد سمعت الناس يتحدثون عن غرائبه ... وأخيرا حدث في يوم من الأيام شيء يبلغ من الشذوذ أن المرء أصبح لا يستطيع أن يعلله الا بأن الرجل قد أفقده القدر القاسي الحانق صوابه .

ـ ما الذى حدث ؟

ـ يقال انه أثناء نوبة جنون مرضى حاول قتل تاجر شاب كان يحبه حتى ذلك الحين حبا كبيرا . فلما ثاب الى رشده بلغ هوله من فعلتـه أنه أراد أن ينتحر . ذلك ما يروى على الأقل . لا أدرى على وجه الدقـة ماذا حدث بعد ذلك .ولكن من المحقق أنه عاش عدة سنين فى «العقوبة» *. ولكن ماذا بك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ؟ ألم تتعبك قصتى البسيطة هذه ؟

ـ لا ، لا ، أرجوك ... تقول انه عاش معاقبا ... ولـكنه ليس وحيدا ...

ـ لا أعلم ... يقال انه كان وحيدا ... نعم لم يدخل أحد فى هذه القضية . على كل حال لم أسمع شيئا عما جرى بعد ذلك ... ولكننى أعرف ...

ـ تعرف ماذا ؟

ـ أعرف أنه ... ولكن ليس ثمة شىء ذو بال أضيفه ... كل ما أريد أن أقوله هو أن عليك ، اذا لاحظت فيه شيئا غريبا يخـرج عن المألوف ، أن لا تردّ ذلك الا الى المصـائب التى نزلت به واحدة بعـد أخرى ...

ـ نعم ... انه تقى ، بل هو مسرف فى التقوى .

ـ لا أظن ذلك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ... لقـد تألم كثيرا ... ويخيل الىّ أنه صافى القلب ...

ـ ولكنه ليس مجنونا الآن ... انه معافى ...

ـ نعم نعم ، هذا محقق ، أستطيع أن أؤكده وأن أحلف عليه ...

انه يتمتع بجميع ملكاته العقلية . كل ما هنالك أنه كما أشرت أنت الى ذلك عرضا غريب الأطوار جدا و ... متدين متعبد ... انه عاقل جدا ... حسن الكلام جرىء القول ولا يخلو حديثه من مكر . وما تزال تلاحظ في وجهه آثار حياته الماضية المليئة بالعواصف والاعاصير . رجل طريف . وقد قرأ كثيرا .

ـ يبدو لى أنه يقرأ دائما كتبا مقدسة .

ـ نعم ، هو انسان متصوف .

ـ كيف ؟

ـ متصوف ... ولكنني أقول لك هذا سرا . واليك سراً آخر : لقد ظل هذا الرجل مراقبا مدة طويلة ... كان له سلطان كبير على من يجيئون اليه .

ـ أى سلطان ؟

ـ لن تصدق ما سأرويه لك ... اسمع ... فى ذلك الوقت لم يكن يقطن فى هذا الحى ... جاء اليه فى يوم من الأيام ألكسندر اجناتيفتش ، وهو رجل محترم جدا ، عالى المقام ، ينعم باعتبار جميع الناس ، جاء اليه من قبيل حب الاطلاع ، مع رجل آخر هو ملازم فى الجيش . وصل الرجلان الى منزله ، فاستقبلهما ، فأخذ هذا الانسان الغريب ينظر اليهما بانتباه شديد ، متفرسا فى وجهيهما . تلك عادته في النظر الى الناس متفرسا في الوجه اذا هو ارتضى أن يفيدهما فى شىء . أما اذا لم يرتض ذلك ، فانه يطرد زائريه ، بل يقال انه يطردهم شر طردة ، بغير لباقة ولا أدب ولا تهذيب . سألهما : « ماذا تريدان أيها السيدان » ، فأجابه الكسندر اجناتيفتش بقوله : « موهبتك كفيلة باطلاعك على ما نريد

دون أن نذكره لك ».، فقال : « ادخلا معي الى الغرفة الثانية » ، وهناك عيَّن الشخص الذي كان في حاجة اليه • لم يقص ألكسندر اجناتيفتش على أحد ما جرى بعد ذلك• ولكنه خرج من منزل الرجل أبيض الوجه كمنديل ••• وقد وقع هذا الأمر نفسه لسيدة عظيمة من المجتمع الراقي: خرجت من عنده شاحبة كأنها ميتة ، غارقة في دموعها ، مشدوهة العقل من تنبؤاته ومن فصاحة كلامه •••

ـ غريب ••• ولكنه الآن لا يعنى بهذه الأمور ؟

ـ ممنوع منعا باتا • هناك حالات خارقة تناقل الناس روايتها ••• دخل عليــــه في يوم من الأيام شاب ضـــابط كان معقــــد رجاء أسرته الارستقراطية ومناط أملها ومحل اعتزازها وافتخارها ، فلما ابتسم الشاب حين نظر الى الرجل ، قال له هذا غاضبا : « ما الذي يضحكك ؟ لن تمضي ثلاثة أيام الا وتكون هكذا ، قال ذلك مصالبا ذراعيه ، ممثلا بهذه الحركة شكل جثة •••

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا أجرؤ أن أصدق ما حدث ، ولكن يقال ان النبوءة تحققت ، فمات الشاب بعــــد ثلاثة أيام فعلا • انه يملــك هـــذه الموهبة يا فاسيلي ميخائيلوفتش • أراك تبتسم لقصــــتي • أنا أعلم أنك أثقف مني • ولكنني أؤمن بالأمر • ليس الرجل بدجال • ان بوشكين نفسه يتكلم عن شيء من هذا القبيل في كتبه •

ـ همْ ••• لا أحب أن أكذِّب ما تقول •••

ـ يخيل اليَّ أنك قلت منذ برهة انه لا يعيش وحيدا ؟

ـ لا أعلم ••• أظن أن ابنته تعيش معه •••

ـ ابنته ؟

ـ نعم ، أو ربما زوجته • أعرف أن امرأة تعيش معه ••• رأيتها عرضا ••• ولكننى لم أنعم النظر •

ـ هِمْ ••• غريب •

عاد الفتى يفكر ساهما • ورقت عواطف ياروسلاف ايلتش • تأثر قلبه من لقيا صديق قديم ، ومن أنه قص على هذا الصديق القديم أمورا شائقة بهذه الطريقة الجميلة • كان قاعدا على كرسيه يدخن غليونه ولا يحول نظـــره عن فاسيلى ميخائيلوفتش ، ولكنـه انتفض فجـأة ، وتهيأ للنهوض على عجل • قال :

ـ انقضت ساعة كاملة ، وأنا ناسٍ ••• مرة أخرى أشكر للحـظ يا فاسيلى ميخائيلوفتش أنه جمعنا ، ولكن يجب علىّ أن أذهب • هل تسمح لى بأن أزورك فى منزلك الكريم ، منزل العلم والادب ؟

ـ سيكون هذا فضلا منك ••• سيسعدنى هذا كثيرا • وسـأجىء اليك أنا أيضا متى استطعت ذلك •

ـ أهذا ممكن ؟ انك لتغدق علىّ اذن فضلا لا نهاية له • لا تستطيع أن تتصور مدى سرورى بلقياك •

خرج الرجلان من المطعم ، فرأيا سرجيف يقبل عليهما راكضـا • ثم يبلغ ياروسلاف ايلتش مسرعا أن فيليم ايميليانوفتش * سيمرُّ تواً • وفعلا ظهر فى الشارع فرسان يجران مركبة جميلة جدا ، ويجريان خبباً ويلفت أحدهما النظر بروعة خاصة •

شد ياروسلاف ايلتش على يد صديقه الحميم شداً قويا كما تشـد كلابة ، ورفع رأسه الى قبعته فلامسها محييا ، واندفع الى داخل العربة . وفيما كانت العربة تسير به التفت مرتين الى وراء يسلم على أوردينـوف بحركة من رأسه .

كان أوردينوف يشعر بتعب شديد واعياء كبير في جميع أعضائه حتى ليكاد يعجز عن جر ساقيه . فلم يستطع أن يصل الى المنزل الا بعد لأى . والتقى مرة أخرى عند مدخل المبنى بالبواب الذى كان قد راقب تحيات الوداع بينه وبين ياروسلاف ايلتش مراقبة دقيقة ، وأومأ الى الفتى من بعيد ايماءة دعوة ، ولكن الفتى مرّ دون أن يتوقف . وعند باب المسكن، اصطدم بشخص قصير القامة أشهب الشعر كان خارجا من عنـد مورين خافض العينين . فقفز الرجل جانبا بمرونة كبيرة بينما كان يدمدم قائلا :

ـ يارب يارب ، اغفر خطاياى ، اعف عن ذنوبى يارب .

فقال أوردينوف :

ـ هل آذيتك ؟

ـ لا ... شكرا ... يا رب ، يا رب ...

هبط الرجل القصـير على السلم ببطء وهو يتأوه ويدمدم ببعض الكلام بين أسنانه ؛ انه صاحب العمارة الذى يخشاه البواب تلك الخشية كلها . عندئذ فقط تذكر أوردينوف أنه كان قد رآه أول مرة هنا عنـد مورين يوم انتقاله الى هذا المسكن .

كان أوردينوف يشعر باهتياج واضطراب . وكان يعـلم أن خياله واحساسه متوتران الى أقصى حدود التوتر ، فقرر أن لا يسترسـل فى مشاعره ، وأن لا يركن اليها . وشيئا فشيئا هوى الى نوع من الخـدر .

كان يجثم على صدره شعور اليم مقلق . وكان قلبه موجعا كأنه جريح ، وكانت نفسه تفيض بدموع مخنوقة لا ينضب معينها .

وارتمى من جديد على سريره الذى كانت قد أعدته له كاترين ، ومن جديد أخذ يتنصت مصيخا بسمعه مرهفا أذنيه . سمع تنفسين : أحدهما شاق أليم مرضى متقطع ، والثانى رفيق هادىء ولكنه متفاوت مضطرب أيضا ؟ فكأن اندفاعا واحدا وهوى واحدا يحملان القلبين كليهما على هذا الخفقان ، هناك فى الغرفة المجاورة .. وكان يسمع فى بعض الاحيان حفيف ثوبها ، وانزلاق خطواتها الرفيقة انزلاقا خفيفا ، بل كان يسمع صوت قدمها يترجع فى قلبه عذابا أصم لكنه ممتع . وأحس أخيرا أنه يسمع نشجات بكاء ، ثم أصوات صلاة من جديد . كان يعلم انها الآن راكعة أمام الأيقونة ضامة ذراعيها احداهما الى الأخرى فى حزن شديد ويأس رهيب . من هى هذه المرأة ؟ لمن تدعو الله ؟ أى هوى يائس يبعث هذا الاضطراب فى قلبها ؟ لماذا يتألم قلبها هذا الألم كله ، لماذا ينفجر دموعا محرقة يائسة الى هذه الدرجة ؟

وأخذ يستعيد ذكرى أقوالها . ان كل ما قالته له ما يزال يترجع فى أذنيه ترجُّع موسيقى ؛ وان قلبه يستجيب لكل ذكرى ، لكل كلمة من كلماتها التى رددتها على مسمعه كترتيل صلاة ، ان قلبه يستجيب لكل هذا حبا قويا ، وخفقة صماء موجعة أليمة ... وفى لحظة من اللحظات التمع فى ذهنه كل ما قد رآه فى الحلم . ولكن قلبه كله ارتجف حين عاد الى خياله احساسه بأنفاسها الحارة وبكلماتها وبقبلتها . أغمض أوردينوف عينيه ، واستسلم للنسيان ... دقت ساعة فى مكان ما ... لقد انقضى زمن طويل ... الليل يهبط .

وفجأة خيِّل اليه أنها تميل عليه من جديد ، انها تنظـــر الى عينيـــه

عينيها العذبتين الوضاءتين كقبة السماء اللانهائية فى ساعة الظهر الدافئة • ان وجهها ينيره هدوء رائع ، وان ابتسامتها تشيع فى نفسه سعادة كبيرة ، وانها تميل على كتفه بعطف عظيم ، فما يملك لهذا كله الا أن تخرج من صدره الموهن أنة سعادة •

كانت تريد أن تكلمه • وها هى ذى تسرّ اليه بأمر ما ، حانية عليه متلطفة معه ••• فتترجع فى أذنيه موسيقى نافذة مؤثرة من جديد ، ويتنفس صدره الهواء الدافىء الذى تلهبه أنفاسها القريبة ، يتنفسه بشراهة ونهم • وها هو ذا يمد يديه قلقا ويتأوه ويفتح عينيه •

كانت كاترين أمامه حقا ، ماثلة على وجهه ، شاحبة اللون هلعا ، غارقة فى دموعها ، مرتجفة أشد الارتجاف من فرط الانفعال • وكانت تقول له شيئا ما ، ضارعة اليه وهى تضم يديها وتعضهما • أخذها بين ذراعيه • فلبثت على صدره وجسمها كله يرتعش •

الفصل الثاني

١

سألها أوردينوف وقد صحا صحوا تاما وما يزال يضمها بين ذراعيه الملتهبين ضما قويا :

ـ ماذا هنالك ؟ ماذا بك ؟ ماذا بك يا كاترين ؟ ماذا بك يا حبيبتى ؟

كانت تنشج في رفق ، غاضة طرفها ، مخبئة وجهها المحترق في صدر الفتى . ولبثت على هذه الحال زمنا طويلا لا تستطيع أن تتكلم ، وترتجف كأنها خائفة .

قالت أخيرا بصوت ضعيف لا يكاد يُسمع :

ـ لا أدرى .

كانت تختنق ، ولا تكاد تقوى على النطق بهذه الكلمات .

وأضافت :

ـ لا أدرى كيف جئت الى هنا ، الى عندك •

وشدت جسمها اليه بمزيد من القوة ؛ وكأن عاطفة لا سبيل الى مقاومتها قد هزتها هزا قويا ، فاذا هي تقبل كتفيه ، وذراعيه ، وصدره • وأحست أخيرا بانهيار ، فخبأت وجهها في يديها ، وأسقطت رأسها على ركبتيها •

فلما استطاع أوردينوف ، وقد استبد به قلق شديد ، أن ينهضها وأن يجلسها قربه ، كان وجهها يحترق خجلا وحياء ، وكانت عيناها تضرعان ملتمستين العفو والصفح ، وكانت البسمة التي تبدو ضعيفة على شفتيها تحاول أن تغالب القوة الهائلة التي لاسبيل الى مغالبتها ، قوة شعورها الجديد • ولاح عليها مرة أخرى أنها خائفة من شيء ما : فها هي ذي تدفعه عنه بيدها ، ولا تكاد تنظر اليه ، وتجيب على أسئلته ، خافضة الرأس ، بكلمات متقطعة ، وهمس وجل •

سألها أوردينوف :

ـ أتراك رأيت في نومك حلما ثقيلا ، أو رؤيا مفزعة ؟ قولى ••• هل هو أفزعك ؟ ••• انه يهذى ، انه لا يملك عقله ••• أتراه قال أشياء ما كان ينبغي أن تسمعيها ؟ ••• هل قال شيئا من هذا القبيل ؟ نعم ؟

أجابت كاترين وهي تكبح انفعالها بكثير من الجهد والعنف :

ـ لا ••• لم أنم ••• لم أستطع الى النوم سبيلا • وصمت هو طول الوقت • لم ينادني الا مرة واحدة • اقتربت منه • ناديته • لم يسمعني•

حالته سيئة جدا • أعانه الله • وعندئذ استبد بي قلق شديد، قلق رهيب • صليت طول الوقت ، صليت بلا توقف ، ثم فجأة ذهلت عن نفسي •••

ـ كفى يا كاترين ، كفى يا حياتي ••• أمس انما اعتراك الخوف •

ـ لا لم أخف أمس •

ـ أيحدث هذا أحيانا •

ـ نعم يحدث •

كانت ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وراودها الهلع والفزع من جديد ، فشدت نفسها اليه كطفل •

قالت وهي تحبس نشجاتها :

ـ هأنت ذا ترى اذن أنني لم أجيء اليك بغير سبب •

ثم ردّدت تقول وهي تصافحه عرفانا بالجميل :

ـ لم يصعب عليّ أن أبقى هنالك وحدي الا لسبب • كفاك سكب الدموع حزنا على شقاء الآخرين • احتفظ بدموعك ليوم تتعذب فيه وحدك ، ليوم لا يكون معك فيه أحد • اسمع ••• هل سبق أن أحببت ؟

ـ لا ••• لم أحب قبلك ؟

ـ قبلي ؟ وتناديني حبيبتك ؟

قالت ذلك وهي تنظر اليه مدهوشة على حين فجأة • وأرادت أن تقول شيئا ، لكنها صمتت وغضت طرفها • ثم احمر وجهها بغتة ، ومن خلال الدموع التي ما تزال حارة ، الدموع المتسية على أهدابها ، سطعت عيناها • كان واضحا أن هناك سؤالا يحرك شفتيها • نظرت اليه مرتين، نظرة ماكرة ، ثم خفضت عينها فجأة من جديد • قالت :

ـ لا ••• لا يمكن أن أكون أول حب لك •

ثم رددت تقول وهى تهز رأسها ساهمة ، بينما كانت تضىء وجهها ابتسامة جديدة :

ـ لا •• لا ••

وقالت أخيرا وهى تنفجر ضاحكة :

ـ لا ••• لست من يمكن أن تكون حبيبتك !

ثم نظرت اليه • غير أن حزنا رهيبا قد طاف بوجهها عندئذ على حين فجأة ، وخوفا يائسا قد ارتسم على جميع قسماتها ، فشعر أوردينوف بشفقة غريبـــة ، شفقة لا تُفهم ، شفقة مرضية ، شعر بعطف قوى على شـــقاء مجهول ؛ وبعذاب لا يغالب نظر اليها • قالت بصوت يمضى الى القلب ، وهى تشد على يدى أوردينوف بين يديها ، وتحاول أن تخنق نشجاتها :

ـ اسمع ما سأقوله لك • اسمع جيدا • اسمع يا فرحتى ! سـيطر على قلبك ، وكف عن حبى اذا كنت تحبنى الآن • ذلك خير لك • فان استطعت أن تكف عن حبى أصبح قلبك أخف وأفرح ، وتحاشيت عدوا رهيبا ، وكسبت أختا حنونا • سآتى اليك ان شئت • وسأداعبك ، ولن أخجل من البقاء قربك • لقد بقيت قربك يومين حين كنت مريضا جدا ! فاتخذنى أختا • لقد دعوت لك العذراء دعاء حارا ، وما فعلت هذا عبثا ؟ لن تجد أختا أخرى مثلى • لو طفت الكون بأسره ، فلن تجد حبا كحبى، اذا كان قلبك ينشـد الحب • سأحبك بقلبى كله ، كما أحبك الآن ، وسأحبك لأن روحك صافية ، مضيئة ، شفافة ، لأننى حين نظرت اليـك أول مرة ، رأيت فيك على الفور نزيل مسكنى ، النزيل الذى أريده ، فليس من باب المصادفة أنك جئت الينا •أحبك لأن عينيك ،حين تنظران،

تحبان وتخاطبان من أعماق قلبك ، وحين تخاطبني عيناك أدرك فورا كل ما تفكر فيه وكل ما يجول في خاطـرك ، لذلك أريد أن أهب لحبـك حياتي وحريتي ، لسوف يحلو لي أن أكون عبدة من وقع عليه قلبي ... ولكن حياتي ليست لي ، انها لانسان آخر ، وحريتي سجينة ، ولكن اقبلني أختا ، كن أخي ، خذني لقلبك متى استبد بي الخوف والقلق من جديد، افعل ما من شأنه أن لا يجعلني أخجل من المجيء اليك والبقاء قربك ليلة طويلة ، هل سمعتني ؟ هل فتحت لي قلبك ؟ هل فهم عقلك ما قلته لك ؟

وأرادت أن تقول شيئا آخر أيضا ، ولكنها نظرت اليه ، ووضعت يدها على كتفه ، ثم ارتمت على صدره مهدودة القوى ، توقف صوتها في نشجات محمومة ولهي ، ان صدرها يعـلو ناهدا ، وان وجههـا يصطبغ بحمرة كحمرة الشفق عند غروب الشمس .

دمدم أوردينوف يقول وهو يشـعر بغشاوة تحجب عينيه ، ويحس بأنفاسه تتوقف :

ـ حياتي ...

واذ أصبح لا يعرف ماذا يقول ،ولا يفهم ماذا يقول ، واذ اصـبح يرتجف مخافة أن يدمر بنسمة هذا الذي يحدث له فيحسبه رؤيا أكثر مما يحسبه واقعا من فرط ما أصبحت الأمور غامضـة مبهمة أمام بصره ، قال :

ـ فرحتي ... لا أعرف ... أنا لا أفهمك ... لا أتذكر ما قلته منذ هنيهة ، عقلي أظلم ، قلبي يتألم ... مليكتي ...

وخنق الهياج صوته ، شدت جسمها الى جسمه بمزيد من القوة ، نهض ، فقد صبره ، سقط على ركبتيه محطما طائش اللب من الانفعال.

وانطلقت من صدره أخيرا نشجات • ان صـــوته الذى يصدر من القلب رأسا ، يهتز اهتزاز حبل على مدى حماسة عظيمة وحب مجهول • قال وهو يحاول أن يخنق نشجاته :

ـ من أنت ؟ من أنت أيتها الحبيبة الغالية ؟ من أين جئت يا حمامتى ؟ من أى سماء هبطت ؟ لكأن حلما يلفنى ، فما أستطيع أن أصدق وجودك •• لا تلومينى •• دعينى أتكلم •• منذ مدة طويلة أريد أن أتكلم ••• من أنت ؟ من أنت يا فرحتى ؟ كيف وقعت على قلبى ؟ قولى ••• أأنت أختى منذ زمن طويل ؟ قصى على كل شىء عنـك • أين كنت الى هـذا اليوم ؟ قولى لى ما اسم المكان الذى عشت فيه • ما الذى أحببته هنالك ؟ بماذا كنت سعيدة ، وما الذى كان يجعلك حزينة ؟ أكان الهواء دافئا ثمّ ؟ أكانت السماء صافية ؟ ••• ما هى الموجودات التى كانت حبيبة الى قلبك، أثيرة فى نفسك ؟ من أحبـك قبلى ؟ الى من اتجهت نفســك هنالك أول ما اتجهت ؟ أكانت أمك معك ؟ أكانت هى التى تهدهدك وتلاعبك وتداعبك حين كنت طفلة ؟ بماذا كنت تحلمين ؟ فيم كنت تفكرين ؟ ما هى أحلامك التى تحققت ، وما هى أحلامك الأخرى ؟ قولى لى كل شىء ••• من هو الانسان الذى خفق له قلبك البكر أول ما خفق ؟ من هو الانسان الذى وهبته قلبك أول ما وهبت قلبك ؟ قولى لى ••• ما هو العطاء الذى يجب أن أقابل به عطاءك قلبك ؟ تكلمى يا حبيبتى الغالية ، يا ضيائى ، يا أختى ! قولى لى كيف أستطيع أن أستحق حبك ؟

توقف صوته من جديد ، وخفض رأسه • ولكنه حين رفع عينيـه تجمد هولا ورعبا ، وانتصب شعر رأسه هلعا وجزعا •

كانت كاترين قاعدة ، شاحبة الوجه كميت •

انها ساكنة جامدة ، شاخصة ببصرها الى الفضاء • شفتاها مزرقتان

كشفتنى جثة ، وعيناها تفيضان بألم أخرس رهيب . وها هي ذى تنهض ببطء ، فتخطو بضع خطوات ، ثم ينطلق من صدرها نحيب حاد ، وتسقط أمام الأيقونة ... ان كلمات موجزة ، مضطربة ، تخرج من بين شفتيها. وأغمى عليها . فأسرع أوردينوف ينهضها مروعا ، ويرقدها على السرير . لبث واقفا أمامها لا يتذكر شيئا . وبعد دقيقة فتحت عينها ، وجلست على السرير ،ونظرت حولها ، وأمسكت يد أوردينوف . جذبته نحوها ، تمتمت بشىء بين شفتيها الصفراوين ، ولكن صوتها لم يسعفها . وآخيرا تدفقت دموعها غزيرة تحرق يد أوردينوف الباردة كالثلج . وأخيرا قالت هلعة :

ـ ما أشد هذا الألم ... ما أشده ! .. حانت ساعتى الأخيرة .

أرادت أن تقول شيئا آخر ، ولكن لسانها لم يطاوعها . كانت عاجزة عن النطق بكلمة واحدة . انها تنظر يائسة الى أوردينوف الذى لايفهمها. مال آوردينوف عليها ، ازداد دنوا منها ، أصغى اليها ، فسمعها تنطق بهذه الكلمات واضحة :

ـ أنا مسحورة .. سحرونى .. ضيعونى ..

رفع أوردينوف رأسه ونظر اليها مدهوشا . ان فكرة فظيعة تبرق فى رأسه . رأت كاترين تقبض وجهه . أردفت تقول :

ـ نعم سحرونى . رجل شرير سحرنى .. انه هو . هو قاتلى . لقد بعته نفسى .. لماذا ، لماذا تكلمت عن أبى ؟ لماذا أردت أن تعذبنى.؟ جازاك الله !

وبعد برهة أخذت تبكى فى رفق . ان قلب أوردينوف يخفق خفقانا قويا ، ويعانى قلقا قاتلا :

همست تقول بصوت محبوس ، عجيب :

ـ يقول انه سيأتي يأخذ روحي اذا مات ••• انني له • لقد بعت نفسي • عذبني • قرأ في الكتب • انظر ••• هذا كتابه • اليك كتابه • يقول انني ارتكبت اثما قاتلا •• انظر •• انظر ••

أشارت الى كتاب • لم يكن أوردينوف قد لاحظ الكتاب ، ولا عرف كيف وجد في هذا المكان • تناول الكتاب بحركة الية • هو كتاب من طراز الكتب القديمة التي يقرؤها قدامى المؤمنين والتي أتيح له ان يرى مثلها قبل الآن • ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن ينظر • ان انتباهه منصرف الى شيء آخر انصرافا كاملا • سقط الكتاب من بين يديه • ضم كاترين ضما رفيقا ، محاولا أن يردها الى صوابها • قال لها :

ـ كفي كفي ••• لقد روعوك • أنا معك • ثقي بي ، يا حبيبتي الغالية ، يا ضيائي •••

قالت وهي تشد على يديه شدا قويا :

ـ أنت لا تعرف شيئا ، لا تعرف شيئا • أنا دائما هكذا ••• خائفة من كل شيء •

ثم قالت بعد لحظة ، وهي تلهث لهاثا شديدا :

ـ حسبك ، حسبك ، لا تعذبني مزيدا من التعذيب ، والا ذهبت اليه • انه كثيرا ما يخيفني بأقواله ••• أحيانا يتناول كتابا ، هو أكبر الكتب ، ويأخذ يقرأ لي فيه ••• انه يقرأ دائما أشياء قاسية جدا ، أشياء رهيبة فظيعة ! لا أعرف ماذا يقرأ ، لا أفهم جميع الكلمات ، ولكن الخوف يعتريني ؛ وحين أسمع صوته ، فكأنه ليس هو الذي يقرأ ، بل شخص

شرير لا سبيل الى ترويضه ، ولا يمكن تأنيسه وتلطيفه • عندئذ ينقبض قلبى حزنا ••• عندئذ يحترق قلبى ••• شىء مروِّع ، فظيع ! •••

قال أوردينوف وهو لا يكاد يفهم كلماتها :

ـ لا تذهبى اليه ! لماذا تذهبين اليه ؟

ـ لماذا جئت اليك ؟ اسأل هذا السؤال •• أنا نفسى لا أعرف • وهو يقول لى طول الوقت : « صلى لله ، صلى » أحياناً انهض فى الليل المظلم البهيم ، فاصلى مدة طويلة ، ساعات كاملة • وكثيرا ما أكون نعسى ولكن الخوف يمنعنى من النوم فاظل يقظى ، ويخيل الى عندئذ أن الصاعقة تهيأ حولى ، أن هذا سيحمل الىّ الأذى ، أن الأشرار سيمزقوننى ، سيقتلوننى ، أن القديسين لن يسمعوا صلواتى وضراعاتى ، وأنهم لن ينقذونى من العذاب الرهيب ••• نفسى تتهشم ، كأن الجسم كله يريد أن يذوب دموعا ••• أستأنف الصلاة ، وأظل أصلى الى أن تنظر الىّ السيدة العذراء ـ فى الأيقونة ـ بشىء من الحنان • وأنام أحيانا على الأرض ، ساجدة أمام الأيقونة • ولكن يحدث أيضا أن يستيقظ ، فينادينى، ويأخذ يلامسنى ويواسينى ، فأشعر عندئذ بتحسن ، وأصبح خفيفة فرحة قادرة على احتمال أى شقاء • متى كنت معه ، لا أشعر بخوف • كلامه عظيم •

سألها أودينوف وهو يعض على يديه ألماً ويأساً •

ـ ولكن ما هو الشقاء الذى ألم بك ؟

امتقع لون كاترين امتقاعا رهيبا • نظرت اليه نظرة من حكم عليه بالاعدام ولا أمل له فى عفو • قالت :

ـ الشقاء الذى ألم بى أنا ؟ أنا ابنة لعنتها أمها ••• أنا أمتُّ أمى•

أحاطها أوردينوف بذراعيه دون أن ينبس بكلمة .

شدت جسمها اليه . شعر بقشعريرة تسرى فى جسم المرأة الشابة وخيل اليه أن روحها تنفصل عن جسدها .

قالت مضطربة الذكريات ناظرة الى ماضيها :

ـ لقد دفنتها ... أردت أن أتكلم منذ مدة طويلة . ولكنه يمنعنى من الكلام بالصلوات ، والملامات ، والتهديدات ... وفى بعض الاحيان يضرم هو نفسه خوفى كما يمكن أن يفعل أعدى عدو لى ... والآن توافينى هذه الأفكار كلها فى الليل ... اسمع ، اسمع ... حدث ذلك منذ زمن بعيد ، بعيد جدا . أصبحت لا أتذكر الآن متى حدث ، ولكن كأنه حدث أمس ... كأنه حلم رأيته أمس فكان يأكل قلبى . والقلق يضاعف طول الزمان ... اجلس هنا ، اجلس قربى ، فسأقص عليك قصة ألمى كله . لا يهمنى أننى لُعنت ... سوف أروى لك حياتى كلها.

أراد أوردينوف أن يمنعها من ذلك ، ولكنها ضمت يدها احديهما الى الأخرى ضارعة اليه أن يسمع كلامها . ثم أخذت تتحدث من جديد ، باضطراب ما ينفك يزداد . قصتها مفتتة . فى أقوالها تهمهم عاصفة نفسها . ولكن أوردينوف كان يفهم كل شىء ، لأن حياتها كانت قد أصبحت حياته ولأن ألمها كان قد أصبح ألمه ، ولأن عدوه كان قد انتصب أمامه ، يضخُم فى عينيه عند كل كلمة جديدة تقولها ، ويجثم على قلبه بقوة كأنها لا تنضب ، ضاحكا من غضبه ، مستهزئا بحنقه . كان دمه يزدحم فى قلبه ، ويعتم أفكاره . ان الشيخ الشرير الذى رآه فى المنام (كان أوردينوف يعتقد أنه رآه فى المنام) هو الآن أمامه فعلا .

بدأت كاترين كلامها :

« كان ذلك في ليلة تشبه هذه الليلة لكنها أعصف منها . الريح تهب في الغابة هبوبا لم أشهد مثله حتى الآن .. أو لعلني أظن ذلك لأن تلك الليلة هي الليلة التي تم فيها ضـــياعي ! .. تحت نافذتي تحطمت شجرة سنديان .. لقد أكد لنا شحاذ ، وهو شيخ أبيض الشعر تماماكان يأتي الينا ، أنه رأى هذه الشجرة حين كان طفلا ، وأنها كانت في ذلك الحين لا تقل ضخامة منها يوم حطمتها الريح ..

« وفي تلك الليلة نفســـها ـ انني أتذكر كل شيء كأنه حدث بالامس ـ حطمت العاصفة سفن أبي ، فذهب أبي الى الشاطيء فوراً ، رغم انه كان مريضـــا ، منذ هرع الصـــيادون يبلغونه النبأ عندنا في المصنع . بقينا أنا وأمي وحدنا . كنت وسنى .. وكنت حزينة أبكي بكاء مرا .. أعرف لماذا ... كانت أمي قد مرضت منذ قليل ، وكانت شاحبة الوجه ، وكانت تردد على مسامعي في كل لحظة ان علي أن أهيء لهـا كفنها . وفجاة طرق باب منزلنا . قفزت من مكاني . ازدحم الدم في قلبي . صرخت أمي .. لم أنظر اليها .. كنت خائفة . حملت المصباح ، ومضيت افتح الباب بنفسي .. كان هو . خفت . كنت دائماً أخاف حين يأتي البناء كان ذلك شأني منذ أبعد عهد أتذكره من طفولتي .. ولم يكن شعره أبيض في ذلك الحين . كانت لحيته ســـوداء كالقار ، وكانت عيناه تلمعان لمعان الفحم ، ولم ينظر الي نظرة حنان مرة واحدة .. سألني هل أمي في البيت . أغلقت البـاب ، وأجبته بأن أبي ليس في البيت . قال : « أعرف » ، ونظر الي على حين فجأة نظرة خاصـة . تلك أول مرة ينظر الي فيها هكذا . انصرفت . ظل ساكنا لا يتحرك . قلت لنفسي : « لماذا لا يجيء ؟ » . ودخلنا الغرفة . سألني : « لمـاذا أجبتني بأن أباك ليس في المنزل حين سألتك هل أمك في المنزل ؟ » . صمت .

« كانت أمي في ذعر . ارتمت عليه ... لم يكن ينظر اليها . كنت

أرى كل شيء . كان مبللا يرتجف. لقد لاحقته العاصفة عشرين فرسخا. من أين كان آتيا ؟ لم نكن نعرف ذلك ، لا أنا ولا أمي . اننا لم نره منذ تسعة أسابيع . خلع طاقيته ونزع قفازيه . لم يصلِّ للأيقونات ، ولا حيا أهل المنزل ... قعد قرب النار .. » .

أمرّت كاترين يدها على وجهها كأن شيئاً كان يخنقها . ولكنها رفعت رأسها بعد دقيقة وتابعت تروى قصتها :

« اخذ يكلم امي ، باللغة التترية . كانت امي تعرف هذه اللغة . أما أنا فلم افهم كلمة واحدة . كانا في بعض الاحيان يصرفاني اذا جاء ... أما الآن فان امي لم تجرؤ ان تقول شيئا لابنتها . الشيطان يشترى نفسي ، وانا انظر الى امي مسرورة . رأيت أنهما ينظـــران الى ، انهما يتحدثان عني ... أخـذت أمي تبكي ... أمسك سكينه . سـبق أن حدث عدة مرات أن أمسك سكينه أثناء مخاطبته أمي . نهضت وتشبثت بحزامه . كنت أريد أن أنتزع من يده السكين . صر بأسنانه ، وصرخ، وأراد أن يدفعني عنه ... لطمني على صدرى ، ولكنني لم أتراجع . قدرت أنني سأموت في مكاني ... غشيت عيني سحابة . ســـقطت على الأرض دون أن أقول كلمة واحدة ... ونظرت ما وسعني أن أنظر وأنا على هذه الحال ... خلع حزامه ، وشمر كم اليد التي لطمني بها ،وتناول السكين فأعطانيها ، وقال لى : « ابترى يدى ، افعلى ما تشائين ، ما دمت قد أسأت اليك ، وأنا ، أنا المتكبر ، سوف أخر ساجدا أمامك . » . أعدت السكين الى غمدها ... كنت أختنق ... أبيت حتى أن أنظـر اليه . أذكر أنني تبسمت دون أن أباعد شفتى ، وأنني ألقيت نظرة قاسية عـلى عيني أمي الحزينتين ... كانت أمي جالسة ، شاحبة الوجه كميتة ...» .

كان أوردينوف يصغي بانتباه شديد الى هذه القصة المشوشة . وشيئا

فشيئا تبدد اضطراب كاترين . أصبح تدفق كلامها أهدأ . كانت الذكريات تستدرج المخلوقة البائسة ، وتبعثر قلقها على صفحة الماضي العريض .

« تناول طاقيته وخرج دون ان يحيي . حملت المصباح من جديد لأرافقه ، بدلا من أمي التي أرادت آن تشيعه برغم انها مريضة . وصلنا الى الباب الخارجي . كنت صامتة . فتح الباب وطرد الكلاب . نظرت اليه . خلع طاقيته وانحنى أمامي انحناء كبيرا . رأيته بعد ذلك يضع يده في جيب صديريته فيخرج منها علبة صغيرة مفروشة بمخمل أحمر . فتح العلبة . نظرت . انها لآلىء ضخمة . قدم الى اللآلىء قائلا : « لى جميلة غير بعيدة من هناء كنت أحمل هذه اللآلىء اليها ، ولكنني لن أعطيها اياها . خذيها أنت يا حلوتي ، زيّني بها جمالك ؛ أو اسحقيها بقدميك اذا شئت ، ولكن خذيها » . أخذت اللآلىء ، ولكنني لم أسحقها بقدمي . تناولتها تناول حية ، دون أن أعرف لماذا تناولتها . عدت الى الغرفة ، ووضعت اللآلىء على المائدة أمام أمي .

« لبثت أمي برهة لا تنطق بكلمة ، شاحبة شحوبا شديدا ، كأنها تخشى أن تكلمني . ثم قالت : « ما هذا يا صغيرتي كاترين ؟ » ، فأجبتها « لك انما جاء هذا التاجر بها ... أنا لا أدري ... » . نظرت اليها . أجهشت باكية . قالت : « لا ... ليست لى يا كاترين ، ليست لى أيتها البنت الشريرة . ليست لى . » . ما زلت أتذكر مدى الحزن الذى لاح في وجهها وهي تنطق بهذه الكلمات . لكأن قلبها كان يطعن طعنا . رفعت عيني ... أردت أن أرتمي على قدميها . ولكن الشيطان وسوس لى فجأة أن أقول : « اذا لم تكن لك ، فلعلها اذن لأبي . سأعطيه اياها متى عاد . سأقول له ان تجارا جاءوا الى هنا وتركوا هذه البضاعة ... » . عندئذ أجهشت أمي باكية منتحبة ، وقالت : « سأذكر له بنفسي من هم التجار

الذين جاءوا الى هنا ، ومن أجل أية بضاعة جاءوا ••• سأقول له من أنت يا ابنة الزنا ! ••• ما أنت بنتي بعد الآن ! أنت أفعى ! أنت ابنة لعنتها أمها ! » • سكت • كانت عيناي بلا دموع ، كان كل شيء قد مات في نفسي ! ذهبت الى غرفتي ، ولبثت الليل كله أنصت الى العاصفة وأفكر •••

انقضت خمسة أيام • وفي مساء اليوم الخامس وصل أبي ، مقطب الحاجبين ، حانق الوجه • ولكن المرض كان قد حطمه في أثناء الطريق• نظرت فرأيت ذراعه مضمدة • فهمت ان عدوه قد لقيه في طريقه • وأنا أعرف ماذا كان عدوه • كنت أعرف كل شيء • لم يقل لأمي شيئا • لم يسأل عني • واستدعى جميع العمال • أمرهم بوقف العمل في المصنع ، وبان يحرسوا المنزل من العين الخبيثة • قال لي قلبي في تلك اللحظة ان نازلة تهدد منزلنا • لبثنا ننتظر • انقضى الليل • ليلة أخرى تملؤها الصواعق • كان الاضطراب يغزو قلبي • فتحت نافذتي • كان وجهي يحترق ، وكانت عيناي تفيضان دموعا ، وكان قلبي يشتعل بنار • كان جسمي كله أشبه بجمرة • كنت أود لو أمضي الى بعيد ، الى آخر العالم، الى حيث تولد الصاعقة • ان صدري ينتفخ ••• وفجاة ، في ساعة متاخرة، بينما كنت نائمة ، أو قل غافية نصف اغفاء ، سمعت طرقا على نافذتي وصوتا يهتف : « افتحي • » • نظرت • ان رجلا قد تسلق بواسطة حبل حتى وصل الى نافذتي • عرفته فورا • فتحت النافذة وتركت له أن يدخل غرفتي • انه هو • لم ينزع طاقيته • جلس على مقعد من المقاعد ، يلهث لهاثا قويا ، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ، كأن أحدا كان يطارده • لطوت في ركن • أحسست أن وجهي يشحب •••

قال : « هل الأب في البيت ؟ » قلت : « نعم » • قال : « والأم ؟ » ،

قلت « والأم أيضا • » • قال : « اسكتي الآن • هل تسمعين ؟ » قلت : « أسمع » • قال « ماذا تسمعين ؟ » قلت : « الريح تحت النافذة » .• قال : « طيب يا جميلتي ، هل تريدين أن تقتلي عدوك ، أن تنادي أباك ، ان تزهقي روحي ؟ أنا أخضع لمشيئتك • اليك هذا الحبل ، فأوثقيني به ، اذا كان قلبك يهيب بك أن تنتقمي للاساءة » • سكت • قال : « هلا تكلمت يا فرحتي ؟ » • قلت : « ماذا يجب ؟ ••• » قال : « يجب عليَّ أن أبعد عدوى ، وأن أودع حبيبتي القديمة ، وأن أنحني لك أنت أيتها الفتاة انحناء كبيرا من قبيل التحية ••• » • أخذت أضحك ، ولا أدرى أنا نفسي كيف نفذت هذه الكلمات الموبوءة الى قلبي • » • قال : « دعيني اذن يا جميلتي أنزل الى تحت وأحيي رب المنزل » • ارتعشت من قمة رأسي الى أخمص قدمي ، واصطكت أسناني ، واشتعل قلبي نارا ••• مضيت أفتح الباب ، وأدع له أن يدخل البيت • ولكنني قلت عند العتبة : « استرد لآلئك ، ولا تُهد اليَّ شيئا بعد الآن » • ورميت له العلبة الصغيرة • » •

توقفت كاترين عن الكلام لتتنفس قليلا • كانت تارة ترتعش وتشحب ، وتارة يزدحم الدم في وجنتيها • ففي اللحظة التي توقفت فيها عن الكلام كان وجهها مشتعلا ، وكانت عيناها تلتمعان من خلال الدموع ، وكانت أنفاسها الثقيلة ترعش صدرها • ولكنها لم تلبث أن اصفرت فجأة ، ثم استأنفت تقول بصوت يفيض حزنا :

« لبثت عندئذ وحدي ، وكنت أحس أن العاصفة تهمهم حولي ••• وفجأة سمعت صرخات ••• ان عمال المصنع يركضون في الفناء ••• ويصيحون : « المصنع يحترق » • اختبأت في ركن • هرب الجميع من المنزل ••• بقيت وحيدة مع أمي • كنت أعرف أن الحياة تغادرها : انها راقدة على فراش الموت منذ ثلاثة أيام • كنت أعلم ذلك ، أنا البنت التي

لعنتها أمها ! وانطلقت في غرفتي على حين بغتة صرخة ضعيفة ، كصرخة طفل يخاف من الليل • ثم هدأ كل شيء • نفخت على الشمعة • كنت متجمدة كالجليد • خبأت وجهي في يدي • خفت أن أنظر • وفجأة سمعت صرخة على مقربة مني • كان أناس يهرعون من المصنع • ملت من على النافذة ••• رأيت أبي ميتا يحملونه الى البيت • وسمعت الناس يقولون : « لقد سقط من السلم في مرجل الماء الغالي ، كأن الشيطان دفعه اليه ! » • شددت جسمي الى السرير • انتظرت • لا أدري من انتظرت، لا أدري ماذا انتظرت • أتذكر الآن أن رأسي أصبح ثقيلا عندئذ دفعة واحدة • وكان الدخان يخز عيني ، فيسعدني أن ضياعي أصبح قريبا • وفجأة شعرت بأن أحدا ينهضني من كتفي ••• نظرت ما أمكنني أن انظر ••• انه هو ! انه محترق • ثيابه ساخنة ، تفوح منها رائحة الدخان• قال : « جئت آخذك يا جميلتي • فقدت روحي من اجلك ، في سبيلك • مهما أصليَّ، فلن تُغفر لي هذه الليلة الملعونة ، اللهم الا اذا صلينا معا ! »• وضحك ، ضحك الملعون ! قال : « دلني على الطريق الذي يمكن أن نخرج منه دون أن يرانا أحد • أمسكت يده ، وقدته • اجتزنا الدهليز• كانت المفاتيح معي • فتحت الباب الاحتياطي ، ودللته على النافذة • ان النافذة تطل على الحديقة • تناولني بذراعيه القويتين ووثب من النافذة ••• أخذنا نركض • ركضنا مدة طويلة • لمحنا غابة كثيفة مظلمة ••• أصاخ بسمعه • قال : « انهم يلاحقوننا يا كاترين • انهم يطاردوننا ! انهم يطاردوننا يا جميلتي ؟ ولكن ليس هذا أوان الاستسلام • قبليني في سبيل الحب الأبدي ، والسعادة الأبدية ! » • قلت له : « لماذا في يديك دم ؟ » قال : « دم ؟ يا عزيزتي ••• لأنني قتلت الكلاب التي كانت تنبح • هيا بنا • » • واستأنفنا الركض • وفجأة رأينا في الطريق حصان أبي • كان الحصان قد انتزع رسنه وهرب من الاسطبل لينجو من اللهب • قال :

« اركبي معي يا كاترين ، لقد أرسل الله الينا نجدة ! » • صمت • قال : « ألا تريدين ؟ أنا لست وثنياً ، ولا شيطانا ، سأرسم اشارة الصليب اذا شئت • » • رسم على نفسه أشارة الصليب • جلست على الحصان ، واذ شددت جسمي الى جسمه ، ذهلت عن نفسي على صدره ، فكأنني في حلم ••• حتى اذا ثبت الى رشدي ، كنا قد اصبحنا قرب نهر عريض ، عريض ••• أنزلني عن ظهر الحصان ، ثم ترجل ، ومضى نحو شجيرات القصب على شاطىء النهر • كان قد أخفى هنالك قاربه • قال : « وداعا يا حصاني الشجاع ، ابحث لنفسك الآن عن صاحب آخر • أصحابك القدامى تركوك • » • ارتميت على حصان أبى أقبله بحنان • ثم ركبنا القارب • تناول المجدافين ، فسرعان ما غاب عنا الشاطىء • فلما ابتعدنا هذا الابتعاد ترك المجدافين وأخذ يجيل نظره فيما حوله • قال : « سعد يومك أيها النهر ، يا مرضع العالم ويا مرضعي ! قل لى هل احتفظت برزقي في غيبتي ؟ هل بضائعي سليمة لم يمسسها أذى ؟ » • صمت وخفضت عينيّ • كان وجهي قد اصطبغ بالحمرة من الخجل • قال : « خذ كل شيء ان شئت ، ولكن عدني أن تصون وأن تحب لؤلؤتي التي لا تقدر بثمن ••• قولي كلمة واحدة على الأقل يا جميلتي ! أضيئي وجهك بابتسامة ! كما تطرد الشمس الليل المظلم البهيم ••• » • قال ذلك وابتسم • أردت أن أقول كلمة ••• كنت خائفة • صمت • قال يجيب على فكرى الوجل الخجل « لك ما تشائين ! ما من شيء يمكن الحصول عليه عنوة • حفظك الله يا حمامتي ! أرى أن ما تحملينه لى من كره هو الأقوى ••• » • كنت أصغي اليه • اعتراني غضب • قلت له : « نعم أكرهك لأنك لطختني في تلك الليلة المظلمة ، وما تزال تسخر من قلبي قلب الفتاة ••• » • قلت ذلك ولم أستطع أن أحبس دموعي • بكيت • وصمت • لكنه نظر اليّ نظرة لم أملك معها الا أن أرتعش ارتعاش

ورقة في مهب الريح • قال لي وعيناه تسطعان سطوعا رائعا : « اسمعي يا جميلتي ! ان ما ساقوله له ليس لغوا ، بل هو عهد عظيم : ما ظللت تهبين لي السعادة فساكون سيدا ، ولكن اذا انقطعت عن حبي في لحظة من اللحظات ، فلا حاجة بك الى الكلام ، بل تكفي اشارة من حاجبك ، يكفي أن تلقي عليّ نظرة من عينك الكحلاء حتى أرد اليك حبك والحرية • ولكن اعلمي ، أيها الجمال الشامخ ، أن ذلك اليوم سيكون آخر أيامي ! » جسمي كله ابتسم لدى سماع هذه الكلمات ••• » •

هنا قطع الانفعال قصة كاتري • فتنفست ، حتى اذا همّت أن تتابع حديثها التقت نظرتها الملتمعة بنظرة أوردينوف المشتعلة تحدّق اليها، فارتعشت ، وأرادت أن تقول شيئا ما ، ولكن الدم صعد الى وجهها • خبأت وجهها في يديها ، ودفنته في المخدات • كان أوردينوف مضطربا اعمق الاضطراب • ان انفعالا اليما لا يحدد ولا يطاق ، كان يسري في جميع أنسجة جسمه سريان السم ، ويكبر ويعظم عند كل كلمة جديدة من قصة كاترين • ان رغبة لا يشفعها أمل ، وهدى جامحا شرها ، كانا يملكان عليه كل أفكاره ويبثان الاضطراب في عواطفه ، وان حزنا عميقا لا نهاية له كان في الوقت نفسه يجثم على صدره بمزيد من الثقل شيئا بعد شيء • كان يريد في بعض اللحظات أن يصرخ مناشدا كاترين أن تصمت ، كان يريد أن يرتمي على قدميها ، ضارعا اليها والدموع في عينيه ، أن تعيد اليه آلامها السابقة وعاطفتها الصافية القديمة • كان يشعر بالشفقة على دموعها التي جفت منذ مدة طويلة • كان قلبه يتألم ويتعذب• لم يفهم كل ما قالته كاترين ؟ كان حبه يخاف من العاطفة التي تهز المرأة الشقية • لعن في تلك اللحظة هواه • ان هذا الهوى يخنقه خنقا ، وهو يشعر بما يشبه الرصاص يجري في شراينه بدلا من الدم •

استأنفت كاترين كلامها تقول فجأة وقد رفعت رأسها :

ـ آه ••• ليس شقائي فيما قصصته عليك حتى الآن • ليس هـــذا عذابي • لا يضيرني ان تلعنني أمي في ساعتها الاخـيرة ! انني لا آسف على حياتي الذهبية السالفة ! ولا يضيرني ان أكون قد بعت نفسي للاثم وان احمل الخطيئة الابدية من أجل لحظة سعادة ! لا •• ليس شقائي في هذا ، ليس عذابي في هذا ! ••• لا ••• وانما الذي يؤلمني ويمزق قلبي تمزيقا هو أن أكون له عبدة ملوثة ، أن يكون عاري عزيزا في نفسي ، أن يجد قلبي لـــذة ومتعة في تذكر ألمه كما لو كان هذا الالم فرحا وسعادة • ذلك هو شقائي : أن لا استطيع ان أغضب وأن أحقد للاساءة التي نالتني ، والاذى الذي الحق بي ! •••

كانت أنفاس حـــرّى لاهثة تحـــرق شفتيها • كان صـــدرها يهبط هبوطا عميقا ويعلو علواً كبيرا ، وكانت عيناها تسطعان بحنق مسعور ••• ولكن فتنة رائعة كانت تنتشر على وجهها في تلك اللحظة ، فتكتسب كل قسمة من قسماتها جمالا يبلغ من القوة أن جميع الأفكار السود المظلمـة التي غزت أوردينوف أخذت تتبدد بما يشبه السحر • ان قلبه يرنو الى ضمّ قلبها ، انه يصبو الى أن ينسى نفسه معها في عناق مجنون جامح حتى ليموتا معا • التقت عينا كاترين بنظرة أوردينوف المضطربة ، فابتسمت له ابتسامة أجـرت في قلبه تيـارين من نار يحرقانه ، وهو لا يكاد يدرك ذلك • همس يقول لها حابسا صوته المرتجف :

ـ ارحميني ••• رفقا بي ! •••

مالت كاترين عليه متكئة بإحدى ذراعيها على كتفه ، ونظـــرت اليه من قرب حتى اختلطت أنفاسهما •

ـ لقد ضيعتني ! لست أعرف ألمك ، عصفت بقلبي ••• ماذا يهمني

أن أعرف أن قلبك يبكي ؟ قولى لى ما الذى ترغبين فيه ، فأفعله . تعالى معي . هيا بنا . لا تقتليني ! لا تودى بحياتي ؟ ...

نظرت اليه كاترين ساكنة لا تتحــــرك ، وقد جفت الدموع على وجنتيها المحترقتين . ارادت ان تقاطعه ، ان تمسك بيده ، أن تقول له شيئا ، ولكن الكلمات لم تسعفها .

وهذه ابتسامة غريبة تظهر بطيئة على شفتيها ، ثم هذه ضحكة تخرج من الابتسامة .

وتابعت أخيرا تقول :

ـ لم اقص عليك كل شيء ... ساحكى لك أمورا أخرى . ولكن هل تراك تصغى الى كلامي ؟ اصغ الى حديث اختك ... اريد ان اروى لك كيف عشت سنة معه .. لا .. لن افعل هذا .. « انقضت سنه ... سافر مع رفاقه فى النهـــر . وبقيت انا مع أمه أنتظر . انتظرته شهرا ، فشهرا اخر . وفى ذات يوم ، التقيت بتاجر شاب .. نظرت الى التاجر الشاب .. فتذكرت السنين الخوالى ... قال لى التاجر الشاب بعد كلمتين من حديث معي : « صديقتي الغالية ... أنا ألكسى ، خطيبك السابق . لقد خطب أهلونا أحدنا للآخر منذ كنا طفلين . هل نسيتيني ؟ تذكرى.. أنا من قريتك ! » . قلت : « ماذا يقولون عنى هناك ؟ » . أجاب ألكسى ضاحكا : « يقول الناس انك نسيت خفر العذارى ، وتعلقت بلص من قطاع الطرق . » . قلت : « وأنت ماذا كان رأيك فيّ ؟ » . قال : « هنـاك أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها (اضطرب قلبه) ... كنت أريد أن أقول أشياء كثيرة ... أما وأنني رأيتك الآن ، فقد ضعت . خذى روحى يا جميلتى ، دوسى قلبى ، اهزئى بحبى . أنا الآن يتيم . وأنا سيد نفسى. نفسى ملكى لم أبعها لأحد ... » . أخذت أضحك . وكلمنى مرات

أخرى أيضا • وبقي في القرية شهرا بكامله ••• ترك تجارته ، صرف عماله ، وبقي وحــده • اشفقت على دموعه ، دموع اليتيم • قلت له : « الكسي ، انتظرني عند الجسر متى هبط الليل • سنذهب الى منزلك • سئمت الحياة هنا • » • جاء المساء ، وأعددت حقيبتي ••• وحانت مني التفاتة ، فاذا انا ارى مولاي راجعا على حين فجاة • قال : « يومك سعيد• هيا بنا • ستهب العاصفة • يجب أن لا نضيع الوقت • » • تبعته • وصلنا الى ضفة النهر • نظرنا • راينا هنالك زورقا وربانا ••• لكانه كان ينتظر احدا •• « يومك سعيد يا الكسي • أعطاك الله العافية ! ماذا ؟ هل تأخرت في المرفأ ؟ ••• انك ستسارع للحاق بالسفن ••• فخذنا معك ، أنا وزوجتي ••• لقد تركت قاربي هنــاك ، ولا أستطيع أن أذهب اليـه سباحة ! » • قال ألكسي : « اجلس » • شعرت بألم يجتاح نفسي كلهـا حين سمعت صوته • « اجلس انت وزوجتك • الريح مواتية لنا جميعا ، وفي منزلي مكان لكما • » • جلســنا • أظلم الليل • اختفت النجـوم ، وهبت الريح ، وأخذت الامواج تعلو • كنا قد ابتعدنا عن الشاطيء مسافة فرسخ • لزمنا الصمت نحن الثلاثة • قال مولاي : « يا لها من عاصفة ! ان العاصفة تنذر بشر • ما رأيت في حياتي عاصفةً كهذه العاصفة على هذا النهر ! زورقنا مثقــل ••• لن يستطيع أن يقلنا نحن الثـلاثة ! » • قال ألكسي : « نعم ، لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ••• واحد منا زائد اذن عن طاقة الزورق • » • كان صوته يرتجف ارتجاف حبل • « اسمع يا ألكسي ، لقد عرفتك طفلا صغيرا جدا ، وكنت لأبيك كالاخ • قل لي يا ألكسي : هل تستطيع أن تصل الى الشاطيء سباحة ، أم تراك تهلك اذا حاولت ذلك ؟ » • قال ألـكسي : « لا ••• لن أستطيع الوصـــول الى الشاطيء ، وسأهلك في النهر • » • « اسمعي أنت يا كاترين ، يا لؤلؤتي التي لا تقدر بثمن • انني أتذكر ليلةً كهذه الليلة ، مع فرق واحد هــو

أن الأمواج لم تكن تعلو كما تعلو الآن ، وكانت النجوم تتلألأ في السماء ، وكان القمر يرسل أشعة في الفضاء ... أريد أن أسألك هل نسيت تلك الليلة ؟ » . قلت : « بل أذكرها . » . قال : « اذا كنت لم تنسيها ، فأنت لم تنسى اذن الوعد المقطوع أيضا ... لم تنسى كيف علم الفتى الشجاع حبيبته الجميلة ، الطريقة التي يجب أن تعمد اليها من أجل أن تسترد حريتها ... هه ؟ » . قلت : « لا ... لم أنس ذلك أيضا ؟ » . قال : « لم تنسى ذلك ؟ اذن ... فانظرى الآن ... المركب مثقل بنا . وقد حان أجل واحدٍ منا . تكلمي يا حمامتي . قولى لى كلمتك الحلوة ... » .

همست كاترين تقول لأوردينوف :

ـ ولم أقلها ...

ولم تكمل كلامها ، فهذا هو صوت أصم يدوّى مناديا على حين فجأة :

ـ كاترين !

ارتعش أوردينوف . كان مورين واقفا عند الباب ، لا يكاد يرتدى شيئا غيرَ غطاء من فراء ألقاه على جسمه ، وكان شاحب الوجه كميت . انه يحدق اليهما بعين تشبه أن تكون مجنونة . أخذت كاترين تنظر اليه وهى تزداد شحوبا وكأنها منوَّمة :

قال الشيخ بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ كاترين ، تعالى الىّ .

وخرج من الغرفة .

ظلت كاترين ساكنة ، تنظر في الفضاء كما لو كان الشيخ ما يزال

ماثلا أمامها • ولكن الدم لم يلبث أن تدفق في وجهها فجأة ، فجعل خديها الشاحبين حمراوين بلون الارجوان • تذكر أوردينوف لقاءهم الأول •

قالت وهي تبتسم :

ـ اذن الى الغد يا دموعي • الى الغد • تذكر الى أين وصلنا من القصة ••• « اختارى أحد اثنين يا جميلتى : من الذى تحبينه ومن الذى لا تحبينه • » • لا تنس أن تتذكر أننا وصلنا من القصة الى هنا •

ثم أضافت تقول وهي تضع يديها على كتفى أوردينوف وتنظر اليه فى حنان :

ـ سوف تنتظر ليلة كاملة •

تمتم أوردينوف يقول وهو يرتعد خوفا عليها :

ـ كاترين ، لا تذهبى اليه ، لا تضيعى نفسك • انه مجنون •

وناداها الصوت من وراء الحاجز :

ـ كاترين !

قالت كاترين لأوردينوف تسأله ضاحكة :

ـ ماذا ؟ أتحسب أنه سيقتلني ؟ نعمت مساءً يا قلبى ، يا طائرى ، يا أخى •

قالت ذلك وهى تسند رأسها على صدره ، بينما أخذت دموع تطفر من عينيها فجأة •

أضافت تقول :

ـ هذه آخر الدموع • ثم يا عزيزى • ستستيقظ غدا للفرح •

وقبلته قبلة محمومة •

ركع أوردينوف أمامها محاولا أن يثنيها عن الذهاب اليه ، قائلا :

ـ كاترين ، كاترين ، كاترين !

استدارت كاترين وهى تحييه بحركة من رأسها وتبتسم له ، ثم خرجت من الغرفة •

سمعها أوردينوف تدخل على مورين • حبس أنفاسه وأنصت ، ولكن لم يصل الى سمعه شيء •

كان العجوز صامتا ، أو لعله قد أغمى عليه من جديد •••

أراد أوردينوف أن يذهب اليها ، ولكن ساقيه كانتا تترنحان ••• أحس بوهن شديد ، فجلس على السرير •

٢

حين استيقظ ، لبث برهة طويلة لا يدرك فى أية ساعة هو من الليل أو النهار ! أهذا هو الفجر أم هو الشفق ؟ ما تزال غرفته ظلماء . لم يستطع أن يحدِّد المدة التى قضاها نائما ، ولكنه يحس أن نومه كان نومَ مريض . مسح وجهه بيده ، كأنما ليطرد الاحلام ورؤى الليل . ولكنه حين أراد أن يضع قدمه على أرض الغرفة أحس أن جسمه كله كان محطما تحطيما . ان أعضاءه المتعبة ترفض أن تطاوعه ، وان فى رأسه صداعا ، وان كل شيء من حوله يدور . جسمه يرتعد من البرد تارة ، ويحترق تارة أخرى . ثم عاد اليه وعيه ، وعادت اليه ذاكرته ، فاختلج قلبه حين عاش بخياله تلك الليلة كلها مرة أخرى . بلغ قلبه من شدة الخفقان حين تذكر تلك الليلة ، وبلغت احساساته من القوة والجدة والنضارة والطراوة أنه خيِّل اليه أن كاترين لم تتركه منذ ساعات طويلة، بل منذ دقيقة واحدة . لمَّا تجف عيناه بعد ، أو لعل هذه الدموع جديدة تتدفق من ينبوع فى روحه الحارة ! والشيء الغريب أن آلامه كانت عذبة

فى نفسه ، رغم شعوره بأنه ما كان لكيانه كله أن يحتمل صدمة كهذه الصدمة . وفى لحظة من اللحظات اعتراه ما يشبه الشعور بالموت ، فكان مستعدا لأن يستقبله استقبال زائر حبيب . كانت أعصابه تبلغ من شدة التوتر ، وكان هواه يبلغ من قوة الغليان والاندفاع ، وكانت روحه تبلغ من فرط الحماسة أن الحياة وقد أهاجها هذا التوتر تبدو كأنها توشك أن تنفجر فتفنى فى لحظة وتزول الى الأبد .

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، ترجّع ذلك الصوت المعروف ، جوابا على قلقه ، جوابا على ارتعاش قلبه ، ترجّع ترجُّع تلك الموسيقى الداخلية التى تغنى فى نفس كل انسان فى ساعات فرحه وسعادته . انه صوت كاترين الرزين ، الرنان كالفضة ، فعلى مقربة منه ، عند موضع رأسه تقريبا ، بدأ ذلك الصوت ينشد أغنية رخيمة حزينة فى أول الامر .. يعلو تارة ، ثم ينخفض وينطفىء تارة أخرى ، ثم يرتعش بهوى عارم ويمتد بحرا من حماسة وسيلا من أنغام قوية لا نهائية ، كالدقائق الأولى من سعادة الحب . ان أوردينوف يميز كلمات الاغنية أيضا : هى كلمات بسيطة ، رقيقة ، حنون ، قديمة ، تعبر عن عاطفة ساذجة بريئة هادئة صافية مضيئة . ولكن أوردينوف كان يغفل عن الكلمات ، فلا يسمع الا الانغام . ثم هو يسمع من خلال الكلمات الساذجة التى يصدح بها الغناء كلمات أخرى ، كلمات يغلى فيها كل ما يضمه قلبه من صبوة ، وكل ما ترنو اليه روحه من شوق وتوق ، كلمات تلبى هواه ، فهى تارة آخر أنة من أنات قلب أضناه الحب ، وهى تارة فرحة الحرية ، فرحة الروح التى حطمت أغلالها وطارت وضاءة حرة طليقة فى الخضم اللانهائى ، خضم الحب ، هى تارة أولى العهود تقطعها الحبيبة على نفسها ، مع صلواتها ودموعها وهمسها السرى الخجول ، وهى تارة شهوة امرأة سكرى خلعت

العذار مبكرةً فرحةً بقوتها ، فلا حجب ولا سرٌ ، تتبختر أمام عينه النشوى •••

نهض اوردينوف عن سريره دون أن ينتظر ختام الأغنية • فسرعان ما توقف الصوت عن الغناء وناداه قائلا :

ـ نعمت صباحا يا حبيبي • انهض • تعال الينا • استيقظ للفرح الوضاء • نحن ننتظرك ، أنا ومولاي • نحن أناس فضلاء ••• وقد خضعنا لمشيئتك • اطفىء الكره بالحب ••• قل كلمة عذبة حلوة ! •••

خرج اوردينوف من الغرفة مستجيبا للنداء ، ومضى يذهب الى جيرانه كأنما على غير شعور • انفتح الباب أمامه ، وسطعت ابتسامة صاحبة البيت الجميلة نيّرةً كالشمس • لم ير في تلك اللحظة ولا سمع الا كاترين • ان حياته كلها وفرحته كلها قد انصهرت في قلبه على الفور صورةً وضاءةً هي صورة كاترين •

قالت وهي تصافحه :

ـ فجران انقضيا على لقائنا • الفجر الثاني ينطفىء الآن • أنظر من النافذة •••

ثم أضافت ، مبتسمة :

ـ فجران كفجري الحب عند فتاة : الأول يصبغ خديها بحمرة الخجل ، حين يأخذ قلبهما يخفق وحيدا ، والثاني يحرقها كاللهب ، بعد أن تنسى خجلها الأول ، فهو يُنهد صدرها ويُصعد الى وجنتيها دما قانيا• مالك تتلبث على عتبة الباب ؟ أهلا بك وسهلا • مولاي يحييك •••

قالت ذلك وضحكت ضحكة رنانة كموسيقى ، ثم تناولت يد أوردينوف وأدخلته الغرفة • استولى الخجل على قلبه • ان اللهب الذي كان يحرق صدره منذ قليل يبدو كأنه ينطفىء الآن • خفض عينيه محتارا •• كان يخاف أن ينظر اليها • لم ير كاترين قبل الآن على مثل هذه

الحال . ان الضحك والمرح يضيئان وجهها لأول مرة ، وقد جففّا الدموع الحزينة على أهدابها السود . يدها ترتجف في يده . ولو رفع بصره لراى كاترين تحدّق بعينيها المشرقتين الى وجهه الذى جهّمه الاضطراب والهوى ، مبتسمة ابتسامة الظفر .

وقالت أخيرا :

ـ هلاّ نهضت أيها الشيخ ! هلا قلت لضيفنا كلمة ترحيب ؟ ... الضيف كالاخ ... فانهض أيها الشيخ المتكبر .. سلّم على الضيف .. تناول يده البيضاء وأجلسه الى المائدة !

رفع أوردينوف عينيه . لكانه يشعر لأول مرة بوجود مورين. كانت عينا الشيخ تحدقان اليه وكان الخوف من الموت قد أطفاهما . انقبض صدر أوردينوف حين تذكر هذه النظرة ، التى سبق أن رآها تلتمع كالتماعها الآن تحت الحاجبين الطويلين المقطبين اهتياجا وغضبا . شعر ببعض دوار .. نظر حوله ، فأدرك عندئذ فقط كل شيء . ان مورين ما يزال راقدا فى سريره . وهو مرتد ثيابه كلها تقريبا ، كأنه كان قد نهض وخرج فى الصباح . عنقه محاطة بوشاح أحمر هو الوشاح الذى كان على عنقه قبل ذلك . وفى قدميه بابوجان . واضح أن ألمه كان قد زال ، ولكن وجهه لا يزال رهيب الشحوب والصفرة . جلست كاترين قرب السرير مسندةً ذراعها الى المائدة ، تنظر الى الرجلين صامتة . الابتسامة لم تفارق شفتيها. وكان كل شيء كأنما تمّ بأمرها .

قال مورين وهو ينهض جالسا على السرير :

ـ نعم ... هو أنت ... نزيل بيتى ... أنا آثم فى حقك أيها السيد ... لقد أسأت اليك مؤخرا حين عبثت بالبندقية ... ولكن من ذا الذى كان يعلم أنك تصاب أنت أيضا بنوبات صرعة ... هذا يحدث

لى أنا ••• (كذلك أضاف يقول بصوت أجش ، مرضى ، وهو يقطب حاجبيه ويشيح ببصره) • الشقاء ينزل على الانسان دون أن يطرق الباب مستأذنا بالدخول ، انه يتسلل تسلل اللصوص • ولقد أوشكت أن أغمد سكينا فى صدرها هى (قال ذلك وهو يومىء الى كاترين) • أنا مريض، وكثيرا ما تعترينى النوبة • اجلس • أهلا بك !

كان أوردنيوف ما يزال يحدق اليه ويتفرس فيه • صاح الشيخ نافد الصبر :

ـ لماذا لا تجلس ؟ اجلس ••• ما دام هذا يناسبها هى • لكأنما من سروركما عشيقان •••

جلس أوردنيوف •

تابع الشيخ يقول ضاحكا كاشفا عن صفين من أسنان بيضاء سليمة

ـ أرأيت الى هذه الاخت التى لك ! ••• امرحا يا صديقى •• قل لى أيها السيد : هل أختك هذه جميلة ؟ قل ••• أجب ••• انظـــر الى تلألؤ وجنتيها • لماذا لا تنظر ؟ أعجب بالحلوة الجميلة ••• أظهـــر أن قلبك يتألم •••

قطب أوردينوف حاجبيه ، ونظر الى الشيخ حانقا • فارتعش الشيخ لهذه النظرة • ان غيظا أعمى يغلى فى صـــدر أوردينوف • ان غريزة صادقة كغريزة الحيوانات تجعله يحزر أنه أمام عدو رهيب • لكنه مع ذلك لا يدرك ما الذى يجرى فى نفســه • لم يسعفه عقله •

قال صوت وراء أوردينوف :

ـ لا تنظر •

التفت أوردينوف • قالت كاترين ضاحكة :

ـ لا تنظر • قلت لك لاتنظر • اذا كان الشيطان هو الذي يحرضك، فارحم حبيبتك !

وفجأة تسمرت وراءه ، وعصبت عينيه بيديها • ولكنها لم تلبث أن سحبتهما ، وغطت بهما وجهها • ان حمرة خديها تظهر من خلال أصابعها• نزعت يديها وحاولت، وقد احمرت احمرارا شديدا ، أن تواجه ابتساماتهما ونظراتهما المستطلعة مواجهـــة جريئة بغير تحرج • ولكن الرجلين ظلا ساكتين يرنوان اليها : فأما أوردينوف فهو يرنو اليها بدهشـــة الحب كأن هذا الجمال الرهيب ينفذ الى قلبه لأول مرة ، وأما الشـــيخ فيرنو اليهـا بانتباه وبرود ، لا يعبّر وجهه الشاحب عن شيء ، وانما تختلج شـــفتاه المزرقّتان اختلاجا خفيفا •

اقتربت كاترين من المائدة وقد كفت عن الضحك • وأخذت تنضد الكتب والأوراق والمحبرة وكل ما كان على المائدة ، ثم تحملها جميعا الى المنضدة الصـــغيرة عند النافذة • لقد أصبحت أنفاسها سريعة متقطعة ، وأصبحت فى بعض اللحظات تستنشق الهواء عميقا ، كأن قلبها يختنق • ان صدرها يعلو ويهبط بطيئا كموجة • وخفضت عينيها وتلألأت أهدابها السود فوق خديها كابر دقيقة •

تمتم الشيخ :

ـ ملكة !

ودمدم أوردينوف وهو يرتجف من رأسه الى قدميه :

ـ حبيبتي !

ولكنه ثاب الى رشده اذ أحسّ بنظرة الشيخ تنصب عليه • لقـد

سطعت هذه النظرة خلال ثانية سـطوعَ برق : شرهةً خبيثةً باردةً مزدرية • أراد اوردينوف ان ينصرف ، ولكنه أحس انه مسمر في مكانه بقوة لا تُرى • جلس من جديد • انه يشد في بعض اللحظات على يديه ، ليتأكد من انه في يقظة ، لانه يحس ان كابوسا يجثم على صدره ويخنقه ، وانه ألعوبة في يد حلم أليم مرضي • ولكن الأمر الغريب انه كان لا يريد أن يستيقظ من هذا الحلم •

نزعت كاترين عنالمائدة غطاءها العتيق، ثم فتحت صندوقا ، فأخرجت منه مفرشا مطرزا بالحرير والذهب ، فغطت به المائدة • ثم تناولت من الخزانة آنية فضية لحفظ الخمور ، كانت لجد جدها ، فوضعتها في وسط المائدة ، ثم أعدت ثلاثة أقداح من الفضة ، واحدٍ للضيف ، وواحد لرب البيت ، وواحد لها • وبعد ذلك نظرت الى الشيخ والى أوردينوف مفكرة ساهمة • قالت :

ـ من منا يحب من ؟ اذا كان واحد منا لا يحب آخر ، فهذا الآخر أنا أحبه وسيشرب قدحه معي • انني أحبكما كليكما ، حبَّ القريب للقريب • فلنشرب معا للحب والسلام !

قال الشيخ بصوت أشوه :

ـ فلنشرب ، ولنغرق في الخمرة أفكارنا القاتمة • صبي ياكاترين !

سألت كاترين وهي تنظر الى أوردينوف :

ـ وأنت ، هل تريد أن أصب لك ؟

فقدم أوردينوف قدحه دون أن ينطق بكلمة •

قال الشيخ وهو يرفع قدحه :

ـ انتظري ••• اذا كان لأحدٍ رغبة ما ، فلنحقق هذه الرغبة !

تلاطمت الكئوس وشرب الثلاثة .

قالت كاترين متجهة بكلامها الى رب البيت :

ـ والآن فلنشرب نحن الاثنين . فلنشرب اذا كان فى قلبك حنان علىّ وحب لى . لنشرب تحيةً للسعادة التى عشناها ... تحيةً للسنين الماضيات ، تحيةً للهناء والحب ! مرنى اذن أن أصب لك اذا كان قلبك يحترق هياما بى !

قال الشيخ ضاحكا وهو يمد قدحه من جديد :

ـ خمرك قوى يا جميلتى ، ولكنك لا تزيدين على أن تبلى به شفتيك بلاً .

ـ سأشرب قليلا ، أما أنت فأفرغ قدحك حتى الثمالة . لماذا تعيش مع أفكار حزينة يا شيخى ؟ ذلك لا يزيد على أن يعذب قلبك ! الافكار تنشأ من الألم ، والألم ينادى الافكار ، فاذا كان الانسان سعيدا لم يفكر قط ! اشرب اشرب أيها الشيخ ، أغرق أفكارك فى الخمر .

ـ حزنك عظيم يا حمامتى البيضاء ، وأنت تريدين أن تتخلصى منه دفعة واحدة . اننى أشرب معك يا كاترين . وأنت ، أيها السيد ، أتأذن أن أسألك هل فى قلبك حزن ؟

تمتم أوردينوف يقول دون أن يحول بصره عن كاترين :

ـ نعم ، ولكننى أخفيه فى اعماق نفسى .

قالت كاترين :

ـ هل سمعت أيها الشيخ ؟ لقد ظللت زمنا طويلا لا أعرف نفسى ،

ولكنني عرفت بعدئذ كل شيء ، تذكرت كل شيء ، عشت الماضي كله من جديد .

قال الشيخ مفكرا :

ـ نعم ، انه لشيء حزين أن يتذكر المرء الماضي ، ما مضى فهو كالخمر الذي شُرب ... ما نفع السعادة الماضية ... متى بلى الثوب وجب أن يُرمى ...

قالت كاترين ضاحكةً بينما تدلت على أهدابها عبرتان كبيرتان تشبهان الماس :

ـ لا بد عندئذ من ثوب جديد . هل فهمت أيها الشيخ ... أنظر لقد دفنت في كأسك دموعي .

قال أوردينوف متهدج الصوت من الانفعال :

ـ وسعادتُك ، هل اشتريتها بحزن كثير ؟

قال الشيخ :

ـ لعل عندك ، أيها السيد ، سعادةً كثيرة تريد أن تبيعها ! ما هذا الذي تتدخل فيه ؟

قال الشيخ ذلك وانفجر يضحك ضحكاً خبيثاً على حين فجأة ، وينظر الى أوردينوف غاضبا .

قالت كاترين :

ـ اشتريتها بما اشتريتها به ... فبعضهم يرى الثمن باهظا وبعضهم يراه بخسا ... واحد يريد أن يبيع كل شيء وأن لا يخسر شيئا ، وآخر لا يعد بشيء ، ولكن القلب المطواع يتبعه ... وأنت دعك أنت من الملامات

(أضافت ذلك متجهة الى أوردينوف بنظرة حزينة) . صُبّ في كأسك خمرا أيها الشيخ . واشرب تحيةً لسعادة ابنتك ، لسعادة عبدتك الرقيقة العذبة الطيّعة ، كما كانت حين عرفتك أول مرة ... ارفع كأسك !

قال الشيخ وهو يتناول الخمر :

ـ لك ما تشائين ! واملئي كأسك اذن .

ـ انتظر أيها الشيخ ، لا تشرب بعد ، دعني أقول لك شيئا قبل أن تشرب ...

كانت كاترين مسندةً ذراعيها الى المائدة ، تحدق الى الشيخ بعينين محمومتين . ان عزيمةً غريبة تسطع في نظرتها . حركاتها جميعا هادئة ، اشاراتها متقطعة ، سريعة ، غير متوقعة . انها كمن يحترق بنار . ولكن جمالها يعظم بالانفعال والانتعاش . وشفتاها المنفرجتان تكشفان عن صفين من أسنان بيضاء كاللآلى . وطرف ضفيرتها المفتولة حول رأسها ثلاث مرات متهدل على أذنها اليسرى باهمال . وعرق قليل يخضّل صدغيها .

ـ اقرأ هنا يا صديقى ، اقرأ في راحة يدى قبل أن يظلم فكرك . اليك يدى البيضاء فاقرأ فى راحتها . ما أخطأ الرجال فى بلدنا حين سموك ساحرا . أنظر فى يدى ايها الشيخ وحدثنى عن حظى الحزين . ولكن حذار أن تكذب ! قل : هل ستكون ابنتك سعيدة ؟ أم تراك سوف لا تغفر لها ، وسوف تدعو عليها بسوء الطالع ؟ هل سيكون لى ركن دافىء أعيش فيه سعيدة ، أم سأظل حياتى كلها كالطائر المهاجر أبحث لى عن مكان بين الناس الاخيار ؟ قل لى من هو عدوى ، ومن الذى يحبنى ، ومن يهيىء لى الضر ؟ ... قل لى هل سيظل قلبى الفتى الحار يحيا وحيدا ، أم أنه سجيد القلب الذى يخفق معه للفرح ... الى أن يحل شقاء

جديد ؟ ••• قل لى : في أية سماء زرقاء ، وراء اى بحر ، وسـط اية غابة ، يقيم صقرى ؟ أهو ينتظرنى مشتاقاً نافد الصبر ، أهو يحبنى كثيرا ، ام تراه سيكف عن حبى قريبا ؟ ••• هل سيخدعنى ويخوننى أم لا ؟ وقل في الوقت نفسه ، قل لى آخر مرة أيها الشيخ ، هل سنبقى معا مدة طويلة فى مسكننا البائس هذا نقرأ كتبا شيطانية ؟ ••• قل لى هل ستحين اللحظة التى أودعك فيها شاكرةً لك انك أطعمتنى وحكيت لك قصصا •• ولكن حذار ثم حذار ••• قل الحقيقـــة كلها ، ولا تكذب ! لقد آن الآوان •

كانت حميّاها تزداد على قدر امعانها فى الكلام ، ولكن الاهتياج لم يلبث أن حطم صوتها ، كأن زوبعة عصفت بقلبها • عيناها تسطعان، وشفتها العليا تختلج قليلا • مالت على الشيخ من فوق المائدة ، وأخذت تحـــدّق الى عينيه المضطربتين بانتباه نهم •

سمع أوردينوف دقات قلبها حين توقفت عن الكلام•••أطلق صرخة حماسة وهو ينظر اليها ، وأراد أن ينهض عن المقعد • ولكن النظـــرة السريعة العابرة التى ألقاها عليه الشيخ سمّرته فى مكانه من جديد • ان مزيجا غريبا من الاحتقار والسخرية والقلق والبرم ، ومن الاســتطلاع الخبيث الشرير الماكر فى الوقت نفســـه ، كان يسـطع فى تلك النظرة الخاطفة السريعة التى كانت تُرعش أوردينوف فى كل مرة ، وفى كل مرة كانت تملأ قلبه غيظا وغضبا عاجزا •

كان الشيخ ينظر الى كاترين مفكرا مستطلعا محزونا • انه مصعوق القلب ، ولكن ما من عضلة فى وجهه تختلج • فلما أنهت كلامها لم يزد على أن ابتسم • ثم قال :

ــ تريدين أن تعرفى أشياء كثيرة مرةً واحدة ، يا طائرى الصغير

الذى لم يكد يخرج من العش ! صبى لى اذن بمزيد من السرعة فى هذا الكأس العميق • ولنشرب أولا تحيةً للسلام ••• والا فان عينا سوداء معتكرة ستفسد علينا أمنياتنا ••• ان الشيطان قوى قدير ! •••

رفع الشيخ كأسه وشرب • فكلما أمعن فى الشراب أمعن وجهه فى الشحوب والاصفرار • عيناه حمراوان كالجمر • ان بريقهما المحموم ، وان ازرقاق وجهه ينذران بأن نوبةً جديدة توشك أن تعتريه •

وكان الخمر قويا ، فكل كأس جديدة يشربها أوردينوف ، كانت تزيد عينيه زيغانا • ان دمه المحموم المشتعل لا يطيق احتمال مزيد من الخمر • كان عقله يضطرب ، وكان قلقه يشتد •

صبَّ أوردينوف لنفسه خمرا وجرع جرعة ، لا يعلم ماذا يفعل ولا يدرى كيف يهدىء هياجه المتزايد • ان دمه يجرى فى شرايينه بمزيد من السرعة أيضا • كان كمن يهذى ، فهو لا يكاد يستطيع أن يدرى مايجرى حوله رغم شدة اهتمامه به وانتباهه اليه •

قرع الشيخ كأسه بالمائدة فى صخب ، وهتف يقول :

ـ صبى يا كاترين ، صبى أيضا أيتها البنت الشريرة ! املئى الكأس الى آخره • نوِّمى الشيخ حتى الموت ! صبى أيضا صبى يا جميلتى •• وأنت لماذا لم تشرب الا قليلا جدا ؟ ••• أتحسب أننى لم ألاحظ ذلك ؟

أجابته كاترين بكلام لم يسمعه أوردينوف ••• لم يدع لها الشيخ أن تكمل كلامها • أمسك يدها ، كأنه أصبح لا يقوى على أن يحبس فى صدره كل ما كان يثقل صدره • ان وجهه شاحب ، وان عينيه تظلمان تارة ، وتسطعان ببريق قوى تارة ، وان شفتيه الصفراوين تختلجان • قال بصوتٍ يسمع المرء فيه فرحا غريبا فى بعض اللحظات :

ـ هاتي يا جميلتي ، هاتي • سأقول لك الحقيقة كلها • أنا ساحر يا كاترين • ما أخطأ ظنك : قلبك الذهبي ألهمك الحقيقة • غير أن هناك أمرا لم تفهميه : هو أنني ، أنا الساحر ، لست بمن يعلمك العقل • ان رأسك ثعبان ماكر ، رغم أن قلبك مليء بالدموع • سوف تهتدين الى طريقك بنفسك ، سوف تتسللين بين الشقاء • فأحيانا تتغلبين بالعقل ، فاذا لم يكف العقل ، بهرت بالجمال • تثيرين الفكر ، تحطمين القوة ، فاذا القلب ينشق ولو كان من برونز ••• وتسألين : هل ستنزل بك مصائب• هل سيلم بك شقاء وعذاب ؟ ان العذاب الانساني أليم ، ولكن الشقاء لايلم بالقلب الضعيف • وشقاؤك يا جميلتي سيكون مثله كمثله خط على رمل: فسرعان ما تغسله الامطار ، وتجففه الشمس ، وتمحوه الريح ! انتظرى •• سأقول لك مزيدا من القول • أنا ساحر • من ستحبينه ، ستكونين له عبدة • أنت نفسك سترهنين حريتك ثم لا تستردينها ••• ولكنك لن تسطيعي أن تكفي عن الحب لحظة يحين الأوان • سوف تبذرين بذرة ، فيجني الذي أغواك السبيل كله ••• يا طفلي الحلو ، يا رأسي الذهبي ، لقد خبأت في كأسي عبرة من عبراتك تشبه لؤلؤة ، ولكنك أسفت عليها ! ثم سكبت مائة عبرة ! ولكن ما ينبغي لك أن تأسفي على هذه العبرة ، على هذا الندى السماوي • لأنها ستعود اليك ، ثقيلة مزيدا من الثقل ، تلك العبرة التي تشبه لؤلؤة ، ستعود اليك في ليلة غير ذات نهاية ، ليلة عذاب مر ، حين توافيك فكرة عكرة فتأخذ تأكلك أكلاً • وعند ذاك ، من أجل تلك العبرة ، ستسقط على قلبك المحترق ، عبرة شخص آخر ، عبرة من دم ، حارة حرارة رصاص منصهر • سوف تحرق هذه العبرة تحرك الأبيض حتى تصل منه الى الدم ، والى أن يطلع نهار كالح حزين قاتم جهم ، ستظلين تتقلبين على فراشك تاركةً لدمك القاني أن يسيل ، ولن تبرئي من جرحك النازف الى الفجر التالي • صبي يا كاترين ، صبي

أيضا يا حمامتي ، اسقيني جزاء ما أسديت اليك من نصائح ••• وما انت في حاجة الى معرفة المزيد ••• ولا خير في تبدير الكلام سدى بغير طائل •••

كان صوته يضعف ويرتجف • وكان نشيج يهم أن يخرج من صدره • صب خمرا ، وأفرغ في جوفه كاسا اخر شربه بشراهة • وقرع المائدة بالكأس مرة أخرى • وعادت نظرته المضطربة تسطع من جديد • هتف يقول :

ـ عيشي كما تريدين ان تعيشي ! ما مضى فقد مضى • صبي أيضا •• صبي حتى يسقط رأسي ، حتى تفنى روحي كلها ••• صبي حتى أنام ليالي طويلة ، وحتى افقد الذاكرة فقدانا تاما •• صبي صبي ايضا يا كاترين !

ولكن يده التي تمسك الكأس تبدو كأنها مخدرة ، فهي لا تتحرك • كان يتنفس تنفسا ثقيلا ، كان يتنفس بمشقة • مال رأسه ••• ومرة اخيرة القى على اوردينوف نظرة كابية • وحتى هذه النظرة لم تلبث ان انطفأت • وسقط حاجباه أخيرا ثقيلين كالرصاص • وشاعت في وجهه صفرة كصفرة الموتى • واختلجت شفتاه بضع لحظات أيضا ، وارتجفتا كأنه يبذل جهدا من أجل أن يقول شيئاً • وفجأة رئيت دمعة كبيرة تتعلق بأهدابه ثم تسقط وتسيل بطيئة على خده الشاحب •••

لم يطق أوردينوف صبرا • فنهض ، وسار نحو كاترين مترنح الخطى • تناول يدها • ولكنها لم تنظر اليه ••• حتى لكأنها لا تراه ولا تعرف من هو •••

كانت هي أيضا كمن فقد وعيه ، وكان يبدو أن فكرة واحدة

تشغلها ، فكرة واحدة • ارتمت على صدر الشيخ الوسنان ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، وثبتت فيه نظرتها المشتعلة حتى لكأنهما أصبحا كائنا واحدا •• كان يبدو أنها لا تشعر بأن أوردينوف ممسك يدها • وأخيرا التفتت نحو الفتى ، وألقت عليه نظرة طويلة نافذة ، كأنها فهمت أخيرا • فظهرت على شفتيها ابتسامة حزينة اليمة • وتمتمت تقول :

ـ اذهب • أنت سكران وشرير • أنت لست صديقي •

وعادت تلتفت نحو الشيخ ، وتثبّت فيه بصرها • لكأنها ترصد كل خفقة من خفقات قلبه ، وتهدهد بنظرتها نومه ، وتخشى أن تتنفس ، وتحضن قلبه المتأجج ••• وكان في كيانها كله من الاعجاب العاشق الموله، ما جعل أوردينوف يستبد به اليأس والحنق والغضب على حين فجأة •

ناداها وهو يضغط يدها بعنف :

ـ كاترين ! كاترين !

ان الألم الذي يشعر به أوردينوف ينعكس في وجهه • التفتت كاترين ، وألقت على أوردينوف نظرة تبلغ من التعبير عن السخرية والتحقير أنه أحسّ بساقيه تنثنيان تحته • ثم أومأت الى الشيخ النائم ، ونظرت الى أوردينوف مرة أخرى نظرة باردة مزدرية •

قال لها أوردينوف حانقا أشد الحنق :

ـ ماذا ؟ لسوف يقتلك ! •••

وكأن جنيا وسوس له أنه فهمها • فقال :

ـ سأشتريك من مولاك يا جميلتي ، اذا كنت في حاجة الى روحي ! لن يقتلك •

ان الابتسامة الصامتة التي كان تجمد أوردينوف لا تتحـول عن وجه كاترين • وبدون أن يعرف ماذا يفعل ، أخذ يتلمس بيديه فينتزع من الجدار خنجرا يملكه الشيخ • ظهرت الدهشـة في وجه كاترين ، ولكن الغضب والاحتقار لاحا في عينيها في الوقت نفسه وقد ازدادا عنفا وقوة •

شعر أوردينوف بألم وهو ينظر اليها ••• ان قوة غامضة تدفع يده• اخرج الخنجر من غمده • ان كاترين تتابعه بنظراتها سـاكنة حابسـة انفاسها •

نظر أوردينوف الى الشيخ •

فخيل اليه في تلك اللحظة أن الشيخ يفتح عينيه ببطء ، وينظـر اليه مبتسما • التقت أعين الرجلين • حدق أوردينوف الى العجوز بضع دقائق ساكنا لا يتحرك •• وفجأة تراءى له أن كل وجه الشيخ يضحك ، وأن هذا الضحك الشيطاني ينفجر مدويا في الغرفة آخر الامر • وهـذا خاطر اسود ، كريه ، يتسلل في رأسه تسلل أفعى ••• ارتجف ••• أفلت الخنجر من يديه ، وسقط على أرض الغرفة مقرقعا •

أطلقت كاترين صرخة ، كأنها تستيقظ من كابوس قاتم أليم ••• نهض الشيخ عن سريره ببطء وقد اصفر اصفرارا شديدا • ركل الخنجر بقدمه الى ركن من الغرفة غاضبا حانقا ••• كانت كاترين شـاحبة ساكنة كأنها ميتة ••• ان ألما رهيبا لا يطاق يرتسم على وجههـا • وها هي ذي ترتمي على قدمي الشيخ وهي تصرخ صرخة تشق النفس وتكاد تسـقط مغشيا عليها •

ـ ألكسي ! ألكسي !

كذلك انطلقت هاتان الكلمتان من صدرها المخنوق •

حضنها الشيخ بذراعيه القويتين ، وشدها الى صدره شدا قويا • أخفت رأسها فى نحر الشيخ ، فأطلق الشيخ عندئذ ، بكل قسمات وجهه ، ضحكة تبلغ من قوة التعبير عن الظفر والانتصار ، وتبلغ من شدة الهول أن الذعر استولى على أوردينوف • المكر ، الحساب ، الطغيان البارد المستبد الغيور ، السخرية بقلبه الممزق ، ذلك كله سمعه أوردينوف فى تلك الضحكة • دمدم يقول وهو يرتجف خوفا :

ـ « مجنونة »

وولّى هاربا •

٣

في الساعة الثامنــة من صباح الغد كان أوردينــوف يطرق باب ياروسلاف ايلتش شاحب الوجه مهتاج النفس ، لما يبل من اضطراب الليلة البارحة . لو سألته لماذا جاء الى ياروسلاف ايلتش لما عرف بماذا يجيبك . فما ان فُتح له الباب حتى تقهقر من الدهشة ، ثم تسمر في مكانه عند العتبة جامدا ، اذ رأى مورين في الغرفة . كان الشيخ أشد شحوبا من أوردينوف أيضا ، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، مهدود الجسم من المرض . ومع ذلك كان يرفض أن يقعد رغم أن ياروســلاف ايلتش يكرر دعوته الى الجلوس سعيدا بزيارته كل السعادة .

تهلل ياروسلاف ايلتش مبتهجا حين رأى أوردينوف ، ولكن فرحه تبدد في تلك اللحظة نفسها تقريبا ، واستبد به نوع من الضيق فجـأة ، عند منتصف الطريق بين المـائدة والكرسي المجاور ، فهــو لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل . ولقد أدرك أنه من غير اللائق أن يدخن الغليــون في مثل هذه اللحظة ، ومع ذلك ظل من فرط اضطرابه يدخن ما استطاع، بل يدخن بشيء من الحذلقة أيضا .

دخل أوردينوف الغرفة أخيرا . وألقى نظرة خاطفة على الشيخ. طاف فى وجه الشيخ شيء يذكر بالابتسامة الخبيثة التى رآها أوردينوف فى وجهه أمس ، والتى تثير ذكراها فيه الارتعاد والحنق . ولكن كل تعبير عن العداوة ما لبث أن زال ، وعاد الى وجه الشيخ هدوءه وسكونه الذى لا يمكن النفاذ اليه . وسلم على أوردين بانحناءة كبيرة .

هذا المشهد كله أيقظ أخيرا شعور أوردينوف، فحدق الى ياروسلاف ايلتش يريد أن يفهم خطورة الموقف . اضطرب ياروسلاف ايلتش وشعر بحرج .

قال أخيرا :

ـ ادخل ، ادخل يا صديقى العزيز فاسيلى ميخائيلوفتش . أفرحتنى بزيارتك وشرف بحضورك جميع هذه الاشياء التافهة ...

قال ياروسلاف ايلتش وهو يشير الى ركن فى الغرفة . انه أحمر الوجه كقرنفلة ، وقد بلغ من الاضطراب والحرج أن الجملة المتفخمة التى بدأها انقطعت فجأة ، وها هو ذا يجر كرسياً الى وسط الغرفة ، فيحدث ضجة كبيرة .

ـ ألا أزعجك يا ياروسلاف ايلتش ؟ كنت أريد ... دقيقتين لا أكثر ...

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ أأنت تزعجنى يا فاسيلى ميخائيلوفتش ؟ هلاَّ قبلت قدحاً من الشاى من فضلك ... من يخدم هنا ؟ أنا واثق أنك لن ترفض فنجاناً ثانياً ...

أضاف الجملة الأخيرة متجهاً بها الى مورين ، فأومأ مورين برأسه

معبراً عن موافقته على شرب قدح آخر •

دخل شرطى ، فأمره ياروسلاف ايلتش بلهجة قاسية أن يحضر ثلاثة أقداح من الشاى ، ثم أقبل يجلس قرب أوردينوف • ظل بضع دقائق يدير رأسه يمنة ويسرة كقطعة من خزف ، متجها الى مورين تارة والى أوردينوف تارة أخرى • كان واضحا انه يريد أن يقول شيئاً هو فى نظره حرج كل الحراجة بالنسبة الى أحد الرجلين على الاقل ، ولكنه رغم كل جهوده ظل عاجزا عن أن ينطق بكلمة •••

وكان يلوح على أوردينوف أنه فى ضيق وحرج هو أيضا • وجاءت لحظة فاذا بالرجلين كليهما يأخذان بالكلام معاً فى آن واحد ••• أما مورين الصموت ، الذى كان ينظر اليهما بكثير من حب الاستطلاع ، فقد انفتح فمه ببطء ، كاشفاً عن كل أسنانه •••

قال أوردينوف مخاطبا الشيخ :

ـ جئت لأقول لك اننى على أثر ظروف مزعجة جدا أرانى مضطرا الى ترك منزلك ، و •••

فقاطعه ايلتش صائحاً :

ـ شىء غريب جداً ••• لقد طار عقلى من الدهشة حين أبلغنى هذا الشيخ المحترم قرارك فى هذا الصباح ولكن •••

سأله أوردينوف مدهوشاً وهو ينظر الى مورين :

ـ أبلغك قرارى ؟

كان مورين يلاعب لحيته ويبتسم •

قال ياروسلاف ايلتش مؤكداً :

ـ نعم •• بل لعلني مخطيء ••• ولكنني أستطيع أن أحلف لك بشرفي أن أقوال هذا الشيخ المحترم لم تتناولك بأي سوء •

احمر ياروسلاف ايلتش ولم يستطع أن يسيطر على انفعاله الا في عناء •

وكأنما ضاق مورين ذرعاً بعدم المبالاة باضطراب رب البيت ، فتقدم خطوة الى أمام ، وبدا يقول وهو يحيي أوردينوف بأدب :

ـ اليك المسألة يا صاحب السيادة • انك تعلم بنفسك يا سيدي أننا أنا وزوجتي كان يمكن أن نسعد من أعماق قلبنا ، وكان يمكن أن لا نتجرأ على قول كلمة واحدة ••• ولكنك ترى بنفسك كيف تجري حياتي ••• انك ترى أنني أكاد أحتضر •

قال مورين ذلك وعاد يلاعب بأصابعه لحيته •

شعر أوردينوف بأنه يوشك أن يهوي على الأرض •

ـ نعم ••• نعم ••• لقد سبق أن قلت لك ذلك • انه مريض • تلك نازلة ألمت به • أردت أن أقولها بالفرنسية • ولكن اعذرني • ان لساني لا يجري طلقا بهذه اللغة ••• يعني •••

ـ نعم ••• نعم ، يعني •••

حيّا كل من أوردينوف وياروسلاف ايلتش صاحبه تحية صغيرة ، وهما جالسان على كرسييهما ، ثم استأنف ياروسلاف ايلتش كلامه يقول:

ـ ثم انني سألت هذا الرجل الشريف عن الأمر تفصيلا ، فقال لي ان مرض هذه المرأة •••

وهنا ألقى ياروسلاف ايلتشن ، المرهف الشعور ، نظرة سائلة على مورين •

ـ أقصد أن مولاتنا •••

ثم لم يلح مزيدا من الالحاح ، بل عاد يخاطب أوردينوف فيقول :

ـ نعم ••• ان صاحبة البيت ••• أقصد صاحبة البيت الذى تقيم أنت فيه وستتركه ••• امرأة مريضة • هو يقول انها تضايقك في أعمالك ••• وأنت نفسك ••• لقد أخفيت عنى أمرا هاما جدا يا فاسيلى ميخائيلوفتش •••

ـ ما هو هذا الأمر ؟

أجاب ياروسلاف ايلتش بهمس تقريبا ، وبصوت يُسمع فيه شيء من العتب الى جانب التسامح :

ـ أمر البندقية •

وأسرع يستأنف كلامه فيقول :

ـ أنا أعرف كل شيء • حكى لى كل شيء • لقد كنت أنت نبيلا كل النبل حين غفرت له جريمته في حقك ، وهي جريمة لم يتعمدها ولا أرادها ••• أحلف لك ••• لقد رأيت دموعا في عينيه !

احمر وجه ياروسلاف ايلتش من جديد• والتمعت عيناه• واضطرب على كرسيه منفعلا أشد الانفعال •

قال مورين مخاطبا أوردينوف ، بينما أخذ ياروسلاف يحدق اليه وقد تخلص من اضطرابه :

ـ أنا ... أقصد ... نحن يا سيدى ، أنا ومولاتى ، ندعو لك الله دائما . ولكنك تعرف بنفسك يا سيدى أنها امرأة مريضة ، حمقاء ... وأنا امرؤ لا أكاد أستطيع التماسك ...

قال أوردينوف وقد نفد صبره :

ـ ولكننى مستعد ... كفى ... أرجوك ... فورا اذا أردت .

ـ كلا يا سيدى . نحن مغتبطان بوجودك جدا (قال مورين ذلك وهو ينحنى انحناءة كبيرة) . أنا يا سيدى ... كنت أريد أن أقول لك الأمر كله فورا . هى ، يا سيدى ، قـريبة لى ... تمت الىَّ بشىء من قربى ... قربى بعيدة ... انها كذلك منذ الطفولة ... رأس تعصف به الأهواء .. لقد نشأت وترعرعت فى الغابة .. كفلاحة .. بين الرجال الذين يجرون المراكب ، والعمال الذين يعملون فى المصنع ... وفجأة احترق منزلهم ... هلكت أمها فى الحـريق ، وهلك أبوها أيضا ... أقصد من يقال له أبوها ... انها مستعدة لأن تروى لك هذه الحكايات.. أنا لا أتدخل فى هذا الأمر ... ولكن يجب علىَّ أن أقول لك ان أطباء من موسكو قد فحصوها ... أعنى يا سيدى ... هى مجنونة تماما ... هذه هى المسألة . أنا وحدى معها ، وهى وحدها معى . نعيش ، نصلى.. ونأمل ... ولكننى لا أعارضها فى يوم من الأيام ...

كان وجه أوردينوف مضطربا أشد الاضطراب . وكان ياروسلاف ايلتش ينقـل بصره بين الرجلين ، فينظر الى هـــذا تارة والى ذاك تارة أخرى .

استأنف مورين كلامه وهو يهز رأسه فى وقار :

ـ ولكن لا .. يا سيدى .. هى كذلك .. رأسها يبلغ من الجنون

أنها فى حاجة دائمة الى حبيب ، الى انسان تناديه حبيبى ... وأنا يا سيدى رأيت ... اغفر لى أقوالى الحمقاء ... (أضاف مورين ذلك وهو يحيى صاحبه ويمسح لحيته) ... رأيت كيف كانت تذهب اليك ، ورأيت كيف أردت ، سيادتك ، أن تربط مصيرك بمصيرها ...

احمر وجه ياروسلاف ايلتش حتى صار بلون الأرجوان ، ونظر الى مورين عاتبا . أما أوردينوف فقـد كان لا يستطيع الاستقرار على الكرسى .

ـ لا يا سيدى ... أعنى .. ليس هذا هو الأمر .. أنا ياسيدى.. أنا فلاح بسيط .. نحن عبيدك (أضاف ذلك وهو ينحنى الى الارض) ، ونحن ندعو لك الله دائما ، أنا وزوجتى . نحن يكفينا أن يكون لدينا ما ناكله ، وأن تكون صحتنا بخير ، هذا وحده يرضينا ... أنت تعرف ذلك بنفسك يا سيدى ... فارحمنا يا سيدى ... وما عسى أن يحدث اذا أصبح لها عشيق جديد ؟ اغفر لى هذه اللفظة البشعة ... أنت رجل مهذب يا صاحب السعادة ... انت رجل ذو كبرياء ، وذو حمية ... أما هى، ياسيدى ، فهى طفلة ، طفلة بغير عقل ... سرعان ماتقع فى الاثم.. هى قوية البنية ، وأنا مريض دائما .. ولكن ماذا تريد ! ... ان الشيطان يتدخل فى الأمر .. انا اقص عليها حكايات ! .. نعم يا سـيدى . اننا أنا وزوجتى ندعو الله لك بالخير ، لا نكف عن ذلك . هى جميلة ، نعم ، ولكنها ليست آخر الأمر الا فلاحة ، الا امرأة بسيطة ... انها لا تُحسن غسل جسمها ... وهى حمقاء ، تصلح لى أنا الفلاح .. أما أنت ياسيدى فلا تصلح لك .. وما أكثر ما ندعو لك الله بالخير ! ..

هنا انحنى مورين انحناءة كبيرة ، وظل على هذه الحال من الانحناء مدة طويلة ، دون أن ينتصب ، ماسحا لحيته بكمه .

لم يعرف ياروسلاف ايلتش ماذا يجب عليه أن يفعل .
قال مضطربا كل الاضطراب :

ـ نعم ، ان هذا الرجل الشهم قد حدثني عن شيء من سـوء التفاهم وقع بينكما فيما يظهر . لا اجرؤ ان أصدق ، يا فاسيلي ميخائيلوفتش... سمعت أنك ما تزال مريضا (كذلك قطع ياروسلاف كلامه بسرعة ، منفعلا جدا ، حين لاحظ اضطراب أوردينوف) .

ألقى أوردينوف على مورين هذا السؤال فجأة :

ـ كم لك عليّ ؟

ـ ما هذا الكلام يا سيدى ... ما نحن بباعة المسيح ! ... لمـاذا تهيننا يا سيدى ؟ هلا خجلت من مثل هذا السؤال ... هل أسأنا اليك ، أنا أو امرأتى ؟ ... عفوك ...

ـ ولكن هذا أمر غريب يا صديقى ... لقد استأجر غرفة عندكم ... أفلا تشعر أنك برفضك هذا انما تهينه ؟ ..

بهذا الكلام تدخل ياروسلاف ايلتش ، معتقـدا أن من واجبه أن يبين لمورين أن فعله هذا غريب خال من اللباقة ...

ـ ولكن عفوك يا سيدى ... ما هذا الكلام يا سيدى .. أأخطـانا فى حقك ؟ لقد قمنا بكل شيء فى سبيل أن نهيىء لك الراحة والمسرة .. أرجوك يا سيدى .. ماذا ؟ أنحن أناس لا نعرف الوفاء ؟ .. لأن يعيش بيننا ، ويقاسمنا طعامنا ، طعام الفلاحين ، فهنيئا مريئا ... ما كان لنا أن نقول شيئا فى هذا .. ولكن الشيطان تدخل فى الأمر .. أنا مريض ، وزوجتى مريضة أيضا .. فما العمل ؟ كان يمكن أن يسعدنا وجوده معنا كل السعادة ... ولكننا سندعو لك الله بالخير ، أنا وزوجتى ! ...

مرة أخـــرى انحنى مورين انحناءة كبـيرة • وظهـرت فى عينى ياروسلاف ايلتش دمعة ، ونظر الى أوردينوف فى حماسة وقال :

ـ ما أنبل هذه السجايا ! ما أعظم روح الضيافة المقدسة هـذه التى يحتفظ بها الشعب الروسى •

نظر أوردينوف الى ياروســلاف ايلتش نظرة غريبــة من رأسه الى قدميه • قال مورين :

ـ وأنا يا سيدى •• نعم •• هذه هى المسألة ••• روح الضيافة •• هل تعلم ؟ اننى أقدّر الآن آن من الخير أن تبقى عندنا يوما آخر (قال ذلك مخاطبا أوردينوف) • لا اعتراض لى على ذلك البتة •• ولكن زوجتى مريضة •• آه لو لم تكن عندى زوجتى ! آه لو كنت وحيدا ••• اذن لرأيت كيف أغتنى بك •• اذن لرأيت كيف أشفيك من مرضك ! اننى أعرف وصفات طبية •• حقا •• لعلك تبقى عندنا يوما آخر مع ذلك •

قال ياروسلاف ايلتش :

ـ فعلا •• أليس هناك دواء ما ؟

ولكن ياروسلاف ايلتش لم يتم كلامه •

كان أوردينوف ينظر اليه من قمة الرأس الى أخمص القدم حانقا مدهوشا •

لا شك أن ياروسلاف ايلتش انسان من أشرف النـــاس وأنبلهم ، ولكنه فهم الآن كل شىء • يجب أن نعترف أن وضعه حرج جدا • أراد لو ينفجر ضاحكا كما يُقال • ولو كان فى خلوة مع أوردينوف ، أى فى اجتماع بين صديقين كهذين الصديقين ، لما استطاع أن يضبط نفســه ،

ولأخذته نوبة من مرح شديد لا قصد فيه ولا اعتدال ، ولكان ضحكه هذا ضحكا نبيلا على كل حال ، حتى اذا انتهى الضحك صافح أوردينوف مصافحة ودية ، وحاول أن يقنعه مخلصا بأن احترامه له قد ازداد ولم ينقص ، وانه يقدره على كل حال ، لأن هذا فى طبيعة الشباب •• ولكن ياروسلاف ايلتش فى وضع حرج الآن ، بسبب رهافة شعوره ، وشدة أدبه •• انه فى وضع حرج جدا ، لا يدرى ماذا يفعل •

قال مورين وقد انتعش لسؤال ياروسلاف ايلتش :

ـ دواء ؟

ثم تابع يقول وهو يتقدم خطوة الى أمام :

ـ أنا يا سيدى ، أنا الفلاح الغبى •• أقول •• أقول انك تسرف فى قراءة الكتب يا سيدى •• أقول انك أصبحت أذكى مما يجب • المثل عندنا يقول : تجاوز عقلكم العقل يا فلاحون •

قال ياروسلاف ايلتش بقسوة يقاطعه :

ـ كفى !

قال أوردينوف :

ـ أنا ذاهب • شكرا يا ياروسلاف ايلتش •

وأضاف يقول واعدا بتلبية دعوة ياروسلاف ايلتش الذى لم يستطع أن يثنيه عن الانصراف :

ـ سأجىء اليك حتما • الوداع • الوداع ! ••

ـ وداعا ، سيادتك ••• وداعا سيدى ! لاتنس •• زرنا أحيانا ••

لم يسمع أوردينوف مزيدا • وخرج كالمجنون •

لقد نفد صبره ، وأصبح لا يطيق أن يحتمل أكثر مما احتمـل • كان كالميت • تجمد شعوره • أحس بالمرض يخنقه خنقا • ألا أن يأسا باردا كالثلج كان يستولى على نفسه • أصبح لا يحس الا ألماً أصم يخنقه ويمزق صدره • ودّ فى هذه اللحظة لو يموت • انثنت ركبتاه تحتـه ، فجلس قرب صف من الأشجار لا ينتبه لا الى الناس الذين يمرون أمامه، ولا الى الجمهور الذى أخذ يتحلق حوله ، ولا الى نداءات وأسئلة من يحيطون به • ولكن أوردينوف يسمع بين هذه الأصوات صوت مورين على حين فجأة • فينهض رأسه • كان الشيخ قد شق طريقا اليه بعد عناء• ان وجهه الشاحب رصين واجم • ليس هـو الآن ذلك الانسان الذى كان يضحك عليه بفظاظة عند ياروسلاف ايلتش • نهض أوردينوف • تنـاول مورين ذراعه وأخرجه من بين الجمهور •

قال مورين وهو ينظر اليه من جانب :

ـ أنت فى حاجة الى أخذ أمتعتك •

ثم هتف يقول بعد ذلك :

ـ لا تحـزن يا سـيدى • أنت فى ريعان الشـباب ، وما ينبغى أن تيأس •••

لم يجب أوردينوف بشىء •

ـ أأنت مستاء يا سيدى ؟ واضح أنك زعلان ••• ولكنك مخطىء••• ان من حق كل انسان أن يحافظ على ما يملك •••

قال أوردينوف :

ـ أنا لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرف أسرارك ... ولكن هي ... هي ...

نطق أوردينوف بهذا ، وتدفقت دموع غزيرة من عينيه ، فمسحها بكمه . ان حركته ، ونظرته ، وارتجاف شفتيه المزرقتين ، ان كل شيء يُشعر من يراه بأنه جُن .

قال مورين مقطبا حاجبيه :

ـ لقد قلت لك الأمر ... هي مجنونة ... أما لماذا وكيف أصبحت مجنونة ، فذلك شيء لا حاجة بك الى معرفته البتة ... كل ما هنالك أنها، وهي على ماهي عليه ، لي أنا . انني أحبها أكثر من حياتي ، ولن أهبهـا لأحد .

برق لهيب في عيني أوردينوف . وقال :

ـ ولكن لماذا .. لماذا أحس أنا بأنني كمن فقد الحياة ؟ لمـاذا يتألم قلبي ؟ لماذا عرفت كاترين ؟

ابتسم مورين وأطرق يفكر ، ثم قال :

ـ لماذا ؟ لا أعلم .. النساء .. ليست النساء كقاع البحر ... يمكن أن يُفهمن أخيرا .. لكنهن ماكرات . صحيح يا سيدي أنها أرادت أن تتركني لتذهب معك (كذلك أضاف يقول ذاهلا) ... لقد ضاقت بالشيخ ... أخذت منه كل ما استطاعت أن تأخذ ! وقد أعجبت بك فورا ... ولكن سواء أكنت أنت أم كان غيرك ... أنا لا أعارضها . لو طلبت مني لبن العصفور لهيأته لها ... أصنع بنفسي عصفورا يدر لبنا ، اذا لم يكن

في الكون عصفور كهذا ...وهي مغرورة تحب الظهور ، وتحلم بالحرية ولكنها لا تدرى هي نفسها مصدر عذاب قلبها ... الأفضل أن تبقي الامور كما هي ... هيه يا سيدى ! انك ما تزال شابا في ريعان الصبا ! قلبك ما يزال حارا متوقدا .. اسمع يا سيدى .. ليس في طاقة انسان ضعيف أن يضبط نفسه وحده . لو أعطيته كل شيء ، لجاء من تلقاء نفسه يرد كل شيء ، حتى لو أعطيته نصف الكون . لو وهبت الحرية لانسان ضعيف ، لأوثقها بيديه ، وأعادها اليك . لا قيمة للحرية عند قلب ساذج ... ولا يستطيع المرء أن يعيش مع طبع كهذا الطبع ... أقول لك هذا كله لأنك شاب في ميعة العمر ... ما أنت عندى ؟ لقد جئت ثم ذهبت ... سيان أنت وغيرك . كنت أعلم منذ البداية ما سيقع . ولكن ما ينبغى أن أعارض ... ليس على المرء أن يعترض أى اعتراض اذا أراد أن يحتفظ بسعادته ... كل شيء يمكن أن يقع (كذلك تابع مورين تفلسفه) . حين يغضب المرء يتناول خنجرا ، بل لقد يهجم أعزل اليدين من السلاح محاولا أن يمزق عنق عدوه ... ولكن يكفى أن يوضع في يدك خنجر ، وأن يكشف لك عدوك عن صدره ، حتى تتراجع ...

دخل الرجلان فناء المنزل . رأى التترى مورين من بعيد ، فخلع طاقيته احتراما . ورشق أوردينوف بنظرة خبيثة .

صاح مورين :

ـ هيه ... هل الأم في البيت .

ـ نعم في البيت .

ـ قل لها أن تساعد في نقل الأمتعة ... وعاون أنت أيضا .

صعدا السلم . جمعت العجوز التي تخـدم في بيت مورين ، وهي في الواقع أمُّ البواب ، جمعت أمتعة المستأجر وجعلتها في حزمة .

ــ انتظر . سآتيك أيضا بشيء بقي هناك ، وهو لك .

قال مورين ذلك ومضى الى غرفتـه . وعاد بعـــد دقيقة يمـد الى أوردينوف مخدة مطـرزة هي المخـدة التي جاءته بها كاترين حين كان مريضا ، ويقول له :

ــ انها هي التي ترسل اليك هذه المخدة . والآن هيـا انصرف ، وحذار أن تعود الى هنا (أضاف ذلك هامسا) ، والا ساءت الأحوال ...

كان واضحا أن مورين لم يقصد أن يهين الرجل ، ولكن حين ألقى عليه نظرة أخيرة ، فقد ارتسم على وجهه ، بالرغم منه ، تعبير عن الغضب والاحتقار ؛ ثم أغلق الباب وراء أوردينوف باشمئزاز تقريبا .

وبعد ساعتين كان أوردينوف يستقر عند الألماني سبيس . ان تينيش لم تملك أن صاحت « آه » حين رأته داخلا . ثم لم تلبث أن استفسرت عن صحته ، فلما علمت بمرضه ، أسرعت تعالجه .

وأظهر الألماني العجوز لصاحبه ، متباهيا، أنه كان يتهيأ لوضع اللافتة عند باب العمارة ، لأن مدة الايجار المدفوع سلفا انما تنتهي في هذا اليوم. كان العجوز لا يفوِّت فرصة تتيح له أن يشيد بالدقة الجرمنية ، وبالأمانة الجرمنية .

مرض أوردينوف في ذلك اليوم نفسه . فلزم سريره ولم يغادره الا بعد ثلاثة أشهر .

عادت اليه عافيته شيئاً فشيئا وأخذ يخـرج . ان الحيـاة في منزل

الالمانية رتيبة هادئة تجرى على وتيرة واحدة • لم يكن طبع الألماني صعبا• وكانت تينيش الحلوة على خير ما يتمنى المرء أن تكون • ولكن الحياة فى نظر أوردينوف كانت تبدو فاقدة لونها الى الأبد • أصبح أوردينوف حالما ، سريع الاهتياج ، واصبحت حساسيته مرضية ، وشيئا فشيئا اخذت تسيطر عليه كآبة خطيرة جدا ، كآبة خبيثة •••

اصبح لا يفتح كتبه اسابيع كاملة • وأصبح المستقبل يبدو له مظلما• وكانت موارده تشارف على نهايتها ، وهو لا يعمل شيئا ، ولا يحفل بالغد• ولئن كانت حماسته القديمة للعلم وحميته السابقة والصور التى خلفهـا للماضى تعود الى الظهور أحيانا ، فانها كانت لا تزيد على أن تخنق طاقته • اصبحت الفكرة لا تستحيل عنـده الى فعل • توقف الخلـق • كأن تلك الصـور جميعها كانت تتخذ في أحلامه أبعادا ضخمة عن عمد ، لتسخر من عجز صاحبها نفسه • وكان فى ساعات حزنه يشبـّه نفسه ، على غـير ارادة منه ، بتلميذ الساحر* ذلك الذى سرق من أستاذه الكلمة السحرية التى تأمر المكنسة بتفجير الماء ، فاذا هو يغرق فى الطوفان لأنه نسى كيف يقول : كفى •

تُرى هل ستستيقظ فى نفسه فكرة أصـيلة ، كاملة ؟ ترى هـل سيصبح عَلَماً من أعلام العـلم ؟ لقد كان فى المـاضى يؤمن بذلك على الأقل • والايمان المخلص الصادق ضـمانة المسـتقبل • أما الآن فكثيرا ما يسخر من نفسه ومن ثقته العمياء ، وهو لا يتقدم خطوة •

كان منذ ستة أشهر قد خلق وألقى على الورق مخطط كتاب كان يعقد عليه آمالا لا حدود لها • كان هذا الكتاب يتناول تاريخ الكنيسـة ، وقد خرجت من قلم أوردينوف نتائج جريئة • ها هو ذا الآن يعيد قراءة هذا المخطط ، ويفكر فيه ، ويعدّله ، ويدرسه ، ويبحث ، ثم يرميه أخيرا

دون أن يبنى على أنقاضه شيئا • غير أن شيئا يشبه الصوفية أخـذ يغزو نفسه • كان المسكين يحس الامه ويسال الله أن يشفيه منها • لقد حكت خادمة الالمانى ، وهى امراة عجوز روسية تقية جـدا ، ان السـاكن كان يصلى ويبقى راكعا عند عتبة الكنيسة ساعتين كاملتين •

ولم يكن أوردينوف يقول لاحد كلمة واحدة عما حدث له • ولكن العاصفة كانت تهب في نفسه الجريحة أحيانا ، ولا سيما ساعة الشفق، حين يذكره صوت النواقيس بأول لقاء له معها ، انه يتذكر عندئذ العاطفة التى كان يجهلهـا حتى ذلك الحين ، والتى هزت صـدره حين ركـع قربها لا يصغى الا الى خفقان قلبها الوجـــل ، ولا يحس الا دموع الحمـاسة والفرح تنتشر على الأمل الجديد الذى يبرق فى حياته • عندئذ كان عذاب الحب يحرق صدره من جديد ، بينما يعانى قلبه ألمآ مرآ محموما ، وكأن حبه يزداد بازدياد حزنه •

وكثيرا ما كان يبقى فى مكان واحد ساعات بأسرها ، ناسيا نفســه ، ذاهلا عن حياته كلها ، غافلا عن كل شيء فى العالم ، وحيدا حزينـا ، يهز رأسه يأسا وحسرة ، ويتمتم قائلا : « كاترين ، حمامتى العـزيزة ، أختى الوحيدة ! » •

وهذه فكرة رهيبة مروعة تأخذ تعذبه، وتحاصره مزيدا من المحاصرة يوما بعد يوم ، ثم تستحيل عنده الى يقين فواقع ؛ وهو أن عقـل كاترين سليم ، ولكن ما وصفها به مورين من أنهـا قلب ضعيف ، هـو وصف صادق • أصبح يلوح له أن هنـاك سرآ يربط كاترين بالشيخ ، ولـكن كاترين ، الجاهلة بالجريمة ، قد أصبحت فى قبضـة يده خاضعة لسلطانه كحمامة بريئة • من هما ؟ ان أوردينوف لا يعرف جوابا لهذا السؤال• ولكنه يرى أن طغيانا فظيعا لا مهـرب منه يجثم على صـدر هذه المخلوقة

الشقية التي لا تملك أن تحمي نفسها ، فيشعر أوردينوف من ذلك باضطراب في قلبه ، وتمتلىء نفسه ألما عاجزا . كان يتصور كاترين انسانة وضعوا على عينيها غشاوة ، واخذوا يخيّلون اليها غادرين انها تسقط وتهوى : انهم يعذبون قلبها المسكين « الضعيف » تعذيب الشهداء ؛يصورون لها الحقيقة على ما يريد لهم هواهم زورا ، يبقونها في العماوة عامدين ، ويتملقون بالمكر قلبها العارم المضطرب ، فيقصون بذلك ، شيئا بعد شيء ، جناحي نفس تتطلع الى الحرية ولكنها عاجزة عن التمرد ، عاجزة عن الانطلاق الى الحياة .

أصبح أوردينوف يزداد توحشا يوما بعد يوم . ويجب أن نعترف بأن أصحابه الالمان كانوا يراعون توحشه ويحترمونه . وكان يؤثر لنزهاته ساعة الشفق ، والاماكن البعيدة المقفرة . وها هو ذا ، في ذات مساء حزين ممطر ، يلقى ياروسلاف ايلتش في زقاق ضيق موحش .

كان ياروسلاف ايلتش قد انحل جسمه كثيرا.ان عينيه الملتمعتين قد أصبحتا كابيتين ، وان شخصه كله يدل على انه فقد اوهامه . كان يركض لعمل من الاعمال لا يطيق تأخرا . وكان مبللا متسخا وكانت قطرة من المطر تتدلى في صورة عجيبة على أنفه الدقيق الذى ازرقّ الآن ازرقاقا شديدا . وكان عدا ذلك قد أرخى لحيتي عارضيه .

دُهش أوردينوف من اللحيتين ، ودهش مما ظهر في صديقه من انه يريد تحاشيه والهروب منه . شيء غريب . ان أوردينوف قد جرح هذا الأمر قلبه الذى لم يكن قبل الآن في حاجة الى عطف أحد . ان الشخص الذى عرفه أوردينوف قبل الآن بسيطاً طيباً ساذجاً ــ بل قل اذا شئت الصراحة غبيا ، ولكن على غير ادعاء ــ ان هذا الشخص يبدو الآن لأوردينوف أحب الى نفسه وأحلى في نظره . والانسان ، في مقابل ذلك،

ينفر من الشخص الغبى اذا رأى هذا الشخص الغبى ، الذى لعله أحبه لغباوته نفسها ، اذا رآه يصبح ذكيا على حين فجأة . ولكن الحـــذر الذى عبر عنه وجه ياروسلاف ايلتش حين نظر الى أوردينوف نظرة أولى لم يلبث أن امحى ، ثم اذا هو يجرى مع أوردينـوف حديثا فيـه كثير من الصداقة . قال له في اول الامر ان هناك اعمالا كثيرة ينبغى له أن يقـوم بها ؛ ثم قال له انهما لم يلتقيا منذ زمن طويل ؛ ولكن سرعان ما جـرى حديثهما مجرى غريبا على حين فجأة . آخذ ياروسلاف ايلتش يتحدث عن زيف البشر عامة ، وعن شرور هذا العالم ، وعن أن كل شيء باطل. وتحدث عن بوشكين بغير اكتراث ، ثم قال في حق بعض الأصدقاء كلاما يدل على مرارة في قلبه . وأشار أخيرا الى كذب أولئك الذين يزعمـون أنهم أصدقاء ، على حين أن الصداقة الحقة لا توجد ولم توجد في يوم من الأيام . الخلاصة أن ياروسلاف ايلتش قد أصبح ذكيا أكثر مما يجب .

لم يعترض أوردينوف بشيء ، ولكن حزنا كبيرا استولى على نفسه ، كما لو كان يدفن خير صديق من أصدقائه .

صاح ياروسلاف ايلتش يقول فجأة ، كمن تذكر أمرا هاما جدا :

ـ آه .. تخيل .. كدت أنسى أن أحكي لك .. هناك جديد ... أفضى اليك به سرا ... هل تتذكر المنزل الذى سكنت فيه ؟

ارتعش أوردينوف واصفر وجهه .

تابع ياروسلاف ايلتش يقول :

ـ تخيل أننى اكتشفت فى هذا المنزل مؤخرا عصابة من اللصوص.. أقصد من المهربين والمحتالين وسائر أنواع اللصوص . فاعتقل بعضـهم ، وما يزال بعضهم الآخر ملاحقا ... أصدرت أوامر مشددة ... وهـل

تصدق ؟ أتذكر صاحب العمارة ، ذلك الشيخ العجوز جدا ، الوقـور ، الذى يدل مظهره على النبل •••

ـ هه ؟

ـ هل تؤمن بعد الآن بالانسان ؟ انه هو رئيس العصابة كلها !

كان ياروسلاف ايلتش يتكلم بحماسة ، ويتخذ من هـــذه الواقعة المبتذلة حجة للحكم بالسوء على البشر جميعا • لقد كان هذا فى طبعه •

سأله أوردينوف بصوت خافت جدا :

ـ والآخرون ؟ ••• ومورين ؟•••

ـ مورين ؟ لا •• هذا شيخ محترم •• نبيل •• ولكن اسمح لى •• ان سؤالك هذا يلقى ضوءا جديدا ••

ـ ماذا ؟ أيكون واحدا من أفراد العصابة ؟

وثب قلب أوردينوف استطلاعا •

قال ياروسلاف ايلتش وهو يرمق أوردينوف بعينيه المنطفئتين علامة التنكر :

ـ ولكن •• لا •• ماهذا الكلام ! •• ان مورين لا يمكن أن يكون واحدا منهم ••• لقد سافر مع زوجته الى بلده قبل الحادث بثلاثة أسابيع ••• علمت ذلك من البواب ••• هل تتذكره ، ذلك التترى القصير ؟•

الهزج

١٨٤٨

« المهرج* » (Polzounkov)، كتب دوستويفسكى هذه القصة سنة ١٨٤٧ ، ونشرت فى مطلع سنة ١٨٤٧ فى « المجلة المصورة » التى كان يصدرها بانايف ونكراسوف .

كُنتُ أنظر الى الرجل ، ان فى هيئته من الغرابة مايدفع المرء الى ضحك لا سبيل الى مغالبتـه متى نظـر اليه ، وهذا ما حدث لى فعلا • ملاحظة أخرى : ان عينى هذا الرجل الصغيرتين ما تنفكان تدوران فى جميع الاتجاهات بغير انقطاع أو توقف ؟ وانه ليبلغ من التأثر المغناطيسى بنظرات الغرباء أنه كمن يحزر بغريزته الانتباه الذى ينصب عليه ، فاذا هو يلتفت بسرعة ويحدق الى الشخص المزعج قلقا • ان حركته الدائمة تجعله أشبه فعلا بصفيحة المعدن التى تدل حركتها على اتجاه الريح •

أمر غريب حقـا : انه كمن يخشى السـخريات ، رغم أنه مدين لاستهزاءات الناس بأضمن وسائل معيشته ، فهو مهرج لهم جميعا ، ومهمته الأساسية هى أن يتلقى اللطمات ، المعنوية وحتى الحسية ، تبعا للمجتمع الذى يكون فيه •

والمهرجون الذين يهرجون للناس طواعية واختيارا لا يثيرون فيك الشفقة • ولكننى لاحظت أن هذا الرجل المضحك لم يكن بهلولا محترفا ، وأنه ما يزال فيه شىء من رفعة ؟ فما يلوح فى وجهه من حرج وانزعاج

وخوف دائم مرضى مسيطر ، كل ذلك يمكن ان يدرا عنه تهمة الخسة والحقارة .

وقد خيل الى أن رغبته فى أن يخدم الناس تنبع من طبيعة طيبة ، وانها هى التى تتحكم فيه أكثر مما تتحكم الحسابات المادية . كان يسره بعض الشىء أن يسخر منه ، وأن يُتهكم عليه ، ولكننى مستعد لان أحلف أن قلبه يمكن أن ينزف دما لو تصور أن سامعيه يضحكون ضحكا شريرا لا مما يقصه عليهم بل من شخصه نفسه ، من قلبه ، من عقله ، من مظهره ، من لحمه ودمه .

وأنا على يقين من أنه كان فى تلك اللحظات يشعر بكل ما فى موقفه من فظاعة ، ولكن كل احتجاج كان يموت فى حلقه ، رغم أن المرء يشعر فى كل مرة أن هذا الاحتجاج قد نبت فى نفسه نبيلا كريما . وأقول مرة ثانية اننى مقتنع بأن التضاد ناشىء عن بقية باقية من كرامة وحساسية عميقة خفية لديه ، لا عن توقعه أن يطرد ركلا بالأرجل ، وأن لا يستطيع أن يستعطى سامعيه بعض المال : والحق أن الرجل كان يستعطى دائما ، فهو يطلب ، بغير حياء ، أجر ما يقوم من تكشيرات وما ينزل اليه نفسه من وضاعة . انه يشعر أن من حقه أن يفعل ذلك ، ولا تهدف أضاحيكه الى غير هذا الهدف الوحيد .

ولكن يا له من استعطاء ! وياللهيئة التى كان يعتقد أنه مضطر الى اصطناعها فى سبيل ذلك ! ... ما كان فى وسعى أن أتصور ، قبل أن أراه ، أن مساحة ضيقة كمساحة وجهه هذا المتجعد المتكسر الزوايا المخرب يمكن أن تكون مسرحا لكل هذه التصعيرات المختلفة ، ولكل هذه الاحساسات الغريبة والمشاعر اليائسة فى الوقت نفسه . أى شىء لا يراه المرء فى هذا الوجه ؟ انك ترى الخجل والحياء ، وترى الغطرسة الكاذبة ، وترى الغضب وما يصحبه من احمرار ، وترى الخوف والوجل ، وترى

طلب الغفران من الناس عن ازعاجهم ، وترى الاقتناع بانه ذو قيمة وبأنه ليس بذى قيمة ... هذا كله تراه يطوف بوجهه سريعا كومض البرق .

انه لم يستطع ، بعد ست سنين من محاولته الحصول على مركز فى هـذا العالم فى كنف الرب ، ان يصل الى ان يشـكل لنفسه هيئة تليق باللحظات الشائقه التى يجرى فيها الاستعطاء . وواضح أنه ما كان له أبدا ان يسرف فى التدني وان يضيع نفسه ، فان فى قلبه من الحرارة والحركة ما لا يسمح له بذلك ؛ بل أزيد على هذا فأقول : انه كان انسانا من أشرف خلق الله وانبلهم ! هناك ضعف واحد كان يدنّيه : انه مستعد ، لدى أول اشارة ، لان يرتكب حقارة صغيرة ، عن طيب قلب وبغير حساب ، لا لشيء الا أن يسر الاخرين . فاذا شئت أن تستعمل الكلمة الدارجة على ألسن العامة فقل انه كان كخرقة رخوة ..

وأبعث ما فيه على الضحك أنه كان يرتدى ثيابا كثياب سائر الناس ، لا أحسن منها ولا أسوأ ، ثيابا نظيفة دائما ، على شيء من تأنق ، هذا عدا ميل الى الظهور بمظهر المتانة والوقار .

فهذا المظهر الخارجى ، وهذا الخوف الداخلى الذى يبدو أنه يعذبه فى الوقت نفسه ، وهـذه الحاجة الى المـذلة بغير انقطاع ، ذلك كله كان يؤلف تضادا يبعث على الضحك وعلى الشفقة فى آن واحد معا . فلو كان مقتنعا ـ وهذا ما كان يحدث له فى كثير من الأحيان رغم تجاربه ـ بأن جميع سامعيه أناس طيبون ، قادرون على أن يضحكوا الا من أنفسهم أو من قصة هزلية فى ذاتها ، لا من شخصه هو ، لكان يسره أن يخلع رداءه فيلبسه مقلوبا ، ويمضى يتجول فى الشوارع على هذه الصورة ، لا لشيء الا ليضحك هؤلاء الناس الذين يميلونه ويحمونه ، وليحمل الى قلوبهـم المسرة والبهجة .

وثمة سمة أخرى من سمات طبعه : كان هـــذا الرجل المضـحك لايخلو من حب الذات والشعور بالكرامة ، بل انه في بعض الأحيان ، حين لا يكون مهددا بأى خطر ، لا يخلو من كبر وعظمة • ليتك تراه كيف كان يستطيع أن يؤدب حتى واحدا من معيليه و « حماته » حين يتجاوز هذا الحدود المباحة • صحيح أن ذلك ما كان يحدث الا نادرا ، ولـكن الرجل لم يكن يراعي شيئا أو يدارى أحدا متى حدث شيء من ذلك ، حتى لقد كان يظهر عندئذ شيئا من البطولة حقا •

وخلاصة القول ان الرجل كان شهيدا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لكنه شهيد بغير طائل ، وهو لهذا نفسه مضحك تماما •

ولقد أتيح لى بعد قيام مناقشة عامة أن أرى هـــذا الرجل المضحك يصعد فجأة على طاولة مسرعا ، فيصيح طالبـا الى الناس أن يعـودوا الى الصمت ، سائلا اياهم أن يستمعوا الى كلامه :

قال لى صاحب البيت :

ـ استمع اليه ••• انه يقص في بعض الأحيان أشياء شائقة ••• هل يروقك هذا ؟

فأغضنت رأسى بعلامة الموافقة ، وانضممت الى الجمهور •

ان منظر هذا السيد الحسن الهندام ، الذى يصـيح من على طاولة معولا قد أثار دهشة البعض وأثار ضحك البعض الآخر •

صاح المهرج يقول :

ـ أنا أعرف تيـودوز نيكولايفتش ! أعـــرفه أكثر من أى انسان فاسمحوا لى أن أقص على مسامعكم قصة خارقة ! •••

ـ قص علينا ، قص علينا يا أوزيب ميخائيلوفتش !

ـ عليكم بالاصغاء اذن • هأنذا أبدأ أيها السادة • انها قصة خارقة حقا •••

ـ عظيم ••• عظيم •••

ـ قصة مضحكة •••

ـ عظيم ••• ممتاز ••• هيا •

ـ هي قصة فترة من حياة خادمكم الوضيع •••

ـ فلماذا تقول اذن انها قصة مضحكة ؟

ـ وهي فوق هذا قصة محزنة •

ـ آه ••••

ـ خلاصة القول ان هذه القصة هي التي هيأت لكم حظ الاستماع اليّ في هذا اليوم • فبفضل هذه القصة انما أوجد الآن في حفلكم الظريف هذا •

ـ دعك من الغمز !

ـ هذه القصة •••

ـ أما لهذا التمهيد من نهاية ؟ ••• هلا بدأت القصة ! ••• لا شك أن هذه القصة تكلف شيئا •••

كذلك صاح يقول سيد أشقر شاب ، ومد يده الى جيبه فأخرج منها محفظة نقوده ، متظاهرا بأنه يبحث عن منديله •

ـ هذه القصة يا سادتي قد منعت نجاح زواجي •

ـ زواج ! ••• زوجة ! ••• بولزونكوف أراد أن يتزوج ؟

ـ اعترف لكم بأنه كان يسرني ان ارى مدام بولزونكوف •

ـ أتأذن لى أن أسألك ما اسم تلك التى كان يمكن أن تصبح مدام بولزونكوف ؟

بهذا هتف شاب كان يحاول الاقتراب من القصاص •

ـ اليكم يا سادتي الفصل الأول من قصتي : وقع ذلك منذ ست سنين ، في الربيع ، في اليوم الواحد والثلاثين من شهر اذار (مارس) • احفظوا التاريخ ••• انه عشية •••

ـ عشية الأول من نيسان (ابريل)

ـ حزرت ••• انك لشاطر حقا •• كان ذلك في المساء • الظلمات تتكاثف فوق مدينة ن ••• الصغيرة ، ولكن القمر يظهر من حين الى حين ••• الخلاصة أن كل شيء كان شعريا على ما تحبون ••• في ذلك الوقت ، ابان الغسق المتأخر ، خرجت من مسكني الصغير ، بعد أن ودعت جدتي ••• جدتي الحبيسة (اعذروني اذا أنا استعملت في وصفها هذا التعبير الذي سمعته منذ هنيهة في منزل نيكولايفتش ، والحق أن جدتي كانت حبيسة تماما ، فهي عمياء خرساء صماء بلهاء •••وكل ماتشاءون) • ويجب أن أعترف أنني كنت أرتعد ارتعادا شديدا ، لأنني كنت أتهيأ لمواجهة مسألة كبرى ، للقيام بصفقة ضخمة • كان قلبي يخفق خفقانا قويا كقلب قطة صغيرة رفعتها يد معروقة من جلد رقبتها •

ـ عفواً يا سيد بولزونكوف ، ماذا تريد ؟

ـ أرجوك أن توجز ، وأن تروى القصة ببساطة •

قال بولزونكوف وهو ظاهر الانزعاج :

ـ تحت أمركم ••• دخلت منزل تيودوز نيكولايفتش • وكان هذا الرجل زميلى ، بل قولوا انه كان رئيسى • ابلغوه وصولى، وادخلونى الى غرفته التى ما زلت أراها فى خيالى حتى الآن • كان الظلام يسود الغرفة، ولم يأتنى أحد بشمعة • ونظرت ، فاذا أنا أرى تيودوز نيكولايفتش يدخل الغرفة • وبقينا كلانا فى الظلام • وعندئذ ، أيها السادة ، وقع بيننا شىء غريب •• أقصد •• لا •• لم يكن فى الأمر غرابة •• فهذا مايحدث فى الحياة : أخرجت من جيبى لفة أوراق • ولكن أوراقه هو كانت أوراقا مالية •

ـ أوراقا مالية ؟

ـ نعم ، وتبادلنا الاوراق : أعطانى أوراقه وأعطيته أوراقى •

ـ أراهن على أن المسألة مسألة تهديد بالتشهير • أراهن على ان الصفقة صفقة سكوت عن فضيحة ••

كذلك قال سيد شاب أنيق الهندام •

ـ تهديد بتشهير ؟ سكوت عن فضيحة ؟ آه يا سيدى ••• لو أتيح لك يوما أن تعمل فى وظيفة بادارة من ادارات الدولة لرأيت كيف يُسمح لك بأن تدفىء يديك على موقد الوطن • الوطن أمنا ونحن أبناؤها ، لذلك فنحن نتشبث بثديها الذى يدر اللبن ما وسعنا التشبث •

ما ان سمع الناس هذا الكلام حتى امتلأت الغرفة قهقهات !

وتابع القصاص يقول بصوت عالٍ وهو يرشق الجمهور بنظـــرة شك وحذر :

صدقونى مع ذلك يا سادتى اذا قلت لكم اننى لم أقبل رشوة فى يوم من الأيام •

وهنا انفجرت قهقهات جديدة غطت أقوال بولزونكوف •

ـ أؤكد لكم ذلك أيها السادة •

وتوقف عن الكلام ينظر الى سامعيه • كان تعبير وجهه غريبا : لاشك أنه قد خطر ببالى أنه ، بين أفراد هذا الحفل الشريف الامين ، خسة شرف وسوء أمانة • ومع ذلك ظل وجهه رصينا الى أن هدأت القهقهات• فاستأنف يقول :

ـ اننى لم أقبل رشوة فى يوم من الايام • لـكننى فى هذه المرة قبلت المال الذى أعطانيه رجل ألف هذه الطريقة في تسوية بعض الامور وحل بعض القضايا • كنت أملك أوراقا تعرّض سمعة تيودوز نيكولايفتش للخطر ، وتهدده بأذى •

ـ تقصد أنه اشترى منك هذه الاوراق •

ـ نعم •

ـ وكم أعطاك ؟

ـ أعطانى ••• أعطانى ما لو أعطاه لأى واحد منكم أيها السادة لأشترى به ضميره في جميع صوره وأشكاله •• اذا كان هذا الضمير يساوى شيئا ويستحق أن يُشترى أصلا • ومع ذلك شعرت في تلك اللحظة بأننى كمن صُبّ على رأسه ماء يغلى ••• أؤكد لكم أننى أصبحت عندئذ لا أعرف ماذا يجرى فى نفسى ، فأنا أقرب الى الموت مني الى الحياة : ساقاى تصطكان ، وشفتاى ترتجفان ، وأنا أهم أن أستغفر وأن

أطلب العفو والصـــفح من فرط شـــعورى بالذنب والاثم أمام تيودوز نيكولايفتش •

ـ وهل غفر لك أخيرا ؟

ـ لم أستغفره ••• وانما ذكرت لكم الآن ما جرى فى نفسى ،ئئذ • ان لى قلبا يفيض حرارة كما ترون • وكنت أرى أنه ينظر الىّ •

قال لى رئيسى :

ـ أأنت لا تخشى الله القوى الجبار يا أوزيب ميخائيلوفتش ؟

ماذا كان فى وسعى أن أقول ردا على هذا السؤال ؟ لذلك لم أزد على أن باعدت ذراعي اصطناعا ، ولويت رأسى على كتفى ، وقلت له فى مشقة وعناء :

ـ لماذا تتصور أننى لا أخشى الله يا تيودوز نيكولايفتش ؟

أعود فأقول لكم اننى فعلت ذلك اصطناعا ، أما فى قرارة نفسى فقد تمنيت لو أغور تحت الأرض •

ـ أبعد أن كنت صديق أسرتنا هذه المدة الطويلة كلها ، أبعـد أن كنت بمثابة ابن ، ولا يدرى الا الله ماذا كان يمكن أن تصبح أيضا ، أبعد كل هذا يا أوزيب ميخائيلوفتش تجىء فتهددنا بأن تشى بنا ؟ فبمن نثـق بعد الآن وعلى من نتكل •

هذا ما قاله لى ثم طفق يحدثنى فى الأخلاق قائلا :

ـ قل لى يا أوزيب ميخائيلوفتش : مـاذا يجب أن يكون رأيى فى الناس بعد اليوم ؟

وقلت لنفسي أنا أيضا : « حقا ماذا يجب أن يكون رأيي في الناس بعد اليوم ؟ » • وشعرت باحتقان في حلقي ، وأخذ صوتي يرتجف • واذ كنت أعرف ضعف ارادتي ، فقد أسرعت أتناول قبعتي تأهبا للخروج •

ـ ما هذا يا أوزيب ميخائيلوفتش ؟ الى أين تذهب ؟ هل يعقل أن تظل تلاحقني بكرهك وبغضك ؟ ماذا صنعت بك ؟ ماذا فعلت لك ؟ •••

ـ تيودوز نيكولايفتش ، تيودوز نيكولايفتش !

ـ كنت قد أصبحت رخوا كقطعة من سكر ذائب ، وكانت حزمة الاوراق النقدية قد ثقلت في جيبي ، ثقلت على ضميري حتى لكأنها تصيح بي قائلة : « يالك من لص ! يالك من انسان عقوق لعين ! » •• وكان هذه اللفة الصغيرة قد أصبح وزنها خمسة أرطال (آه ••• ياليت وزنها كان خمسة أرطال حقا ! ••• » •

قال تيودوز ميخائيلوفتش :

ـ انني أرى وألاحظ أنك نادم ••• أنت تعلم أن غدا هو •••

ـ عيد ماريا المصرية * •••

ـ كفكف دموعك • هيا ••• لقد أخطأت ثم ندمت • هيا •• لعلني أستطيع أن أردك الى سواء السبيل ••• بل لعل مسكني المتواضع أن يشيع شيئا من الحرارة في قلبك الذي ضلّ ولا أقول قسا ! •••

قال ذلك وأمسك يدي أيها السادة ، فقادني الى وسط أسرته ••• شعرت ببرد يسري في جسمي • أخذت أرتعش حين تساءلت بأي وجه أقابل ••• ذلك أن عليّ أن أعترف لكم أيها السادة أن المسألة حرجة جدا •••

ـ أهنالك كانت توجد مدام بولزونكوف ؟

كذلك سأله أحد الساخرين .

ـ بل هنالك كانت توجد ماريا تيودوزيفنا . لم يُقسمَ لها أن تحمل الاسم الذي ذكرته ، لم يكتب لها هذا الشرف . يجب أن أذكر لكم أيها السادة أن تيودوز نيكولايفتش كان على حق حين قال انني كنت أعدُّ في منزله بمثابة ابن . كان هذا صادقا الى ستة أشهر خلت ، حين كان ميشيل مكسيموفتش دفيجايلوف ما يزال حيا . ولكن مشيئة الله العليا قد اختصرت اقامته في هذا العالم قبل أن يتسع وقته لكتابة وصيته .

ـ هوه ...

ـ نعم ... وبقيت أنا لا أملك في جيبي الا صفرا ... ذلك أن السيد المتوفى (رغم أنهم ما كان لهم أن يسمحوا لى بدخول بيته) كان على جانب عظيم من الثراء ، وكان يعذبنى كابن له ، وهو فى ذلك على حـق ...

ـ آ ... آ ...

ـ نعم ، كذلك كان الامر ... وهذا الحادث الذى كان كارثة لى هو السبب فى أن الأنوف فى منزل تيودوز ميخائيلوفتش قد شمخت لى الى غير حد ، وأنهم أصبحوا لا يعاملوننى فى رفق كما كانوا يعاملوننى قبل ذلك .

لاحظت ذلك كله محاولا أن أتظاهر بأننى لا أباليه ولا أحفل به حين ظهر فى مدينتنا ، لسوء حظى (أو ربما لحسن حظى ، فمن يدرى؟) ضابط من سلاح الفرسان . والضابط الذى ينتمى الى هذا السلاح انمـا مهنته أن يركض بغير انقطاع ، هى مهنة فارس كما تعلمون ، لا تسـمح

لصاحبها ان يستقر في مكان . ومع ذلك فقــد بلغ من التصاقه باسرة تيودوز نيكولايفتش ان ذلك أحزنني أشد الحزن .

وعلى عادتي ، عمدت الى طرق ملتوية واساليب غير مباشرة في مواجهة هذه المسالة امام حمي المقبل ... قلت له : « كذا وكذا ، كيت و ذيت ! ». وقلت له : « لماذا تريد ان تعذبني هذا التعذيب يا تيودوز نيكولايفتش ، مع أنني أكاد اكون صهرك منذ الآن ؟ » . وعندئذ أجابني يا سادتي . وكان جوابه جوابا حقا ! ... كان جوابه قصيدة طويلة مؤلفة من اثنتي عشرة أغنية من شعر لو سمعه أحدكم لسمعه فاغرا فاه افتتـانا ! . ووقفت امامه مشدود السمع كابله ، مع انه كان يجرى ويتلوى كثعبان الماء ! تلك هي موهبته ، ايها السادة ، موهبته ...

وعندئذ بدأت حبائلي مع الفتاة . أخذت أجيئها بقصـــائد مؤثرة ، ومربيات طيبة المذاق. وحاولت أن أظهر لها بمظهر الرجل المسلي المضحك، فأروي نكتا قائمة على الجناس ، وأطلق من صدري آهات ، واقول لها ان قلبي يذوب حبا وهياما ... وأذرف الدموع حرّى ، وأبذل اعترافات الحب في سخاء ما بعده سخاء ... حقا ان حماقة الرجل لا حدود لها .. وأنتم تعرفون هذا بأنفسكم من غير شك ... انني لم أنظر في شـــهادة ميلادي ، ونسيت أنني كنت قد بلغت من عمري الثلاثين ... كان واضحا أنهم يسخرون مني ويضحكون عليّ .

واستبد بي الغضب آخر الأمر ، فقررت أن لا أدوس بيتهم بعد ذلك . وتذكرت بعض الوقائع ، وخطرت ببالي بعض الاقاويل . وفكرت، فراودتني تلك الفكرة ، فكرة الوشاية والتشهير . اعترف لكم بأن ذلك كان مني صغارا . غير أن تقريري الصغير كان يشــتمل في الواقع على ايضاحات دقيقة ، بل على براهين قاطعة .

وهذا التقرير الذى أخذت ثمنه أوراقا نقدية جاءني بالف وخمسمائة روبل فضة •

ـ ولكن هذا ابتزاز مالٍ عن طريق التهديد بالتشهير والفضيحة •

ـ نعم ، هو كذلك اذا شئتم • ولكنني ، كما قلت لكم ، انما عمدت الى استعمال هـذه الوسيلة مع شخص يحسن اسـتعمالها ، وقد ألف استعمالها • وعلى هذا الأساس استطيع ان أقول بصراحة ان فعلتى لم تكن جريمة • على كل حال ، دعونى أكمل القصة • وهأنذا أكملها :

ـ لا شك أنكم تتذكرون أن تيودوز نيكولايفتش قادنى الى الصالون وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة • وها هى ذى الاسرة كلها تهب الى لقائى وقد فاضت وجوهها حزنا شديدا ، ان لم يكن غضبا كبيرا • كانوا يبدون جميعا مصعوقين ، ومع ذلك كان يرتسم على وجوههم شيء من رصانة •• عاطفة تشبه أن تكون عاطفة الآباء نحو ابنهم : لكأن دخولى عليهم كان عودة الابن الضال يرجع الى حظيرة الاهل • أجلسونى الى مائدة الشاى •• أما أنا يا سادتى ، فكان فى نفسى شيء كغليان الماء فى السماور ، بينما كانت قدماى متجمدتين صقيعا ••• شعرت أننى صغير جدا ، تعيس جدا ••• وها هى ذى زوجة رئيس النبيلة توجه الىّ الكلام مخاطبـــةً اياى بصيغة المفرد من قبيل رفع الكلفة فتقول : « يخيَّل الى من يراك أنك نحلت أيها الفتى المسكين » ، وهاءنذا أجيبها بقولى : « نعم يا ماريا فومينشنا ، ان صحتى ليست جيدة » • كان صوتى يرتجف ، وكأن المرأة الماكرة كانت لا تنتظر الا هذه اللحظة ، فاذا هى تقول : « واضح أن ضميرك هو الذى يعذبك يا عزيزتى أوزيب ميخائيلوفتش ! لا شك أن وجبات الطعام التى تناولتها عندنا تثقل الآن على قلبك • ان دموع الدم التى أذرفها هى التى تتساقط على ضميرك • » • هذا ما قالته لى أنقله لكم نقلا أمينا ! وقد قالته

وهي تصب الشاي • وكانت هادئة كل الهدوء ، رقيقة كل الرقة ، عذبة كل العذوبة : فلو رآها أحد في تلك اللحظة لما استطاع أن يتصور أن هذه المرأة بعينها هي التي تصيح في السوق كما لا تصيح أشــد النساء عياطا وشياطا • كذلك كانت هذه الناصحة العزيزة أيها السادة •

ومن سوء حظي ان ماريا تيودوزيفنا ، الفتاة ، هي التي جاءت بعــد ذلك بريئة كل البراءة ، شاحبة بعض الشحوب ، محمرة العينين • وقد ظننت ، أنا الابله ، أنني سبب ما ذرفته من دموع • ثم علمت فيما بعد ، انها قد بكت طويلا ، في الواقع ، غير أن بكاءها كان لهذا السبب الأخر البسيط ، وهو ان الضابط التابع لسلاح الفرســان قد أطلق ساقيه للريح ولم يظهر بعد ذلك أبدا ! ثم علم الاهل بعد ذلك بخفايا القضية ، فأرادوا ان يكتموا القصة وأن يخنقوها ، رغم أن الاسرة أصبحت مهــدّدة بأن يزيد عدد أفرادها ••

ما ان رأيت الفتاة حتى تمنيت لو تبلعني الارض ، ثم بحثت بنظــري عن قبعتي ، ولكن أحدا كان قد أخفاها ، فوددت لو أهرب عاري الراس، ولكنهم كانوا قد احتاطوا للامر فأوصدوا الباب • وبدأت بعد ذلك ضحكات وصداقات وغمزات انتهت بتهدئة خاطري قليلا • وجلست محبوبتي الى البيانو فغنت أغنية عاطفية عن الفارس الذي سيذهب * وقال لي تيــودوز نيكولايفتش : « هيًّا هيًّا يا عزيزي • نسيت كل شيء • تعال الي • تعال الى ذراعيّ • » • فهرعت اليه خفيف القلب وطفقت أبكي في صديرته • « أبتاه ! أيها المحسن اليّ » • كذلك هتفت أقول والدموع المحرقة تسيل على وجهي كله • رباه ! ليتكم رأيتم هــذا المشهد ! لقد كان يبكي هو أيضا • وكانت امرأته تبكي كذلك • وكانت حبيبتي الصغيرة ماريا تبــكي مثلما كان يبكي سائر أفراد الاسرة ••• حتى لقد كان هنالك فتاة شــقراء

صغيرة ، لا أدرى من اين أتت ، أخذت تبكى كسائر الباكين ... ومن جميع الاركان كان يخرج صبية صغار ويطفقون يعبطون ... ما أكثر ما ذرف من دموع ! ما اكثر ما ظهر من عواطف الحنان ... هو الابن الضال عاد الى اهله تائبا ، او الجندى رجع من ميدان المعركة الى ذويه سالما ...

ثم كان استقبال حافل حقا : جيء بالفطائر والحلوى ... وقامت بين الحضور ألعاب وتسليات . « آه ... شيء يوجعنى » . كذلك قالت .. فسألتها : « ماذا يوجعك ؟ » فأجابت : « قلبى » . واحمرت المسكينة خفرا وحياء . وشربنا أنا والعجوز خمرا .. وطابت نفسى ..

فلما عدت الى جدتى كان رأسى يدور سكرا . أيقظت جدتي العجوز . وحكيت لها قصة سعادتي فرحا كل الفرح . سألتني جدتى : « هل أعطاك اللص مالا » فقلت : « أعطاني يا جدتى ... السعادة تطرق بابنا يا جدتى ! » ...

وأخذت أنام ، ثم عدت فاستيقظت أفكر فى هذا الفرح الجديد كله .. قلت لنفسى : غدا أول نيسان (أبريل) ... ما أجمله يوما مسليا مضحكا ... وفكرت ثم فكرت فخطرت على بالى فكرة مضحكة ، فنهضت وأشعلت شمعة ، وجلست الى مكتبى ضاحكا وحدى . هل تعرفون يا سادتى الى أين يمكن أن تؤدى بالانسان سعادته ؟ ستعرفون هذا الآن . لقد كان فرحي سببا فى اسراعى الى هوة الشقاء مغمض العينين ، وفى غوصى بالوحل حتى الركبتين . يا لطبعى ما أرداه ! لقد سرقوا منى كل شيء تقريبا ، ثم أعطيتهم الباقى من تلقاء نفسى ! صفعني على احد الخدين ، ثم مددت له الخد الأخرى . قدم الىَّ ُطعْما ، كما ُيمَدُّ ُطعْم" الى كلب ، فاذا أنا أهرع أقبِّل جميع الناس . تماما كما يحدث الآن : أنتم تسخرون مني وتتهكمون على وتتهامسون عنى ، اننى أرى ذلك

كله رؤية واضحة ، أفتح لكم قلبي فستهزئون بي ، ومع ذلك ، ورغم علمي بذلك ، اقص عليكم المزيد ، عالما كل العلم ، برغم هذا ، أن احدا لا يكرهني على أن أفعل ، ولكنني أعدكم كاخوتي ، كأحسن أصدقائي ... هه ! ...

ان الضحك الذي كان يتصاعد شيئا فشيئا قد غطى الآن صـــوت القصاص الذي يبدو الآن أنه يحس بنشوة كبرى تملك عليه نفسه .. وتوقف القصاص عن الكلام ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم اذا هــو يحرك يده باشارة الاستسلام ويأخذ يضحك كسائر الناس كأنما تجـره زوبعة أو يدفعه اعصار ، ربما لأنه أحس أن وضـــعه مضحك حقا . ثم استأنف حكايته :

ـ لم أستطع أن أنام تلك الليلة . فهل لكم أن تحـــزروا ما الذي اخترعته كذبةً لاول نيسان (أبريل) أيها السادة ؟ انني أستحي الآن أن أعترف به ؟ لقد لبثت الليل كله أكتب ، وأنا سكران قليلا ... فيالحماقة ما كتبت !

وفي الصباح ارتديت ثيابي ، وجعدّت شعري ، وتدهنت بالطيب ، وتزينت بأبهى حلة عندي ، ومضيت الى منزل تيودوز نيكولايفتش ، حاملا ورقتي في يدي . استقبلني بنفسه ، وعانقني في صديريته الأبدية . أما أنا فقد تراجعت خطوة الى وراء ، برصانة ورزانة . كان الموقف يضحكني في أعماق نفسي . قلت للرجل : لا ... ياتيــودوز نيكولايفتش ... اقرأ هذه الورقة أولا ...

ـ هل تعرفون ماذا كان في تلك الورقة ؟ كان فيهـــا استقالتي من الوظيفة ، مذيلةً بتوقيعي مع ذكر جميع رتبي وألقابي . ذلكم ما اخترعته كذبةً لأول نيسان (أبريل) . ما كان يمكن أن أجد كذبة أذكى من هذه

الكذبة . قلت لنفسي : هذا أول نيسان (أبريل) ، سأتظاهر بأنني مازلت غضبان ، سأفهمهم انني أصبحت لا أريد ابنتهم زوجة لي ، وان المال الذى في جيبي يغنيني عن كل شيء ، ويضمن مستقبلي ، وأنني لذلك آقدم استقالتي ، وانني اذ اصبحت لا أحب أن أعمل تحت امرة رئيس كهذا الرئيس ، فسأنتقل الى مصلحة أخرى ، وسأقوم هنالك بوشاية جديدة (كانت فكرتي هي أن أمثل دور شخص حقير) . هل فهمتم يا سادتي : لقد نفذت أمس الى قلوبهم ، وبسبب ذلك أردت اليوم أن أطلق لنفسي العنان فيما أحسبه مزاحا مع أهل لا كلفة بينهم ... كنت أريد أن أعبث قليلا بالقلب الأبوى ...

فما ان قرأ ما في الورقة التي قدمتها اليه حتى تغير وجهه فجأة ، وسألني : « ما هذا يا أوزيب ميخائيلوفتش ؟ » ، فما كان مني ـ آه ما أغباني ! ـ الا أن قلت له : « هي كذبة نيسان ياتيودوز نيكولايفتش . » .

قلت لكم انني كنت أشبه بطفل .. تماما كما لو اختبأت وراء مقعد جدتي ، وعويت أريد أن أرعبها ... حقا انني لأخجل أن أقص هذه الحكاية .

ـ هيّا ، هيّا ، أكمل ...

ـ هكذا ارتفعت أصوات من كل جهة من الجهات تحثه على اتمام قصته .

ـ أثار هذا فيهم ضجة كبيرة ياسادتي . أخذوا يصيحون قائلين انني عفريت ، وانني صبي شيطان ، انني أخفتهم وروعتهم . ما كان أرقهم وأشد حنانهم وأعمق صداقتهم أيها السادة ! ... حتى لقد شعرت من فعلتي بخجل ، وقلت لنفسي : « كيف يمكنهم أن يقبلوا خاطئا مثلي في مكان مقدس كمنزلهم . » .

وصاحت السيدة زوجة المستشار تقول فجأة :

ـ روعتني يا عزيزي ، وما زلت أرتعش خوفا الى الآن ، وقد هرعت مسرعة الى ماريا فقلت لها : « أنظري ، مافعل صاحبك أوزيب !» .. وندمت على انني استقبلتك ذلك الاستقبال السيء أمس ، وأحزنني ذلك حزنا شديدا .

كدت أركع أمامها . وعادت الدموع ، وعادت القبلات ، وعادت الامازيج ، الى غير نهاية . وأراد تيودوز نفسه أن يشارك في العبث ، وان يهيىء لنا كذبة من كذبات نيسان (أبريل) على طريقته فقال : « طائر من ذهب وصل بمنقار من ماس ، وبهذا المنقار كان يحمل رسالة .. » . كان يضحك مني . وأخذ الجميع يضحكون ، وعمّ الفرح والمرح ... بف ... اني لأشعر بالعار من سرد هذه القصة .

والآن تشارف قصتي على نهايتها أيها السادة . لقد عشنا على هذا النحو يوما ، ويومين ... وأسبوعا . كانوا يعدونني خطيبا للفتاة . حتى لقد أوصوا على خاتمي الخطبة ، وأوشكوا أن يعينوا يوم الزفاف ، ولكنهم لم يشاءوا أن يشهروه فورا ، لأنهم كانوا ينتظرون وصول مفتش من بطرسبرج . واذ كان هذا الموظف يؤخر سعادتي فقد كنت أنتظر وصوله بصبر نافد وشوق محموم مسعور ، وأقول لنفسي : « آه ... متى ننتهي ؟ » ...

واستفاد تيودوز نيكولايفتش من اضطرابي هذا فعهد اليّ بجميع أعماله : من حسابات ، وتقارير ، ومراجعات دفاتر ، واجراء عمليات جمع . كانت الفوضى في المحاسبة رهيبة . ففي كل موضع أخطاء ، وثغرات ، ونواقص . فكان يقول لي : لا بأس ... ساعد حماك قليلا . وكان الرجل يبدو مريضا ، وكان يلوح أن اعتلال صحته يتفاقم يوما بعد

يوم • أما أنا فقد أصبحت من فرط هزالى أشبه بعود ثقاب لكثرة ما أقوم به من عمل بغير راحة ولا مهادنة •

وأنجزت أخيرا كل شيء في موعده ، حتى اذا جاء اليوم المشئوم رأيت رسولا يصل الى مسكنى فجأة ، فيقول لى : « تعال حالا ، فان ثيودوز نيكولايفتش في حالة سيئة جدا • » • فأسرعت أركض ، حتى اذا وصلت رايت ثيودوز نيكولايفتش ملففا بكل أنواع الملابس ، ورأيتهم يضعون على رأسه أضمدة مبللة بالخل ، ورأيته يصيح : آه ••• أواه ••• آه ••• أواه •

قال لى حين أبصرنى :

ـ ايه يا عزيزى ••• ما عسى نصير اليه من مصير ؟ سوف أموت ، فلمن أدع أسرتى كلها وجميع أطفالى ؟

وكانت امرأته موجودة هنالك مع الاطفال ، وكانت ماريا تبكى •• فلما رأيت هذا المشهد أخذت أبكى أنا أيضا • فطلب اليهم عندئذ أن يخرجوا جميعا ، وأمرنى أن أغلق الباب ، ولبثنا معا على انفراد • قال :

ـ لى رجاء عندك •

ـ ما هو ؟

ـ اسمع يا بنى العزيز • أريد وأنا على فراش الموت أن أبوح لك باعتراف : ان الخزنة ناقصة بعض المال ، وقد سددت بعض النقص من مالى أنا • انى لأتألم كثيرا حين أتذكر أن أناسا أشرارا اتهمونى لديك زورا وبهتانا ••• لقد غشوك يا عزيزى ، فابيض شعرى منذ ذلك اليوم حزنا وكمدا • وسيصل المفتش قريبا ، والخزنة التى يقوم عليها هذا المسكين ماتفاييف ناقصة سبعة آلاف روبل • وسأطالب أنا بسداد المبلغ ،

اذ ما الذى يمكن أن يجدوه لدى ماتفايف ؟ انه تعيس بائس بدون هذا ، وليس فى وسعنا أن نطالبه بشيء اذا أردنا الانصاف ... وانى لأوثر أن أكون مسئولا عن الأمر وحدى .

قلت لنفسى :

ـ يا لهذا الرجل ما أنبل نفسه !

وأضاف يقول :

ـ ولست أريد أن آخذ مالا من ابنتى ، لأن بائنتهـا شيء مقدس ما ينبغى أن تمتد اليه يد . وانى لأملك بعض المال ، ولكنه ليس فى حوزتى نقدا جاهزا ، فما عسانى صانعا لأرتق الفتق بأقصى سرعة ممكنة ؟

لم أستطع أن أكبح جماح نفسى مزيدا من الكبح ، وهأنذا أركع أمامه قائلا :

ـ ايه يا من أحسنت الىّ وأنعمت علىّ ! ... لقد جهلت حقيقتك، ولم أقدرك قدرك . وسوس لى بعض الاشرار أن أكتب تلك الوشـاية اللعينة ، فاغفر لى ، وسامحنى ، واليك مالك أرده اليك معتذرا .

فنظر الى والدموع فى عينيه ، وقال :

ـ هذا ما كنت أتوقعه منك يا بنى . وهذا ما أحب أن أعرفه فيك . لقد غفرت لك قبل الآن حين رأيتُ دموع ابنتى ، أما الآن فان قلبى كله يعفو عنك . لقد شفيت جروح نفسى ، وانى لأباركك الى الابد !

ـ لقد باركنى يا سادتى . وركضت أنا الى البيت أحمل المال لأعيده اليه . قلت له :

ـ خذ يا أبتاه ! المبلغ كامل الا من خمسين روبلا انفقتها فى بعض حاجاتى •

فقال لى :

ـ لا بأس ••• فاكتب اذن طلبا مؤرخا بتاريخ سابق ، تلتمس فيه سلفةً على راتبك بمقدار خمسين روبلا • فأقوم أنا بما يجب أن أقوم به تجاه الرؤساء ، قائلا اننى أعطيتك هذا المبلغ سلفةً على راتبك •

ما رأيكم يا سادتى ؟ لقد كتبت له هذا الطلب •

سأله أحدهم :

ـ فكيف انتهى الأمر كله بعد ذلك ؟

فأجاب المهرّج يقول :

ـ انتهى بالموافقة على ما تضمنته تلك الورقة اللعينة التى كتبتها كذبةً لأول نيسان (أبريل) • ففى الغداة تلقيت جوابا رسميا مختوما بالخاتم الرسمى وفيه يقـال لى ان اســتقالتى قد قُبلت ، وان علىّ أن أهيىء حساباتى وأن أعيدها الى المصلحة وأن أذهب الى حيث أشاء أن أذهب •

ـ كيف ؟

ـ وأنا أيضا صحت يومئذ قائلا : كيف ؟ لقد أخذت أذناى تطنان ، وأخذ قلبى يرتجف ، ثم أسرعت الى تيودوز نيكولايفتش • ولم يلبث الحديث أن جرى بيننا على الفور •

سألته :

ـ ما هذا كله ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ قبول الاستقالة •

ـ أي استقالة ؟

ـ اليك ما تلقيته الآن •

ـ فعلا ••• لقد قُبلت استقالتك •••

ـ ولكننى لم أقدم استقالة فى يوم من الايام ••

ـ كيف ؟ ألم تقدمها مؤرّخة فى أول نيسان (أبريل) ؟

يا لحماقتي !! ••• كنت قد تركت له الورقة التي دبجت عليها كذبة أول نيسان (أبريل) •••

قلت :

ـ تيودوز نيكولايفتش ••• أأنت أنت من تراه عيناى الآن ؟

ـ أنا ؟ طبعا ! ثم ماذا ؟ يؤسفني جدا يا سيد أنك قد راودتك الرغبة فى ترك العمل بالمصلحة بهذه السرعة • كان يجدر بشاب مثلك أن يحب الاستمرار في العمل ، أما أنت أيها السيد فان رأسك تميل مع كل ريح، وان آراءك تتقلب من ساعة الى ساعة • على كل حال ، كن مطمئنا من ناحية الشهادة التي سأعطيها لك • سأكتب لك شهادة جيدة : فلقد فعلت كل ما يجب من أجل أن تستحقها •

ـ ولكنها كانت مزحة يا تيودوز نيكولايفتش ، ولئن أعطيتك تلك الورقة لقد كان ذلك كله عبثا لم أقصد منه الا أن أضحكك •

ـ ها ••• مزحة ؟ منذ متى يمزح الناس فى شئون العمل وأمور

الخدمة ؟ اعلم أيها السيد أن مزحات من هذا النوع يمكن أن تؤدى بك يوما الى سيبريا . والآن وداعا أيها السيد . ليس فى وقتى متسع للحديث معك . لقد وصل المفتش ، وواجبات العمل هى فى المقام الأول ؟ فاذا كنت أنت تحب المزاح ، فأنا مشغول بالعمل . وأعود فأقول لك انك تستطيع أن تعوّل على شهادة حسنة في حقك ... ها ... وأحب أن أبلغك انني قد اشتريت منزلا ... وسنجهزه قريبا ... فأرجو أن لا أراك على بابه . أتمنى لك سفرا ميمونا أيها السيد .

ركضت الى مسكنى ، فوصلت الى جدتى وأنا أصرخ : « لقد ضعنا ... يا جدتي . » . فأخذت جدتى تعول دون أن تعرف ما النبأ . وفي الوقت نفسه رأينا خادم تيودوز نيكولايفتش يصل حاملا قفصا يتواثب فيه زرزور : هو هدية كنت قد أهديتها الى خطيبتى . لقد أعادوه الينا مع بطاقة كتب عليها : كذبة نيسان (أبريل) .

ـ وما حدث بعد ذلك ؟

ـ ماذا تتوقعون أن يحدث ؟ لقد لقيت تيودوز نيكولايفتش فى أحد الأيام ، وكنت مستعدا كل الاستعداد لأن أعلن له رأيى فيه صريحا ، وأن أعيب عليه صناره ...

ـ هل فعلت ؟

ـ لم أستطع .

السارق الشريف

١٨٤٨

«السارق الشريف (Tchestnyi vor)

كتب دوستويفسكي هذه القصة في ربيع ١٨٤٨ ، ونشرت في مجلة « حوليات الوطن » ، نيسان (ابريل) ١٨٤٨ ، مج ٥٧ ، تحت عنوان « اقاصيص شيخ عابر سبيل » ، وكانت تضم قصتين : ١ - « الجندي المتقاعد » ، ٢ - « السارق الشريف » • ولكن دوستويفسكي حين أعد طبعة أعماله الأولى سنة ١٨٦٠ حذف القصة الأولى التي لم يكن راضيا عنها ولم يبق الا الثانية •

في ذات صباح ، بينما كنت أهم أن أخرج الى مكتبي، دخلت عليّ آجرافينا ، طباختي وغسالتي وخادمي في آن واحد ، وأجرت معي الحديث على دهشة شديدة مني ؛ ذلك أنني حتى هذا الصباح لم أكن قد سمعت منها غير هذه الكلمات : « ماذا يجب أن أهيىء للعشاء » . انها ممحوة دائما ، صموت دائما ، حتى لأستطيع أن أقول انها خلال ست سنين لم تنطق بكلمة واحدة زيادة على ذلك السؤال ، بحضوري في أقل تقدير . بدأت تقول فجأة :

ـ اسمع يا سيدي ... هناك شيء أريد أن أطلبه منك . يحسن بك أن تؤجر الحجرة الصغيرة ...

ـ أية حجرة صغيرة ؟

ـ الحجرة الصغيرة القـريبة من المطبخ . أنت تعـرف أي حجرة أعني .

ـ لماذا يحسن بي أن أؤجرها ؟

ـ لأن هناك أناسا آخرين عندهم مستأجرون . واضح لماذا .

ـ ولكن من يستأجرها ؟

ـ من يستأجرها ؟

ـ ولكن يا ماتوشكا ليس في هــذا الركن متسع حتى لسرير • فمن ذا الذي يستطيع أن يعيش في هذه الحجرة ؟

ـ هل يجب على من يستأجرها أن يعيش فيها ؟ يكفي أن يكون له فيها مكان للنوم ••• ثم هو يعيش قرب النافذة •

ـ أية نافذة ؟

ـ أية نافذة ؟ كأنك لا تعرف أن هناك نافذة ! نافذة حجرة المدخل• يقيم الساكن هناك ليخيط أو ليعمل شيئا آخر • وقد يجلس على كرسي • ان عنده كرسيا وطاولة وكل شيء •

ـ ولكن من هو هذا المستأجر ؟

ـ رجل طيب • رجل رأى كثيرا • وسأعد له وجبات طعامه ، وسأكتفي منه بثلاثة روبلات للسكن والطعام جميعا •

وأخيرا ، بعد جهود كثيرة ، علمت أن هناك رجلا ، متقدما في السن، قد أقنع آجرافينا بأن تسمح له بالعيش في المطبخ مستأجرا •

وكانت أجرافينا ، اذا استقر في رأسها رأى ، لا يمكن أن يخرجه منه شيء • وكنت أعلم أنها لن تدعني هادئا مالم تحصــــل على ما تريد الحصول عليه • ومتى أصــبح أمر من الأمور لا يجـرى على ما تحب ، أصبحت كثيرة الوجوم شديدة الكآبة والحزن • وكانت تبقى على هــذه الحال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، وفي أثناء هــذه الفترة يُهمـل المطبخ ويضيع الغسيل ، ولا تنظف الأرض ، ويسير كل شيء في المسكن مقلوبا • وكنت قد لاحظت منذ زمن طويل أن هذه المرأة الصموت لا تستطيع أن

تتخذ قـرارا ، ولا أن تتلبث على رأى نابع من ذاتهـا • ولكن اذا اتفق عرضا أن نبت فى دماغها الضعيف شيء يشبه أن يكون رأياً أو قرارا ، فان الحيلولة دون تنفيذ هذا الرأى أو هذا القرار يقتل روحهـا قتلا الى حين غير قصير • لذلك ، ولما كنت أضع هدوئى فى المقام الأول ، فقـد وافقت فورا • قلت لها :

ـ هل عنده أوراق على الأقل ، هل عنده جواز سفر أو شيء من هذا القبيل ؟

ـ كيف لا ؟ ••• لا شك أن عنده كل ما يجب • هو رجل طيب ، رأى كثيرا • وقد وعد أن يدفع ثلاثة روبلات •.

وفى الغداة ، ظهر فى مسكنى ، مسكن الرجل العازب ، مسـتأجر جديد • والحق أن هذا لم يسؤنى ، حتى لقد سرّنى • لقـد كنت على وجه العموم أعيش فى عزلة تشبه أن تكون كاملة • فليس لى أصدقاء ، وقلما أخرج ؛ وأنا أحيا منذ عشر سنين حياة ناسك ، حتى ألفت العـزلة والاعتكاف • ولكن من الواضح أن عشر سنين أو خمس عشرة سنة من هذه العزلة نفسها ، مع آجرافينا نفسها ، فى هذا المسكن نفسه ، مسـكن العازب ، من الواضح أن هذا كله يجعل الحياة باهتة لا لون لها • ولذلك فان مجيء انسان آخر ، انسان مسالم ، هو فى مثل هذه الظروف هبة من السماء •

ولقد صدقت آجرافينا • فالمستأجر الجديد كان انسانا رأى كثـيرا بالفعل • ان جواز سفره يشير الى أنه جندى مسرّح • على أنه كان فى امكانى أن أحزر ذلك حتى دون النظر فى جواز السفر • فما أسهل أن يقدر المرء ذلك •

كان جارى الجديد آستافى ايفانوفتش انسانا طيبا حقا ، فسرعان ما

تفاهمنا • والشيء الذي أمتعني فيه بخاصة هو ان آستافي ايفانوفتش كان يجيد رواية القصص اجادة مدهشة ، ولا سيما المغامرات التي شـــارك فيها • وواضح أن قصاصا من هذا النوع هو في حياة فقيرة رتيبة كحياتي يمكن أن يعد كنزا ثمينا •ولقد قص علي في ذات مرة قصة من هذا الطراز أثرت في نفسي تأثيرا كبيرا • واليكم المناســبة التي روى لي فيها هـــذه القصة •

كنت في يوم من الأيام وحـدي بالمسكن ، بعد أن خرج آســتافي وخرجت آجرافينا لبعض شئونهما ؛ فاذا بي أسمع ، وأنا في غـرفتي ، وقع أقدام شخص يدخل البيت • لا شك أن الداخل كان شخصا غريبا • فمضيت أرى من الداخل ، فاذا أنا فعلا أمام رجل في حجرة المـدخل ، رجل مربوع القامة لايرتدي الا سترة برغم برودة جو الشتاء •

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل الموظف ألكسندروف هنا ؟

ـ لا أعرف • مع السلامة •

ـ كيف ؟ لقد قال لي البواب انه يسكن هنا •

كذلك قال الزائر وهو ينسحب محاذرا نحو الباب :

ـ اذهب يا صاحبي اذهب •

وفي الغداة ، بعد العشاء ، بينما كان آستافي ايفانوفتش يجرب علي ردنجوتا كان يخيطه لي ، دخل أحد" حجرة المدخل من جديد ، ففتحت الباب • فاذا أنا أرى الشخص الذي جاء بالأمس يتنـاول معطفي من على المشجب بهـدوء ، ويضـــعه تحت ابطه ويـنـدفع خارجا بسرعة • كانت أجرافينا تنظر اليه فاغرة الفم من الدهشة دون أن تفعل شيئا لتمنع هـذه السرقة •

وركض أستافى ايفانوفتش يلاحق السارق ، ثم عاد بعد عشر دقائق لاهثا ، صفر اليدين • لقد استطاع السارق أن يهرب • قال أستافى ايفانوفتش :

ـ لم يسعفني الحظ ••• على كل حال ، الحمد لله على أنه ترك لى معطفى ، والا لبقينا من غير شيء ••• ولكان « دبَّرنا » تماما ••• هذا اللص •

وقد بلغ أستافى ايفانوفتش من الانصعاق لما حدث أننى حين نظرت اليه نسيت السرقة • ولم يستطع أستافى ايفانوفتش بعد ذلك أن يفيق من هول الصدمة • فهو يدع عمله فى كل لحظة ويأخذ يبدىء ويعيد متحدثا عما وقع ، متسائلا كيف وقع ، قائلا : أيكون السارق أمام أعيننا ، على بعد خطوتين منا ، ثم يستطيع أن يسرق المعطف ، ثم يعرف كيف يهرب فلا نقبض عليه ؟ ويسكت أستافى ويستأنف عمله ، ولكنه ما يلبث أن يدعه من جديد ، ليعود الى الكلام فى الموضوع مرة أخرى • وأخيرا مضى الى البواب يعيد سرد القصة له ، ويقرِّعه على أن أمورا كهذه تقع فى فناء المنزل الذى يحرسه • ثم عاد الى أجرافينا ، فقرَّعها وأنَّبها هى أيضا • ثم استأنف عمله وهو يدمدم بين أسنانه متسائلا كيف أمكن أن يقع هذا • « كان هو هنا ••• وكنت أنا ههنا ••• وعلى مرأى منى ، وعلى بعد خطوتين منى ، استطاع أن يأخذ المعطف ••• » ، الخ • الخلاصة أن أستافى ايفانوفتش قد اضطرب أشد الاضطراب ، وغضب أشد الغضب •

قلت له فى المساء وأنا أقدم اليه قدحا من الشاى :

ـ لقد عرف السارق كيف « يدبرنا » يا أستافى ايفانوفتش •

وكنت أريد من ذلك أن أجعله يعيد سرد حكاية المعطف المسروق ،

هذه الحكاية التي أصبحت مسلية مضحكة من كثرة ما أعيد سردها ، ومن عمق الصدق الذي كان يتجلى في كلام راويها •

ـ لقد « دبرنا » يا سيدى • وأنا زعلان جدا ، رغم أن السارق لم يسرق معطفى أنا • لا شيء يثير حنقي كما يثيره لص يا سيدى • غيره يقترض منك ، أما هو فيسرق ثمرة عملك وجهدك وعرقك ووقتك • أف ••• أصبحت لا أطيق التفكير فى هذا الموضوع من فرط ما يغيظنى ••• ولكن قل لى يا سيدى : كيف لا أراك غضبان ؟ أتراك لا تأسف على ضياع رزقك ؟

ـ بلى يا يا أستافى ايفانوفتش • ان المرء ليؤثر أن يحرق أشياءه بنفسه على أن يدعها لسارق • حقا ان الانسان لا يجب أن ••

ـ لا يجب ماذا ؟ ومع ذلك هنـــاك لص ولص ••• هنـاك سارق وسارق ••• فأنا يا سيدى قد اتفق لى أن وقعت على سارق شريف •••

ـ كيف يكون سارق شريفا ؟ هل يمكن أن يكون سارق شريفا ؟

ـ طبعا يا سيدى • صحيح أنه ليس هناك لص شريف ••• ولكننى أردت أن أقول انه كان يلوح لى أن ذلك الرجل كان شريفا وقد سرق• ان المرء يرثى لحاله •

ـ كيف حدث ذلك ؟

« وقع هذا منذ سنتين يا سيدى • فى ذلك الوقت لبثت بلا وظيفـة خلال ما يقرب من سنة بكاملها • وكنت فى وظيفتي الأخيرة قد انعقدت صلة بيني وبين انسان تعيس ، بائس ، انسان منهار ••• التقينا ذات يوم فى خمارة • كان مدمنا ، عاطلا ، كسلان ••• عمل خلال فترة من الوقت فى مكان ما ، ثم طرد من عمله منذ مدة طويلة بسبب ادمانه على السكر • لقد كان انسانا شقيا بائسا ، رث الثياب ، يرتدى أسمالا بالية وأطمارا

لا يمكن أن أصفها لك ••• ان المرء ليتساءل حين يراه : ترى أهو يلبس تحت معطفه قميصا ؟ كل ما كان يقع بين يديه كان ينفقه في شرب الخمرة• ولكنه لم يكن صاخبا عربيدا ••• كان حلو الطبع دمث الخلق طيبا هادئا كل الهدوء ، حتى لقد كان يشعر بخجل دائم ، فهو شديد الحياء • كل ما هنالك أن المسكين كان يحب أن يشرب ، والناس تلاحظ فيه ذلك فتتصدق عليه • وعلى هذا النحو انما انعقدت الصلة بيني وبينه • أعني أنه تعلق بي وتشبث باذيالي ••• وأنا من جهتي كان يستوى عنده أن يكون سكيرا او أن لا يكون سكيرا ••• المهم أنه ارتبط بي ارتباط كلب بصاحبه ••• أذهب الى هنا فيتبعني ••• وأذهب الى هناك فيمشي ورائي ••• ولم نكن قد التقينا الا مرة واحدة ! في أول الأمر اضطررت أن آذن له بالمبيت عندي ليلته • كان يحمل جواز سفر سليماه قلت لنفسي : طيب ••• لا باس ••• فليبت عندي هذه الليلة • وفي الليلة التي بعدها اضطررت أن أسمح له بالمبيت عندي أيضا ••• وفي اليوم الثالث بقي النهار كله واقفا الى حافة النافذة ••• حتى اذا جاء المساء لبث للمبيت • قلت لنفسي : « لقد تعلق بي الرجل ••• وسيكون عليّ أن أقدم له الطعام والشراب عدا المبيت ••• أنا رجل فقير ، وهذا رجل عاطل كسلان يتعلق بي ! ••• » •

« وقبل أن يتشبث بي كان قد فعل هذا الشيء نفسه مع أحد الموظفين • أنشب فيه ، فكانا يشربان معا • ولكن ذلك الموظف مات لا أدرى بأي مرض •

« كان اسم الرجل ايمليان ، ايمليان ايلتش • فكرت وفكرت ••• ثم قلت لنفسي : ما العمل معه ؟ أأطرده ؟ ذلك أمر قاس ، فالرجل فقير بائس • ان وضع الانسان المنهار يحز في النفس كثيرا • وكان هو صموتا

لا يطلب شيئاً ، بل يظل جالسا يحدق فيك كما يحدق كلب • أنظر ماذا يستطيع أن يفعله الادمان على السكر بالانسان ! وفكرت مزيدا من التفكير• تساءلت : كيف أقول له اذهب يا ايمليان ، فليس لك ههنا مكان ، لأنك لم تقع حيث يجب أن تقع ، فأنا امرؤ فقير لن ألبث أن يعوزني ما أسد به رمقي ، فلا أستطيع والحالة هذه أن أعيلك ؟ ••• ثم فكرت مزيدا من التفكير أيضا ، فتساءلت : ما عساه يعمل اذا قلت له هذا الكلام ؟ وتصورت النظرة التي سيلقيها على حين يسمع هذا مني ؛ وتصورت كيف سيبقى جالسا زمنا طويلا دون أن يفهم شيئا ؛ وتصورته ناهضا عن حافة النافذة بعد أن فهم معنى ما قلته له ، متناولا منديله الذي ما زلت أراه الى هذه اللحظة ، وهو منديل ذو مربعات حمراء ، ممزق ، كان يحمله دائما معه ويضع فيه لا يدرى الا الله ماذا ، وتصورته يسدل معطفه على جسمه ليستقر فيه استقرارا مريحا ، وليتقي به البرد مخفيا ثقوبه ، لأنه انسان حساس•• وتصورته يفتح الباب ويخرج الى السلم وقد فاضت عيناه دموعا ، فقلت لنفسي : لا ••• ما ينبغي أن يضيع الرجل ••• لقد أشفقت عليه ، ورثيت لحاله •

« ثم فكرت مزيدا من التفكير ، فتساءلت : « وماذا أفعل أنا ؟ ثم قلت له : « انتظر يا ايمليان • انك لن تبقى طويلا عندي ••• فقريبا أسافر من هنا ، ولن تجدني اذا عدت • » • وسافرنا يا سيدي • قال لي مولاي الكسندر فيلمونوفتش ــ الذي مات بعدئذ يا سيدي ، رحمه الله ــ « أنا راض عنك جدا يا أستافي • وحين تعود ، فلن ننساك • سوف نستبقيك عندنا • وكنت أنا أعمل لديهم رئيسا للخدم • لقد كان رجلا شهما طيبا • ولكنه مات في تلك السنة نفسها • فلما دفناه ، أخذت أمتعتي وبعض المال وقلت لنفسي : « الآن سأستريح» • وسكنتُ لدى امرأة عجوز• استأجرت عندها ركنا هو الركن الوحيد الذي كان خاليا • كانت المرأة العجوز قد

عملت مربية للأطفال ، وهي تملك الآن ربما صغيرا . قلت لنفسي : «طيب» . « وداعا يا ايمليان ، يا صديقي ، لن تجدني بعد الآن . » . فهل تصدق يا سيدي ؟ لقد عدت الى البيت في ذات مساء من زيارة رفيق من رفاقي ، فماذا رأيت ؟ رأيت ايمليان ! كان قاعدا على صندوقي ، واضعا منديله ذا المربعات الحمراء قربه . وكان يرتدي معطفا ، وينتظر ... ومن أجل أن يطرد الملل كان قد استعار من العجوز كتابا من كتب الادعية والصلوات أمسك به مقلوبا وجعل ينظر ... فاذا هو يراني ! سقطت يداي من فرط الدهشة . قلت لنفسي : « اذن لا مفر ... لماذا لم أطرده طردا من أول مرة ؟ » وأسرعت أقول له : « هل جئت بجواز سفرك يا ايمليان ؟ » .

« وجلست يا سيدي ، وأخذت أتساءل هل يضايقني وجود هـذا الأبله كثيرا ؟ ... وبعد تفكير طويل ، وبعد تقليب الأمر على وجـوهه المختلفة ، انتهيت الى أن وجوده لن يزعجني ازعاجا شديدا . قلت لنفسي: هي كسرة خبز في الصباح ، وحتى تبدو له مشهية يمكن شراء قليل من الثوم . وفي الظهر خبز وثوم أيضا . وفي العشاء ثوم مع قليل من خمر الكفاس ، فاذا أضيف الى ذلك شيء من حساء الملفوف كان هذا عيدا لنا كلينا . وأنا لا آكل كثيرا . ومن المعروف أن من يشرب كثيرا لا يكاد يأكل شيئا . فما هو في حاجة الى غير النبيذ أو الخمرة . وقلت لنفسي عندئذ : « ولكنه سـيدمرني بالشرب » . غير أن فكرة أخرى راودتني فجأة يا سيدي ، واستولت عليّ عاطفة جديدة استيلاء تاما . قلت لنفسي : لو ذهب ايمليان ، لما طقت الحياة ... لذلك قررت أن أكون له بمثابة أب ، بمثابة محسن اليه منعم عليه . وسوف أنقذه ، سوف أمنعـه من الدمار ، سوف أحمله على الاقلاع عن ادمان السـكر . قلت بيني وبين نفسي : « انتظر يا ايمليان ... سـوف ترى ... » . ثم أضفت أقول له : « طيب يا ايمليان .. ابق .. ولكن عليك بعد اليوم أن تطيعني ...

وعدت أقول لنفسي : « سوف أبدأ بتعويده العمل . ولكن على مهـل . يجب في أول الأمر أن يتسلى قليلا ... وسوف ألاحظه ، فأعرف أي نوع من أنواع العمل يستطيع أن يمارسه . » . وأنت تعرف يا سيدى أنه لا بد ، في أي نوع من أنواع العمل ، أن يكون المرء قادرا عليه ، مؤهبا له . لذلك بدأت بملاحظته ومراقبته ودراسته . ولكن جمـيع أوهامي ما لبثت أن تبددت . لقد بدأت في أول الأمر يا سيدى أقول له كلاما طيبا : « اسمع يا ايمليان ايلتش ... فكر قليـلا ... عليك أن تعمل شيئا ما ... كفاك كسلا ... أنظر الى الاسمال الرثة والاطمار البالية التي تلبسها ... ان معطفك يكاد يكون كالمصفاة من كثرة ثقوبه . لقد آن لك أن تحاول تغيير حالك ! » .

« وكان ايمليان جالسا مطرق الرأس يصغى الىّ دون أن يقـول شيئا . انه لا يعرف أن يقول كلمة معقولة . أصغى الى طويلاً طويلاً طويلاً ، ثم تنهد .

سألته :

ـ مالك تتنهد ؟

فأجاب :

ـ لا شيء يا أستاذ ايفانوفتش ... لا تقلق . هل تعلم يا أسـتاذ ايفانوفتش ؟ لقد تضاربت امرأتان اليوم في الشارع . كانت احداهمـا قد قلبت للأخرى سلة العنب التي كانت تحملها ... قلبتها عرضا .

ـ طيب ؟

ـ وعندئذ ثارت ثائرة الاخرى فقلبت لها سـلة عنبها وأخـذت تدوسه .

ـ وبعد ذلك يا ايمليان ايلتش ؟

ـ هذا كل شيء يا أستاذ ايفانوفتش ••• هذا ما حدث •

ـ هذا ما حدث ! ولكن ما قيمة هذا ؟ •••

وقلت لنفسي : « مسكين ايمليان ! ••• » •

ـ وهناك أيضا سيد سقطت منه ورقة نقدية على رصيف شارع جوروخوفايا ••• لا بل شارع سادوفايا ••• ورأى ذلك فلاح فقال : هذا من نصيبي ••• ولكن فلاحا آخر كان قد رأى ذلك قال : « بل هو نصيبي أنا ••• لقد رأيتها قبلك » •

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك تضارب الفلاحان يا أستاذي ايفانوفتش • فأخذ الشرطي الورقة النقدية وردّها الى صاحبها ، وهدّد الفلاحين بسوقهما الى قسم الشرطة •••

ـ طيب ، ما قيمة هذا ؟ أي شأن وأية خطورة في هذا كله ؟

ـ لا شيء •• يا أستافي ايفانوفتش ••• لقد ضحك الناس كثيرا •

ـ آه يا ايمليان ••• لقد بعت روحك بقرش ••• هل تعلم ماذا سأقول لك ؟

ـ ماذا يا أستافي ايفانوفتش ؟

ـ سأقول لك ان عليك أن تشغل نفسك بعمل من الاعمال • حقا ••• يجب عليك أن تعمل شيئا ما ••• قلت لك مائة مرة : ارحم نفسك •

ـ ولكن أى عمل أعمل يا أستافى ايفانوفتش ؟ لست أعلم ما الذى أستطيع أن أعمله ؟ وما من أحد يريدنى •

ـ ولماذا طُردت من الخدمة ؟ هـــه ؟ لمـاذا طردت من وظيفتك يا ايمليان ؟ لأنك تشرب •••

ـ بالمناسبة يا أستافى ايفانوفتش ••• ان فلاس ، الخازن قد استدعى اليوم الى المكتب •

ـ لماذا استدعى ؟

ـ لا أعلم يا أستافى ايفانوفتش • ولكن ما دام قد استدعى فهذا يدل على أنه كان يجب استدعاؤه •

قلت لنفسى : « آه ••• لقد ضعنا كلانا يا ايمليان ••• ان الله هو الذى يعاقبنا على خطايانا ••• ما عسى يفعل المرء بانسان كهذا الانسان ؟»

« على أن ايمليان كان فتى ماكرا ••• كان يصغى الىّ ، ولـكنه يضجر فى آخر الامر ، لذلك كان اذا رآنى متعكر المزاج يتناول طعامه ويغيب فلا أرى له أثرا • ويظل يتســكع طول النهار فى مكان ما ، ثم يعود فى المساء وقد أخذ منه السكر كل مأخذ • أما من الذى كان يهب له مالاً ليشرب ، أما من أين كان يأتى بالمـال ليشرب ، فذلك أمر لا يعلمه الا الله ••• وليس الذنب ذنبى •••

« قلت له فى ذات يوم : ايمليان ايلتش ، كفاك سكرا ، هل تفهم ؟ واذا عدت الى البيت اليوم سكران ، فستقضى الليل كله على السلّم ، ولن أدعك تدخل » • •

« وفى الغد مكث ايمليان فى البيت • وكذلك فعل غداة غد • ولكنه

عاد فغاب فى اليوم الثالث • وانتظرته ، انتظرته طويلا ، فلم يعـــد • فاخذت أشعر بقلق والحق يقال ، وأشفقت عليه • ساءلت نفسى : « ماذا فعلت ؟ لقد أخفته ، فأين ذهب المسكين ؟ لعله لن يعود أبدا • يا رب !»

« وانقضى الليل ولم يعد • فلما استيقظت فى الصـــباح ذهبت الى الدهليز ونظرت فاذا هو نائم هناك • كان نائما هنالك ، مسندا رأسه على الدرجة الاولى من درجات السّلم ، ويكاد يكون متجمدا من شـــدة البرد •

ـ ماذا دهاك يا ايمليان ؟ ما هذا يا رب ! أين كنت يا ايمليان ؟ لماذا أنت هنا ؟

ـ لقد غضبت منى فى ذلك اليوم يا أستافى ايفانوفتش ، فقلت انك ستدعنى أنام فى الدهليز ••• لذلك لم أجرؤ أن أدخل ، ونمت هنا ••

« كنت أغلى من شدة الحنق وشدة الشفقة فى آن واحد •

قلت له :

ـ ولكن كان فى وسعك يا ايمليان أن تجد لنفسك عملا آخر غير حراسة السّلم •

ـ أى عمل يا أستافى ايفانوفتش ؟

قلت مغتاظا أشد الغيظ :

ـ ولكن أيها الشقى ••• لو أنك تعلمت الخياطة مثلا ••• أنظر الى معطفك ! انه ثقب لا أكثر ••• لو تناولت ابرة فأخذت تسد هـذه الثقوب ••• ويل لك أيها الشقى ، أيها السكير •••

« فلما قلت له ذلك يا سيدى تناول ابرة • وكنت قد قلت له ذلك

مازحا • ولكنه خاف وأطاعني • فاذا هو يخلع معطفه ، ويأخذ يحاول ادخال الخيط في سم الابرة • وطبيعي أن عينيه لا تبصران جيدا • لقد كانتا محمرتين احمرارا شديدا ••• وكانت يداه ترتعشان • دفع الخيط ، ثم دفعه فلم يدخل الخيط في سم الابرة ••• وطرف عينيه ، وبلل الخيط بريقه ، وفتله بأصابعه ••• ولكن جهوده كلها ذهبت عبثا • فعدل عن المهمة ونظر الى •

ـ ماذا تفعل يا ايمليان ؟ لقد قلت لك ذلك من أجل أن أشعرك بالخجل ••• كان الله في عونك ••• ابق عندى • ولكن دعك من الحماقات • لا تنم بعد اليوم على السلم ••• لا تهني •••

ـ ولكن ماذا أستطيع أن أفعل يا أستافي ايفانوفتش ؟ أنا أعلم أنني دائما سكران ، وأنني لا أصلح لشيء • ولكن يحزنني أن أغضبك أيها المحسن الى •••

« وفجأة أخذت شفتاه الحائلتان ترتعشان ، وجرت على خده الاصفر دمعة • وارتجفت هذه الدمعة لحظة على لحيته الشعثاء ، ثم أخذت العبرات تتساقط من عينيه سيلا غزيرا ••• مسكين ايمليان ••• شعرت عندئذ كأن خنجراً قد أغمد في قلبي •••

قلت في نفسي :

ـ مسكين يا ايمليان ، لن تصلح لشيء يوما • وسوف تضيع نفسك •

« ولا داعي يا سيدي لأن أطيل قصتي ، فان القصة كلها تافهة ، بائسة ••• لا تستحق أن يطنب المرء في سردها ••• أقصد يا سيدى أنك غير مستعد لأن تشتريها كلها بقرشين ، أما أنا يا سيدى ، فانني مستعد لأن أدفع مبلغا كبيرا من المال ، لو كنت أملك هذا المبلغ ، في سبيل أن لا يقع ما وقع •••

« كان عندي يا سيدى سروال ••• لعنه الله من سروال •••
سروال جيد أزرق ذو مربعات ••• كان قد أوصانى عليه ملاّك من الأرياف ، ثم رفض أن يأخذه بحجة أنه ضيق جـدا ، فبقى السروال عندى • قلت لنفسى : « هو شيء ثمين ، لو بعته في سوق الثياب القديمة لجاءنى بخمسة روبلات • على كل حال أستطيع بثمنه أن أصنع سروالين لسيدين من سان بطرسبرج ، وصديرة أيضا •••. » • وأنت تعلم يا سيدى أن كل شيء حسن لرجل غبي تافه من أمثالنا • ولكن حدث في ذلك الوقت أن ايمليان وقع في حالة من الهمود والخمول • نظرت فرأيته لا يشرب يوما ، ثم لا يشرب في اليوم الذى يليه ، فاذا جاء اليوم الثالث كان منهارا انهيارا كاملا • ان المرء ليشفق عليه ، وتأخذه به رحمة • قلت أخاطبه بينى وبين نفسى : « لعلك يا عزيزى ستعود الى جادة الصواب ، والى طريق الرب •• لعلك قد سمعت صوت العقل ، فقلت لنفسك : كفى ! » •

« ذلك يا سيدى ما كنا قد وصلنا اليه من حال • ويومئذ حلّ عيد كبير • وذهبت الى الكنيسة لصلاة الغروب •• فلما عدت الى البيت وجدت صاحبى ايمليان قد جلس الى حافة النافذة وهو كالميت سكراً • انه جالس هناك يتهزهز • قلت : ها ••• ها ••• مرحى ••• يافتى !»

ومضيت أبحث عن شيء في الصندوق •• ونظرت فاذا أنا لا أجد السروال • وبحثت عن السروال في كل مكان فما وجدته • وبعد أن نبشت البيت كله ، أيقنت انه مفقود ، فكأن خنجرا قد نفذ في قلبى •

أسرعت الى العجوز وأمطرتها بوابل من اللوم • ولكننى لم أقل شيئا لايمليان رغم أن حالة السكر التى هو فيها تشير الى أنه هو الجانى •

قالت لى العجوز :

ـ لا ياسيدى ... سامحك الله ... ماعسانى صانعة بسروالك ... هل فى وسعى أن ألبسه . ومنذ مدة سرق لى رجل تنورة ... على كل حال أنا لا علم لى بشىء عن السروال .

سألتها :

ـ من جاء الى البيت ؟

فقالت :

ـ لا أحد . كنت هنا طول الوقت . وخرج ايمليان ايلتش ثم عاد .. ها هو ذا ، فاسأله .

قلت له :

ـ ايمليان ، أتراك أخذت سروالى الجديد ... السروال الذى تعرفه ... السروال الذى خطته للملاّك ثم لم يرض أن يأخذه ؟

ـ لا يا أستاذ ، لم آخذه .

قلت لنفسى : « ما هذا الأمر . ثم طفقت أبحث من جديد . لم أعثر على شىء . وما يزال ايمليان حيث كان ، جالسا فى مكانه يترجح . وجلست أمامه يا سيدى ، هكذا ، على الصندوق . ونظرت اليه على حين غفلة . فرأيتنى أقول لنفسى : « انه هو » . كان قلبى يحترق . واحمر وجهى . وفى تلك اللحظة نظر الىّ ايمليان هو أيضا . قال :

ـ لا يا أستاذى ايفانوفتش . لم آخذ سروالك . لعلك تظن أننى ... أننى ... ولكنى لم آخذه .

ـ ولكن أين ذهب اذن يا ايمليان ايليتش ؟

ـ لا يا أستافى ايفانوفتش ، لم أره •••

ـ ماذا تقول يا ايمليان ايليتش ؟ هل يمكن أن يفقد من تلقاء ذاته ؟

ـ ربما يا أستافى ايفانوفتش •••

وبعد ذلك نهضت واقتربت منه وأشعلت المصباح وشرعت أعمل • كنت أحضّر صديريةً لموظف يقطن تحت بيتنا • وكان قلبى يخفق • وكان صدرى يحترق احتراقا • وأحس ايمليان الغضب قد استولى عليّ ، وأحسّ أن الشر آتٍ من بعيد ، كما يحس الطائر فى السماء بهبوب العاصفة •

قال ايمليان بصوت مضطرب :

ـ هل تعلم يا أستافى ايفانوفتش ؟ لقد تزوج آنتيب بروفوروفتش اليوم بامرأة الحوذى الذى مات منذ مدة قصيرة •••

« نظرت اليه ، ربما فى شيء من غضب • ففهم ، ونهض ، واقترب من السرير ، وأخذ يبحث عن شيء ما • كنت أراقبه • ظل ينبش مدة طويلة ، ويدمدم فى الوقت نفسه قائلا : لا أجد شيئا ، فأين اختفى السروال اذن ؟ سأرى ••• واندس ايمليان تحت السرير • فلم أعد أطيق صبرا ، فقلت :

ـ ماذا دهاك يا ايمليان ، مالك تجر نفسك هذا الجرّ على ركبتيك ؟

ـ أبحث عن السروال ••• فلعله يكون تحت السرير ••• لعله سقط تحت السرير •

ـ ولكن يا سيدي (قلت له يا سيدي من شدة الحنق) ، لمـــاذا تحمل نفسك كل هـــذا العناء في سبيل انســان مسكين مثلي ، وتتعب ركبتيك ؟

ـ ولكن يا أســـتافي ايفانوفتش ••• أنا ••• ما ••• لا شيء • لعلنا واجدوه في مكانٍ ما اذا نحن أحسنا البحث والتفتيش •

قلت :

ـ اسمع يا ايمليان ايلتش •

ـ ماذا يا أستافي ايفانوفتش ؟

ـ أغلب ظني أنك سرقته وانتهى الامر ، كما يفعل لص أو سارق، لتشكرني •

« الى هذه الدرجة غضبت يا سيدي حين رأيته يزحف نفســه على ركبتيه فوق أرض الغرفة •

ـ لا يا أستافي ايفانوفتش •

« وظل راقدا تحت السرير • لبث هنالك زمنا طويلا • ثم خرج •• نظرت اليه • فاذا هو مصفر الوجه اصفرارا شديدا • ونهض فجلس على حافة النافذة ، وظل على تلك الحال قرابة عشر دقائق • ثم قال :

ـ لا يا أستافي ايفانوفتش •

ونهض فجأة ، حزينا كخطيئة ، ودنا مني (ما أزال أراه في خيالى الى الآن) ، وقال لى : لا يا أستافي ايفانوفتش • لم آخذ سروالك • وكان يرتعش ، وكان يلطم صدره ، وكان صوته يختلج متهدجا • أخذت حاله تخيفني • قلت :

ـ طيب يا ايمليان ايلتش • لا تتحدثن في هذا الامر بعد الآن • سامحني اذا كنت قد عاتبتك خطأً ، ووجهت اليك اللوم كما يفعل غبي أحمق • سحقا للسروال • لن نموت من ضياع السروال • ان لنا ، ولله الحمد ، أذرعا تعمل ، فلن نسرق ، ولن نستعطي صدقة من غريب ، من انسان مسكين ، وسنكسب رزقنا بكدِّ يميننا وعرق جبيننا •••

« كان ايمليان يصغي الىَّ واقفا أمامي • ثم جلس • ولبث على هذه الحال طوال السهرة لا يتحرك • وقد رقدت على سريري حين كان لا يزال جالسا في ذلك المكان نفسه لايتزحزح عنه • وفي الصباح فقط انما رأيت أنه كان قد تمدد على الارض العارية متلفعا بمعطفه وحده • لقد أبى حتى أن يضطجع على السرير •

« ومنذ ذلك الحين يا سيدى أصبحت لا أحبه • حتى أنني في اليوم الاول قد كرهته • لكأن ابني قد سرقني ، بل وأهانني وشتمني • كنت أقول لنفسي : « ويل لك يا ايمليان ! » • أما هو ، يا سيدى ، فقد ظل أسبوعين كاملين لا ينقطع عن الشراب • صار كالمسعور ادمانا • فما أن يطلع الصباح حتى يخرج ، ثم لا يعود الى البيت الا في الليل • ولم أسمعه ينطق بكلمة واحدة خلال هذين الاسبوعين • لعل الالم كان يحز في نفسه ، فهو يشرب ليطيش عقله ويغرق ألمه • وأخيرا انتهى الامر • انقطع ايمليان عن السكر • لعله أنفق كل ما كان معه • وهاهوذا يستقر على حافة النافذة • أذكر أنه ظل جالسا صامتا ثلاثة أيام بأسرها ! وكيف ؟ كانت عيناه أشبه بينبوع يا سيدى ، حتى كأنه لا يشعر هو نفسه بتدفق دموعه • ما أشد ما يؤلم نفس المرء يا سيدى أن يرى رجلا مسنا ، شيخا مثل ايمليان ، يبكي حزنا وألما •

قلت له :

ـ ما بك يا ايمليان ؟

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه • لم أكن قد خاطبته بكلمة واحدة منذ افتقاد السروال •

قال :

ـ لا شيء يا أستافي ايفانوفتش •

ـ كان الله في عونك يا ايمليان ! ليضع كل ما يمكن أن يضيع ، ولكن لماذا أنت جالس هذه الجلسة كبوم •

« لقد آلمني وضعه •

قال :

ـ هكذا يا أستافي ايفانوفتش ••• ليس الامر هـــذا ••• وانما أريد أن أجد عملاً ما •••

ـ أي عمل يا ايمليان ايلتش ؟

ـ لا فرق عندي ••• لعلني أجد وظيفة ما ، كما كنت في الماضي• لقد ذهبت الى فيدوسي ايفانوفتش ••• ليس يحسن أن أكون عالةً عليك يا أستافي ايفانوفتش ••• ولعلني أرد اليك كل شيء اذا أنا وجـــدت عمـــلا ••• نعم سـأرد اليـــك كل شيء ••• حتى ثمن الخبز سـأرده اليك •••

ـ كفى يا ايمليان ، كفى ! ••• قد مضى ما مضى فلا تتحدثن فيه بعد الآن • ولنعش كما كنا نعيش من قبل •

ـ لا يا أستافي ايفانوفتش ••• ربما كنت أنت ••• ما تزال ••• ولكنني لم آخذ سروالك •

ـ طيب • اتفقنا • كان الله معك يا ايمليان •••

ـ لا يا أستافي ايفانوفتش ••• طبعا لم يعد في امكاني أن أعيش عندك ••• يا أستافي ايفانوفتش •••

قلت :

ـ ولكن من ذا الذي يطردك من هنا يا ايمليان ، حرسك الله ؟ أأنا طردتك ؟

ـ لا ••• ولكن لا يليق أن أعيش عندك كما اعيش الآن يأستافي ايفانوفتش ••• الافضل أن أنصرف ••

« ذلك ما قاله حزينا يهين نفسه ••• وظل يردد هذا الكلام نفسه ••• ثم اذا هو ينهض فعلا ويأخذ يرتدي معطفه •

ـ ولكن الى أين تذهب يا ايمليان ؟ اسـمع يا ايمليان ! الى أين عساك تذهب ؟ •••

ـ لا يا أستافي ايفانوفتش • وداعا • لا تحاول أن تبقيني عندك • أنا ذاهب يا أستافي ايفانوفتش • أنت لست الآن كما كنت من قبل •

قال ذلك وقد طفق يبكي من جديد •

قلت :

ـ لماذا تظن أنني لست الآن كما كنت من قبل ؟ أنا لم أتغير ••• أنت الذي تغيرت فأصبحت غبيـا كطفل • اذا عشت وحدك فستهلك يا ايمليان ايلتش •

ـ لا يا أستافى ايفانوفتش ••• أنت الآن تقفل صندوقك حين تخرج • وأنا أرى هذا فأبكى • لا ••• دعنى أنصرف • ذلك أفضل يا أستافى ايفانوفتش • وسامحنى اذا كنت قد أسأت اليك •

« وانصرف يا سيدى • انتظرت يوما ، فيوما آخر •• وقلت لنفسى: « لا بد أنه عائد هذا المساء • » • ولكنه لم يعد • وانقضى اليوم الثالث ، ولم يعد أحد • خفت • استبد بى القلق • أصبحت لا أشرب ولا آكل ولا أنام • انهارت نفسى تماما • ومضيت فى اليوم الرابع أبحث عنه • لم أدع خمارة الا وذهبت أبحث عنه فيها • وسألت أتراه تاه ! وقلت لنفسى : « لعله سقط ميتا فى مكانٍ ما من فرط السكر ، فهو يرقد الآن جثة تتنــة ! » • وعدت الى البيت مضطربا لا أنا بالحى ولا أنا بالميت • وقررت فى الغداة أن أمضى باحثا عنه • ولعنت نفسى لأننى تركت هذا الأحمق ينصرف من بيتى بارادته • ولكن عند الفجر تقريبا من اليوم الخامس (وكان اليوم يوم عيد) صرّ الباب ••• فنظرت فاذا ايمليان يظهر ••• انه هو الذى يدخل ! كان مزرقّ اللون ، متسخ الشعر ، كأنه نام فى الشارع ، وكان هزيلا ضامرا كمسمار •

« خلع معطفه ، وجلس على صندوقى ونظر الىّ • كنت سعيداً بعودته ، الا أن نوعا من القلق والخوف كان يخنق نفسى أكثر من ذى قبل • أقصد يا سيدى أنه لو وقع لى أنا أمر من هذا القبيل لآثرت أن أفطس كما يفطس كلب على أن أعود هذه العودة • أما ايمليان فقد عاده لا شك أنه يؤلم المرء أن يرى انسانا على مثل هذه الحال • لذلك أخذت أواسيه ، وأعزيه ، وأدلله • قلت :

ـ هيه يا ايمليان • يسعدنى أنك رجعت • ولو تأخرت قليلالمضيت أبحث عنك اليوم أيضا فى الخمارات • هل أكلت ؟

ـ أكلت يا أستافي ايفانوفتش •

ـ حقا ؟ اسمع يا صديقي ••• لقد بقي بعض الحساء من أمس• انه مرق • واليك خبزا وثوما ، فكل ، وما هذا كله بكثير •

« قدمت له الطعام ، فلاحظت عندئذ أنه لم يأكل شيئا منذ ثلاثة أيام ، وذلك من شدة اقباله على الطعام وشراهته في التهامه • معنى هذا أن الجوع هو الذي اضطره الى الرجوع • رق قلبي له ، ورأفت به • نظرت اليه وقلت لنفسي : « سأذهب الى خمارة فأجيئه بقليل من الخمر ، ثم نتصالح » • وقلت له : كفى يا ايمليان ••• لم يبق في نفسي شيء من زعل •

وجئته بالخمرة ، وقلت له :

ـ هاك يا ايمليان ••• فلنشرب قليلا بمناسبة العيد ••• هل لك بقليل من الخمرة ؟ بقليل من الخمرة تصح الابدان !

فمدّ يده يتناول القدح بشراهة • ها هوذا يمسك القدح ، ويهم أن يفرغه في جوفه • ولكنه ما يلبث أن يتوقف على حين فجأة • كان القدح يرتعش في يده ••• وها هو ذا يرد القدح الى المائدة ••

ـ ماذا يا ايمليان ؟

ـ لا ••• يا أستافي ايفانوفتش •••

ـ ماذا ؟ ألا تريد أن تشرب ؟

ـ ولكنني ••• يا استافي ايفانوفتش ••• لن أشرب بعد اليوم قط •••

ـ ماذا ؟ أتريد أن تنقطع عن الشراب تماما أم تريد أن تنقطع عن الشراب اليوم فحسب ؟

« صمت ايمليان • ونظرت اليه ، فرأيته يضع رأسه بين يديه • قلت :

ـ ماذا بك يا ايمليان ؟ أأنت مريض ؟

ـ نعم ••• أحس بأنني مريض •

« أرقدته على السرير • ونظرت • كانت حالته سيئة حقا • ان رأسه محترق بالحمى • ولبثت قربه طول النهار • وازدادت حاله سوءا أثناء الليل • صنعت خليطا من خمرة الكفاس والزبدة والثوم ، وأضفت الى الخليط قطعا صغيرة من الخبز ، وقلت له :

ـ اليك هذا يا ايمليان • حاول أن تأكل قليلا ••• فلعل ذلك أن ينفعك •

هزّ رأسه رافضا وقال :

ـ لا •• لن آكل اليوم •

« وحضرت له شيئا من الشاى • كانت العجوز متعبة • لم يتحسن حاله • قلت فى نفسى : « عبث ••• ان حالته سيئة • » •

« ومضيت في اليوم الثالث أبحث عن طبيب • كنت أعرف طبيبا اسمه كوستوبرافوف • عرفته حين كنت أعمل عند أسرة بوساميباجين • وكان قد عالجنى من مرض ألمّ بى • جاء الطبيب ، فبعد أن فحص المريض قال : « نعم ، ان حالته سيئة ••• ولم يكن ثمة ما يدعو الى احضارى ••• على كل حال يمكن أن نصف له سفوفا ••• » •

والحق أننى لم أجرّعه السفوف ••• وكنا فى اليوم الخامس •

« انه راقد هناك ، أمامى ، يشارف على النهاية من حياته • وكنت

جالسا على حافة النافذة أخيط . أشعلت العجــوز المدفأة . كنا نحن الثلاثة صامتين . وكان قلبي ينفطر ألما حين أنظر اليه . وكنت أعلم انه ينظر اليّ ... كنت أحس منذ الصباح أنه يريد أن يقول لي شـــيئا ولكنه لا يجرؤ ... وأخيرا نظرت اليه أنا أيضـــا . فقرأت في عيني المسكين قلقا رهيبا . انه لا يحوّل بصره عني . ولكنه حين لاحظ أنني نظرت اليه أشاح بعينيه .

ـ أستافي ايفانوفتش !

ـ ماذا يا ايمليان ؟

ـ اذا بيع معطفي مثلا ، فهل يجيء بثمن كبير ؟

ـ لا أدري يا ايمليان . قد يباع بثلاثة روبلات .

« كذلك قلت له يا سيدي . ولكن الواقع أن المعطف لا يمكن أن يباع بقرش واحد . ولو عرضتَ على احد أن يشتريه لظن أنك تضحك عليه وتسخر منه وتحقّره ، اذ تريد أن تبيعه قاذورة كهـذه القاذورة . وانما قلت لايمليان ان المعطف قد يباع بثلاثة روبلات مواساةً له لا أكثر ... وأجابني ايمليان قائلا :

ـ لقد قدّرت يا أستافي ايفانوفتش أنه سيباع حتما بثلاثة روبلات . ذلك أنه من جوخ يا أستافي ايفانوفتش . فكيف تقول انه « قد » يباع بثلاثة روبلات ... كيف تشك في أنه سيباع بثلاثة روبلات قطعا ؟ ..

قلت :

ـ لا أدري يا ايمليان ايلتش . ولكن اذا أردت أن تبيعه ، فيجب أن تطلب ثمنا له ثلاثة روبلات على الاقل ... حتما ...

« وبعد صمت قصير ، ناداني ايمليان مرة أخرى :

ـ أستافي ايفانوفتش !

ـ ماذا يا ايمليان ؟

ـ حين أموت عليك أن تبيع معطفي . فليس من الضروري أن أدفن به . سأبقى بدون ... ان للمعطف قيمة ... ان من الممكن أن يستفاد منـه ...

« انقبض قلبي يا سيدي انقباضا لا أستطيع أن أصفه لك . رأيت الخوف الذي يسبق الموت . وصمتنا من جديد . وانقضت ساعة كاملة على هذه الحال ... ونظرت الى ايمليان ، فرأيته ينظر اليّ هو ايضا . فلما التقت نظراتنا خفض عينيه من جديد .

ـ هل تريد أن تشرب قليلا من الماء يا ايمليان ايلتش ؟

ـ نعم ... اسقني ماء يا أستافي ايفانوفتش ... بارك الله فيك ..

ناولته ماءً ، فشرب وقال :

ـ شكرا يا أستافي ايفانوفتش .

ـ ألا تريد شيئا آخر يا ايمليان ايلتش ؟

ـ لا يا أستافي ايفانوفتش ... لا شيء ... ولكن ...

ـ ماذا ؟

ـ ولكن ...

ـ ماذا يا ايمليان ؟

ـ شيء واحد أريد أن أقوله ... السروال .. أنا أخذت السروال يا أستافي ايفانوفتش ...

ـ طيب يا ايمليان ••• عفا الله عنك أيها المسكين ، ولتنم هادىء البال مطمئن النفس •••

« كان صدرى أنا يختنق يا ســـيدى ••• وســـالت على خدىّ دموع • وتحولت ببصرى عن ايمليان •••

ـ أستافي ايفانوفتش ! •••

هكذا نادانى ، فنظرت اليه ، فرأيت أنه يريد أن يتكلم • انه يبذل جهوداً ويحرك شفتيه ••• وفجأة احمر احمراراً شديداً ونظر الىّ • فما هى الا لحظة قصيرة حتى اصفر اصفرارا شديدا ، شديدا ، شديدا ••• ورمى رأسه الى وراء ، وتنفس تنفسا عميقا ، وردّ روحه الى الله •• »

البطل الصغير

١٨٤٨

« البطل الصغير »(Malen'ki gheroï)
كتب دوستويفسكي هذه القصة سنة ١٨٤٨ ، بينما كان معتقلا في قلعة بتروبافلوفسكايا بسان بطرسبرج ، ونشرت في مجلة « حوليات الوطن » في شهر آب (اغسطس) ١٨٥٧ باسم مستعار هو : م.ى.

في ذلك العهـد ، كنت في نحو الحـادية عشرة من عمرى • أُذن لى أن أسـافر لاقامة قصـيرة فى الريف فى شهر تموز (يوليو) عند أحد الأقرباء في قرية يملـكها • كان قد اجتمع فى القـرية خمسون مدعواً من المدعوين • الجـو مرح صـاخب ، وكأن الاحتفـال لا يريد أن ينتهى أبدا • وكأن المضيف كان قد آلى على نفسه أن يبدد بأقصى سرعة ثروته الواسعة ، وقد نجح أخيرا فى البر بيمينه ، فبدد أمواله حتى آخر قرش • ان موسكو قريبة ، وهؤلاء زوار جدد يصلون فى كل لحظة ، فالذاهبون يحل محلهم القادمون ، والاحتفـال ما ينفك يعظم • المتع تتلاحق والألعاب لا تنتهى ، فتارة هى جولات على صهوات الخيـل فى البرية ، وتارة هى رحلات الى الغابات والى النهر ، أو هى نزهات أو مآدب غداء فى الحقول أو ولائم عشـاء على الشرفة الواسـعة من المنزل الاقطاعى العريق ، وهى شرفة تحف بها ثلاثة صفوف من نوادر الأزهار تعطر بشذاها طراوة الليل • والاضـاءة الساطعة المتـلألئة تسـكب على سيداتنا الجميلات مزيدا من السحر والفتنة ، فوجوههن منتعشة ، وأعينهن ملتمعة ، وأحاديثهن مرحة ، وضحكاتهن رنانة كصوت أجراس صغيرة •

وثمة موسيقى ورقص وآغان ، فاذا تلبدت السماء بالغيوم ، أخذوا يلعبون ألعابا شتى ، فمن لوحات حية ، الى القاء الاحاجي ، الى تبادل الامثال • وقد شكلوا فرقة مسرحية ، فكان عدة مدعوين يمثلون الدور الأول في المسرحيات • وطبيعي أن النمائم والأقاويل كانت تجري في طريقها • فلولاها لقلت البهجة في هـــذا المجتمع ، ولتعطل انطـلاقه ، ولملات من الضجر ألوف الأشخاص • ولكنني ، وأنا في الحادية عشرة من عمري ، لم أكن أدرك ذلك ، لأن ذهني كان ينصرف الى غير هذا • وانما أتيح لي فيما بعد أن أتذكر بعض الامور • كان المظهر المتلألىء للوحة يستطيع وحده أن يخطف بصري ، بصر الطفل ، وكانت هـــذه الحركة الحية الشاملة وهذا اللألاء وهذا الصخب الجديدان اللذان لا عهد لي بهما من قبل ، كان كل ذلك يبلغ من ادهاشي واذهالي في الأيام الأولى أنني كنت منصعقا مبهوتا ، حتى لكأن رأسي مقلوب •

أعود فأقول انني كنت في الحادية عشرة من عمري • ولا شـك أنني لم أكن الا طفلا ، لم أكن أكثر من طفل • وكانت هاته السيدات الجميلات لا يخطر ببالهن أن يسألن عن سني وهن يداعبنني ويلاعبنني• ولكن الأمر الغريب أنني منذ تلك السن كانت تجتاحني عاطفة لا تعليل لها في نظري • كان شيء مجهول لا عهد لي بمثله يمس قلبي ويحرقه ، ويحمله على الخفقان خوفا ، ويلهب خدي بحمرة مباغتة • وكان يحرجني بل يهدني هدآ ما كنت أتمتع به من ميزات يتمتع بها الأطفال • وكنت في بعض الأحيـان أعتزل المجتمع بتـأثير حزن مبرح يتملكني على حين فجأة ، محاولا بذلك أن أسترد أنفاسي وأن أتذكر شيئا لا أدري ما هو ، شيئا أكون قد ظننت أنني فهمته ثم اذا بي أنساه فجأة ، ولكنه لا غنى عنه لحياتي ووجودي •

وكنت أحس أنني أخفي شيئا لا أستطيع أن أكاشف به أحـدا ،

لأنني أشعر منه بالخجل والعار الى حد ذرف الدموع . ولم ألبث أن شعرت بعزلتي ووحدتي وسط هذا الاعصار الذي يحيط بي . وكان ثمة أطفال آخرون ، ولكنهم جميعا أصغر مني كثيرا ، أو أكبر مني كثيرا ؛ على أنني لم أكن أحفل بذلك كثيرا . وطبيعي أنه لم يقع لي شيء في هذا الظرف الذي كنت أتمتع فيه بميزات خاصة . كنت في نظر جميع هاته السيدات طفلاً يحببن أن يلامسنه ملاعبات كما تلامس عروس من عرائس الأطفال . وكانت واحدة منهن خاصة ، وهي شقراء لذيذة ذات شعر رائع لم أر له نظيرا منذ ذلك الحين ، يبدو انها آلت على نفسها أن لا تدعني وشأني مطمئن البال . كان واضحا أن الضحكات التي كانت تثيرها حولنا تصرفاتها الغريبة التي تشبه تصرفات تلميذة في المدرسة تحدث لها أكبر متعة . وكان هذا يبعث في نفسي الحيرة والاضطراب . كانت جميلة جمالا رائعا باهرا . ولم تكن تشبه في شيء تلك الشقراوات الصغيرات اللواتي يتصفن بالحياء والخفر والرهافة كبيضاوات الفئران ، أو كبنات الرعاة . انها أميل قليلا الى الامتلاء ، وليست بالطويلة كثيرا ، ولكن قسمات وجهها الدقيقة كانت أخاذة فاتنة. ان في هذا الوجه لسطوعا يخطف البصر ، حتى لكأنها كلها لهب سريع خفيف . فعيناها الواسعتان تومضان كالبرق وتلتمعان التماع الماس . اللهم اني لا أبادل مثل هاتين العينين الزرقاوين بعينين سوداوين من عيون حسناوات الأندلس ! ان شقرائي هذه لتساوي حقا تلك السمراء الجميلة الشهيرة التي تغنى بها في شعر رائع شاعر كبير أقسم أنه مستعد أن يموت اذا سمح له أن يلمس بطرف أصابعه خمار حسنائه . أضف الى ذلك أن حسنائي أنا كانت بين حسناوات العالم بأسره أشدهن مرحا وأكثرهن ضحكا رغم انقضاء خمس سنين على زواجها . كانت البسمة لا تبارح شفتيها النضيرتين ، كأنها كم من أكمام الورد الأرجواني العطر التي لم تكد

تتفتح عند أول شعاع سـقط عليها من أشعة الشمس والتي لا تزال تخضلها أنداء الصباح •

اتذكر انهم اقاموا حفلة تمثيلية غداة وصولى • كانت القاعدة ملأى• ولم يكن هنالك مكان واحد خال • فاضطررت ان البث واقفا ، لانني جئت متأخرا • واذ أغرتني التمثيلية المسلية فقد تقدمت متسللا الى الصفوف الاولى ، الى آن تجمدت في مكان مستندا الى مقعد كانت تشغله احدى السيدات • انها شقرائى التى لم أكن قد عرفتها بعد • وها هو ذا بصرى يتلبث مصادفة على كتفيها المدورين الرائعين الفاتنين البضين كأنهما رغوة الزبد • والحق ان هذا المنظر لم يهزنى أكثر مما هزنى منظر قبعة ذات أشرطة حمراء كانت تغطي الشعر الأبيض من رأس سيدة محترمة جالسة في الصف الأول • والى جانب الشقراء كانت تجلس آنسة مسنة هي فيما لاحظته بعد ذلك واحدة من تلك العوانس تساير ركب النساء الشابات الجميلات اللواتي يحيط بهن الشبان • فلما لاحظت هذه العانس نظرتي ، مالت على أذن جارتها ودمدمت لها ببضع كلمات ضاحكة ، فالتفتت الشقراء ، فاذا بشعل من نار ترميني بها عيناها في هذا الجو الذي يشبه الظلام ، واذا أنا أنتفض من الدهشة مذعورا كمن أصابة حرق • ابتسمت الحسناء ، وسألتني وهي تلقي عليّ نظرة ماكرة :

ـ هل يعجبك التمثيل ؟

ـ نعم •

بذلك أجبتها وأنا أتفرس فيها مبهوتا • ولاح عليها أن ذلك سرها • قالت :

ـ ولكن لماذا تبقى واقفا ؟ لسوف يتعبك الوقوف • أليس لك مكان ؟

ـ كلا ... فالمقاعد كلها مشغولة .

قلت لها ذلك وأنا أهتم بنفسي في هذه المرة أكثر من اهتمامي بعينيها الساطعتين . وقد أفرحني حقا أن أجد آخر الأمر قلبا طيبا يذهب عني الملل .

ـ تعال الى هنا واجلس على ركبتي .

قالت ذلك بسرعة . وكان واضحا أنها تخضع لأية فكرة مجنونة تنبجس في رأسها الطائش . فقلت متحيرا ذاهل اللب :

ـ على ركبتيك ؟...

سبق أن ذكرت للقارىء أن الامتيازات التي كنت أتمتع بها قد أخذت تهينني ، وأخذت توقظ في نفسي وساوس . وأضيف الآن الى ذلك أن هذا الامتياز الجديد الصادر عنها استخفافا واستهزاء قد تجاوز جميع الحدود . ثم انني وأنا الصبي الخجول الكثير الحياء قد أصبحت الآن شديد الخشية مع النساء . لذلك بلغ اضطرابي أقصاه .

ـ نعم على ركبتي . لم لا ؟

كذلك ألحت تقول ، وهي تنفجر ضاحكة مقهقهة ، لا يدرى الا الله لماذا ! لعلها قد سرها اكتشافها كما سرها اضطرابي الشديد الذي حاولت أن تثيره .

احمر وجهي وأنا أجيل طرفي محاولا أن أهرب . ولكنها سبقتني. فأمسكت يدي لتمنعني من الهروب وجذبتني اليها ، وأخذت تشد على يدي بأصابعها الصغيرة الفارهة التي لا ترحم . فكدت أصرخ من الألم. ولكنني كظمت صرختي مصعرا وجهي تصعيرات لا شك أنها كانت مضحكة كثيرا. وقد أحزنني كل الحزن بل أرهبني أن أرى سيدة تبلغ من الغرابة والخبث

ما يجعلها تقول اقوالا حمقاء للصبية الصغار ، وتقرصهم على مرأى من الناس دون اى داع الى ذلك • ولا شك ان هيئتي قد عبرت عن فرط حيرتي واضطرابي • ذلك أن هذه الشيطانة كانت تضحك امام أنفي مقهقهة ، وقد هزها فرح شديد لنجاحها في ادخال الاضطراب والارتباك الى قلب صبي مسكين • أصبحت في حالة يرثى لها من الكرب واليأس • ذلك أن جميع الناس قد التفتوا الينا ضاحكين ، فكنت أحترق شعورا بالخجل والعار • وكانت تستبسل في عقف أصابعي لتحملني على الصراخ، ولكنني لحرصي على تفادي جرسة لا مخرج لي منها ، كنت قد قررت أن أتحمل الألم كاسبارطي • واشتدت بي الحميا في آخر الأمر حتى بلغت أقصى حدودها ، فأخذت أجاهد محاولا سحب يدي ، ولكن خصمي كان أقوى مني ، فلما أصبحت لا أطيق أن أحتمل الألم مزيدا من الاحتمال صرخت ، وكانت هي لا تنتظر الا هذا ، فلم تلبث أن تركت يدي وتحولت عني كأن شيئا لم يكن ، مثلها كمثل التلميذ الذي كان يلطم بقدمه رفيقا له أضعف منه من وراء ظهر المعلم ، فما ان هرع المعلم نحو مصدر الضجة كالعقاب حتى تحول المعتدى عن ضحيته ساخرا ، واصطنع هيئة من لم يفعل شيئا ، وعاد الى كتابه مستغرقا فيه •

ومن حسن الحظ ان انتباه الجمهور كان مشدودا في تلك اللحظة الى صاحب الدار الذي كان يمثل الدور الرئيسي في مسرحية هزلية من تأليف سكريب • وكان الجمهور يصفق للممثل ، فانتهزت أنا هذه الفرصة وتسللت الى خارج الصف ، واعتصمت وراء عمود في الطرف الآخر من القاعة ، أرمي الحسناء الماكرة بنظرات مروعة • كانت لا تزال تضحك مغطية فمها بمنديلها ، باحثة عني بنظرها • لاشك أنها كانت نادمة على أن معركتنا المفاجئة المجنونة قد انتهت بسرعة ، ولا شك أنها أخذت تفكر منذ ذلك الحين بأمازيح جديدة •

هكذا تعارفنا • وأصبحت منذ ذلك المساء لا تدعني وشاني لحظة ، بل تظل تلاحقني وتعذبني • وكانت آمازيحها تقوم على محاولة احراجي وادخال الاضطراب في نفسي باعلان شغفها بي وجنونها تولها بحبي • وكنت أنا صبيا متوحشا حقا ، فكان يؤلمني ذلك اشد الايلام ، ويدفعني الى البكاء • حتى لقد أوشكت مرارا أن أتماسك بالايدى مع صاحبتي القاسية المعجبة بي الهائمة بغرامي • ويبدو أن اضطرابي كان يشجعها على الامعان في مناكدتي ، لا تاخذها بي رحمة ؟ وكنت لا أعرف كيف أهرب منها • وكان الضحكات التي كانت تثيرها حولنا كانت تشحذ قريحتها فهي ما تنفك تبتكر المزيد من أنواع الجنون • على أن الناس قد أخذوا يلاحظون ان امازيحها قد اصبحت مسرفة • والواقع أن في امكان المرء أن يقول انها كانت تسمح لنفسها بالافراط في هذه الأمازيح مع صبي مثلي •

غير أن طبعها كان كذلك • لقد خلق منها زوجها طفلة مدللة حمقاء كان زوجها هذا رجلا قصيراً شديد السمنة شديد الحمرة غنياً كثير الأعمال دائم الحركة لا يطيق أن يستقر في مكان فهو يذهب الى موسكو كل يوم لأعمال ، وربما ذهب في اليوم الواحد مرتين • انه ليصعب على المرء أن يجد وجهاً كوجه هذا الرجل بشاشة جذلى وطيبة مضحكة ، على شرف واستقامة دائما • وكان حبه امرأته يجعله من الضعف بحيث يشفق عليه المرء حين يراه • كان يحبها حب العابد معبوده •

وكان لا يضايقها في شيء • ان لها طائفة من الأصدقاء والصواحب• اذ أن الذين لا يحبونها قلة • فلم يكن طيشها يدفعها الى التشدد في اختيار صداقاتها ، رغم أنها في حقيقة الأمر أكثر استقامة ورصانة مما قد يتراءى للمرء بعد الذى ذكرته عنها • وكان بين صاحباتها امرأة شابة كانت تؤثرها حسناؤنا بالحب على غيرها ، وهي تمت اليها بقربى بعيدة وكانت

هذه المرأة الشابة موجودة معنا أيضاً • ان رابطة مرهفة رقيقة العاطفة كانت تجمع بين هاتين المرأتين ، رابطةً يجدها المرء أحياناً بين طبعين متعارضين تعارضاً واضحاً أحدهما أقل صرامة ونقاءً من الآخر ، فهو يخضع للثاني خضوعا ذليلا ، ويعترف بتفوقه عليه ويمتلىء قلبه صداقة له • فمن جهة أولى نرى عاطفة رحبة الصدر متسامحة الى أبعد الحدود ، ومن جهة أخرى نرى عاطفة يمازجها احترام يمضي الى حد الخوف من فقدان الاعتبار في نظر الشخص الذي يحظى بالاعجاب كما تمازجها رغبة قوية في النفاذ مزيجا من النفاذ الى الصميم من قلب هذا الشخص •

والصديقتان في عمر واحد • ولكن جمال الاولى يختلف عن جمال الثانية كل الاختلاف • ان في جمال السيدة م ••• شيئاً خاصا يميزها عن جمهرة حسان النساء • ان قسمات وجهها تجذب اليها القلوب جذبا لا سبيل الى مقاومته ، وتوقظ في نفس كل انسان نوعا من الاهتمام بها والاحترام لها • ان هنالك وجوها وهبت لها الطبيعة هذه النعمه : يحس المرء حين يجالسها بأنه قد ارتفع على ذاته ، فهي توقظ في النفس شعورا بالحرية والعذوبة • ومع ذلك فان عينيها الواسعتين المتلئتين نارا وقوة حزينتان ، وان نظرتها نظرة خجلى قلقة ، حتى لكأنها في خوف دائم من وقوع خطر أو نزول مصيبة • ان هذا الخوف الغريب يسكب على وجهها الهادىء هدوء عذراء ايطالية ويضفي عليه أسى وكآبة يبلغان من القوة أن الحزن يتسرب الى نفس من ينظر اليها ويتأملها • ان الجمال الكامل الطاهر في هذا الوجه الشاحب الناحل يوحي بصورة الطفولة التي ما تزال قريبة جدا ، يوحي بها واضحة كل الوضوح كما يوحي بطمأنينة هادئة وثقة كبيرة وربما بسعادة بريئة • وان بسمتها المترددة تجذبك اليها جذبا رفيقا، وتدافع عنها ، وترفع قدرها ولو رأيتها من بعد • ولكن هذه الفتاة الفتانة كانت تبدو صموتا مغلقة رغم أن من المستحيل على المرء أن يجد انسانا

أكثر منها تجاوبا مع آلام الآخرين وأكثر منها انتباها الى عذاب الناس • ان في هذا العالم نساء يعشن حياة راهبات من راهبات المحبة والاحسان ، فمن كان يتألم استطاع أن يقبل عليهن جريئا بغير تردد فائض القلب أبدأ لا يخفي عنهن شيئا ولا يخشى ان يضقن ذرعا باقباله عليهن • وقلما يعرف الناس كنوز الحب الصابر والشفقة والغفران التي تنطوي عليها قلوب أمثال هاته النسوة الطاهرة النقية الجريحة هي نفسها في كثير من الأحيان ، لأنها كلما أمعنت حبا أمعنت ألما ، على اخفائها عذابها عن عيون الناس • ان الالم العميق يصمت ويتخفى • وان أمثال هذه المخلوقات لا تأذن لنفسها أن تشمئز أو أن تنفر من الشر مهما يكن بشعاً ومهما يبلغ من العفونة • ان من يقاربهن يجد لديهن عونا وسنداً وكأنهن على كل حال انما خلقن للحب البطولي •

كانت السيدة م ••• فارعة القامة مرنة الجسم ممشوقة القد • وكانت حركاتها بطيئة متسقة بل فخمة تارة ، ومنطلقة حية عنيفة كحركات الأطفال تارة أخرى ، على كونها متواضعة خجلى حتى لكأنها عزلاء ، دون أن يبدو مع ذلك أنها تطلب حماية أو تسأل نجدة •

سبق أن قلت ان المناكدات الظالمة التي كانت تعاملني بها الشقراء الماكرة توقعني في كثير من الضيق والحرج والانزعاج وتجرحني أعمق الجرح • وكان لهذا سبب آخر ، سبب خفي غريب كنت أحرص على كتمانه حرص البخيل على ماله ، سبب كان مجرد التفكير فيه يجعلني ألهث قلقا وخوفا في ركن قاتم لا تتسلل اليه النظرة الفاحصة أو الساخرة التي تلاحقني بها امرأة وغدة زرقاء العينين حين أخلو الى نفسي مضطرب الرأس قلق البال • لقد كنت عاشقا ! لكم أن تقولوا ان هذا مستحيل ولكنني أسألكم عندئذ لماذا اذن كان هنالك وجه وحيد بين جميع الوجوه التي تحيط بي يلفت انتباهي ، ولماذا كنت وأنا الصبي الذي لا يسعى كثيرا

الى صحبة النساء آتابع ذلك الوجه ببصري دون انقطاع ، اتابعه وحده دون سواه ؟ ولقد كان ذلك يحدث في المساء خاصة ، حين تحبسنا رداءة الجو في غرفنا ، فاعتصم عاطلا في ركن من القاعة ، واذ لم يكن احد باستثناء مضطهدتي يكلمني الا نادرا ، فلقد كنت اشعر بضجر رهيب . كنت اثناء ذلك ادرس الوجوه واصغي الى الاحاديث التي لم اكن افهم منها كلمة واحدة في كثير من الاحيان ، ففي تلك اللحظات كانت النظرات العذبة والابتسامة الحلوة والجمال الفتان في السيدة م ... (فهي التي عشقتها !) تسحر انتباهي المفتون لا يدرى الا الله لماذا ، وتحدث في نفسي أثرا غريبا لذيذا لا يمحى ... كنت لا استطيع ان احول نظري عنها ساعات برمتها ، فعرفت جميع حركاتها وسكناتها ، وجميع اهتزازات صوتها الفضي ، المحجب قليلا مع ذلك ! والشيء الغريب ان هذه الملاحظات كانت تبعث في نفسي قدرا غريبا من حب الاستطلاع ، فكأنني امضي وراء سر أحاول اكتشافه .

وكانت السخريات تؤلمني أكثر ما يكون الألم وتهينني أشد ما تكون الاهانة اذا شهدتها السيدة م ... فاذا اتفق أن انطلقت قهقهات الجمع ضاحكة مني فشاركت فيها السيدة م ... على غير ارادة منها ، هربت من عدوتي الظالمة المستبدة وأنا في ذروة الكرب والكمد ، ومضيت أقضي بقية السهرة معتزلا منفردا متوحشا لا أجرؤ أن أعود الى الظهور في القاعة . على أنني كنت لا أفهم أنا نفسي بعد شيئاً من هذا الخجل والانفعال الذي أعانيه . فقد كانت هذه العواطف جميعها تجرى تحت سطح الشعور من نفسي ؛ ولم أكن بعد قد تخاطبت بكلمتين مع السيدة م... وذلك من قلة جرأتي . ولكن ، في ذات مساء ، بعد نهار كان ثقيل الوطأة على نفسي ، تخلفت عن الموكب أثناء النزهة ، ثم تسللت أسير في الحديقة وقد أخذ التعب مني كل مأخذ . وفيما كنت أمشي في طريق معزول تحف به الأشجار ، لمحت

السيدة م ••• جالسةً على مقعد • كان رأسها مائلا على صدرها، وكانت تشد منديلها بحركات آلية على غير شعور منها ، وكانت غارقة في تأملاتها فلم تسمع وقع خطواتي •

فلما لمحتني ، نهضت عن المقعد بسرعه قوية ، وحولت وجهها : فرايت انها كانت تبكي • ثم ابتسمت لي بعد ان جففت دموعها ، وسرنا معا نحو البيت • لا اتذكر الموضوع الذي دار عليه حديثنا ، ولكنني اعلم انها كانت ترسلني في كل لحظة ، متعللة بألف حجة وحجة ، فهي تارة تسألني أن أقطف لها وردة ، وتارة تطلب‌مني أن أمضي لأرى من ذا الذي يعدو على صهوة الجواد في طريق الأشجار المجاور • وكانت متى ابتعدت عنها تقرب منديلها من عينيها لأن دموعها المتمردة التي تنحبس في قلبها كانت تغرق عينيها البائستين • كان واضحا أن صحبتي لها تثقل على نفسها • لقد أدركتْ أنني شهدتُ ألمها • ولكنها لم تكن قادرة على السيطرة على نفسها • وقد غضبتُ من نفسي أشد الغضب ، ولعنت خراقتي وقلة تبصري • وعبثا حاولت أن أبتعد عنها دون أن يدل هذا الابتعاد على أنني قد رأيت دموعها ، فكنت أسير الى جانبها مرتبكا أشد الارتباك ، حزينا لاأجد ما أقوله لها •

لقد هزني هذا اللقاء فظللت ألاحظ المرأة الشابة طوال السهرة ، مبالغا في الاستطلاع والتصلص لا أحول عنها بصري لحظةً من اللحظات • وقد أدركت هي ذلك فابتسمت لي وكانت تلك الابتسامة هي الوحيدة التي افتر فمها عنها في ذلك المساء • كان الحزن لا يبارح وجهها الذي أصبح الآن شاحبا شديد الشحوب • وكانت تتحدث مع سيدة طاعنة السن هي عجوز خبيثة الطبع حادة المزاج لم يكن أحد يحبها ، ولكن كان جميع الناس يخشونها ، بسبب هوسها في التجسس على

الجميع ، وبسبب لسانها الذى لا ينقطع عن تلفيق الاقاويل والنمائم ، فهم مضطرون جميعا الى مداراتها ومراعاتها شاءوا أم أبوا •

فى نحو الساعه العاشرة من المساء ، ظهر السيد م ••• فلاحظت كيف ارتجفت السيدة م ••• حين ظهور زوجها هذا الظهور الذى لم يكن فى الحسبان ، وازداد شحوبها حتى صار اشد بياضا من بياض منديلها • ولاحظ اخرون غيرى هذا ايضا • وسمعت الى جانبى شذرة من حديث افهمني ان الامور لا تجرى كلها على ما تحب السيدة م •• المسكينة • قالوا ان زوجها غيور عليها غيرة عطيل ، وان غيرته هذه ليس مبعثها الحب بل الغرور • انه قبل كل شيء رجل اوربى، رجل عصرى ، محشو الرأس بافكار جديدة يباهي بها ويدل بها على الناس • وهو طويل القامه ، قوى البنية ، اسود الشعر ، له لحيتان صغيرتان على الخدين •• يعبّر وجهه الدموى عن الاكتفاء بالنفس • وأسنانه بيضاء كالسكر ، وحركاته ومشيته ومظهره تنطبق كلها على ما يتميز به من يوصف بأنه « جنتلمان » كامل • وكان يقال عنه انه رجل « ذكى » ، فبهذه الصفة انما يوصف فى بعض الاوساط نوعٌ من البشر يسمنون على حساب الآخرين ولا يقومون بعمل البتة بل يقضون أوقاتهم فى فراغ ولهو ويملكون فى مكان القلب قطعة من شحم • ان هؤلاء الناس يؤكدون أن مصائب معقدة غاية التعقيد قد « أضنت عبقريتهم » ، وهم يبذلون هذه الجملة المنتفخة التي أصبحت من طول الاستعمال ومن فرط ما يعمد اليها أصحابنا السمان هؤلاء تظاهرا بنبل العواطف ، يبذلونها لكل قادم جديد كأنها «كلمة سر» • ولأن هؤلاء السخفاء لايجدون عملا يقومون به ولا يبحثون من جهة أخرى عن عمل يقومون به ، فانهم يريدون أن يوهموا الناس بأن قلوبهم تنطوى على أشياء عميقة جدا (والحق أن أمهر الجراحين وأبرعهم ما كان لهم أن يعرفوا هذه الاشياء العميقة على وجه

الدفه) • ان امثال هؤلاء الناس يستعملون جميع ما أوتوا من غرائز ليستخفوا بالاخرين وليسخروا منهم ، فاحكامهم عمياء وصلفهم مفرط لا حدود له • انهم لا يزيدون على رصد اخطاء من حولهم ، ومراقبة ما فيهم من جوانب الضعف • واذا كانت طيبتهم لا تفوق طيبه محارة من محار الماء فان معاشرتهم للآخرين يحكّمها الحذر ويسيطر عليها حب التروى والتبصر • وهم بدلك فخورون • وانهم لاقتناعهم بان البشر كافة باستثنائهم اناس حمقى يستطيعون هم عند الحاجة ان يعصروهم كما تعصر برتقالة أو اسفنجة ، فانهم يحسبون انفسهم سادة العالم ، ويحسبون العالم مدينا لهم مرهوناً بهم متوقفاً عليهم • وانهم يعتبرون هذا الوضع ثمرة ما يملكون من ذكاء وما يتصفون به من خلق قوى وارادة صلبة وطبع فذ • وهم فى سلفهم هذا الذى لا حدود له لا يسلمون بان لهم عيوبا او اخطاء •• انهم يشبهون أولئك الأوغاد أمثال تارتوف أو فالستاف الذين ينتهون الى الاقتناع من فرط ما خادعوا ومكروا وغشوا بأن من حقهم أن يظهروا مخاتلين ، ثم هم من فرط ما أقنعوا الآخرين بذلك أصبحوا يعتقدون مخلصين بأنهم أناس شرفاء مستقيمون • انهم لا يملكون الوسائل الضرورية لامتحان ضميرهم امتحانا صادقا كريما ، ولنقد أنفسهم بأنفسهم نقداً نزيها نبيلا• ان جلودهم أسمك وأغلظ من أن تتقبل مثل هذا الامتحان أو مثل هذا النقد• ان شخصيتهم الفذة وذاتهم المتفوقة هما فى نظرهم أشبه باله العمونيين «مولوك» أو اله الفينيقيين «جعل» • فما وجدت الطبيعة العظيمة ولا وجد الكون كله الا ليكون مرآة خلقت ليستطيع الاله الصغير أن يرى نفسه فيها فيعجب بها • وهذا يمنعهم من أن يروا كل ما ليس عداهم ، وذلك هو السبب فى انهم يرون جميع الاشياء من جانبها الكريه البغيض • ان هؤلاء الناس يملكون لكل مناسبة من المناسبات جملة مهيأة جاهزة هى عدا ذلك على « الموضة » ، وتلك عندهم

قمه البراعه • ويكونون قد اسهموا هم فى خلقها ناشرين فى جميع المفارق مزاعم لا تقوم على اساس من الصحه ، لكنهم يقدرون انها ستصيب نجاحا ورواجا ، فهم اناس لا تعوزهم الشمامة والحذاقة • وهم ينسبون الى انفسهم هذه الجمل فيوهمون انهم صانعوها ، ويكثرون خاصة من التعبيرات التى تفصح عن محبة عميقة للبشر والتعريفات التى تحدد العطف على الانسان تحديدا يتصف بالتعقل والحكمة ، ويكثرون من ادانة الاندفاع الرومانسى اى ادانة الجمال والحق فى كثير من الاحيان ، الحق والجمال اللذين تساوى ذرة منهما من القيمة أكثر مما تساوى أشخاصهم الرخوة الرخصة كلها • أما البحث عن الحقيقة فانهم يجهلونه كل الجهل ، وهم يصدون عن كل ما يتطور وينضج • كذلك عاش الرجل السمين حياته بطرا بلا جهد يبذله ، جاهلا ما يقاسيه الانسان من عناء فى كل عمل يقوم به • لذلك فويل ثم ويل لك اذا انت هاجمت عواطفه ، فانه لن يغفر لك ذنبك أبدا ، وسيحمل لك الحقد مدى الحياة ، وسيشعر بأكبر المتع حين ينتقم منك • الخلاصة ان بطلنا لم يكن أكثر من كيس ضخم منفوخ محشو جملاً جاهزة وصيغا مهيأة وعناوين من جميع الأنواع •

على أن السيد م ••• كان يمتاز بخاصة تثير الالتفات ، فهو رجل حاضر النكتة بارع الحديث ، وهو قصاص يتحلق حوله الناس فى الصالونات • ولقد كان فى ذلك المساء مبتهجا مرحا مسرورا بلا سبب ظاهر • واذ ظفر بتركيز انتباه الناس حوله فقد سيطر على الحديث • ولا كذلك السيدة م ••• فقد كان يبدو عليها من الالم والحزن ماجعلنى أتوقع أن تختلج على أهدابها الطويلة دموع ، فكان ذلك كله يحزننى أشد الحزن كما سبق أن قلت • وقد انصرفت حائرا طائش اللب ، ووافانى فى الليل كابوس مزعج اذ حلمت بالسيد م •••

وفي صباح الغد نوديت الى التمرن على اللوحات الحية التي كنت أشارك فيها بدور صغير . وكان موعد عرض اللوحات الحية وتمثيل المسرحية واقامة الحفلة الراقصة بعد بضعة أيام احتفالا بعيد ميلاد الابنة الصغرى لصاحب الدار . وكان ينتظر أن يأتي ما يقرب من مائة شخص من موسكو والقرى المجاورة لحضور هذا العيد الذي ارتجل ارتجالا تقريبا . ومن أجل ذلك كان المنزل مليئا بالحركة والصخب وكان علينا أن نقوم بعمل كثير . ان التمرن على المشاهد بملابس التمثيل قد حدِّد موعده ساعةً مبكرةً من الصباح ، لأن المخرج وهو الرسام الشهير ر... صديق صاحب الدار وضيفه، كان بعد أن أخذ على عاتقه لصداقته بصاحب الدار أن يؤلف اللوحات الحية وأن يخرجها وأن يمرننا كذلك عليها ، كان عليه أن يسرع الى المدينة لشراء بعض الأشياء الضرورية للحفلة . فلم يكن ثمة وقت يجوز أن يضيع ، وكانت اللوحة التي عليَّ أن أمثل فيها مع السيدة م ... مشهدا من القرون الوسطى عنوانه « ربة القصر وخادمها الغلام » .

فلما اجتمعت بالسيدة م ... شعرت باضطراب عميق . كنت على يقين أنها قارئة في عيني الخواطر والشكوك والتخمينات التي قامت في ذهني البارحة . وكنت أخشى عدا ذلك أن أكون قد قارفت خطيئة اذ فاجأت دموعها وألمها ، فكنت أقول لنفسي : انها ستنظر اليَّ نظرة شزراء حتما لأنني اطلعت على سرها من حيث أرادت أن تخفيه . ولكن كل شيء قد جرى بغير نكد ولله الحمد : كل ما هنالك أنني ظللت مهملا لا يفطن أحد اليَّ . لم تكن السيدة م ... مهتمة لا بالتمرين ولا بشخصي، بل كانت ذاهلة ، وكان يبدو عليها الحزن والتفكير . كان واضحا أن هماً كبيرا يملأ جوانب نفسها ، فلما فرغنا من التمرين أسرعت أبدل ملابسي ثم خرجت بعد عشرة دقائق الى الشرفة التي تفضي الى الحديقة .

فاذا أنا ارى السيدة م ••• تخرج الى الشرفة من باب آخر • وفى تلك اللحظة نفسها كان يتقدم نحونا زوجها عائدا من الحديقة بعد أن صحب فيها طائفة من السيدات ثم عهد بهن الى « فارس مرافق آخـر » • ان التقاء الزوجين لم يكن فى الحسبان فيما يبـدو ، فما ان رأت السـيدة م ••• زوجها حتى ظهر عليها أنها ضيقة الذرع بهـذا اللقاء ، وحتى حركت يدها باشارة تدل على التململ والاسف • أما زوجها الذى كان يسير قبل ذلك صـافراً غير حافل بشىء ، ملاعبا لحيته ، فانه قد تجهـم وعبس وتفرس فى زوجته بنظرة فاحصـة ، ثم سـألها وهو ينظر الى الشمسية والكتاب الذى كان بيدها :

ـ أأنت ذاهبة الى الحديقة ؟

فأجابته وقد احمرت قليلا :

ـ بل الى الغابة •

ـ وحدك ؟

ـ بل معه •

كذلك قالت وهى تومىء الىّ بصوت متقطع متئن هو الصوت الذى يصطنعه المرء حين ينطق بكذبته الاولى •

ـ هِمْ ••• كنت منذ برهة هناك أُصحب جماعة بكاملها • انهم يتجمعون فى الجناح المزهر ليرافقوا السـيد ن ••• انه مسافر هـل تعلمين ؟ ••• ان مشكلة مزعجة تحمله على السفر الى أوديسا • وابنة عمك (يقصد الشقراء) تضحك وتبكى فى آن واحد ، فلا يفهم المـرء ما بها ، ثم انها قالت لى ، لا أتذكر الآن لأى سبب ، انك قد ثرت عليـه ولم تشائى مرافقته ••• لترهاتٍ طبعا ؟

ـ هي مزحة •

بذلك أجابته السيدة م ••• وهي تهبط درجات الشرفة •

وأضاف السيد م ••• يقول وقد صعّر خدّه ناظرا الىّ من خلال نظارة يحملها بيده :

ـ أهذا هو اذن فارسك المخلص الأمين ؟

فصمت أقول منزعجا من نظارته ومن سخريته :

ـ أنا خادمها الغلام •

قلت ذلك وضحكت أمام أنفه ثم هبطت الدرجات الثلاث بقفـــزة واحدة •

دمدم السيد يقول وهو يبتعد :

ـ نزهة سعيدة •

ومنذ أن أومات الىّ السيدة م ••• وهي تخاطب زوجها ، فقــد اقتربت منها بطبيعة الحال ، كما لو كنت حقا الشخص الذى لا يفارقها ، وكما لو كنت قد تعودت هذه النزهات اليومية معها • ولكنني لم أستطع أن أفهم سبب اضطرابها وسبب كذبتها الصغيرة • وقد أصبحت لاأستطيع أن أنظر اليها وجها لوجه ، ومع ذلك فقد أخذت أرشقها بنظرات سريعة صغيرة مستطلعة ساذجة • غير أنها لم تكن تحفل لا بنظراتي ولا بتساؤلي الاخرس ، كما كان شـــأنها كذلك أثناء التمرين • ان تعبـير وجهها واضطرابها ومشيتها ، ان ذلك كله يدل على عذاب تعانيــه في أعمـاق نفسها • كانت تسرع في سيرها وتحث الخطى وتلتفت نحو الحـــديقة ترصد ممرات الأشجار ومنافذ الغابة الصغيرة قلقة • وكنت أنا أيضـــا أتوقع شيئا ما • وفجأة دوّت وراءنا أصوات وقع حوافر الخيل • انهـا

جماعة من الفرسان والفارسات يرافقون السيد ن ••• الذى يتركنا فجأة على غير توقع •

وكانت بين السيدات تلك السيدة الشابة الشقراء التى أشار السيد م ••• منذ قليل الى دموعها الهاطلة ، ولكنها كانت عندئذ تضحك على عادتها كصبية صغيرة ، وهى تعدو على صهوة حصانها الجميل الاكمت • رفع السيد ن ••• قبعتـــه ، ولكن دون أن يتوقف ودون أن يخاطب السيدة م ••• بكلمة واحدة • وسرعان ما غاب الركب عن أبصارنا • ونظرتُ الى السيدة م ••• فكدت أصرخ من فرط الدهشة : لقد كانت متجمدة شاحبة كمنديلها ، وكانت تترقرق فى عينيها دموع كبار ، والتقت نظراتنا مصـــادفةً فأشاحت عنى وقد احمر وجههـــا وظهر عليها الغم والانزعاج • لقد كان وجودى يضايقها • ذلك واضح وضوح الشمس ولكن كيف عسانى أنسحب ؟ •••

وفجأة غيَّرت رأيها ففتحت كتابها وقالت لى دون أن تنظر الىّ :

ـ أوه ! لقد أخطأت فحملت المجلد الثانى من الكتاب ، فهـل لك أن تجيئنى بالمجلد الاول ؟

قالت ذلك متظاهرةً بأنها لم تلاحظ هذا الا فى تلك اللحظة •

كيف لا أفهم أن دورى قد انتهى ؟ لقد كان يستحيل عليهـا أن تصرفنى بخشونة مباشرة ، فاحتالت على الأمر بالكتاب •

مضيت بالكتاب ثم لم أعد ، وظل المجلد الاول ساكنا على المنضدة فى ذلك الصباح •

ولكننى كنت كروح معذبة ، وكان قلبى ينبض ذعرا ورعبـــا • وحاذرت أن أقابل السيدة م ••• ولكننى فى مقابل ذلك أخذت أسبر

بنهم شديد وجه زوجها الذى يعبر عن الاكتفاء والثقة كأننى كنت أتوقع أن اجد فيه الان شيئا خاصا . لست افهم شيئا من هذا النهم المضحك الى الاستطلاع . كل ما آتذكره أن مشاعرى فى ذلك الصباح قد أسرت نفسى واغرقتنى فى دهشة غريبة . والحق أن النهار كان فى أوله ، وقد جاء حافلا بالاحداث بعد ذلك فعلا .

تناولوا طعام الغداء فى ذلك اليوم مبكرين . ذلك أنهم سيقومون برحلة الى القرية المجاورة فى المساء نشدانا للبهجة فى عيد قروى سيحتفل به هناك . وكان علينا أن نهيىء أنفسنا لهذه الرحلة . والحق أننى ظللت أحلم بهذه الرحلة أياما ثلاثة ، وكنت أتوقع منها متعا كثيرة ومباهج لا تحصى . واجتمعوا بعد الغداء على الشرفة لاحتساء القهوة ، فحرصت على التسلل فى اثرهم واختبأت وراء الصفوف الثلاثة من المقاعد يدفعنى الى ذلك ما كان يجيش فى نفسى من حب الاستطلاع ، ولكننى لم أرد أن أظهر للسيدة م ... وشاءت الصدفة أن تضعنى بجوار شقرائى الرهيبة التى كان جمالها فى ذلك المساء يشرق بمزيد من السناء والضياء . كان جمالا فذا . ان هناك أمورا تقع للنساء لا أدرى لماذا ولا أدرى كيف ! ولكنها تقع فى بعض الاحيان ... كان بيننا فى تلك اللحظة قادم جديد يعبد شقراءنا ويلازمها ، هو شاب شاحب الوجه فارع القامة وصل من موسكو كأنما ليحل محل ن ... الذى كانت الاشاعات تقول عنه انه مجنون غراما بشقرائنا . أما هذا السيد فان العلاقة بينه وبينها كانت كالعلاقة بين بنديكت وبياتريس فى مسرحية شكسبير « ضجة كبيرة فى غير طائل » * .

الخلاصة أن حسناءنا كانت فى ذلك اليوم مشرقة المزاج منطلقة الاسارير فأمازيحها رقيقة وهزلها رشيق مملوء ثقة بريئة وجرأة مقبولة،

وهي شديدة الاطمئنان الى اعجاب الناس بها ، على لطف وذوق وفى غير صلف ، فكان نجاحها نجاحا كبيرا حقا . كان المعجبون بها والمصغون اليها يحيطون بها وقد امتلأت نفوسهم نشـوة ، وكانت هي فى تلك الساعة فتانة آسرة ساحرة اكثر من اى وقت مضى ، فما من كلمه تنطق بها الا و تتلقف طائرة ، فتنتقل بين الناس من واحد الى واحد ، وما من دعابه من دعاباتها الا ويستمتع بها كل فرد من افراد الحفل ، وكان أحدا من هؤلاء الناس كان لا يتوقع منها كل هذا الذوق المرهف وكل هذا التأنق الساطع وكل هذه البديهه الحاضرة والقريحة الخصبة والفكاهة الحلوة . ان احسن مزايا هذه المراة كانت فيالحياة الجارية تختفي وراء نزوات شاذة وبدوات طائشة فما يفطن الى هذه المزايا أحد أو تظل أمرا مشكوكا فيه مختلفا عليه ، لذلك أثار انتصارها فى هـذا اليوم دمدمة تعبر عن دهشة قوية واعجاب شديد . ولقد وقع حادث أسهم فى نجاحها، للدور الذى مثله فيه زوج السيدة م ... فقد قررت هذه الشيطانة أن تنقض عليه بهجومها لأسباب لا شك أنها كانت تعدها هامة ، فما كان أشد فرحة جمهرة الناس ولا سيما الشباب منهم عند ذالك . أخذت تمطره بوابل من ملح لطيفة وسخريات لاذعة مفحمة معا ، تصيب هـدفها رأساً ولا تدع للخصم مجالا للهروب منها ، كأنها سهام تجهز على الضـحية العاجزة باثارة حنقه الشديد وغيظه الفظ .

يخيل الىّ ــ دون أن أستطيع القطع بذلك ــ أن هذا المشهـد لم يُرتجل ارتجالا بل هيىء سلفا . وكانت هذه المبارزة الحامية الوطيس قد بدأت أثناء الغداء . واذا كنت أصف المبارزة بأنها كانت حامية الوطيس فلأن السيد م ... لم يلق سلاحه ولم يستسلم الا بعد زمن . لقـد استجمع كل ما يملك من حضور البديهة حتى لا يُغلب وحتى لا يقع فريسة للضحك عليه والهزء به . وقد جرت المعركة وسـط قهقهات

لا تنقطع تنطلق من حناجر المستمعين والمشاركين فلم يبق وضع السيد م ••• اليوم على ما كان بالامس • وحاولت السيدة م ••• عدة مرات ان تثنى صديقتها الطائشة التى كانت تريد فى اغلب الظن ولا سيما حين جعلت لى دورا فى هذه المسخرة أن تخلع على الزوج الغيور جميع ما عرف عن « بارب بلو » من أصباغ زائفة •

لقد حدث هذا فجأة على نحو يثير اشد الضحك : لقد اتفق فى تلك اللحظة أن كنت على مراى من جميع الناس ، كانما على قصد ، دون أن أفكر فى سوء ، ناسيا جميع ما اتخذت من احتياطات أخيرة ، فها هى ذى تجعلنى على حين بغتة فى المحل الاول من معركتها مع الخصم عدوا للسيد م ••• أو غريما له مفتونا بامراته موله القلب بها • وها هى ذى الشقراء الرهيبة تحلف أنها تملك البراهين على ذلك ، وأنها فى هذا الصباح نفسه قد رأت فى الغابة •••

لم يتسع الوقت لانهائها كلامها فسرعان ما قاطعتُها فى أحرج لحظة ، وكانت هذه اللحظة مقدّرة سلفا ومهيأة لأن تكون هى الخاتمة المضحكة أحسن تهيئة هزليه ، فاذا بانفجار من ضحك لا يغالب يشب تحيةً للنكتة • ورغم أن دورى أنا فى هذه المزحة لم يكن أبشع دور فقد بلغت من الاضطراب والاهتياج والذعر أننى وثبت من خلال صفى المقاعد لاهثا من شعورى بالخجل والعار وتقدمت الى الامام وصحت أخاطب جلادتى الشقراء بصوت تكسّره دموعى ويقطعه استيائى :

ـ ألا تستحين ؟ ••• تقولين كذبة مشينة كهذه الكذبة ، جهارا ، هنا بحضور جميع هاته السيدات ؟ ••• أمام جميع الرجال •• ماعساهم يقولون ؟ تتصرفين تصرف طفلة أنت الشخص الكبير ••• أنت المرأة المتزوجة •••

لم أكن قد أنهيت كلامى بعد حين انطلق التصفيق • لقد أحدث ردى هذا موجة عارمة من الصخب • فان براءتى وسذاجتى ودموعى وكونى كمن يدافع عن السيدة م ••• قد أطلق ضحكا جهنميا • والحق أننى ما زلت الى الآن حين أتذكر هذا الحادث تنتابنى نوبة من الضحك مجنون •

وهرعت أخرج متدلى الرأس مصعوق النفس مخبئا وجهى ، حتى لقد قلبت الطبق الذى كان الخادم داخلا به على القوم فسقط من يديه على الارض • واسرعت الى غرفتى فانتزعت المفتاح من القفل وحبست نفسى داخل الغرفة • وسرعان ما اقبلت طائفة من جميلات النساء تحاصر غرفتى فى تلك اللحظة نفسها • كنت أسمع ضحكاتهن الرنانة وزقزقاتهن التى تشبه زقزقات طائر السنونو وهن يضرعن الىّ بصوت واحد أن أفتح لهن الباب حالفات أنهن لا يردن بى سوءا ، وأنهن لا يرغبن الا فى اغراقى بالقبل • وهل هنالك تهديد أشد هولا من هذا التهديد ! لذلك ظللت معتصما بغرفتى دافنا وجهى فى المخدات محترقا من شعورى بالعار ، لا أجيب ولا أفتح الباب ولا أحس بشىء ولا أسمع شيئا كما يمكن أن يكون صبى فى الحادية عشرة •

ولكن ما العمل الآن ؟ ان كل ما قد حرصت على اخفائه قد انكشف وأزيح عنه الحجاب ! لقد غُمرت بالعار وتلطخ شرفى الى الابد ••• الحق أننى لم أكن أستطيع أن أحدد على وجه الدقة ما كنت أخشاه وما كنت أود أن أخفيه • غير أن هنالك شيئا ما ، شيئا لا يُعرف ولا يُحدَّد كنت أخشاه وأرتعش قلقا متى تصورت أن ينكشف • كنت أجهل حتى ذلك الحين هل يجب اعتبار ذلك الشىء حسنا أو سيئا ••• هل يجب اعتباره مدعاة فخر أو مدعاة خزى ••• هل يجب اعتباره أمرا محمودا

او امرا مدموما ••• وهاندا اكتشف منذ برهه على الم وعذاب ، ان هذا الشيء مضحك ومعيب ، وشعرت في الوقت نفسه بغريزتي ان حكما كهذا الحكم خاطيء غير انساني ، ولكنني كنت محطما منهارا ، وكان اضطراب كبير يجتاح فكري ، وكنت عاجزا عن الاعتراض على هذا الحكم القاسي ، بل كنت عاجزا عن التفكير اصلا • كل ما هنالك ، انني شعرت بقلبي طعينا مقروحا في قسوة ، فكنت اسكب دموع العجز • انني مهتاج النفس اغلي استياء وغضبا لا عهد لي بمثلهما من قبل ، ذلك ان هذا الحادث كان اول حزن كبير اصابني ••• أقول هذا بغير مبالغة ••• وكان أول طعنة خطيرة نالتني في حياتي • لقد جرحوا اول عاطفة غامضة بريئة في الطفل الذي كنته ، وأساءوا الى حياء طاهر جدا ، واستخفوا ضاحكين بأول شعور عميق بالجمال • وطبيعي أن هؤلاء الهازئين لم يكونوا يعرفون شيئا عن هذه الآلام المبرحة التي قامت في نفسي • ولبثت مستلقيا طريح القلق والكرب الشديد ينتابني حر وبرد متلاحقان • وكان هنالك سؤالان يبعثان القلق في روحي : ما الذي رأته ؟ ما الذي أمكن أن تراه هذه الشقراء الخبيثة الشريرة في الغابة مما يتصل بي وبالسيدة م ••• ؟ ••• ثم كيف أستطيع بعد اليوم أن أحتمل نظرة السيدة م ••• دون أن أموت خزيا وكمدا ؟ •••

وهذه ضوضاء مفاجئة تقوم في فناء المنزل فتوقظني أخيرا من هذه الحالة التي كنت فيها شبه غائب عن شعوري ، فنهضت واقتربت من النافذة • ان الفناء كله يعج بالمركبات والخيول والخدم المنهمكين في العمل • كان واضحا انهم يتهيئون للرحيل • حتى أن بعض الاشخاص كانوا قد امتطوا صهوات جيادهم ، وكان بعضهم الآخر يركب العربات ، فتذكرت ، فجأة ، الرحلة التي كانوا قد أزمعوا القيام بها ، فأخذت

ابحث بنظري عن حصاني وقد استبد بي القلق : لم يكن حصاني هناك • واذن فقد نسوني • لم اطق آن أصبر مزيدا من الصبر ، فاسرعت أخرج من غرفتي ناسيا عاري واللقاءات الاليمة التي ستقع لي •

وكان ينتظرني نبا رهيب • ان ضيوفا جددا كانوا قد وصلوا فشغلوا جميع الاماكن واخذوا جميع الجياد • وكان عليّ أن أذعن • وقفت على درجات المدخل متالما من هذه المصيبة الجديدة انظر حزينا كئيبا الى موكب العربات المتنوعة الكثيرة والى الفرسان الانيقين الذين تتواثب من تحتهم الخيول القوية •

وكان أحد الفرسان قد تاخر ، فهم لا ينتظرون الا وصوله حتى يبدأوا السير • كان حصانه يقضم لجامه ويضرب الارض بحافره ويشب حدةً وغيظا • وكان هنالك سائسان يمسكان آزمة الحصان في حذر ، وكان جميع الحضور يقفون من الحصان على مسافة •

ان حادثا مؤسفا هو الذي يمنعني من الرحيل مع الآخرين • فقد مرض حصانان أحدهما حصاني • ولم يسيء هذا الى وحدي • فقد اتضح أن الرجل الشاب الشاحب كان يعوزه حصان هو أيضا • وقد عرض عليه صاحب البيت ، تفاديا للمشاكل ، مهرا جموحا غير مروض وأضاف يقول له ابراءً لذمته ان ركوب هذا المهر أمر مستحيل ، وانه كان عليه أن يبيعه منذ زمان طويل ، بسبب توحش طبعه ، اذا وجد من يقبل شراءه • فلما سمع الرجل الشاب هذا الكلام أعلن أنه مستعد لركوب أي حصان في سبيل أن يستطيع الاشتراك في الرحلة ، وانه فارس ألف ركوب الخيل • عندئذ لزم رب الدار الصمت • وأظن الآن أنني لمحت على شفتيه عندئذ ابتسامةً ملتبسةً مليئة بالمكر • وبانتظار هذا الفارس الواثق من نفسه المطمئن الى حسن ركوبه الخيل كان صاحب

الدار يفرك يديه احديهما بالاخرى نافذ الصبر ، وهو يلقى نظرات في اتجاه الباب • وكأن مشاعره كانت تنتقل الى خدم الاصطبل الذين كانوا يشعرون بزهو شديد لانهم سيعرضون على المشاهدين حصانا قادرا على ان يقتل انسانا بغير سبب • فكانت اعينهم المحملقة تنظر هي ايضا نحو الباب الذى سيظهر منه الزائر المتهور ، وتعبر عن معنى المكر نفسه الذى كانت تعبر عنه عينا مولاهم • وكان الحصان نفسه كان يشعر بأن ثمة مؤامرة عليه ، فهو يبدو متكبرا متعجرفا وفحا ، وكأنه يدرك أن عشرات العيون المستطلعة تراقبه ، فهو (مثله في ذلك مثل الشرير الذى لا سبيل الى اصلاح خلقه والذى يعتز بما يقارف من أعمال اجرامية) يبدو فخورا بسمعته السيئة ، متأهبا لتحدى الجرىء الذى سيحاول الاعتداء على استقلاله •

وظهر الشاب الجرىء أخيرا يهبط الدرجات وهو يدس يديه فى قفازيه مسرعا ، خجلا من تأخره ، ولم يرفع الشاب عينيه الا حين أمسك عرف الحصان ، ولكنه فوجىء بوثبة الحصان هائجا حانقا ، وبالناس المذعورين يصيحون به محذّرين • فيطيش لبه ويتراجع الى الوراء ويأخذ ينظر مذهولا الى الحصان الذى كان يرتجف كورقة فى مهب الريح ويصهل صهيل الغضب مجيلا عينيه المحتقنتين دما • لقد شب الحصان منتصبا على قائمتيه كأنه يهم أن يطير فى الهواء جارا حارسيه •

وجم الشاب واحمر وجهه ارتباكا ونظر الى السيدات الخائفات ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

ـ هذا حصان رائع جدا • واضح أن ركوبه لا بد أن يهيىء للفارس متعة عظيمة •• ولكن ••• ولكننى لن أركبه •••

كذلك أكّد لصاحب الدار وهو يبتسم ابتسامة عريضة صريحة تناسب وجهه اللطيف الذكي •••

فأجابه صاحب الحصان مبتهجا كل الابتهاج مصافحا يد الزائر بحرارة يمازجها عرفان قائلا :

ـ انني اعدُك مع ذلك فارسا ممتازا ••• أقسم لك على ذلك ••• لأنك ادركت فورا طبيعة الحصان الذى اردت ركوبه (اضاف ذلك برصانة ووقار) • هل تصدق انني أنا الذى خدمت فى سلاح الفرسان مدة ثلاثة وعشرين عاما قد اسقطني هذا الكسلان عن ظهره على الارض ثلاث مرات ، أى عددَ المرات التى حاولت فيها ركوبه ••• يا عزيزى تانكريد (أضاف ذلك يخاطب الحصان) ليس بيننا فارس من مستواك هنا • قد يكون فارسك رجلا مثل ايليا مورومتس * يبقى ثلاثين سنة فى قريته كسيحا بانتظار أن تفقد جميع أسنانك • هيا أرجعوه الى الاصطبل! كفى تخويفا للناس ! ما كان ينبغى اخراجه •

بذلك ختم رب الدار كلامه وهو يفرك يديه ويبدو على وجهه الرضى •

يجب أن نذكر هنا أن تانكريد الذى يزدرد طعامه عند صاحب الدار لم يكن عديم الفائدة له • فلئن فقد هذا الفارس الشيخ بفضله ما كان يتمتع به من شهرة الفارس ، لأنه دفع مبلغا ضخما ثمن هذا المهر الذى لا يصلح لشيء والذى لعله لم يكن يرضيه فيه الا جماله •• فلقد كان سعيدا كل السعادة بأن تانكريد عرف كيف يحتفظ بشممه وأنه يرعب فارسا جديدا من حين الى حين ، فيحرز بذلك مزيدا من أكاليل الغار •

صاحت الشقراء التى كانت تحرص أشـــد الحرص على صحبة فارسها تقول :

ـ ألا تجيىء اذن ؟ أخائف أنت حقا ؟

فاجاب الشاب :

ـ نعم •

ـ أصحيح ما تقول ؟

ـ اسمعى ! أأنت تصرين حقا على أن تُدقّ عنقى ؟

ـ اذن خذ حصانى •• لا تخش شيئا ، انه طيـع جواد ••• لن يأخرنا هذا كثيرا ••• سنتبادل السرجين في طرفة عين ••• ساجرب انا تانكريد • فليس يمكن أن يكون دائما قليل الكياسة واللباقة الى هـذا الحد •

وما ان قالت الشقراء ذلك حتى فعلت ، فاذا هى تقفز عن حصانها •

ـ أنت لا تعرفين تانكريد اذا ظننت أنه سـيأذن لك بركوبه ، ثم اننى لا أسمح لك بأن تتعرضى لدق عنقك ! انها لخسـارة ان تدق عنقك •

كذلك قال صاحب الدار باللهجة الخشـنة القاطعـة التى ألف اصطناعها ظانا أنه يبرهن بذلك على الطيبة التى يتصف بها محارب شهم يحب ارضاء النساء •

ذلك هوى من أهوائه الغريبـة ، وتلك فكرة من فكره الأثيرة معهودة فيه •

قالت الشقراء وقد لمحتنى :

ـ هيه ! أنت أيها البكّاء ! ما دمت ترغب هذه الرغبة كلهـا فى المجىء معنا فهلا حاولت أن تركب هذا الحصان ؟

قالت ذلك وهى تومىء الى تانكريد لتغيظنى وربما لتحقق آخر نصر علىّ •

ثم أضافت تقول وهى تلقى نظرة مختلسة على السيدة م ••• التى كانت عربتها قريبة كل القرب :

ـ فأنت طبعا لست مثل ••• أنت بطل شهير ••• أنت تستحى أن يستبد بك الهلع •

وحين اقتربت الشقراء الجميلة منا تنوى ركوب تانكريد كان الكره والحقد قد اغرق قلبى ••• ولكننى لا أستطيع ان اصف ما شعرت به حين ألقت بوجهى ذلك التحدى، ان نظرتها الى السيدة م ••• قد اطاشت صوابى فاذا بفكرة مفاجئة تنبجس فى رأسى ••• لقد تمّ هذا كله فى لحظة واحدة ، لحظة قصيرة ، كانفجار بارود ، كقطرة طفح بها الكيل • ثارت روحى ثورة قوية ، وتمنيت أن أغلب جميع خصومى دفعة واحدة، أن أثأر لنفسى منهم جميعا على مرأى من الناس ، لأعلمهم كيف يقدروننى حق قدرى • ترى هل حدثت معجزة فى تلك اللحظة فعلّمتنى تاريخ القرون الوسطى الذى لم أكن أعرف عنه شيئا حتى ذلك الحين ، فاذا بفكرى المقلوب رأسا على عقب يعج فجأة بتهاويل الفرسـان والمغامرين والابطال والحسناوات وقرقعات السيوف وصيحات الاعجاب وتصـفيق الجماهير ، والصرخة الوجلى وسط هذه الضجة كلها تصـدر من قلب خائف أحب الى النفس المتكبرة من ظفر مجيد ؟••• الحق أننى أجهل

هل مرت هذه الصور كلها بخيالى حقا ام ان الامر لا يعــدو ان يكون توجسا لما يوشك ان يقع من حماقات لا مفر منها ••• المهم أن قلبى قد وثب من مكانه فاذا انا اقفز من على الدرجات ، وأجـدنى أمام تانكريد وجها لوجه ، وأصيح مخاطبا الشقراء بلهجة متكبرة وقحة ، وقد أعمتنى الحمى وخنقنى الانفعال واحترق خداى وفاضت دموعى :

ـ أتحسبين أنك تخيفيننى ؟ اذن سترين •

ـ أمسكت عرف الحصان قبل أن يتسع وقت أحد للقيام بأية حركة من أجل صدى عن ذلك ، ووضعت قدمى فى الركاب ، فاذا بالحصـان يرفع رأسه فى هذه اللحظة نفسها ويشب منتصبا على قائمتيه ثم يثب وثبة جبارة منتزعا نفسه من بين يدى الخادمين المبهوتين المتجمدين ، وينطلق طائرا كالاعصار • ولم يستطع الضيوف الا أن يطلقوا صرخة •

الله يعلم كيف أمكننى أن أضع القدم الاخرى فى الركاب الثانى بينما كان الحصان طائرا ذلك الطيران • والله يعلم أيضا كيف لم أرخ اللجام • انطلق تانكريد بى من باب السور وانعطف يمنة واندفع لايحفل بالطريق الذى يعدو فيه وسمعت ورائى فى تلك اللحظة صياح خمسين صوتا ، فبعث هذا الصياح فى قلبى الخائف القلق من الرضى والزهـو والعجب ما يجعلنى لا أنسى تلك اللحظة من حياة طفولتى • لقد ازدحم سيل من الدم فى رأسى فأعمانى وخنق خوفى• كنت خارجا عن طورى • وأحسب أن ذلك كله كان فيه شىء من الفروسية حقا •

على أن هذا كله لم يستغرق الا لحظة قصيرة • ولولا ذلك لما أمكن انقاذ الفارس • لقد سبق أن تعلمت ركوب الخيل • ولكن الحصـان الذى كنت أركبه يوم تعلمت ركوب الخيل كان أقرب الى الحمـل منـه

الى الحصان • ولو قد اتسع وقت تانكريد لقلبى عن السرج لسقطت حتما • ولكن ما حدث هو ان صخرة كبيرة على حافة الطـريق ارعبت الحصان فجأة • فاستدار على حين بغتة استدارة تبلغ من القوة اننى لا افهم كيف لم اسقط على الارض مهشم العظام • واسرع تانكريد نحو باب السور وهو يهز راسه هزا حانقا ويتواثب تواثبا جامحا ، كان نمرا كان ينشب براثنه وانيابه فى ظهره ، فلو قد دام الامر لحظة واحـــدة لرمانى على الارض • ولكن الفرسان كانوا قد هبوا الى نجدتى، فبعضهم سد طريق الحقل وجاء اخران فاقتربا منى اقترابا بلغ من الالتصـــاق أنهما آوشكا أن يسحقا قدمىّ وهما يضغطان الحصان بين جنبى حصانيهما، واستطاعا آن يستوليا على الزمام •

أنزلت عن السرج أصفرَ اللون مشعّث الوجه مرتجفا كقشة ، تماما مثل تانكريد الذى تجمد وهبط بكل جسمه الى الوراء حتى لكان حافريه قد غاصا فى الارض • وكان زفير من نار يخرج من منخريه • انه مضطرب أشـــد الاضطراب ، لا ينفك عن الارتجاف والارتعاش ، كأنما صعقته هذه الاهانة وهـــذه المسبَّـــة اللتين ألحقهما به صبى ، ولم يستطع أن يعاقبه عليهما • ومن حولنا كانت تترجع صيحات دهشة وقلق وتعجب •

وفى هذه اللحظة بينما كنت أجيل بصرى فيمن حولى التقت نظرتى بنظرة السيدة م ••• القلقة الشاحبة • فخفضت عينى وقد احمر وجهى احمرارا شـــديدا كأنما اجتاحنى لهيب قوى فخجلت واضـــطربت من عاطفتى نفسها • ولكن الناس كانوا قد لاحظوا هذه النظرة • كانوا قـد أدركوها • كانوا قد تلقفوها • كانوا قد سرقوها • فالتفتت جميع الاعين نحو السيدة م ••• التى أُخِـذَت على حين غرة فاحمر وجهها هى الأخرى

وهزّها انفعال قوى برىء على غير ارادة منها ، فكانت تحاول أن تخفى احمرار وجهها ببسمة فى شفتيها.

وطبيعى ان من يرى هذا المنظر لله من الخارج لا بد ان يضحك .. غير ان نزوة ساذجة غير متوقعة قد انقذتنى من ضحك الناس كافة ، اذ أسبغت على هذه المغامرة كلها لونا خاصا فان تلك المرأة التى كانت أصل هذه البلبلة كلها اعنى خصمى اللدود ، حسنائى الطاغية ، قد أسرعت الى تعانقنى وتقبّلنى . انها لم تصدق عينيها حين تجرأت فقبلت تحديها ورددت على استفزازها لحظة ألقت نظرة على صديقتها . وحين طار بى تانكريد كانت أشبه بالميتة خوفا وندامة . وقد انتهى الآن كل شىء ، وأدركت هى أيضا نظرتى المحدّقة الى السيدة م ... ولاحظت اضطرابى ، ووجد رأسها الرومانسى علة خفية لموقفى فهزتها حركتى الفروسية . انها الآن فخورة بى تشدنى الى صدرها منفعلة فرحة . وها هى ذى ترفع نحو الذين يحيطون بها وجها صغيرا ساذجا متوحشا ترتعش فيه دمعتان صغيرتان كالبلور ، وتقول بصوت رصين لا عهد لأحد به فيها من قبل وهى تشير الى غير منتبهة الى اعجاب الذين كانوا يتأملونها مفتونين مسحورين :

ـ لا تضحكوا أيها السادة ! فالامر جد ليس فيه ما يضحك .

هذه الاندفاعة السريعة وهذه الهيئة الجادة البريئة وهذه الدموع فى العينين الضاحكتين عادة ، هذا كله بلغ من قوة التأثير أن الناس أصبحوا من نظرتها وأقوالها الحارة وحركتها الجميلة كمن مسّتهم كهرباء ، فهم الآن يحتضنونها بأبصارهم احتضانا حريصين على أن لا يفوتهم شىء من تفاصيل هذا المشهد الملهم . حتى صاحب الدار اعترف فيما بعد

وهو يحمر احمرارا شديدا أنه كاد يقع فى غرام هذه الحسناء حينذاك.
وطبيعي أننى رقيت بعد ذلك الحادث الى رتبة فارس وبطل .

ـ دلورج ! توجنبرج ! *

كذلك ارتفع صياح الاعجاب من حولى . وكانوا يصفقون . وأضاف رب الدار يقول :

ـ أرأيتم الى هذا الجيل الجديد ! ...

وصاحت الشقراء :

ـ سيجيء معنا ! لا بد أن يجيء معنا ! يجب أن نجد له مكانا .. سيجلس الى جانبى .

ولكنها لم تلبث أن تداركت تقول ضاحكة وقد تذكرت اصطدامنا الاول :

ـ لا .. لا .. هذه غلطة ..

ولكنها كانت وهى تضحك تلاعب يدى فى رقة وحنان من قبيل الملاطفة .

وصاح الآخرون يقولون :

ـ طبعا .. طبعا .. يجب أن يجيء معنا .. لقد استحق مكانه .

وسرعان ما دُبرّ كل شيء . فان العانس التى عرّفتنى بالشقراء الجميلة وافقت على تلبية طلب الجميع ولا سيما الشبان أن تبقى فى البيت لتخلى لى مكانها ، وافقت على ذلك آسفة متحسرة ، وهى تبتسم اخفاءً لما قام فى نفسها من غيظ مكظوم . وقالت لها صديقتى الجديدة ، أعنى عدوتى القديمة ، قالت لها صائحة وهى تعدو على صهوة جوادها الشرس

وتضحك كطفل : انها تحسدها ، انها تغبطها على بقائها في المنزل ، وانها كان يسرها أن تبقى في المنزل لأن المطر سينهمر حتما فيبللنا جميعا •

وقد تحققت نبوءتها ، حتى لقد أخذ المطر يهطل مدرارا فاخفقت نزهتنا واضطررنا ان نتلبث بضع ساعات في أكواخ الفلاحين ، ثم عدنا الى المنزل في مساء رطب • وكان بي شيء من الحمى • وقد ادهش السيدة م ••• أثناء عودتنا أن رأتني لا أرتدي الا صدرة بسيطه وان رات عنقي عارية • ولكن وقتي لم يتسع حين الرحيل للاتيان بمعطفي • وهاهي ذي ترفع ياقة قميصي الى فوق • وتربط طرفيها بدبوس ثم تنضو وشاحها الحريرى الارجواني الصغير فتلف به عنقي لتحميني من الزكام، فعلت ذلك بسرعة عظيمة حتى أن وقتي لم يتسع لأن أشكر لها صنيعها •

فلما وصلنا الى البيت والتقيت بها في الصالون الصغير بصحبة صديقتها الشقراء والشاب الشاحب الذى أصبح معروفا بأنه فارس بارع ما دام قد رفض ركوب تانكريد ، مضيت أشكرها وأرد اليها وشاحها ، وكنت بعد كل هذه الاحداث التي وقعت أشعر بضيق ، وأتمنى أن أصعد الى غرفتي ، لأتأمل على مهل ، ولأرى المشاعر التي كانت تزدحم في نفسي بشيء من الوضوح • وقد احمر وجهي على عادتي حين مددت اليها الوشاح •

قال الشاب وهو يضحك :

ـ أحلف أنه كان يتمنى أن يحتفظ بالوشاح • ان المرء ليقرأ في عينيه انه آسف لفراقه •

ـ تماما •

كذلك أضافت الشقراء ، وقد ظهرت في وجهها حسرة واضحة •

وأخذت تهز رأسها • ولكنها لم تلبث أن سكنت حين نظرت اليها السيدة م ••• نظرةً رصينة ، لأنها لم تحب استمرار صاحبتها في الهزل •

وابتعدت مسرعا • وأدركتني المرأة الشابة الشقراء في الغـــرفة المجاورة فتناولت يدي بمودة ومحبة فقالت لي :

ـ كان في وسعك أن تحتفظ بالوشـاح اذا شئت ! كان يكفي أن تقول انك أضعته فينتهي الامر ! انك لم تحسن التصرف يا سخيف •

ولطمتني باصبعها على ذقني لطمة خفيفة • وضحكتْ بينما احمرَّ وجهي احمرارا شديدا • قالت :

ـ ألست صديقتك الآن ؟ لقد انتهى الصراع بيننا •• اتفقنا ؟

فضحكت وضغط أصابعها الصغيرة دون أن أجيب •

ـ ما بك ؟ لماذا أنت شاحب ؟ انك ترتعد ••• فهل بك حمى ؟

ـ نعم ••• انني أحس بأنني مريض قليلا •••

ـ مسكين أيها الصغير • هذه ثمرة المشاعر العنيفة • هيا ارقد في فراشك دون أن تنتظر العشاء ، وغدا يصلح كل شيء • تعال !

قالت ذلك وقادتني الى غرفتي وأحاطتني بما لا حصر له من أنواع الرعاية والعناية • ثم تركتني لأخلع ثيابي ، وهرعت تجيئني بقليـــل من الشاي ، فلما رقدت حملت اليَّ غطاء دافئا • تأثرت كثـيرا • ودهشت كثيرا من رعايتها هذه • لعل هذا كان من نتائج ذلك النهـار • ولكنني حين افترقنا عانقتها عناقا شديدا كما يعانق المرء أحب أصــدقائه اليــه وأقربهم مودة عنده • وقد كدت أبكي وأنا أشد نفسي اليهـا من فرط ازدحام المشاعر الاخيرة في قلبي المضنى ، فلما لاحظت صديقتي الجديدة

انفعالى ، انفعلت هى أيضا ، وهمست تقول وهى تنظر الىّ نظرة رقيقة عـذبة :

ـ أنت صبى طيب جدا . لا تغضب منى بعد الآن ، أرجوك ... اتفقنا ؟

والخلاصة أننا أصبحنا منذ ذلك الحين صديقين وفيين يحمـل كل واحد منا لصاحبه أرق العاطفة .

استيقظت في ساعة مبكرة . ولكن الغرفة كانت منذ تلك الساعة المبكرة غارقـــةً في شمس ســاطعة . وقد نلت نصيبى من الراحـة ، واستردت قوتى وبأسى ، كأن حمى الامس لم تكن ، وشعرت بفـرح لا يوصف ، ووثبت من السرير . وحين تذكرت حوادث الليلة البارحة تراءى لى اننى مستعد لأن أهب كل شيء في العالم فى سبيل أن أعانق أو أن أقبّل في هذه اللحظة صديقتى الجديدة ، شقراءنا الحسناء ، كما فعلت بالامس . ولكن جميع من بالمنزل كانوا ما يزالون نياما . فارتديت ملابسى بسرعة ، ونزلت الى الحديقـة ، ومضيت من هنــاك الى الغابة الصغيرة متسللا عبر المواضع التى كانت فيها الخضرة أكثف ما تكون ، وكان فيها عبق الاشجار أحفل بشذى الصنوبر ، وكانت فيها أشـــعة الشمس تتلاعب مرحة فرحة سعيدة باختراق ظلال الاوراق هنا وهناك. لقد كان صباحا جميلا .

تسللت هكذا خلال الاشجار شيئا بعد شيء ، حتى وصلت أخـيرا الى الطرف الآخر من الغابة . ان نهر موسكوفا يجرى على مســافة ما يقرب من مائة متر عند أسفل الجبل . ورأيت الحصادين يقطعون الهشيم على الضفة المقابلة فتلبثت أنظر الى صفوف المناجل الحادة التى تتـلألأ ساطعةً عند كل حركة من حركات الحصّادين ، ثم تختفى كأنها حيات

من نار تتوارى بين الاعشاب • وكان الهشيم الذى يجد عند جـذوره يتطاير اكداسا صغيرة كثيفة تصطف بعد ذلك اخاديد طويله • لاادرى كم قضيت من الوقت فى تامل هذا المشهد حين ثبت الى رشدى على حين فجاة اذ أبصرت فى الغابة الصغيرة الواقعة على مسافة عشرين خطوة عند الفسحة الممتدة بين الطريق الكبير والقصر حصانا يضرب الارض بحوافره واقفا فى مكانه نافد الصبر • ترى هل سمعت وصـول الفارس أم أن الضجة دغدغت أذنى زمنا طويلا دون ان تستطيع انتزاعى من استرسالى فى الاحـــلام ! لا أدرى ! ولكننى أعرف أننى شعرت عندئذ بحـيرة واضطراب ، فدخلت الغابة الصغيرة فسمعت أصواتا صغيرة خافتة • حتى اذا أزحت فى رفقٍ أغصان أواخر الشجيرات التى تحف بالفسحة رأيتنى آتب متراجعاً الى الوراء مصعوقا من الدهشـــة • لقد رايت ثوبا ابيض أعرفه ، وسمعت صوتا عذبا ترجّع فى قلبى كألحان الموسيقى • انهـــا السيدة م ••• كانت واقفةً قربَ فارس يكلمها بسرعة من على صهوة جواده • وما كان أشد دهشتى حين عرفت فى الفارس السـيد ن ••• الذى تركناه فى صباح أمس على حين غرة ، والذى تحدث عنه السيـد م ••• لقد قالوا انه سافر الى مكان بعيد جـدا ، فلا غرابة اذا دُهشت أشدَّ الدهشة حين رأيته بيننا فى مثـل هذه الساعة المبكرة من الصباح منفردا بالسيدة م •••

كانت شديدة الانتعاش قوية الانفعال كما لم أرها على هذه الحال من قبل ، وكانت تلتمع على خديها دموع وكان الشاب ممسكا يدها يقبلها مائلا عليها • لقد وصلتُ فى لحظة الوداع • كان يبدو عليها التعجل • وأخيرا مدَّ الرجل الى المرأة الشابة ظرفا مختـــوما ســلّه من جيبه ثم حضنها بذراعه وقبّلها قبلة طويلة دون أن ينزل على الارض • وبعـــد

لحظه ، لكن حصانه لكزةً مفاجئة فطار الحصان كالسهم • ظلت السيدة م ••• تشيّعه بنظرها الى أن غاب ، ثم اتجهت نحو المنزل مطرقةً شاردة اللب حزينة ، وثابت الى رشــدها بعد بضع خطــوات فأسرعت تزيح شجيرات الأدغال وسارت في طريق الغاية •

تبعتها مضطربا أشد الاضطراب مصــعوقا مما رايت • كان قلبي يخفق خفقانا قويا ، وكنت مشدوها مذهولا ، وكنت على وجه الخصوص حزينا حزنا رهيبا ، ما زلت أتذكر ذلك • ان ثوبها الابيض يظهر لى من حين الى حين خلال الخضرة • وكنت أمشي مســلوب الارادة دون ان أحوّل عنها بصري رغم خوفي أن تكتشف وجودي • ووصلت أخــيرا الى الممر الذي يفضي الى الحديقة • وبعد لحظة سرتُ أنا في هـــذا الطريق أيضا ، فما كان أشــد دهشتي حين لمحت على الرمل الاحمــر الظرف المختوم فعرفته فورا •

التقطت الظرف • انه لا يحمل أية كتابة • وهو ثقيل الوزن يبدو أنه يضم عدة أوراق من أوراق الرسائل •

ماذا يعني هذا الظرف ؟ لا شك أنه يضم تعليل السرّ ••• لعله يقص ما كان السيد ن ••• لا يستطيع أن يأمل الافصاح عنه أثناء لقائهما القصير • ان السيد ن ••• لم ينزل عن صهوة حصانه ، فهل تراه كان مستعجلا ، أم تُراه كان يخشى أن يُفتضح أمره في ساعة الوداع ؟ •• الله وحده يعلم ذلك •••

وقفتُ ورميتُ الرســالة على الارض ظاهرةً للابصـــار عسى أن تلاحظ السيدة م ••• فقدانها فتعود أدراجها باحثــةً عنها فتجـدها • ولكنني بعد أن انتظرت بضع دقائق دون طائل عدت فتناولتُ الرسالة

فوضعتها في جيبي واستأنفت متابعة المرأة الشابة • وادركتها في الحديقة عند الطريق الذي يحف به صفان من الأشجار • كانت تمشي بخطى سريعة شاردة اللب خافضة العينين • وكنت لا أعرف ماذا يجب على أن أفعل • أأقترب منها وأمدُّ اليها الرســـالة ؟ • لو فعلت ذلك لكان برهانا على أنني أعلم كل شيء ، ولفضحت نفسي منذ أول كلمة • وكيف يمكن أن أنظر اليها عندئذ وكيف يمكن أن تنظر الىّ ؟ لبثت انتظر عسى أن تثوب الى وعيها فتأخذ تبحث عن الرسالة الضائعة فتعود أدراجها •• ان في وسعي اذا حدث ذلك أن أسقط الرســـالة في الطريق دون أن تلاحظ هي ذلك • ولكن لا ، فها نحن نقترب من المنزل الى حيث ترى مقبلة •••

وكان سكان الدار قد استيقظوا مبكرين في ذلك اليــوم كانما على قصد ، لأنهم بعد اخفاق رحلة الامس ينوون القيام بنزهة جديدة ، وذلك ماكنت أجهله • ان الجميع يتهيأون للرحيل ويتناولون طعام الافطار على الشرفة • فمن أجل أن لا يراني أحد مع السيدة م ••• تأخرت عشر دقائق ، وقمت بجولةٍ في الحديقة فوصلت المنزل بعدها بمدة طويلة ، فرأيتها قلقةً شاحبة الوجه تذهب وتجيء على الشرفة مصالبة ذراعيهاعلى صدرها ، محاولة جهدها أن تتغلب على خوفها الذي كان يلوح مع ذلك في عينيها ومشيتها وجميع حركاتها • نزلتْ الدرجات عدة مراتمتقدمةً في اتجاه الحديقة عدة خطوات باحثةً بنظرة طائشة عن شيء على رمل الممرات وعلى الشرفة • لم يخامرني أي شك : لقـــد لاحظتْ ضـــياع الرسالة فظنت أنها سقطت منها في مكان قـرب المنزل • نعـم ! لا ريب أن الامر كذلك ، لا ريب أنها واثقة من ذلك ! وقد لاحظوا شحوبهـا وقلقها فكانوا يسألونها عن صمتها ، وكانت مضــطرة أن تمازح ، وأن تضحك ، وأن تتظاهر بالمرح ، ثم هي تلقي من حين الى حين نظرةً على

زوجها الذى كان يتحدث عند آخر الشرفة مع سيدتين ، فتنتابها رعدة ويجتاحها اضطراب ، تماما كما حدث لها مساء وصوله . وقفت بعيدا عن الاخرين ، واضعا يدى في جيبي ممسكا بالظرف ضارعا الى القدر ان يلفت انتباه السيدة م ... الى ... عسى أن اشجعها ، أن أهدىء روعها ، ان اومىء اليها بنظرة مختلسة ... ولكن حين نظرت الى مصادفة ارتعشت وخفضت بصرى .

لم يخطىء ظنى في أنها معذبة . وما زلت أجهل سرها الا ما رأيته بنفسى وقصصته على القارىء . لعل روايتها تختلف عما قد يفترضه المرء لاول وهلة . لعل تلك القبلة كانت قبلة وداع . لعلها كانت المكافاة الاخيرة الضعيفة على تضحية ارتضاها المضحى فى سبيل طمانينتها وفى سبيل شرفها . لقد سافر ن ... وتركها ربما الى الابد ! وهذه الرسالة التى امسكها بيدى : من ذا الذى يعلم ماذا تتضمن ؟ كيف يمكن الحكم فى الامر ؟ ومن يحق له ان يدين ؟ لا شك مع ذلك ان انكشاف السر على حين فجاة يمكن أن يكون كارثة تنزل بها وصاعقة تصيب حياتها . ما زلت ارى وجهها فى تلك اللحظة : يستحيل أن يتألم المرء ألما اقسى من هذا الالم ! أى عذاب يمكن أن يساوى عذابها وهى تتوقع ما تتوقع؟ أى عذاب يساوى عذابها وهى تحس وتعلم علم اليقين وتنتظر انتظار المرء تنفيذ حكم الاعدام فيه أن تلك الرسالة ستُلتقط وستفض ما دام الظرف خلوا من أية كتابة ؟ انها الآن تتصور نفسها بين القضاة الذين سيحكمون عليها . بعد قليل ستصبح وجوههم الضاحكة الملاطفة مهددة متوعدة لا ترحم ! ان فى وسعها أن تقرأ على هذه الوجوه السخرية القاسية والاحتقار البارد ، ثم تقضى ليلة لا آخر لها ولا رجاء فيها ...

صحيح أننى كنت فى ذلك الأوان لا أفهم هذه الأشياء كما أفهمها

اليوم • ولم أكن أستطيع الا أن أخمن وأن أوجس وأن أقلق • ولكن أيا كان سرُ هذه المرأة فان اللحظات الاليمة التى شـــهدتها والتى لن أنساها ما حييت ، تكفـّر عن أشياء كثيرة ، اذا كان ثمة ذنب يجب التكفير عنه حقا •

وها هى ذى اشـــارة الرحيل تدوى فرحة • الضيوف يذهبـون ويجيئون ويتحركون مثرثرين ضاحكين • وبعد قليل ستفرغ الشرفة • وأعلنت السيدة م ••• أنها مريضـــة ، ورفضت الذهاب مع الذاهبين • الحمد لله على أنهم كانوا جميعا مستعجلين الرحيل ، فلم يتسع وقت أحد منهم لمضايقتها بالقاء الاسئلة واسداء النصائح • قال لها زوجها بضع كلمات فأجابته مؤكدة أنه لا داعى الى القلق وان صحتها لن تلبث أن تتحسن وأنها ستنزل الى الحديقة ••• معى •

ونظرت الىّ • هذه فرصة • احمر وجهى فرحا • وسرنا معا •

أخذت تسير فى نفس الطرق ونفس الممرات التى سارت فيها عند عودتها الى المنزل فى الصباح ، وكانت تحاول أن تتذكر خط السير الذى اتبعته ، وكانت تنظر الى أمام محدقةً لا تحوّل بصرها عن الارض ، ولا تخاطبني بكلمة ، حتى لكأنها نسيت وجودى •

فلما بلغنا الموضع الذى التقطتُ فيــه الظرف والذى ينتهى عنــده الطريق ، توقفتْ وقالت لى بصوت واهن شاحب انها تشعر باعيــاء وانها ستقفل راجعة الى المنزل ، ولكنها ما ان وصلت الى باب الســـور حتى توقفت جامدة تتأمل ، وطافت على شـــفتيها ابتسامة حزينــة ، ثم عادت أدراجها مهدودة القوى عازمة مذعنةً ، ناسيةً أن تنبئنى بما عقدت النية عليه ، فلم أعرف ماذا أعمل ، وقد مزق القلق قلبى تمزيقا •

ومضينا بل قل انني قدتها الى المكان الذى سمعت فيه وقع حوافر الحصان ، وما دار بينهما من حديث • وكان يوجد على مقربة من شجرة ضخمه من اشجار الدردار مقعد مقدود فى صخرة كبيرة يلتف عليهما اللبلاب وينبت حولها ياسمين الحقول وزهر النسرين (كانت هذه الغابة تكثر فيها الجسور الصغيرة والعرائش والمغاور وما الى ذلك من مفاجات) جلست السيدة م ••• والقت نظرة ذاهلة على المنظر الرائع الذى يمتد امامنا • فتحت كتابها ، وظلت جامدة لا تقلب الصفحات ولا تقرا حتى لتشبه ان تكون فاقدة وعيها • بلغت الساعة التاسعة والنصف ، وفوق راسينا فى سماء عميقة زرقاء كانت تسطع شمس رائعة كانها منصهرة فى لهيبها نفسه • والحصادون قد ابتعدوا فلا تكاد تراهم الابصار ، وأخاديد لا نهاية لها من الهشيم المقطوع تتبعهم ، وأبخرة عطرة تصل الينا يحملها نسيم خفيف ، ومن حولنا تترجع تلك الموسيقى التى لا تنقطع ، موسيقى أولئك الذين « لا يزرعون ولا يحصدون » وانما هم طلقاء كالهواء الذى تشقه أجنحتهم الفرحة • ان كل زهرة وكل عشبة كانت بعطائها أشذاءها جميعا كأنها تعلن غبطتها وهناءتها لرب السماء • ونظرتُ الى المرأة المسكينة التى كانت وحدها كالميتة وسط هذه الحياة الطافحة الفياضة • ان دمعتين كبيرتين نابعتين من قلب حزين تتلألآن على أهدابها • وكان فى وسعى أن أنعش وأن أسعد هذا القلب المسكين القلق الخائف ، ولكننى لا أدرى كيف أقوم بالخطوة الاولى • كنت أتألم وأحترق رغبة فى مخاطبتها ومواجهتها، فكان خداى يشتعلان كلما هممت بذلك •

وفجأة أشرقت فى ذهنى فكرة • لقد وجدت حيلةً فانتعشت نفسى •

قلت لها فجأة بلهجة تبلغ من الفرح أن السيدة م ••• رفعت رأسها نحوى وحدقت فى :

ـ سأقطف لك باقة من أزهار ••• هل تريدين ؟

ـ اذا شئت !

كذلك أجابت بصوت واهن مع ابتسامة ضعيفة ثم أكبت على كتابها من جديد •

صحت وأنا أنطلق في البرية فرحا :

ـ ذلك أنه سيقطعون العشب هنا فلن تبقى بعد ذلك أزهار !

وشرعت اعمل فرحا فما هى الا برهة حتى كانت الباقه المتواضعه مهيأة • لو فعلت ذلك فى المنزل لكان فعلى فى غير محله ! ولكن ما اشد فرحى حين كنت أقطف الازهار ! كنت أنتزع زهر النسرين والياسمين البرى وانا فى مكانى • وغير بعيد منى كان ثمه حقـــل قمح ناضج • كنت أعرف ذلك ، فهرعت أقطف منه آزهارا أخرى أضم اليها ســـنابل طويلة ثقيلة مذهبة • وعلى مقربة من حقل القمح عثرت على نوع آخر من الازهار ، فكانت باقتى تضخم • ووقعت بعد ذلك على زهرات زرق كأنها الجريسات شكلا ، وعلى قرنفلات من قرنفل الحقول ، وجنيت كذلك عددا من أزهار صفراء على حافة النهر ، وحين قفلت راجعا آخر الامر فدخلت الغابة الصغيرة تناولت منها أوراقا عريضة ساطعة الخضرة ألفت بها الأزهار • وهنالك عثرت مصادفةً على كشة كبيرة من أزهار البنفسج الصغير ، وعلى مقربة من ذلك واتانى الحظ فاهتديت الى بنفسجات مدفونة فى العشب فضحها شذاها الفواح ، وكانت ما تزال مغطاةً بالندى • ربطت الباقة بعشب مفتول وأخفيت في داخلها الرســالة وغطيتها بالأزهار حتى لا تُرى •

وأحسست في طريق عودتي الى السيدة م ••• أن الرسالة ما تزال ظاهرة فدفعتها الى داخل الباقة حتى أصبح لا يُرى في الباقة شيء • ومضيت الى السيدة م ••• فقدمت اليها الباقة • كان وجهي ملتهبا كالنار ، ووددت لو أدفنه في يدي وأهرب ، لكنها وقد نسيت أنني مضيت لآتيها بأزهار ، مدت يدها بغير شعور دون أن تنظر الى الازهار ، ووضعتها على المقعد خافضةً عينيها وكأنها في غيبوبة •

كاد هذا الاخفاق أن يبكيني • « آمل على الاقل أن لا تنسى الازهار ! » كذلك قلت لنفسي وأنا أتمدد على العشب مسندا رأسي الى ذراعي اليمنى متظاهرا بالوسن • ولكنني كنت أنظر اليها خلسة وأنتظر •

انقضت عشرة دقائق ، فكنت أرى السيدة م ••• تزداد شحوبا لحظةً بعد لحظة ، وفجأة وقع حادث مبارك أسعفني :

انها نحلة ذهبية كبيرة قادتها الينا الريح من حسن حظي ، فبعد أن دندنت فوق رأسي طارت نحو السيدة م ••• فهشت السيدة م ••• عليها بيدها • ولكن النحلة ظلت تتحرش بها ، فما كان من السيدة م••• في آخر الامر الا أن تناولت باقتي وهزتها أمامها ، فاذا بالرسالة تنزلق في هذه اللحظة من بين الأزهار ، فتسقط على الكتاب المفتوح •

انتفضتُ خائفا • ولبثت السيدة م ••• صمّاء من الدهشة برهةً من الزمن ، تنظر تارةً الى الرسالة وتارة الى الازهار التي في يدها ، وهي لا تصدق عينيها • وفجأة احمر وجهها ونظرت اليّ • لكنني حين لمحت نظرتها أغمضت عينيّ كما لو كنت نائما • ما كان في وسعي أن أنظر اليها وجها لوجه في تلك اللحظة بحال من الاحوال ! كان قلبي

يخفق خفقان قطاة بين يدى صبى من صبيان القرية أشعث الشعر لا أدرى كم لبثت على هذه الحال قبل أن آجرؤ على فتح عينى •

فلما فتحتهما آخيرا رأيت السيدة م ••• تقرأ الرسالة محترقة الخدين ملتمعة العينين هادئة الوجه ، ترتعش كل قسمة من قسماتها فرحا • فقدرت أن الرسالة تحمل الى قلبها السعادة • لقد تبدد ألمها كالدخان ، واعترانى آنا احساس مؤلم عذب قبض صدرى • كان يشق على نفسى أن أخفى عواطفى •

لن أنسى فى حياتى تلك اللحظة • ودوت أصوات تنادى من قريب على حين فجأة :

ـ السيدة م ••• ناتاليا •• ناتاليا •••

فاسرعت السيدة م ••• تنهض دون أن تجيب واقتربت منى ومالت علىّ • أحسست نظرتها وارتعشت أهدابى ، ولكننى سيطرت على نفسى فلم أفتح عينى ، وحاولت أن أتنفس بمزيد من الهدوء ، بينما كان قلبى يخفق خفقانا شديدا • ولامست خدى زفرةٌ محرقة • لقد مالت علىّ السيدة م ••• مزيدا من الميل كأنما لتمتحننى ، وتساقطت على احدى يدىّ ، على يدى التى كانت ممدودة فوق صدرى ، تساقطت قبلاتٌ ودموعٌ •

ـ ناتاليا ••• ناتاليا ••• أين أنت ؟

كذلك ارتفع الصياح قربنا •

ـ حا ••• لاً

كذلك قالت السيدة م ••• بصوتها الفضى المحجب الذى كان يرتعش بسبب دموعها والذى كان يبلغ من الخفوت أن أحدا غيرى لم يسمعه •

وفضحني قلبي آخيرا فأغرق الدم وجهي • وفي تلك اللحظة نفسها أحرقت شفتيّ قبلة حارة عنيفة ، فأطلقت صرخةً ضعيفة ، وفتحت عينيّ • كان هنالك شيءٌ يمنعني من الرؤيا هو الوشاح الارجواني الصغير مفروشا على وجهي كأنما ليحميني من الشمس ! وما هي الا لحظة حتى كانت السيدة م ••• قد غابت فلا أسمع الا وقع خطواتها وهي تبتعد • كنت وحيدا ••• أمسكت بالوشاح وأغرقته قبلا وقد اضطرم في نفسي فرح شديد • كنت كالمجنون ••• انني أتنفس بصعوبة ، مستندا بيدي الى العشب • ورحت أنظر بعين ذاهلة محدقا في الروابي التي تبرقشها الحقول أمامي ، وفي النهر المتلوي الذي يشق طريقه من بعيد يغمره الضياء بين الذرى والقرى ، وفي الغابات الزرق التي لا تكاد تراها العين والتي تشبه أن تكون دخانا عند حافة السماء المتوهجة • وشيئا فشيئا هدّأ هذا الصمت العذب الذي توحي به طمأنينة المنظر الرائع ، هدأ اضطرابي وسكّن روعي • أصبحت أتنفس بسهولة ، ولكن نفسي كلها كانت تفيض أسىً شجيا ممتعا في آن واحد • كانت نفسي تهتز بشعور واضح ونبوءة بينة ، وترتعش في انتظار خائف فرح معا وتنبض نبض جريح •• وانبجست من عيني دموع تفيض عذوبة • ودفنت وجهي في يدي واستسلمت بلا مقاومة لأول اكتشاف من الهام قلبي ، واستسلمت للتنبؤ الغامض بطبيعتي ••• استسلمت لذلك كله وأنا أرتعش ارتعاش قشة في مهب الريح ••• لقد انتهت طفولتي الاولى في تلك اللحظة •

وحين رجعت الى البيت بعد ساعتين ، لم أجد فيه السيدة م ••• لقد سافرت الى موسكو مع زوجها على أثر حادث غير متوقع ، ثم لم أرها بعد ذلك أبدا •

قصة في تسع رسائل

١٨٤٧

« قصـــــة فى تسع رســـائل »
(Romane v deviati pismah)

كتبها دوستويفسكى فى ليلة من ليالى
شهر تشرين الأول (أكتـــوبر) ،
١٨٤٥ ، ونشرت فى مجلة « المعاصر »
فى شهر كانون الثانى (يناير) ١٨٤٧

١

من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

السيد المحترم والصديق العزيز ايفان بتروفتش

هأنذا ألاحقك منذ ثلاثة أيام ، يا صديقى العزيز جـدا ، لحاجتى الى التحـــدث اليك فى أمر هام ، ثم لا أقع لك على أثر فى أى مكان . بالامس كنا فى زيارة عند سيميون الكسيتش ، فقالت زوجتى فى حقك نكتة فكهة ، اذ شبهتكما أنت وزوجتك تاتيانا بتروفنا ، بأسرة من اليهـود الضاربين فى الارض ، فانه ما انقضى على زواجكما ثلاثة أشهر ، وهاانتمـا تهملان منزلكما فلا تكادان تمكثان فيه . لقدضحكنا كثيرا ، ولكن على مودة لكما طبعا . ولكننى أقول لك جادا يا صـــديقى العزيز ان أمرك يقلقنى كثيرا . قال لى سيميون ألكسيتش : لعله فى الحفلة الراقصة بنادى « الجمعية المتحدة» . فتركت زوجتى عند سيميون الكسيتش وطرت الى النادى.ان فى الأمر مايضحك ويبكى فى آن واحد . تصور وضعى : لقد ذهبت الى النادى وحدى غير مصطحب زوجتى . وهذا ايفان آندريتش يلقانى فى الدهليز ،فما ان يرنى وحيدا حتى يستنتج من ذلك ياله من شقى !ـ أننى

أحب حفلات الرقص حبا جارفا . فيمسكنى من ابطى محاولا أن يقودني الى أحد المراقص ، قائلا ان « الجمعية المتحدة » لا مكان فيها لرقص ، وان رائحة العطر قد صدعت رأسه . لم أجدكما لا أنت ولا تاتيانا بتروفنا . ويحلف لى ايفان آندريتش أنكما ذهبتما الى مسرح ألكسندريسكي لمشاهدة تمثيلية « شقاء العاقل بعقله » * .

وطرت الى هنالك . فلم أجدكما أيضا . وقدرت فى هذا الصباح أن ألقاكما عند تشستوجانوف . فخاب ظنى مرة أخرى . ويرسلنى تشستوجانوف الى بريبالكين ، فما عثرت لكما على أثر كذلك . الخلاصة أن البحث عنكما قد أرهقنى . لذلك أكتب اليك ، فما من سبيل آخر . وليست القضية قضية أدب مع ذلك (أنت تفهمنى !) . ان من المستحسن أن نتصارح بوضوح وبأقصى سرعة ممكنة . من أجل هذا أرجوك أن تجيء الىّ مع تاتيانا بتروفنا لتناول الشاى . ولسوف تسر عزيزتى آنا ميخائيلوفنا بزيارتكما سرورا عظيما . وبالمناسبة ، يا صديقى العزيز جدا ، فاننى أحب ، ما دمت أكتب اليك ، أن أذكرك بشيء . اننى مضطر أن أعتب عليك قليلا يا صديقى المحترم . لقد دبرت لى مزحة طائشة بعض الطيش ... أيها الشيطان ! فى حوالى منتصف الشهر الماضى جئتنى بأحد أصدقائك ، أو جين نيقولايتش ، وزكيته لى بكثير من الحرارة ، وتلك عندى أقدس تزكية ، فأبهجنى كثيرا أن أسرك ، ففتحت لصديقك ذراعي وبيتى . ولكننى لم أكن أعلم ما معنى أن يوضع حبل فى عنقى ... يا لها من قضية جميلة ! لا يتسع وقتى الآن لأن أشرح لك الأمر كله ، وهذه على كل حال أمور لا تكتب فى رسالة . ولكننى أرجوك ، يا صديقى الخبيث ، أن توحى الى صديقك الشاب ، بلباقة ونعومة ، كأنك تذكر الأمر عرضا ، كأنك تمر به مرورا عابرا ، أن توحى اليه ، همسا فى الأذن،

وشوشة ناعمة ، أن فى العاصمة بيوتا أخرى كثيرة غير بيتى • لقد طفح الكيل يا عزيزى ! انني أركع لك ضارعا يا عزيزى ، على حد تعبير صديقنا سيمونيفتش ••• ليس معنى هذا أن الفتى قليل الأدب ، كثير العيوب ، لا ••• انه شاب لطيف محبب • ولكننى سأشرح لك الأمر حين نلتـقى فنستطيع الكلام • وبانتظار ذلك ، أتوسل اليك ، يا عزيزى المحترم ، اذا أنت رأيته ، أن تهمس فى أذنه أن ••• أنت تعلم ماذا ، يا صديقى المحترم جدا • كان يمكننى أن أتولى ذلك بنفسى ، ولكنك تعرف طبعى : لم أستطع أن أعزم أمرى ••• ثم انك أنت من قدمه الىّ • على كل حال سأشرح لك التفاصيل هذا المساء • والآن ، الى اللقاء • وأظل ••• الخ •

حاشية : ابنى الصغير مريض منذ ثمانية أيام ، وحالته تسوء مزيدا من السوء • ان أسنانه تنبت • زوجتى لا تتركه لحظة • وهى حزينـة • تعال اذن • سيسرنا مجيئك كثيرا يا صديقى العزيز جدا •

٢

من ايفان بتروفتش الى بيتر ايفانوفتش

السيد المحترم جدا بيتر ايفانوفتش

تلقيت رسالتك أمس ، فقرأتها فدهشت أشد الدهشة • لقد بحثت عنى يعـــلم الله أين ، بينما كنت أنا فى بيتى منتظـــرا ايفان ايفـــانتش تولوكونوف حتى الساعة العاشرة من المساء • ما ان وصلتنى رسالتك حتى ركبنا عربة أنا وزوجتى ، باذلين فى ذلك مالا كثيرا ، فوصلنا اليكم فى نحو

الساعة السادسة والنصف • لم تكن في بيتك • استقبلتني زوجتك • انتظرتك حتى العاشرة والنصف • ثم مضيت مع زوجتي ، فاستأجرت عربة ، باذلا مالا جديدا • أوصلت زوجتي الى البيت ، ومضيت الى منزل بيربالكين آملا أن أجدك هناك • ولكن خاب ظني • عدت الى بيتي ؛ لم أستطع أن أغمض جفني طول الليل ، من شدة القلق • وفي صباح الغد طرقت بابك ثلاث مرات ، في الساعة التاسعة ، ثم في الساعة العاشرة ، ثم في الساعة الحادية عشرة • دفعت أجر ثلاث عربات •

حين قرأت رسالتك كان من حقي أن أدهش • انك تحدثني عن أوجين نيكولايتش ، وتطلب مني أن أوحي اليه ••• ولكنك لا تذكر شيئا عن الأسباب • انني أحبذ حذرك ، ولكن ليس كل الورق سواء ، وما أنا بالرجل الذي يعطي زوجته أوراقا لتستعملها في شأن من شئون المنزل • انني لا أفهم معنى رسالتك • ثم لماذا تقحمني في هذا الأمر ؟ انني لا أحشر أنفي في كل شأن من الشئون • كان في وسعك أن توصد دونه بابك • يجب أن تتصارح تصارحا حاسما • انني لا أملك من الوقت ما أضيعه سدى • أضف الى ذلك أنني في ضيق ، ولا أدري ماذا يمكن أن أضطر اليه اذا أهملت التزام الشروط التي اتفقنا عليها • ليست الرحلة طويلة • ولكنها تكلف نفقات كثيرة • زوجتي تشكو : انها تريد معطفا من المخمل على الموضة •

أما عن أوجين نيكولايتش ، فانني أسارع فأبلغك أنني سألت عنه بافل سيمينتش بيربالكين ، فعرفت أنه يملك خمسمائة نفس * في اقليم ياروسلاف ، وأنه سيرث عن جدته ثلاثمائة نفس أخرى • لا أعرف مقدار ثروته على وجه الدقة • أقدر أنك تعرفه • أرجوك أن تحدد لي موعدا

ثابتا . لقد التقيت أمس بايفان آندريتش فزعم لك أنني كنت مع زوجتي في مسرح الكسندرسكي . كذب ! ...

يشرفني أن ...

حاشية : امرأتي حامل . انها عصبية ، وهي في بعض الأحيان سوداوية . يتفق أحيانا أن تطلق على المسرح طلقات بندقية ، أو أن تسمع أصوات رعود مصطنعة ، لذلك أحاذر أن آخذها الى المسرح حتى لا تجزع . لعلك تدرك ذلك . ثم انني لست من هواة المسارح على كل حال .

٣

من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

صديقي المحترم جدا ايفان بتروفتش !

أعتذر ثم أعتذر ثم أعتذر ألف مرة . ولكنني أبادر فأبرىء نفسي. أمس ، في نحو الساعة السادسة، كنا بصدد الحديث عنك (بمحبة ومودة)، فاذا برسول من عمي ستيفان ألكسيتش يصل مسرعا ليبلغنا أن عمتي في حالة سيئة . فمن أجل أن لاأرعب زوجتي أسرعت أذهب الى عمتي دون أن أقول شيئا . فوجدت عمتي لا تكاد تتنفس ، على أثر سكتة أصابتها في الساعة الخامسة تماما ، وهي ثالث سكتة تصاب بها في غضون سنتين . وقد صرح كارل فيدورتش ، طبيب الأسرة ، أنها قد تموت في تلك الليلة نفسها . فانظر أيها الصديق العزيز جدا كيف صار حالي . قضيت الليل

كله واقفا قلقا ينهش الحزن قلبى . وفي الصبح ، وقد هدنى التعب هدا وتحطمت جسما وروحا ، تمددت على ديوان ، دون ان يخطر ببالى ان أقول لاحد ان يوقظنى فى ساعة مبكرة من الضحى ، فاذا انا اظل نائما حتى الساعة الحادية عشرة والنصف . كانت عمتي قد تحسنت حالها . فذهبت الى زوجتى . مسكينة ! كانت يائسة من رؤيتى . تناولت لقمة طعام عجلا ، وقبلت ابني ، وطمانت زوجتى ، وخففت اليك : لاأحد... الا أوجين نيكولايتش . عدت الى بيتى ، وتناولت القلم ، وأخذت أكتب اليك هذه الرسالة التى بين يديك . لا تزعل منى يا صديقى العزيز . عدنى مذنبا ، ولكن لا تحقد عليّ . أخبرتنى زوجتك أنك لا بد أن تذهب فى هذا المساء الى أسرة سلافيانوف . سأكون هنالك قطعا . وسأنتظرك نافد الصبر . وأظل ... الخ .

حاشية : ابننا الصغير يحزننا كثيرا . لقد وصف له كارل فيدورتش دواء . انه يئن ويتأوه . وظل طوال نهار أمس لا يعرفنا . بدأ اليوم يسترد وعيه ، ولكنه لا ينقطع عن الدمدمة : بابا ... ماما ... بو ... قضت امرأتي الصباح كله غارقة فى دموعها .

٤

من ايفان بتروفتش الى بيتر ايفانوفتش

السيد المحترم جدا بيتر ايفانوفتش ..

أكتب اليك من منزلك ، فى غرفتك ، على مكتبك . أنا فى انتظارك منذ ساعتين ونصف . اسمح لى أن أعلن بصراحة ، يا بطرس ايفانوفتش ، رأيى فى مسلكك . من رسالتك الأخيرة استنتجت أن أسرة سلافيانوف

كانت تنتظرك وقد دعوتنى ان اجيء الى هنـاك ، فجئت ، ولبثت خمس ساعات ، ثم لم تظهر ... اانا مهرج ؟ قل لى .. لا .. لا .. اسمح لى يا سيد ... وجئت اليك فى الصباح املا ان اجدك ، لم افعل كما يفعل « بعضهم » حين يبحثون عن الناس لا يدرى الا الله اين ، بدلا من ان يجيئوا الى بيوتهم فى ساعة مناسبة . لم تكن فى بيتك . لا أدرى ما الذى يمنعنى ان اقول لك حقائقك كلها . انك تسوّف وتتماطل فى تنفيـذ بعض ما اتفقنا عليه ، ولا استطيع بعد تقليب الامر على وجوهه المختلفة الا ان الاحظ ان فيك ميلا خارقا الى المكر والحيلة . اننى ارى اليوم هـذه الحقيقة واضحة : لقد برعت فى احكام الحيـلة . وحسبى برهانا على ذلك ما يلى : فى الاسبوع الماضى استرددت منى استردادا غير مشروع الرسالة التى تعترف فيها ، ولو اعترافا غامضا جدا ولا شـك ، بمـا تم الاتفاق عليه بيننا فيما يتصل بظروف تعلمها انت حق العلم . انك تخشى الادلة فتزيلها . ولكننى لا اسمح لك ان تعدنى غبيا أحمق . وأنا ما زلت اعد نفسى كذلك ، والناس جميعا من رأيى . اننى أفتح عينى . انك تريد ان تتهرب من الموضوع بحكاية أوجين نيكولايتش تلك ، فاذا حاولت أن ألقاك ، بدعوة منك أنت ، حـددت لى مواعيـد كاذبة واختفيت . أتراك تأمل أن آمل وأكل آخر الأمر ؟ لقد أردت أن تكون لك علىّ منّة تقديم خدمات لم تنسها اذ زكيتنى لعـدد من الأشخاص ، وعندئذ أدخلت الأمور بعضها فى بعض وعقّـدتها حتى بلغت هـدفك فاقترضت منى مبالغ طائلة دون أن تعطينى وثيقة باقتراضها ... ذلك منذ ثمانية أيام ... ثم اختفيت عن الأبصار فما يقع أحد لك على أثر . أتراك تعوّل على أننى مسافر قريبا الى سمبرسك ! أتراك تقدّر أن تظل تتهرب الى أن يحين موعد سفرى ، فأسافر قبل أن تنتهى الى حـل ؟ ألا فاعلم اذن ــ أقول لك جهارا وأقطع على نفسى عهدا ــ أننى مستعد أن أبقى فى

بطرسبرج شهرين اخرين ••• ولكنني ساعثر عليك ••• اقسم لاعثرن عليك • اختم رسالتي هذه مبلغا اياك انني ، اذا لم تلب مطلبي في هذا اليوم ، كتابه اول الامر ، وحديثا بيني وبينك بعد ذلك ، اذا لم تذكر في رسالتك الشروط الرئيسيه التي اتفقنا عليها ، واذا لم تشرح لي مافي ذهنك من خواطر بصدد أوجين نيكولايتش ، فسأضطر الى اتخاذ اجراءات ستسوؤك كثيرا ، ولست أحبها أنا أيضا •••

واسمح لي أن أظل •• الخ •••

٥

من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

١١ تشرين الثاني (نوفمبر)

صديقي العزيز جدا المحترم جدا ايفان بتروفتش !

لقد أحزنتني رسالتك حزنا عميقا • ألا تستحي ، يا صديقي العزيز الظالم ، أن تتصرف هذا التصرف مع انسان هو أخلص الناس لك ، متعجلا هذا التعجل ، لا تشرح الاسباب ، ولا تخشى أن تجرح كرامتي ؟ ولكنني أبادر فأرد على اتهاماتك • واذا كنت لم تجدني بالأمس ، يا ايفان بتروفتش ، فلأنني نوديت فجأة الى بيت عمتي التي كانت تحتضر • ولقد ماتت في الساعة الحادية عشرة والنصف من الليلة البارحة • وأجمع الرأي على اختياري لترؤس الاحتفال بالجنازة • فلم أستطع من كثرة العمل لا أن أراك في هذا الصباح ولا أن أكتب اليك سطرا • وانه ليؤسفني حقا أن يقع بيننا سوء التفاهم هذا • أما ماقلته عن أوجين نيكولايتش عرضا على

سبيل المزاح فقد بالغتَ كثيرا فى الاهتمام به . فليست المسألة على هذاالقدر من خطورة الشأن . وتتحدث عن المال وعن القلق الذى لعله يساورك بصدده . ولكننى مستعد لأن ألبى رغباتك الخشنة الفظة . ولأقل عابراً ان الثلاثمائة روبل التى أخذتها منك في الأسبوع الاخير ليست من باب الاقتراض ، يجب أن أذكرك بهذا ، ولو كانت قرضا لوقعت لك ايصالا من غير شك . أما الأمور الاخرى التى جئت على ذكرها فى رسالتك فلا أحب أن أسفّ الى حيث أناقشها أو أرد عليها . وما ذلك كله الا سوء تفاهم مرده الى سلوكك المألوف وتصرفك المعتاد ، والى صراحتك الطبيعية أيضا . أنا أعلم أن طبعك المنطلق لا يطيق أى تردد ، ولسوف تكون البادىء بمدّ يدك الىّ .

لقد أخطأت يا ايفان بتروفتش ، أخطأت خطأ فادحا .

انني مستعد لأن أجيء اليك معتذرا رغم أنك جرحتنى . ولكن المتاعب والهموم قد بلغت من ارهاقى منذ أمس أننى أكاد أموت تعبا ، ولا أكاد أستطيع الوقوف على قدمى . ومما زاد شقائى أن زوجتى مريضة راقدة فى سريرها . اننى أخشى أن يكون مرضها خطيرا . أما صغيرى فقد تحسنت صحته ولله الحمد .

ولكننى أدع الآن القلم . ان الاعمال تنادينى وهى كثيرة .. واسمح لى يا صديقى العزيز جدا أن أظل ... الخ ...

٦

من ايفان بتروفتش الى بيتر ايفانوفتش

١٤ تشرين الثانى (نوفمبر)

السيد المحترم بيتر ايفانوفتش !

صبرت ثلاثة آيام ، محاولا ان انتفع بهذا الوقت . لكنني ، وأنا أحس أن اللطف والأدب والوداعة هي أولى واجبات الانسان المتمدن ، تحاشيت منذ رسالتى التى بعثتها اليك في اليوم العاشر من هذا الشهر ، أن أذكرك بنفسى ، أولا لأدع لك الوقت اللازم للقيام بواجباتك المسيحية تجاه المرحومة عمتك ، وثانيا لانصرافى الى بعض التأملات والتحريات بصدد قضية ملحة مستعجلة . وهأنذا أصارحك الآن مصارحة حاسمة .

أعترف لك بلا مواربة ولا مخاتلة أننى عند قراءتى رسالتيك الأوليين ظننت أنك لم تفهم نياتى ، لذلك حاولت أن أراك لأشرح لك الأمر صراحة . قلت لنفسى : ان القلم خداع ، فلعل تعبيرى كان غامضا ، فأخطأتَ فهمه . أنت لا تجهل أننى امرؤ لا يجيد تكلف الآداب ، وأننى أتجنب التظاهر الأجوف والتصنع الكاذب . لقد علمتنى تجربة طويلة أن المظهر يضلل ، وأن الأفعى كثيرا ما تختبىء تحت الازهار . ولكنك فهمتنى فى حقيقة الأمر ، ولئن لم تجب بما كان ينبغى أن تجيب به ، فلقد كان ذلك منك نفاقا ورياء ، لأنك قد صممت سلفا على أن لا تفى بعهد الشرف الذى قطعته على نفسك ، ولو أدى ذلك الى قطع علاقات الصداقة بيننا . ولقد برهنت على هذا بسلوكك المشين معى ، وهو سلوك يسىء الى مصالحى وما كنت لأتوقعه منك قط . كنت لا أريد أن أصدق هذا ، الى أن جاء اليوم الذى نحن فيه ، ذلك أننى ، وقد فتنت عن حقيقة

علاقاتنا فى أول الامر بمظاهرك الرقيقة وحديثك الأنيق وحسن فهمك للأعمال والمصالح ، كنت أظنك صديقا وكنت أعدك رفيقا حقا . ولكنني أدرك الآن أن كثيرا من الناس يخفون وراء مظاهر الادب الكاذب المنافق المرائى ، صفات رديئة وخصالا مسمومة ، فهم يستعملون كل ذكائهم فى ايقاع أكبر أذى فى الآخرين . انهم يخشون الورق والقلم ، ويغررون بمن يتعاقدون معهم بدلا من أن يسعوا الى نفع الوطن ونفع أقرانهم .

ان سوء نيتك يتضح ، أيها السيد ، من الوقائع الدامغة .

فأولا ، بينما كنت أصف لك وضعي بلغة واضحة دقيقة ، أيها السيد ، وبينما كنت أسألك عن معنى غمزاتك فيما يتعلق بأوجين نيكولايتش ، لزمتَ أنت الصمت ، وتهربت من كل ايضاح ، مضيفا الى ذلك اغاظتي واحناقي بشكوك مسيئة وشبهات مهينة .

وبعد لجوئك الى وسائل من هذا القبيل لا يحصى عددها ، كتبت تقول لى ان ذلك كله يحزنك . وأخيرا ، بينما كانت الدقائق والثوانى ثمينة عندى الى أقصى حد ، ساءك أن أمضى باحثا عنك فى كل مكان بالعاصمة ، وأخذت تكتب الىّ ، تحت ستار الصداقة ، رسائل تتهرب فيها عامدا من الكلام فى موضوعنا ، وتروح تثرثر تضليلا فى كل أمر من الأمور ، متحدثا عن مرض زوجتك الغالية ، وعن اهتمام الطبيب بمعالجة ابنك الذى تنبت أسنانه ، مصراً على العودة الى هذه التفاصيل فى كل رسالة من رسائلك اصرارا لا حياء فيه .

طبعا ، أنا أسلّم بأن آلام الابن تؤلم قلب الأب . ولكن فيم التحدث عن هذه الأمور ، بينما هنالك أمر أخطر شأنا وأهم منزلة يجب أن تكتب الىّ فيه ؟ وكنت أصمت ، وكنت أنتظر . أما وقد انقضى الوقت فان واجبى يقضى علىّ أن أشرح ما بنفسى . وأخيرا فانك وقد عبثت بى اذ

حددت لى مواعيد كاذبة عدة مرات ، قد جعلت منى مهرجا لك ودمية بين يديك • وذلك ما أرجو أن تعتقد أنني لا أرتضيه قط •

لقد حددت المواعيد واحدا تلو اخر ، ثم لم تف بأى موعد منها ، متعللا بالسكتة التى أصيبت بها عمتك ، متخذا منها ذريعة لم تستح أن تسيء استعمالها • وقد علمت أثناء هذه الأيام الثلاثة أن عمتك قد أصيبت بالسكتة فى مساء اليوم السابع من الشهر ، قبيل منتصف الليل ، واذن فأنت لم تتورع عن تدنيس العلاقات العائلية باتخاذها ذريعة لمخادعة غريب ! هذا وان عمتك لم تمت فى الوقت الذى ذكرته كذبا بغير حياء ، بل ماتت بعده بأربع وعشرين ساعة •

ولو شئت أن أحصى مخادعاتك لما فرغت من احصائها• وأنت تسمينى صديقك العزيز ! بغية ان تخدعنى ما فى ذلك ريب •

وأصل الآن الى مخادعتك الكبرى ، الى هذا السكوت العنيد عما يتصل بمصالحنا المشتركة ، الى سرقتك المشينة للرسالة التى كنت قد شرحت فيها ، ولو شرحا غامضا جدا ، ما تم الاتفاق عليه بيننا بشأن ذلك القرض الذى أكرهتنى عليه ومقداره ثلاثمائة وخمسون روبلا أخذتها منى بغير ايصال ؛ وكذلك الى تلك الوشايات والنمائم التى تذيعها فى الناس عن صديقنا المشترك أوجين نيكولايتش • واضح أنك أردت أن توهمنى أنه امرؤ لا يمكن الحصول منه على شيء ، وأنه من هذه الناحية لا خير فيه البتة • ولكننى أعرف أوجين نيكولايتش ، وأعده شابا جم التواضع ممتاز السلوك ، يستحق الاحترام الشامل • أنا أعرف أنك كنت فى كل مساء ، خلال خمسة عشر يوما ، تربح منه عشرات الروبلات بل ومائة روبل أحيانا فى المقامرة بالورق • وأنت اليوم تنكر هذا كله ، ثم لاتكتفى بنسيان العناء الذى لقيته من أجلك ، بل تغتصب أيضا مالى ، مضللا اياى

بوعود مقاسمتى الارباح ، معفيا نفسك من الاعتراف بفضلى ، لا يمنعك عن هذا حرص على الاستقامة والوفاء ، بل تعمد الى الكذب والافتراء أيضا لتقدح فى انسان أدخلته منزلك ؟ مع أنك تزعم أنت نفسك أنه أول أصدقائك وأنك تحله بينهم فى منزلة الصدارة ، رغم وضوح نياتك ، ورغم أن كل انسان يعرف ما قيمة صداقتك !

أختم الآن رسالتى ، معتقدا أن هذه الشروح كافية . واليك الخلاصة : اذا وصلتك رسالتي هذه ، فلم تبادر على الفور الى دفع الثلاثمائة وخمسين روبلا ، بالاضافة الى المبالغ الاخرى التى هى من حقى باعترافك ووعودك ، فسألجأ الى جميع الوسائل الممكنة التى تكفل استرداد مالى ، ولو اضطررت أن أعمد فى سبيل ذلك الى القوة . وأنا أعلن لك أننى أملك وثائق يستطيع خادمك المطيع أن يستعملها فيلحق باسمك ضررا بالغا وأذى لا دواء له ولا برء منه .

واسمح لى أن أبقى ... الخ ..

٧

من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

١٥ تشرين الثانى (نوفمبر)

ايفان بتروفتش !

حين قرأت رسالتك الغريبة التى لا تصدر الا عن فلاح ، خطر ببالى أول الأمر أن أمزقها اربا اربا . ولكننى قررت بعدئذ أن أحتفظ بها

من باب الطرافة . ثم انني آسف أسفا صادقا لما وقع بيننا من سوء التفاهم. وقد أردت أن لا أرد على رسالتك ، ولكن الضرورة تجبرني أن أفعل . يجب أن أصرح لك انه سيسوءني جدا أن أراك بعد اليـــوم في منزلي . وان امرأتي تشاركني هذا الشعور : فصحتها مضعضعة ، ورائحة القـــار تتعب رئتها . وهي ترد الى زوجتك الكتب التي أعارتهـا اياها : « دون كيشوت دو لامانش » ، مع أجزل الشكر . أما حذاءاك (الكاوتشوك) فيؤسفني أن أقول لك اننا لم نعثر عليهما في أي مكان . لقد بحثنا عنهما طويلا فلم نجدهما . سأشتري لك حذاءين عوضا عنهما .

ومن جهة أخرى ، يشرفني أن .. الخ ..

٨

(في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ تلقى بيتر ايفانوفتش بالبريد رسالتين . فلما فض الظرف الاول وجد فيه بطاقة مطوية عدة طيات ، من ورق وردي اللون طري ، مكتوبة بخط زوجته ، موجهة الى أوجين نيكولايتش ، مؤرخة في ٢ تشرين الثاني . والظرف لا يضم شيئا غير تلك البطاقة . وها هو ذا يقرأ البطاقة) .

« عزيزي أوجين . لم أستطع أمس . ان زوجي لم يغادر البيت طول السهرة . تعال غدا في الساعة الحادية عشرة تماما . زوجي مسافـر الى تسارسكويي في العاشرة والنصف ، ولن يعود قبل منتصف الليل . ظللت متضايقة حانقة الليل كله . أشكر لك ما تزودني به من حكايات وما تبعثه اليّ من رســائل . ما أكثرها قراطيس ! أهي التي تكتب اذن كل هذا ؟

الكتابة جميلة الاسلوب على كل حال . شكرا . أرى أنك تحبني . لا تزعل بسبب الليلة البارحة . وتعال ناشدتك الله ! »

آ .

(ويفض بيتر ايفانوفتش الظرف الثاني ، فيقرأ :)

بيتر ايفانوفتش !

ما كان لي ، من تلقاء نفسي ، أن أضع قدمي في بيتك . لقد كان من غير المفيد تسويد كل تلك الصفحات من الورق في سبيل ذلك .

سأسافر في الاسبوع المقبل الى سمبرسك . ويبقى لك صديقك العزيز جدا ، المحترم جدا ، أوجين نيكولايتش . أتمنى لك السعادة ! أما عن حذاءيّ ، فدع عنك هذا الهم .

٩

(في اليوم السابع عشر من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ تلقى ايفان بتروفتش بالبريد رسالتين . فلما فض الاولى أخرج منها بطاقة مكتوبة على عجل . الكتابة بخط زوجته ، والرسالة موجهة الى أوجين نيكولايتش ، مؤرخة في ٤ آب ـ أغسطس ـ . ولايضم الظرف شيئا آخر غير تلك الرسالة . ويقرأ ايفان :)

وداعا يا أوجين نيكولايتش ، وداعا ! أسأل الله أن يعوضك خيرا . كن سعيدا . أما أنا فحظي رهيب . لتكن مشيئة الرب . لولا عمتي لكنت كلي لك . لا تضحك مني ولا من عمتي . سأتزوج غدا . لقد سرّ عمتي

كثيرا أن ُوجد شاب طيب يقبل أن يتزوجني بلا مهـر أقدمه • لقـــد أنعمت النظر اليه اليوم أول مرة • يبدو لى أنه انسان طيب القلب • انهم يستعجلونني • وداعا وداعا يا حبيبى الغالى ! تذكّرنى ••• تذكر من لن تنساك مدى الحياة • وداعا • هأنذا أوقع رسالتى هذه كما وقعت رسالتى الأولى •• هل تتذكر ؟

تاتيانا

(وفى الرسالة الثانية يجد ايفان بتروفتش ما يلى :)

ايفان بتروفتش ! غدا يصلك حذاءان جديدان (من المطاط) ليس من عادتى أن آخذ من جيوب الآخرين أى شىء ؟ لا ولا أريد أن ألمّ من الشوارع أوراقا بالية •

يسافر أوجين نيكولايتش الى سمبرسك * فى غضـون أيام ، فان أعمال هامة تناديه هنالك • وقد رجانى أن أبحث له عن رفيق يصحبه فى رحلته : هل تريد أن تصحبه ؟

شجرة عيد الميلاد والزواج

١٨٤٨

ص ٦٠ : بعنوان « شجرة عيد الميلاد والزواج »
« شجرة عيد الميـــلاد والزواج » (Iolka i svadba) ، كتبت سنة ١٨٤٨ ، وظهــــرت فى « حوليــات الوطن» ، ايلول (ســبتمبر ١٨٤٨))

شهدت فى هذه الأيام الأخيرة زواجا، لا بل سأحدثكم عن شجرة عيد الميلاد • صحيح أن حفلة الزواج التى رأيتها منذ قليل كانت رائعة وقد أعجبت بها اعجابا شديدا ولكن الحفلة الاخرى حفلة عيد الميلاد كانت شائقة أكثر منها أيضا وسترون من قراءة هذه القصة لماذا ذكّرنى هذا الزواج بشجرة عيد الميلاد •

منذ خمس سنين تقريبا شهدت حفلة أقامها أصحابها بمناسبة عيد الميلاد • ان الشخص الذى دعانى الى حضور هذه الحفلة رجل كبير من رجال الاعمال يملك رساميل ضخمة وتحميه شخصيات كبيرة وله علاقات كثيرة حتى لأستطيع أن أقول ان هذه الحفلة التى أقيمت للأطفال لم تكن الا عذرا اصطنعه الاباء ليجتمعوا فيتناقشوا فى شؤون تتصل بالمصالح كأنما على صدفة وبغير ميعاد •

واذ كنت غريبا عن الاعمال وشؤونها فقد قضيت سهرتى بعيدا عن هذه المناقشات بعض البعد مهتما بالنظر والملاحظة خاصة •

لذلك لم ألبث أن لاحظت مدعوا آخر كان يبدو عليه انه قد وقع

مثلي في وسط هذه الحفلة وقوعا في غير محله ولا زمانه ، انه شخص فارع القامة نحيل الجسم كثير الجد أنيق الملبس ومع ذلك كان يبدو بعيدا عن كل فرحة لأنه سرعان ما انتحى ركنا وكف فمه عن الابتسام وقطب حاجبيه السوداوين الكثيفين تقطيبا يدعو الى القلق •

وكان واضحا أنه لا يعرف أحدا في الصالة عدا صاحب البيت وانه رغم سأمه وضجره كان قد قرر أن يمثل حتى النهاية دور رجل سعيد •

وقد علمت فيما بعد انه رجل من الريف قد جاء الى المدينة لعمل ضخم من الأعمال • واذ كان يحمل الى رب المنزل كتاب توصية فقد كان رب المنزل يحميه ويرعاه دون أى نوع من المبالغة مع ذلك ، وقد دعاه الى هذه الحفلة التى أقامها للاطفال من باب اللطف والادب •

لم يلعب الحضور بالورق ولم يقدم اليه أحد سيكارا ولا خاطبه أحد بحديث (لعلهم عرفوا الطائر من ريشه) لذلك اضطر صاحبنا حتى يظهر بمظهر الوقار والأبهة أن يأخذ بتمليس لحيتيه في غير توقف أو انقطاع وهما لحيتان جميلتان حقا على كل حال ولكنه قد بلغ من الجد والاجتهاد في هذا التمليس أن من يراه يتصور أن اللحيتين قد وجدتا فى هذا العالم أولا ثم عين هذا السيد لتمليسهما بعد ذلك •

وفيما عدا هذا الشخص الذى كان يشارك هذه المشاركة في فرحة صاحب الأعمال الكثيرة بأسرته التي تتألف من زوجة وخمسة صبية صغار أصحاء الجسم من وفرة الغذاء ، تثبت انتباهى على سيد آخر من نوع مختلف كل الاختلاف •

انه شخص وقور كانوا ينادونه باسم جوليان ماستاكوفش وكان واضحا من أول نظرة انه يعامل معاملة ضيف ذى قيمة خاصة وشأن كبير:

كان أهل المنزل ما ينفكون يغمرونه بألوان الرعاية وضروب المراعاة فهم يعنون به أشد العناية ويقدمون اليه الشراب ويجيئونه بكثير من الناس يعرفونه بهم • حتى لقد لاحظت أن رب البيت قد ذرف دموع الفرح حين تفضل جوليان ماستاكوفتش فقال انه منذ زمن طويل لم يقض لحظات ممتعة كهذه اللحظات التي قضاها في هذه الحفلة •

يجب أن أعترف بالخوف الذى شعرت به من وجودى وجها لوجه مع شخصية تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن وعلو المقام لذلك رأيتنى بعد أن أعجبت بالأطفال أنسحب الى صالون صغير واعتصم وراء كتلة من النباتات كانت تشغل نصف الحجرة تقريبا •

وكان لا يبدو على الأطفال أنهم يولون توصيات مربياتهم ونصائحهن أية قيمة فهم لا يريدون قطعا أن يشبهوا الكبار فى شىء من الاشياء • وقد وجدتهم لطافا محببين الى قلبى وما هى الا بضع دقائق حتى كانوا قد جردوا الشجرة كلها مما علق بها من أنواع السكاكر وضروب الحلوى ثم شرعوا يخربون اللعب فى همة ونشاط حتى قبل أن يعلموا مَن صاحب كل لعبة من هذه اللعب •

كان بين الأطفال صبى صغير أجعد الشعر اسود العينين مال اليه قلبى ميلا خاصا وقد قرر أن يقتلنى ببندقيته الخشبية مهما كلف الامر فطاردنى حتى مخبئى غير أن أخته التى تبلغ من العمر احدى عشرة سنة هى التى لفتت انتباهى أكثر من سائر الأطفال : انها جميلة جمالا رائعا وهى صامتة شاحبة ذات عينين واسعتين حالمتين • وأغلب الظن أن أحد الأطفال قد ضايقها لأنها وقد لجأت الى الصالون الصغير الذى كنت فيه قد اعتصمت

بركن من أركانه تعنى بعروستها ولا تحفل بشيء عداها • وكنت قد سمعت بعض المدعوين يصفون آباها بانه تاجر واسع الثراء وسمعت أحدهم يقول ان بائنتها تبلغ ثلاثمائة ألف روبل• وفيما كنت أنظر الى الجماعةالتى اهتمت اهتماما خاصا بهذا النبأ الاخير وقع نظرى على جوليان ماستاكوفتش فرأيته واضعا يديه وراء ظهره مائلا برأسه الى جانب يصغى الى ثرثرة هؤلاء السادة بانتباه شديد ولم يسعنى فيما بعد الا أن أعجب أشد الاعجاب بحكمة صاحب المنزل فى توزيع الهدايا على الاطفال فان البنية التى تملك منذ الآن بائنة قدرها ثلاثمائة ألف روبل قد تلقت أجمل عروس من العرائس الموزعة على الاطفال وهكذا دواليك ـ فقيمة اللعبة التي تعطى لكل طفل من الاطفال تنقص بمقدار نقصان ثراء أبويه • وكان أتعس الاطفال حظا صبى فى العاشرة من عمره نحيل الجسم أحمر اللون مبقع الوجه فقد كان نصيبه من الهدايا كتابا لا قيمة له يتحدث عن عظمة الطبيعة ويتكلم عن الدموع والعواطف وما الى ذلك ولا يضم أية صورة •

وسرعان ما علمت أن الصبى الصغير هو ابن معلمة أولاد صاحب الدار وهى أرملة فقيرة لم يكن لها الا هذا الصبى الوجل المبهوت •

كان يرتدى قميصا صغيرا فقيرا من نسيج قطنى أصفر اللون فلما أخذ هديته لبث يطوف زمنا طويلا حول اللعب الأخرى وكان واضحا أنه يحب أن يتسلى مع سائر الأطفال ولكنه لا يتجرأ أن يفعل ذلك لشعوره بأنه دونهم •

اننى أحب ملاحظة الأطفال كثيرا وأرى أن أهم ما يلفت النظر فيهم هو هذه المظاهر الاولى من حياتهم المستقلة • لقد لاحظت أن هذا الصبى الاحمر الذى ألهب حماستَه منظر اللعب التى أهديت الى الاطفال الآخرين وخاصة المسرح الذى لعله كان يحب أن يمثل عليه دورا قد عزم أمره

على أن يرتكب بعض الدنايا الصغيرة فها هو ذا يبتسم وينادى الاطفـال الآخرين ويعطى تفاحته لصبى سـمين كان يحمـل منـديلا مليئا بأنواع الحلوى وها هو ذا بعد ذلك لا يأبى أن يكون دابةً يركبهـا واحد من رفاقه لالشيء الا أن لايرى نفسهمبتعدا عن المسرح ولكنه رغم هذهالتنازلات لم يلبث ان تلقى اللطمة من صبى أكبر منه ، ومع ذلك لم يجرؤ أن يبكى لأن أمه المعلمة قد وصلت فأمرته ان لا يمنع الاطفال من اللعب فاذا هـو يلطو عند الباب زمنا ثم يلحق بالبنت الصغيرة التى لا شك أنها طيبة جدا لأنها لم تطرده وأخذ الاثنان يعملان جادين فى الباس العروس الصغيرة .

***

ظللت معتصما بمكانى وراء كتلة النباتات زهاء نصف ساعة أصغى الى حديث الصبى الصغير والبنية ذات البائنة التى تبلغ ثلاثمائة ألف روبل وانى لكذلك اذا بى أرى جوليان ماستاكوفتش يدخل على حين فجأة . لقد انتهز فرصة المعركة التى شبت بين الاطفال فى الصالون الكبير فلجـأ الى الصالون الصغير وكنت قد رأيته منذ برهة يتحدث حديثا طويلا مع والد عروس المستقبل الغنية ورأيته يفكر تفكيرا عميقا وكأنه يعد على أصابعه مدمدما .

ـ ثلاثمائة ... ثلاثمائة . احدى عشرة سنة ثلاث عشرة سنة ... ست عشرة سنة ! المجموع خمس سنين . فاذا حسبنا الفائدة على أساس أربعة فى المئة فضربنا خمسة فى اثنى عشر كان لدينا ستين ولنفرض أن المبـلغ كله سـيصبح أربعمائة ألف ... نعم ... ولكن هـذا الوغد لا يقرض حتما بفائدة أربعة فى المئة بل بفائدة ثمانية بل بفائدة عشرة اذن سيصبح المبلغ على الاقل خمسمائة ألف عدا الكسور . فلمـا انتهى الرجل الوجيه من حساباته مخطط وأراد أن يترك الحجـرة لكن بصره

وقع فجأة على الفتاة الصغيرة وأغلب الظن أن النباتات كانت تخفيني وراءها اخفاء تاما لأنه لم يبصرني ولكنني سرعان مالاحظت اضطرابا خاصا يرتسم على قسمات وجهه • ترى هل كان ذلك بتأثير الحساب أم كان نتيجة شيء آخر غير هذا تماما ؟ ومهما يكن من أمر فقد فرك يديه راضـيا مسرورا وحين ألقى نظرة حاسمة على خطيبة المستقبل ازداد اضطرابه •

وقبل أن يتجه الى المكان الذى كان فيه الطفلان ألقى نظرة فاحصة خاطفة على ما حوله ثم اقترب منهما سائرا على رؤوس الاصابع كأنه يشعر بأنه يقارف اثما ثم انحنى وهو يبتسم ابتسامة متكلفة اللطف أشرق بها وجهه المدور لطبع قبلة رقيقة على رأس البنية •

فاذا بالبنية التى لم تكن تتوقع هذا الهجوم المفاجيء تطلق صرخة من فرط الدهشة •

قال هامسا :

ـ ماذا تفعلين هنا يا حلوة ؟

وتلفت حواليه مرة أخرى ثم لامس خد الصبية •

قالت :

ـ نلعب •

فرشق جوليان ماستاكوفتش الصبى بنظرة خالية من البشاشة •

وقال لها :

ـ معه ؟

ثم التفت الى الصبى وقال له بلهجة خشنة :

ـ عليك أن تذهب الى الصالون أيها الصغير •

فلما رأى جوليا ماستاكوفتش ان الصبي ظل صامتا لا يحول عنه بصره ، نظر الى ما حوله من جديد ثم مال على الفتاة وقال لها :

ـ هذه عروسة أليس كذلك يا طفلتي الصغيرة ؟

ـ نعم عروسة •

هكذا أجابت البنية التي كان واضحا انها متضايقة •

ـ وهل تعلمين يا طفلتي العزيزة من أى شيء صنعت عروستك ؟

أجابت الفتاة خافضة رأسها :

ـ لا لا أعلم •

ـ لقد صنعت بقطع من قماش يا عزيزتي الصغيرة •

وهنا رمى جوليان ماستاكوفتش الطفل بنظرة قاسية مرة أخرى وقال له :

ـ عليك أن تذهب الى رفاقك •

التصق الطفلان أحدهما بالآخر : كان واضحا أنهما لا يريدان أن يفترقا •

سأل جوليان ماستاكوفتش الفتاة بصوت أشد خفوتا :

ـ وهل تعلمين لماذا أهديت اليك هذه العروسة ؟

ـ أعلم •

ـ لأنك طفلة رقيقة جدا •

قال الوجيه ذلك وقد أصبح اضطرابه غير خاف ثم نظر حواليه وزاد في خفض صوته الذى أصبح الآن يرتعش :

ـ هل ستحيينني أيتها الطفلة الصـــغيرة العـزيزة اذا جئت أزور أهلك ؟

وأراد جوليان ماستاكوفتش أن يقبل البنية مرة أخرى ولكن الصبى الصغير الأحمر حين رأى البنية توشك أن تبكي أمسك بذراعيها وأخـذ ينشج باكيا هو نفسه ، شفقة عليها •

عندئذ احمر وجه صاحبنا الوجيه احمرارا شديدا من فرط الغضب وصاح يقول للفتي :

ـ اذهب من هنا أيها الولد الغليظ • اذهب الى رفاقك •

فصرخت الفتاة تقول من خلال دموعها :

ـ لا ما ينبغي له أن يذهب • اذهب انت • دعه •• دعه •••

***

سمع جوليان ماستاكوفتش ضجة على الباب فانتفض ثم نهض• ولكن الصبي الصغير كان أشد ذعرا منه فكان يحاول أن يبلغ الباب ومضى يمشي فى رفق ملاصقا الجدران وارتأى صاحبنا الوجيه ان من المستحسن أن يترك الصالون الصغير هو أيضا حتى لا يوقظ حوله شبهات • كان وجهه احمر بلون القرمز فلما نظر الى نفسه في المرآة عابرا ظهر عليه اضطراب شديد • أتراه استحى من تعجله ؟ انه وقد أغراه الحساب الذى أجراه على أصابعه قد تصرف تصرف طفل محاولا مواجهة موضوع أحلامه التى لن يمكن أن تستحيل الى واقع الا بعد خمس سنين •

وتبعت الرجل المحترم الى قاعة الطعام • فرأيت مشهدا غريبا : رأيت جوليان ماستاكوفتش محمر الوجه من الغضب يحـــاول تخويف الصبى الصغير الذى لا يعرف أين يختبىء •

ـ ماذا تعمل هنا يا غليظ ؟ امض ••• امض ••• يا تافه • أتسرق الفاكهة ؟ هيا امض يا ساقط ، أقول لك امض •

كان الصبي في حالة رعب شديد فقرر أن يقوم بعمل يائس : حاول أن يختبيء تحت المائدة ولكن صاحبنا الذى يلاحقه أخرج من جيبه منديلا طويلا واخذ يهزه تحت المائدة •

يجب علينا أن نلاحظ هنا أن جوليان ماستاكوفتش كان رجلا ممتلىء الجسم من حسن الغذاء مصبوغ الوجه بحمرة زاهية قصير القامة ذا كرش مدور فوق فخذين سمينتين جدا •

فكان العرق يتصبب من وجهه وكان يلهث لهاثا قويا ويتحرك بغير طائل • ثم أصبح كالمسعور من شدة الشعور بالغضب أو ربما من شدة الشعور بالغيرة ، من يدرى !

ولم أستطع أن أكظم ما بنفسى فانطلقت بضحكة قوية هومرية وعندئذ انما فطن جوليان ماستاكوفتش الى وجودى فشعر بحرج شديد ظهر واضحا فى وجهه رغم وقاره لا سيما وأن رب الدار ظهر عبر الباب المقابل فى تلك اللحظة وخرج الصبى من تحت الطاولة يمسح ركبتيه أما جوليان ماستاكوفتش فقد أسرع يحمل الى أنفه المنديل الذى كان يمسكه بيده •

دهش المضيف من رؤيتنا نحن الثلاثة على هذا الوضع الغريب فألقى علينا نظرة قلقة لكنه وهو الرجل الذى يعرف الحياة سرعان ما انتهز الفرصة ليتقرب الى الوجيه • قال وهو يومىء الى الصغير الاحمر :

ـ هذا هو الصبى الصغير الذى تشرفت بالتحدث اليك فى شأنه •

ـ ها ••• ها ••

كذلك قال جوليان ماستاكوفتش وهو لما يتخلص من انفعاله بعد •

وتابع الآخر يقول بلهجة التوسل :

ـ انه ابن معلمة الأولاد وهي أرملة فقيرة مات عنها زوجها الذي كان موظفا شريفا لذلك أرجوك يا جـــوليان ماستاكوفتش اذا كان في وسعك ...

فقاطعه الرجل القصير المدور يقول بحدة :

ـ لا .. لا .. اعذرني يا فيليب اليكسيفتش . هذا مستحيل . لقد سألت . لا يوجد مكان . واذا كان ثمة مكان فهنالك عشرات يستحقون أكثر منه . متأسف جدا ... متأسف جدا ...

قال صاحب الدار :

ـ خسارة ! انه صبي لطيف صموت مطواع .

أجاب جوليان ماستاكوفتش وقد عقف فمه ساخرا :

ـ بل هو ولد سيء قذر .

ثم أضاف ينهر الولد قائلا :

ـ اذهب . ماذا يبقيك هنا ؟ الحق برفاقك .

ثم لم يستطع أن يضبط نفسه فرماني أنا بنظرة قلقة .

فشعرت بأن من المستحيل عليّ أن لاأبالي فضحكت في وجه الرجل المدور ، فلما رأى ذلك مني التفت الى صاحب الدار يسأله عن هذا الفتى الغريب من هو .

ودمدما بضع كلمات فيما بينهما ثم خرجا .

وعدت الى الصالون أنا أيضا .

فرأيت الرجل العظيم يحيط به صاحب الدار من جانب وصاحبة الدار من جانب اخر ويتحلق حوله الاباء والامهات وهو يتحدث في همة وحرارة الى سيدة جاءوا به اليها • كانت هذه السيدة ممسكة يد الفتاة الصغيرة التي جرى بينها وبين جوليان ماستاكوفتش قبل ذلك بعشرة دقائق المشهد الذى اسلفنا وصفه • انه الان يطنب ثناءً على جمال الطفلة وعلى مواهبها النادرة وتربيتها الفذة والأم تسمع كلامه مخضلة العينين بالدموع ورأيت الأب كذلك ترتجف شفتاه بابتسامة يشيع فيها التأثر ورأيت صاحب الدار يعجز عن اخفاء فرحه العظيم بما يسمع من هذا الكلام الجميل وانضم الضيوف أنفسهم الى هذه الحماسة وكانت ألعاب الأطفال قد انقطعت حتى لا تعكر هذا الحديث وشاع جو الاحترام حتى في هواء الصالة •

وسمعت أم الطفلة وقد تأثرت الى أعماق نفسها بألوان الثناء التى كيلت لابنتها سمعتها تدعو الرجل العظيم بألفاظ مختارة وجمل أنيقة أن يتفضل بأن يسبغ على أسرتهم شرف صداقته الثمينة • فأجاب جوليان ماستاكوفتش بانفعال صادق وسرعان ما أخذ جميع المدعوين يزجون الثناء بغير حدود لصاحب الدار وصاحبة الدار والتاجر وزوجته وابنتهما ولا سيما لجوليان ماستاكوفتش •

ـ هل هذا السيد متزوج ؟

كذلك أسرعت ألقى هذا السؤال على واحد من الضيوف كان أقربهم من جوليان ماستاكوفتش •

فاذا بالرجل المدور الذى لا شك أنه سمع سؤالى يلقى على نظرة خبيثة تشقلنى شقلاً •

ـ لا •

بهذا أجابني جاري مستاء من هذا السؤال أشد الاستياء لأنه يعده سؤالا فظا ليس على شيء من اللباقة أما أنا فكنت قد ألقيت هذا السؤال عامدا عن قصد •

***

منذ بضعة أيام مررت أمام الكنيسة فلفت انتباهي حشد كبير من العربات • رأيت جمهرة من الناس متجمعة في الميدان تتحدث عن زواج عظيم • كان جو النهار قاتما وكان الثلج يهطل ضعيفا • وتملكني حب الاستطلاع فدخلت الى المعبد باحثا بنظري عن العريس لأراه : انه رجل قصير مدور سمين ذو كرش ناتيء ، على صدره أوسمة كثيرة • كان يسرع الخطى ويتحرك من مكان الى مكان ويصدر الأوامر تلو الاوامر • وسرت أخيرا في الجمهور دمدمة : وصلت العروس •

استعملت كوعي فاتخذت لي مكانا في الصف الأول ووقع بصري على جمال رائع في فجر ربيعه • كانت مع ذلك شاحبة اللون حزينة • وكانت تطوف بنظرتها الذاهلة على من حولها وتراءى لي أن عينيها حمراوان من البكاء • ان ما في قسمات وجهها من طهارة ونقاء يذكران بجمال تماثيل القدماء من أهل اليونان ، يضفي على حسنها أبهة لا تغالب • غير أن شيئا من طفولة ، شيئا من سذاجة لا حدود لها كانت تمازج هذه القسوة وهذا الحزن وكأنها تستنجد • وسمعت الناس يقولون انها لم تكد تبلغ السادسة عشرة من عمرها •

حين نظرت الى العريس عرفت فيه صاحبي الطيب الشهم جوليان ماستاكوفتش الذي لم أره منذ خمس سنين ثم التفت ببصري نحو الفتاة و •••

يا رب ! ••• لم أحاول أن أرى مزيدا بل هرعت نحو الباب لأخرج ، تلاحقنى دمدمة غامضة تصدر عن الجمهور •

وسمعت أحدهم يقول :

ـ ان بائنة العروس خمسمائة ألف روبل ••• عدا الكسور •

فلما صرت فى الشارع قلت لنفسى :

ـ صدق الحساب •

زوجة آخر، وزوج تحت السرير

١٨٤٨

ظهر القسم الأول من قصـة « زوجة آخر وزوج تحت السرير »
Tchoujaïa i mouje pod krovatiou في شـهر كانون
الثاني (يناير) ١٨٤٨ ، في مجلة « حوليات الوطن » بعنوان
« زوجة آخـر » (وهـو القسـم الذي يتضمن مشـهدا في
الشارع) . أما القسم الثاني فكان عنوانه « الزوج الغيور »
ولم ينشر في تلك المجـلة نفسها الا في شـهر كانون الأول
١٨٤٨ ، مج ٦١ ، ولـكن المؤلف جمع القصـة تحت عنوان
واحد في طبعه ١٨٦٠ .

الفصل الأول

من فضلك يا سيدى ، هل أستطيع أن أسألك ؟
ارتعد الشاب الذى كان سائرا فى الطريق حين سمع هذا السؤال ، وحدق بشىء من الخوف الى الشخص الذى يرتدى معطفا من فراء والذى خاطبه على هذا النحو بسرعة وسط الشارع فى الساعة الثامنة من المساء • وأنتم تعلمون أنه حين يتجه أحد من سكان المدينة بالكلام ، فى الشارع ، الى ساكن آخر من سكانها لا يعرفه ، فان الثانى لا بد أن يجزع •

ارتعد الشاب اذن ، وألم به ذعر •

وتابع الرجل ذو المعطف كلامه يقول :

ـ معذرة اذا أزعجتك •• ولكننى •• فى الحقيقة •• أجهل •• لا شك أنك ستغفر لى •• أظن أنك أدركت أن عقلى مضطرب بعض الاضطراب •

لاحظ الشاب الذى يرتدى سترة ، لاحظ عندئذ أن مخاطبه الذى

يرتدى معطفا كان غــريب الهيئة شاذا بعض الشيء • ان وجهــه المقطب شاحب ، وان صوته مرتعش ، وان آفكاره تائهة حتما ، وان أقواله متعثرة مرتبكة لا تخرج من حلقه الا في عناء • كان واضــحا أنه يصعب عليــه كثيرا أن يتقدم برجاء ذليل الى شخص غريب لعله أدنى منه شأنا ، سواء من ناحية الرتبة أو من ناحية الطبقة • ولكن كان لا بد له حتما من أن يتوجه اليه بهذا الرجاء • ولا شك أن هذا الطلب من جانب بورجوازى يلبس معطفا أنيقا هذه الأناقة ، ويرتدى « فراكا » جميلا هــذا الجمال بلونه الأخضر القاتم الذى تزينه سلسلة من الأوسمة ، لا شــك أن هذا الطلب شيء غير لائق ، وفعل طائش غريب • ولقد كان واضحا أن الرجل كان غــير راض عن نفسه بسبب أناقة ردائه • ومع ذلك ســيطر على اضطرابه وثاب الى صوابه بجهد ارادى ، وقرر أن يختم ، على أكرم نحو ممكن ، هذا المشهد الكريه الذى أثاره ، قال :

ـ اعــذرنى ••• اننى خارج عن طــورى ••• صــحيح أنك لا تعرفنى •• اغفر لى ازعاجى اياك •• لقد عدلت عن رأيى •••

قال ذلك ورفع قبعته محييا ، وابتعد بخطى سريعة •

قال له الآخر :

ـ ولكن يا سيدى ••

غير أن لابس المعطف كان قد غاب فى الظلام ، تاركاً صاحب السترة مشدوها مذهولا • فقال هذا لنفسه : يا له من نموذج عجيب !

وزال انشداهه أخيرا ، وعاد ســيدَ نفسه ، وتذكر سبب تجوله ، فأخذ يذرع الرصيف ذاهبا آيبا ، لا يحول بصره عن باب منزل من المنازل ذى عدة طوابق • كان الضــباب يتكاثف ، فكان الشاب يرتاح الى ذلك

ويسر به ، لأن الضباب سيخفي ذهابه وايابه عن أعين الناس ، الا عن عيني حوذى كان مرابطا في ذلك المكان نفسه فقد يراه •

ـ معذرة ألف مرة !

ارتعد الشاب من جديد • ان مخاطبه هو ذلك الشخص نفسه الذي يرتدى معطف الفراء • وها هو ذا يبدأ كلامه :

ـ أعود اليك مرة أخرى •• فمعذرة •• ولكنك •• ولكنك ••• حتما •• رجل صاحب قلب نبيل . لاتحسبني رجلا رفيع المنزلة الاجتماعية ••• ثم انني أعرف ••• ولكن انظر الى الزاوية الانسانية •• أمامك يا سيدى رجل مضطر ان يتقدم اليك برجاء ذليل ••

ـ ماحاجتك ••• اذا كان في وسعي •••

ـ لعلك ظننت أنني سأطلب مالا !

كذلك قال الرجل المجهول الغريب • وانعقفت شفتاه واصفر وجهه وأطلق ضحكة هستيرية •

ـ العفو •

ـ لا •• واضح أنني أزعجك •• معذرة •• أنا نفسي حمل ثقيل على نفسي •• لاحظ انك تراني في حالة اختلال •• في حالة تشبه أن تكون جنونا فلا تستنتج من ذلك •••

أجاب الفتى وقد نفد صبره :

ـ حقا حقا أنت في هذه الحالة •

ومع ذلك أومأ برأسه يشجعه •

ـ ما أشد ما تتغير الأمور ••• شاب في ميعة الصبا يذكرني بما أنا عليه ، كأنني طفل مهمل ••• لقد فقدت عقلي حتما • قل لي بصراحة كيف أبدو لك وأنا على هذا الوضع من المذلة والهوان ؟ ••

احمر وجه الشاب ولزم الصمت •

ـ اسمح لي بسؤال صغير : هل رأيت سيدة ؟ ••• ذلك طلبي كله•

هكذا قال أخيرا لابس المعطف بصوت قاطع •

ـ سيدة ؟

ـ نعم سيدة •

ـ مرت سيدات كثيرات •

قال الرجل الغريب وهو يبتسم ابتسامة مرة •

ـ طبعا ••• هأنذا أهذر كثيرا ثم لا أسألك عما أريد ••• عفوك ! أردت أن أعرف هل رأيت سيدة ترتدي معطفا من فراء الثعلب وقبعة من المخمل القاتم اللون مع خمار اسود •

ـ لا لم أر سيدة كهذه ••• لا أظن أنني رأيت سيدة بهذه الأوصاف •••

ـ معذرة اذن •

أراد الشاب أن يسأل الرجل المجهول ولكن هذا غاب من جديد تاركا مخاطبه كالمصعوق مرة أخرى •

« شيطان يأخذه » ! كذلك قال الشاب بينه وبين نفسه ، وقد ظهر الحنق في وجهه واضحا • ورفع ياقة سترته مغتاظا ، واستأنف سيره على

الرصيف ذاهبا آيبا ، مارا أمام باب المنزل ذى الطوابق الكثيرة ، ولـكن على حذر . كان الغضب يجتاح نفسه ، وتساءل :

« لماذا لا تخرج ؟ توشك الساعة أن تكون الثامنة » . ودقت الساعة الثامنة فى البرج فعلا .

« آه شيطان يأخذك أخيرا » .

ـ عفوك ...

ـ عفوك انت أيضا ! لقد اندسست بين ساقى اندساسا أرعبنى .

كذلك قال الشاب وهو يقطب حاجبيه ، واعتذر مرة أخرى .

ـ ها قد عدت اليك ! لا شك انى أبدو لك قلقا شاذا .

ـ أرجوك ! كفى كلمات لا فائدة منها ! اشرح ما بنفسك بسرعة . اننى مازلت أجهل ما تريد .

ـ أأنت مستعجل ؟ اسمع : سأقص عليك كل شيء صادقا مخلصا دون أقوال لا طائل تحتها ولا فائدة منها . ما العمل ؟ ان الظروف تجمع أحيانا بين أناس تختلف طباعهم اختلافا كبيرا . ولكننى ألاحظ أن نفـاد الصبر يستولى عليك أيها الشاب ... لذلك فهأنذا ... على أننى لا أعرف كيف أقول .. اننى أبحث عن سيدة .. اذن لن أخفى شيئاً .. ما أريده هو أن أعرف أين ذهبت هذه السيدة ..

أما من هى فما أظن أنك فى حاجة الىمعرفة اسمها أيها الشاب .

ـ طيب .. كمّل ...

ـ طيب .. ولكنِ لهجتك معى .. معذرة .. لعلنى آذيت شعورك حين ناديتك بقولى أيها الشاب . ولكننى لم أكن أتصور أنك .. الخلاصة

اذا كنت تستطيع أن تقدم لى خدمة كبرى فالمسألة هى .. انها سيدة ...
أقصد .. سيدة شريفة من أسرة ممتازة تربطنى بها صداقة .. كلفنى أحدهم .. هل تفهم ؟ .. أنا لست متزوجا .

ـ ماذا أيضا ؟

ـ ضع نفسك فى مكانى أيها الشاب. آه ! معذرة هأنذا أعود فأناديك بقولى أيها الشاب ... ان جميع الدقائق ثمينة .. تلك المرأة هى ... ولكن ألا تستطيع أن تقول لى من يسكن هذا المنزل ؟

ـ هوه .. يسكنه ناس كثير .

ـ طبعا ! أنت على حق تماما .

كذلك قال السيد الذى يرتدى معطفا وهو يضحك قليلا حفاظا على المظاهر ، وتابع يقول :

ـ أنا أحس أننى مرتبك قليلا .. ولكن لماذا تتخذ فى مخاطبتى هذه اللهجة ؟ أنت ترى اننى أعترف صادقا مخلصا واننى أوغل ... فاذا كنتَ انسانا متكبرا فقد رأيت من مذلتى مافيه الكفاية . أنا أتكلم عن سيدة شريفة السلوك .. أقصد خفيفة .. معذرة .. اننى أوغل .. كأننى ألفق قصة مما يكتبه الادباء ! هل فهمت ؟ شىء من نوع قصص بول دو كوك ... والبلاء قد جاء من بول دو كوك هذا . تلك هى المسألة .

ألقى الشاب نظرة مليئة بالشفقة على الرجل الذى يرتدى معطفا من فراء والذى كان زائغ العينين تماما يحدق اليه ويبتسم له ابتسامة بلهاء ممسكا حافة معطفه بيد مرتعشة دون سبب .

سأله الشاب وهو يتراجع قليلا الى وراء :

ـ تريد أن تعرف من يسكن هنا ؟

ـ قلت ان السكان كثير •

ـ اعرف أن صوفيا أوستافيفنا خاصة تسكن هنا •

نطق الشاب بهذه الكلمات مدمدما وكأنه يشعر بشفقة •

ـ هل رأيتَ انك على اطلاع أيها الشاب ؟

ـ لا ••• أبدا •• أؤكد لك انني لست أعرف شيئا •

ـ لقد علمتُ من الطباخة منذ هنيهة أنهـا تأتي الى هنـا ، ولكنهـا لا تأتي الى صوفيا أوستافيفنا ••• انها لا تعرفها •

ـ لا تعرفها ؟ معذرة اذن •

ـ طبعا ، ذلك كله لا يعنيك أيها الشاب •

كان الرجل الغريب يتكلم بسخرية مرة •

قال الشاب متمتماً :

ـ اسمع ! أنا أجهل في الواقع سبب حالتك الراهنة • ولكن أغلب الظن أن امرأة تخونك ! تكلم بوضوح !

فابتسم الرجل مؤمّناً على كلام الشاب •

قال الفتى :

ـ الآن سنستطيع أن نتفاهم •

وبدا كأنه يحرك رأسه بنصف تحية لطيفة •

ـ لقد أصبتَ مقتلي ؟ ومع ذلك ذلك أعترف لك •• هذه هي المسألة •

ولكن من ذا الذى لا يقع له هذا ؟ ان تجاوبك قد أثر فى نفسى تأثيرا عميقاً •• أنت تعلم أن هذا الأمر شائع بين الشباب ••• أنا لست شابا طبعا ••• ولكنها العادة ••• حياة العزوبة ••• الأمر شائع بين الكهول العازبين •

ـ شائع طبعا •

ـ ولكن فى أى شىء أستطيع أن أساعدك ؟

ـ هبها تتردد الى صوفيا أوستافيفنا •• على كل حال أنا لا أعلم بعد على وجه اليقين الى اين ذهبت هذه السيدة ، كل ما أعلمه أنها الان فى هذا المنزل • ولكننى اذ لاحظت ذهابك وايابك مراراً بينما كنت انا اذرع الرصيف الثانى ذهابا وايابا أيضا •• قلت لنفسى •• الخلاصة •• اننى أنتظر هذه السيدة •• وأنا على يقين انها هنا ، وأود لو ألقاها فأشرح لها سوء هذا السلوك وحقارته •• أنت تفهمنى ، أليس كذلك ؟

ـ ثم ؟

ـ أنا لا أفعل هذا من أجل نفسى •• لا يذهبنّ بك الظن الى ان •• هى زوجة رجل آخر •• وزوجها ينتظر هناك على جسر فوزنيسنسكى •• ان رغبته هى أن يقبض عليها متلبسة بالجرم ولكنه لا يعزم أمره ••• وهو ما يزال لا يصدق ، كسائر الازواج على كل حال • (وهنا ابتسم الرجل صاحب المعطف ابتسامة خفيفة) وأنا صديقه وأنا رجل محترم ولا يمكن أن أكون الشخص الذى تظن •••

ـ طبعا •• طبعا •• وبعد ؟ أنا أصغى اليك •••

ـ اننى أراقبها بغير انقطاع ، أنا مكلف بهذا ! يا للزوج المسكين !

•• ولكننى اعلم أن السيدة الشابة ماكرة • ان كتب بول دو كوك * موجودة دائما تحت مخدتها • وأنا واثق انها ستجد مهربا ما فتنسل خفية دون أن يراها أحد • أعترف لك أن الطباخة هى التى أبلغتنى عن زياراتها هنا • لقد وثبت كالمجنون حين علمت ذلك • أريد ان أقبض عليها • وأنا أشتبه فيها منذ زمن طويل • لذلك أردت أن أسألك ••• كنت أنت تسير هنا • هل أنت •• هل أنت •• كيف أقول ؟

ــ ولكن ماذا تريد أخيراً ؟

ــ نعم •• اننى لم أتشرف بمعرفتك ، ولا أتجرأ أن أكون كثير الفضول • من أنت ؟ لنتعارف على كل حال •• اذا سمحت •• هى فرصة ممتعة ! •••

قال الرجل ذلك منفعلا انفعالا شديدا ثم صافح الشاب مصافحة حارة وأضاف يقول :

ــ كان ينبغى أن أفعل هذا منذ البداية • ولكننى نسيت اللباقة •

وبينما كان يقول هذا الكلام كان يلقى نظرات قلقة حوله ويمضى يمنة ويسرة بخطى قصيرة ويمسك يد محدثه فى بعض اللحظات كانسان ضائع •

وتابع يقول :

ــ أردت أن أتجه اليك كما يتجه صديق الى صديقه ••• اغفر لى هذه الحرية التى سمحت بها لنفسى ••• وددت لو أرجوك أن تسير فى الجهة الأخرى ••• فى جهة الشارع الصغير •• هنالك مدخل الخدمة•• سأتجول أنا هنا حول المدخل الرئيسى وبذلك لن تستطيع أن تفلت منا • كنت أخشى أن لا أستطيع القبض عليها وحدى •• وأنا لا أريد أن

أخطئها • فمتى رأيتـَها فاستوقفها ونادني •• أوه ! أنا مجنون • الان فقط أدرك حماقة هذا الاقتراح ، وأدرك انه غير لائق •

ـ لا •• لك ما تشاء ••

ـ سامحني •• انني خارج عن طوري ، تائه كما لم أكن كذلك في يوم قط • انني أحس كأنني أمام قضـــاة • وهأنذا أعترف لك صريحا صادقا أيها الشاب بأنني ظننتك في أول الامر عشيقها •

ـ بتعبير آخر بسيط •• انت تريد أن تعرف ماذا أفعل هنا !

ـ أيها الســـيد المحترم ! سيدي العزيز ! حاشا أن أعتقـــد أنك عشيقها •• أنا أرفض أن أوسخ نفسي بمثل هذا الشك ، ولكن •• هل تحلف لي بأنك لست عشيقها ؟

ـ ما دمت تريد ذلك فأنا أحلف لك انني العشيق ، ولكنني لست عشيق زوجتك ••• ولو كنت عشيقها لما رأيتني في الشـــارع ، ولكنت الآن معها •

ـ زوجتي ! من قال لك انها زوجتي أيها الشاب ؟ أنا عازب • أقصد انني أنا العشيق •

ـ لقد قلتَ لي ان زوجها ينتظر تحت جسر فوزنسنسكي •

ـ طبعا •• آه •• انني أخلط كل شيء ، هنالك روابط أخرى ••• ثم يجب أن تعترف أيها الشاب أن شيئا من خفة الطبع وضعف الارادة ، أقصد •••

ـ طيب •• طيب •• أكمل •

ـ بتعبير آخر أنا لست زوجها أبداً •

ـ أصـدقك • ولـكن اذا شئت الصراحة ، فانني أثنيـك الآن عن عزمك ، لأنني أريد أن أهدأ أنا نفسي • ومن أجل هذا انما تراني صريحا معك هذه الصراحة كلها على أى حال • لقد ضايقتني • انك تحرجني • أعدك بأن أناديك ، وأتوسل اليك مع ذلك أن تترك لى هذا المكان ، وأن تبتعد • انا نفسى أنتظر •

ـ اتفقنا • لك ما تشاء • سوف أبتعد ، مراعيا نفاد الصبر فى قلبك الملتهب • أنا أفهم هذا أيها الشاب • ما أكثر ما أفهمك الآن !

ـ طيب•• طيب •••

ـ الى اللقاء •• ومعذرة أيها الشاب على كل حال •• هناك كلمـة أخيرة •• لا أعرف كيف أقولها •• احلف لى مرة أخرى بشرفك انك لست العشيق •

ـ آه يا رب •

ـ سؤال أخير • هل تعرف اسم زوج عشيقتك ، أقصد زوج السيدة التى تحبها •

ـ أعرفه طبعا ، وهو ليس اسمك ، حسبك هذا •

ـ فكيف عرفت اسمى ؟

ـ اسمع ! دعنى وشأنى ! انك تضيع وقتك ! سيتسع وقتها للهرب الف مرة • ماذا دهاك ؟ ان السيده التي تبحث عنها ترتدى معطفاً من فراء الثعلب ، وقبعة من مخمل • أما المرأة التى أنتظرها فهى ترتدى معطفا ذا مربعات وقبعة من قطيفة زرقاء • ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ مـاذا تريد أيضا ؟

ـ قبعة من قطيفة زرقاء ؟ انها ترتدى هى أيضا معطفـا ذا مربعات وقبعة زرقاء •

كذلك صاح الرجل الذى كان مصراً على أن لا يُعْتِق الآخر • وعاد أدراجه •

ـ شيطان يأخذك ! أأنت تجهل اذن أن هذا يمكن أن يقع ؟ ولكن لماذا احتاج ؟ ان صاحبتى لا تمر بهذا المكان •

ـ أين صاحبتك اذن ؟

ـ ما شأنك انت ؟

ـ اعترف لك بأننى ما زلت •••

ـ ألا تستحى ؟ ان لصاحبتى أصدقاء هنا في الطابق الثـاني المطل على الشارع •• هل يجب علىّ أن أطلعك على أسماء الناس ؟

ـ غريب ! أنا أيضا لى أصدقاء فى الطابق الثانى تطل نوافذ بيتهم على الشارع •• انه جنرال •

ـ جنرال ؟

ـ جنرال • ولماذا أخفى عنك ؟ انه الجنرال بولو فتسين •

ـ ها •• طيب • ليس أصحابى أصحابك •• هوه ! شيطان يأخذهم جميعا •

ـ ليسوا هم أنفسهم ؟

ـ لا •

وصمت الرجلان وحدق كل منهما الى الآخر مذهولا •

ـ لماذا تنظر الىّ هكذا ؟

كذلك صاح الشاب مغتاظاً وهو يحاول أن يهز حالة الحلم والذهول التي كان فيها •

اضطرب الآخر •

ـ أعترف •••

ـ لا •• هذه المرة اسمح لى •• اسمح لى •• يجب عليك أخيراً أن تنظر الى الامور نظرة عاقلة • قضيتنا مشتركة ••• اشرح لى من هم الذين تعرفهم هنالك ؟

ـ تقصد من هم الأصدقاء ؟

ـ نعم الأصدقاء •

ـ أنت ترى انني أحس من عينيك أنني حزرت •

ـ لا •• لا •• أأنت أعمى ؟ أنا هنا بالقرب منك ولست بالقرب منها • ماذا يهمني على كل حال • تكلم ••• أو لا تقل شيئا ••• افعل ما يحلو لك •

دار الفتى مرتين على كعبيه غاضباً وهز ذراعه •

ـ أرجوك ! ما هذا بشيء ذي بال • سأقص عليك كل شيء بصدق وأمانة • في أول الامر كانت زوجتي تجيء وحدها الى هنا • انها قريبتهم• ولم يكن لديّ أية شبهة • وأمس التقيت بصاحب المعالي الجنرال فأبلغني انه غيَّر مسكنه منذ ثلاث أسابيع و ••• لا ••• انها ليست زوجتي ، بل زوجة شخص آخر ••• زوجة الشخص الذى ينتظر على جسر فوزنسنسكي•• هذه السيدة قالت أول أمس انها ذاهبة اليهم في هذاالمسكن نفسه • أما الطباخة فقد حكت لى ان شاباً اسمه بوبينستين قد استأجر المسكن من صاحب المعالي الجنرال •

ـ يا للاسم اللعين !

ـ سيدى العزيز •• أنا خائف ••• أنا خائف ••

ـ ما شأنى بمخاوفك ؟ اسمع ! هذا شخص قد مر من هناك •

ـ أين ؟ أين ؟ ما عليك الا أن تصيح : ايفان أندريفتش ، فأهرع مسرعاً •

ـ طيب اتفقنا • يا للاسم اللعين !

صاح الشاب :

ـ ايفان اندريفتش •

ـ ها أنذا ! هه ••• من ؟ ••• ماذا ؟ •••

كذلك هتف ايفان اندريفتش وهو يعود أدراجه لاهثاً :

ـ لا ، لا شىء وانما أردت أن أعرف ما اسم هذه السيدة ؟

ـ جلاف ••••

ـ جلافيرا ؟

ـ لا ليس هكذا تماماً • اعذرنى ••• لا أستطيع أن أقول لك اسمها •

شحب وجه السيد المحترم شحوباً شديداً وهو ينطق بهذه الكلمات •

ـ طبعاً ليس اسمها جلافيرا ••• أنا أعلم ان اسمها ليس جلافيرا • والاخرى ليس اسمها جلافيرا أيضا • ولكن من الذى معها ؟

ـ أين ؟

ـ فوق .. شيطان يأخذك .

قال الشاب ذلك وقد جن جنـــونه حنقاً فهـو لا يطيق صبراً على الاستقرار فى مكانه .

ـ كيف عرفت انها تسمى جلافيرا ؟

ـ وبعد ؟ ألن أتخلص منك اذن أبداً ؟ ألم تقل لى منذ هنيهة ان صاحبتك ليس اسمها جلافيرا ؟

ـ لهجتك يا سيدى العزيز ...

ـ دعك من لهجتى الآن . أهى زوجتك أم لا ؟

ـ أنا لست متزوجاً . على أننى لا أسمح لنفسى بما تسمح لنفسك به من اهانة رجل محترم ومن ذكر اسم الشيطان فى مخاطبة انسان مؤدب مهذب جدير بكل احترام . انك ما تنفك تكرر قولك يا للاسم اللعين.. شيطان يأخذك .. شيطان يأخذك .

ـ هذا أنا ! افهمنى جيداً ! شيطان يأخذك .. أعود فأقولها .

ـ الحنق يعميك .. وهأنذا أسكت ... رباه ... ماهذا ؟ ماذا أسمع ؟

ـ أين ؟

سُمعت فى تلك اللحظة ضجة وقهقهات . هما فتاتان تهبطان درجات المدخل . هرع الرجلان مقبلين عليهما .

هتفت الفتاتان متعجبتين : « لا ! انظرى اليهما ! ماذا تريدان ؟ »

ـ ماذا دهاك ؟

ـ ليستا هما .

ـ ها ... حسبتمانا غيرنا ! يا حوذى !

ـ الى أين أنت ذاهبة يا آنسة ؟

ـ الى بوكروف .. اصعدى يا آنموشكا ، سأوصلك ...

ـ انتظرى .. سأجلس في هذه الجهة . هيا يا حوذى .. وحاذر! أسرع ما استطعت الاسراع .

مضى الحوذى .

ـ من أين كانتا آتيتين ؟

ـ ما رأيك فى أن نصعد ؟

ـ الى أين ؟

ـ الى بيت بوبينيتسين .

ـ لا .. لا يجب ..

ـ لماذا ؟

ـ كان يمكن أن أصعد ، ولكنها قادرة على أن تبرىء نفسها ... على أن تلف وتدور ... اننى أعرفها ! لسوف تؤكد أنها جاءت الى هنا عامدةً من أجل أن تضبطنى مع أخرى .. فأكون فى آخـــر الأمر أنا المذنب . ولكن لا أدرى .. ما رأيك أن تصعد أنت الى الجنرال ؟

ـ ولكنه انتقل من هذا المنزل .

ـ هذا لا يهم ! ألا تفهم ؟ لقد ذهبت هى الى هناك • فما عليك الا أن تفعل مثلها ، هل فهمت ؟ اخترع •• كأنك تجهل أن الجنرال انتقل من هذا المنزل •• وكأنك جئت تبحث عن زوجتك فى منزله ، الخ •••

ـ ثم ؟ اننى لا أعرف من الذى يجب أن أضبطه عند بوبيتتسين ••• ليس لدىّ أية فكرة عن هذا الشخص الغبى •••

ـ طيب ••• ولكن أية فائدة تجنيهـــا من ضبط المجـــرم متلبساً بالجريمة ؟ هلاّ فكرت فى هذا الامر •

ما هذا الذى تقوله يا رجل ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ دعنا •• دعنا •• عجيب ! أتراك لا تخجل ولا تستحى أيها الرجل المضحك الغبى ؟

ـ لست أفهم حرصك على ••• أأنت تريد أن تعلم ؟

ـ أعلم ماذا ؟ ماذا ؟ اذهب عنى •• لا أريد أن أراك •• هيّا اغرب عن وجهى ، اذهب عنى ، دعنى وشأنى !

ـ أيها السيد العزيز •• انك تكاد تنسى نفسك •

كذلك صاح لابس معطف الفراء وقد تملكه كرب شديد •

قال الشاب وهو يكز أسنانه ويتقدم حانقاً نحو لابس المعطف :

ـ وهبنى أنسى نفسى ••• ماذا يهمك هذا ؟ وأمام من أنسى نفسى ؟

نطق الشاب بهذا السؤال الاخير معولاً وهو يرفع قبضتى يديه •

ـ ولكن اسمح لى يا سيدى العزيز •

ـ من أنت ؟ أمام من أنسى نفسى ؟ ما اسمك ؟

ـ لماذا يجب علىّ أن أجيبك أيها الشـــاب ؟ ما أنت فى حاجة الى

معرفة اسمي ••• لا أستطيع أن أذكر لك اسمي ••• هيًّا ••• افعل ما يحلو لك •• أنا مستعد لكل شيء •• ولكن ثق أنني أستحق أن أخاطب مخاطبة أكثر أدباً وتهذيباً • ما ينبغي للمرء أن يفقد هدوء أعصابه ، حتى ولو كان في ذروة الألم • انك ما تزال شاباً !

ـ ماذا يهمني أ نتكون أنت عجوزا ! أأنت أول عجوز في هذه الحياة ؟ اذهب عني ! ما الذي يجعلك تجرى هنا ؟

ـ أنا لست عجوزاً أبدا ! أين ترى أنني عجوز ؟ لعلك ظننت ذلك من رتبتي ؟ ثم انني لا أجرى •

ـ هذا واضح • ولكن هيا اذهب من هنا !

ـ لا لن أتركك • ليس من حقك أن تمنعني من البقاء معك • ان لى صلة بالقضية مثلك • انني معك أ •••

ـ اخفض صوتك ••• اخفض صوتك ••• اسكت !

اجتاز الرجلان درجات المدخل ، وصعدا الى الطابق الثالث • كان السلّم مظلماً •

ـ انتظر ! هل معك ثقاب ؟

ـ ثقاب ؟ أى ثقاب ؟

ـ هل تدخّن سيجارا ؟

ـ طبعاً ••• معى سيجار ، معى سيجار ••• انظر ! انتظر •••

اضطرب لابس المعطف •

ـ آ •• يا للغبء ••• هذا هو الباب فيما أظن •••

ـ هذا •• هذا •• هذا ••

ـ هذا هذا •• لماذا تعول ؟ اخفض صوتك !

ـ يا سيدى العزيز •• على مضض انما أ ••• انك لشخص وقح وكفى •

اشتعل عود الثقاب •

ـ وصلنا • هذه هى البطاقة النحاسية • أقرأ عليها اسم بوبينستين• هل رأيت ؟ بوبينستين ؟

ـ رأيت ، رأيت •

ـ اخفض صوتك • هيًا بنا • لقد انطفأ •

ـ انطفأ ؟

ـ هل يجب أن نقرع الباب ؟

ـ طبعاً يجب •

كذلك قال لابس المعطف •

ـ اقرع الباب •

ـ لا •• لماذا أنا ؟ اقرع انت •

ـ جبان !

ـ أنت الجبان !

ـ هلاً ذهبت عنى !

ـ أكاد أندم على أننى أفضيت اليك بسر •• أنت ••

ـ أنا ؟ قل : أنا ؟

ـ أنت استغللت حيرتى واضطرابى ••• لاحظت حالة القلق الشديد التى أنا فيها •••

ـ هلاً سكت أخيراً ! أرى أن الأمر كله سخيف وكفى •

ـ ماذا تصنع هنا اذن ؟

ـ وأنت ، ماذا تصنع أيضاً ؟

ـ يا لهذه الأخلاق !

كذلك قال لابس المعطف •

ـ أمثلك يتكلم عن الاخلاق ؟ أنت لا تستطيع أن •••

ـ ولكن هذا الأمر غير أخلاقى •

ـ أى أمر هو غير أخلاقى ؟

ـ فى رأيك أن كل زوج تخونه امرأته فهو أبله •

ـ أأنت اذن زوجها ؟ ألم تقل ان زوجها ينتظر على جسر فوزنسنسكى ؟ ما لك ولهذا الموضوع اذن ؟ لماذا تحشر نفسك فيه ؟

ـ أظن أنك أنت العشيق •

ـ اسمع • اذا ظللت تعزف على هذا الوتر ، فسأجدنى مضطرا لأن أعترف بأنك أنت الأبله •

ـ تقصد اننى أنا الزوج •

كذلك قال لابس المعطف وهو يتراجع كمن تلقى صفعة •

ـ هس •• اسكت ! •• هل تسمع ؟

ـ انها هى •

ـ لا •

ـ الظلام شديد •

وساد صمت شامل ، ثم سُمعت ضجة صادرة من مسكن بوبينستين •

قال لابس المعطف هامساً :

ـ لماذا نهين نفسنا يا سيدى العزيز ؟

ـ ولكن ألست أنت الذي أردت ذلك ، ألست أنت الذى أوقعت نفسك يا غبى ؟

ـ أنت حمّستنى •

ـ اسكت •

ـ انك ما زلت شابا جدا ، اعترف بذلك •

ـ هلاّ سكت !

ـ لا أستطيع الا أن أوافقك : الزوج فى هذه الحالة أبله •

ـ سوف تسكت أم لا ؟

ـ ولكن لماذا هذا الاستهزاء الشرير بزوج تعيس ؟

ـ انها هى •

فى تلك اللحظة انقطعت الضجة فى المسكن •

ـ هى ؟

ـ هي ، هي ، هي • ولكن لماذا تضطرب أنت ؟ انها ليست زوجتك•

قال لابس المعطف مدمدماً منتحباً :

ـ سيدي العزيز ، سيدي العزيز •• طبعا انا في حالة غير عادية •• لقد لاحظت مذلتي بما فيه الكفاية • الان ليل ، ولكن غدا ••• على اننا قد لا نلتقي غدا ، رغم انني لا اخشى ان نلتقي •• ولكن الزوج ليس أنا على كل حال ، الزوج صديقي الذي ينتظر على جسر فوزنسنسكي ••• نعم ، هو الزوج • انها زوجته هو ، انها زوجة رجل آخر غيري • رجل تعيس ، أؤكد لك • انني اعرفه حق المعرفة • واذا شئت رويت لك كل شيء • أنا صديقه كما أمكنك أن تلاحظ ذلك • كم من مرة قلت له : لماذا تتزوج يا عزيزي ؟ ان لك مركزاً ، وأنت في يسر ، وأنت رجـل محترم ، ولسوف تعرّض كل شيء للخطر في سبيل امرأة مغناج ! أليس كذلك ؟ فكان يجيبني بقوله : بل سوف أتزوج • فلا شيء كسعادة الأسرة •• فانظر الى سعادة الأسرة التي كان يحدثني عنها ! بالأمس كان هـو الذي ينبت للأزواج قروناً ••• واليوم يكال له الصاع صاعين ••• معذرة اذا قلت هذا ••• ولكن الضرورة هي التي انتزعت مني هذا الشرح • انه شقي • انه يشرب الصاب الآن •••

ما كاد الرجل يفرغ من هذا الكلام حتى فاضت عيناه بالدموع • ولم تكن ذلك تمثيلا ! ••

ـ نعم ••• شيطان يأخذكم جميعا •• ما أكثر هؤلاء الحمقى• ولكن أنت ، من أنت ؟

كان الفتى يصرّ بأسنانه حنقا وهو يلقى هذا السؤال •

ـ هيّا اعترف بنفسك بعد هذا كله •

ـ لقد كنت صريحا ونبيلا معك ... على حين أن طريقتك ...

ـ ما اسم أسرتك ؟

ـ لماذا تريد أن تعرفه ؟

ـ أوه !

ـ لا يمكنني أن أذكر لك اسم أسرتي ...

قال الفتى :

ـ هل تعرف شابرين ؟ شابرين !!

ـ ماذا ؟ أي شابرين ؟

كان يبدو أن الفتى يستهزىء بالسيد لابس المعطف .

ـ هل فهمت ؟

أجاب لابس المعطف مذهولاً :

ـ كلا .. كلا .. لم أفهم شيئا البتة . هو رجل محترم على كل حال . انني أغفر لك قلة أدبك التي مردها الى عذاب الغيرة .

ـ انه رجل خدّاع ، انه انسان مرتشٍ ، هو سارق لص . وسوف يُحكم عليه قريبا .

قال السيد لابس المعطف وقد اصفر وجهه اصفرارا شديدا :

ـ عفوك . انك لا تعرفه أبداً . الآن أرى أنك تجهله تماماً .

ـ صحيح أنني لم أره يوماً . ولكنني أعرف أناساً قريبين منه ... هذا الرجل الذي هو ينبوع ...

ـ ينبوع أي شيء يا سيدى العزيز ؟ اننى مضطرب أشد الاضطراب أنت ترى ذلك .

ـ انه أبله ، غيور ، عاجز عن مراقبة امرأته ! هذا هـو ... اذا شئت أن تعرف ذلك .

ـ اسمح لى أن أقول لك انك مخطىء أشد الخطأ أيها الشاب .

ـ آه ...

ـ أوه ...

وجاءت ضجة من مسكن بوبينستين . وكان الباب قد أخذ يُفتح . وسُمعت أصوات .

قال لابس المعطف :

ـ لا .. ليست هى . الآن عرفت كل شيء . ليست هى .

وكان ممتقع الوجه كأنه ميت .

ـ اسكت .

وأسند الشاب ظهره الى الحائط .

ـ أنا منصرف يا سيدى . انها ليست هى . أنا سعيد جداً .

ـ عظيم . امض . امض . انصرف .

ـ لماذا تبقى أنت ؟

ـ وأنت ؟

وفُتح الباب ، فلم يطق لابس المعطف صبراً ، ولم يستطع أن يسيطر على نفسه ، فهرول يهبط السلم .

ومرّت أمام الشاب سيدة يصحبها رجل ، فشعر الشاب بقلق يخنق قلبه .. سمع صوت المرأة التى يعرفها ، ثم سمع صوتاً أجش ، صوت رجل شعر شعوراً غامضاً بأنه يعرفه .

قال الصوت الأجش :

ـ لا ضير .. سوف آمر بأن تتقدم العربة .

ـ حسن جداً .

ـ ليس المكان ببعيد .. هى لحظة فحسب .

وبقيت السيدة وحيدة .

هتف الشاب لابس السترة يقول وهو يمسك يد السيدة :

ـ جلافيرا ! أين عهودك ؟

ـ آه .. ولكن من أنت ؟ لعلك تفجوروف ! ماذا أنت صانع هنا ؟

ـ مع من كنت ؟

ـ مع زوجى .. هيّا اذهب ، انصرف ... سوف يرجع حالا .. كنا عند .. عند أسرة بولوفستين . اذهب ، انصرف ، ناشدتك الله ... امض ...

ـ لقد انتقلت أسرة بولوفستين من هذا المنزل منذ ثلاثة أسابيع . أنا على علم بكل شيء .

ـ آه ...

وأسرعت السيدة تنزل نحو المدخل . فأدركها الشاب .

قالت السيدة :

ـ من أنبأك بذلك ؟

ـ زوجك يا سيدتى ، ايفان آندريفتش ، هو الآن هنا ، انه ماثل أمامك يا سيدتى ..

وكان ايفان اندريفتش قرب درجات المدخل حقا .

هتف السيد لابس المعطف ، وهو يهرع نحوها متظاهرا بالفرح :

ـ أوه ! هذه أنت يا جلافيرا . رباه ! يا لها من مصادفة ! كنت عند أسرة بولوفستين ، تصورى ... أنت تعلمين أنهم يسكنون الآن قرب جسر اسماعيلوفسكي . قلت لك ذلك . ألا تتذكرين ؟ وهناك استأجرت عربة ، فثارت ثائرة الخيل ، فأسرعت تعدو عدواً مجنـــونا ، فتحطمت العربة ... فسقطت على مسافة مائة متر من هذا المكان ... وقد أوقف الحوذى . وكنت خارجا عن طورى . ومن حسن الحظ أن السـيد تفجورووف ...

ـ كيف ؟

كان الشاب لابسُ السترة أقربَ الى تمثال صخر منـه الى السـيد تفوجورووف .

ـ رآنى السيد تفجورووف هنا وتفضّل باصـطحابى . ولـكنك الآن موجودة ، ولم يبق علىّ الا أن أعبر لك عن شكرى وامتنانى يا ايفـان ايلتش .

مدت السيدة يدها للفتى المشدوه ، وصافحت يده ، بل وقرصتها .

ـ يا سيد تفجورووف ، لقد سـبق أن سررنا بلقائك فى الحفـلة

الراقصة التي أقامتها أسرة سكورلوبوف • أظن انني حكيت لك ذلك ، أتراك نسيته يا حبيبي ؟

تمتم الرجل الذي خاطبته السيدة بقولها : يا حبيبي ، تمتم يجيب :

ـ طبعاً ما نسيت ••• اذا صدقت ذاكرتي ••• سعيد جدا بمعرفتك •• سعيد جدا •

قال ذلك وصافح يد السيد تفوجورف •

ـ من معك ؟ ما معنى هذا ؟ انني أسمع •••

لقد سُمع الصوت الأجش •

وهذا رجل طويل القامة جداً يقف أمام الثلاثة ، وهذا هو يضع نظارة على عينه ويحدّق الى الزوج •

تمتمت السيدة تقول :

ـ أوه ••• سيد بوبينستين ! من أين أنت آتٍ ؟ يا لها من مصادفة ! تصور أن الخيل كادت تقتلني منذ دقيقة ••• أقدم لك زوجي ، جان !

ـ السيد بوبينتسين ••• في الحفلة الراقصة عند أسرة كاربوف •

ـ سعيد جدا ••• ولكن يا صديقتي سآخذ عربة على الفور •

ـ خذ عربة يا جان • ما زلت أرتعش الى الآن • أخشى أن أمرض• اليوم ، في الحفلة الراقصة التنكرية (قالت ذلك مخاطبةً تفوجورف) • الى اللقاء ، الى اللقاء يا سيد بوبينتسين ! لعلنا نلتقي غدا في حفلة أسرة كاربوف ••

ـ لا •• معذرة •• لن أكون هنالك غداً ، ما دامت الأمور تجري هذا المجرى اليوم • غداً •

وجمجم السيد بوبينتسين يقول كلمات غير مفهومة ، وحيًّا وهو يحدث صريراً بحذائيه ، وركب عربته ، وانصرف • اقتربت المركبة : فجلست السيدة • توقف لابس المعطف ، وبدا كأنه لا ينوى التحرك ، وشخص ببصره الى لابس السترة مصعوقاً • أما هذا الاخير فقد ابتسم ابتسامة أقرب الى البلاهة •

ـ لا أردى •••

ـ معذرة ••• سعيد بمعرفتك •

كذلك قال الشاب محيياً •

ـ سعيد كل السعادة •

ـ ولكن ألم تفقد أحد حذاءيك المطاطين ؟

ـ أنا ؟ فعلاً ••• أشكرك ، شكراً ••• في بيتي شراء غيرهما منذ مدة طويلة •

قال الشاب معبراً عن أشد التملق :

ـ القدمان تعرقان دائماً فى أحذية المطاط هذه !

ـ ألا تستطيع يا جان أن تسرع قليلاً •

ـ حقاً ••• القدمان تعرقان • فوراً ، حالاً ، يا عزيزتي • حديث شائق • تعرقان فعلاً ، كما لاحظت • ولكنني •• معذرة •

ـ العفو !

ـ سعيد جدا بمعرفتك •••

ركب السيد لابس المعطف المركبة ••• وتحركت المركبة • وبقى الشاب كالمتسمّر فى مكانه ، يرشق العربة بنظرات مذهولة •

الفصل الثاني

كان هنالك حفلة فى مساء الغد تقدمها الأوبرا الايطالية * دخل ايفان آندريفتش الى القاعة دخول قنبلة • لم يكن فى يوم من الأيام شغوفاً بالموسيقى هذا الشغف • كان من عادة ايفان آندريفتش أن يغط فى النوم ساعةً أو ساعتين فى حفلات الأوبرا الايطالية • حتى لقد كان يقول لأصدقائه أحيانا ان النوم أثناء الغناء ممتع لذيذ • غير أن أشهراً طويلة قد انقضت على آخر موسم ، والآن ، وا أسفاه ! ان ايفان آندريفتش لا يستطيع النوم حتى فى بيته • ومع ذلك فقد دخل القاعة الغاصة بالمشاهدين دخول قنبلة • حتى أن الفتاة التى توصل الداخلين الى مقاعدهم ارتعشت خائفةً حين رأته ، بل انها ألقت نظرة ثابتةً على أحد جيوبه وهى على مثل اليقين من أنها سترى قبضة خنجر • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أنه كان قد تشكل حزبان يتعصب كل منهما لمغنية يعدها المغنية الأولى ، فأما الحزب الاول فهو حزب البوريسيين ، وأما الحزب الثانى فهو حزب الفريزولنيين • وكان الحزبان يبلغان من حب الموسيقى أن

الفتيات اللواتي يوصلن الداخلين الى مقاعدهم أصبحن يخشين وقوع ما لا تحمد عقباه بين افراد الحزبين حول كل ما يتصل باحدى المغنيتين جمالاً وسموا . لذلك تذكرت الفتاة حين رأت هذه الحماسة كلها لدى رجل أشيب الشعر مشرف على الخمسين من عمره ، أصلع جاد ، تذكرت رغم ارادتها الكلمات الرفيعة التي نطق بها هاملت * ، الامير الدنمركي قائلا :

واذا الكهولة أرعدت

ما القول في عهد الشباب !...

قلت ان الفتاة ألقت نظرة مواربة على الجيب الجانبي من رداء الرجل وهي تخشى أن يقع بصرها على خنجر . ولكن لم يكن في الجيب الا محفظة ، ولا شيء عداها .

حين وثب ايفان آندريفتش داخلاً الى المسرح ، شمل جميع شرفات البلكون الثاني بنظرة سريعة ... ويا للهول ! لقد أحس أن قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان : كانت زوجته هنالك . وكان مكانها في احدى الشرفات ، مع الجنرال بولوفتسين وامرأته وأختها ، وكذلك مساعد الجنرال ، وهو شاب شاطر جداً . وكان هناك رجل مدني أيضا ... ركز ايفان آندريفتش كل انتباهه ، وكل حدة بصره . ولكن الرجل المدني لم يلبث أن اختبأ وراء مساعد الجنرال ، ولبث في الظلام .

انها هناك ، مع أنها كانت صرّحت بأنها لن تجيء .

هذا المكر الذي أصبح يظهر لدى جلافيرا منذ زمن ، كان يعذب ايفان آندريفتش . وكان هذا الشاب المدني قد أخذ يلقي ايفان آندريفتش الى هوة الكرب والكمد . وتهالك ايفان آندريفتش على أحد المقاعد طائش اللب .

يجب أن نذكر أن مقعد ايفان آندريفتش كان يقع تحت بينوار ، وأن الشرفة اللعينة التى فى البلكون الثانى كانت فوق هذا البينوار ؟ بحيث أن المسكين كان لا يستطيع أن يرى شيئا قط مما يجرى فوق رأسه • لذلك كان فى ذروة القلق والغم ، وكان يغلى غليان الماء فى السماور • ظل غائباً عن وعيه شارد اللب طوال الفصل الاول ، عاجزاً عن سماع أى نغمة • يقال ان للموسيقى ميزة هى أن المرء يستطيع أن يجعل التأثيرات الموسيقيه منسجمه مع اى احساس يحسه • فمن كان فرحا ادرك فى اصوات الموسيقى فرحا ، ومن كان حزينا ادرك فيها حزنا وآلما • فكذلك كانت الموسيقى فى اذان ايفان اندريفتش زوابع واعاصير تعصف • ومن تمام الشقاء ان صرخات رهيبة كانت ترتفع امام ايفان اندريفتش ووراءه وعلى جانبيه ، وكانت هذه الصرخات من القوة بحيث ان ايفان اندريفتش احس بقلبه يوشك ان ينفجر • وانتهى الفصل اخيرا • ولكن فى اللحظة التى اسدلت فيها الستارة ، وقع لبطلنا حادث لا يستطيع اى قلم ان يصفه •

انه ليحدث فى كثير من الاحيان أن تسقط ورقة برنامج الحفلة من البلكونات • فاذا كانت التمثيلية مملة ، وكان المشاهدون يتثاءبون ، فان سقوط الورقة يحدث لهم لذة كبيرة ، فاذا هم يتابعون فى كثير من الشوق والاهتمام تطايرها الهين وترنحها المترجح هابطة من أعلى الى المقاعد • ولا بد لهذه الورقة أن تسقط حتما على جمجمة لم تكن تتوقع ذلك • وانه لمن الشائق حقاً أن يلاحظ المرء كيف تحمر هذه الجمجمة عندئذ ، لأنها تحمر حقاً • لذلك فاننى أخاف دائما من المناظير التى تضعها السيدات فى كثير من الأحيان على حافة الشرفات ، ويتراءى لى أنها تهم أن تسقط أيضا من لحظة الى أخرى على رأس من الرءوس • ولكن هأنذا أتحدث عن حوادث مفجعة ليس هذا أوان الحديث عنها • لذلك أنصح بها لقصص

الجرائد التي تأخذ على عاتقها ان تجنبنا جميع الاكاذيب ، وتقينا من جميع الشرور ، وتبعدنا عن جميع ضروب السام الذي يستبد بنا في بيوتنا .

ولكن الحادث الذي وقع لصاحبنا ايفـــان اندريفتش لم يسبق أن وصف في اي مكان . ان الشيء الذي سقط على راسه الاصلع لم يكن ورقة برنامج الحفلة . واني لاعترف بأنني أشعر بالخجل ـ أليس الأمر مخجلاً حقاً ـ حين أذكر ان راسه المحترم كان عارياً ، أي يكاد يكون خالياً من الشعر كل الخلو . وعلى هذا الرأس ، رأس ايفان آندريفتش، الغيور الغاضب الحانق ، انما سقط ذلك الشيء الذي ليس فيه حشـمة ، وهو رسالة غرامية رقيقة معطّرة . لذلك فان ايفـان أندريفتش المسكين الذي لم يكن متأهباً لوقوع حادث مزعج الى هذا الحد ، ارتعش ارتعاش من أحس بوجود فأرة أو حيوان صغير مفترس على جمجمته .

لا يمكن للمـــرء أن يخطيء في ادراك المضـــمون الغرامي لهذه الرسالة . انها بطاقة معطرة ، تشبه كل الشبه تلك البطاقات التي تصـفها الروايات ، وهي مطوية طياً يمكّن من دخولها في قفاز سيدة . ولقـد سقطت البطاقة على رأس ايفان آندريفتش مصادفة ولا شك ، وذلك لخلةٍ مدّها لصاحبها . لعل صاحبها كان قد طلب ورقة برنامج الحفلة ، ولعل البطاقة أخفيت في ورقة البرنامج ببراعة ، فالبطاقة قد مُدّت اذن ليدين معروفتين ، ولكن ها هي ذي حركة غير مقصـــودة من مساعد الجنرال (الذي سارع يعتذر عن خراقته بلباقة) تُسقط البطاقة من اليدالصـغيرة المرتعشة اضطراباً ، فاذا الشاب المدني الذي كان يمد يديه نافد الصبر ، يستلم ورقة برنامج الحفلة التي لا ينتظرها ، بدلاً من البطاقة التي ينتظرها على أحر من الجمر .

حادث غريب ، مزعج ••• ذلك أمر لا جدال فيه ••• ولكن لاشك في أنه أشد ازعاجاً لايفان آندريفتش •

تمتم ايفان آندريفتش يقول وقد بلّله عرق بارد وأخذ يكرمش البطاقة في راحتي يديه :

ـ مقدّر ، مكتوب ! ••• الرصاصة تبحث عن الجانى ••• على الجاني تدور الدوائر •• ولكن لا •• فيم أنا جان ؟ •• ليس هذا هو القول المأثور الذي يصدق على حالتي •• هنالك قول مأثور آخر : « على الشقي ما كار ••• الخ الخ •• » •

ما أكثر الخواطر المتفرقة المتنوعة المتناقضه التي تجري وتتشابك وتتداخل في الراس في مثل هذه الحادثة المفاجئة • لبث ايفان اندريفتش مسمّرا في مكانه ، متجمداً ، لا هو حي ولا هو ميت كما يقولون • كان مقتنعا بان القاعة كلها على علم بشقائه ، مع أن الحماسة للمغنية التي كان الجمهور يستيعدها الغناء كانت في تلك اللحظة نفسها تبلغ حد الهذيان • ان ايفان آندريفتش لا يجرؤ أن يرفع عينيه ، وان وجهه كالأرجوان احمراراً من شدة الاضطراب •

التفت نحو رجل أنيق مضحك جالسٍ على يساره ، فقال له :

ـ لقد غنت غناءً رائعاً •

فلم يزد الرجل الأنيق الذي كان كالمجنون حماسةً والذي كان يصفق بيديه ويضرب الأرض برجليه ، لم يزد على أن رماه بنظرة سريعة، ثم عاد يصفق تصفيقاً شديداً ، ويعول منادياً باسم المغنية • فارتاح ايفان آندريفتش الذي لم يسمع قبل ذلك يوماً مثل هذا الصراخ ، ارتاح الى ذلك أشد الارتياح وسُرَّ به أكبر السرور • قال لنفسه وهو ينظر الى

وراء : « انه لم يلاحظ شيئاً • » ورأى عنـدئذ مشـاهداً ضخماً ، كان جالساً خلفه ، رآه ينهض ويدير له ظهره وينظر الى الشرفات • فقال لنفسه مطمئناً :

ـ لا شك أن كل شيء يجرى مجرى حسناً •

وكان واضحاً أنه ما من أحد أمامه قد لاحظ شيئاً • وألقى نظرة مواربة ، خجلى ، ملأى بالامل ، على أقرب بينوار من مقعده ، فرأى سيدة أنيقة جداً قد وضعت منديلاً على فمها ، وانقلبت على ظهر المقعد ، وراحت تضحك ضحكاً مجلجلاً •

جمجم ايفان آندريفتش يقول :

ـ أوه ••• يا لهؤلاء النساء !

وهرع نحو المخرج سائراً على أقدام المشاهدين •

واننى أترك الآن للقراء أن يحكموا على ايفان آندريفتش هل كان على حق فى تلك اللحظة فعلاً ؟ انكم تعلمون أن « المسرح الكبير » يضم أربعة طوابق من الشرفات ورواقاً • فلماذا التسليم يقيناً بأن هذه البطاقة قد وقعت من احـدى الشرفات ، ومن شرفة بعينهـا ؟ أليس فى الطـابق الخامس سيدات أيضا • ولكن الهوى أعمى ، والغيرة أشد الأهواء عماوة على الاطلاق •

أسرع ايفـان آندريفتش الى صالة الاســـتراحة ووقف أمام أحد المصابيح ، وفض الرسالة فقرأ ما يلى :

« حالاً ، بعد انتهاء الحفلة فوراً ، فى شارع ج •• ، عند ناصـية الطريق المسدودة « ••• سكنى » ، منزل ك ••• ، الطابق الثانى ، على يمين السلم • تعال حتماً ، ناشدتك الله ! » •

لم يتعرف ايفان آندريفتش خط كاتب الرسالة ، ولكن لم يكن ثمة مجال للشك : هو ضرب موعد ! « يجب عليه أن يفاجىء العشيقين ، يجب عليه أن يضبطهما ، أن يستأصل الشر من جذوره ٠ » تلك كانت الفكرة الأولى التى راودت ذهن ايفان آندريفتش ٠ حتى لقد خطر بباله أن يضبطهما فى هذا المكان نفسه فورا فى الشرفة ٠ ولكن كيف يفعل ؟ صعد ايفان اندريفتش الى الطابق الثانى ، ولكن الحكمة لم تلبث أن أنزلته ٠ واذ لم يعرف حقا ما عساه صانعا بشخصه ، أسرع نحو الجهة المقابلة ، ونظر من خلال الباب المفتوح من شرفة خالية الى الشرفات التي تواجهها ٠ فماذا راى ؟ كانت الشرفات بكاملها في الطوابق الخمسه مليئه بسيدات شابات ورجال شباب ٠ فمن الممكن ان تكون البطاقه قد سقطت من اى طابق من هذه الطوابق ٠ ولكن ما من برهان كان يمكن ان يحمل ايفان اندريفتش على تغيير رايه ٠ ظل يركض من ممر الى ممر طوال الفصل الثاني ، دون ان يستطيع سبيلا الى الهدوء والسكينه والطمانينة ٠ حتى لقد خطر بباله ان يذهب الى قاطع التذاكر في المسرح املا ان يعلم من هذا الرجل اسماء الاشخاص الذين يحتلون شرفات الطوابق الاربعه ، ولكن شباك قطع التذاكر كان قد اغلق ٠ واخيرا عاد الصياح الشديد والتصفيق المسعور ٠ لقد انتهت الحفلة ٠ واستعيدت المغنية ، وسمع صوتان في الرواق هما صوتا رئيسى الحزبين ٠ ولكن بال ايفان آندريفتش كان مشغولاً بشىء آخر ٠ كان قد اتخذ قراره فيما يتعلق بالسلوك الذى ينبغى له أن يسلكه ٠ لبس معطفه وطار متجهاً صوب شارع ج ٠٠٠ لسوف يكتشف فيه الشخصين فيقبض عليهما متلبسين بالجرم ، ولسوف يكون في هذه الليلة أقوى ارادة وأصلب عودا مما كان فيالليلة البارحة على كل حال ٠

لم يجد ايفان عناء فى الاهتداء الى المنزل ٠ وفيما كان يجتاز درجات

المدخل اذا بشخص انيق مضحك ، لابس معطفاً ، يندفع فجأة فيسبقه في دخول باب العمارة ، ويصعد درجات السلم أربعاً أربعاً حتى الطابق الثالث . فاعتقد ايفان آندريفتش أنه تعرف فيه ذلك الرجل المدني الذى كان في شرفة المسرح ، رغم أنه كان يستحيل عليه أن يميز وجه الرجل الأنيق في المسرح تمييزا واضحاً . انقبض صدر ايفان . ووصل الرجل الأنيق الى الفسحة الثانية من السلم . وسمع ايفان آندريفتش الباب يفتح وهو على هذه الفسحة الثانية . ان الشخص لم يقرع الجرس ، فلا شك انهم كانوا ينتظرون قدومه . وغاب الرجل الأنيق في البيت . ووصل ايفان الى الفسحة الثالثة قبل اغلاق الباب . فخطر بباله في اول الامر أن يمكث في العتبة يفكر فيما يجب عليه أن يعمله ، وأن يتأمل ملياً ، وأن يعزم أمره أخيراً على القيام بفعل حاسم . ولكنه سمع في هذه اللحظة نفسها جلجلة عربة على باب مدخل العمارة . وفُتح الباب الكبير في قرقعة كبيرة ، وسُمعت أصوات أقدام ثقيلة . كان الرجل الذى نزل من العربة ودخل العمارة يسعل سعالاً شديداً ، ويتنفس بصعوبة . فلم يتردد ايفان آندريفتش ، فدفع الباب ، فاذا هو في داخل البيت وقد بدت عليه أبهة الزوج المهان . أقبلت عليه خادمة مضطربة أشد الاضطراب ، ثم ظهر خادم آخر . ولكن احجام ايفان آندريفتش عن المضى في سبيله كان أمراً مستحيلاً . فها هو ذا ينتقل من غرفة الى غرفة كالقنبلة . فبعد أن اجتاز حجرتين مظلمتين دخل فجأة الى غرفة النوم ، فاذا هو يرى نفسه أمام امرأة شابة رائعة الجمال تحدّق اليه مروّعة مذعورة . كان يبدو عليها أنها أصبحت لا تفهم ما يجرى من حولها . وهذه خطوات يُسمع وقعها منذ الآن في الدهليز المجاور . كان أحد يتجه قدُماً نحو غرفة النوم .

– يا رب ! انه زوجى .

كذلك صاحت السيدة وهى ترفع ذراعيها • واصفر وجهها اصفرارا شديداً •

ادرك ايفان اندريفتش انه ضل طريقه • لقـــد تصرف كطفل ، كغبي ابله • كان عليه ان يفكر مزيدا من التفكير وان يتروى مزيدا من التروى وهو على السلم • ولكن ليس في وسعه الان الا ان يذعن • وفتح الباب ، ودخل الزوج الذى لا بد انه كان رجلاً ضخماً ما دام ثقيـل الخطى • لا ادرى ما الذى قاله ايفان اندريفتش فى حق نفسه فى تلك اللحظة • ولا ادرى ما الذى منعـه من ان يتقـــدم نحو الزوج راساً ، فيعترف له بخطئه ، ويعتذر اليه ، وينصرف • صحيح أن ذلك ماكان ليتم على نحو مشرف مجيد ، ولكنه لو فعل لاستطاع على الاقل ان يهـرب هروبا نبيلاً صريحا • ولكن ايفان آندريفتش لم يفعل ذلك ، بل تصرف مرة اخرى كطفل ، كأنه يحسب نفسه دون جوان أو لوفلاس ! فها هو ذا يختبىء أولا وراء ستارة السرير ، ثم ها هو ذا يشعر بخوف يخنقه خنقاً، فيتهاوى على الارض ويزحف متسللاً تحت السرير كفأرة • لقـد أثر فيه الخوف أكثر مما أثر فيه العقل • ان ايفان آندريفتش الذى هو زوج مخدوع أيضاً ، أو زوج يعد نفسه مخدوعاً ، لم يطق أن يتحمل هـذا اللقاء بزوج آخر • ها هو ذا اذن تحت السرير ، لا يفهم كيف جـرت الأمور • ولكن الشيء الذى أدهشه أكثر من أى شيء آخر هو أن السيدة لم تظهر أية معارضـة • فلا هى صرخت حين ظهر لها هـــذا الشخص الغريب المسن ، ولا هى احتجت حين رأته يختبىء فى غرفة نومها • الحق أنها بلغت من الدهشة أنها فقدت القدرة على استعمال الكلام •

دخل الزوج وهو يندب ويشخر ، فألقى على زوجته تحية المساء بصوت متعب ، وتهاوى على مقعد كأنه كان قد حمل كيساً من حطب • ثم

سعل سعالاً طويلاً أبح • أما ايفان آندريفتش الذى تحول من نمر ضار الى حمل وديع ، واصبح خائفا هادئاً ساكتا كفارة صغيرة أمام هرة ، فانه اصبح لايكاد يستطيع التنفس من شدة الرعب • وكان في وسعه مع ذلك أن يدرك من تجربته الشخصية أن الأزواج الذين تسيء اليهم زوجاتهم ليسوا يعضون جميعاً • ولكنه لم يفكر في هذا ، سواء لضعف خياله او لأى ضعف آخر • وحاول ، في رفق وحذر وتلمس ، أن يستقر تحت السرير على نحو يوفر له أكبر قدر ممكن من الراحة • فما كان أشد دهشته حين لامس شيئاً ما ، وحين أحس بهذا الشيء يتحرك ويمسكه من ذراعه هو أيضا • لقد كان هنالك رجل آخر مختبيء • تحت السرير !••

دمدم ايفان آندريفتش يسأل :

ـ من أنت ؟

فقال الرجل الغريب بصوت خافت جداً :

ـ لا تظن أنني سأذكر لك اسمي • ارقد ، واصمت ، ما دمت قد أصبحت هنا •••

ـ ولكن •••

ـ اسكت !

قال الرجل الزائد ذلك (وهو زائد لأن رجلاً واحداً تحت السرير كان يكفي كل الكفاية) ، وضغط ذراع ايفان آندريفتش ضغطاً بلغ من القوة أن ايفان أوشك أن يصرخ من شدة الألم •

ـ أيها السيد العزيز ! •••

ـ هُسْ •••

ـ لا تضغط هذا الضغط الشديد والا صرخت !

ـ أتحداك أن تصرخ ... حاول ...

احمر ايفان آندريفتش خجلاً . كان الرجل المجهول حانقا قاسيا، لعله انسان تلقي ضربات من القدر مرارا ، ومرت به مواقف محرجة هذا الاحراج احيانا كثيرة . أما ايفيان آندريفتش فانه غر ، وهـذه الامور جديدة عليه ، لذلك كان يشعر باختناق في صدره . وكان الدم يغلي في عروقه وينبض في صدغيه . على أنه لم يكن يستطيع أن يفعـل شيئاً ، فلا بد له من البقاء على هذه الحال مضطجعا على صدره جاعلا وجهـه في الارض . كان لا بد لايفان آندريفتش من الخضوع . فسكت .

بدأ الزوج يخاطب زوجته ، فقال لها :

ـ يا حبيبتي الصـغيرة ، يا كنزي الجميـل ، لقد كنت عند بافل ايفانوفتش ، وقد آخذنا نتبادل ال ... كح كح (وهنا وافت العجوز نوبة سعال) .. أخذنا .. كح كح .. ان ظهري .. كح كح . ما هـذا السعال ؟ كح كح كح .

وظل العجوز يسعل سعالاً شديدا مدة طويلة .

وتمتمم أخيراً يقول والدموع في عينيه :

ـ ان ظهري يؤلمني .. يا لهذه البواسير اللعينة ! .. لا أطيق وقوفا ولا قعوداً .. يستحيل عليّ أن أجلس .. كح كح ..

وكان يبدو أن نوبة السعال هذه كانت تريد أن تستمر مدة أطـول من عمر الشيخ نفسه . فلما لاح أنها سكنت ، أخذ الشيخ يجمجم بكلام غير مفهوم البتة .

ـ سيدى العزيز ، ناشدتك الله ... ابتعد قليلا .

كذلك قال الشقى ايفان آندريفتش هامساً .

ـ الى أين تريد منى أن أذهب ؟ ليس فى المكان متسع .

ـ ولكن يستحيل علىّ أن أبقى على هذا الوضع . هذه أول مرة فى حياتى أجدنى على هذه الحال الصعبة .

ـ وأنا أيضا .. هذه أول مرة فى حياتى أجدنى مع جارٍ مزعج الى هذه الدرجة من الازعاج .

ـ ومع ذلك أيها الفتى ..

ـ اسكت !

ـ أسكت ؟ ان سلوكك غير مهذب على كل حال ، أيها الشاب . لا بد أنك شاب ، اذا لم يخطىء ظنى ... أنا أكبر منك سناً .

ـ اسكت .

ـ أيها السيد ، انك تنسى نفسك ، انك لا تعرف من تخاطب ...

ـ أخاطب رجلاً مختبئاً تحت سرير .

ـ نعم ولكن المفاجأة والخطأ هما اللذان قادانى الى هذا المكان ... أما أنت فان اللا أخلاقية هى التى قادتك الى هنا ...

ـ ذلك ما تخطىء فيه .

ـ أيها السيد ، أعود فأقول لك اننى أكبر منك سنا .

ـ أيها السيد ، اعلم أننا هنا متساويان ... أطلب منك أن لا تمسّ وجهى .

ـ سيدى العزيز •• انى لا أميِّز شيئاً • اعذرنى • المكان ضيق •

ـ لماذا أنت سمين هذه السمنة كلها •

ـ يا رب ! اننى لم أوجد طوال حياتى فى ظـرف ذليل الى هذا الحد •

ـ نعم ••• ولكن يستحيل عليك أن تكون أحسن حالا •

ـ سيدى العزيز ، سيدى العزيز ••• أنا لا أعرف من أنت ، ولا أفهم كيف أمكن أن يقع هذا كله ••• ولكن الخطأ هو الذى جاء بى الى هنا •• وأنا لست من تظن •••

ـ ما كنت لأظن فيك شيئاً لولا أنك تتحـرك كل هـــذا التحرك ، وتضطرب كل هذا الاضطراب ، فاسكت اذن ، ولا تقل شيئاً •

ـ سيدى العزيز ، اذا لم تبتعد قليلا ، فلسوف تصيبنى نوبة قلبية•• وسوف تكون مسئولا عن موتى ، أحلف لك • أنا رجل محترم ، رب أسرة • حقاً ليس فى وسعى أن أبقى على هذه الحال •

ـ ولكنك دسست نفسك بنفسك • فماذا تريد ؟ طيب •• تقدم • هاءناذا أفسح لك مكانا • يستحيل أن أفعل أكثر من ذلك •

ـ أيها الفتى النبيل ، سيدى العزيز • الآن أرى أننى أسأت الظن فيك والحكم عليك •

كذلك قال ايفان اندريفتش شاكراً لصاحبه أنه أفسح له مكانا • وتمطى محركا أطرافه المتخدرة • وأضاف يقول :

ـ أنا أفهم أنك محصور فى مكان ضيق جداً ، ولكن ما العمـل ؟

وانني لألاحظ أنك ترى فيّ رأياً سيئاً •• فاسمح لي أن أغسل سمعتي أمامك ، اسمح لي أن أقول لك من أنا ••• انني جئت الى هنا رغم ارادتي، ولم أجيء الى هنا للغرض الذي قد تتصوره ••• انني خائف خوفا رهيباء

ـ هلاّ سكت أخيراً ؟ ألست تدرك اذن أن الأمور ستفسد اذا هم سمعونا ؟ هشت •• انه يتكلم •

وفعلا كانت نوبة سعال الشيخ قد انتهت •

استأنف الشيخ كلامه يقول بصوت شاكٍ :

ـ يا كنزي الغالي ، يا عزيزتي •• لقد •• كح كح ••• آه ••• يا للشقاء ! ••• ان فيدوسي ايفانوفتش يؤكد أن عليّ ان آشرب مغليّ حشيشة الجرح ، أن عليّ أن آجرب هذا العلاج • هل تسمعين يا عزيزتي ؟

ـ اسمع يا صديقي !

ـ قال لي اذن ان عليّ أن أشرب مغلي حشيشة الجرح • فأجبته : لقد جربت العلق • فقال لي : لا يا الكسندر دميانوفتش ••• حشيشة الجرح أفضل ، فهي تهدىء السعال ، أؤكد لك ••• أحلف لك •• كح كح •• أوه •• يا رب ! •• ما رأيك يا عزيزتي الغالية ؟ كح كح •• يا رب •• كح كح •• اذن هل تعتقدين أن مغليّ حشيشة الجرح أفضل؟ كح كح •• آه •• كح كح •

قالت الزوجة :

ـ أظن أن شرب هذا المغلي لن يضرك •

ـ طبعا لن يضرني • وقد قال لي : لعلك مصاب بالسل • ولكنني

أجبته : بل هو شيء من التهيج في المعدة . ما رأيك أنت يا عزيزتي ؟ كح كح .. هل تظنين أنني مصاب بالسل ؟

ـ ما هذا الكلام الذي تقوله ؟

ـ نعم .. السل .. ولكن يا عزيزتي .. عليك أن تخلعي ملابسك .. يجب أن تنامي .. كح كح .. وأنا اليوم .. كح كح .. مصاب بزكام ..

قال ايفان آندريفتش :

ـ هوف .. ناشدتك الله .. ابتعد قليلا أيضا .

ـ حقا ان أمرك ليدهشني .. ماذا دهاك ؟ ألا تستطيع أن ترقد ساكناً ؟

ـ أنت حاقد عليّ حقداً قاتلاً أيها الشاب ... لقد أهنتني الآن .. انني أرى هذا .. لا شك أنك عشيق هذه السيدة .

ـ اسكت .

ـ لن أسكت . لن أسمح لك بأن تصدر اليّ أوامر . انك أنت العشيق حتما . فاذا اكتشف أمرنا ، فلن أكون مجرما في شيء . انني أجهل الأمر جهلا تاماً ، انني غريب عنه فلا صلة لي به ...

قال الشاب وهو يصر بأسنانه :

ـ اذا لم تسكت فسوف أقول انك أنت الذي جئت بي الى هنا . وانك عمّي تدمّر نفسك وتبدد مالك ... وبهذا لن يظن أحد أنني أنا عشيق هذه السيدة .

ـ سيدى العزيز •• انك تسخر منى وتستهزىء بى •• لقد أنفدت صبرى •

ـ هشت •• اننى أجبرك على الصمت • أنت كارثة نزلت علىّ •• قل لى ما الذى جاء بك الى هنا ! •• لولاك لكان فى وسعى أن أبقى على هذه الحال حتى الصباح ، ثم أستطيع أن ألوذ بالفرار •

ـ ولكننى لا أستطيع أن أمكث مضطجعا هذا الاضطجاع حتى الغد •• اننى رجل عاقل •• ولى علاقات كثيرة •• ما رأيك ؟ هل تظن أنه سيقضى الليلة هنا ؟

ـ من ؟

ـ هذا الشيخ ؟

ـ حتما • ليس جميع الأزواج يشبهونك • ان منهم من يبيت فى بيته •

صاح ايفان آندريفتش وقد تجمد رعباً :

ـ سيدى العزيز •• سيدى العزيز •• ثق اننى لا أبيت فى غير بيتى •• هذه أول مرة يقع لى فيها هذا الامر • يا رب ! ولكننى ألاحظ أنك تعرفنى • من أنت أيها الشاب ؟ قل لى فوراً ، أضرع اليك ، باسم الصداقة البريئة ، قل لى من أنت ؟

ـ اسمع •• سأستعمل معك العنف والقوة ••

ـ ولكن اسمح لى ، اسمح لى أن أروى لك ، أيها السيد العزيز ، اسمح لى أن أشرح لك كل هذه القصة المشئومة ••

ـ لن أسمع أى شرح ، لا أريد أن أعرف شيئاً • اسكت ، والا ••

ـ لا أستطيع ، حقا لا أستطيع ...

وأعقبت ذلك معـــركة صـــغيرة تحت السرير ، وصـــمت ايفان آندريفتش .

ـ يا كنزى الغالى ، لكأن ههنا قططاً توشوش ...

ـ قطط ؟ ما هذه الاختراعات ؟

كانت السيدة لا تعرف ماذا تقول لزوجها . انها لم تستطع بعدُ أن تثوب الى رشدها ، وأن تتخلص من الذهول الذى استبد بها . ومع ذلك فقد ارتعشت وأصاخت بسمعها .

ـ أية قطط تعنى ؟

ـ قطط ، يا حمامتى الصغيرة .. لقـــد دخلت فى أحد الأيام الى غرفتى .. فاذا أنا أرى فاسكا * جالسةً تموء : مياو .. مياو .. مياو .. وتشخر . قلت لها عندئذ : ما بك يا فاسكا ؟ فعادت فاسكا تموء : مياو .. مياو .. مياو .. وظلت كذلك طول الوقت كأنما هى تدمدم . قلتعندئذ لنفسى : « آه .. يا أجدادى ! أتراها تتنبأ لى بالموت ؟! » ..

ـ ما هذه الترهات التى تقولها اليوم ؟ ألا تستحى ؟

ـ طيب . ليس هذا بشىء . لا تزعلى يا عزيزتى ... أنا أرى أنك ستشقين اذا مت ، ستكونين تعيسة .. لا تزعلى ! .. أوه .. ما قلت هذا الا لأقول شيئاً ما .. عليك يا صغيرتى أن تخلعى ملابسك وأن ترقدى . وسأمكث أنا هنا أثناء رقادك ...

ـ فى الوقت متسع ، أرجوك .

ـ طيب . لا تزعلى . ولكن أؤكد لك أن ههنا فئرانا .

ـ هــــذا ما كان ينقص .. فئران وقطط . لا أدرى حقا ما الذى دهاك !

ـ أنا .. سخافات .. حماقات .. اننى لا .. كح كح .. لا .. كح كح .. كح كح .. آه .. يا رب ! كح كح ..

دمدم الشاب يقول :

ـ هل سمعت ؟ لقد أحدثت من الصخب ما جعله ..

ـ ليتك تعلم ماذا جرى لى ! ان أنفى ينزف .

ـ طيب فلينزف أنفك ولتسكت أنت . انتظر انصراف الشيخ .

ـ أيها الفتى ، ضع نفســك فى موضعى .. اننى لا أعـرف من الشخص الذى أنا راقد قربه .

ـ لن تتحسن حالك اذا عرفت من هو . هل تعلن أننى أحرص على أن أعرف اسمك ؟ طيب .. ما اسمك ؟

ـ وفيم أقول لك اسمى ؟ .. ان ما يهمنى هو أن أشرح هــذه الطريقة السخيفة التى بها ..

ـ هشت .. لقد عاد يتكلم .

ـ أؤكد لك يا حبيبتى أن ههنا فئراناً .. ألا تسمعين همهمة ؟

ـ لا .. هو القطن قد وضعته فى أذنيك مقلوباً .

ـ بمناسبة القطن ، هل تعلمين أن هنـاك ، فوق .. كح كح .. فوق .. كح كح ...

دمدم الفتى يقول :

ـ فوق ؟ كنت أظن أننا فى الطابق الأخير •• أنحن اذن فى الطابق الأول ؟

قال ايفان آندريفتش وهو يرتعش ارتعاشا شديدا من قمة رأسه الى أخمص قدميه :

ـ ماذا تقول أيها الشاب ؟ قل لى ، أرجوك ، لماذا تهتم هذا الاهتمام كله •• أنا أيضا كنت أظن أننا فى الطابق الأخير • قل لى ناشدتك الله هل هناك طابق آخر في العمارة •

قال الشيخ وقد انقطع سعاله أخيراً :

ـ أحلف لك أن أحدا يتحرك •

تمتم الشاب وهو يقبض على يدى ايفان آندريفتش :

ـ هشت •• هل سمعت ؟

ـ أيها الشاب ! انك توجع يدى • اتركنى •

ـ هشت ! •••

وساد الصمت من جديد بعد صراع قصير •

قال الشيخ :

ـ صادفتُ اذن امرأة جميلة شابة •••

ـ ماذا ؟

ـ ألم أقل لك من قبل اننى صادفت على السلم سيدة جميلة شابة ؟

ها ... لعلني أغفلت أن أذكر لك ذلك ... ان ذاكرتي ضعيفة ... هي حشيشة الجرح .. كح كح ..

ـ ماذا ؟

ـ عليّ أن أشرب مغلي حشيشة الجرح ... يؤكدون لي أن صحتي ستتحسن اذا أنا شربته .. كح كح كخ .. ستتحسن صحتي ..

قالت الزوجة :

ـ قلت انك صادفت امرأة جميلة اليوم ..

ـ هه ؟

ـ امرأة جميلة ؟

ـ من قال لك ذلك ؟

أنت .

ـ أنا ؟ متى ؟ ها .. نعم ..

دمدم الشاب يقول ساخراً من ضعف ذاكرة الشيخ :

ـ انه لمومياء !

ـ سيدي العزيز ، انني أرتعد رعباً . يا رب ! ما هذا الذي أسمعه؟ هي قصة الأمس تماماً ، قصة الأمس بعينها ...

ـ هشت ...

ـ ها نعم نعم تذكرت ! يا لها من ماكرة ... وكانت عيناها صغيرتين ... وكانت تضع على رأسها قبعة زرقاء .

ـ قبعة زرقاء •• أوه •• أوه ••

ـ انها هي • هي تضع على رأسها قبعة زرقاء • يا الهي !

كذلك صاح ايفان آندريفتش •

سأله الفتى بصوت خافت وهو يضغط يديه :

ـ هي ؟ من هي ؟

فقال ايفان آندروفتش بدوره آمراً :

ـ هشت ! •••

ـ آه ! يا رب ! يا رب !

ـ على كل حال يمكن أن يضع كل انسان على رأسه قبعة زرقاء •• واذن •••

وتابع الشيخ كلامه يقول :

ـ ويا لها من امرأة فاجرة ! انها تأتي الى هنا لزيارة أصدقاء لا أدرى من عساهم يكونون ! •• ليتك ترين ما تتصف به من رقة وعذوبة في نظراتها ! وهناك أصدقاء آخرون يصعدون الى بيت أولئك الاصدقاء ••

قاطعته السيدة تقول :

ـ ما هذا الكلام الممل • فيم تعنيك هذه الأمور ؟

ـ طيب طيب • لا تزعلي • سأسكت ما دمت تريدين ذلك • يبدو لي أنك معتكرة المزاج في هذا المساء ••

كذلك قال الشيخ بصوت شاك حزين •

قال الشاب :

ـ ولكن كيف دسست نفسك هنا ؟

ـ أرأيت ؟ أصبح الأمر يهمك الآن بعد أن كنت لا تريد أن تسمع كلامى .

ـ على كل حال ، لا تقل شيئا اذا شئت !

ـ لا تزعل أيها الشاب ... لقد أصبحت لا أعرف ماذا أقول ... كل ما هنالك أننى .. لا شك أن ثمة شيئاً خفياً يجعلك .. ولكن من أنت أيها الشاب ؟ شىء مجهول طبعاً .. ولكن من أنت ؟ رباه ! أصبحت لا أعرف ماذا أقول ..

قاطعه الشاب قائلا :

ـ أوه .. كفاك ! أرجوك !

ـ سأروى لك كل شىء ، كل شىء . قد تظن أننى لن أقصّ عليك شيئاً ، وأننى حاقد عليك . لا . كل ما فى الأمر أننى حزين ... ذلك كل ما فى الأمر . ولكن ناشدتك الله قل لى كل شىء أنت أيضـا ، من البداية : كيف وقعت هنا ؟ بأية معجزة ؟ أما أنا فلن أغضب ، أحلف لك. هذه يدى تعاهدك ؟ ولكن يوجد غبار كثير هنا ، وقد اتسخت يدى ، على أن هذا لا ينفى صدق عواطفى نحوك .

ـ دعنى من يدك ! يستحيل على المرء أن يتحرك أية حركة . انه يزعجنى بيده .

قال ايفان آندريفتش فى نوبة من مذلة حزينة بائسة :

ـ سيدى العزيز ، انك تكلمني كما لو كنت ... كما لو كنت نعلاً بالياً ...

وكان صوت ايفان آندريفتش متضرعاً . وأردف يقول :

ـ كن أكثر أدباً وتهذيباً .. كن أكثر لطفاً ومودة ... وسأقص عليك كل شيء ... أنا مستعد أن أدعوك الى تناول طعام العشاء في بيتي. حقا أنا مستعد لذلك . وسوف نكون أصدقاء .. ولكن يستحيل أن نبقى كلانا راقدين هنا . انك مخطيء أيها الشاب . انك تجهل .

ثأثأ الشاب يتساءل وقد بدا عليه الاضطراب :

ـ متى صادفها يا ترى ؟ لعلها تنتظرني الآن ... هي في انتظاري حتما . يجب عليَّ أن أخرج من هنا ...

ـ هي في انتظارك ؟ من هي في انتظارك ؟ يا رب ! عمَّن تتكلم أيها الشاب ؟ أأنت تقدر أن هناك ، فوق ، في الطابق الأعلى ... يا رب ! يا رب ! ماذا فعلت حتى أعاقب هذا العقاب ؟!

وحاول ايفان آندريفتش أن ينقلب على ظهره من قبيل الحزن والألم .

ـ لماذا يعنيك أن تعرف من هي ؟ يا الله .. ألا فليحدث ما يحدث ! .. أما أنا فسأنسحب ...

ـ أيها السيد العزيز ، ماذا تفعل ؟ وأنا ، وأنا ؟ ما عساني صانعاً ؟

كذلك همس ايفان آندريفتش وهو يتشبث مستميتاً بأطراف سترة جاره .

ـ ما شأني بك ؟ سوف تبقى وحدك .. فاذا لم تشأ ذلك فسأقول

انك عمي ••• عمي الذي بدّد ماله ••• وعندئذ فلن يظن الشيخ أنني عشيق امرأته •

ـ مستحيل أن أكون عمك أيها الشاب ، هذا غير طبيعي • لن يصدقك حتى طفل صغير هكذا •••

همس ايفان آندريفتش بهذه الكلمات يائساً •

ـ اذن لا تترثر بعد الان ، والبث ساكنا كميت • امكث على هذه الحال طول الليل، وفي الصباح تخرج بطريقه من الطرق• ولن يلاحظك عندئذ أحد •• اذا هرب واحد فلن يتصور أحدا أن هناك آخر مختبئاً • لسنا هنا عشرة • على انك تساوي وحدك اثني عشر رجلا ••• تقدم أو أخرج •

ـ أنت لا تحفل بي أيها الشاب ••• فما رأيك اذا سعلت ؟ يجب على المرء أن يتنبأ بكل شيء •••

ـ هشت •••

ـ ماذا هنالك ؟ يخيّل الىّ أنني أسمع جلبةً فوق •••

كذلك تمتم الشيخ يقول ، وكان قد بدا لحظةً أنه غفا •

ـ أسامع أنت ؟

ـ فوق ؟

ـ أنت تسمع أيها الشاب ، ان الجلبة فوق •••

ـ نعم أسمع •

ـ يا رب ! سوف أخرج أيها الشاب •

ـ ليكن لك ما تريد • أما أنا فأبقى • سيان عندى • هل يهمنى أن يفسد كل شيء • اسمع • اننى أقدر أنك زوج تخونه امرأته • تلك هى القصة كلها •

ـ ما هذا الكلام السيىء ؟ أأنت تفترض هذا حقاً ؟ ولكن لماذا ، لماذا تتصور أنني زوج •• أنا لست بمتزوج ••

ـ لست بمتزوج ؟ يا سلام ! •••

ـ ربما كنت العشيق !

ـ العشيق ؟ حلو •••

ـ يا سيدى العزيز ، يا سيدى العزيز •• طيب •• سأقص عليك كل شيء • سوف تفهم بلائى وحزنى • لست أنا الزوج • أنا غير متزوج• أنا عازب ، مثلك • ولكنه صديقى ، هو رفيق من رفاق الطفولة ••• قال لى : « اسمع •• أنا شقى •• لقد شربت الصاب • » • فقلت له : «ولكن لماذا تشتبه فيها ؟ » • لماذا لا تصغى الى كلامى ؟ هلاّ أصغيت الى ما أقصه عليك ؟ قلت له : « ان الغيرة شيء مضحك ، الغيرة آفة » ، فأجاب يقول لى : « أنا انسان شقى تعيس ! لقد شربت الصاب ! هـل فهمت ؟ • » • عندئذ قلت له : « لقد كنت رفيق طفـولتى • وقد قطفنا أزهار الملذات معا • » • رباه ! أصبحت لا أعرف ماذا أقول • انك تضحك أيها الشاب• انك تفقدنى صوابى •

ـ بل لقد فقدت صوابك وانتهى الأمر • أنت مجنون •

ـ كنت أحس أنك ستقول هذا الكلام •• اضحك •• اضحك أيها الشاب • أنا أيضا كانت لى غزواتى فى أيام الشباب ، وكنت أعرف الاغراء والاغواء •• أوه ! لسوف يحتقن دماغى أخيراً •

ـ ولكن قولي لي يا عزيزتي ••• يخيّل اليّ أنني أسمع عطساً في بيتنا ! أأنت التي تعطسين يا حبيبتي ؟

بذلك تمتم الشيخ يسأل امرأته •

فدمدمت الزوجة تقول متململة :

ـ أوه •• ما هذا يا رب !

وُسمع تحت السرير صوت :

ـ هشت ••

فقالت الزوجة مذعورة :

ـ لا شك أنهم يخبطون فوق •

والحق أن الضجة قد ازدادت قوة تحت السرير •

قال الزوج موافقاً :

ـ حقا •• فوق •• قلت لك ان ذلك الشاب المتأنق •• كح كح•• ذلك الشاب المتأنق ذا الشاربين الصغيرين • آه •• يا رب ! ظهري ! •• لقد صادفت ذلك المتأنق ذا الشاربين الصغيرين •••

ـ أهو ذو شاربين صغيرين ؟ لعلك اذن أنت ذلك الشاب !

كذلك دمدم ايفان آندريفتش •

ـ أي شاب ؟ يا رب ! صاعقة تنزل عليك •• انني هنا بقربك ! فكيف يمكن أن يكون قد صادفني ؟ هلاّ تركت وجهي وشأنه !

ـ لا شك أن نوبةً قلبية ستصيبني • هذا مؤكد •

وفي تلك اللحظة سُمعت جلبةٌ صادرة من الطابق الأعلى فعلاً •

همس الفتى سائلاً :

ـ ما هذا ؟

ـ سيدى العزيز ••• اننى أموت ذعراً ••• أموت رعباً ••• أنجدنى •

ـ اسمعى يا عزيزتى ، انها جلبة" حقاً••• جلبة جهنمية ••• وهى فوق غرفة نومك تماما • ما رأيك فى أن نرسل أحداً ينبههم ؟

ـ لا ينقصنا الا أن نفعل هذا •

ـ أوه •• كما تشائين • انك عصبية جداً فى هذا المساء •

ـ يا رب ! الأفضل أن تمضى الى سريرك فتنام •

ـ ليزا ••• لقد أصبحت لا تحبيننى •

ـ بل ما زلت أحبك • ولكننى متعبة جداً •

ـ طيب طيب •• سأمضى •

ـ لا •• لا •• لا تذهب •• بل اذهب •• اذهب •• اذهب . .

كذلك صاحت الزوجة تقول لزوجها الشيخ .

ـ ولكن ماذا بك حقاً ؟ اذهب •• لا تذهب ! كح كح ••• على كل حال ، سوف أمضى أنام •• كح كح •• يا لبنيّات بانافيدين هاته •• كح كح •• هاته البنيّات •• كح كح •• لقد رأيت عند احدى الصغيرات عروسة ، لعبة من نورنبرج •• كح كح ••

ـ وصلنا الى الحديث على العرائس ، على اللعب •••

ـ كح كح •• عروسة حلوة جداً •• كح ••

همس الشاب يقول :

ـ انه يودّع . ألا فلينصرف ، لنهرب على الفور . هل تسمعنى ؟ افرح اذن !

ـ أسأل الله أن يستجيب لأمنيتك !

ـ هذا درس نافع لك .

ـ أيها الشاب ، أي درس تعنى ؟ اننى أحـزر ما تعنيه ... ولكنك ما تزال شاباً . ولا تستطيع أن تلقى علىّ درساً .

ـ مع ذلك سألقنك درساً .. اسمع ..

ـ آه .. سوف أعطس ...

ـ اياك ، حذار أن تعطس ...

ـ ما حيلتى ؟ الرائحة رائحة فأرة .. حقاً لا أستطيع ... اسحب منديلى من هذا الجيب ، ناشدتك الله .. يستحيل علىّ أنا أن أقوم بأية حركة . يا رب ! يا رب ! ماذا فعلت حتى أعاقب هذا العقاب ؟

ـ اليك منديلك . وسأقول لك الآن سبب العقاب الذى تلقاه . أنت غيور . استندت على أسباب لا أدرى ما هى ، فجعلت تركض كمن مسّه جن ، ودخلت حانقا كالمجنون لدى غرباء ، وسبّبت فضيحة !

ـ أنا لم أسبب أية فضيحة .

ـ أسكت !

ـ أيها الشاب ، ليس من حقك أن تلقى علىّ مواعظ وأن تسدى الىّ بنصائح . ان سلوكى خير من سلوكك .

ـ اسكت •

ـ أوه ! يا رب ! يا رب !

ـ انك تسبب فضيحة ، انك ترعب سيدة قد يصيبها من ذلك مرض• وانك لتلقى الى القلق والاضطراب شيخا محترما يعذبه السعال ، ويحتاج الى الهدوء أكثر من اى شيء أخر •• ولماذا كل هذا ؟ لانك تصورت سخافات لا يدرى الا الشيطان ما هى ، فجعلت تركض هنا وهناك يمنة ويسرة •• هل فهمت ؟ هل ادركت الى اية قصة سيئة هويت ؟ أأنت تشعر بذلك ؟

ـ أشعر بذلك يا سيدى العزيز ، ولكن ليس من حقك أن •••

ـ اسكت • لا قيمة للحق هنا • هل تدرك أن هذا كله يمكن أن ينتهى الى مأساة ؟ هل تدرك أن هذا الشيخ الذى يحب زوجته يمكن أن يفقد عقله حين يراك تخرج من تحت السرير ؟ ولكن لا ••• انك لن تستطيع أن تحدث مأساة ! واذا خرجت من هنا فلن يزيدوا حين يروك على أن ينفجروا ضاحكين مقهقهين ! وددت لو أراك فى ضوء الشموع ! لسوف يكون منظرك مضحكا حقا !

ـ وأنت ؟ أنت أيضا مضحك جداً في هذا الظرف • وددت لو أراك أنا أيضاً •

ـ ما سبيلك الى ذلك ؟

ـ لا شك أيها الشاب فى انك امرؤ خالٍ من الاخلاق !

ـ أوه •• أتتكلم عن الأخلاق ؟ وأنى لك أن تعرف سبب وجودى هنا ؟ ان الخطأ هو الذى قادنى الى هذا المكان ، لقد ضللت طريقى الى الطابق الذى كنت قاصداً اليه • ولا أدرى لماذا سُمح لى بالدخول الى

هنا • أغلب الظن أنها كانت تنتظر أحدا هي أيضا ــ ولست أنت من كانت تنتظره حتماً • واختبات تحت السرير حين سمعت خطواتك الغبية ورأيت الذعر في وجه السيدة • ثم ان الظلام كان سائدا • ولكن فيم أبرر نفسي أمامك ؟ أنت عجوز غيـور مضحك ••• أما لمـــاذا أبقى تحت السرير ، فلعلك تظن أنني خائف أن أخرج ! لا يا سيدى ، لو أردت ذلك لفعلته منذ مدة طويلة ، ولئن كنت لا أتحرك فما ذلك الا شفقة عليك ورحمة بك • فلو خرجت أنا لأصبحت أنت كالحطبة أمامهم لا تعرف ماذا تقول •

ــ لماذا أكون كالحطبة ؟ لماذا تشبهني بحطبة ؟ كان في وسعك أن تجد تشبيها آخر أيها الشاب ! ولماذا لا أعرف ماذا أقول ؟ لسـوف أظل محتفظاً برأسي على كتفي •

ــ أوه •• هذا كلب أخذ ينبح •

ــ انك لم تنقطع عن الثرثرة فأيقظت الكلب الصغير من نومه • هذه هي الكارثة •

وفعلا ، فان الكلب الصغير الذى تملكه السيـدة والذى كان حتى ذلك الحين نائما في ركنه على مخدة ، قد استيقظ فجأة • وأخذ يتشمم وجود غرباء ، وهرع يمضي تحت السرير نابحاً •

دمدم ايفان آندريفتش :

ــ يا رب ! يا لهذا الكلب من غبي •• لسوف يفضح أمرنا • هذه لعنة •

ــ طبعا •• ذلك يمكن أن يحدث من فرط خوفك •

صاحت ربة البيت تنادي كلبها :

ـ آمي .. آمي .. هنا .. آمي .. آمي .. هنا .

ولكن الكلب الصغير لم يطع سيدته ، ومشى قدُماً نحو ايفان آندريفتش .

قال الشيخ يخاطب امرأته :

ـ ماذا يجري يا كنزي الغالي ؟ لماذا ينبح آميشكا ؟ لا شك أن هنالك فئرانا . أو لعلها قطتنا فاسكا ! فهمت .. لقد خيِّل اليَّ طول الوقت انني أسمع أحدا .. كأن هناك أحدا يعطس .. يظهر أن قطتنا فاسكا مصابة بزكام اليوم ..

قال الشاب بصوت خافت جداً :

ـ اياك أن تتحرك . لا تلتفت . لعله يسكت عن النباح آخر الأمر.

ـ سيدي العزيز ، سيدي العزيز ، اترك يديَّ . لماذا تمسك يديَّ ؟

ـ هشت ! ... اسكت ! ...

ـ أيها الشاب !... انه يعض أنفي . هل يرضيك أن أصبح بغير أنف ؟

وناضل ايفان آندريفتش حتى استطاع أن يخلص نفسه . وكان الكلب ينبح نباحا مسعوراً . وفجأة صمت ، ثم أطلق شهقة .

قالت السيدة :

ـ أوه ...

دمدم الشاب يقول :

ـ ماذا فعلت أيها اللص ؟ لسوف تضيعنا . لماذا تقبض عليه ؟ يا رب! انه يخنقه ! لا تخنقه . دعه .. اتركه .. اتركه ايها الشيطان .. أأنت تجهل اذن ما يمكن أن تفعله سيدة اذا قتل كلبها ! لسوف تسلمنا كلينا اذا أنت قتلت كلبها .

ولكن ايفان آندريفتش أصبح لا يسمع شيئاً . لقد استطاع أن يقبض على الكلب الصغير ، واستطاع بفعل دفاع مشروع أن يمسك بخناقه ، فما كان من الكلب الا أن صرخ صرخة شاكية ، ثم لفظ روحه.

همس الشاب يقول :

ـ لقد ضعنا !

وصاحت المرأة تنادي كلبها :

ـ آميشكا ، آميشكا ! يا رب ! ماذا فعلوا بعزيزي آميشكا ؟ آميشكا ! هنا ! آه من اللصوص ، آه من الهمج ! يا رب .. انى ليغمى علىّ ...

صاح الشيخ وهو يثب عن مقعده :

ـ ماذا هنالك ؟ ما الذى يجرى ؟ ما بك يا كنزى الغالى ؟ آميشكا ! تعال هنا ! آميشكا .. آميشكا .. آميشكا ! (نادى الكلب وهو يصفق أصابعه) ... الى هنا يا آميشكا ! الى هنا ! يستحيل أن تكون القطة فاسكا قد أكلته ! يجب جلدها ، هذه القطة ، يا حبيبتى . يا لها من قطة رعناء ! اننا لم نجلدها منذ أكثر من شهر ؟ ما رأيك ؟ سوف أستشير غداً براسكوفيا زاخاريفنا . ولكن ماذا بك يا عزيزتى ؟ انك شاحبة الوجه ممتقعة اللون ! أوه ! .. ناس .. ناس !

وقام الشيخ يركض فى الغرفة .

وأعولت السيدة تقول وقد تهالكت على أريكة :

ـ لصوص .. شياطين ..

فهتف الشيخ يسألها :

ـ من ؟ من ؟

ـ هناك ! هناك ! يوجد أشخاص ... يوجد غـــرباء ! هناك تحت السرير . آه ! يا رب ! آميشكا .. آميشكا ! ماذا صنعوا بك يا أميشكا ؟

ـ يا رب ! أشخاص ؟ آميشكا ! أيها الخدم .. أيها الخدم ! تعالوا تعالوا .. مـَنْ هنا ؟ من هنا ؟ أيها الخدم ! ...

وأمسك الشيخ شمعة ومال تحت السرير .

ـ مـَن هنا ؟ مـَن هنا ؟ أيها الخدم ! أيها الخدم !

لبث ايفـان آندريفتش ساكناً فى مكانه قرب جثة الكلب الصـغير لا هو بالحى ولا هو بالميت ! ولكن الشاب كان يتابع ببصره أيسر حـركات الشيخ . ودار الشيخ فجأة حـــول السرير ، وانحنى قـرب الحائط . فما هى الا ثانية واحدة حتى خـرج الشاب من تحت السرير ، واندفـع يهرب ، بينما كان الزوج يبحث عن ضيوفه فى الجهة الأخرى من فراش الزوجية .

دمدمت السيدة تقول حين رأت الشاب :

ـ يا الهى ! من أنت ؟ لقد ظننتك ...

فأجابها الشاب بصوت خافت :

ـ الشيطان ما يزال هناك . هو الذى قتل آميشكا .

هتفت المرأة :

ـ أوه ! ...

ولكن الشاب كان قد هرب .

ـ أوه ! يوجد أحد هنا . انني أرى حذاءً .

كذلك صاح الشيخ وهو يمسك قدم ايفان آندريفتش .

صرخت السيدة :

ـ قاتل .. قاتل .. سفاح .. سفاح .. آمي . . آمي . .

وصرخ الشيخ وهو يضرب الأرض بقدميه :

ـ اخرج .. اخرج .. اخرج ! من أنت ؟ قل من أنت ! يا رب ! يا رب ! ما أغرب هذا الشخص !

ـ انهم لصوص .

هتف ايفان آندريفتش وهو يخرج من تحت السرير :

ـ ناشدتك الله .. ناشدتك الله يا صاحب المعالي ، لا تناد رجالك ! لا تستدع أحداً يا صاحب المعالي ! ليس لهــذا أية فائدة ! لا داعي الى ذلك ! لن يكون عليك أن تطردني ! أنا لست ذلك الرجل ! أنا انسان طبيعي جدا . لقد وقع هذا كله خطأً يا صاحب المعالي ! سأشرح لمعاليك كل شيء فوراً .

قال ايفــان آندريفتش ذلك ، وشــخر وأجهش باكياً . ثم أردفه يقول :

ـ هي المرأة .. لا أعني زوجتي .. لا .. بل زوجة رجل آخر

•• أنا لست بمتزوج ! ولكن الزوج صـــديقي ، هو رفيـق من رفاق الطفولة •••

صرخ الشيخ يقول وهو يضرب الأرض بقدميه :

ـ أي رفيق من رفاق الطفولة ؟ أنت لص ، جئت هنا سارقا ! ما من رفيق من رفاق الطفولة !

ـ لا •• لست بلص يا صـاحب المعـالى • أنا حقاً رفيـق من رفاق الطفولة •• ذلك خطأ عارض •• لقد وصلت الى هنا مصادفة من المدخل الآخر •

ـ ولكنني أرى أيها السيد من أين خرجت الآن !

ـ يا صاحب المعالى • أنا لست ذلك الرجل • أنت مخطىء • أكرر أنك ترتكب خطأ قاسياً يا صاحب المعالى • انظر الىّ تفهم من بعض العلائم والامارات أنني لست بلص • يا صاحب المعالى ، يا صاحب المعالى (كذلك أخـذ يصيح ايفان آندريفتش ضامناً يديه احديهمـا الى الأخرى) وأنت يا سيدتي ، افهميني ••• أنا الذي خنقت آميشكا ••• ولكنني لست مذنبا• أحلف لك انني لست مذنبا • ان زوجتي هي المذنبـة • أنا رجل تعيس •• لقد شربت الصاب •

ـ ولكن اسمع : فيم يهمني أن تكون قد تجرعت كأسا •• ولعلك قد تجرَعت كئوسا عدة لا كأسا واحدة ؟ هذا ظاهر من حالتـك • ولكن كيف أمكنك أن تدخل الى هنا ؟

هكذا صرخ يقول الشيخ مضطرباً مرتعشاً ، ولكنه مقتنع مع ذلك بأن ايفان آندريفتش لا يمكن أن يكون في الواقع لصاً • وأردف يسأله :

ـ انني أسألك : كيف دخلت الى هنا دخول لص ؟

ـ لست لصاً يا صاحب المعالى . أحلف لك انني لست سارقا . ذلك كله ثمرة غيرتي . سوف اقص عليك كل شيء يا صاحب المعالى ، سوف اروى لك كل شيء أمينا صادقاً ، كما يروى ابن لابيه ... فانت في سنٍ يمكن أن تجعلك بمثابة أبي ؟

ـ ما هذا الذى تقول ؟ أى سن ؟

ـ لعلنى اسات اليك يا صاحب المعالى ! سيدة شابة فى ميعة الصبا .. ورجل في عمرك .. حقاً انه منظر يسر العين يا صاحب المعالى . ان المرء ليغتبط حقاً حين يرى اتحادا كهذا الاتحاد .. فى زهرة العمر . ولكن لا تستدع رجالك .. ناشدتك الله ، لا تناد أحداً ... انهم لن يفهموا شيئاً . أنا أعرفهم .. أقصد .. لا أريد أن أقول ان علاقاتى المعتادة هى علاقات بالخدم . أنا أيضا عندى خدم يا صاحب المعالى ، وهم لا ينفكون يسخرون ويستهزئون .. هؤلاء الحمير ! .. يا صاحب السمو .. لا أظن أننى أخطأت .. أعتقد أننى أخاطب أميراً .

ـ لا يا سيد ، لست تخاطب أميرا .. أنا ما أنا . أرجو أن لا تحاول استمالتى بالتملق قائلا « يا صاحب السمو » هذه .. كيف اندسست هنا أيها السيد ؟ كيف اندسست ؟

ـ يا صاحب السمو ، أقصد يا صاحب المعالى ... عفواً ... كنت أظن أنك صاحب سمو .. لقد أخطأت .. هذا يحدث . انك تشبه شبهاً كبيراً الامير كوروتكوخوف الذى تشرفت بلقائه عند صديقى السيد بوزيريف . هأنت ذا ترى أننى أعرف أمراء أيضاً . لقد صافحت يد أمير عند صديقى . فلا تستطيع أن تحسب أننى من تظن .. لست بسارق . لا تناد أحداً يا صاحب السعادة .. اذ ما الذى يمكن أن يحدث لو فعلت ؟

ـ ولكن كيف جئت الى هنا ؟ من أنت ؟

هكذا صرخت السيدة . فثنى زوجها على سؤالها قائلاً :

ـ نعم ، من أنت ؟

ثم التفت الشيخ الى زوجته يقول لها :

ـ ألا ما كان أغباني يا كنزي الغالي ! لقد تصورت أن قطتنا فاسكا هي التي كانت تعطس تحت السرير ، بينما كان هـذا الرجل هو الذي يعطس ! ...

ثم عاد الشيخ يسال ايفان وهو يضرب الارض بقدميه :

ـ من انت ؟ هلاّ تكلمت !

ـ لا استطيع ان اتكلم يا صاحب المعالي . انتظر ان تنتهي من كلامك .. انني اصغي الى اماز يحك الفكهه الظريفة : اما فيما يتعلق بي ، فتلك حكاية مضحكه جدا يا صاحب السعادة . ساقص عليك كل شيء . لاتستدع الناس . عاملني معاملة نبيلة . ليس بالامرالخطير أنني كنت تحت السرير، ولم أفقد بسبب ذلك شيئا من كرامتي . هي قصـة مضحكة جدا جـدا يا صاحبة المعالي (قال ايفان ذلك ملتفتا الى السيدة الشـابة بوجه ضارع متوسل) ... لا سيما أنت يا صاحبة المعالي ... لا بد أن تضحكي كثيرا متى عرفت القصة . تصوري رجلا غيورا على مسرح . انه أمامك الآن . هأنذا أذل نفسي ، بمحض ارادتي . صحيح أنني قتلت آميشكا ... ولكن ... يا رب ! أصبحت لا أعرف ماذا أقول .

ـ ولكن كيف دخلت الى هنا ؟

ـ استفدت من الظلمة يا صاحب المعالي ... يؤسفني جدا أنني فعلت ذلك ... سامحني يا صاحب المعالي . أسألك الصفح والمغفرة بكثـير من

المذلة . ما أنا الا زوج أسيء اليه . لا يخطرن ببالك يا صاحب المعـــالى أننى أنا العشيق . لست أنا العشيق . ان زوجتك امرأة فاضلة ، اذا سمحت لى بأن أقول هذا . انها طاهرة بريئة .

صرخ الشيخ وهو يضرب الارض بقدميه من جديد :

ـ ماذا ؟ كيف ؟ ماهذا الذي تجرؤ أن تقــوله ؟ هل فقدت عقلك ؟ ما هذه الجرأة فى الكلام على زوجتى ؟

وصاحت السيدة تقول وقد فاضت عيناها دموعا :

ـ هذا اللص ، هذا القاتل التي خنق آميشكا ! ... انه يجرؤ أيضا أن ...

ـ يا صاحب المعالى ، يا صاحب المعالى ، أنا لا أقول الا حماقات !

كان ايفان آندريفتش أقرب الى الموت منه الى الحياة .

وتابع يقول :

ـ ما أنا الا أبله معتوه ! انظر الىّ نظرتك الى عقل مضطرب! أحلف لك أنك ستخدمنى اذا فعلت ذلك .. كان يمكن أن أمد اليك يدى ولكننى لا أتجاسر .. اننى لم أكن وحدى .. أنا العم .. أنا عمه .. أقصـد انه يستحيل أن أُعدّ أنا العشيق ... رباه ! عدت أقول سخفا ... لا تزعلى يا صاحبة المعالى (كذلك صرخ ايفان آندريفتش مخاطبا الزوجة) . أنت سيدة . وأنت تعرفين ما هو الحب .. الحب عاطفة رقيقة مرهفة .. هأنذا أهرف أيضا .. أريد أن أقول فقط اننى رجل عجوز ، أقصد اننى رجل مسن لا شـــيخ هرم ، فلا يمكن والحالة هذه أن أكون عشيقك . ان رتشاردسون * هو العشيق .. أقصد لوفلاس .. آه ما أغبانى ! ولـكن

هأنت ترى يا صاحب المعالى انني رجل مثقف ، وأنني أعرف الادب • انك تضحك يا صاحب المعالى • وانني ســـعيد جـدا بأنني بعثت فيك الضحك يا صاحب المعالى ! آه ••• ما أسعدني باضحاكك •

صاحت المرأة تقول وهي تنفجر مقهقهة :

ـ انه لرجل مضحك حقا •

قال الشيخ مفتتنا بضحك امرأته :

ـ مضحك جدا • يستحيل ان يكون لصا يا حبيبتي • ولكن كيف دخلت الى هنا ؟

ـ أمر غريب في الواقع ••• أمر غريب جدا يا صاحب المعالى • هي رواية حقا • كيف ؟ في غياهب الليل ، في عاصمة ، رجل تحت سرير •• أمر غريب •• أمر شائق عجيب •• من نوع رينالدو رينالديني * من بعض الوجوه ! ولكن ليس هذا بشيء ••• ليس هذا كله بشيء ياصاحب المعالى •• ساقص عليك القصة كاملة • أما أنت يا صاحبة المعالى ، فسآتيك بكلب صغير آخر ، كلب صغير فريد في نوعه ••• له وبر طويل وقوائم قصيرة •• حتى ليعجز عن السير خطوتين دون أن يتعثر بوبره حين يركض فاذا هو يسقط • ويكفيه السكر طعاما • سأجيئك به يا صاحبة السعادة ، أحلف لك •••

لم تتمالك السيدة عن الانفجار ضاحكة ، فتهاوت على مقعدها مقهقهة :

ـ قه قه قه ! ان نوبة عصبية توشك أن تواتيني ••• هذا مؤكد • رباه ! كم هو مضحك هذا الرجل •

ـ حقا ••• كح كح كح ••• مضحك ومتسخ جدا ! ••• كح كح •••

ـ يا صاحب المعالى ! اننى فى ذروة السعادة • وددت لو أمد لك يدى مصافحا ، ولكننى لا أجرؤ يا صاحب المعالى • لقد عرفت كثيرا ، أنا أشعر بذلك ••• أما الآن فان عينىّ تتفتحان •• أنا واثق ان زوجتى بريئة طاهرة • لقد أسأت الظن فيها •

صاحت السيدة تقول وقد امتلأت عيناها دموعا من فرط الضحك :

ـ زوجته ؟ زوجته ؟

قال الزوج :

ـ متزوج ؟ أهو حقا متزوج ؟ ما كان ليخطر ببالى هذا أبدا •

ـ يا صاحب المعالى ••• ان امرأتى هى المذنبة ••• أقصد أننى أنا المخطىء ، لأننى شككت فيها ••• كنت أعلم أن موعدا قد ضرب هناك ، فوق ، فى الطابق الاعلى ••• كنت قد ضبطت رسالة تدل على ذلك ••• ثم أخطأت سبيلى الى الطابق الاعلى ، فاذا أنا هنا تحت السرير •

ـ هؤ ، هؤ ، هؤ ، هؤ !

ـ هأ ، هأ ، هأ ، هأ !

ـ هؤ ، هؤ ، هؤ ، هؤ !

لقد قهقه ايفان آندريفتش هو أيضا حتى كاد يختنق من الضحك • ليتكم تعلمون مدى سعادتى ! أوه ! ما أمتع أن أرى أننا جميعا على وفاق ، واننا جميعا مغتبطون ! وزوجتى أيضا بريئة كل البراءة • أكاد اكون على يقين من هذا • لأنها بريئة حقا ، أليس كذلك يا صاحب السعادة ؟

ضحك الشيخ ، ثم سعل :

ـ ها ! هأ ! هأ ! كح كح ...

واستطاع أخيرا بعد أن سيطر على ضحكه أن يقول :

ـ هل تعلمين مَنْ هي يا حبيبتى ؟

ـ من هي ؟ ها هأ ها ! من هي ؟

ـ هي تلك الجميلة الفاتنة التى تنظر نظرات رقيقة الى ذلك الشاب المتأنق . أراهن انها هي زوجته !

ـ لا يا صاحب المعالى ، انا متاكد أنها ليست هي ... متأكد كل التأكد ...

صاحت السيدة وقد كفت عن الضحك :

ـ فلماذا تضيع وقتك اذن ؟ هيا اسرع ، فعساك تلقاهما الآن معا ؟

ـ حقا يا صاحب المعالى ، سوف أطير طيرانا . ولكننى لن أجد أحدا يا صاحب المعالى . ليست هي . أنا أعرف ذلك سلفا . انها الان فى البيت .. أما أنا ... فما أنا الا رجل غيور أعمته الغيرة ... ما رأيك ياصاحبة المعالى ؟ هل تعتقدين أننى سأجدهما هنالك معا ؟

ـ هؤ ! هؤ ! هؤ ! ...

ـ هيء ! هيء ! هيء ! كح كح ...

قالت السيدة :

ـ أسرع ، أسرع ... وفى أثناء عودتك ، تعال الينا فقصَّ علينا ما جرى ... أو تعال غدا ، فذلك أفضل . وجيء بها الينا . اننى أريد أن أتعرف اليها .

ـ الى اللقاء يا صاحبة المعالى • الى اللقاء • سوف أجيء بها حتما ، وانني لسعيد بمعرفتك • يسرني ويسعدني أن تنتهي الامور هذه النهـاية التي لم تكن في الحسبان ، وأن تنحل المشكلة على أفضل نحو ممكن •••

ـ والكلب الصغير ذو الوبر الطويل ! اياك أن تنسى الكلب الصغير قبل كل شيء •

ـ سأجيئك به يا صاحبة المعالى ، سأجيئك به حتما ، سأجيئك به •

كذلك قال ايفان آندريفتش عائدا الى الغرفة بسرعة ، لأنه كان قد انصرف بعد أن ودّع • وتابع يقول :

ـ سأعود بالكلب الصغير حتما • انه حلو جدا • كأن صانع حلوى قد صنعه من سكر • وسترين • انه يركض فيتعثر بشعره فيسقط • هو كذلك • أؤكد لك • حتى لقد كنت أقول لزوجتي : « لماذا هو يســـقط دائما على الارض يا عزيزتي ؟ » فقالت تجيبني : « لأنه صغير جدا » • انه من سكر يا صاحبة المعالى • انني سعيدا جدا بمعرفتكم •

قال ايفان اندريفتش ذلك ثم حيّا وخرج •

ـ يا سيد ، يا سيد ! انتظر ! ارجع !

هكذا نادى الشيخ صاحبنا ايفان آندريفتش • فعاد ايفان آندريفتش مرة ثانية الى الغرفة •

ـ اسمع ! انني لم ألاحظ قطتنا فاسكا ؟ ترى هل رأيتها حين كنت تحت السرير ؟

ـ لا ••• لم ألاحظها يا صاحب المعالى • على كل حال سأكون سعيدا جدا ، وسيشرفني أن أعرفها •

ـ هى أيضا مصابة بزكام ، وما تنفك تعطس •• يجب جلدها •

ـ طبعا يا صاحب المعالى • العقوبات التاديبيـــة ضروريه للحيوانات الاهلية •

ـ ماذا ؟

ـ اقول ان العقوبات التاديبية ضرورية للحيوانات الاهلية •

ـ طيب اذهب • بارك الله فيك • كنت اريد فقط ان •••

حين وجد ايفان اندريفتش نفسه فى الشارع ، ظل ســاكنا جامدا خلال زمن طويل ، كانسان يتوقع ان يتهاوى على الارض من لحظة الى اخرى بسكتة قلبية • نزع قبعته ، وجفف العرق البارد عن جبينه ، وقطب حاجبيه ، وبدا عليه التفكير والتامل ، ثم اسرع راكضا فى اتجاه بيته •

فما كان أشد ذهوله حين علم فى منزله أن جـلافيرا قد عادت من المسرح منذ زمن طويل • وكانت قد عانت آلاما شـــديدة فى أسنانها ، وطلبت طبيبا ، وعالجت نفسها بعلق • وكانت جلافيرا راقدة فى سريرها تنتظر ايفان آندريفتش •

لطم ايفان آندريفتش جبينه • ثم ذهب الى مخدع زوجته •

ـ أين تقضى وقتك يا هذا ؟ هلاً نظرت الى نفسك فرأيت فى أية حالة أنت ! يا لوجهك من وجـه ! أين كنت ! أين دسست نفسك ؟ ألا فكّر قليلا أيها السيد ؟ امرأتك تموت وتضرب فى المدينة كلها باحثةً عنك عسى أن تعثر لك على أثر ! أين كنت ؟ أكنت تريد أيضا أن تقبض علىّ متلبسةً بالجرم المشهود ؟ أكنت تحـاول أن تمنعنى من الذهاب الموعد المضروب ؟ الموعد المضروب مع لا أدرى من ! •• عيب أيها السيد عيب ••• لسوف يشير اليك الناس بالاصابع قريبا !

قال ايفان آندريفتش :

ـ كنزى الغالى !

ولكنه كان من فرط الانزعاج والحرج أنه اضطر أن يخرج منديله من جيبه . لقد قطع جملته التى بدأها ، فلا هو يعثر على فكرة يعبر عنها ، ولا هو يجد كلمة يقولها ... فما كان أشد ذهوله ، وذعره ، ورعبه ، حين سحب منديله من جيبه ، فاذا بالمرحوم آميشكا يسقط على السجادة . لم يكن قد لاحظ أنه حين كان يزحف تحت السرير ، وهو فيما هو فيه من كرب ، قد دسّ اميشكا في جيبه . كان ايفان اندريفتش يرجو من ذلك أن يمحو كل أثر من آثار جنايته ، وأن يهدّم كل دليـل يبرهن على جرمه ، وأن يتفادى بذلك العقاب الذى يستحقه .

صاحت الزوجة تسأله :

ـ ما هذا ؟ كلب صغير ميت ؟ من أين جئت به ؟ ماذا فعلت ؟ يارب! من أين هو آتٍ ؟ ماذا صنعت ؟ أين كنت ؟ أجب بسرعة : أين كنت ؟

قال ايفان آندريفتش وهو يحس أنه ميت أكثر من آميشكا :

ـ كنزى الغالى ... عزيزتى

ولكننا سندع بطلنا هنا للمرة القادمة . لسوف أكمل ، فى يوم من الأيام ، أيها القراء الأعزاء ، قصة انواع الشقاء وضروب المحن التى رمى بها القدر صاحبنا ايفان اندريفتش . اعترفوا على كل حال بأن الغيرة آفة لا تغتفر ، بل بليـه من البلايا .

حواش

تقـــديم

الصفحة

١٠ ★ يعدد دوستويفسكى هنا سلسلة من الموضوعات الرومانسية : « أرنست تيودور آميرى هوفمان » (١٧٧٦ ـ ١٨٢٢) : أحد كبار الشعراء الرومانسيين الألمان ؛ « ليلة سان بارتلمى » تمثل مذبحة البروتستانت فى باريز فى ٢٤ آب (اغسطس) ١٥٧٢ ، وقد صورها الشاعر بروسبر ميرميه فى « وقائع عهـد شارع التاســع ؛ « ديان فرنون » : بطلة رواية والتر سـكوت التى عنوانها : « روب روى » ؛ الاستيلاء على قازان من قبل حنـا الرابع ســنة ١٥٥٢ ؛ « كلير موفبراى » : احـدى شخصيات والتر سكوت في روايته « أمواه سان رومان » ؛ « ايفى دينز » ؛ احدى شخصيات والتر سكوت أيضا فى « أرض ميد لوثيان » ؛ « مجمع الأحبار » الذى أمر باحراق جان هوس سنة ١٤١٥ ؛ مشهد يقظة الأموات فى أوبرا « روبير الشيطان » من تاليف مايربير (١٨٣٠) ؛ قصـيدة جوته « مينا » ترجمها الى الروسية الشاعر جوكوفسكى ؛ « برندا » قصيدة رومانسية للشــاعر الأعمى ايفان كوزلوف (١٧٧٩ ـ ١٨٤٠) ؛ الصالون الأدبى للكونتيسة الكسندرين فورونتزوفاـداشكوفا)١٨١٨ ـ ١٨٥٦) ؛ « دانتون » أحد كبار رجال الثورة الفرنسية ؛ « كليوباتره » وغرامها » موضوع قصيدة بوشكين التى عنوانها : « ليالى مصر » ؛ « البيت الصغير فى كولومنا » : من أعمال بوشكين أيضا ، حيث يصف الشاعر أناساً فقراء الحال يعيشون فى ضاحية من ضواحى سان بطرسبرج •

نيتوتشكا

٢٦ ★ اســم نزفانوفا مشتق من النعت نزفانوى ومعناه من جاء بغير دعوة » • وكثيرا ما كان يطلق على أولاد السفاح •

الصفحة

٢٨ ★ كان كبار السراة من الروس فى القرن الثامن عشر وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر يقيمون فى أملاكهم مسارح وينشئون جوقات موسيقية تتألف غالبا من خـدم وأقنان ، وأحيانا من أحرار .

٣٦ ★ ياجور ، هو الشكل الشعبى لاسم جيورجى ، ياجورى .

٥٦ ★ ترسيت : شخصية فى الياذة هوميروس تتصف بسعة الحيلة وسلاطة اللسان .

الليـالى البيضـاء

٢٧٨ ★ شارع نفسكى ، وحديقة الصيف ، والأرصفة : أماكن ثلاثة للتنزه فى بطرسبرج .

٢٧٨ ★ « قناة فونتانكا » تجتاز وسط المدينة .

٢٧٩ ★ « بألوان امبراطورية السماء » : كان اللون الأصفر هو اللون الرسمى للصين .

٢٨٠ ★ جزر كامنى وآبتكارسكى وبترهوف : أماكن اصطياف قريبة من بطرسبرج ، يصطاف فيها الأغنياء ، أما بارجولوفو ، فهى على مسافة خمسة عشر كيلو متراً من المدينة ، فى الطريق المؤدى الى فنلنده .

٣٠٠ ★ « الهة الأحلام » ، يصفها دوستويفسـكى هنا بالألفاظ التى يصفها بها الشاعر الرومانسى فاسيلى جوكوفسكى (١٧٨٣ - ١٨٥٢) .

٣٠١ ★ راجع حاشية الصفحة ١٠ .

٣١٣ ★ « ايفانهويه » ، الرواية الشهيرة التى كتبها والتر سكوت ، وقد ترجمت الى الروسية مراراً .

٣١٤ ★ « حلاق اشبيليه » (١٨١٦) : لقد مثلت أوبرا روسينى هذه كثيرا فى روسيا .

الصفحة

٣١٥ ★ « روزين » : اشارة الى مشهد من حلاق اشبيليه ، وفى ذلك المشــهد تتولى روزين نقل رسالة الى فيجارو من وراء ظهر ولى أمرها .

بروخارتشــين

٣٥٤ ★ «بروخارتشين » اسم مشتق من فعل Prohartchit ومعناه « أنفق » ؛ فيكون اسم هذا الرجل البخيل : السـيد « منفق » .

٣٦٣ ★ فرضت الامتحانات المهنية على الموظفين الذين لايحملون الشهادات سنة ١٨٠٩ ، من قبل الوزير سبيرانسكى ، ولكن تطبيقها أهمل بعد ذلك .

٣٦٦ ★ سوق تولكوتشى (ومعناها سوق التزاحم أو التدافع) .

٣٨٩ ★ ياروسلاف ايلتش هو مأمور قسم الشرطة بالحى .

الجــــارة

٤٣١ ★ ستنكا (ستيبان) رازين ، زعيم ثورة القوزاق والفلاحين سنة ١٧٦١ .

٤٣٨ ★ ياروسلاف ايلتش هو مأمور قسم الشرطة بالحى .

٤٤٣ ★ « كوشماروف » : اسم مشتق من الكلمة الفرنسية Cauchmar ومعناها الكابوس وقد دخلت اللغة الروسية .

٤٤٦ * « فى العقوبة : المقصود هنا العقاب الكهنوتى ، فالذين يقتلون بغير تعمد كانوا يعاقبون هــذا العقاب ، فيمنعون من تنــاول القربان المقدس ومن دخول الكنائس عدة سنين .

٤٤٩ ★ « فيليم ايميليا نوفتش » : لعله مدير الشرطة بالعاصمة .

٥٠٨ ★ « تلميذ الســاحر » ، أســطورة من القرون الوســطى عرفهــا دوستويفسكى عن طريق قصيدة جوته التى ظهرت سنة ١٧٩٧ بهذا العنوان .

المهــرج

الصفحة

٥١٣ ★ « المهرج » (بولزونكوف) : اســــم مشتق من كلمة بولزون ومعناها « مذل نفسه » ، ففى الاســم اشارة الى الصفة التى اختارها المهرج لنفسه بارادته ·

٥٢٤ ★ « ماريا المصرية » ، نموذج الخاطئة التى غفر لها ·

٥٢٨ ★ أولى كلمات قصــيدة ك · ماتيوشكوف التى عنوانها « فراق » نظمها الشاعر سنة ١٨٦٢ ثم لحنت واصابت رواجاً كبيراً ·

البطل الصغير

٥٨٩ ★ بنديكت هو عشيق بياتريس فى ملهاة شكسبير « ضجة كبيرة فى غير طائل » ·

٥٩٦ ★ ايليا مورومتس ، بطل من ابطال الملاحم الروس ، أقوى فرسان سان فلاديمير · قضى الثلاثين الأولى من سنى عمره كسيحا فى قريتــه كاراتشاروفو ، ثم شفته ، بمعجزة ، ملائكة متنــكرة بمظهر حجاج ·

٦٠٢ ★ الفارس النبيل « دولورج » هو بطل قصيدة شيللر « القفاز » ، وقد ترجمها الى الروسية جوكوفسكى ؛ والفارس «توجنبرج» بطل آخر فى قصيدة لشيللر ·

قصــة فى تسع رسائل

٦٢٠ ★ العنوان الأصــلى : « الفكر يجلب الشقاء » ، وهى مسرحيــة شهيرة من تاليف جريبويدوف ، كتبها سنة ١٨٣٠ ، وكانت تمثل كل خريف فى « مسرح الكسندرين » بسان بطرسبرج ·

٦٢٢ * « خمسمائة نفس » : الى أن الغيت القنانة سنة ١٨٦١ كان تقدر قيمة أرض من الأراضى لا بمساحتها بل بعدد « نفوسها » ، أى بعدد الأقنان البالغين الخاضعين للضرائب ·

الصفحة

٦٢٤ ★ سمبرسك ، مقاطعة الفولجا ، وطن كارامازين وجوتشاروف وأوليانوف لينين ، وتسمى الآن أوليانوفسك •

زوجة آخر •• وزوج تحت السرير

٦٦١ ★ روايات بول دوكوك ترجمت الى الروسية وراجت قراءتها رواجا كبيراً • وكان الناقد الشهير بيلنسكي يقدر فيها اتجاهها الواقعي •

٦٨١ ★ كانت الأوبرا الايطالية رائجة في سان بطرسبرج في ذلك العصر وفي خلال فصل الشتاء من سنتي ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ حظيت مغنيتان كبريان بنجاح كبير فقسمتا الناس حزبين فبعضهم أنصار تيريزا جيوجلي بورسي ، وكانوا يلقبون « البورسيين » ، وبعضهم أنصار ارمينيا فريزوليني وهم « الفريزوليننيين » •

٦٨٢ ★ يستشهد دوستويفسكي بأقوال هاملت بطل مسرحية شكسبير (الفصل ٣ ، المشهد ٥) وقد عرفها في الترجمة الروسية التي قدمها نيقولاس بولفوي سنة ١٨٣٧ •

٦٩٧ ★ « فاسكا ، فاسنكا » : من الأسماء التي تطلق على القطة •

٧١٨ ★ يخلط ايفان آندرفتش هنا بين اسم المؤلف الانجليزي رتشاردسون وبين اسم لوفلاس الشخصية المغوية في الرواية التي كتبها رتشاردسون بعنوان « كلاريا هارلو » ؛ وقد ترجمت هذه الرواية الى الروسية وقرئت كثيراً •

٧١٩ ★ رينالدو رينالديني ، بطل رواية ألمانية كتبها فولبيوس (١٧٦٢ ـ ١٨٢٧) وترجمت الى الروسية وانتشرت في روسيا انتشارا كبيرا في تلك الآونة • والبطل يمثل رجلا كريما جوادا من اللصوص قطاع الطرق •

فهـرس

الموضوع	الصفحة

الأعمال الأدبية الكاملة